تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾
صدق الله العظيم

من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة

الجزء الأول

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربية

بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

عيسى، عبد الجليل.
تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم/ عبد الجليل عيسى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٦٠٤ص ؛ ٢٨ سم .
تدمك ١ ٥٢٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القرآن .
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧١٣٥/ ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 529 - 1
ديوى ٢٢٠



■ الكتاب: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم

■ المؤلف: فضيلة الشيخ عبدالجليل عيسى - شيخ كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف سابقا.

■ الطبعة الأولى: ١٩٥٨.

■ الطبعة الثانية: ١٩٨٠.

■ الطبعة الثالثة: ٢٠٠٩.

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

■ الغلاف والإخراج الفنى: أميمة على أحمد.

■ تصحيح: محمد صابر - أحمد حسن

■ مراجعة: سعيد عبدالفتاح - أميمة على

مقدمة الطبعة الأولى
(عام ١٩٥٨م، ١٣٧٦هـ)



والصلاة والسلام على خاتم النبيين: سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإن القرآن هو كتاب الله الكريم الذى أنزله على رسوله الأمين مهيمنا على جميع ما أنزل قبله على الرسل أجمعين، فيه شفاء لما فى الصدور، وهدى للسارى ونور. فلذا عُنِىَ العلماء قديما وحديثا بشأنه، ووضعوا العلوم المختلفة لخدمته، وكان شأن المسلمين فى كل عصر وبلد، الرغبة الملحة فى حفظه وتلاوته، ومداومة النظر فيه، لاستنباط ماحواه من الأحكام والعبر، ولما اتسعت رقعة الإسلام، ودخله أمم تختلف فى لغاتها وطرق كتابتها، وتعذر على كثير من متعلميها قراءة القرآن، وهى على رسم المصحف الإمام، فلم ينتفع بتلاوته على الوجه الصحيح إلا النذر اليسير، ممن انقطع لتعلم طريقته، أو أمضى زمنا ليس بالقصير فى معالجة قراءته، لذلك رغب كثير من المسلمين فى كتابته على طريقة الإملاء الحديثة، فتصدى لمحاربة هذه الرغبة، مؤمنون بصيرون بالعواقب، غيورون على قدسية الكتاب الكريم، وكان الصواب حليفهم فى محاربة هذه الرغبة الطائشة، لأن القرآن هو عمدة هذا الدين، وطرق الإملاء الحديثة تختلف باختلاف أقطار المسلمين، بل قد تختلف باختلاف جوانب القطر الواحد، فإذا فُتح باب كتابته بالإملاء الحديث تسرب له ما تسرب للكتب السابقة من التحريف والتغيير، ونال من قدسيته ما قد نال من قدسيتها، فأثر فى قيمتها الدينية والعلمية.

لما كان كل هذا، وكنا ذات يوم فى مجلس، دار فيه الحديث حول الدين وطرق خدمته، فتطرق البحث إلى هذه الناحية المذكورة آنفا. وكان ممن ضمهم هذا المجلس الرجل المؤمن الذى أغدق الله عليه الكثير من نعمه، وتوّجها بنعمة التوفيق لكل ما يقربه إلى ربه، هو السيدأحمد حامد سراج الدين فسألنى: وهل من حل لهذه العقبة التى لو ذللت، لانتفع بقراءة كتاب الله خلق كثير؟ فقلت: إنه قد عرض لى حل يجمع بين المصلحتين: مصلحة القارئ فى

التسهيل عليه، ومصلحة المحافظة على الرسم العثمانى الذى توارثه المسلمون هذه القرون الطويلة. ولما شرحتها له أعجب بها. وألح فى سرعة إبرازها للوجود، واعدًا فى سبيل تحقيقها ببذل كل مجهود. ولما صممنا العزم على الإنجاز، رغب بعض الإخوان أن ينضم إلى تسهيل قراءة القرآن تيسير فهمه على القارىء العادى، ولو باختيار تفسير مختصر من التفاسير الكثيرة يوضع على هامش المصحف، فاستعرضنا كل التفاسير، فلم نجد من بينها ما يفى بالمقصود، إذ وجدنا منها ما وضع للخاصة من العلماء، كتفسير البيضاوى، والفخر الرازى، ومنها ما حاول صاحبه الارتفاع بعبارته عن مستوى القارئ العادى، وجعل أبحاثه كلها تدور حول إثبات إعجاز القرآن، كتفسير الكشاف، ومنها ما أطال صاحبه فيه تطويلا مملا كتفسير الطبرى أو اختصره اختصارًا مخلا كتفسير الجلالين، ومنها ما حشاه صاحبه بالأبحاث النحوية والصرفية أو الفقهية، وغير ذلك. كتفسير أبى حيان والقرطبى. ومنها ما ملأه صاحبه بغرائب الحكايات وأباطيل الإسرائيليات التى دسها اليهود الذين استتروا وراء إظهارهم الإسلام، وكادوا لكتابه الكريم، ونسبوا لكبار الصحابة فى فهمه آراء باطلة، شوهت جماله، وكانت مادة خصبة لأعداء الإسلام. ومن هؤلاء اليهود: (كعب الأحبار) و(وهب بن منبه) بعد ذلك استقر الرأى على أن يعهد إلينا بوضع تفسير مختصر يوضح معنى اللفظ الغريب، وما لابد منه فى فهم التركيب. على أن تبعد عنه ما استطعنا العبارات الاصطلاحية، والخلافات الطائفية والمذهبية، وإذا اضطررنا لذكر بعض الاصطلاحات فإننا لا نذكرها إلا فى مقدمة الصفحة بين تفسير المفردات، ولكن عندما نقول (المعنى): فإننا حرمنا على أنفسنا ذكر شىء من ذلك مطلقا وقد تجنبنا أيضا زخرفة العبارة، محافظة على محاكاة المعانى التى تضمنتها الحروف، أو أشارت إليها الأساليب حتى يتجلى المعنى الأصلى بارزا ليس عليه حجاب، فإذا رأيتنا نفسر قوله تعالى «إياك نعبد» صفحة (٢) بقولنا (لا نعبد غيرك) تعلم أننا فهمنا هذا الحصر من تقديم المفعول «إياك». وإذا فسرنا قوله تعالى: ﴿ثم فى النار يسجرون﴾ الآية (٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ بقولنا (ثم يدخلون فى النار لتحرق ظاهرهم وباطنهم) تعلم أننا أخذنا إدخالهم النار من الحرف (فى) وإحراق باطنهم من قوله (يسجرون). وإذا قلنا فى تفسير قوله تعالى ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ الآية (٢) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ (والحال أن الكفار من أهله استحلوا إيذاءك أيها النبى.. إلخ) تعلم أن الواو فى «وأنت حل» تدل على أن الجملة التى بعدها حال مما قبلها.. وهكذا فى كل ما كان فى هذا النوع.

وقد رأينا لدواعى الاختصار. وضيق حيز الصفحات مع الرغبة فى إيفاء بعض المقامات حقها، بتدعيمها بالأدلة من القرآن نفسه، أن نكتفى بذكر رقم الآية وسورتها أو صفحتها من المصحف نفسه بدل ذكر ألفاظ الآيات كلها. ولما كان من المقرر عند العلماء أن خير تفسير لكلامه تعالى هو كلامه نفسه، فإنا لم نأل جهدا فى الإحالة على كل ما يوضح معنى الكلمة، أو يعين المراد منها. وقد نتوسع فى ذلك أحيانا ليتمكن مَنْ يريد تكوين فكرة فى موضوع معين

من تحقيق رغبته، فإذا رأيت كثرة الإحالات فى موضوع تعتبره فى نظرك واضحا. فلا تشغل نفسك بتتبع الإحالات، وامض فى سبيلك. وأعلم أن المقصود بها غيرك.

وقد نفسر المفرد فى مكان بغير ما نفسره به فى مكان آخر، نشير بذلك إلى أن لعلماء السلف فى هذا اللفظ رأيين، ونترك للمطَّلع حرية أختيار ما تطمئن إليه نفسه منهما.

وينبغى أن يعلم أن كل الذى حاولناه فى هذا المختصر هو أننا أعددنا مصباحا صغيرا يكشف بعض معالم الطريق لمن أراد استجلاء بعض أسرار كتاب الله تعالى. وذلك أنا نعلم أن القرآن قد تعرض لعلوم شتى، من: تشريعية، واجتماعية ، وخلقية، وتاريخية، وطبية، وزراعية، وفلكية، وغير ذلك.

كما نعلم أن لهذه العلوم رجالا تخصصوا فيها، ومن المؤكد أن يكون من بينهم مَنْ إذا وضعنا أمامه هذا المصباح الذى يبرز له المعانى الأصلية من ثنايا العبارات المعجزة واضحة ليس دونها حجاب. مَنْ قد يخرج من أسرار القرآن ومعجزاته ما خفى على كثير غيره، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وقد بذلنا فى الوصول إلى ذلك جهد المقلين، راجين من الله العلى القدير أن يغفر لنا خطايانا، وأن يدخلنا فى زمرة مَنْ شملهم عفوه، إنه واسع المغفرة جوَّاد كريم.

وقد وضعنا كل كلمة تخالف فى الرسم الإملاء المعاصر رقما، ووضعنا أمام هذا الرقم فى أدنى الصفحة رسمها الموافق للإملاء الحديث. وفيما يلى هذا نموذج لبعض الكلمات بالرسم الوارد فى المصحف الإمام وما يقابلها بالرسم الحديث.

وبهذا نكون قد جمعنا بين المحافظة على رسم المصحف الإمام، وبين تسهيل قراءته على القارئين، وإذا رأيت بعض كلمات القرآن فى أثناء الشرح مكتوبة بالإملاء الحديث، فاعلم أن هذا خاص بالكتابة فى أثناء التفسير فقط، ولا يجوز أن يعمل ذلك فى صلب المصحف نفسه وإلا نكون قد وقعنا فى الخطر المشار إليه سابقا.

وقد وضعنا الشرح بالهامش مبدوءا ببيان معانى المفردات اللغوية، وبعد الفراغ منها، نبدأ فى بيان المعنى بقولنا: (المعنى)..

والله الموفق للصواب.

عبدالجليل عيسى

نموذج من الكلمات المكتوبة بالرسم العثمانى مع مقابلتها بالرسم العثمانى يبين صعوبة صحة النطق بالكلمة على وجهها الصحيح .

الكلمة بإملاء المصحف	رقم الصفحة	رقم الآية	الكلمة بإملاء المعاصر	الكلمة بإملاء المصحف	رقم الصفحة	رقم الآية	الكلمة بالإملاء المعاصر
إسرءيل	٩	٤٠	إسرائيل	وملايه	٢٩٩	٩٧	وملئه
الصلوة	٩	٤٣	الصلاة	التى	٣١٠	٥٠	اللاتى
الزكوة	٩	٤٣	الزكاة	نبؤا	٣٣٠	٩	نبأ
الحيوة	١٧	٨٥	الحياة	الضعفؤا	٣٣٢	٢١	الضعفاء
اليل	٣١	١٦٤	الليل	وَنَـا	٣٧٦	٨٣	ونأى
التورـة	٦٣	٣	التوراة	يبنؤمّ	٤١٤	٩٤	يابن أُم
ومأوـه	٩٠	١٦٢	ومأواه	فَسـَلوا	٤٢١	٧	فاسألوا
الربوا	١٣٠	١٦١	الربا	أفإين	٤٢٤	٣٤	أفإن
وءَاتكم	١٤٠	٢٠	وآتاكم	سأوريكم	٤٢٤	٣٧	سأريكم
وءَاتينه	١٤٦	٤٦	وآتيناه	أَيُّهَ	٤٦٢	٣١	أيها
عَلَم	١٥٩	١٠٩	علام	مال هذا	٤٧١	٧	مالهذا
أَنبَؤُا	١٦٢	٥	أنباء	لأاذبَحَنَّهُ	٤٩٦	٢١	لأذبحنه
وينئون	١٦٦	٢٦	وينأون	المَلَؤُا	٤٩٧	٢٩	الملأ
طير	١٦٨	٣٨	طائر	شركآءى	٥١٦	٦٢	شركائى
بالغَدَوة	١٧٠	٥٢	بالغداة	أَسَـوا	٥٣٢	١٠	أساءوا
أرَـك	١٧٤	٧٤	أراك	السُّوأى	٥٣٢	١٠	السوء
هَذَـن	١٧٥	٨٠	هدان	يَبدؤا	٥٣٢	١١	يبدأ
شركؤا	١٧٨	٩٤	شركاء	شُفَعَؤُا	٥٣٢	١٣	شفعاء
دَعْوَهم	١٩٢	٥	دعواهم	ولقَآى	٥٣٢	١٦	ولقاء
يبنى ادَمَ	١٩٥	٢٦	يا بنى آدم	البلـؤا	٥٩٣	١٠٦	البلاء
ءَايتى	١٩٧	٣٥	آياتى	يـداود	٦٠٠	٢٦	ياداود
بسيمهم	١٩٩	٤٦	بسيماهم	النَّجَوة	٦٢٣	٤١	النجاة
نشؤا	٢٩٧	٨٧	نشاء	دُعَؤا	٦٢٤	٥٠	دعاء

مقدمة الطبعة الثانية

(عام ١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم النبيين: سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن القرآن هو كتاب الله الكريم، الذى أنزله على رسوله الأمين، مهيمنا على جميع ما أنزل قبله على الرسل أجمعين. فيه شفاء لما فى الصدور، وهدى للسارى ونور، فلذا عنى العلماء قديما وحديثًا بشأنه، ووضعوا العلوم المختلفة لخدمته. وكان شأن المسلمين فى كل عصر وبلد، الرغبة الملحة فى حفظه وتلاوته، ومداومة النظر فيه، لاستنباط ما حواه من الأحكام والعبر. ولما اتسعت رقعة الإسلام، ودخلته أمم تختلف فى لغاتها وطرق كتابتها، وتعذر على كثير من متعلميها قراءة القرآن، وهو على رسم المصحف الإمام، فلم ينتفع بتلاوته على الوجه الصحيح إلا النزر اليسير، ممن انقطع لتعلم طريقته، أو أمضى زمنا ليس بالقصير فى معالجة قراءته. لذلك حاول بعض المسلمين كتابته على طريقة الإملاء العادية. فتصدى لمحاربة هذه الفكرة مؤمنون بصيرون بالعواقب، غيورون على قدسية الكتاب الكريم. وكان الصواب حليفهم فى محاربة هذه الرغبة الطائشة. لأن القرآن هو عمدة هذا الدين. وطرق الإملاء العادية تختلف باختلاف أقطار المسلمين، بل قد تختلف باختلاف جوانب القطر الواحد. فإذا فتح باب كتابته بالإملاء المعتاد عند كل طائفة من طوائف المسلمين، تسرب إليه ما تسرب للكتب السابقة من التحريف والتغيير، ونال من قدسيته ما نال من قدسيتها، وأثر فى قيمتها الدينية والعلمية.

لما كان كل هذا، رأينا أن نجمع بين الأمرين: التسهيل على القارئ، والمحافظة على أصل رسم المصحف الإمام؛ فوضعنا على كل كلمة تخالف الرسم المعتاد رقما، ووضعنا أمام هذا الرقم فى هامش المصحف الكلمة بالرسم المعتاد.

ومما جاء موافقا للرسم العادى تارة، ومخالفا أخرى، تبعا لاختلاف كتاب الوحى كما سيأتى، كلمات فى آخرها تاء التأنيث التى تكتب فى المعتاد تاء مربوطة فقد وردت فى المصحف أحيانا تاء مربوطة، وفقا للإملاء المعتاد، وأحيانا تاء مفتوحة من ذلك كلمات:

نعمة: وردت بتاء مربوطة فى آيتى ١٧١ صفحة ٩١ و ٩ صفحة ٥٥٠ وبتاء مفتوحة. كما فى آيتى ١٠٣ صفحة ٧٩، ٣١ صفحة ٥٤٣.

رحمة: وردت بتاء مربوطة فى آية ٥٢ صفحة ٢٠٠، وبتاء مفتوحة كما فى آيات ٥٦ صفحة ٢٠١، ٧٣ صفحة ٢٩٥، ٥٠ صفحة ٥٣٧، ٣٢ صفحة ٦٥٠.

امرأة: وردت بتاء مربوطة فى آية ١٥٨ صفحة ١٢٤، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٣٥ صفحة ٦٨، ٣٠ صفحة ٣٠٧.

سنة: وردت مربوطة فى آية ٧٧ صفحة ٣٧٥، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٣٨ صفحة ٢٣٢، ٤٣ صفحة ٥٧٨.

لعنة: وردت بتاء مربوطة فى آية ١٦١ صفحة ٣١، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٦١ صفحة ٧٢، ٧ صفحة ٤٥٧.

ومنها كلمة (مما) فقد وردت فى آية ٣ صفحة ٢٢٧ (مما رزقناهم) وجاءت (من ما) فى آية ١٠ صفحة ٧٤٤.

شجرة: وردت بتاء مربوطة فى آية ٣٥ صفحة ٨، وبتاء مفتوحة كما فى آية ٤٣ صفحة ٦٥٩.

ومما جاء مضطربًا أيضًا كتابة الحروف المبتدئة بها بعض السور فبينما نرى فى سورة مريم (كهيعص) متصلا بعضها ببعض وعليها رقم آية، نجد أول سورة الشورى (حم) (عسق) آيتين.

رسم المصحف

لماذا خالف الرسم المعتاد فى بعض كلماته؟

يسأل كثيرون عن سبب مخالفة الرسم المعتاد فى بعض كلمات المصحف.

وقد تعرض لبيان ذلك جمهرة كبيرة من العلماء، وحاصل ما ثبت من طريق صحيح أن النبى ﷺ عندما كان ينزل عليه شىء من القرآن يدعو برجل ممن يعرفون الكتابة من العرب، وكانوا قلة بين أمة أمية. عولت فى المحافظة على تراثها على قوة الذاكرة، فكانت صدورهم هى دواوينهم. يدعوه ﷺ ويملى عليه ما نزل. ويقول له اكتب هذه الآيات، فى مكان كذا من السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، فيكتب على ما تيسر له من جلد حيوان أو عظمه، أو كتفه، أو قشرة

جريد، أو حجر رقيق أملس، إلى غير ذلك. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كانت كل هذه الصحف محفوظة عند عائشة، أم المؤمنين رضى الله عنها.

وبعد أن جاور ﷺ ربه، وتولى أبو بكر الخلافة، ووقعت بين المسلمين وبين الكفار حروب شديدة، كان منها حرب (اليمامة) المشهورة التى قتل فيها كثير ممن يحفظون القرآن، عند ذلك جاء عمر بن الخطاب إلى أبى بكر وقال له: إن القتل قد اشتد فى حفاظ القرآن. وإنى أخشى أن يشتد القتل فيهم فى مواطن أخرى. فيفنى أشياخ الحفاظ، فأرى أن تجمع من بقى منهم. وتجمع معهم كتاب الوحى، ويراجعوا ما كتب على ما هو محفوظ فى الصدور: ثم يحفظ وعند ذلك نأمن على القرآن من الضياع. فدعا أبو بكر زيد بن ثابت، وقال له: إنك شاب عاقل، لا نتهمك. وكنت ممن يكتب الوحى للنبى ﷺ. فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: فقمت أجمعه مما كتب عليه فى زمن النبى ﷺ وأقارنه بما فى صدور الحفاظ. فلما فرغت قدمته لأبى بكر رضى الله عنه، فأودع هذه الصحف عند ابنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها. وتسمى هذه (الكتبة الأولى).

ولما مات أبو بكر، وتولى عمر بن الخطاب نقلت تلك الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها.

ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة - وكان حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فى حرب (أرمينية). وكان معه جند من الشام، والعراق، والحجاز، واختلفوا فى قراءاتهم. وتعصب كل فريق منهم لما يقرأ. حتى إن الرجل منهم ليقول للآخر: إن قراءتى خير من قراءتك. وكفر بعضهم بعضا وتلاعنوا - فانزعج لذلك حذيفة. وبمجرد وصوله المدينة راجعًا، توجه إلى عثمان قبل أن يذهب إلى بيته. وقال له: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك. ثم وصف له ما حدث، وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما أختلف اليهود والنصارى.

فجمع عثمان وجوه الصحابة، وكان من بينهم على بن أبى طالب رضى الله عنه وعرض عليهم الأمر: فاتفقوا جميعا على أن يجمع ما سجل فى عهد أبى بكر ويكون هو المرجع الوحيد. فأرسل عثمان إلى حفصة، وقال لها: أرسلى لنا الصحف ننسخها فى مصاحف ثم نردها إليك. فأرسلتها إليه. فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها كما هى فى مصاحف. قال الطبرى: إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع. وتسمى هذه (الكتبة الثانية). وأرسل عثمان إلى كل قطر نسخة من هذه النسخ. كما هو مبين فى آخر هذا المصحف تحت عنوان (تعريف بهذا المصحف) صفحة ج. وأمر بحرق كل ما كتب من القرآن خلاف ذلك فأحرقت جميعها. هذا ما حصل فى سبب كتابة القرآن فى تلك الصحف.

وقبل أن نغادر هذا المقام، نرى أن من الواجب علينا لمناسبة ما بذل من المحافظة على كتاب الله. إنصافا للعاملين، وتشجيعًا للمصلحين، أن نسجل هنا ذلك العمل الجيد الذى تم فى

عهد وزير الأوقاف السابق (السيد أحمد عبد الله طعيمة)، وهو تسجيل القرآن الكريم، مرتلا، كما أنزله الله تعالى على رسوله محافظا فيه على الأصل وعلى كيفية الأداء من إعطاء الحروف حقها، كما كان ينطقها العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فكان فى ذلك حفظ له من اختلاف القراء، وتلاعب الصهيونية التى حاولت - بل وإلى الآن تحاول - أن يتسرب إفسادها إلى أعز شىء عند المسلمين، يفدونه بأرواحهم فجازاه الله خير الجزاء.

والآن.. وبعد مضى زمن على هذا العمل الطيب نرجو من القائمين على تسجيل القرآن والمتولين توزيعه أن يراجعوا التسجيل بكل دقة وألا يكون التسجيل إلا على اسطوانات جيدة سليمة حتى لا تتعرض للفساد بسرعة وأن يرشدوا من يحصل على نسخة من هذه الإسطوانات أن يتنبه دائما لأى فساد يطرأ عليها فيبطل العمل بها حالا، وإلا كانت شرا تسببنا لتسربه لكتاب الله من حيث لا نشعر، وقانا الله وإياهم شر ذلك.

ملاحظة: قد يلاحظ القارئ عند تفسير كلمة أننا قد نحيل على تفسيرها فى مكان آخر، وسبب ذلك: ضيق حيز الصفحة عن ذكر كل ما نريد.

وفقنا الله لانتفاعنا بكتابه الكريم.

٣ ربيع الآخر سنة ١٤٠٠هـ

١٩ فبراير ١٩٨٠

عبدالجليل عيسى

فهرس

بعض مبادئ مهمة تعرض لها القرآن

لم يُنوِّع القرآن الأدلة على وجوه مختلفة، مثل ما نوَّع فى أدلة الأصول الثلاثة:

ولكنهم يكابرون انظر آيات ٤١ و٤٢ صفحة ٩، ٨٩ صفحة ١٧، ١١٤ صفحة ١٨١.

١٥ - علماء أهل الكتاب كانوا يعلمون أن الرسول صادق، ولكنهم كانوا يخفون ذلك محافظة على رياستهم من الضياع آية ١٤٦ صفحة ٢٨.

١٦ - فرعون كان يعتقد أن موسى رسول الله ولكنه كان يكابر خوفا على سلطانه من الذهاب آيتا ١٠٢ صفحة ٣٧٨، ١٤ صفحة ٤٩٥.

١٧ - المشركون كانوا يعتقدون أن الخالق لهم ولجميع العالم هو الله وحده، ومنشأ كفرهم أنهم أتخذوا من المخلوقات شفعاء يقربونهم له سبحانه، انظر الآيات ٦١ و٦٣ صفحة ٥٢٩، ٨٧ صفحة ٦٥٥، ١٨ صفحة ٢٦٨ و٣ صفحة ٦٠٦ وشرح آية ٢٣ صفحة ٧٦٩.

١٨ - متى يشاء الله إضلال الناس أو هدايتهم وبيان منته سبحانه فى ذلك انظر آيات ٧٨، ٧٩ ص ١١٤، ٤٨ ص ١٤٦، ١٤٨ ص ١٨٨، ٣٥ ص ١٦٧، ٩٩ ص ٢٨١ و٣٥ ص ٣٤٩، ٥٣ ص ٤٤١، ٥٠ ص ٥٧٠، من ٥ إلى ١٠ ص، ٨١٠.

١٩ - معانى الضلال فى القرآن آية ٢٤ ص ١٦٥.

٢٠ - التنفير من التقليد، والحث على استعمال العقل آية ٥٣ وما بعدها صفحة ٤٢٦، ٢١ صفحة ٥٤٢.

٢١ - القرآن يرشدنا كيف نعبر عما يستحى من التصريح به بكنايات لطيفة. آيات ١٨٧ صفحة ٣٦، ١٩٦ صفحة ٣٨ (أو به أذى من رأسه) كناية عما يصيب الرأس من أمراض أو حشرات وآيات ٢٣٦ صفحة ٤٨، ٦ صفحة ١٣٧، ٧٥ صفحة ١٥٢ (كانا يأكلان الطعام) كناية عما يستلزمه أكل الطعام من إخراج الفضلات وآية ١٨٩ صفحة ٢٢٤.

٢٢ - كيف يربى الله تعالى المسلم على تحمل الشدائد حتى يكون قوى العزيمة معدًا لتحمل كل خطر آية ٢١٤ صفحة ٤٢.

٢٣ - ينبغى لقائد الجيش أن يختبر قوة عزائم جنده قبل خوض المعركة، ويبعد عنه ضعيف العزيمة آية ٢٤٩ صفحة ٥١.

٢٤ - أروع تمثيل للترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله، آيتا ٢٦١ صفحة ٥٥، ٢٦٥ صفحة ٥٦.

٢٥ - إخفاء الصدقات أفضل من إعلانها آية ٢٧١ صفحة ٥٧.

٢٦ - غلق باب تلاعب الشيطان بضعاف النفوس حيث أمر بكتابة الديون، والإشهاد عليها آية ٢٨٢ صفحة ٦٠.

٢٧ - يعلمنا الله سبحانه كيف نتغاضى عن ذكر سيئات الغير عند الاجتماع به فى وقت الصفاء انظر ذلك فى آية ١٠٠ ص ٣١٨. وتأمل كيف أغفل يوسف عليه السلام حادث الجب المذكور فى آيتى ١٠ و١٥ صفحة ٣٠٤ لئلا يؤذى إخوته.

٢٨ - المؤمن الصادق يستعيذ بالله من أن يكون فتنة للقوم الظالمين، انظر آية ٨٥ ص ٢٧٩.

٢٩ - الغاوى يطلق على الذى يضل السبيل الحق، وعلى الذى يضل غيره، آيتا ٩١ و٩٤ ص ٤٨٥.

٣٠ - متى يزين الله للعبد ما فيه هلاكه آية ٤ ص ٤٩٤.

٣١ - لماذا يظن الكافرون عند مشاهدة العذاب أنهم لم يمكثوا فى القبور إلا زمنا يسيرًا، آيتا ٤٥ صفحة ٢٧٣، ٣٥ ص ٦٧٢.

٣٢ - شروط قبول التوبة، وأنها ليست مجرد النطق بلفظ التوبة، انظر آيات ٣٩ صفحة ١٤٤ و ٥ صفحة ٢٤٠، ١١ صفحة ٢٤١ و١١٩ صفحة ٣٦٢ و ٥ صفحة ٤٥٧ و ٧٠ و٧١ صفحة ٤٧٨ و٨٢ ص ٤١٣.

٣٣ - تسبيح الجبال وغيرها وسجودها. انظر آية ٧٩ صفحة ٤٢٨.

٣٤ - اختلاف أحوال وجوه الكفار وأبصارهم يوم القيامة باختلاف المواقف انظر آية ٤٥ صفحة ٦٤٥.

٣٥ - لا يصلح الله حال أمة إلا إذا أصلحت ضمائرها وأعدت نفسها للتقوى، آية ١١ ص ٣٢٢.

٣٦ - كل ما فى الأرض والسماء مسخر لمصلحة الإنسان، انظر آيات ٢٩ صفحة ٧، ٣٢ و٣٣ و٣٤ صفحة ٣٣٤ و٥ وما بعدها صفحتى ٣٤٦ و٣٤٧ وآية ٦٥ صفحة ٤٤٢.

٣٧ - لماذا كانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس؟ انظر الصفات التى استحقت بها ذلك،

فى آية ١١٠ صفحة ٨٠ وانظر لم لعن غيرها فى آيتى ٧٨ و٧٩ صفحة ١٥٣.

٣٨ - إذا وقعت الخطيئة فى قرية فما هى طريقة النجاة من آثارها؟ انظر آية ١٦٣ وما بعدها ص ٢١٩.

٣٩ - تمنى الكافر عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعمل صالحا، انظر آيتى ١٠٠ صفحة ٤٥٤، ٤٤ صفحة ٣٣٦.

٤٠ - معنى إحكام آيات القرآن ومعنى تفصيلها انظر آية ١ ص ٢٨٣.

٤١ - متى فضل الله بنى إسرائيل على العالمين، وما سبب ذلك؛ وكيف انقضى هذا التفضيل؟ انظر آية ٣٢ ص ٦٥٨.

٤٢ - من هم الشهداء يوم القيامة الذين يشهدون على غيرهم انظر آية ٦٩ ص ٦١٦.

٤٣ - معنى الغيب والشهادة فى القرآن، انظر آية ٧٣ ص ١٧٤.

٤٤ - مقدار اليوم عند الله فى الدنيا والآخرة انظر آية ٤٨ ص ٤٤٠.

٤٥ - قد يوسع الله للعبد استدراجا له ثم ينزل به عقابه الشديد انظر آيات ١٧٨ صفحة ٩٢، و١٨٢ و ١٨٣ صفحة ٢٢٢، ٤٤ صفحة ١٦٨، ٥٥، ٥٦ صفحة ٤٥٠.

٤٦ - جاء فى القرآن (علم اليقين) و(حق اليقين) و(عين اليقين) فما الفرق بينها؟ انظر ذلك فى صفحة ٧١٨.

٤٧ - هل يطلق (خالق) و(رازق) على غير الله سبحانه؟ انظر صفحتى ٤٤٢ و ٤٤٦.

٤٨ - (الصيحة) جاءت لمعان فى القرآن. انظر ذلك فى صفحة ٤٤٩.

٤٩ - استعمالات القرآن لكلمة (كتاب) انظر ذلك فى صفحة ٧٩٧.

٥٠ - أسماء يوم القيامة التى جاءت فى القرآن، بيان ذلك فى صفحة ٧٦١.

٥١ - (العزة) جاءت فى القرآن حقيقية وكاذبة. انظر ذلك فى صفحة ٥٩٧.

٥٢ - لم أمر الله سبحانه النبى ﷺ بالاستغفار. انظر السبب فى آية ٥٥ صفحة ٦٢٥.

٥٣ - القدوة فى الشر عليه وزر عمله؛ ووزر من قلده إلى يوم القيامة: انظر صفحة ٥١٢.

٥٤ - المجرمون يهزءون بالمؤمنين فى الدنيا. وفى الآخرة تنعكس الحال؛ انظر آيات ٢٩ وما بعدها صفحة ٧٩٨.

٥٥ - النهى عن الإصغاء للإشاعات أيام الحرب انظر آية ٨٣ صفحة ١١٥.

٥٦ - لماذا قيل عن نوح إنه آدم الصغير. مع أنه ركب معه فى السفينة أهله والمؤمنون من غيرهم؟ كما فى آية ٤٠ صفحة ٢٩٠، انظر بيان ذلك فى شرح آية ٧٧ صفحة ٥٩١.

٥٧ - لا تكثر المصائب إلا عند فساد أخلاق الناس. انظر آيتى ٤١ صفحة ٥٣٦، و٣٠ صفحة ٦٤٣.

٥٨ - مخالفة أوامر قائد الجيش أثناء المعركة تسبب النكبات انظر ١٥٢ صفحة ٨٧.

٥٩ - الرهبانية أول من ابتدعها رهبان مصر، انظر آية ٢٧ صفحة ٧٢٣.

٦٠ - من هم الذين إذا تابوا لا تقبل توبتهم، انظر آيتى ٩٠ صفحة ٧٧، ١٨ صفحة ١٠٤.

٦١ - عمق الإيمان، وقوة العزيمة تقاوم تسعة جنود من الخصوم، لأن القرآن جعل المقاتل من المؤمنين يقف فى وجه عشرة، فشخصه يقابل شخصًا من خصومه، وقوة إيمانه وعزيمته تقاوم تسعة، آية ٦٥ صفحة ٢٢٧.

٦٢ - حال كثير من تجار المسلمين الآن أشد فسادًا من حال فساق التجار فى عهد التنزيل انظر شرح آيتى ٢، ٣ ص ٧٩٦.

٦٣ - أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد يعتبرهم القرآن كفارًا فى آية ١ صفحة ٨١٦.

٦٤ - معنى كلمة مثانى فى القرآن وأنها تطلق على الفاتحة، وعلى القرآن كله، صفحة ٣٤٤.

٦٥ - «ولقد صرفنا فى هذا القرآن» معنى التصريف صفحة ٣٦٩.

٦٦ - الإسلام يشدد فى المحافظة على العهود بما ليس له مثيل، الآيات ٩٠ صفحة ١١٦، ٧٢، ٧٣ صفحة ٢٣٨، ٤ صفحة ٢٤٠، ٩١، ٩٢ صفحة ٣٥٨.

٦٧ - الإسلام يحث أتباعه على السير فى الأرض للاعتبار بما حصل للأمم التى انحرفت عن الاستقامة. الآيات ٩ صفحة ٥٣١ ومن ١٥ إلى ١٩ صفحة ٦٥٤، من ٤٢ إلى ٤٤ صفحة ٥٧٨.

٣١ صفحة ٦٢٠، من ٨٢ إلى ٨٥ صفحة ٦٢٩.

٦٨ - معنى الفتح فى القرآن، آية ١١٨ صفحة ٤٨٧.

٦٩ - كلمة (وراء) معانيها فى القرآن آية ١٦ صفحة ٣٣٢.

٧٠ - شرح صحيح لكلمة جاءت فى القرآن لم يتنبه له أحد ممن سلفوا انظر لفظ (التغابن) فى آية ٩ صفحة ٧٤٦.

٧١ - أخبث مكيدة للإسلام دبرها اليهود فأحبطها الله سبحانه وفضحهم انظر آية ٧٢ صفحة ٧٤.

٧٢ - المتقرب إلى الله بعبادة خالطتها بدعة أشد تعرضا للخطر من العاصى الذى يعرف أنه فى معصية، لأن الأول قد يداهمه الموت قبل أن يعرف أنه مبتدع، بخلاف الثانى فإنه دائما يشعر بتأنيب ضميره فهو أقرب إلى التوبة والندم، انظر آيات ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥ صفحة ٣٩٤، ٣٠ صفحة ١٩٦، ٨ صفحة ٥٧٢، ٣٧ صفحة ٦٥١.

٧٣ - لم خلق الله الإنس والجن؟ آية ٥٦ صفحة ٦٩٦.

٧٤ - حكمة بعث الخلائق يوم القيامة، لتجزى كل نفس بما تسعى، انظر آية ١٥ صفحة ٤٠٧، ١١٥ صفحة ٤٥٦، ١٨، ١٩، ٢٠ صفحة ٥٤٦.

٧٥ - لم يصور القرآن طائفة بأبشع الصور مثل ما صور المنافقين، انظر بعضا من ذلك فى آيات ٨ إلى ٢٠ ص٤ صفحة ٥٥٠، من ١ إلى ٨ صفحة ٧٤٢.

٧٦ - قد يصيب الله العبد بالمصائب ليفيق من غفلته ويرجع صادقًا فى توبته انظر آيات ٤٢، ٤٣ صفحة ١٦٨. ٩٤ صفحة ٢٠٨، ٧٦، ٧٧ ص ٤٥٢، ٤١ صفحة ٥٣٦، ٢١ ص ٥٤٧، ٤٨ ص ٦٥٢.

٧٧ - إذا رجع العبد إلى ربه عند المصيبة ثم نكص بعد زوالها فهو من شرار الخلق انظر آيات ١٣٥ - ١٣٦ص ٢١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣ ص ٢٦٩، ٥٣، ٥٤، ٥٥ ص ٣٥٢، ٦٥، ٦٦ ص ٥٣٠، ٣٣، ٣٤ ص ٥٣٥.

٧٨ - علاج همزات الشياطين ودسائس النفوس، انظر آيات ٢٠٠، ٢٠١ صفحة ٢٢٥، ٣٤، ٣٥، ٣٦ ص ٦٣٤.

٧٩ - شدة أهوال القيامة تفقد الكافر عقله فيقدم على الحلف بالله كذبا وهو واقف بين يديه سبحانه. انظرآية ٢٣ ص ١٦٥.

٨٠ - قد يغدق الله على الأمة الظالمة الخير ليمكر بها حتى إذا أخذها فجأة كانت مصيبتها أشد. آية ١٧٨ ص ٩٢، ٤٤ ص ١٦٨ وآية ١٢ وما بعدها ص ٧٧٦.

٨١ - المعاند لا تنفع معه الحجة مهما تكن واضحة آية ٧ ص ١٦٣، ١١١ ص ١٨١، ٣١ ص ٣٢٦.

٨٢ - كان الرسل السابقون مرسلين إلى أمم معينة وأرسل خاتم الرسل إلى الناس كافة آية ١٥٨ ص ٢١٨، ١٠٧ ص ٤٣٢، ١ ص ٤٧٠، ٢٨ ص ٥٦٦، ٥٢ ص ٧٦١.

٨٣ - عناية الإسلام بإخراج العرب من الأمية وجعلهم أمة متعلمة انظر ذلك فى شرح آية ٢ ص ٧٤١.

٨٤ - لا يجوز أن يطلب العبد من ربه شيئا إلا بعد تحققه من أنه أمر جائز أن يطلب فإذا علم حرمته، أو جهل جوازه فلا يجوز، انظر شرح آية ٤٦ ص ٢٩٠.

٨٥ - قد يبتلى الله العبد الفاسق بما يسبب زيادة عذابه، آية ١٦٣ ص ٢١٩.

٨٦ - المال يسبب الطغيان إلا من عصم الله. الآيات ٧٦ إلى ٨٣ ص ٥١٨، ٦، ٧ ص ٨١٤.

٨٧ - معنى كون المرأة والأولاد أعداء الأزواج أو الأباء، آية ١٤ صفحة ٧٤٧.

٨٨ - القرآن هو معجزة الرسول الخالدة، آيتا ٥٠، ٥١، ص ٥٢٨.

٨٩ - شروط قبول الشفاعة: رضاء الله عن المشفوع له، وإذنه للشفيع انظر ٢٨ ص ٤٢٣، ١٠٩ ص ٤١٦، ٢٥٥ ص ٥٣.

٩٠ - مما يدل على أن الإنسان هو أفضل هذه المخلوقات أن الله خلق ما فى هذا الكون لمصلحته، وسخره له، انظر الآيات ٢٩ ص ٧، ١٢، ١٣ ص ٦٦١، ٣٢، ٣٣، ص٣٢٤.

٩١ - تأخير التوبة إلى حصول مقدمات الموت يفقدها فائدتها، انظر الآيات ٩٠، ٩١ ص ٢٨٥، ٥٤ إلى ٥٩ ص ٦١٤، ٨٥ ص ٦٢٩.

٩٢ - يبتلى الله العبد بالشدائد، والشر، والخير، لتظهر طبيعته على حقيقتها، انظر ٤٥ ص ٤٢٤، ١٢٤ ص ٢٤، ١٨٦ ص ٩٤، ١٥٥ ص ٣٠، ٤٠ ص ٤٩٩، ١٢٤ صفحة ٢٤.

٩٣ - يطلق القرآن الساعة على القيامة الكبرى التى تكون للخلائق أجمع، وعلى القيامة الصغرى التى تكون عند نهاية عمر كل فرد، أو أمة وعلى لحظة من الزمن مهما قلت، فمن الأول ما فى آية ١٨٧ صفحة ٢٢٢ و٥٥ صفحة ٥٢٨، ومن الثانى ما فى آية ٣١ صفحة ١٦٦ و٧٥ صفحة ٤٠٤ ومن الثالث مافى آية ٣٤ صفحة ١٩٧ و٣٥ صفحة ٦٧٢ وأما الساعة المستعملة الآن بمعنى جزء من ٢٤ المنقسم إليه الليل والنهار فهذا عرف طارئ لا يعرفه العرب القدماء.

٩٤ - الجمع بين قوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ آية ٧٨ صفحة ٥١٨ وقوله تعالى: ﴿لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ آية ٣٩ صفحة ٧١١، وبين ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ آية ٦ ص ١٩٣ و﴿ليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ آية ١٣ صفحة ٥٢٢.

٩٥ - الجمع بين مثل قوله تعالى: ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ آية ١١١ صفحة ٣٦١، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ آيتى ٣٥ و٣٦ صفحة ٧٨٥.

٩٦ - خطأ من يقول: إن ذا القرنين المذكور فى آية ٨٣ صفحة ٣٩٢ هو الإسكندر المقدونى لأسباب كثيرة، منها: أن الإسكندر كان كافرا، جبارا، سكيرا مات ببابل، عقب حفلة شراب، والمذكور فى القرآن كان فيه من صفات الصالحين المصلحين ما حمل بعض العلماء على ترجيح أن يكون نبيًا، انظر قوله تعالى: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ آية ٨٦، وإيمانه بالآخرة فى آيتى ٨٧، ٩٨ ورفضه أخذ الأجر على عمل الخير فى آيتى ٩٤و ٩٥ ص ٣٩٣.

٩٧ - الجمع بين النهى عن الإسراف فى آيتى ٢٩ ص ٣٦٨، ٦٧ ص ٤٧٨. وبين «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» آية ٩ ص ٧٢١.

٩٨ - لا ينفع أمام عدالة الله سبحانه حسب ولا نسب، إنما ينفع الإيمان والتقوى انظر الآيات من ٤٢ إلى ٤٩ صفحة ٢٩٠ و١٠ و١١ ص ٧٥٣.

٩٩ - ما اشتهر عن العرب من قتل أولادهم كما فى آيات ١٣٧ صفحة ١٨٥ و١٥١ صفحة ١٨٩ و٥٨ و٥٩ صفحة ٢٥٢ لم يكن عاما فى كل القبائل؛ بل كان فى قبيلة واحدة فقط وحدث قبيل البعثة بمدة يسيرة ولم يلبث أن انقطع وأسلم أول من فعله.

١٠٠ - يطلق القرآن الذليل على الضعيف ماديا ولو كان مؤمنا كما فى آية ١٢٣ ص ٨٣ وعلى المتواضع لإخوانه المؤمنين كما فى آية ٥٤ ص ١٤٨.

١٠١ - قد يأتى القرآن بملخص القصة أولا. ثم يفصلها. أو يذكر نتيجتها. انظر آيات ١١٥ وما بعده إلى آية ١٢٢ ص ٤١٧ وآيتى ٣٤ و٣٨ ص ٧٠٧ وآية ١٠٣ مع آيات ١٠٤ وما بعدها صفحة ٢٠٩ وآية ١١ مع ١٢ صفحة ٤٢١.

١٠٢- يستجيب الله تعالى دعاء المضطر ولو كان مشركا آية ٦٢ ص ٣٧٣، ٥٣ و٥٤ ص ٣٥٢ و٢٢ و٢٣ ص ٢٦٩ و٦٥ ص ٥٣٠.

١٠٣- أرق خطاب مع المشركين. آيتا ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى..﴾ إلخ آية ٢٤ ص ٥٦٦ و﴿ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم﴾ آية ٩ ص ٦٦٧.

١٠٤- قد يكون الرجل إماما لكن فى الشر لا فى الخير آية ٤١ صفحة ٥١٢ و١٢ صفحة ٢٤١.

١٠٥ - حكمة خلق إبليس فى هذه الدنيا آية ٢١ صفحة ٥٦٥.

١٠٦ - لو ساير سبحانه طيش السفهاء لأسرع إليهم الفناء. ولكنه يعلم أنه سيخرج من أصلابهم من هم خير منهم آيات ٣٢ صفحة ٣٢١، ٨ صفحة ٧٢٦، ٥٣ صفحة ٥٢٨.

١٠٧ - لِمَ أوجب الله على المؤمنين الدفاع عن عقيدتهم، ولو بالقتال، مع قدرته على إيذاء أعدائهم بدون قتال؟ آيه ٥٣ صفحة ٦٨٣..

١٠٨ - إذا فسدت الفطرة بسبب ما، ومضى على فسادها فترة تكفى لتجمدها على ما هى عليه، فلا ينفع معها تهديد ولا تعذيب آية ٣١ ص ٣٢٦، ١١١ ص ١٨١، ٢٧، ٢٨ ص ١٦٦، ١٣٤، ١٢٥ ص ٢١٢ و ٢٢ و ٢٣ ص ٢٣٠، ٥٠ ص ٦٥٢.

١٠٩ - كان بنو إسرائيل يكيدون للمصريين آية ٣٥ ص ٤٨٢، ٥٥ ص ٤٨٣.

١١٠ - رضاء النبى ﷺ عن أحد لا يدل على رضاء الله عنه، ولا حبه له لأن الله سبحانه يعلم من حال عباده ما لا يعلمه أحد من البشر، انظر آية ٩٦ صفحة ٢٥٨، ٥٦ صفحة ٥١٥.

١١١ - القرآن يسمى الدعاء عبادة، وسماه ﷺ مخ العبادة انظر آية ٦٠ صفحة ٦٢٦.

١١٢ - فى طاعة الله سبحانه وتعالى سعادة الدنيا بسرور العبد بالشكر على النعمة والرضا بالقضاء، كما أنها سبب للسعادة الخالدة فى الآخرة، انظر آيات ٦٦ ص ١٥٠، ٩٦ ص ٢٠٨، ٩٧ ص ٣٥٩، ٥٥ ص ٤٦٧، ١١ ص ٧٤٦ ومن ١٠ إلى ٣٢ ص ٧٦٨ ومن ١٥ إلى ٢١ ص ٥٤٦ وغير ذلك كثير.

١١٣ - إقرار الإنسان بوجود الله لا ينفعه، ما دام يخالطه شىء من الشرك انظر آيتى ٨٢ صفحة ١٧٥، ١٠٦ صفحة ٣١٩.

١١٤ - الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، يثابون على ما طلبته من الخير، ويعاقبون على ما نهت عنه عقابا زائدا على عذاب الكفر آيات ١٧٨ صفحة ٩٢، ٣٤ صفحة ٢٣١ و٢٥ صفحة ٣٤٨، ٨٨ صفحة ٢٥٧، ٦٨، ٦٩ صفحة ٤٧٨، ١٢، ١٣ صفحة ٥٢٢، ٦٧، ٦٨ صفحة ٥٦١، ٦، ٧ صفحة ٦٢٠، ٢٠ صفحة ٦٦٩ و٤٣ وما بعدها صفحة ٧٧٧، ٣١ صفحة ٧٨٠ ويثابون على الخير انظر آية ٧ صفحة ٨١٨.

١١٥ - أفظع جريمة بعد الكفر بالله أبرق القرآن وأرعد فى عقاب فاعلها هى: قتل النفس المؤمنة بدون حق، انظر الآيات ٩٣ ص ١١٧، ٣٠، ٣٢ ص ١٤٢.

١١٦ - يبقى ذكر الأمة غاليا ما بقيت لغتها حية قوية، انظر آيات ١٠ صفحة ٤٢١، ٤٤ صفحة ٦٥١، ولهذا كان أقوى سلاح لخصوم الإسلام والعرب هو إيقاظ اللغة العامية فى كل أمة حتى تحتل مكان الفصحى، فيندثر ذكر العرب، وتتقطع صلة المسلمين كافة بكتابهم.

١١٧ - يستشهد بعض المسلمين بآيات فى غير موضعها نتيجة لخطأ صريح أو رأى مرجوح رفضه المحققون انظر الآيات ١٠٥ صفحة ١٥٨ و١٢٢ صفحة ٢٦٣، ٢٤ صفحة ٦١١ ومنها (الوسيلة) فى آية ٣٥ صفحة ١٤٣ إذ لم يقل أحد من المفسرين مطلقا إنها غير العمل الصالح و(المودة فى القربى) آية ٧٣ ص ٦٤٢.

١١٨ - يجب على رئيس الدولة الا يجعل للأغنياء وذوى الجاه منزلة فوق منزلة الأتقياء مهما يكونوا من الفقر أو الضعف، انظر الآيات ١ وما بعدها صفحة ٧٩١، ٢٧ إلى ٣١ صفحة ٢٨٨، ١١١ إلى ١١٤ صفحة ٤٨٦، ٢٨ صفحة ٣٨٤، ٥٢، ٥٣ صفحة ١٧٠.

١١٩ - شروط الصلاة المقبولة آية ١ ص ٤٤٥.

١٢٠- وما هى علامة قبولها انظر آية ٤٥ صفحة ٥٢٧.

١٢١ - خطأ شائع لم ينتبه له من قال: إن الزكاة لم تفرض إلا بعد الهجرة إلى المدينة، مع أنها فرضت مع الصلاة بمكة بدون تحديد مقاديرها ولا مصارفها، فإن هذا هو الذى بُيِّن فى المدينة، فى آية ٦٠ صفحة ٢٥١، بل أثبت القرآن أن الزكاة مفروضة على الأمم السابقة كما سيأتى انظر الزكاة فى السور المكية، فى آيات ٤ صفحة ٤٤٥، ١٥٦ صفحة ٢١٧، ٢ صفحة ٤٩٤، ٤ صفحة ٥٣٩، ٧ صفحة ٦٣٠، ٢٠ صفحة ٧٧٥.

وانظر الزكاة فى الأمم السابقة فى آيات ٣١ صفحة ٣٩٩، ٥٥ صفحة ٤٠١، ٧٣ صفحة ٤٢٨.

١٢٢- كيف عد سبحانه التحذير من المعصية والتنبيه لما سيلاقيه العاصى من العذاب نعمة تستوجب الشكر، انظر شرح آية ٥٥ صفحة ٧٠٤، ٢٥ إلى ٤٥ صفحة ٧١٠.

١٢٣ - سورة من قصار السور عالجت ثلاثة عشر عيبا من عيوب الجاهلية الخلقية والاجتماعية حتى نقلت أجلاف العرب من الفوضى

والخشونة إلى مصاف أرقى الأمم أدبا ورقة شعور، انظر سورة الحجرات صفحة ٦٨٤.

١٢٤ - الإسلام يعتمد على الإقناع لا على الإكراه، انظر آيات ٢٥٦ ص ٥٣، ٢٩ صفحة ٣٨٤، ٤٨ صفحة ٦٤٥، ٢١ وما بعدها صفحة ٨٠٥، ٤٥ صفحة ٦٩٢.

١٢٥- صفة عباد الرحمن انظر الآيات من ٦٣ إلى ٧٧ صفحة ٤٧٧، من ١٥ إلى ١٩ ص ٦٩٣، من ٢ إلى ٤ ص ٢٢٧.

١٢٦- يطلق القرآن لفظ قوم وهو يريد الزعماء والجنود فقط، انظر ذلك فى آية ٥١ مع آية ٥٥ ص ٦٥٢ لتتبين أن الذين أغرقوا هو فرعون والجيش الذى كان يقوده لا جميع قومه.

١٢٧ - ينسب القرآن لقوم أمورًا صدرت منهم أو حلت بهم وهو يريد أصولهم انظر الآيات ٥٠ وما بعدها صفحة ١٠.

مقدمة الطبعة الثالثة
(عام ٢٠٠٧م.١٤٢٨هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله.. احمده واستعينه وأصلى على خاتم رسله ورحمته للعالمين سيدنا محمد ﷺ.

وبعد.. فقد شاء الله تعالى أن يكرمنى بكتابة مقدمة كتاب الله الكريم.. ميسر الفهم.. دقيق الإيجاز فى غير إلغاز.. يفهم الألباب فى غير إطناب.. هذا هو كتاب (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم) لعلم من أعلام الإسلام الذين ربوا دعاه الدين لله.. ومهدوا لمن بعدهم الدعوة إلى الله تعالى..فوصف مؤلفه.. رضى الله تعالى عنه أستاذ أجيالنا..

فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى.. بأنه ناصر السنة، وقاهر البدعة، وميسر كتاب الله وسنة رسول الله للقارئ والدارس والمدكر. ذلك الرجل الذى شاء الله تعالى أن يجعل حياته المباركة ممتدة فى تراثة القيم إلى أن تقوم الساعة.. وتلك المقدمة سبقتها مقدمة للمقدمة وهى الكتاب نفسه، والذى سبق مقدمتى الآن.. وسيحكم قارئ الكتاب قبلى على صدقى فى تكريم كاتبه، واسأل الله سبحانه كما بارك فيه أن يبارك فى تراثه، وأن يبسط البركة على يد كل أبناء الشيخ برضا الله، وحسبى فى تكريم شيخنا أن كتابه (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم) يعلم الله أنه أول مراجعى لأنه عرفنى كيف أجمع شتات الآيات جمعا يستوعب كل ما قيل بحلاوة كل ما يقول.

نفع الله كل قارئ به، وأجزل للشيخ عظيم الثواب ووافر الرضوان.. وبارك الله فى كل من يعمل على أشاعة هذا التراث والبلاغ منه لكل من يقرأ عنه.

والله ولى التوفيق

سورة الفاتحة

(١) سُورَةُ الفَاتِحَة
مكية وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

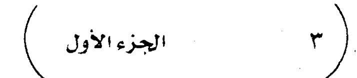
﴿رب﴾: خالق ومربى. ﴿الدين﴾: الحساب. ﴿الصراط﴾: الطريق

المعنى: إقرأ مستعينا باسم الله واسع الرحمة دائمها، المستحق لجميع الثناء الجميل؛ لأنه صاحب كل النعم، وهو وحده المتصرف يوم الحساب والجزاء. ولما فرغ سبحانه من ذكر الصفات الدالة على أن مصدر كل النعم هو الله وحده، وأنه الخالق لجميع العالم ومربيهم، وأنه واسع الرحمة ومسبغها على خلقه، وأنه المتصرف وحده فى مصير الخلائق يوم الحساب، كان طبيعيا لمن تمر على خاطره تلك الصفات العظيمة أن يستحضر صاحبها ويراه كأنه حاضر معه. فيصح أن يخاطبه بقوله:

﴿إياك نعبد﴾ أى لا نعبد إلا إياك يا رب ولا نستعين إلا بك، فوفقنا للطريق الموصل للخير فى أقرب وقت، طريق عبادك الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وابعدنا عن طريق المغضوب عليهم الذين أعرضوا عن الحق بعد العلم به كبرًا وحسدًا، والضالين البعيدين عن الصواب حيرة وجهلاً.

---

(١) العالمين.
(٢) مالك.
(٣) الصراط.
(٤) صراط.



سورة البقرة

(٢) سُورَةُ البَقَرَة مَدَنِيَّة
وآياتها مائتان وثمانون وست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾: حروف مفردة لإقامة الحجة على الذين قالوا إن القرآن من كلام البشر، بأنه كلام منظوم من هذه الحروف التى تنظمون منها كلامكم، فلماذا عجزتم عن الإتيان بمثله. ﴿الكتاب﴾: كل القرآن. ﴿الريب﴾: الشك. ﴿هدى﴾: هاد ومرشد للخير. ﴿المتقين﴾: الذين جعلوا بينهم وبين ما يغضب الله وقاية فلا يقربونه. ﴿الغيب﴾: كل ما غاب عنا وأخبرنا الله ورسوله به كالملائكة والجن والبعث وتقدير الأرزاق والأعمار وغير ذلك.

﴿يقيمون الصلاة﴾: أى يأتون بها كاملة الأركان حسا ومعنى.

﴿ما أنزل إليك﴾: أى القرآن. ﴿وما أنزل من قبلك﴾: أى التوراة والإنجيل الصحيحين. و﴿الآخرة﴾: الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب. ﴿يوقنون﴾: الإيقان الإيمان بالشىء مع الإحساس به كأنه يراه. وأفرد الآخرة بالذكر مع دخولها فى الغيب لأهميتها ولخطر إنكارها.

﴿الهدى﴾: هنا ضد الضلال. ﴿الفلاح﴾: الفوز. ﴿الإنذار﴾: الإعلام مع تخويف. ﴿الختم﴾: الطبع والتغطية. ﴿الغشاوة﴾: الغطاء.

---

(١) الف. لام. ميم.
(٢) الكتاب.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.

أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴿٥﴾ إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴿٦﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم[1] غشاوة[2] ولهم عذاب عظيم ﴿٧﴾ ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴿٨﴾ يخادعون[3] الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿٩﴾ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴿١٠﴾ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴿١١﴾ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴿١٢﴾ وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا أنؤمن كما ءامن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿١٣﴾

﴿الخداع﴾: إظهار غير ما في النفس للتمويه والختل. والمراد بالمرض هنا النفاق.

﴿فزادهم الله مرضا﴾: بسبب تكذيبهم بكل ما يتجدد من وحى وبراهين، أنظر الآيتين ﴿١٢٤﴾، ﴿١٢٥﴾ من سورة التوبة: صفحة ٢٦٤.

﴿السفه﴾: طيش وخفة في العقل.

المعنى: إن هؤلاء المؤمنين متمكنون من هداية ربهم، فائزون بكل ما يأملون أما كفار مكة الذين جاهروا بالعناد فقد أصبحوا بحالة لا ينفع معها إنذارك لهم، لأن قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم غطيت بغشاء كثيف من ظلمة الكفر فلا ينفذ إلى ما وراءه إيمان. ومن الناس منافقون يظهرون الإيمان ويخفون الكفر زاعمين أنهم بعلمهم هذا يخادعون الله والمؤمنين لينجوا منهم، ولكنهم في الحقيقة إنما خدعوا أنفسهم وأضروها. وإذا قال لهم بعض المؤمنين الذين يشكون فيهم لا تفسدوا في الأرض بالنفاق قالوا إنما نحن مصلحون، والحقيقة أنهم من كبار المفسدين ولكن لا يشعرون لأن طباعهم فسدت فرأوا الحسن قبيحا والقبيح حسنا.

وإذا قال لهم بعض المؤمنين أيضا آمنوا إيمانا صحيحا كإيمان الناس أظهروا القبول وقالوا سرًا بينهم وبين أنفسهم لا نؤمن كما آمن السفهاء؛ يريدون قبحهم الله بالسفهاء أتباع الرسول، والحقيقة أنهم هم السفهاء الذين فقدوا عقولهم.

---

(١) أبصارهم.
(٢) غشاوة.
(٣) يخادعون.

وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم[1] قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴿١٤﴾ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم[2] يعمهون ﴿١٥﴾ أولئك الذين اشتروا الضللة[3] بالهدى فما ربحت تجارتهم[4] وما كانوا مهتدين ﴿١٦﴾ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمت[5] لا يبصرون ﴿١٧﴾ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴿١٨﴾ أو كصيب من السماء فيه ظلمت[6] ورعد وبرق يجعلون أصبعهم[7] في ءاذانهم من الصوعق[8] حذر الموت والله محيط بالكفرين[9] ﴿١٩﴾ يكاد البرق يخطف أبصرهم[10] كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصرهم[11] إن الله على كل

﴿شياطينهم﴾: المراد بهم زعماؤهم.

﴿يمدهم﴾: يمهلهم. ﴿الطغيان﴾: تجاوز الحد. ﴿يعمهون﴾: يترددون تحيرًا.

﴿استوقد﴾: أوقد. ﴿الصيب﴾: المطر الشديد. ﴿الصاعقة﴾: قصفة الرعد المصحوبة بنار.

المعنى: إن هؤلاء المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم منهم، وإذا انفردوا مع رؤسائهم قالوا لهم إنا معكم في الباطن وما قلناه للمؤمنين قصدنا به الاستهزاء بهم، والله سيجازيهم على استهزائهم هذا، ولكنه يمهلهم ليزدادوا طغيانا وحيرة فيزيد عذابهم أولئك المنافقون هم الذين اختاروا الضلال لفائدة عاجلة زائلة وتركوا هدى الله الموصل لنعيم دائم. وفاعل ذلك خاسر في تجارته. وحال بعض هؤلاء المنافقين كحال فريق من الناس أوقد نارًا ليستضيء ويأمن المخاوف فلما اشتد نورها أذهبه الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون وقد استولى عليهم الرعب، فهم صم لا يسمعون الحق سماع قبول ولا ينطقون به عن عقيدة، ولا يقولون خيرًا، عمى عن طريق الهداية، فهم لكل هذا لا يرجعون إلى الحق أبدًا. وحال بعضهم الآخر كحال قوم أصابهم مطر مصحوب بظلمات ورعد وبرق بلغ من دهشتهم أنهم توهموا أن سد آذانهم بأطراف أصابعهم يحفظهم من الموت، وما هو بحافظ، لأن الله محيط بهم فلا يمكنهم من الخلاص، وبلغ من شدة البرق عليهم أنه يكاد يخطف أبصارهم وكلما ظهر منه بعض الضوء الخاطف أسرعوا يطلبون النجاة ولكن سرعان ما يذهب الضوء فيظلم الجو فيقفون وهذا منتهى الحيرة. ولو شاء الله لأذهب سمعهم بقصف الرعد، وأبصارهم بلمعان البرق، لأنه قدير لا يعجزه شيء عما يريد.

---

(١) شياطينهم. (٢) طغيانهم. (٣) الضلالة. (٤) تجارتهم. (٥) ظلمات. (٦) ظلمات.
(٧) أصابعهم. (٨) الصواعق. (٩) بالكافرين. (١٠) أبصارهم. (١١) وأبصارهم.

شيء قدير ﴿٢٠﴾ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم
والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿٢١﴾ الذي جعل لكم
الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا
وأنتم تعلمون ﴿٢٢﴾ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله
إن كنتم صادقين ﴿٢٣﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا
النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿٢٤﴾
وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري
من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا
الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج
مطهرة وهم فيها خالدون ﴿٢٥﴾ * إن الله لا يستحيي

﴿الأنداد﴾ : جمع ند وهو المماثل. ﴿الريب﴾ : الشك. ﴿السورة﴾ : القطعة من القرآن لها أول وآخر وأقلها ثلاث آيات مثل (سورة الكوثر). ﴿شهداءكم﴾ : الذين يشهدون لكم يوم القيامة. ﴿متشابها﴾ : متماثلا يشبه بعضه بعضا.

المعنى: يأيها الناس من أهل مكة الذين كفرتم اتركوا الكفر واعبدوا ربكم وحده، لأنه هو الذى أنعم عليكم وعلى آبائكم بنعمة الوجود راجين من الله التوفيق للتقوى. وربكم هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة فيها راحتكم، والسماء متماسكة لا تقع على الأرض فتسحقكم، وأنزل لكم من السماء ماء أخرج به أرزاقكم، فلا تجعلوا له من خلقه نظراء فى استحقاق العبادة وأنتم تعلمون أنه وحده الخالق الرازق وهم لا يستطيعون شيئا.

وإن كنتم فى شك فى القرآن الذى نزلناه على عبدنا محمد ﷺ وزعمتم أنه كلام بشر فأتوا بسورة من رجل أمى مثل محمد واستعينوا بآلهتكم الذين زعمتم أنهم يشهدون لصالحكم يوم القيامة إن كنتم صادقين فى دعوى أنه كلام بشر. أما وأنكم لا يمكنكم أن تفعلوا فاعترفوا بالحق وتجنبوا دخول نار بلغ من شدتها أن وقودها لا يكون إلا من الناس والحجارة قد أعدت وهيئت للكافرين أمثالكم.

وبشر أيها النبى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحت قصورها الأنهار، كلما رزقوا ثمرة من ثمارها وجدوها كسابقتها فى الجودة والحسن لأنه متشابه فى ذلك، ولهم فيها زوجات مطهرات من كل عيوب نساء الدنيا كالحيض والنفاس والمكر والكيد والحسد.

(١) فراشا. (٢) الثمرات. (٣) صادقين. (٤) للكافرين. (٥) الصالحات.
(٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) متشابها. (٩) أزواج. (١٠) خالدون.

أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا
فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون
ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا
وما يضل به إلا الفاسقين ﴿٢٦﴾ الذين ينقضون عهد الله
من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل
ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴿٢٧﴾ كيف
تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم
ثم إليه ترجعون ﴿٢٨﴾ هو الذي خلق لكم ما في الأرض
جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو
بكل شيء عليم ﴿٢٩﴾ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل
في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك

﴿بعوضة﴾ : هى الحشرة المعروفة فى مصر بالناموس. ﴿ميثاقه﴾ : توثيقه وتوكيده. ﴿نسبح بحمدك﴾ : نقول سبحان الله وبحمده. ﴿نقدس لك﴾ : ننزهك عما لا يليق بك.

المعنى: لما قال الكفار أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت، يريدون أن القرآن ليس من كلام الله ليصدوا الناس، رد الله عليهم بقوله إن الله لا يترك ضرب مثل أى مثل كان بالشىء الحقير كالبعوضة وما فوقها فى المعنى المراد وهو الصغر متى كان المقام والحكمة تقتضى ذلك.

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذا المثل حق، وأما الذين كفروا فيقولون للتشكيك ما هذا؟ وهذا النوع من القرآن يكشف عن طبيعة الشخص، فيضل به مَنْ فسد طبعه ويهتدى به مَنْ سلمت فطرته. فما يضل به إلا الخارجون عن نظام الفطرة السليمة الذين تعودوا إبطال عهود الله التى أكدها على لسان رسله، ويقطعون ما أمر الله بوصله من الأرحام وموالاة المؤمنين والكتب المنزلة، ويفسدون فى الأرض بالمعاصى وسفك الدماء والذين يفعلون ذلك هم الخاسرون لكل خير أنظر مثل ذلك فى الآية (٨٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥ والآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، وسيأتى تحقيق ذلك وافيا فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والآية (١٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

كيف تكفرون بربكم وقد كنتم ترابا لا حياة فيه فنفخ فيكم الروح، ثم يميتكم عند انقضاء الأجل ثم يحييكم عند البعث ثم إليه ترجعون للحساب والجزاء، وهو الذى خلق لكم جميع ما

(١) الفاسقين. (٢) ميثاقه. (٣) الخاسرون. (٤) أمواتا.
(٥) فسواهن. (٦) سموات. (٧) للملائكة.

فى الأرض من خيرات، ثم توجهت إرادته إلى السماء فجعلها سبع سموات. واذكر أيها الرسول لهؤلاء الناس فضلى على الإنسان حين قلت للملائكة إنى جاعل منه فى الأرض خليفة يخلفنى فى عمارتها، فقالوا هذا الإنسان من شأنه أن يفسد ويسفك الدماء، أما نحن فنسبح بحمك وننزهك.

ويجدر بنا هنا أن نذكر رأى فضيلة الإمام الشيخ محمد عبده فى هذه المسألة. قال الأستاذ الإمام: وقد بحث أناس فى جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن مَنْ وفقهم الله تعالى على هذا السر قليلون، والدين إنما شرع للناس كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق، ومَنْ خصّه الله تعالى بزيادة فى العلم فذلك فضله يؤتيه مَنْ يشاء، فقد ورد فى الصحيح عن أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه فى هذا العلم اللدنى الخاص، وقد سئل (هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء من العلم؟ فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبدًا فهمًا فى القرآن... إلخ).

وأما ذلك الحوار فى الآيات فهو شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته صوره لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا، وأن هناك معانى قصدت إفادتها بهذه العبارات وهى عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم، وأنه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر فى بيان كرامة هذا النوع وفضله.. وأما الفائدة فيما وراء البحث فى حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهى من وجوه:

أحدها.. أن الله تعالى فى عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه، ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال، والتوجه إلى الله تعالى فى استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سننه تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العلمى والاستدلال العقلى والإلهام الإلهى).. وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك..

ثانيها.. إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا فلا مطمع للإنسان فى أن يعرف جميع أسرار الخليقة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا..

ثالثها.. أن الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى بيانه.

رابعها.. تسلية النبى ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين، وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها وبما جاء خاصة فى الآية (٢٦) من هذه السورة وكون الكلام لا يزال فى موضوع الكتاب وكونه لا ريب فيه، وفى الرسول وكونه يبلغ وحى الله تعالى ويهدى به عباده وفى اختلاف الناس فيها، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد..

وبعد ما عرض الإمام إلى آراء كثيرة فى حقيقة الملائكة، وحقيقة هذا الحوار، وما دار فيه من آراء حكّموا فيها تقاليدهم وعوائدهم قال: ولست أحيط علماً بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض مَنْ يظنون أنهم من المتشددين فى الدين إذ ينفرون من هذه المعانى كما ينفر المرضى أو المخدجون(١) من جيد الأطعمة التى لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تَشَبُّث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام، ويزيد السقام. لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو مَلَك، وما الذى يتخيلونه من لفظ قوة، أليس الروح فى الآدمى مثلا هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان

(١) المخدجون من خدجت الناقة تخدج بالكسر خِدَاجاً فهى خادج وابنها خديج أى ناقص لم يتم أيام الحمل.

والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له فإذا سمى الروح لظهور أثر قوة، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا، فهل يضر ذلك بالدين، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين؟. ألا لا يسمى الإيمان إيمانًا حتى يكون إذعانًا، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان، وتخشع الأركان لذلك السلطان الذى تعلق به الإيمان ولا يكون كذلك حتى يلقى الوهم سلاحه، ويبلغ العقل فلاحه. وهل يستكمل هذا لمن لا يفهم ما يمكنه فهمه، ولا يعلم مالا يتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحقّ أهلُه، ولا يضل سبله، ولا يعرف أهل الغفلة. لو أن مسكينًا من عبدة الألفاظ مَنْ أشدهم ذكاء، و أذربهم لسانًا، أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل(٢) ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نورانية الأجسام، وهل النور وَحْدَهُ له قِوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجِرْم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل، وهل يمكن للشىء الواحد أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع فى حيرة، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث فى لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة بعد شكا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة مَنْ وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه، لكنها حيرة مَنْ أخذ بقول لا يفهمه، وكلف نفسه علم ما لاتعلمه. فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانا صحيحا، واطمأنت بإيمانه نفسه، وأذعن له قلبه. ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله، كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح. فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة. هؤلاء لم يشرق فى نفوسهم ذلك السر الذى يعبر عنه بالنور الإلهى، والضياء الملكوتى، واللألاء القدسى، أو ما يماثل ذلك من العبادات. لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق، ولو علموا أن العالم بأسره فان فى نفسه، وأن ليس فى الكون باق كان أو يكون إلا وجه الكريم، وأن ما كشف فى الكون وما لطف وما ظهر منه وما بطن، إنما هو فيض من جوده، ونسبة إلى وجوده، وليس الشريف

(٢) هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها. وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم فى اللغة. ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مفهوماً.

إلا ما أعلى بذكره منزلته، ولا الخسيس إلا ما بين لنا بالنظر إلى الأول نسبته. فإن كل مظهر من مظاهر الوجود فى نفسه واقع موقعه، ليس شىء أعلى ولا أحط منه، فإن كان كذلك ولابد أن يكون كما قدره. لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول فى تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شىء من وساوس الوهم، ولا تجد طائفا من الخوف ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ آخر. هذه القوى التى نرى آثارها فى كل شىء يقع تحت حواسنا، وقد خفيت حقائقها عنا، ولم يصل أدق الباحثين فى بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت، وتقل بل تضمحل إذا حجبت، وهى التى يدور عليها كمال الوجود. وبها ينشأ الناشىء، وبها ينتهى إلى غايته الكامل، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل، أليست أشعة من ضياء الحق؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها. لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها؟

أليس الوجود الإلهى الأعلى من عالم الغيب وآثاره فى خلقه من عالم الشهادة؟ أليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها وقدر لها آثارها؟ لم لا تقول أيها الغافل: إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها. ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفى حيوان مثلك؟ مع أنك لوسئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا، ولا لفعله تصريفا؟ لم لا تقول كما قال الله وبه نقول (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)؟. أنظر قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾ (الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

وقوله عز وجل: ﴿لو أنزلنا هذا القران على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الآية ٢١) من سورة الحشر صفحة ٧٣٣.

وقوله سبحانه: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ (الآية ٦٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٤..

وعبارة الألوسى فى تفسيره للآية (١١) من سورة فصلت لعبارة ﴿إئتيا طوعا أو كرها﴾ قال: الأمر هنا فى الإتيان عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك آمر ومأمور. أنظر الألوسى جزء ٢٤ صفحة ٩١..

وقوله سبحانه فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ والمراد التمثيل أيضا.

وقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير....الآية﴾ الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير.. الآية﴾ الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣، ٥٦٤ وأوبى معه أى رددى ورجعى وقدسى الله معه. أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس مَنْ يكون منهم عن يمينك؟ ومَنْ يكون منهم عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟

فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، وبالعبارة التى تلقفتها عنهم، كى لا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها. أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأوعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا تَرُم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته، وهم فى إيمانهم أعلى منك كعبا، وأرضى منك بربهم نفسا، الا إن مؤمنا لو مالت نفسه إلى فهم ما أُنزل إليه من ربه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه فى ثقة، ومن فضل ربه فى سعة.

قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ[1] فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ[2] ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ[3] لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ[4] أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ[6] ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ[7] ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ[8] ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ[9] ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ[10] عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿رغدا﴾: واسعا هنيئا. ﴿أزلهما﴾: زحزحهما.

المعنى: أن الله سبحانه وتعالى رد على الملائكة بأنه يعلم مالا يعلمون من الحكم الخافية عليهم التى منها أنه سيكون من أولاد آدم نبيون وصديقون وشهداء وصالحون، ثم أعد سبحانه آدم ليكون مستعدا ليعرف باجتهاده خصائص المخلوقات فينتفع بها بخلاف الملائكة فإنهم لايعرفون إلا ما يطلعهم الله تعالى عليه؛ ولذلك لما تبين بعد أنه مفكر مخترع قال الله للملائكة ألم أقل لكم إنى أعلم غيب كل شىء. ثم ميزة أخرى للإنسان حين طلب من جميع المخلوقات وفى مقدمتهم الملائكة وهم أشرفهم الخضوع لآدم وذريته، فخضعوا إلا إبليس استكبر وكفر بأمر ربه. وقلنا بعد ذلك تكريما لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وهى جنة لا يعلم حقيقتها إلا الله، وكلا منها أكلا هنيئا واسعا لا حجر فيه إلا شجرة عينها لهما، وهو سبحانه أعلم بها. فوسوس لهما الشيطان حتى أكلا منها. فأخرجهما من نعيمها، فقلنا للثلاثة اهبطوا إلى الأرض، وسيكون أبليس وذريته لآدم وأولاده أشد الأعداء كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

(١) الملائكة.
(٢) صادقين.
(٣) سبحانك.
(٤) يا آدم.
(٥) السموات.
(٦) للملائكة.
(٧) الكافرين.
(٨) يا آدم.
(٩) الظالمين.
(١٠) الشيطان.

مُّسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿مستقر﴾: موضع قرار.

﴿متاع﴾: كل ما يتمتع به إلى حين هو قيام الساعة.

﴿فارهبون﴾: فخافونى.

﴿تلبسوا﴾: تخلطوا.

﴿البر﴾: كل ما فيه خير.

المعنى: أهبطوا إلى الأرض ولكم فيها مكان استقرار وما تتمتعون به مما تخرجه إلى انقضاء الدنيا. وألهم الله تعالى آدم بعد ذلك كلمات قالها إعلانا للتوبة، وهى ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية (٢٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥. فلما قالها تاب الله تعالى عليه لأنه كثير قبول التوبة رحيم بعباده. ثم كرر الأمر بالهبوط ليرتب عليه تحذيره بقوله فإن يأتكم

(١) ومتاع.
(٢) كلمات.
(٣) بآياتنا.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) يابنى..
(٧) إسرائيل.
(٨) وإياى.
(٩) بآياتى.
(١٠) وإياى.
(١١) بالباطل.
(١٢) الصلاة.
(١٣) الزكاة..
(١٤) الراكعين.
(١٥) الكتاب.

منى هدى فى كتاب أو على لسان رسول فمن سار عليه فلا يخاف يوم القيامة من سوء ولا يحزن لفوات خير.

أما الذين كفروا وأعرضوا عن هذا الهدى فخالدون فى جهنم. ثم خاطب اليهود بقوله يا بنى إسرائيل أى يا أولاد يعقوب أذكروا نعمتى على آبائكم حين أنجيتهم من فرعون ومن الغرق وظللت عليهم الغمام فى التيه إلى غير ذلك. وأشكروها بطاعتى. وأوفوا بعهدى الذى أخذته عليكم فى التوراة من الإيمان بكل رسول يأتى مصدقا لما فى التوراة ومنهم محمد. أوف بعهدكم الذى وعدتكم به من السعادة فى الدنيا والأخرة. ولا تخافوا غيرى. وآمنوا بالقرآن المصدق للتوراة فى التوحيد والنبوة وغير ذلك من مكارم الأخلاق. ولا يصح أن تكونوا أنتم يا أهل الكتاب أول كافر بهذا القرآن فيتبعكم غيركم فيكون إثمه عليكم. ولاتستبدلوا بسبب تحريف آياتى فى التوراة من حذف صفة محمد ﷺ ثمنا قليلا هو حب الرياسة وزخرف الدنيا واحذروا عذابى ولا تخلطوا الحق الذى أنزل عليكم بالباطل الذى تفترونه. ولا تكتموا الحق وهو صدق محمد ﷺ وأنتم تعلمون أنكم ملبسون كاتمون. فإذا آمنتم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واخضعوا لأوامر الله عز وجل مع الخاضعين لها من المسلمين. أنظر الآية (٦٥) من سورة النساء صفحة ١١٦. والآية (٥٥) من سورة المائدة صفحة ١٤٨. وكان الأحبار يأمرون أتباعهم بالعمل بما فى التوراة من البر والتقوى. وكانوا هم لا يعملون إلا بما يوافق شهواتهم. فوبخهم الله بقوله: أتأمرون أتباعكم بالخير وتتركون أنفسكم مع أنكم أنتم الذين تقرأون التوراة؟ أليس لكم عقل يمنعكم من هذا؟

﴿عدل﴾: فداء.

﴿يسومونكم﴾: يذيقونكم.

المعنى: وأستعينوا على ما يلاقيكم بالصبر وعدم الضجر وبالصلاة لأنها تربط المرء بربه فلا يبالى بشىء. وأن الصلاة الصحيحة الكاملة التى تحدث هذا الأثر شاقة على النفوس

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ[1]
إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ[2] ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟[3] رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ[4] ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[5] ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ
ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ[6] ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟
يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ[7]
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم[8]
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ[9] وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا[10] مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ[11] ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

اللاهية اللاعبة، دون النفوس الخاشعة المطمئنة، لأنهم يوقنون أنهم سيلاقون ربهم الذى يقفون بين يديه فى الصلاة يدعونه تضرعا وخيفة، يلاقونه بالبعث ويرجعون إليه للحساب والجزاء، ثم أعاد تذكيرهم بنعمته عليهم ليذكر منها تفضيل آبائهم على عالمى زمانهم. ثم أنذرهم بقوله: واتقوا يوما أى خافوا يوم القيامة الذى لا تنفع فيه نفس صالحة نفسا عاصية بشىء، ولا يقبل فيها شفاعة مطلقا إذا كانت كافرة، إلا بإذنه تعالى إذا كانت مؤمنة عاصية، ولا يقبل من الجميع فداء، ولا تجد نفس عاصية مَنْ ينصرها فيمنع عنها العذاب، واذكروا يا بنى إسرائيل حين نجيناكم من فرعون وقومه لما كانوا يذيقونكم أشد العذاب من ذبح الذكور من أبنائكم وترك البنات أحياء. وفى هذا ابتلاء لكم عظيم لما فيه من إهانة النساء وإذلال الرجال، واذكروا نعمته عليكم حين فلق لكم البحر الذى دخلتموه فراراً من فرعون فأنجاكم، وأغرق فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وفى هذا سرور عظيم بهلاك العدو. واذكروا أيضا حين ضربنا لموسى موعداً أربعين ليلة نعطيه بعدها التوراة التى فيها هدايتكم، وبعد ذهابه عبدتم العجل، فظلمتم أنفسكم، وكان حقكم الهلاك، ولكن عفونا عنكم من بعد هذا الجرم لعلكم تشكرون نعمتنا فلا تعودون لمعصيتنا. وقد فصلت هذه القصة الأخيرة فى سورة الأعراف الآيات (١٤٢)، (١٤٨- ١٥٣) صفحات ٢١٤، ٢١٥- ٢١٦.

(١) الصلاة. (٢) الخاشعين. (٣) ملاقو.
(٤) راجعون. (٥) يا بنى إسرائيل. (٦) العالمين.
(٧) شفاعة. (٨) نجيناكم. (٩) فانجيناكم.
(١٠) واعدنا. (١١) ظالمون.

وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ
يَٰقَوْمِ[1] إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ[2]
لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ[3]
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم[4] مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ[5] مَا رَزَقْنَٰكُمْ[6] ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ
فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ[7] ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى

﴿الفرقان﴾: الفارق بين الحق و الباطل.
(الصاعقة) صوت شديد مصحوب بنار.
﴿المن﴾: مادة حلوة تشبه العسل..
﴿السلوى﴾: الطير السمانى. ﴿رغدا﴾: كثيرا طيبا. ﴿القرية﴾: هى أريحاء بالشام.
﴿حطة﴾: إسقاط.

المعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل حين آتينا موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل لهدايتكم. واذكروا أيضا نعمتى عليكم بقبول التوبة حين طلب منكم موسى أن تتوبوا عن عبادة العجل بقتل أنفسكم، لأن القتل أهون من الخلود فى النار. ولما أطعتم تاب عليكم ربكم لأنه كثير قبول التوبة رحيم بعباده. واذكروا حين تعنتم وطلبتم رؤية الله عز وجل عيانا ليخبركم بصحة ما جاء به موسى فأهلكتكم الصاعقة وأنتم تنظرونها تحل بكم فيزداد فزعكم، ثم بعد ذلك أحييناكم لعلكم تشكرون ربكم. ومن نعمنا عليكم أننا حفظناكم من شدة حر التيه مدة أربعين سنة كما فى الآية (٢٦) من سورة المائدة صفحة ١٤١. بتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى لئلا يقتلكم الجوع فى الصحارى القاحلة. وما ظلمنا هؤلاء اليهود حين عصوا ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بتسببهم فى العقاب. واذكروا حين أنقذناكم من التيه وقلنا لكم ادخلوا قرية أريحاء متواضعين لله، وكلوا هنيئا من خيراتها، وقولوا عند دخولكم بابها. طلبنا

(١) ياقوم.
(٢) ياموسى.
(٣) الصاعقة.
(٤) بعثناكم.
(٥) طيبات.
(٦) رزقناكم.
(٧) خطاياكم.

منك يا رب حط وإسقاط خطايانا عنا. فنغفر للمخطىء منكم، ونزيد المحسن إحسانا. فبدل الظالمون منكم كلمة (حطة) بكلمة (حنطة) بالنون استهزاء بما قيل لهم كما يفعل السفهاء.

﴿رجزا﴾: عذابا..

﴿استسقى﴾: طلب السقيا أى الشرب.

﴿مشربهم﴾: موضع شربهم.

﴿تعثوا﴾: تفسدوا..

﴿بقلها﴾: ما تنبته الأرض من الخضر كالكرفس والكراث وكل ما يغرى بالأكل.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ[1] لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ[2] ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ[3] بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ[4] وَٱلصَّٰبِـِٔينَ[5] مَنْ

﴿قثائها﴾: أخت الخيار ويسميها العامة فى مصر (قتة).

﴿فومها﴾: ثومها.

﴿مصرا﴾: بلدا كبيرا فى الحضر.

﴿باءوا﴾: رجعوا.

﴿الذين هادوا﴾: أى دخلوا فى اليهودية أى اليهود.. وقد تكلم الراغب الأصفهانى فى كتابه غريب القرآن صفحة ٥٦٩ عند قول الله تعالى﴿والذين هادوا﴾ فقال "الهَوْد الرجوع برفق، ومنه التهويد وهو مشىٌ كالدبيب وصار الهود فى المتعارف التوبة من الذنب. قال تعالى ﴿إنا

(١) يا موسى.
(٢) بآيات.
(٣) النبيين.
(٤) النصارى.
(٥) والصابئين.

هدنا إليك﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧. أى تبنا إليك. وقال بعض العلماء: يهود فى الأصل قولهم (هدنا إليك) وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم اسما لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح ويقال هاد فلان إذا تحرى طريق اليهود فى الدين. والعرب قد تشق من اسم العلم فعلا فتقول (من لفظ فرعون) تَفَرْعَنَ أى صار جبارا كفرعون مصر، وتقول فلان تَطَفَّل إذا فَعَل فِعْلَ الطفل الصغير وصار يحضر الموائد بدون دعوة من أصحابها، ومنه الطُفَيْلىّ الذى يحضر بدون دعوة كما يفعل الأطفال.

﴿الصابئين﴾: قوم كانوا على دين نوح ثم حرفوا وعبدوا الكواكب.

المعنى: فلما بدلوا ما قيل لهم أنزلنا على الظالمين منهم عذابا بسبب فسقهم. واذكروا يا بنى إسرائيل حين طلب موسى من ربه الماء ليشرب قومه فى التيه ففجرنا لهم اثنتى عشرة عينا بعدد قبائل الأسباط المشار إليهم فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٨. لتعلم كل قبيلة مكان شربها فلا يزاحمها غيرها، وقلنا لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا مما رزقناكم، ولا تفسدوا فى الأرض فتعدوا فى عداد المفسدين قبلكم. واذكروا حين قلتم وأنتم فى التيه لموسى لن نصبر على طعام واحد لا يتغير، هو المن والسلوى. فاطلب من ربك ما يفتح شهيتنا من البقول والقثاء... إلخ، فقال موسى: لا يصح أن تتركوا طعاما طيبا وتأخذوا بدله خسيسا لا يوجد إلا فى البلد الكبير فى الحضر. ثم بيَّن سبحانه مآل أمرهم حتى بعد خروجهم من التيه فقال: وضربت عليهم الذلة أى لزمهم الذل والهوان والاستكانة وعدم القوة المادية، ورجعوا بغضب من الله بسبب كفرهم بآيات الله وتعديهم على أنبيائهم بالقتل، وذلك بسبب ما تأصل فى طباعهم من الجرأة على المعاصى وتجاوز حدود الله. ومع كل هذا فباب التوبة مفتوح لكل الطوائف. فالذين آمنوا بمحمد واليهود والنصارى والصابئون هم من آمن منهم إيمانا صحيحا.

﴿ميثاقكم﴾: هو العهد على العمل بما فى التوراة.

﴿الطور﴾: الجبل المعروف الذى ناجى موسى ربه عليه.

ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا[1] فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ[2] وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم[3] بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ[4] (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[5] (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا[6] نَكَالًا[7] لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[8] (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)

﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾: قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى الجزء الأول من تفسيره صفحة ٣٤٠: ذكر لنا سبحانه دفع الطور فوق بنى إسرائيل ولم يذكر لنا أنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان وإنما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقد قال تعالى فى سورة الأعراف فى الآية ١٧١ صفحة ٢٢٠. ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾. والنتق الزعزعة والهز والجذب، والعرب تقول نتق الشيء ينتقه، وينتقه من باب ضرب يضرب. ونتق ينتق نتقا إذا جذبه واقتلعه، وقد يكون ذلك فى الآية بنوع من الزلازل كما يدل عليه تعبير النتق وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة، والمفهوم من أخذ الميثاق منهم لإيمانهم وعاهدوا موسى عليه ورفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات رأوها بعد أخذ الميثاق، كان ذلك ليأخذوه بقوة واجتهاد، والله أعلم. (السبت): هو اليوم المعروف بهذا الأسم من أيام الأسبوع.

---

(١) صالحا.
(٢) ميثاقكم.
(٣) آتيناكم
(٤) الخاسرين
(٥) خاسئين.
(٦) فجعلناهم.
(٧) نكالا.
(٨) الجاهلين .

وتفصيل حادثته فى الآية ١٦٣ من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

﴿خاسئين﴾: أذلاء حقيرين.. ﴿نكالا﴾: عبرة مانعة من ارتكاب مثلها.

﴿ما بين يديها﴾: هى الأمم التى فى زمانها. ﴿ماخلفها﴾: الأمم الآتية بعدها.

﴿هزوا﴾: مهزوءا بنا.

﴿فارض﴾: مسنة كبيرة.

﴿عوان﴾: وسط.

المعنى من آمن من كل هذه الطوائف إيمانا صحيحا بالله إلخ فلا يضيع أجره عند الله، ولا يخاف من مكروه يناله يوم القيامة، ولا يحزن على فوات مرغوب. واذكروا يا بنى إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد على العمل بالتوراة وقد رفعنا فوق رءوسكم الجبل لنريكم قدرتنا وآياتنا وقلنا لكم خذوا التوراة بجد واجتهاد وتدبروا ما فيها واعملوا به لتفوزوا بتقوى الله، ثم بعد هذا التشديد فى الميثاق أعرضتم عن الوفاء به، فلولا فضل الله بتوفيقكم للتوبة ورحمته بعفوه عن ذنوبكم لكنتم من الهالكين. ولقد عرفتم الذين تجاوزوا الحد منكم فى يوم السبت بصيدهم الحيتان وقد نهوا عن ذلك كما هو مبين فى الآية ١٦٣ من سورة الأعراف فمسخناهم قردة محقرة، وجعلنا تلك العقوبة عبرة للأمم الموجودة فى عصرها ولمن يأتى بعدها وتذكيرا للمتقين ليزدادوا تقى. واذكروا حين قال موسى لقومه عندما اختلفوا فى قتل شخص: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقوة فقالوا أتهزأ بنا. قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين الذين يستهزئون. قالوا: اسأل الله يبين لنا ماسنها، قال إنه يقول إنها بقرة متوسطة السن لا مسنة ولا صغيرة، بل وسط بين ذلك.

﴿فاقع﴾: شديد الصفرة..

﴿ذلول﴾: سهلة القيادة متمرنة على العمل.

﴿تثير الأرض﴾: تحرثها (الحرث): الأرض المهيأة للزراعة.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ[1] ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ[2] عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ[3] جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ[4] فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ[5] لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ[6] وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

﴿مسلمة﴾: خالية من العيوب...

﴿الشية﴾: بقعة من لون يغاير اللون العام للشيء. ﴿إدارأتم﴾: تخاصمتم وصار كل يدرأ الشبهة عن نفسه.

المعنى: قالوا أطلب من الله بيان لونها، قال إنها صفراء شديدة الصفار تسر الناظر إليها، قالوا بين لنا هل هى عاملة تحرث وتسقى أم سائمة لم تعمل أبدًا. قال: هى سائمة ليست سهلة القياد ولم تعمل فى حرث ولا سقى وليس بها علامة من لون آخر غير الصفرة. قالوا الآن جئت بالبيان الوافى. وبحثوا كثيرا حتى وجدوها وذبحوها بعد مشقة فى العثور عليها، وبما أنكم قتلتم نفسا واختلفتم فى معرفة القاتل والله سيخرجه من بينكم فاضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة، فضربوه فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ثم مات ثانيا.. فكما أحيا الله هذا الرجل أمام أعينكم هو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة للحساب، فلا يصح إنكاره بعد أن رأيتم هذه الأدلة فاعقلوها.. ثم بعد كل هذا قست قلوبكم أيها اليهود وتصلبت عن قبول الحق، فهى كالحجارة فى القسوة أو أشد، لأن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار الواسعة، ومنها ما يشقق طولا وعرضا فيسيل منه الماء، ومنها ما يهبط من أعلى الجبل طوع ما يريد الله لا يتأخر. فالحجارة أنفع من قلوبكم مع تنفيذها ما هيئت له، أما أنتم فتعملون نقيض ما طلبه الله منكم، وما الله بغافل عما تعملون، وسيجازيكم عليه.

---

(١) الناظرين. (٢) تشابه. (٣) الآن.
(٤) فادارأتم. (٥) آياته. (٦) الأنهار.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ[1] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ[2] اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ[3] إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

﴿أمانى﴾: أكاذيب. كان النبى ﷺ وأصحابه يظنون أن أقرب الناس إلى الإيمان هم اليهود دون المشركين والنصارى، لأن أغلبهم موحدون ولأن الإسلام خفف عنهم ما شددت فيه التوراة، فقال سبحانه لنبيه وأصحابه: أبعد كل ما سمعتموه من جرائمهم التى عددناها لكم فيما سبق مازلتم تطمعون فى أن يصدقوا دينكم لأجل دعوتكم لهم إليه مع أنهم منغمسون فى شرور أخرى، فمنهم أحبار يحرفون التوراة ويفسرونها تفسيرا فاسدا ليحافظوا على شهواتهم وهم يعلمون أنهم مفترون. ومنهم منافقون إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا مثلكم بصدق ما جاء به النبى، وإذا خلا بعض اليهود من هؤلاء المنافقين ببعض آخر لم ينافق قال هذا الأخير مخطئا الفريق المنافق: كيف تخبرون المسلمين بما أطلعكم الله عليه فى التوراة من صدق نبيهم فيقيموا عليكم الحجة يوم القيامة بأنكم كنتم تعرفون صدقه. أفلا تعقلون أنكم بعملكم هذا أضعتم حجة لنا كان يمكن أن نعتذر بها يوم القيامة، وهى أن نقول إنا كنا نجهل أنه نبى. فسفه سبحانه عقولهم بقوله أولا يعلم هؤلاء السفهاء أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم فريق أميون لا يعلمون من التوراة إلا أكاذيب تلقوها عن رؤسائهم فليس عندهم إلا ظن ووهم لا يغنى من الحق شيئا، ومن أحبارهم فريق يكتب بيده كتابا ويقول لأتباعه هذا من التوراة ليتوسل بذلك إلى متاع زائل. فالهلاك والعذاب لهؤلاء بسبب افترائهم وبسبب كسبهم الخبيث. ولما توعدهم القرآن بالنار قال رؤساؤهم لعوامهم ليصرفوهم عن الخوف من النار: إن فى التوراة أن النار لن تمس اليهود إلا أربعين يوما، وهى المدة التى عبد فيها أجدادهم العجل. فرد سبحانه بقوله هل أتخذتم بذلك وعدا من الله أم تفترون على الله بغير علم..

---

(١) بغافل. (٢) كلام. (٣) الكتاب.

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

﴿الميثاق﴾: العهد.

﴿وقولوا للناس حسنا﴾: أى قولا حسنا جدا كأنه هو الحسن نفسه.

﴿تظاهرون عليهم﴾: تتعاونون.

﴿الإثم﴾: المعصية.

﴿العدوان﴾: الظلم.

﴿تفادوهم﴾: تفكوا أسراهم بالفداء.

المعنى: بلى، أى ستمسكم النار خالدين فيها، لأن حكم الله العام فى كل الأمم أن من أرتكب سيئة واسترسل فى الخطيئة حتى سدت عليه منافذ النجاة فمات على الشرك فإنه يخلد فى جهنم لا فرق بين يهودى وغيره، أما من آمن وعمل صالحا فإنه يخلد فى الجنة.

(١) وأحاطت.
(٢) أصحاب.
(٣) خالدون.
(٤) الصالحات.
(٥) أصحاب..
(٦) خالدون
(٧) ميثاق.
(٨) إسرائيل.
(٩) وبالوالدين.
(١٠) واليتامى.
(١١) والمساكين.
(١٢) الصلاة.
(١٣) الزكاة.
(١٤) ميثاقكم.
(١٥) دياركم.
(١٦) ديارهم.
(١٧) تظاهرون.
(١٨) والعدوان.
(١٩) أسارى.
(٢٠) تفادوهم

وأذكر حين شددنا عليهم العهد فى التوراة بأن لا يعبدوا إلا الله ويحسنوا للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا القول الحسن كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى الشهادة وغير ذلك، وأن يصلوا ويزكوا على الوجه المشروع فى التوراة، فقبلتم أيها اليهود هذا العهد ثم انصرفتم عن الوفاء به وأنتم على عادتكم من الإعراض عن كل خير إلا قليلا منكم وهم من أحسنوا صنعا فيما مضى ومن آمنوا بمحمد الآن. وكان بالمدينة قبل الإسلام حروب بين قبيلتين من العرب هما الأوس والخزرج و كان بعض اليهود حليفا للأوس، والبعض الآخر حليفا للخزرج، وكان كل فريق من اليهود يقاتل اليهود الذين مع الفريق الآخر ويخرجونهم من ديارهم ويأسرونهم، وبعد أنتهاء الحرب يفدى كل فريق من اليهود أسرى اليهود من الفريق الآخر، فإذا سئلوا كيف تفدونهم وقد كانوا يقاتلون مع أعدائكم؟ قالوا لأن الله أمرنا فى التوراة بفداء أسرى اليهود. فإذا قيل لهم ولم تقاتلونهم وهم منكم؟ قالوا: حياء من أن يغلب حلفاؤنا العرب. وكان الله سبحانه قد أخذ عليهم العهد فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرجه من داره، وأن يفديه إذا أسر، وكانوا جميعا أقروا بهذا العهد وشهد كل منهم على الآخر به، ولما خالفوا التوراة فى عدم القتل وعدم الإخراج فأخرجوا إخوانهم من ديارهم وتعاونوا مع العرب على العدوان عليهم ومع ذلك حافظوا على الفداء، وبخهم الله تعالى بقوله: أفتؤمنون ببعض التوراة وهو ما فيه الأمر بالفداء وتكفرون ببعضها وهو ما فيه تحريم القتل والإخراج من الديار، ونظير هذا الرد سيأتى فى الآية (٩١) من سورة البقرة صفحة ١٨.

﴿قفينا﴾: أتبعنا رسولا بعد رسول.

﴿روح القدس﴾: الروح المقدس الطاهر وهو جبريل.

﴿غلف﴾: جمع أغلف أى مغلفة ومغطاة لا يصل إليها شىء.

﴿يستفتحون﴾: يطلبون الفتح والنصر.

المعنى: فما جزاء من يفعل هذه الجرائم إلا ذل فى الدنيا. وقد وقع ذلك بقتل بنى قريظة وطرد بنى النضير من يهود المدينة إلى الشام. ويوم القيامة يلاقون أشد العذاب. أولئك الذين

ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قتلوا أنفسهم إلى آخر ما تقدم، هم الذين اختاروا نعيم الحياة الدنيا الزائل على نعيم الآخرة الخالد، فلا يخفف عنهم عذاب جهنم ولا يجدون من يدفعه عنهم. ولقد آتينا موسى التوراة، وجئنا من بعده بالرسل رسولا بعد رسول، وآتينا عيسى بن مريم المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وبقية ما جاء فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران وقويناه بجبريل الطاهر من كل دنس، يسير معه حيث سار، فلم يستقم لكم معه حال، فهل يصح منكم أنه كلما جاءكم رسول بما لا تحب نفوسكم الخبيثة تحاربونه وتكذبونه وتقتلونه إن قدرتم على قتله؟ وقال هؤلاء اليهود لنبينا محمد ﷺ تيئيسا له من إيمانهم بما جاء به: قلوبنا مغلفة فى أغطية لا تفهم ما تقول يا محمد فلا تحاول أن تجعلنا نتبعك، والحقيقة أنهم مخادعون وأن قلوبهم أصلها كقلوب غيرهم.. يمكنها الوصول للحق لو تركت الحسد وأخلصت، ولكنها لم تخلص، فكان جزاؤهم لعنة الله والطرد من رحمته بسبب طول عهدهم بالكفر بأنبيائهم وكتبهم، فلا يؤمنون إلا بالقليل كإيمانهم بما يوافق شهواتهم مما ذكر فى التوراة كفداء الأسرى المتقدم، وهذا لا يدفع عنهم من الخلود فى النار شيئا. وكان اليهود فى الجاهلية إذا قاتلوا المشركين يقولون اللهم انصرنا عليهم بمجىء نبى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة، ولما جاء القرآن بصدق ما فى التوراة من أصول العقائد وصفة الرسول وجاءهم الرسول الذى عرفوه وكانوا يستنصرون به على المشركين، كفروا به حسدا لأنهم كانوا

(١) الكتاب. (٢) الحياة. (٣) القيامة. (٤) بغافل. (٥) الحياة.
(٦) الكتاب. (٧) البينات. (٨) وأيدناه. (٩) كتاب. (١٠) الكافرين.

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن

يطمعون أن يكون من بنى إسرائيل، فلما جاء من العرب الأميين حسدوه وحاربوه حرصا على الجاه، فلعنة الله عليهم، لأنهم كفروا برسوله وكتابه.

﴿اشتروا به﴾: باعوه، فاشترى وشرى كلاهما يستعمل فى البيع والشراء.

﴿بغيا﴾: حسدا وطلبا لما ليس لهم.

﴿باءوا﴾: رجعوا.

﴿أشربوا فى قلوبهم العجل﴾: أى خلط حبه قلوبهم.

المعنى: قبحت صفقة باعوا فيها نعيم الآخرة الذى كان معدا لهم لو آمنوا، فى مقابل كفرهم بالقرآن حسدا على أن ينزل الله من فضله وحيا على من اختار من عباده وهو محمد ﷺ، فرجعوا بغضب من الله على كفرهم بمحمد زائد على غضب استحقوه من قبل بالكفر بعيسى وبإضاعة التوراة، فلهم على هذا عذاب مهين مذل.

وإذا قيل لليهود الموجودين فى عصره ﷺ آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله كما أنزل التوراة على موسى قالوا يكفينا الإيمان بالتوارة التى أنزلت علينا. وفى الوقت الذى يزعمون فيه الإيمان بالتوراة هم يكفرون بالقرآن الذى أنزله الله بعدها مع أنه حق مصدق لما فى التوراة، فإذا كفروا بالتوراة نفسها.. قل لهم أيها النبى إذا كنتم صادقين فى دعوى إيمانكم بالتوراة فلأى سبب قتل آباؤكم أنبياء الله من قبل نزول القرآن ورضيتم بعملهم؟ وقد مضى نظير ما

(١) وللكافرين. (٢) بالبينات. (٣) ظالمون. (٤) ميثاقكم. (٥) اتيناكم. (٦) إيمانكم.

كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ

هنا فى الآية (٨٥) صفحة ١٦ وقل لهم أيضا قد جاءكم نبيكم موسى بالمعجزات الواضحة كالعصا واليد وفلق البحر وتظليل الغمام ثم آتخذتم العجل إلها بعد مجىء موسى بها فظلمتم أنفسكم بذلك واذكروا إذ أخذنا عليكم العهد ورفعنا الطور إلى آخر ما تقدم فى الآية (٦٣) وقلنا لكم اسمعوا ما تؤمرون به سماع قبول، قالوا بلسانهم سمعنا قولك وسنعمل، وقالوا فى سرهم عصينا أمرك كما يفعل السفهاء، وامتزج بقلوبهم حب عبادة العجل بسبب مرانهم على الكفر. قل لهم أيها النبى قبح ما يجركم إليه هذا الإيمان الكاذب، لأن الإيمان الصحيح لا يدعو إلى الكفر.. ولما كانوا يقولون لن يدخل الجنة إلا اليهود كما فى الآية (١١١) صفحة ٢٢ قال سبحانه قل لهم أيها النبى إن كانت لكم الجنة ذات النعيم العظيم كما تزعمون فتمنوا الموت الذى يوصلكم إليها إن كنتم صادقين فى أن الجنة خاصة بكم.

﴿يعمر﴾: يعيش طويلا.

المعنى: ولما كانوا كاذبين ويعلمون أن الجنة للمتقين فإنه يستحيل عليهم أن يتمنوا الموت بسبب ما ارتكبوا من الكفر وغيره، والله يعلم أنهم ظالمون لأنفسهم وللحق بتبجحهم بالباطل الواضح كالشمس، فلو تمنوا لأدخلهم جهنم. ومن إعجاز القرآن أنه لم يجرؤ أحد منهم أن يتمنى الموت لعلمهم بظلمهم. وسبب ذلك أنهم أحرص الناس على حياة، أى حياة كانت ولو حقيرة؛ وأحرص حتى من المشركين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، وقد روى البخارى أنه ﷺ

(١) الكتاب. (٢) بالظالمين. (٣) حياة. (٤) وملائكته. (٥) وميكال. (٦) للكافرين.
(٧) آيات. (٨) بينات. (٩) الفاسقون. (١٠) عاهدوا. (١١) الكتاب كتاب.

قال: (والذى نفسى بيده لو تمناه أحدهم لمات غاصًا بريقه).. ولأنهم يعلمون فى نفوسهم أن محمداً رسول الله حقا وأنه صادق فى كل ما يقول خافوا جميعا من هذا التحدى الصريح الذى لا يحوم حوله الشك. انظر المباهلة فى الآية (٦١) من سورة آل عمران صفحة ٧٢. وكانوا يعرفون ذلك وصدقه كما يعرفون أبناءهم.. أنظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨؛ ولهذا يحب أحدهم لو يعيش ألف سنة خوفا من عذاب ما بعد الموت، وليس تعمير أحدهم ألف سنة بمنجيه من العذاب، لأن الله تعالى عليم بعملهم وسيعاقبهم حتما.

ولما كانوا تعللوا أولا بأن إيمانهم بالتوراة يكفيهم ورد عليهم بما تقدم، وتعللوا ثانيا بأن الجنة خاصة بهم فلا خوف عليهم ورد عليهم، تعللوا ثالثا بأنه كان يمكن أن يؤمنوا بمحمد لو كان الذى يأتيه بالوحى ميكائيل لأن جبريل كما زعموا عدوهم، فهو الذى أخبرهم بتخريب بيت المقدس على يد عدوهم بختنصر، كما فى أول سورة الإسراء، وهو الذى يطلع محمدا على أسرارهم، فقال الله عز وجل قل لهم أيها النبى من كان منكم عدوا لجبريل فهو عدو لله، لأن جبريل ما نزل القرآن على قلبك إلا بإذنه تعالى هذا القرآن المصدق لما تقدمه من التوراة والإنجيل، فكان حق جبريل الشكر لا الكراهية، والقرآن هاد من الضلال ومبشر للمؤمنين بالنعيم الخالد. فإن كنتم مؤمنين حقا فكيف تكرهون البشرى، فاسمعوا القول الفصل: من كان عدوا لله بكفره بما أنزل، وللملائكته لكراهة قيامهم بواجبهم، ولرسله بالتكذيب والقتل، ولجبريل بكراهتهم له لأنه ينزل بالإنذارات ولميكائيل وهو كجبريل، فمن عادى جبريل فقد عاداه، ولهذا خصهما بالذكر مع دخولهم فى عموم الملائكة، من عادى واحدا مما ذكر فإن الله تعالى يعامله معاملة الأعداء لأنه كافر فيخلده فى النار، ولقد أنزلنا إليك أيها النبى على لسان جبريل هذا القرآن الواضح فلا يكفر به إلا الخارج عن طريق الحق. وكان اليهود عاهدوه ﷺ على أن لا يعاونوا المشركين عليه ونقض هذا العهد أكثرهم على طريقتهم فى نقض العهود، فوبخهم سبحانه بقوله: هل مَرَن هؤلاء على الفسق، وكلما عاهدوا لا يوفون ولذلك لا يؤمن منهم إلا قليل وقد صدق الله، فكان اليهود أقل الطوائف إيمانا بالإسلام، ولما جاء محمد رسولا من الله يؤيد التوراة على الوجه المبين فى الآيتين (٤١) ، (٨٩) من سورة البقرة طرح فريق منهم التوراة وراء ظهره ولم يعملوا بما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ كأنهم لا يعلمون شيئا منها.

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ[1] عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ[2] وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ[3] وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ[4] كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ[5] وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ[6] مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ[7] وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا[8] وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ

﴿واتبعوا ما تتلوا.... الآية﴾: هذا معطوف على قوله سبحانه وتعالى ﴿نبذ فريق﴾.

﴿الشياطين﴾: يراد بهم الخبثاء من الإنس كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة البقرة وكما سيأتى فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

﴿السحر﴾: المراد به هنا ما يزاوله بعض خبثاء الإنس من أفعال يكون لها أثر فى شخص آخر من غير اتصال..

﴿بابل﴾: بلد قديم بالعراق كان يكثر فيه السحر.

﴿هاروت وماروت﴾: بيان للملكين المذكورين سابقًا، والمراد ما أنزل على الملكين اللذين هما هاروت وماروت، أنزل الله عليهما وصف السحر وكيفية الاحتيال به ليعرفاه للناس ليتجنبوه كما يعلم رجال الأمن أى رجال الشرطة حيل اللصوص فى ارتكاب الجرائم ليتمكنوا من مقاومتهم والقبض عليهم.

﴿فتنة﴾: أى سبب ابتلاء وامتحان ليتميز المطيع من العاصى.

﴿اشتراه﴾: أخذه.

---

(١) الشياطين.
(٢) سليمان.
(٣) سليمان.
(٤) الشياطين.
(٥) هاروت وماروت.
(٦) اشتراه.
(٧) خلاق.
(٨) راعنا.

﴿خلاق﴾: نصيب.

﴿شروا به أنفسهم﴾: باعوها.

﴿انظرنا﴾: انتظرنا. المعنى: واتبع اليهود السحر الذى كانت تشيعه النفوس الخبيثة عن ملك سليمان من أن عهده راج فيه السحر، وأنه ما سخر الريح والجن إلا بالسحر، وقد دونوا هذه الشرور والمفاسد فى كتب يتلونها على الناس ليضللوا عقولهم وينحرفوا عن الطريق المستقيم كما هى طبيعتهم دائما، فرد سبحانه كل ذلك بقوله: وما كفر سليمان، أى لم يعمل بالسحر الذى يكفر من عمل به ولكن شياطين الإنس من اليهود هم الذين كفروا بالعمل به وتعليم الناس ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل، وذلك أن كثرة شيوع السحر فيها اقتضت أن يرسل الله تعالى ملكين فى صورة رجلين بهذين الإسمين هاروت وماروت يبصران الناس بحقيقة السحر وكيفية الاحتيال به ليبتعدوا عنه، وكانا لا يعلمان أحدا إلا ونصحاه بأن تعليمنا هذا سبب فتنة واختبار يظهر به الصالح من الطالح فلا يخدعك به أحد. ولا تكفر بالعمل به، فالصالح ابتعد عن العمل به، والفاسق صار يفسد به العلاقة بين الزوجين. ولولا أن الله تعالى ترك الأسباب تنتج مسبباتها لمنع ضرره كما منع النار عن حرق نبيه إبراهيم. فهؤلاء الخبثاء تعلموا ما ضرهم ولم ينفعهم لفساد طبعهم، ولقد علموا من الملكين أن من اختار العمل به لكسب متاع الدنيا فليس له فى نعيم الآخرة نصيب، وقبح ما باعوا به ثواب أنفسهم لو كانوا يعلمون علما نافعا. ولو أنهم آمنوا وخافوا الله لعلموا أن رضا الله خير من متاع زائل. وكان المسلمون الذين يحضرون مجلسه ﷺ لسماع الوحى يقولون له عند تلاوته يا رسول الله: راعنا أى راقب حالنا وانتظرنا، حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا لئلا يفوتنا شىء. فسمعهم اليهود وانتهزوها فرصة للسخرية منه ﷺ، فصاروا يقولون يا أبا القاسم راعنا، يوهمون أنهم يريدون المراعاة ولكنهم يريدون (أنت راعنا) من الرعونة والطيش، فنهى الله المسلمين عنها وأمرهم أن يقولوا بدلها، أنظرنا أى انتظرنا، وأن يحسنوا السماع حتى لا يحتاجوا إلى طلب الإمهال. وللكافرين من هؤلاء اليهود عذاب شديد.

أَهْلِ الْكِتَٰبِ[١] وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ[٢] وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا[٣] رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ[٤] فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[٥] لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ[٦] كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[٧] وَآتُوا الزَّكَاةَ[٨] ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

(١) الكتاب.
(٢) السموات.
(٣) تسألوا.
(٤) بالإيمان.
(٥) الكتاب.
(٦) إيمانكم.
(٧) الصلاة.
(٨) الزكاة.

﴿ننسخ﴾: نغير.

﴿من آية﴾: (من) تدل على النص على عموم نفى ما بعدها و﴿آية﴾ المراد بها هنا (المعجزة..)

﴿ننسها﴾: نذهبها من الذاكرة.. ﴿من ولى ولا نصير﴾: ﴿من﴾ كالسابقة فى ﴿من آية﴾ و﴿الولى﴾: هو الصديق الذى يدفع الضر عن صديقه بالحسنى و﴿النصير﴾: هو الذى يدفعه بالقوة. ﴿أم تريدون.. إلخ﴾: ﴿أم﴾ حرف متضمن معنى حرفين (بل) التى تفيد الانتقال من كلام لآخر، وهمزة الاستفهام التى تفيد التوبيخ، والخطاب فى تريدون للكفار من أهل مكة واليهود لأن لكل أمة دعوته ﷺ أرسل لهم كما أرسل لغيرهم.

﴿من يتبدل الكفر بالإيمان﴾: يفضل الكفر على الإيمان.

﴿سواء السبيل﴾: وسط الطريق[١]..

﴿ود﴾: أحب

المعنى: لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون عبّاد الأصنام أن ينزل الله عليكم أيها المؤمنون خيرا من وحى ورحمة. والله يختص برحمته ورسالته من يشاء من عباده كمحمد ﷺ بالرسالة والهداية وأمته بالرحمة سواء أحب هؤلاء أم كرهوا[٢]. والله وحده هو ذو

(١) انظر سواء السبيل في شرح آية (٢٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٩.
(٢) انظر الآية ٩٠ من سورة البقرة صفحة ١٨.

الفضل والخير يضعه كما يشاء. ولما كان المشركون يقولون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ[٣]. ويقولون لو جاء بمعجزات مثل معجزات موسى لآمنا به[٤]: وقالت اليهود أنزل علينا يا محمد كتابا من السماء[٥]: فلما حصل كل هذا رد سبحانه عليهم بقوله: (ما ننسخ الخ) أى ما نترك تاييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنبى سابق، أو ننسى الناس هذه المعجزة السابقة لطول العهد بها إلا وأيدنا هذا الرسول المتأخر بمعجزة خير من السابقة فى قوة الاقناع وإثبات النبوة. أو مثلها فى ذلك تكون مناسبة لعصر نبيها، وذلك لما عندنا من القدرة التى تمكننا من عدم التقيد بمعجزة واحدة لجميع الرسل.

ألم تعلم أيها المخاطب أن الله مالك السموات والأرض يفعل فيهما ما يشاء، وليس لكم أيها الناس من دونه تعالى صديق يدفع عذاب الله عنكم بالشفاعة، ولا نصير يمنع عذابه عنكم إن عصيتم، فهل تريدون يأهل مكة باقتراحكم معجزات معينة أن تسألوا رسولكم محمدا ﷺ كما سأل اليهود موسى من قبل معجزة معينة ولم يكتفوا بمعجزاته الكثيرة، وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[٦]؟ إنكم إن فعلتم ذلك فقد اخترتم الكفر، ومن يختر الكفر ويترك الإيمان فقد انحرف فى سيره عن وسط الطريق، فلابد أن يخرج منه ويقع فى الهاوية[٧]. لقد أحب كثير من اليهود والنصارى أن يردوكم أيها المؤمنون من بعد إيمانكم إلى الكفر، لا لاعتقاد أنه صواب، بل لحسدهم لكم من بعد ما تبين لهم فى التوراة الحق من أن محمدا رسول الله حقا وأن دينه صدق. فاعفوا عنهم الآن ولا تؤاخذوهم بجرمهم واصفحوا عنهم فلا توبخوهم حتى يأذن الله بقتالهم، وقد فعل سبحانه فأذن فى قتال بنى قريظة وطرد بنى النضير، وهو قدير على نصركم وخذلانهم. فاطلبوا نصره تعالى بالمداومة على طاعته البدنية والمالية، فأقيموا الصلاة، وأدوا الزكاة لأصحابها، وما تقدموا من خير بعد ذلك ستجدون ثوابه عنده تعالى، لأنه يعلم أعمالكم ولن يضيع أجرها.

(٣) أنظر الآيات ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧.
(٤) أنظر الآية ١٢٤ من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. والآية ٤٨ من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤.
(٥) أنظر الآية ١٥٣ من سورة النساء صفحة ١٢٩.
(٦) أنظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١.
(٧) أنظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩.

﴿هودا﴾: أى يهودًا، والمراد من كان يهوديا.

﴿أو نصارى﴾: (أو) هنا للتقسيم لا للترديد لأن كلا منهما يكره الآخر ويرى أنه على باطل كما سيأتى فى الآية (١١٣) من هذه السورة الآتية فى هذه الصفحة.

(بلى): حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده، وأنه هو الحق.

﴿أسلم وجهه.... إلخ﴾: جاء فى لسان العرب أسلم فلان فلانا إلى خصمه أى تركه للهلاك ولم يحمه منه، ومنه حديث رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم: لا يَظلمه ولا يسلمه... الحديث».

عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ[1] تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ[2] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[3] ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ[4] عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ[5] لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ[6] كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[7] فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ[8] ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ

وأسلم فلان أمره لله، فالفعل فى كل ذلك متعد لمفعول. ويقال أيضا أسلم الرجل أى انقاد، ومنه (يحكم بها النبيون الذين أسلموا)[1] وقوله تعالى (وأتونى مسلمين)[2] وقوله سبحانه (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)[3]. و يقال أيضا أسلم الرجل أى دخل فى الإسلام، والفعل فى ذلك لازم غير متعد، وقد يكون أصله من المتعدى ولما حذف مفعوله كثيرا صار كاللازم، والأصل أسلم الرجل نفسه لله، فتفسيره بأسلم (اللازم) تفسير لحاصل المعنى، وكذا يقال فى أسلم بمعنى انقاد والأصل أسلم قياده لغيره. و(الوجه) هو توجه القلب والنية[4]. وقال المرحوم الشيخ محمد عبده: إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده، وإفراده بالعبادة كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة (إياك نعبد وإياك نستعين). وقد عبَّر القرآن هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشىء

(١) نصارى.	(٢) برهانكم.	(٣) صادقين.	(٤) النصارى.
(٥) النصارى.	(٦) الكتاب.	(٧) القيامة.	(٨) مساجد.

(١) الآية (٤٤) من سورة المائدة صفحة ١٤٥.
(٢) الآية (٣١) من سورة النمل صفحة ٤٩٧.
(٣) الآية (٨١) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.
(٤) أنظر معانى الوجه فى شرح الآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨..

القصد إلى الشىء بإسلام الوجه، كما عبَّر عنه فى مكان آخر بتوجيه الوجه حيث قال حكاية عن خليل الرحمن عليه السلام ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض .... الآية﴾[5]. وذلك لأن قاصد الشىء عادة يقبل عليه بوجهه ولا يوليه ظهره، ولما كان توجيه الوجه إلى جهة الشىء يدل على قصده وإشتغال القلب به عبَّر سبحانه عن قصد إفراده بالعبادة بإسلام الوجه. (وهو محسن): أى مجيد لعمله بأن يكون متفقا مع ما شرعه الله.

﴿وهم يتلون الكتاب): المراد من هذه الجملة هو توبيخ هؤلاء الناس على أنهم يعرفون ما فى كتبهم ويخالفونها. ﴿الذين لا يعلمون﴾: المراد مشركوا العرب ومَنْ ماثلهم.

﴿ومن أظلم﴾ أى لا أحد أشد ظلما. ﴿مساجد الله﴾: المراد من المساجد هنا أمكنة العبادة مطلقا، لا خصوص المساجد المعروفة الآن، ومثل هذا الاستعمال قوله سبحانه ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾[6] وقوله تعالى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾[7] ولم يكن الإسلام دخل فلسطين عند الإسراء. ﴿أن يذكر فيها أسمه): هذا بدل اشتمال من المساجد، وذلك لأن الذكر إذا حصل فى المساجد فهى مشتملة عليه، فهو كقولهم يعجبنى محمد علمه، والمراد منع ذكر الله فى المساجد، وذكر الله كناية عن كل العبادات التى تحصل فى المساجد من صلاة وتسبيح وقراءة قرآن وغير ذلك مما أذن الشارع فى حصوله فى المساجد.

﴿ولله المشرق والمغرب﴾: هذا كناية عن الجهات كلها. ﴿فأينما تولوا﴾: المراد فى أى جهة توجهوا وجوهكم إليها. ﴿فثَمّ﴾: أى فهناك.

﴿وجه الله﴾: الوجه هنا بمعنى الجهة، والمراد الجهة التى أمركم سبحانه بالتوجه إليها. قال الفخر الرازى: المعنى فأى مكان أمركم الله باستقباله فهو القبلة التى يرضاها. وقال ابن عباس: وجه الله أى قبلة الله والمراد أن مكان التوجه إليه لا يختص بمسجد دون مسجد، ولا بمكان دون مكان.

المعنى: وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهذه كلها تمنيات ليس لها أصل، وإلا فهاتوا دليلكم إن كنتم صادقين، ولن

(٥) الآية (٧٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥.
(٦) الآية (٢١) من سورة الكهف صفحة ٢٨٣.
(٧) الآية (١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٤.

يكون هذا، بل الصحيح أن الذى يدخل الجنة هو كل من أخلص عبادته لله وحده، وأحسن عمله، فله أجره على ذلك عند ربه يوم القيامة، ولا يخاف مكروها، ولا يحزن على فوات مرغوب. قال ابن كثير: أفادت هذه الآية أن للعمل المقبول شرطين الأول: أن يكون خالصا لله وحده، والثانى: أن يكون صوابا موافقا لما شرعه الله سبحانه، فإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لا يقلبه الله منه. وفى هذا قال ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو مردود عليه» رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها، فعمل الرهبان ومن شابهمه من المبتدعين، وإن فرض أنهم فيه مخلصون لله، لأنه لا يقبل منهم إلا إذا كان موافقا للشريعة التى جاء بها رسولهم الذى أرسل إليهم، من ذلك شريعة خاتم الرسل ﷺ الذى أرسل للناس كافةج بشريعة جديدة ناسخة لكل ما تقدمها، فكل عمل بعد بعثة محمد ﷺ جاء على خلاف ما في شريعته فهو باطل، قال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ (الآية ٢٣ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣).

وقال سبحانه ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾[٨] ثم ذكر ابن كثير بعد ذلك حادثة بكاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما زار الشام ورأى راهبا منهمكا فى العبادة[٩]. وقال سبحانه ﴿هل نبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[١٠] وأما إذا كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة فقط ولم يكن خالصا لوجه الله فهو أيضا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، لذلك هدد سبحانه المصلين رياء بالهلاك[١١] وقالت اليهود ليست النصارى على شيء يعتد به لأن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت إلى الآن فهم فى تصديقهم بعيسى على باطل. وقالت النصارى ليست اليهود على شيء يعتد به لأنهم كفروا بعيسى. وهكذا تنابذ الفريقان مع أن كلا منهما يتلو كتابه، فاليهود يعلمون ما فى التوراة من صفات عيسى وأنه رسول الله، والنصارى يعلمون ما فى الإنجيل من أن عيسى متمم لتعاليم موسى، فكان اللائق بهم أن يكونوا متفقين ضد المشركين، ولكن الشهوات مزقتهم وجعلتهم مثل المشركين الذين يقولون لكل ذى دين سماوى أنه ليس على شيء.

(٨) الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤. (٩) انظر ذلك في شرح الآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.
(١٠) انظر شرح الآيتين (١٠٣) و(١٠٤) من سورة الكهف صفحتي ٣٩٤، ٣٩٥.
(١١) انظر الآية (٤) وما بعدها من سورة الماعون صفحة ٨٢٣.

كذلك قال الذين لا يعلمون.. إلخ المراد كهذا التعصب البغيض الناتج عنه طعن فى الغير بلا دليل تَعَصَّبَ الجهلة من مشركى العرب ومَنْ على شاكلتهم، فقالوا قولا يطعنون فيه على أهل الأديان جميعا بلا دليل بل لمجرد التعصب لما عليه الآباء، فقالوا فى اليهود والنصارى إنهم ليسوا على شيء من الحق، وأن من يزعمونهم رسلا لهم إنما هم كهنة دجالون يتلون عليهم أساطير الأولين، وقال الفخر الرازى: وهذا توبيخ شديد لأهل الكتاب حيث وضعوا أنفسهم مع أنهم علماء مع من لا يعلم من جهلة المشركين.

فدعهم أيها النبى، وسيحكم الله تعالى بينهم بعدله يوم القيامة، ويجازى كل فريق على قدر جرمه، وكان اليهود خربوا معابد النصارى، والنصارى خربوا بيت المقدس فى عهد طيطس الرومانى، فذبحوا فيه الخنازير ورموا فيه الجيف، وبقى خرابا إلى أن بناه المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

والمشركون منعوا النبى ﷺ وأصحابه من دخول البيت الحرام، فقال سبحانه: ﴿فمن أظلم﴾ إلخ أى لا أحد أظلم ممن منع الناس عن عبادة الله تعالى وذكره فى المساجد أى أمكنة العبادة، وسعى فى تخريبها، مع أن اللائق بهؤلاء المانعين أن يكونوا خاشعين لله فلا يدخلوا المعابد إلا خائفين منه لا هادمين لها مانعين الناس من عمارتها بالذكر والصلاة. فهؤلاء جزاؤهم الخزى فى الدنيا، وعذاب عظيم فى الأخرى. وإذا منعكم هؤلاء المشركون من البيت الحرام فاعلموا أن الأرض كلها لله، ففى أى مكان منها وليتم وجوهكم الجهة التى أمركم بالتوجه إليها وفى ذلك إشارة إلى الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان، كما قال ﷺ «جعلت لى الأرض مسجدا».
قال ابن عباس لما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أنكر اليهود ذلك فقال سبحانه ردا عليهم ﴿ولله المشرق والمغرب.. إلخ﴾ فهى نظير قوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[١٢]. وقال الفخر الرازى: أى أن المشرق والمغرب وجميع الجهات كلها مخلوقة ومملوكة لله سبحانه وتعالى، فأى مكان أمركم الله باستقباله فهو القبلة التى أرادها لأن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله سبحانه جعلها قبلة، فإن جَعَلَ الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لأنه تعالى يدبر شئون عباده كما يريد وهو واسع الفضل عليم بمصالحهم.

(١٢) الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحة ٢٧.

وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ

﴿قانتون﴾: خاضعون.

﴿بديع السموات والأرض﴾: موجودهما على مثال لم يسبق..

﴿يقول له كن فيكون﴾: لم يعلمنا الله سبحانه حقيقة هذا القول وإنما الذى يجب علينا أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرا نفذ بقدرته سريعا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الذين لا يعلمون﴾: هم مشركوا العرب..

﴿لولا يكلمنا الله﴾: (لولا) حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده..

﴿آية﴾: معجزة. ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾: كهذا العناد الصادر عنه قول فاسد. عاند الذين من قبل العرب وهم اليهود والنصارى فقالوا أقوالا فاسدة. ﴿من ولى ولا نصير﴾: تقدم فى صفحة ٢١ السابقة.

المعنى: وإنما كان المطلوب التوجه إلى الجهة التى يرضاها لأنه واسع لا يحد ولا يحصر حتى يمكن التوجه إليه فى مكان معين، عليم بالتوجه إليه أينما كان فلا يضيع عليه أجره. وقال الألوسى: المراد أنه واسع الفضل والرحمة، فلهذا لم يضيق عليكم فى القبلة. وقالت تلك الطوائف الثلاث إن الله سبحانه جعل له ولدا، والولد يطلق على الذكر والأنثى والمفرد

(١) واسع. (٢) سبحانه.
(٣) السموات. (٤) قانتون.
(٥) السموات. (٦) تشابهت.
(٧) الآيات. (٨) أرسلناك.
(٩) تسأل. (١٠) أصحاب.
(١١) النصارى. (١٢) آتيناهم.
(١٣) الكتاب.

والجمع. فالنصارى قالوا المسيح ابن الله، وبعض اليهود قالوا العزير ابن الله، وبعض مشركى العرب قالوا الملائكة بنات الله. انظر الآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. والآية (١٤٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩.. والآية (٢١) من سورة النجم صفحة ٧٠١. تنزه سبحانه وتعالى عما يقولون، فإن له كل ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا، ولا يصح أن يكون من هذه ولد للخالق القديم الباقى، لأن الولد لابد أن يكون من جنس أبيه، وكل المخلوقات قانتة له تعالى خاضعة مسخرة لما خلقت له، وهو سبحانه خالق السموات والأرض على نظام لم يسبق، وإذا أراد إيجاد أمر حصل بلا إبطاء. وقال جهلة المشركين عنادا أطلب يا محمد أن يكلمنا الله عيانا ويخبرنا بصدقك أو يرينا حجة صدقك مما اقترحناه عليك انظر الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧. فلا تحزن أيها النبى فإن ما قالوه قالت مثله الأمم السابقة لأنبيائهم. فقد قال اليهود لموسى «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» وقالت النصارى لعيسى «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» فقد تشابهت قلوب الكفار من كل أمة فى الجحود والعناد.

وقد بينا من الأدلة ما يكفى المنصفين فيعتقدون الحق اعتقادا جازما فلم يتعنتوا.

إنا أرسلناك أيها النبى بالدين الحق مبشرا من آمن به بالجنة، ومنذرا من كفر به بالنار، فافعل ما أمرت به، ولن يسألك أحد عمن لم يؤمن من أصحاب الجحيم، لأنه ليس عليك إلا البلاغ، ولا تحاول إرضاءهم فإنهم لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعت دينهم الباطل. فقل لهم إن هدى الله الذى جاء به القرآن هو الهدى الصحيح. ولئن اتبعت شهواتهم فرضا بعدما ظهر لك من العلم بالحق فما لك من صديق يحفظك ولا نصير يمنعك من العذاب. ونزل فيمن أسلم من اليهود والنصارى قول الله سبحانه ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى التوراة والإنجيل، حال كونهم يتلوه حق تلاوته فلم يحرفوه، يؤمنون بكتابهم إيمانا صحيحا يستتبع إيمانهم بالقرآن، أما من يكفر بالكتب السابقة بالتحريف والإنكار فأولئك هم الخاسرون.

هُمُ الْخَاسِرُونَ [1] ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [2] اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [3] ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا
يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ [4] وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ * وَإِذِ ابْتَلَى
إِبْرَاهِيمَ [5] رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ [6] فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [7] ﴿١٢٤﴾
وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ
إِبْرَاهِيمَ [8] مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ [9] وَإِسْمَاعِيلَ [10] أَنْ طَهِّرَا
بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ [11] وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ [12] رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ [13] مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ

﴿عدل﴾: فداء.

﴿ابتلى﴾: اختبر وامتحن.

﴿بكلمات﴾: بأوامر ونواه منها أمره بذبح ولده الوحيد.

﴿أتمهن﴾: قام بهن خير قيام.

﴿مثابة﴾: موضعا يثوب أى يرجع إليه المنصرف عنه حياله.

﴿أمنا﴾: موضع أمان.

﴿مقام إبراهيم﴾: قيل هو الحجر الذى كان يقف عليه عند رفع قواعد البيت وقيل هو المسجد حول الكعبة، ويقول بعض محققى الفقهاء: حيثما صليت من المسجد الحرام فمقام إبراهيم.

﴿عهدنا﴾: يقول العرب: عهد الملك إلى وزيره بكذا إذا أمره به بتطهير البيت.

﴿العاكفين﴾: المقيمين فى المسجد للعبادة.

---

(١) الخاسرون.
(٢) يا بنى إسرائيل.
(٣) العالمين.
(٤) شفاعة.
(٥) إبراهيم
(٦) بكلمات.
(٧) الظالمين.
(٨) إبراهيم.
(٩) إبراهيم.
(١٠) إسماعيل.
(١١) والعاكفين.
(١٢) إبراهيم.
(١٣) الثمرات.

﴿البلد﴾: المراد به مكة.

﴿أضطره﴾: ألجأه.

المعنى: يا بنى إسرائيل آذكروا نعمتى إلى قوله تعالى ينصرون. تقدم بيانها فى الآيتين (٤٧)، (٤٨) من هذه السورة صفحة ١٠. وأذكر حين امتحن الله تعالى نبيه إبراهيم بتكاليف شاقة كأمره بذبح ولده فقام بها خير قيام. أنظر الآيات من (١٠١) إلى (١١٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. فكان جزاؤه أن جعله ربه إماما للناس يقتدون به.. أنظر الآية (٣٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. قال إبراهيم: وأجعل يا رب من ذريتى أئمة فقال سبحانه لا ينال ويصل عهدى بالإمامة الظالمين من ذريتك بالكفر والمعصية مع عمد وأصرار كما فى الآية (١١٣) من سوزة الصافات صفحة ٥٩٣. وأذكر حين جعلنا الكعبة مكانا تهوى إليه قلوب المؤمنين كلما فارقوه رغبوا فى الرجوع إليه فلا يخلو من زائرين، وجعلنا ما حولها مكان أمن لا يصاب قاصده بما يصاب به غيره من ظلم ظالم أو غارة قوى على ضعيف، فكان الرجل فى الجاهلية يلاقى فيه قاتل أبيه فلا يمسه بسوء.

واتخذوا أيها المسلمين من مقام إبراهيم الذى حول الكعبة مصلى تصلون فيه بعد الطواف بالبيت وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بأن يحفظا البيت الحرام فيصونا من خبائث الوثنية، للطائفين حوله، والعاكفين المقيمين حوله للعبادة، والراكعين الساجدين أى المصلين. واذكر حين قال إبراهيم رب أجعل هذا البلد الذى نشأ حول البيت أى مكة ذا أمن لأهله، وارزقهم من ثمرات الأرض وخيراتها ليقبلوا على طاعتك وشكرك، وأجعل رزقك هذا للمؤمن منهم خاصة فقال سبحانه: لا تخصيصى فى رزق الدنيا بل وسأرزق من كفر، لأن رزقى فى الدنيا يستوى فيه الطائع والفاجر، والذى يخص المؤمن هو نعيم الآخر ة فقط، أما من كفر فأمتعه فى الدنيا زمنا يسيرا هو مدة حياته، ثم ألجئه وأسوقه فى الآخرة إلى عذاب النار، وقبح المصير مصيره هذا.

النار وبئس المصير (١٢٦) وإذ يرفع إبراهيم[1] القواعد من البيت وإسماعيل[2] ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم ءاياتك[3] ويعلمهم الكتاب[4] والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) ومن يرغب عن ملة إبراهيم[5] إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه[6] في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين[7] (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين[8] (١٣١) ووصى بها إبراهيم[9] بنيه ويعقوب يا بني[10] إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٣٢) أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب

﴿القواعد﴾: الأسس. ورفعها بالبناء عليها.

﴿أمة﴾ جماعة.

﴿مسلمة﴾: منقادة.

﴿مناسكنا﴾: شرائع عبادتنا لك.

﴿أياتك﴾: المراد بها هنا القرآن.

﴿الكتاب﴾: المراد به هنا الخط والكتابة.

﴿الحكمة﴾: معرفة أسرار الشريعة.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم.

﴿ومَنْ يرغب عن ملة إبراهيم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مشرب معنى النفى و(يرغب) أى يعرض عنها. والمعنى لا أحد يعرض عن ملة إبراهيم. ومثلها (ومن يغفر الذنوب إلا الله) الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥..

(سفه نفسه): استخفها وامتهنها.

﴿اصطفيناه﴾: اخترناه.

﴿أم كنتم شهداء.. الخ﴾ (أم) كلمة يسميها علماء العربية منقطعة، تفيد معنى حرفين..

(١) إبراهيم.
(٢) وإسماعيل.
(٣) آياتك.
(٤) الكتاب.
(٥) إبراهيم.
(٦) اصطفيناه.
(٧) الصالحين.
(٨) العالمين..
(٩) إبراهيم.
(١٠) يابنى.

حرف (بل) الذى يفيد انقطاع الكلام الآتى بعدها عما قيل من جهة الإعراب لا من جهة المعنى، وحرف نفى يفيد النفى أى الإنكار وإبطال الكلام السابق عليهما وهو هنا كما سيأتى بيانه فى الشرح أن اليهود قالوه للنبى ﷺ كذبا فالمعنى هنا إنكار ما قالوه وإثبات نقيضه.

﴿شهداء﴾ بمعنى حاضرين.

المعنى: واذكر حين بنى إبراهيم وإسماعيل البيت قائلين يا ربنا تقبل منا عملنا هذا إنك سميع لدعائنا عليم بنياتنا، ربنا وفقنا واجعلنا مستمرين على الانقياد لك، وأجعل من ذريتنا طائفة منقادة لك، وعلمنا طرق عبادتك حتى لا نخطىء الصواب، وتب علينا مما قد يكون حصل منا، إنك كثير قبول التوبة رحيم بعبادك، ربنا اسمع دعاءنا وابعث فى ذريتنا رسولا منهم يتلو عليهم ما تنزله عليه من آياتك. وقد استجاب الله تعالى وبعث محمداً ﷺ يتلو عليهم القرآن ويعلمهم الكتابة لينقلهم من الأمية للعلم فكان أول ما نزل على هذا الرسول قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك... الذى علم بالقلم﴾ ويعلمهم أسرار شريعتك حتى يسارعوا إلى العمل.

وهذا يفيد أن العلم وحده لا يكفى فى النجاة، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك العزيز الغالب الذى لا يعجزه شيء، الحكيم الذى يدبر ما فيه المصلحة. وإذا كانت هذه ملة إبراهيم فلا يرغب عنها ويتركها إلا من احتقر نفسه وامتهنها. ولقد اخترنا إبراهيم فى الدنيا لرسالتنا، وهو فى الآخرة من الصالحين أصحاب الدرجات العلا.. اصطفيناه حين قلنا له أسلم، أى أذعن وأخلص دينك لله. فقال فورا: قد انقدت وأخلصت لله رب العالمين. ووصى بهذه الملة إبراهيم بنيه بالمحافظة عليها. وكذلك وصى بها يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم بنيه قائلا: يا بنى إن الله تعالى أختار لكم هذا الدين دين الإسلام فاثبتوا عليه فى كل لحظة حتى لا يدرككم الموت الذى قد يأتى فجأة إلا وأنتم مسلمون. ولما قالت اليهود للنبى ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات وصى بنيه باليهودية؟ رد عليهم بقوله «أم كنتم شهداء»إلخ، أى هل كنتم حاضرين وقت حضور الموت ليعقوب فسمعتم ما قال؟

﴿أمة﴾: جماعة.

﴿حنيفا﴾: مائلا من الباطل إلى الحق.

﴿الأسباط﴾: أولاد يعقوب والمراد ما أُنزل إلى الأنبياء منهم.

﴿مسلمون﴾ منقادون خاضعون.

﴿هودا﴾: أى يهودا.

﴿شقاق﴾: خلاف ومحاربة.

﴿صبغة الله﴾: أصلها الحال التى عليها الثوب المصبوغ.

ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ[1] وَإِسْمَـٰعِيلَ[2] وَإِسْحَـٰقَ[3] إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ[4] تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ[5] حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ[6] وَإِسْمَـٰعِيلَ[7] وَإِسْحَـٰقَ[8] وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ

والمراد بها هنا دين الله الذى فطر الناس عليه، فهو يخالط قلوب المؤمنين كما تخالط مادة الصباغة الثوب فلا تزول منه إلا بمشقة.

المعنى: أن الحق الذى وقع هو أن يعقوب حين حضره الموت قال لبنيه ليطمئن عليهم وليؤكد رسالته فى آخر لحظة من حياته: مَنْ الذى تعبدونه من بعد موتى؟ قالوا: نعبد الله آلهك الواحد الذى هو آله آبائك إبراهيم إلخ. وعدوا إسماعيل من آبائهم مع أنه عمهم لأن العم بمنزلة الأب، ونحن منقادون له لا نخضع لغيره وإذا رأينا ما حصل من أولاد يعقوب عليه السلام عندما خرجوا مع موسى من مصر وطلبهم إلها غير الله وعبادتهم العجل إلى آخر ما

(١) إبراهيم.
(٢) إسماعيل.
(٣) إسحاق.
(٤) نصارى.
(٥) إبراهيم.
(٦) إبراهيم.
(٧) إسماعيل.
(٨) وإسحاق...

هو مذكور فى الآيات (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ و١٤٨ من نفس السورة صفحة ٢١٥، يدرك أن يعقوب عليه السلام ساوره الخوف على أولاده من عقائد المصريين. فأراد أن يأخذ عليهم الميثاق بما فيه نجاتهم ولكن طبعهم غلب ونقضوا العهد كما هى عادتهم. تلك الجماعة من يعقوب وأبنائه وآبائه قد مضت. لها جزاء ما عملت لا تأخذ من جزاء عمل غيرها شيئا، ولكم أيها اليهود الموجودون فى عصر محمد ﷺ جزاء ما عملتم لا تأخذون من جزاء عمل غيركم شيئا، ولا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون. كما لم يسألوا هم عما كنتم تعملون. فلا تظنوا أنهم سينفعونكم. وقالوا كونوا هودا أو نصارى «أو»» للتفصيل والأصل قالت اليهود لغيرها من الأمم كونوا يهودا تهتدوا إلى الصواب. وقالت النصارى لغيرها كونوا نصارى تهتدوا إلى الصواب. قل لهم جميعا أيها النبى لن نكون كما تطلبون بل نتبع ملة إبراهيم البعيد عن الباطل، ولم يكن مشركا مثل العرب الذين يزعمون أنهم حنفاء على ملة إبراهيم. وبعد أن أمر سبحانه نبيه بأن يعلن اتباعه لإبراهيم. أمر سبحانه المؤمنين بذلك أيضا فقال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن. وما أنزل إلى إبراهيم وأولاده وأحفاده وهى الصحف المذكورة فى آخر سورة الأعلى. وما أوتى موسى من التوراة. وعيسى من الإنجيل. ثم عمم ما يجب الإيمان به فقال: وما أوتى النبيون كلهم من ربهم من الآيات والوصايا. لا نفرق بين أحد من رسل الله كما تفرقون أنتم. ونحن لله خاضعون.

فإن آمن اليهود والنصارى بالله مثل إيمانكم أيها المسلمون على أنه واحد لا ولد له وليس حالا فى غيره، منزه عن الشبيه. فقد اهتدوا للصواب. وإن تولوا عن ذلك فاعلم أيها النبى أنهم فى مشاقة وعداوة لك فلا تأمنهم. ولكن لا تفزع من عداوتهم. فإنى أنا الله سأتولى كف شرهم عنك. وقل لهم لا تحاولوا المستحيل فقد صبغنا الله أى فطرنا على دينه الحق. ولا أحسن من فطرة الله التى فطر الناس عليها إذا لم تفسدها الشياطين.

﴿أتحاجوننا فى الله﴾: تجادلوننا فى تصرفه (السفهاء): السفه طيش وخفة فى العقل.

﴿ولاهم﴾: صرفهم.

﴿عن قبلتهم﴾: بيت المقدس.

﴿وسطا﴾: خيارا عدولا لا تفريط عندكم ولا إفراط.

﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾: أنظر شهادة الرسول فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤١)

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

المعنى: ونحن لا نعبد إلا الله وحده. لما قال كل من اليهود والنصارى لن يدخل الجنة غيرهم لأن الله تعالى خصهم بالأنبياء والكتب ولم يعط العرب كتبا، ولم يكن فيهم نبى ولو كان محمد نبيا لكنا منا، رد الله تعالى قولهم فقال: قل أيها النبى لهؤلاء أتجادلوننا فى الله وتدعون أنه خصكم بكل الفضائل دون العرب وهو ربنا وربكم بل رب الناس كافة وله أن يختار من عباده مَنْ يشاء تبعا لحكمته لا لجنسيتهم، ولنا أعمالنا نجازى بها ولكم أعمالكم تجازون بها. وقد يكون فى أعمالنا ما نستحق عليه الإكرام، ونحن له تعالى مخلصون فى العمل دونكم. فنحن أولى بالاصطفاء. أم تزعمون أن إبراهيم وأولاده كانوا على اليهودية والنصرانية التى أنتم عليها. إن قالوا ذلك فقل لهم

(١) عابدون.
(٢) أعمالنا.
(٣) اعمالكم..
(٤) إبراهيم وإسماعيل.
(٥) نصاري.
(٦) شهادة.
(٧) بغافل.
(٩) ماولاهم.
(٩) صراط.
(١٠) جعلناكم.

أنتم عليها. إن قالوا ذلك فقل لهم أأنتم أعلم أم الله؟ الواقع أن الله هو الأعلم وقد برأ إبراهيم من اليهودية والنصرانية لأنهما لم يوجدا إلا من بعده أنظر الآية (٦٥) من سورة ال عمران صفحة ٧٣ وتبعته ذريته من الأنبياء. ولما كان أهل الكتاب يعلمون الحق قال مهددا لهم: ومن أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممن أخفى عن الناس شهادة من الله بصدق رسوله ﷺ، وهى عنده فى كتابه الذى أنزله الله على نبيه (التوراة والإنجيل) قال تعالى: «الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» أنظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨ التالية. وقال تعالى: ﴿ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾ أنظر الآية (٦) من سورة الصف صفحة ٧٣٩. ثم هددهم بقوله وما الله بغافل عما تعملون، أى سيجازيكم شر الجزاء. وكرر زجرهم عن الطمع فى الانتفاع بعمل آبائهم لشدة اغترارهم به فقال: تلك أمة قد خلت إلخ ما تقدم فى الآية (١٣٤) من هذه السورة. وكان اليهود يصلون إلى بيت المقدس، وقد صلى النبى ﷺ إليه زمنا ثم اشتاق إلى الكعبة كما سيأتى، فقبل أن يأذنه الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة أخبره سبحانه بما سيقوله خصومه، وكان غيبا لا يعلمه غيره سبحانه، تطمينا له ﷺ وإعدادا للجواب قبل وقوع السؤال لئلا يفاجأ بما يغضبه، فقال: سيقول السفهاء من المنافقين واليهود ومشركى قريش عندما نأذنكم باستقبال الكعبة: أى شىء صرف محمدا وأصحابه عن بيت المقدس الذى كانوا يصلون إليه؟ قل لهم أيها النبى: المشرق والمغرب وكل الجهات لله، لا فضل لجهة بذاتها على أخرى، وأن لله أن يختص ما يشاء بما شاء وهو وحده الذى يهدى مَنْ يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم، أى الدين الحق الذى يقضى بتسليم الأمر كله له تعالى بلا انحراف مع الشهوات الفاسدة. وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى الحق جعلناكم خيارا عدولا لا ماديين كاليهود والمشركين، ولا مسرفين فى الروحانيات مهملين حقوق الجسم كرهبان النصارى، بل جمع لكم دينكم بين حق الجسد وحق الروح لتكونوا شهودا عدولا يوم القيامة على الأمم قبلكم بأن رسلهم قد بلغتهم لعلمكم هذا القرآن، ويكون رسولكم شاهدا عليكم بأنكم حافظتم على الوسط ولم تنحرفوا. وما جعلنا القبلة فيما مضى هى الجهة التى كنت عليها وهى بيت المقدس ثم أمرناك بالتحول عنها إلى الكعبة إلا لنعلم علم ظهور وتحقق بعد أن كان علم غيب ويتبين لكم من يتبع الرسول ويثبت على إيمانه..

ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿ينقلب على عقبيه﴾: يرجع إلى الكفر.

﴿لكبيرة﴾: شاقة فى فهم حكمتها

﴿يضيع إيمانكم﴾: أى ثواب إيمانكم.

﴿رءوف﴾: يرفع كل بلاء ومشقة. ﴿رحيم﴾: يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عباده.

﴿تقلب وجهك فى السماء﴾: تطلعك إلى السماء راجيا من ربك بلسان الحال جعل قبلتك الكعبة.

﴿شطر المسجد﴾: جهته ﴿بكل آية﴾: حجة.

المعنى: نميز من يثبت على اتباع الرسول ممن يرجع إلى الكفر ظنا منه لضعف إيمانه أن النبى ﷺ فى حيرة من أمر دينه. وقد ارتد فعلا بعض ضعفاء الإيمان وطهر الله المؤمنين منهم، وأن هذه التحويلة من قبلة إلى قبلة لشاقة فى فهم حكمتها على ضعيف الإيمان، لكن أصحاب الإيمان الكامل والهداية يعلمون أن هذا منه تعالى لحكمة، وهؤلاء لا يضيع الله عليهم ثواب ثباتهم على الإيمان، بل يجازيهم أحسن الجزاء لأنه رءوف بعباده المخلصين، فينقذهم من البلاء، رحيم كثير الإحسان فيجزل لهم الثواب.

(١) إيمانكم.
(٢) ترضاها.
(٣) الكتاب.
(٤) بغافل.
(٥) الكتاب.
(٦) آية.
(٧) الظالمين.
(٨) آتيناهم.
(٩) الكتاب.

وكان سبحانه أمره ﷺ وهو بمكة أن يصلى إلى بيت المقدس فكان ﷺ يصلى إليه وهو قائم بجوار الكعبة يجعلها بينه وبين المقدس لخشيته من استدبارها فيشتد نفور قريش منه لشدة تعظيمهم لها لأنها قبلة أبيهم إبراهيم (ولما هاجر ﷺ إلى المدينة تعذر عليه الجمع بينهما) لأن الكعبة فى الجنوب وبيت المقدس فى الشمال، فصار فى صلاته يستدبر الكعبة، ومكث على ذلك بضعة عشرا شهرا، فانتهز المشركون ذلك فى التنفير منه لأنه ترك قبلة أبيه إبراهيم واستقبل قبلة اليهود، وقالوا لو كان على دين جديد لما استقبل قبلتنا. فتمنت نفسه الشريفة استقبال قبلة أبيه إبراهيم الذى جاء لإحياء ملته، فتوجه بقلبه الطاهر إلى ربه طالبا بلسان حاله متطلعا بوجهه إلى السماء راجيا أن يجيب الله عز وجل أمنيته ليسهل إيمان قومه، فوعده الله تعالى بقوله: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾. ثم أردف الوعد بالإجابة فقال تعالى: فول وجهك جهة المسجد الحرام الذى به الكعبة، وفى أى مكان وجدتم أيها المسلمون فاتجهوا جهته. ثم وبخ مثيرى الفتنة وهدد بقوله: وإن الذين أتوا الكتاب وهم علماء اليهود والنصارى يعلمون أن تحويل القبلة هو الحق الموجود فى كتبهم من أن النبى المبشر به يحيى ملة إبراهيم ويصلى إلى قبلته، وما الله بغافل عن تضليلهم وسيجازيهم عليه، ثم بين سبحانه حال هؤلاء المعاندين بعد معرفتهم الحق فقال: ولئن أتيت إلخ أى ولئن جئتهم بكل حجة دالة على صدقك ما تبعوا قبلتك ثم قطع أطماعهم بقول ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ ومع اتحادهم فى مخاصمتك فهم فيما بينهم مختلفون فلا يتبع بعضهم قبلة بعض. فاليهود لا يتركون بيت المقدس، والنصارى لا يتركون مطلع الشمس. ولئن اتبعت شهواتهم فرضا من بعد ما علمت الحق فأنت من الظالمين أنفسهم. والكلام تنبيه لقريب العهد بالإيمان الذى يخشى عليه من الخداع المزخرف. وكل علماء أهل الكتاب يعرفونه ﷺ من صفته فى كتبهم التى لا تنطبق على غيره كما يعرفون أبناءهم الذين لا يجهلون من أمرهم شيئا، وأن فريقا منهم وهم علماؤهم الذين فضلوا الدنيا على الآخرة يخفون الحق على أتباعهم مع علمهم بأنه الحق أما المنصف منهم كعبد الله بن سلام فقد أسرع إلى الإيمان به ﷺ.

﴿الممترين﴾: الشاكين.

﴿أرسلنا فيكم﴾: أى إليكم.

﴿الكتاب والحكمة﴾: الكتابة وأسرار الشريعة. أنظر الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ[1] أَيْنَ مَا[2] تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ[3] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا[4] وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ[5] وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

المعنى: أن الحق هو ما يأتيك من ربك، فلا تلتفت أيها السامع لأوهامهم فتكون من الشاكين. ولكل أمة وفريق من الناس قبلة هو موليها وجهه فى عبادته، ولم يكن لكل الأمم قبلة واحدة كما تقدم فى الآية (١٤٥) من سورة البقرة صفحة ٢٨ فلا معنى لتشبثكم بقبلة معينة. وإذا كان الأمر كذلك فالخير فى اتباع ما أمر به الله وعدم العناد، فبادروا إلى العمل الصالح الذى أختاره الله لكم، ثم هدد الله سبحانه المعاندين بقوله: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ يوم القيامة فيجازيكم على اعمالكم من طاعة أو معصية. فهوسبحانه قدير لا يعجزه جمعكم للحساب والجزاء. ومن حيث خرجت لسفر فول وجهك إلخ أى فالحكم فى القبلة واحد سفرا أو حضرا.

ثم زاد فى طمأنينته ﷺ وأصحابه فقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ وسبكافئكم على اتباعه. ثم أعاد الأمر ثالثا موجها الخطاب له ﷺ ولأمته لسد باب الفتنة التى أثارها الخبثاء فى

(١) الخيرات.
(٢) أينما.
(٣) بغافل.
(٤) أياتنا.
(٥) الكتاب.

مسألة القبلة، فقد كانت شديدة لدقة فهمها على كثير من البسطاء، ولزخرفة ما عرضوه من الشبه، فقال تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم الخ﴾ ولهذا رتب على هذا الأمر الأخير ثلاث حكم.

الأولى: لئلا يكون للناس عليكم حجة، أى ليبطل ما يزعمونه حجة يجادلونكم بها، فاليهود قالوا يترك ديننا ويتبع قبلتنا، والمشركون قالوا: يدَّعى اتباع إبراهيم ويخالف قبلته، فباتجاهك إلى الكعبة تنقطع حجة الناس ما عدا الظالمين منهم بالعناد فإنه لا يمكن إسكاتهم، فهؤلاء لا قيمة لهم، فلا تخشوهم لأن الباطل زاهق، وأخشونى فإنى قادر على العذاب إذا توعدت.

وأشار للحكمة الثانية بقوله: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾ لأنه ﷺ عربى من ولد إبراهيم عليه السلام، وكتابه عربى، وقومه الذين امتدت بهم دعوته عرب يحبون إبراهيم وإسماعيل، فتعظيم الكعبة التى بناها إبراهيم بالتوجه إليها نعمة على الجميع.

وأشار للحكمة الثالثة بقوله: ﴿لعلكم تهتدون﴾ أى ليهيئكم بذلك للثبات على الهداية إلى الحق. ثم خاطب العرب جميعا فقال: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ أى يتم نعمته عليكم بتعظيم بيته الذى تحبونه وتطهيره من مظاهر الوثنية كما أتمها عليكم بإرسال رسول منكم يتلو عليكم آياتنا أى القرآن الذى فيه سعادتكم، وطهركم من الشرك ويعلمكم الكتاب والحكمة، أى الكتابة وأسرار الشريعة ويعلمكم ما لم تعلموه من استنباط الأحكام وطرق الانتفاع بخيرات الأرض، فاذكرونى باستحضار عظمتى ونعمتى عليكم، أذكركم أى أجازيكم بالعز فى الدنيا والنعيم فى الأخرى. وأشكروا لى نعمتى عليكم بالطاعة، ولا تجحدوها بعصيانى فيحل عليكم غضبى، وهذا إنذار قصد به تأكيد الأمر بالشكر.

﴿نبلونكم﴾: أى نختبرنكم والمراد نعاملكم معاملة المختبر ليتبين للناس القوى الإيمان والضعيف أنظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

(ونقص من الأموال﴾: التى تركها المسلمون وراءهم بمكة والمراد بالأموال هنا الأنعام خاصة التى هى الإبل والبقر والغنم لأنها كانت معظم ما يتموله العرب. و﴿نقص﴾: معطوف على الخوف، وما بعده يشير به إلى بعض أسباب الجوع والخوف.

﴿والأنفس﴾: بالقتل فى الحروب أو المرض فى جو المدينة لما فيه من حمى لم يألفها أهل مكة.

﴿والثمرات﴾: المراد بها ثمرات النخيل والأعناب وغيرها.

﴿صلوات﴾: تعطف وإحسان. ﴿الصفا والمروة﴾: جبلان صغيران قريبان من الكعبة. ﴿شعائر الله﴾: الشعيرة تطلق فى الشرع على مكان العبادة وعلى العبادة نفسها.

﴿حج البيت﴾: أى قصده للحج وأعماله من إحرام وطواف حول الكعبة وسعى بين الصفا والمروة ووقوف بعرفة.

﴿اعتمر﴾ أى أتى بعمرة. وأعمالها هى أعمال الحج ما عدا الوقوف بعرفة، وليس لها وقت معين. ﴿جناح﴾: إثم. ﴿يطوف بهما﴾: يسعى بينهما. ﴿الذين يكتمون﴾: هم أحبار اليهود.

﴿ما أنزلنا﴾: فى التوراه. ﴿البينات﴾: الآيات الواضحات الدالة على صفته ﷺ.

﴿الهدى﴾: الإرشاد للحق.. ﴿الكتاب﴾: التوراة.

---

(١) والصلاة.	(٢) الصابرين.	(٣) أموات.
(٤) الأموال.	(٥) والثمرات.	(٦) الصابرين.
(٧) أصابتهم.	(٨) راجعون.	(٩) صلوات..
(١٠) البينات.	(١١) بيناه.	(١٢) الكتاب.

المعنى لما استولى الغيظ على اليهود والكفار لعجزهم عن الحجة، وصمموا على إيذائه ﷺ وأصحابه، نبههم سبحانه على ما يستعينون به على دفع كيدهم، وهو الصبر والصلاة كما تقدم فى الآية (٤٥)، فإنهما حصنان لا يهزم متحصن بهما، بدليل قوله تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أى بالمساعدة ومن كان الله تعالى معه لا يهزم. ولما كانت الدعوة تعرض أهلها لأن يحاربهم عدوها ولا تصان غالبا إلا بدفعه بقتاله، وكان المنافقون يثبطون بعض المؤمنين عن القتال رغب فيه سبحانه بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله هم أموات، بل هم أحياء ولكن لا تشعرون بحياتهم، لأنها حياة برزخية تجامع الموت ولا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل. ثم نبه سبحانه المؤمنين لبعض مصاعب ستلاقيهم فقال: ولنبلونكم أى نختبركم بشىء من الخوف من العدو لقلتكم فى وسط كفار كثيرين والجوع الناشىء عن إخراج كثير منكم من ديارهم وأموالهم التى تركوها وراءهم بمكة. والمراد بها الأنعام التى كانت تتألف منها معظم أموالهم والأنفس بالقتل فى الحرب والمرض. والثمرات من النخيل والعنب وغيرهما.. وقد حصل شىء من ذلك فى غزوة الأحزاب الآتية فى سورة الأحزاب وفى غزوة العسرة الآتية فى الآية (١١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٢. ثم رغب سبحانه فى الصبر فقال: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة» من هذه المذكورات قالوا إنا لله يفعل بنا ما يشاء وإنا إليه راجعون بالموت ويوم القيامة فنرجو إحسانه. هؤلاء عليهم صلوات أى تعطفات وحنو من ربهم وإحسان، وهم المهتدون للصواب. إن الصفا والمروة من أمكنة عبادة شرعها الله وهى السعى الآتى، فمن حج أو اعتمر فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما. وإنما قال لا إثم مع أنه ركن لأن المسلمين كانوا يتحرجون منه لوجود صنمين عليهما وضعهما كفار مكة، فقال سبحانه لا حرج فى السعى ما دمتم عاجزين عن إزالة الأصنام، أى كما أنه لا حرج فى التوجه إلى الكعبة قبل الفتح والمسلمون بالمدينة مع إنها فى ذلك الوقت محاطة بالأصنام. ومن تطوع خيرا بأن يأتى بحجة وعمرة بعد الفرض فإن الله شاكر عمله أى يجازيه أحسن الجزاء. عليم بنيته وعمله فلا يضيع عليه شيئا من ثوابه. إن أحبار اليهود الذين أخفوا عن الناس ما أنزلنا فى التوراة من الآيات الدالة على صدقه ﷺ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الآتى ذكرهم فى الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣١. أى يطلبون منه تعالى طردهم من رحمته.

الْلَّعِنُونَ[1] ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَٰئِكَةِ[2] وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ[3] فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[4] لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ[5] وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ[6] الَّيْلِ[7] وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ[8] وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ[9] لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ

﴿أندادا﴾: جمع ند بالكسر وهو المماثل، أى مماثلين له سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

المعنى: جميع من ذكروا ملعونون إلا الذين تابوا منهم عن الكتمان وأصلحوا أعمالهم بالإخلاص والإتقان، وبينوا لأتباعهم رجوعهم إلى الحق ليتبعوهم فيه كما نبعوهم فى الباطل. هؤلاء أتوب عليهم أى أقبل توبتهم لأنى كثير قبول توبة عبدى إذا رجع إلىَّ وندمك على ما فرط منه، الرحيم الذى لا يعجل بالعقوبة ليفسح المجال للتوبة. ثم بين سبحانه من هم الملعونون ومن هم اللاعنون، وأن الملعونين من غير التائبين ضربت عليهم اللعنة الأبدية فقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار عليهم لعنة الله. أى يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، خالدين فى اللعنة بالخلود فى أثرها وهو جهنم، لا يخفف عنهم العذاب ولا يمهلون عنه لحظة. وإلهكم المعبود بحق إله واحد، فمن عبد غيره خلد فى النار. الرحمن الرحيم، فيجب المبادرة إلى أسباب رحمته. ثم بين سبحانه دليل وحدانيته بقوله: إن

(١) اللاعنون.
(٢) والملائكة..
(٣) خالدين.
(٤) واحد..
(٥) السموات..
(٦) واختلاف.
(٧) الليل.
(٨) الرياح.
(٩) لآيات.

والأرض وما فيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلمة والنور بنظام لا يتخلف، والفلك وهى العظيم من السفن، ويطلق على الواحد والجمع، التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس من طعام ومتاع، ومن وجوه العبرة فيها أن يجعل الله سبحانه هذا الماء السائل يحمل هذه الأجسام الضخمة، وفيما أنزل الله من السحاب من ماء. أنظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، فأحيا به الأرض باظهار ما أودع فيها من نبات وأشجار بعد موتها أى خلوها من ذلك كما فى الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ والآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥، وبث فيها أى فرق فى جهاتها من كل دابة، وهى كل ما دب على وجه الأرض، وتصريف الرياح أى تقليبها من جهة إلى أخرى وتحويلها من شدة إلى لين ومن برودة إلى حر وبالعكس، والسحاب المسخر المذلل بين السماء والأرض فلا يسقط منه شيء إلا فى المكان والزمان المقدر له كما فى الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥؛ فى كل ما ذكر آيات وبراهين على وجوده تعالى وحكمته لقوم يعقلون ويتدبرون فى أن هذا النظام البديع لا يمكن أن يكون بدون خالق مدبر حكيم، ومع هذه البراهين القاطعة تجد من الناس من يتخذ لنفسه من المخلوقات آلهة ويجعلها مماثلة له تعالى فيخضع لها كما يخضع له ويحبها كحبه مع أن الله وحده هو خالقهم ورازقهم، وهذه الآلهة لا تملك حتى لنفسها نفعا ولا تدفع ضرا. والذين آمنوا أشد حبا لله من حب الكافر لمعبوده الباطل، لأن المؤمن لا يلجأ إلا لله فى الرخاء والشدة وأما الكافر فإنه فى الشدة ينسى آلهته ويلجأ لله كما فى الآيات (٥٣) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، (٨) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، فلو تنبه المسكين لهذا العلم أنه جانب الصواب حين قدس من لا يستحق تقديسا.

﴿الذين اتُّبعوا﴾: هم أئمة الكفر الذين قادوا الضعفاء إلى اتباعهم..

﴿الذين اتَّبعوا﴾: هم الأتباع المقلدون.

﴿تقطعت بهم الأسباب﴾: تفككت الروابط التى كانت بينهم فى الدنيا..

أنظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ[1] حَسَرَاتٍ[2] عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ[3] مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا[4] طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[5] الشَّيْطَانِ[6] إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

﴿كرة﴾: رجعة للدنيا.

﴿عدو مبين﴾: أى واضح أنظر معانى كلمة مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦.

﴿يأمركم﴾: أى يوسوس ويزين.

﴿بالسوء﴾: ما يسوء فى الآخرة وهو المعصية.

﴿الفحشاء﴾: أقبح أنواع المعاصى كالقتل والزنا.

﴿يعتق﴾: يصيح. ﴿ما لا يسمع﴾: هى البهائم.

﴿دعاء﴾: يريد الصياح على القريب منها لتأتى مثلا. ﴿نداء﴾: هو الصياح على البعيد منها.

المعنى: أراد سبحانه أن يبين سوء عاقبة المتخذين أندادا فقال: ولو يرى الذين ظلموا إلى آخره، أى لو يرى الظالمون أنفسهم بالكفر حين يشاهدون العذاب المعد لهم فى الآخرة أن القدرة كلها لله وحده وأن عذابه شديد لرأوا ما لا يوصف من شدة هوله. وفى هذا الحين يتنصل أئمة الكفر من أتباعهم عندما يعلمون أن عليهم فوق جزاء كفرهم جزاء كفر أتباعهم

---

(١) أعمالهم.
(٢) حسرات.
(٣) بخارجين.
(٤) حلالا.
(٥) خطوات.
(٦) الشيطان.

كما فى الآيتين (٦٧)، (٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١. والآيات (٣١)، (٣٢)، (٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧: ورأى الفريقان التابع والمتبوع العذاب، وتفككت روابطهم حتى قال الإتباع لو منحنا الله رجعة للدنيا لتبرأنا من الرؤساء كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب.. كهذا المنظر المتخيل الفظيع يريهم الله أعمالهم مثار حسرات لهم، وفى النهاية يخلدون فى النار. ولما كان من ضمن جرائم هؤلاء الكافرين تحريم ما أحل الله، فالمشركون حرموا ما فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، والآيتين (١٣٨)، (١٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦. واليهود حرموا ما أشارت إليه الآية (٩٣) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، رد سبحانه على زعم الجميع بقوله كلوا من طيبات إلخ. والطيبات ما تقبله النفس الطاهرة، ولا تتبعوا وساوس الشيطان لأنه عدو لكم واضح العداوة، والعدو لا يأمر بخير، وإنما يأمر بالمعاصى وبأقبحها عند الله، ومنها أن تقولوا حرم الله كذا وأحل كذا بدون علم، وإذا قيل لهم اتركوا الشيطان واتبعوا ما أنزل الله من توحيد الله وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث قالوا: كلا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. فسفه سبحانه عقولهم بقوله أو لو كان إلخ أى أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين عن دليل ولا يهتدون إلى الصواب. فمثل هؤلاء الكفار ومن يدعوهم إلى الهدى والتوحيد كمثل البهائم وراعيها الذى يصيح بها لتقبل أو تدبر فلا تسمع من الراعى إلا صوتا ساذجا ولا تعقل للكلام المركب معنى، لاشتغال قلوبهم بتقليد الآباء فلا تلتفت عقولهم للنظر فى القول الصحيح أنظر الآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠.

﴿صم﴾: لا يسمعون.

﴿بكم﴾: لا ينطقون.

﴿أهل به لغير الله﴾: يقال أهلّ الرجل أى رفع صوته، ومعنى التركيب وما رفع الصوت لاسم غير اسم الله مقترنًا ذلك الرفع بذبحه. والمراد ما ذكر عند ذبحه اسم غير الله.

﴿اضطر﴾: ألجأته ضرورة إلى ارتكاب المحظور.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

﴿باغ﴾: أى طالب له، راغب فيه، محب له لذاته كبعض الناس الفاسدى الطبع الذين يحبون أكل الميتة. وقال كثير من المفسرين..

﴿غير باغ﴾: أى على مضطر آخر بأن يأخذ منه ما كان لو ترك له لأنقذه هو أيضا من الهلاك.

﴿عاد﴾: متجاوز حد الضرورة إلى حد الشبع..

﴿إن الله غفور﴾: يغفر لعباده الخطأ اليسير فى تحديد المقدار الذى يدفع الضرر.

﴿رحيم﴾: حيث حرم عليهم ما يضرهم.

﴿الذين يكتمون﴾: المراد بهم هنا أحبار اليهود.

﴿الكتاب﴾: هنا التوراة.

﴿يشترون﴾: يأخذون.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم من الخبث.

﴿فما أصبرهم على النار﴾: (ما) هذه معناها شىء عجيب. والمعنى شىء عجيب جعلهم يصبرون الخ. ويقول علماء العربية إن هذا التركيب من صيغ التعجب، ومثله صيغة (أسمع بهم)

(١) طيبات.
(٢) رزقناكم.
(٣) الكتاب.
(٤) القيامة.
(٥) الضلالة.
(٦، ٧) الكتاب.

﴿فما أصبرهم على النار﴾: (ما) هذه معناها شىء عجيب. والمعنى شىء عجيب جعلهم يصبرون الخ. ويقول علماء العربية إن هذا التركيب من صيغ التعجب، ومثله صيغة (أسمع بهم) الآتية فى الآية (٣٨) من سورة مريم صفحتى ٣٩٩، ٤٠٠.

ولما كان التعجب هو انفعال النفس عند شعورهم بشىء يخفى عليها سببه، ولذا يقولون: إذا ظهر السبب بطل العجب، ولما كان التعجب لا يتأتى منه تعالى لأنه سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لدفع هذا قال العلماء: إن المراد بهذا التركيب إذا صدر منه سبحانه وتعالى هو تعجيب الناس من شأن هؤلاء. فهو تعجيب للمؤمنين من صبر هؤلاء الكفار على ارتكاب المعاصى الموجبة لدخول النار من غير مبالاة. وليس المراد أن لهم على النار صبراً، بدليل أنهم يستغيثون منها[١] وبدليل صراخهم من عذابها[٢]، وأمثال ذلك كثير[٣]، ولهذا قال الحسن وقتادة: والله مالهم على النار من صبر، ولكن المعنى: ما أجراهم على العمل الذى يقربهم من النار. وقال ابن كثير: ما أدومهم على عمل أهل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار. ومن هذا القبيل فى صدوره عنه سبحانه وتعالى ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾[٤] وهو تعجيب للخلق من شدة كفر الإنسان وفى هذا الموضوع قال القرافى فى كتابه الفروق[٥]: إن علماء العربية نصوا على أن (إنْ) بكسر فسكون لا تدخل إلا على الفعل المشكوك فى وقوعه. فلا تقول إن غربت الشمس فأتنى، بل تقول إذا غربت.. الخ لأن (إذا) هى التى تدخل على الفعل المحقق الوقوع، أو المظنون على الأقل. ومقتضى قولهم هذا أنّ (إنْ) لا ترد فى كتاب الله تعالى صادرة منه سبحانه. لأنه سبحانه بكل شىء عليم. فلا يعتريه شك ولاظن. لكنها وردت فى كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا الخ﴾[٦].

(١) كما فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.
(٢) كما فى الايتين (٣٦)، (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.
(٣) أنظر الآية (٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآيتين (١٠٦)، (١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، والآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨..
(٤) أنظر الآية (١٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.
(٥) صفحة ٩٢ الجزء الأول.
(٦) الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦.

بلغتهم وعلى أسلوب كلامهم، فكل ما كان فى أساليبهم حسنا جاء فى القرآن. وما كان قبيحا فى أساليبهم لم يأت فى القرآن، تحقيقا لكونه عربيا على أتم وجه، فالضابط أن كل فعل من شأنه أن يكون فى العادة مشكوكا فيه بين الناس يحسن تعليقه بـ (إن) من جهته تعالى ومن جهة غيره، سواء أكان معلوما للمتكلم أو السامع أم لا. ولذلك يحسن لمن يسمع حركة فى بيت أهله مسافرون، ويتيقن أنها من لص أن يقول: إن كانت هذه حركة لص يجب أن نقبض عليه.. لأن وجود رجل غريب فى بيت غيره من شأنه أن يكون قليلا مشكوكا فيه. وجاء على هذه القاعدة فى القرآن قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ الآية (٣١) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. فهو جار على أسلوب كلام العرب. وإلا فالله سبحانه لا يشغله شىء عن شىء حتى يحتاج للتفرغ لبعض خلقه.

﴿الكتاب﴾: المراد جنسه، فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن. (شقاق بعيد): خلاف وتنافر بعيد المدى لا يمكن تلافيه.

﴿البر﴾: الخير الواسع.

المعنى: فهم كالصم والبكم الذين لا يعقلون شيئا، لأنهم أتلفوا عقولهم بإهمال النظر فى الأدلة والركون إلى التقليد. ثم أعاد سبحانه الأمر بأكل الطيبات ليرتب عليه الأمر بالشكر وما بعده، فقال: واشكروا الله بصرف نعمه فيما يرضيه إن كنتم حقا تخصونه بالعبادة، واعلموا أنه لم يحرم عليكم إلا الميتة والدم المسفوح، وهو ما يخرج من الحيوان عند ذبحه وقبل خروج الروح، وكذا حرم أجزاء الخنزير، وخص اللحم بالذكر لأنه المقصود بالأكل غالبًا وغيره تبعاً له، وحرم ما ذكر غير اسم الله عليه أو يقصد بذبحه التقرب لغيره سبحانه، فَمَنْ ألجأته الضرورة لأكل شىء من تلك المحرمات كأن كان مسافرًا ولم يجد ما يقتات به وخاف على نفسه الهلاك فأكل منها وكان غير طالب لما ينقذ غيره كما تقدم ولا متجاوز حد دفع الضرورة إلى حد الشبع، فهذا المضطر بهذه الشروط لا ذنب عليه فى الأكل منها، إن الله غفور لمن سبق له شىء يخالف قبل التحريم، رحيم بهم فلا يشق عليهم، ورؤساء اليهود والنصارى الذين

يكتمون الحق الذى أنزله الله تعالى فى التوراة والإنجيل. أنظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. ويأخذون بدل هذا الكتمان من أتباعهم وجهلتهم ثمنا قليلا هو الأموال التى يأخذونها بحكم رئاستهم، تصير تلك الأموال نارًا بعد الموت، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلاما يسرهم، ولا يطهرهم من الذنوب والخبائث. ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم، هؤلاء هم الذين فضلوا الضلالة أى الكفر والعصيان وتركوا الهدى وهو الإيمان والطاعة، واختاروا العذاب بدل المغفرة، فاعجبوا أيها الناس من مداومة هؤلاء الذين يكتمون الحق على إجرامهم الذى سيوصلهم إلى النار حتما.. هذا العذاب حل بهم بسبب أن الله تعالى نزل التوراة مقرونة بالحق فبدلوها وحاربوه، وأن هؤلاء اليهود والنصارى هم الذين اختلفوا فى كتب الله، فاليهود رفضوا ما عدا التوراة، والنصارى رفضوا القرآن. أما المؤمنون الصادقون كالمسلمين فإنهم يؤمنون بكتب الله الصادقة كلها كما تقدم فى الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٣ وما سيأتى فى الآية ٢٨٥ من نفس السورة صفحتى ٦١، ٦٢، هؤلاء المختلفون بالباطل فى خلاف وتنافر بعيد المدى لا يمكن إصلاحهم لتعصب كل لما عنده ولما استغل الكفار جميعا تحويل القبلة فى إحداث جدل باطل فتن به ضعيف الإيمان، كرر سبحانه الكلام فيه ليزيل كل أثر لفتنتهم مبينا لهم أنه لا يصح الجدل فى شىء ليس فى ذاته برا، فقال: ليس البر إلخ أى ليس البر مجرد أن تولوا وجوهكم جهة المشرق والمغرب.

﴿مَنْ آمن﴾: المراد عَمَلُ مَنْ آمن. حتى يصح الإخبار به عن البر. يقول العربى: يعجبنى فلان يريد يعجبنى عمله.

﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب، فيشمل جميع الكتب المنزلة[1].

﴿آتى المال على حبه﴾: ﴿على﴾ حرف يفيد هنا معنى (مع) كما فى قوله تعالى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[2] أى مع ظلمهم﴾ أى أنفق المال مع حبه له.

قال ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف المعنى مع حبه للمال والرغبة

(١) أنظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢.

(٢) أنظر الآية (٦) من سورة الرعد صفحتى ٣٢١، ٣٢٢.

فيه، ويؤيدهم قوله تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[3] فالبر ذكر فى الآيتين. وحب المال المنفق ذكر فيهما، وكانت الثانية صريحة فى حب المال، فتحمل عليها الأولى، وهذا لا يمنع أنهم أنفقوا هذا المال الذى يحبونه لوجه الله تعالى وطلبًا لرضاه، كما فى قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما﴾ إلى قوله ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾[4]. فجمع فى هذه الآية بين حب المال وطلب رضاء الله.

وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ[1] وَٱلْكِتَـٰبِ[2] وَٱلنَّبِيِّـۧنَ[3] وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ[4] وَٱلْمَسَـٰكِينَ[5] وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ[7] وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟[8] وَٱلصَّـٰبِرِينَ[9] فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ[10] ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ[11] يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ[12] لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ

ويؤيدهم أيضا ما جاء فى الصحيحين مرفوعا قال ﷺ. (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر). أى أن أفضل الصدقة ما يبذله المؤمن وهو يحرص عليها ويحبها لأنها ذات قيمة عنده، ولذا ذم سبحانه من يتصدق بما يكره فقال

(١) والملائكة.
(٢) الكتاب.
(٣) والنبيين.
(٤) واليتامى.
(٥) والمساكين.
(٦) الصلاة.
(٧) الزكاة.
(٨) عاهدوا.
(٩) والصابرين..
(١٠) بإحسان.
(١١) حياة.
(١٢) الألباب.

(٣) أنظر الآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨.
(٤) أنظر الآيتين (٨)، (٩) من سورة الإنسان صفحتى ٧٨١، ٧٨٢.

سبحانه: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[5] قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى تفسيره: وهذا الإيتاء غير إيتاء الزكاة الآتى. وهو ركن من أركان البر الواجب كالزكاة، وهو مطلوب لسد حاجة المحتاج.

ولا يشترط فيه نصاب معين بل هو على حسب الاستطاعة، فإذا كان الباذل لا يملك إلا رغيفا واحدا لم يكن محتاجا إليه لنفسه، ولا لمن تجب عليه نفقته، ورأى مضطرًا لهذا الرغيف وجب عليه بذله له. ثم قال: وليس المضطر وحده هو الذى له حق فى ذلك بل أمر الله تعالى المؤمن أن يعطى من غير الزكاة ذوى القربى، ولو كان غنيا، لأنها من صلة الرحم، وهم أحق الناس بالبر والصلة.

فمن قطع رحمه خصوصا المحتاجين، ورضى بأن ينعم وذوى قرباه بائسون فهو برئ من الدين، وبعيد من البر[6] وكل هذا يفيد أن فى المال حقا غير الزكاة المفروضة، ويؤيد هذا ما أخرجه الدارقطنى وابن ماجة فى سننه والترمذى فى جامعه عن فاطمة بنت قيس أن النبى ﷺ قال: إن فى المال حقا سوى الزكاة، ثم تلا هذه الآية (ليس البر.. إلخ) وما يتفق مع هذا الحديث مهما كانت درجته قول القرطبى: اتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف الزكاة إليها وقال مالك يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم (ذوى القربى): قال المرحوم الشيخ عباس الجمل[7]: ذوى القربى هنا هم كل قريب من الأصول والفروع وغيرهم، ولا يشترط أن يكونوا محتاجين، لأن فيها صلة رحم وهى تطلب للمحتاج كما تطلب للغنى منهم، لأن إيتاء المال هنا ليس هو الزكاة المفروضة، لأن نفقتهم واجبة على قريبهم الغنى، ولا تصح زكاته لمن تجب عليه نفقته، وليس هو صدقة التطوع لأن الأقربين الأغنياء من الأصول والفروع ليسوا مصرفًا لصدقة التطوع، ولأن القرآن عدد مصارف الزكاة المفروضة فى قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين

(٥) أنظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.
(٦) أنظر شيئا من هذا فى شرح الآية (٨) من سورة النساء صفحتى ٩٨، ٩٩. وشرح الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦، والآيتين (٢٤)، (٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦..
(٧) فى رسالته التى وضعها فى شرح هذه الآية (آية البر).

عليها.. الآية﴾(٨). ولم يذكر فيها ذوى القربى أما الأغنياء من ذوى القربى فإنما يؤتون المال لصلة الرحم، لا صدقة، لأنها لا تحل لغنى، فالفرق بين الصدقة، وصلة الرحم فى إعطاء ذوى القربى هى النية فعلى من يؤتى المال لذى القربى أن ينوى بذلك صلة الرحم، لا التصدق عليهم..

﴿اليتامى﴾: اليتيم هنا هو من مات أبوه وتركه صغيرا محتاجا للغذاء والكساء.

﴿المساكين﴾: المراد بالمسكين هنا المحتاج الذى لا يسأل الناس شيئا، فهو مستكين منطو على نفسه. ﴿ابن السبيل﴾: هو المسافر المحتاج المنقطع عن أهله ولو كان غنيا فى بلده. ﴿السائلين﴾: هم الفقراء الذى يسألون الناس(٩). ﴿فى الرقاب﴾: أى فى فك رقاب العبيد بشرائهم وعتقهم. ﴿والصابرين﴾: معطوف على (مَنْ آمن) الذى هو خبر المبتدأ فكان حقه الرفع كما فى (الموفون بعهدهم) ولكن علماء العربية قالوا إنه يجوز للمتكلم أن يغير إعراب الكلمة ليلفت الأنظار إلى معناها(١٠) ويكون الأصل هنا. وأخص بالذكر من بين هذه الطوائف الصابرين، لأن أجرهم يوفى بغير حساب، لما ثبت أن الصبر نصف الإيمان، ومن هذا النوع الالتفات فى قوله تعالى: ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا.. الآية﴾(١١).

﴿البأساء﴾: هى كل شدة تحصل للإنسان بسبب مصيبة تلحقه فى غير نفسه مما يعز عليه كفقد ولد أو مال مثلا. ﴿الضراء﴾: هى الضرر الذى يصيب الإنسان فى نفسه كالمرض.

﴿البأس﴾: المراد به هنا شدة القتال فى سبيل الله.

﴿كتب عليكم﴾: أى فرض، والخطاب لجميع المؤمنين على أن يتولى القصاص ولى الأمر منهم، وذلك إذا طلب ولى الدم القصاص فهذا يدل على أن لولى الدم حق العفو، فالوجوب بالنسبة للحكام فقط، فلا يجوز لهم العفو إذا طلب صاحب الحق القصاص.

(٨) الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.
(٩) السائل والمحروم فى الآية (٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦..
(١٠) انظر شرح الآية (١٦٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٠، ١٣١.
(١١) الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩.

﴿القصاص﴾: قال صاحب الأساس تقول العرب قصصت أثر فلان يريدون تتبعته، ومنه فى القرآن الكريم (وقالت لأخته قصيه)(١٢).

وقال الراغب: القصاص تتبع الدم بقتل القاتل، لهذا قال بعضهم إن القصاص يلزمه معنى (المساواة) قال المرحوم الشيخ محمد عبده: القصاص معناه هنا أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول.

﴿فى القتلى﴾: (فى) بمعنى باء السببية، كما فى قوله ﷺ: دخلت امرأة النار فى هرة. أى دخلت النار بسبب حبسها هرة حتى ماتت جوعا. والقتلى جمع قتيل كجرحى جمع جريح.. (الحر بالحر.. إلخ): أى الحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد إلخ وهذا بيان لحكم النوع إذا قتل نوع، ولم تتعرض الآية لحكم أحد النوعين إذا قتل الآخر، كما إذا قتل رجل امرأة أو بالعكس، فالآية مجملة، وبين هذا الأجمال أمور: الأول قوله تعالى فى شأن بنى إسرائيل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين.. إلخ﴾(١٣). قال أبو السعود لأن شريعة من قبلنا إذا قصها الله سبحانه علينا من غير قيام دليل على نسخها فهى شريعة لنا.. والثانى أن النبى ﷺ بينها بسنته، فقتل الرجل اليهودى الذى قتل امرأة.. والثالث أن القصاص بنى على المساواة فى العصمة. والعصمة تكون بالمساواة فى الدين، أو بالوجود فى قطر واحد تحت حكومة واحدة، فالمعاهدون من غير المسلمين الذين يشاركوننا فى الوطن لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

﴿فمن عفى له من أخيه﴾ أى فالقاتل الذى صدر له العفو من جهة أخيه أى ﴿ولى الدم﴾ شىء من العفو ولو قليلا، فإنه بمنزلة العفو التام فى إسقاط القصاص فإن عفا بعض أولياء الدم ولو كان واحداً من مائة سقط القصاص، والتعبير بصفة الأخوة الثابتة بينهما فيه تحريك عوامل التراحم والعطف، وإشعار بأن الله سبحانه يحب العفو، ﴿فاتباع بمعروف﴾: أى فالأمر المطلوب اتباع إلخ والمراد فليكن من العافى اتباع المعروف فى استيفاء الدية من القاتل.

(١٢) الآية (١١) من سورة القصص صفحة ٥٠٧..
(١٣) الآية (٤٥) من سورة المائدة صفحتى ١٤٥، ١٤٦.

من غير تعسف ولا إرهاق.. ﴿وأداء إليه بإحسان﴾: أى المطلوب من القاتل أداء الدية للعافى بإحسان بأن لا يماطل ولا ينتقص منها شيئا..

المعنى: بل البر الصحيح هو عمل من آمن بالله، أى بوجوده ووحدانيته، واستحقاقه وحده جميع صفات الكمال، وباليوم الآخر بأنه حاصل لاشك فيه وبوجود الملائكة، وأنهم عباد مكرمون، وبجميع الكتب السماوية، وبالنبيين الذين ذكرهم الله سبحانه تفصيلا، والإيمان بأن لله رسلا غيرهم وإن كنا لا نعلمهم[14]، وأعطى المال مع حبه له ذوى القربى واليتامى والمساكين إلى آخر ما ذكر، وأدى الصلاة على وجهها، وآتى الزكاة المفروضة، والموفون بعهدهم مع الله ومع الناس، ومدح سبحانه من أصحاب صفات البر الصابرين فى تلك الشدائد المذكورة وخصوصا فى ميدان الجهاد[15]. أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم وفيما عاهدوا الله عليه صدقا قويا حتى كأنه لا صادق غيرهم. والذين اتقوا الله تقوى تامة حتى كأنه لا أتقياء غيرهم[16]. فرض عليكم أيها المؤمنون أن يقتص حكامكم من القاتل بقتله، ولما كانت عوائد الجاهلية أن للأقوياء على الضعفاء امتيازات غير عادلة من ذلك أنه إذا قتل عبداً حرًا تركوا العبد وقتلوا سيده، وإذا قتلت امرأة رجلا تركوها وقتلوا من أسرتها رجلا، وإذا قتل رجل فقير رجلاً من الأغنياء يقتلون بدله رجالا من الضعفاء، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يبطله بهذه الآية، فالمعنى: إذا قتل حرٌ حراً يقتل هو به لا غيره من كبار أسرة القاتل، ولا يقتل به أكثر من واحد، وإذا قتل عبد من عبيد الضعفاء عبداً مملوكا للأقوياء يقتل هو به لا سيده، ولا أحد الأحرار من أسياده، وإذا قتلت امرأة امرأة أخرى تقتل هى، لا رجلا من أفراد قبيلتها بدلها، فالقصاص على نفسه، لا على أحد من قبيلته كما كان فى الجاهلية. ومما يدل على أن المعنى الحرفى لما ذكر غير مراد أن قتل العبد بالعبد والأنثى بالأنثى يفيد من باب أولى قتل العبد بالحر وقتل الأنثى بالذكر.

قال البيضاوى: إن الآية لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد ولا الذكر بالأنثى لأن ما ذكر

---

(١٤) انظر الآيتين (١٦٣)، (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١، والآيات (٨٣) حتى (٩٠) من سورة الأنعام صفحات ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧..

(١٥) انظر الآيتين (٦٥)، (٦٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

(١٦) أخذ هذا الحصر فى الجملتين من تعريف طرفيهما وزيادة ضمير الفصل (هم) فى الثانية.

فيها كان لمجرد محاربة عادة جاهلية، فليس مقصودا ظاهره، وذلك لأن مفهوم المخالفة إنما يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر غرض سوى اختصاص الحكم به، وهنا ظهر أن له غرضًا غير التخصيص وهو ما ذكر من إبطال تلك العادة[17]. فالمراد من كل ما تقدم أن حكم الشريعة أنه لا يقتل غير القاتل مهما كان من الفوارق بين القاتل والمقتول.

ولما كانت الديانة اليهودية لا تجيز العفو عن الجانى، والنصرانية تطلب العفو وتشدد فى طلبه، جاء الإسلام بالعدل الوسط فجوز العفو واحتساب الأجر عند الله وأخذ الدية بدل القصاص فقال سبحانه فى ذلك (فمن عفى له من أخيه.. إلخ). أى فالجانى الذى صدر له شىء من العفو عن جنايته من جهة أخيه ولى الدم حتى لو كان هذا العفو قليلا كما تقدم فى شرح المفردات بأن كل من بعض الورثة دون بعض فالمطلوب شرعا من العافى أن يتبع فى مطالبته الدية الطريق المعروف حسنه وهو عدم إرهاقه بدفعها مرة واحدة إن كان ذلك يعجزه، ولا يأخذ أكثر مما ينبغى، والمطلوب من الجانى المعفو عنه أن يؤدى الدية إلى أولياء المقتول على الوجه الحسن، فلا يماطل ولا ينقص منها شيئا، وأسلوب الآية يفيد بأن الله سبحانه يحب من عباده العفو ولذلك فرض اتباع العفو وإن لم يكن من جميع أولياء الدم، لأن فى العفو إيقاظ الضمائر لتغليب جانب الأخوة الإنسانية والدينية فتقل الشرور وتنتشر المحبة[18] وذلك الحكم من عدم وجوب القصاص، والعفو مع أخذ الدية تسهيل ورحمة منه تعالى بكم حيث لم يحتم عليكم ما حتمه على من سبقكم، فمن اعتدى من أهل القتيل بأن قتل القاتل بعد أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقصاص أو الدية، وفى الآخرة بالنار. ولكم فى شرع هذا القصاص حياة، أى بقاء وحفظ، لأن القاتل إذا علم أنه سيُقتل امتنع عن القتل فأحيا نفسه ونفس من كان يريد قتله.

﴿جنفا﴾: عدولا عن الحق خطأ.

﴿إثما﴾: عدولا عن الحق عمدًا.

﴿فأصلح بينهم﴾: أى بين الموصى لهم بعضهم مع بعض أو مع الورثة.

---

(١٧) فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم.. إلخ﴾ (الآية ٢٣) من سورة النساء صفحتى ١٠٢، ١٠٣.

(١٨) انظر الآية (٢٢) من سورة النور صفحة ٤٦٠.

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ (١) وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ (٢) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ (٣) مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

﴿أياما معدودات﴾: اختار المرحوم الشيخ محمد عبده أن هذه الأيام هى أيام رمضان، لأنه لم يثبت فى السنة الصحيحة السالمة من معارض أن الصوم كان واجبا على المسلمين قبل صوم رمضان، ولو ثبت ذلك لنقل إلينا متواترا، لأنه من العبادات العملية التى تتكرر ولا ينساها الناس. والمراد من (معدودات) أى قليلات، فمن أساليب العرب أنهم إذا أرادوا تقليل عدد شىء يقولون: شىء معدود أى قليل ومنه فى القرآن الكريم فى الحديث عن اليهود ﴿قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ الآية (٢٤) من سورة آل عمران صفحة ٦٦. وقوله تعالى فى الحديث عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ الآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥.

وقوله سبحانه: ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ الآية (٢٠٣) من سورة البقرة صفحة ٤٠ وهى أيام التشريق الثلاثة التى يقضيها الحاج فى منى بعد يوم العيد الأكبر، فالمراد تسهيل أمر الصيام عليهم. كما هى سنته تعالى فى التدرج بعباده ليأخذهم باللطف إلى التشريع النهائى ولا يفاجئهم بما يشق عليهم، انظر كيف تدرج بالزكاة فى شرح الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩، وفى تحريم الخمر فى شرح الآية (٢١٩) من سورة البقرة صفحة٤٣، وفى الأمر بتقديم صدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فى الآية(١٢) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٧، ولما استشعروا أن للرسول ﷺ مقاما خاصا عند ربه يوجب عليهم عدم الإثقال عليه بما لا يفيد

(١) للوالدين.
(٢) معدودات.
(٣) وبينات.

ولما استشعروا أن للرسول ﷺ مقاما خاصا عند ربه يوجب عليهم عدم الإثقال عليه بما لا يفيد خصوصا وهو الرحيم بهم، شديد الحياء، لما حصل هذا خفف عنهم بما فى الآية (١٣) من نفس السورة صفحة ٧٢٧، وكذا يقال فى قيامك الليل فى الآيات (٢) وما بعدها من سورة المزمل صفحة ٧٧٣ ثم الآية (٢٠) من نفس السورة صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥. نقول لما تعودوا الصوم مع التخيير انتقل بهم إلى الوجوب.

﴿يطيقونه﴾: المراد بقوله (يطيقونه) أى يتحملونه بغاية المشقة، ولا يقال أطيق حمل هذه الورقة، أو السماء فوقنا، لأن من أركان تعريف الكلام العربى أن يكون مفيدا للسامع فائدة يجهلها، ولذا قالوا لا يقال السيف أمضى من العصا، أو أنا أطيق حمل عود الحطب لأنه فقد ركنا من أركان اعتياده كلاما عند العرب.

﴿هدى للناس... إلخ﴾: المراد هاديا للناس إلى الصواب هداية خاصة به لما فيه من الإعجاز وتفصيل الأحكام مما ليس فى غيره، ولهذا جعله الهدى نفسه.

﴿وبينات من الهدى﴾: أى حال كونه أدلة واضحات من بين الكتب الإلهية الهادية إلى الصواب فهو هادٍ بواسطة أمرين، أمر مختص به وآخر غير مختص.

﴿الفرقان﴾: هو الفارق بقوة بين الحق والباطل. ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾: أدرك رمضان وهو حى..

المعنى: فرض عليكم إذا حضر أحدكم مقدمات الموت وكان يملك خيرا أى مالا له قيمة وذلك يختلف تقديره باختلاف أحوال الناس فى منازلهم وأزمانهم الوصية، أى فرض عليكم أن يوصى من حضرته الوفاة للوالدين اللذين لا يرثان كالأجداد مع وجود الآباء، والوالدين الكافرين، لأنه من البر المطلوب لهما شرعا، والأقربين من الفقراء، فإن لم يكن فى قرابته فقراء يوصى ندبا لفقراء المسلمين. فإن مات ولم يوص وجب على الورثة أن يخرجوها عنه، فإن لم يخرجوها أخرجها القاضى النائب عن جماعة المسلمين وهذا هو سر توجيه الخطاب لهم فى قوله تعالى ﴿كتب عليكم﴾ ولم يقل (كتب على الواحد منكم) لأن فرضها ثابت بالآية، وبحديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى

فيه، يبيت ليلتين[1] إلا ووصيته مكتوبة عنده) فرحم الله امرأ حافظ عليها ولم يغتر بمن يقول إن الآية منسوخة.. فإن العلماء المحققين أبطلوا قوله هذا. بالمعروف أى يوصى لمن ذكروا بالمتعارف بين الناس أنه يكفى صدقه فى مثل ماله، وحدده ﷺ بأن لا يزيد على الثلث. ومما يؤكد وجوبها قوله (حقا) أى الإيصاء واجب وجوبا حقا. فمن بدل الإيصاء وغيره من الأوصياء أو الشهود بالزيادة أو النقص أو الكتمان بعد ما علمه فإثم هذا التبديل على المبدل وحده لا يتعداه إلى الموصى ولا إلى غيره، لأن الله تعالى سميع لقول الموصى، عليم بما يفعل الأوصياء والشهود، ومجازيهم خيرا أو شرا. فمن خاف أى علم من الموصى بعدا عن الحق فى وصيته خطأ أو عمدًا بأن زاد فى الوصية عن الثلث لينتقص حق وارث، أو أوصى لغنى أو سليم أو فاسق بأكثر من نصيب فقير، أو مريض أو صالح، فأصلح بين الموصى لهم بأن عدل الوصية وجعلها على وجه المصلحة فلا ذنب عليه فى تعديلها، أى فليس عمله من التبديل المنهى عنه فيما سبق، لأن الله واسع المغفرة، فلا يؤاخذ بالهفوات فضلا عما فيه إصلاح، رحيم بعباده يحب عدم إساءتهم.

يأيها الذين آمنوا من أتباع محمد ﷺ فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم قبلكم، وإن اختلف فى عدد أيامه وتعيين شهوره، لأنه يعد المؤمن ليكون تقيا بعيدا عن المعاصى. وجعله الله تعالى أياما قلائل تيسيرا عليكم. فمن كان مريضا فى أيام الصوم أو مسافرا فأفطر فعليه عدد ما أفطره من أيام أخر. فمن استطاع الصوم وأفطر ولم يكن مسافرا ولا مريضا فعليه فدية هى إطعام مسكين غداء وعشاء عن كل يوم أفطره من جنس طعام المفطر. فمن تطوع خيرا بأن أطعم المسكين أكثر من يوم أو أطعم عددا من المساكين عن اليوم الواحد فهو خير له عند الله يوم القيامة. وأن تصوموا أى وصومكم عند القدرة خير لكم من الفطر والإطعام أن كنتم تعلمون وجه المصلحة فى الصوم، وهكذا كان أول شرع الصوم على التخيير بينه وبين الإطعام ليتدرج بهم إلى تحتيمه فلما تعوده أوجب الصوم فقط كما سيأتى. وتلك الأيام المعدودات هى شهر رمضان الذى أنزل فيه أول ما نزل من القرآن الهادى للخير والموضح المبين للحق، وهى بعض الهدى الإلهى الذى أنزله على الأنبياء من قبل فارقا بين الحق والباطل فرقا قويا.

(١) يبيت ليلتين: أي بعد سماع الآية وعلمه بها.

ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ[1] وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ[2] بَـٰشِرُوهُنَّ[3] وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ[4] ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ[5] وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ[6] فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ[7] ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

﴿فليستجيبوا لى﴾: أى فليجيبوا بإخلاص ما طلبه منهم بالطاعة.

﴿يرشدون﴾: يهتدون.

﴿الرفث﴾: كل ما لا تجيز الآداب العامة التصريح به مما يحصل بين الرجل وزوجته، والمراد هنا المباشرة.

﴿تختانون أنفسكم﴾: أى تخونونها خيانة شديدة وتظلمونها بعدم صبركم.

المعنى: فمن شهد منكم شهر رمضان بأن كان حيا حاضرا غير مسافر فليصمه وجوبا وبهذا الأمر انتهى حكم التخيير السابق وأصبح لا يجوز إلا الصوم. فمن كان مريضا أو مسافرا فيجب عليه قضاء ما فاته فى أيام أخر. أما الشيخ الكبير الذى يعجز عن الصوم لضعف الشيخوخة فحكمه الفطر دائما مع الفدية، وهذا الحكم مأخوذ من عمل الصحابة، واستقر عليه الإجماع. والله حين جوز لكم الفطر فى السفر والمرض يريد لكم التيسير ولا يريد لكم ما فيه عسر ومشقة ويريد منكم إكمال عدة الأيام التى فرضها عليكم إما أداء أو قضاء، ولتكبروا الله أى تعظموه شكرًا لنعمته بهدايته لكم. ولما سأل جماعة النبى ﷺ كيف ندعوا الله أبرفع الصوت أم بخفته نزل: وإذا

(١) هداكم.
(٢) فالآن.
(٣) باشروهن.
(٤) الليل.
(٥) تباشروهن.
(٦) عاكفون.
(٧) المساجد.

سألك عبادى أى المحبون عن كيفية مناجاتى، فأخبرهم أنى قريب منهم بعلمى أسمع كل ما يقولون وأجيب دعوة أحدهم إما بقضاء ما طلب أو بخير منه، فليستجيبوا دعوتى لهم إلى الطاعة، وليؤمنوا بأنى الإله الواحد المالك لكل شىء ليعدهم ذلك لكمال الهداية والرشد. وكان المسلمون أول ما فرض الصوم إذا دخل المغرب يأكلون ويغشون النساء إلى أن يناموا، فإذا نام أحدهم ثم استيقظ ولو فى أول الليل أمسك عن كل مفطر إلى غروب شمس اليوم التالى، فغلب الطبع بعضهم فلامس زوجته بعد نوم، فندم وأسرع إلى النبى ﷺ يشكو ويستغفر، فنزل قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث﴾ أى أحل لكم ملامسة نسائكم فى أى وقت من أوقات الليل ولو بعد النوم. لأنهن ستر لكم تقضون حاجتكم معهن فيحفظن أعراضكم من أن تنكشف على غيرهم، وأنتم لهن كذلك، وسبب هذا التيسير أنه سبحانه علم أنكم كنتم تخونون أنفسكم وتظلمونها بعدم صبركم، فتاب عليكم أى قبل توبتكم، وعفا عنكم برفع هذا التحريم طوال الليل.

فالآن بعد التحليل باشروا زوجاتكم واطلبوا بذلك ما قدره الله لكم من الولدان. وأبحت لكم أيضا الأكل والشرب طوال الليل إلى أن يتبين لكم الخيط الأبيض، وهو بياض الفجر، من الخيط الأسود وهو سواد الليل المجاور للبياض ومجموعهما يسمى فجرا، فإذا رأيتم الفجر فأمسكوا وأتموا صومكم إلى دخول الليل بغروب الشمس. ولا تباشروا النساء فى المدة التى نويتم اعتكافها فى المساجد. والاعتكاف تقدم فى الآية (١٢٥) صفحة ٢٤، وتلك الأحكام السابقة هى حدود الله، أى حواجزه الفاصلة بين الحلال والحرام، فلا تقربوها وابتعدوا من مخالفتها. كذلك أى كهذا البيان الواضح يبين الله بقية آيات الأحكام، أى يأتى بها واضحة ليعدكم للتقوى.

﴿تدلوا بها إلى الحكام﴾: تدفعونها رشوة.

﴿فريقا من أموال الناس﴾: بعضا منها.

﴿البر﴾: الخير الواسع..

ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ(١) لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم(٢) بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ(٣) وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ(٤) ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ(٥) لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا(٦) ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟(٧) فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ(٨) وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ(٩) عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ(١٠) فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ(١١) ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ(١٢) ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ(١٣) حَتَّىٰ

﴿حيث ثقفتموهم﴾: فى كل مكان وجدتموهم فيه.. يقال ثَقِفَه يَثْقَفُه بوزن سَمِعَه يَسْمَعُه، ومعناه وجده وقَدَر عليه..

﴿الفتنة أشد من القتل﴾: الفتنة الابتلاء الشديد والامتحان القاسى كما فى الآيتين (١١)، (٥٣) من سورة الحج صفحتى ٤٣٤، ٤٤١ والآية (٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠.

المعنى: بعد أن بيَّن الله أنه سبحانه يأتى بأحكامه واضحة ليعدكم للتقوى ذكر سبحانه بعض تلك الأحكام فقال: ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ إلخ. أى لا يأخذ بعضكم مال بعض حرامًا، كالسرقة والغصب، ولا تدفعوا الأموال رشوة للحكام الذين يفصلون فى مشاكلكم لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أن تأخذوا بعضها من أموال غيركم أخذا مقارنا للذنب لأنه حرام، وأنتم تعلمون أنكم على باطل، وهذا أشد قبحا من عمل الجاهل. ولما سأل بعض

(١) أياته.
(٢) أموالكم.
(٣) بالباطل.
(٤) أموال.
(٥) مواقيت.
(٦) أبوابها.
(٧) وقاتلوا.
(٨) يقاتلونكم.
(٩) تقاتلوهم.
(١٠) يقاتلوكم.
(١١) قاتلوكم.
(١٢) الكافرين.
(١٣) وقاتلوهم.

المسلمين النبى ﷺ عن الهلال لمَ يظهر أول الشهر صغيرا ثم يكبر ولم لا يكون على حالة واحدة كالشمس؟ أجابهم سبحانه عن الحكمة فى ذلك فقال: قل لهم أيها النبى جعل الله تعالى حالة الأهلة كما ترون لتكون مبينة لأوقات أعمال الناس الدينية كالصوم وعدة الطلاق والحج، والدنيوية كالإجارة والرهن وسداد الديون. انظر الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦. والآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦.

وكان من عوائد العرب التى لا أصل لها أنهم كانوا إذا رجعوا من الحج لا يدخل الرجل بيته من بابه بل يدخل من خلف الخباء إن كان من أهل الخيام، ومن ثقب فى خلف البيت إن كان من أهل البناء، ظانين أن سقف الباب يحول بينهم وبين رحمة السماء ويحسبون فعلهم هذا برا يقربهم إلى الله. وقد بقيت هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، فقد روى البخارى أن بعض الأنصار كانوا إذا حجوا دخلوا البيوت من ظهورها، فأبطل سبحانه هذا التخريف بأسلوب التوبيخ والإرشاد فقال ﴿وليس البر﴾ إلخ أى ليس عمل الخير أن تدخلوا البيوت من خلف ولكن العمل المقرب لله هو عمل من اتقى الله وعمل ما تقدم بيانه فى الآية (١٧٧) من هذه السورة صفحتى ٣٣، ٣٤.

فلا تعصوا أمره. وكان مشركو مكة منعوه ﷺ وأصحابه من دخول مكة معتمرًا فى السنة السادسة ثم صالحوه صلح الحديبية المشهور على أن يمكنوه من الدخول فى العام القادم، فلما حل الموعد وطلب ﷺ من أصحابه أن يتجهزوا بأدوات الحرب مخافة أن يغدر بهم الكفار، جزع بعضهم خوف القتال فى الحرم وفى وقت الإحرام، فأنزل الله تعالى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ إلخ، فأذن لهم فى القتال دفاعا ليتمكنوا من عبادته التى هى سبيل رضاه، ولا يعتدوا بالبدء بالقتال فإذا بدءوا هم فاقتلوهم فى أى مكان وجدتموهم فيه من حل أو حرم وأخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها. والبادئ أظلم، وفتنتهم لكم بمكة أيام ضعفكم بتعذيبكم ومحاولة إكراهكم على الكفر أشدّ قسوة على الحر من القتل. ثم استثنى من عموم الأمكنة المصرح لهم بالقتال فيها المسجد الحرام فقال: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ المراد أنّ من دخل منهم المسجد يكون آمنا إلا إذا بدأ هو بالقتال فيه، فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم، لأن المدافع غير ملوم.

لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ[1] إِلَّا عَلَى الظَّٰلِمِينَ[2] ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَٰتُ[3] قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ[4] أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ

﴿فلا عدوان﴾: المراد فلا مجازاة على التعدى.

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾: أى انتهاك حرمة الشهر الحرام يكون بانتهاك غيركم لحرمته، والأشهر الحرم أربعة كما فى الآية (٣٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٦.

﴿والحرمات﴾: الحرمات كل ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

﴿قصاص﴾: أى يجزى فيها القصاص وهو المقابلة بالمثل كما تقدم فى الآية (١٧٨) من هذه السورة صفحة ٣٤.

﴿فاعتدوا عليه﴾: انظر ما قيل فى شرح قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ صفحة ٣٦٢. ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾: أى لا تعرضوا أنفسكم إلى الهلاك بسبب بخلكم عن الإنفاق فى شراء عدة القتال، لأن ذلك يمكن عدوكم من إهلاككم.

﴿التهلكة﴾ مصدر بمعنى الهلاك، والباء فى ﴿بأيديكم﴾ جاءت فى المفعول لتأكيد وقوع الفعل عليه، والأصل: لا تلقوا أيديكم، والمراد أنفسكم، كما تقول لصاحبك لا تلق بمالك فى البحر. ومثل الباء هنا الباء فى (بجذع النخلة) الآية (٢٥) من سورة مريم صفحة ٢٩٨، ومثلها أيضا الباء فى (بسبب) الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥.

﴿الحج والعمرة﴾: تقدما فى الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحة ٣٠.

﴿أُحصرتم﴾: منعتم عن إتمامهما بمانع قهرى. ﴿استيسر﴾: تيسر لكم الحصول عليه.

﴿الهدى﴾: هى الذبائح التى يهديها الحاج لفقراء بيت الله وأقلها شاة.

(١) عدوان. (٢) الظالمين. (٣) والحرمات. (٤) ثلاثة.

﴿محله﴾: المكان الذى شرع ذبحه فيه وهو جوار الكعبة. ﴿نسك﴾: حيوان يذبح وأقله شاة.
﴿تمتع بالعمرة إلى الحج﴾: أى جمع بينهما مقدما العمرة والتحلل منها ثم يشرع بعد ذلك فى أعمال الحج.

المعنى: وقاتلوا هؤلاء المعتدين حتى تذهب قوتهم التى يفتنون بها من آمن ويمنعونه من إظهار عقيدته، وبهذا يكون الدين الذى شرعه الله على لسان أنبيائه خالصا له تعالى ليس فيه شىء من مظاهر الشرك، فإن انتهوا عن مقاتلتكم وصدكم عن دينكم فكفوا عن قتالهم لأنه لا عدوان إلا على الظالم أى لا مجازاة إلا على المعتدى الظالم. فإذا كفوا فلا ظلم منهم فلا مجازاة منكم. ثم أكد مجازاتهم فى أسلوب قاعدة عامة ليدفع تحرج المسلمين من القتال فى الأشهر الحرم فقال (الشهر الحرام) إلخ.

أى انتهاك حرمته تكون بسبب انتهاك غيركم لحرمته، وكذا كل ما يجب احترامه يجرى فيه القصاص. فمن اعتدى عليكم فجازوه بمثل ما فعل. واتقوا الله فلا تعصوه ولا تتجاوزوا المثل حتى تلقوا بأنفسكم فى الهلاك، لأن الله تعالى مع المتقين بالنصر والتأييد. وإذا كان الكفار فتنوكم ولا يزالون يفتنون إخوانا لكم فلا تبخلوا فى الإنفاق فى طريق طاعة الله تعالى من جهاد وغيره، وأحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها فإن الله يحب المحسنين ويجازيهم بعز الدنيا ونعيم الآخرة. وأدوا الحج والعمرة لله تامين، وقد تقدم بيان أركانهما فى الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحة ٣٠، فإن منعكم عدو أو حيوان مفترس أو غير ذلك عن الإتمام فقدموا ما تيسر لكم من الهدى إلى فقراء بيت الله، ولا تحلقوا رءوسكم، أى استمروا على إحرامكم حتى يبلغ الهدى الكعبة.. وإذا كان المحرم الممنوع من حلق الرأس مريضا يضره عدم الحلق أو به ما يؤذيه فى رأسه كجرح أو قمل يؤذيه عدم الحلق أيضا فله أن يحلق ويفدى بصيام ثلاثة أيام، أو صدقة مقدار إطعام ستة مساكين لكل مسكين مقدار عُشر كيلة بالكيل المصرى من قمح أو تمر أو بذبح نسك مثل شاة مثلا فإذا أمنتم بذهاب سبب الخوف الذى منعكم من الإتمام فمن تمتع بالعمرة أى جاء بها أولا ثم تحلل منها ومكث مدة إحلاله ثم شرع فى أعمال الحج قبيل يوم عرفة فعليه نظير تمتعه بما يتمتع به غير المحرم بين العمرة والحج أن يقدم لفقراء البيت ما تيسر له من الهدى يذبحه يوم النحر، فمن لم يجد هديا لعدمه أو لعجزه عن ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج تمتد إلى نهاية يوم عرفة، وسبعة أيام إذا رجع، فيكون الجميع عشرة كاملة.

كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ(١) فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ(٢) ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ(٣) فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ(٤) وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ(٥) فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ

﴿لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾: أى يكون من غير أهل الحرم المقيمين فى مكة أو فيما حولها داخل منطقة الحرم التى يحرم صيدها وقطع شجرها.

﴿فرض فيهن الحج﴾: أوجبه على نفسه بالشروع فيه

﴿رفث﴾: تقدم بيانه فى الآية (١٨٧) من هذه السورة صفحتى ٣٦، ٣٧.

﴿فسوق﴾: معصية.

﴿جدال﴾: خصام.

﴿جناح﴾: إثم

﴿أفضتم من عرفات﴾: أصل معنى هذه المادة (فاض) سال الماء بكثرة، يقال فاض الماء فى الوادى أى سال، واستعمل مجازا فى غير الماء، فيقال فاض الغدر أى كثر فى الناس، وأفاض الرجل الماء أى جعله يسيل، ثم استعمل (أفاض) مجازا فى الدفع بقوة، ومنه ما هنا، ومفعوله محذوف وجوبا للعلم به، والأصل إذا أفضتم أنفسكم من عرفات، أى إذا دفعتم أنفسكم، والمراد إذا انصرفتم من عرفات.

﴿المشعر الحرام﴾: جبل بمزدلفة ثبت أنه ﷺ بعد أن صلى الصبح ركب ناقته ووقف فوقه مستقبلا القبلة وصار يدعو الله ويكبره ويحمده حتى طلعت الشمس ثم سار إلى منى.

﴿مناسككم﴾: عبادات الحج. ﴿أو أشد ذكرا﴾: (أو) بمعنى بل كما فى الآية (١٤٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

المعنى: ذلك الحكم المذكور من وجوب الهدى أو الصيام إنما يكون على الحاج المستمتع إذا كان غير مستوطن فى الحرم. أما إذا كان المستمتع من أهل الحرم فلا دم ولا صيام. واتقوا

---

(١) معلومات. (٢) الألباب. (٣) عرفات. (٤) هداكم. (٥) مناسككم.

واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، واعلموا أنه شديد العقاب لمن خالفه. ثم بين سبحانه وقت الحج الذى لا يصح إلا فيه فقال (الحج أشهر معلومات) أى وقت الحج الذى يصح فيه هو أشهر معلومات عند الناس من عهد إبراهيم عليه السلام، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة. والمراد أن الإحرام يصح فى أى وقت منها، وتنتهى أركانه وواجباته فى أثناء آخرها، وأما العمرة فتصح فى جميع أيام العام، فمن أوجب على نفسه الحج بالشروع فيه فيجب عليه وجوبا مؤكدا أن يبتعد عن ملامسة النساء وعن المعاصى والخصومات التى قد تغير القلوب فى وقت يطلب فيه أن تكون صافية. وما تفعلوا من خير غير ذلك كصدقة أو طواف يعلمه الله فيجازيكم عليه أحسن الجزاء، وتزودوا بالأعمال الصالحة فى موسم الطاعة العظمى لأن خير الزاد التقوى لبقائه، وما عداه زائل، ومن كان له عقل فليحذر ما يغضب ربه، وليس عليكم مؤاخذة فى أن تطلبوا رزقا حسنا من فضل ربكم بتجارة أو غيرها مادام قصدكم أولا هو الحج، لأن طلب الرزق لا ينافى الإخلاص فى الحج، فإذا انصرفتم من عرفات بعد غروب الشمس ووصلتم مزدلفة فاذكروا الله تعالى بالتلبية والتهليل والدعاء عند المشعر الحرام، واذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة، لأنكم كنتم قبل هذا الهدى الإلهى من الضالين البعيدين عن الحق، ولما كان من عادة بعض أشراف العرب أنهم يقفون فى بعض أماكن الحج وحدهم ويفيضون وحدهم قبل الناس استكبارا على غيرهم مع أن أعمال الحج تنادى بالمساواة فى حرم الله، أبطل سبحانه تلك العادة بقوله ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله﴾ مما سلف. فإذا فرغتم من عبادتكم فى الحج فاذكروا الله كذكركم آباءكم إلخ. وقد كانت العرب فى الجاهلية إذا فرغوا من أعمال الحج تجمعوا فى منى للتفاخر بذكر محاسن الآباء شعرا ونثرا لينتشر فى القبائل، فمنع سبحانه ذلك وصرفهم إلى ما يفيد وهو ذكر الله وحده بحماس ونشاط مثلما كانوا يذكرون آباءهم عند التفاخر، بل يجب أن يكون ذكرهم لله تعالى أقوى وأشد من ذكرهم لآبائهم، لأن فضله سبحانه لا يساويه فضل. ثم بين سبحانه أن الناس فى ذكرهم له تعالى ودعائهم ينقسمون بحسب استعدادهم وما يشغل قلوبهم إلى قسمين، فمنهم من يقول فى ذكره ربنا آتنا فى الدنيا حظنا منها، وهذا ليس له فى الآخرة نصيب من الخير.

فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ[١] ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ[٢] فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى الْحَيَوٰةِ[٣] الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ

﴿خلاق﴾: نصيب.

﴿أيام معدودات﴾: هى الأيام الثلاثة بعد يوم العيد.

﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾: نفى الإثم فى الحالين، ردا على ما كان يزعمه العرب فى الجاهلية، بعضهم يقول يأثم إذا تعجل، وآخرون يقولون يأثم إذا تأخر، فأبطل كل ذلك، وبهذا تعلم أنه لا ينافى أفضلية التأخير.

﴿ويشهد الله على ما فى قلبه﴾: العرب تستعمل هذا التعبير كناية عن الحلف بالله، انظر الآيتين (١)، (٢) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٢، ٧٤٣، وتصريحهم بالحلف فى الآية (٧٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

﴿ألد الخصام﴾: أشد فى المخاصمة.

﴿الحرث﴾: ثمرات الأرض كالزرع.

﴿النسل﴾: ما يتناسل من حيوان ينتفع به.

﴿أخذته العزة بالإثم﴾: العزة فى الأصل خلاف الذل، انظر الآية (١٨٠) من سورة ص صفحة ٥٩٧، و أريد بها هنا التكبر، فالمعنى استولت عليه أنفة الكبر مقرونة بالإثم أى الذنب.

﴿لبئس المهاد﴾: قبح المكان الذى أعد لإقامته وهو جهنم.

﴿يشرى﴾: يبيع وشرى تستعمل عند العرب فى أخذ أو أعطى.

(١) خلاق.
(٢) معدودات.
(٣) الحياة.

المعنى: أن هذا الذى شغلته دنياه عن أخرته ليس له فى نعيم الآخرة نصيب لأنه جعل الدنيا كل همه، ومنهم صالحون يطلبون خيرى الدنيا والآخرة. وحسنة الدنيا هى الحياة الطيبة المذكورة فى الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩. وحسنة الآخرة هى الجنة، ويطلبون مع كل ذلك البعد عن كل عمل يوصل للنار. أولئك الذين طلبوا الحسنيين لهم جزاء طيب حسن من جنس أعمالهم الطيبة، والله سريع الحساب فيوفى كل عامل عمله عقب عمله ويحاسب الخلق جميعا يوم القيامة فى أقصر وقت.

واذكروا الله أيها الحجاج بالتلبية والتكبير عند رمى الجمار وعقب الصلوات وكل عبادة فى الأيام الثلاثة بعد العيد. فمن استعجل ورحل من منى بعد يومين فلا إثم عليه فى التعجيل، ومن تأخر فى منى حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره فلا حرج عليه كذلك، أى فهو مخير، بشرط أن يكون فى كل حال متقيا ربه، لأن تقواه أساس كل خير. ولذا أكدها بقوله سبحانه ﴿واتقوا الله﴾ إلخ فى حال أداء المناسك فلا تفعلوا محظورا، وفى جميع أحوالكم حتى لا تضيعوا ثمرة حجكم، لأنه سيجازيكم يوم القيامة بما يحصل منكم، ثم بين سبحانه أن الناس فى دلالة أعمالهم على حقيقة ما فى قلوبهم فريقان، فقال: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ إلخ أى يعجبك قوله وأنت فى هذه الحياة الدنيا لأنك تأخذ فيها بالظاهر مع أنه منافق اللسان يظهر خلاف ما يبطن، ويبالغ فى ذلك حتى تبلغ به جرأته أنه يشهد الله تعالى على ما فى قلبه، أى يحلف بالله على أن ما فى قلبه موافق لما يقول، وهو فى الحقيقة أشد فى الخصومة والعداوة ممن لم يفعل فعله. فاحذروا هذا النوع من الناس لأنه لو تولى من المجلس أو تولى أمرا من أمور الناس أفسد وأهلك الحرث والنسل وكل نافع، فهو مغضوب عليه من الله، لأنه سبحانه لا يحب الفساد. ومن شدة خطره أن فساده عن تعمد لا عن خطأ. ولذا إذا قيل له (اتق الله) فلا تفسد استولت عليه أنفة الجاهلية مصحوبة بذنب الإصرار، فهذا كافيه على جرمه عذاب جهنم. وقبحت جهنم مكانا يأوى إليه. ومن الناس فريق صالح يبذل نفسه فى الجهاد وفى كل خير، انظر الآية (١١١) من سورة التوبة صفحة ٢٦١ طالبا رضاء الله لا يطلب ثمنا غيره، فهذا له عند الله الجنة كما فى آية سورة التوبة المتقدمة؛ لأن الله رءوف بعباده يرشدهم للخير، ويكافئهم على العمل المنقطع بالنعيم الدائم.

بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[1] الشَّيْطَانِ[2] إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ[3] فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ[4] وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ[5] كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ[6] الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[7] وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[8] مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ[9] بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

﴿يأيها الذين آمنوا﴾: المراد بهم هنا المنافقون الذين أظهروا الإيمان، وليس المراد بهم اليهود. لأن الكلام عنهم الذى ابتدأ بالآية (٤٠) انتهى بالآية (١٥٢) من هذه السورة.

﴿السلم﴾: الإسلام.

﴿كافة﴾: فى الأصل صفة من (كفّ) بمعنى منع، استعمل بمعنى الجملة. فشموله من شمول الكل للأجزاء. وهو هنا حال من الضمير فى (ادخلوا) أى أدخلوا بكلياتكم وجميع أحوالكم أى ظاهرا وباطنا، أى فلا تنافقوا.

﴿زللتم﴾: انحرفتم عن الدخول فى السلم.

﴿يأتيهم الله﴾: أى عذابه.

﴿ظلل﴾: جمع ظلة وهى ما يظل غيره ويستره. انظر الآيات (١٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٠، ٢٢١، (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

﴿الغمام﴾: السحاب: جمع غمامة كسحاب وسحابة وزنًا ومعنى، وسمى بذلك لأنه يغم السماء أى يسترها.

(١) خطوات.
(٢) الشيطان.
(٣) البينات.
(٤) والملائكة.
(٥) إسرائيل.
(٦) الحياة.
(٧) القيامة.
(٨) النبيين.
(٩) الكتاب.

﴿وقضى الأمر﴾: أى تم أمر إهلاكهم. ﴿كم آتيناهم﴾: (كم) اسم بمعنى كثير (من آية) (من) حرف يدل على أن ما بعده بيان لهذا الكثير.

﴿كان الناس أمة واحدة﴾: أى وجد الناس حال كونهم طائفة واحدة مشتبكة المصالح والمنافع يحتاج بعضها إلى بعض متميزة عن غيرها من بقية الحيوانات والطيور. انظر أصل (أمة) فى الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥.

المعنى يأيها الذين نطقوا بكلمة الإيمان ابتعدوا عن النفاق وادخلوا فى الإسلام الصحيح بكل أحوالكم الظاهر منها والباطن ولا تجعلوا شيئا من باطنكم يخالف ظاهركم، ولا تتبعوا سبيل الشيطان الذى يبعدكم عن الصواب لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، والعدو لا يدل على خير. فإن انحرفتم عن طريق الإسلام الصحيح من بعد ما جاءتكم الحجج الظاهرة الدالة على أن الله تعالى يرشدكم إلى الخير . والشيطان يدلكم على الهلاك. فاعلموا أن الله عزيز قوى غالب لا يعجزه شىء عن الانتقام منكم. حكيم لا يسوى بين مؤمن وفاسق. انظر الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. ثم بين سبحانه نهاية الوعيد بقوله: ﴿هل ينظرون﴾ أى ينتظرون كما فى الآية (١٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٥. أى يجب ألا ينتظر هؤلاء الذين اتبعوا الشيطان إلا شرا هو أن يأتيهم عذاب الله فجأة مستورا فى ظلل من الغمام حتى تكون حسرتهم شديدة. انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف ٦٦٩، ٦٧٠. وتأتيهم الملائكة المكلفون بعذابهم وعند ذلك يتم أمر إهلاكهم. وإليه سبحانه مرجع كل شىء، ومنه مرجعهم فيعاقبهم بعد الهلاك بأشد العذاب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يذكر هؤلاء الغافلين بما حل بمن قبلهم لما خالفوه سبحانه فقال: «سل بنى إسرائيل» إلخ أى اسأل يا من تنتفع بالسؤال بنى إسرائيل عن الآيات الكثيرة التى آتيناها لهم على لسان أنبيائهم واضحة فى الدلالة على طريق الحق. فبدل أن يشكروا عليها كفروا بها. ومن يبدل نعمة الله الدالة على الهدى والرشاد من بعد علمها وتيقنها فلابد من عقابه عقابا شديدا لأنه تعالى شديد العقاب لمن كفر نعمته ثم بين سبحانه سبب الغفلة عن الآيات فقال: «زين للذين كفروا» إلخ. أى زين لهم الشيطان زخارف

الدنيا فانصرفوا إلى طلبها، وغفلوا عن النظر فى الدليل النافع حتى بلغ من غرورهم أنهم يسخرون من المؤمنين الفقراء لحرمانهم فى زعمهم من نعيم الدنيا الذى يحسبونه كل شىء، مع أن الذين آمنوا واتقوا سيكونون فوقهم يوم القيامة فى جنة عالية وهم فى الهاوية وهى النار الحامية. ثم بين سبحانه أن رزق الدنيا ليس خاصا بتقى دون شقى، بل هو مبذول لكل مخلوق، فقال: «والله يرزق من يشاء بغير حساب» أى رزقا واسعا، بل قد يكون للكافر أوسع استدراجا له ليزداد كفرا فيزداد عذابا. انظر الآيات (٧٦) وحتى (٨٣) من سورة القصص صفحات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩. والآيات (٣٤)، (٣٥)، (٥٥) من سورة التوبة صفحات ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٠. والآيات من (٣١) إلى (٣٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. ولقد أوجد الله الناس أمة واحدة ذات طابع خاص لها مميزات تميزها عن بقية المخلوقات بالعقل والتفكير وتشابك مصالحهم فى المعاش وتزاحمهم، وهذا مع قصر عقولهم عن معرفة ما فيه سعادتهم على الوجه الصحيح كان السبب فى أن الله رحمهم، فأرسل إليهم رسلا ينظمون حياتهم ويبشرونهم بالنعيم الدائم إذا أطاعوا، ويخيفونهم من عذاب الله إذا عصوا، وأنزل مع الرسل الكتاب والمراد جنسه أى كتبا مملوءة بالحق ليحكم الله بها على لسان رسله فيما يختلفون فيه تبعا لاختلاف أغراضهم.

﴿أم حسبتم﴾: (أم) حرف متضمن معنى حرفين الأول (بل) التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر والثانى همزة الاستفهام الإنكارى المفيد للنفى فيكون حاصل معنى (أم) بل ليس الأمر كما تظنون.

﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾: المثل الوصف العظيم والحال التى تستلفت الأنظار حتى أصبحت يضرب بها المثل، أى حال الذين مضوا من الأمم قبلكم.

﴿البأساء﴾: ما يصيب الإنسان فى غير نفسه كفقد ولد أو مال.

﴿الضراء﴾: ما يصيبه فى نفسه كالمرض.

﴿زلزلوا﴾: أزعجوا إزعاجًا شديدا.

فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ(١) بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ(٢) مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ(٣) وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ(٤) وَٱلۡمَسَٰكِينِ(٥) وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

المعنى: أنه لما كان وجود الكتاب يشعر بأنه كان ينبغى ألا يقع خلاف، فكيف وقع خلاف مع وجوده فى كل عصر؟ بعد ذلك بين سبحانه أن الكتاب نعمة ككل شىء نافع رزقه الله تعالى للإنسان كالعقل والسمع والبصر، كلها نعم يستفيد منها سليم الطبع البعيد عن البغى والحسد فيما يعود عليه وعلى الناس بالخير، أما فاسد الطبع المنطوى على الخبث والحسد فإنه يتخذ من كل نعمة سبب نقمة، فيسخر عقله وحواسه للكيد للناس وإلحاق الشر بهم، انظر الآية (٢٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠؛ لكن وجود هذا الشرير لا يمنع إيجاد كل شىء نافع، إذ لو منع لما وجد فى العالم شىء نافع، فلم يختلف فى الكتاب النافع إلا الذين أنعم الله به عليهم وجاءهم بالحجج الواضحة الدالة على أنه حق يجب الاتفاق على احترامه، تحت تأثير البغى والحسد، وهدى الله لما فيه من الحق الذين آمنوا وأخلصوا فى إيمانهم بإذنه وتيسيره، لأن هدايته تعالى تعطى لمستحقها، وإضلاله لمستحقه، انظر ما تقدم فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحتى ٦، ٧.

ولما أنزل المشركون بالمسلمين من الشدائد والمصائب ما كان يزلزل بعضهم، انظر الآيات من (١٥٢) إلى (١٦٠) من سورة آل عمران صفحات ٨٧، ٨٨، ٨٩ والآيات من (٩) إلى (١٧) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٠، ٥٥١.

---

(١) البينات. (٢) صراط. (٣) فللوالدين. (٤) واليتامى. (٥) والمساكين.

حث الله سبحانه المسلمين على الصبر بتذكيرهم بصبر المؤمنين من الأمم قبلهم، فقال «أم حسبتم أن تدخلو الجنة» إلخ. روى البخارى أن بعض أصحابه ﷺ شكوا إليه ما يلقونه من المشركين وقالوا ألا تدعو الله لنا؟ فقال ﷺ: إن من كان قبلكم كان يوضع المنشار على رأس أحدهم فينشر حتى يصل إلى قدميه فلا يصرفه ذلك عن دينه. وقد ذكر سبحانه شيئا من ذلك فى أول سورة البروج صفحتى ٨٠٠، ٨٠١.

والمعنى: هل ظننتم أيها المسلمون أنكم ستدخلون الجنة دون أن تلاقوا مثل ما لاقى المؤمنون قبلكم من الشدائد التى يضرب بفظاعتها المثل؟ فإن أردتم دخول الجنة فاصبروا كما صبروا.

ثم بين سبحانه ما أصاب السابقين فقال: مستهم البأساء والضراء وأزعجوا إزعاجًا شديدًا جعل رسولهم والمؤمنين معه يقولون متى يأتينا نصر الله. فأجابهم سبحانه «ألا إن نصر الله قريب» أى أنه سبحانه نصرهم فعلا وكف شر عدوهم.

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض الأحكام العملية فى صورة أجوبة لأسئلة وقعت منهم، فمنها أنهم سألوه عن أحسن شىء ينفق تقربا لله، وعن أحسن جهة ينفق فيها، فقال: المطلوب إنفاقه هو الخير، أى الحلال يعطى للوالدين وما بعدهم، وقد تقدم فى الآية (١٧٧) من هذه السورة صفحتى ٣٣، ٣٤؛ وما تفعلوا من خير غير ما تقدم من كل أنواع الخير فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه. ولما ملأ الإسلام قلوب المؤمنين رحمة بعد أن كانت كالحجارة، وأحبوا أن يصلوا إلى هداية قومهم بدون قتال، أعلمهم الله الذى يعلم ما لا يعلمون أن أغلب هؤلاء الكفار لا يخضعون للحجة ولو عرضت عليهم ألف سنة، وأنهم إذا لم يعاملوا بمثل عملهم ويقاتلوا فلن يكفوا عن قتالكم وإيذائكم ككل صاحب طبع لئيم، فقال «كتب عليكم القتال» إلخ، أى فرض الله عليكم القتال للدفاع عن الدين وهو يعلم أنه مكروه لكم لأنه لا يوافق ميولكم المبينة على غير الحق، إذ عسى أن تكرهوا شيئا مثل قتال المشركين مع أنه خير لكم لأنه فيه القضاء على فتنتهم، وعسى أن تحبوا شيئا مثل مسالمتهم وعدم قتالهم مع أنه شر لكم لأنه يقوى شوكتهم ويعوق نجاح الدعوة، والله تعالى يعلم من طبائعهم وخبثهم وأنتم لا تعلمون شيئا من ذلك، لأنها من أسرار نفوسهم التى لا يطلع عليها إلا علام الغيوب.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ(١) حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟(٢) وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ(٣) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ(٤) ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ(٥) ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟(٦) فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ(٧) لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ(٨) لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

﴿الفتنة﴾: الابتلاء الشديد والامتحان القاسى.

﴿حبطت﴾: بطلت فلا تنفع صاحبها فى إنقاذه من الخلود فى النار.

﴿الميسر﴾: القمار بكل أنواعه.

﴿العفو﴾: قال الراغب: العفو هو ما سهل إنفاقه. وقال صاحب الأساس: يقول العربى: هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه، وأعطيته الشىء عفوا أى من غير طلب منه. وقال صاحب المنار: يطلق العفو فى اللغة على معان، على الجيد الخالص من الدخيل وعلى الفاضل الزائد عن الحاجة، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه ولا مشقة فى إنفاقه على النفوس وهذا هو المراد هنا كما سيأتى فى الآية (١٩٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥. وله معنى سلبى ومنه عفت الريح آثار الديار أى أزالتها. وعفا الله عن الذنب أى أزال أثره من العقاب. والغالب أنه ما زاد على مقدار حاجة الشخص وعياله.

المعنى: أرسل ﷺ سرية إلى مكة تستطلع أحوال قريش بعد واقعة بدر الأولى، فلقيت بعض كفار قريش فتقاتلوا، وقتل المسلمون رجلا من المشركين، وكان ذلك فى أول يوم من رجب وهم

(١) يقاتلونكم.
(٢) استطاعوا.
(٣) أعمالهم.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) وجاهدوا.
(٧) ومنافع.
(٨) الآيات.

لا يعلمون أنهم دخلوا فى شهر رجب. فأشاعت قريش فى القبائل أن محمدًا ينتهك حرمة الأشهر الحرام. فتساءل الناس من كفار ومسلمين. فأنزل الله سبحانه «يسألونك عن الشهر الحرام» الخ. أى عن القتال فى الشهر المحرم القتال فيه وهو رجب أحد الأشهر الأربعة الحرم. وبقيتها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. قل لهم أيها النبى: حقا القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير. لكن هناك ما هو أكبر وأبشع جرما منه فينبغى أن تبتعدوا عنه إذا كنتم جادين فى المحافظة على حرمات الله. ذلك هو صدكم أى منعكم النبى ﷺ وأصحابه عن سبيل الله أى إقامة دينه بقتلكم من يؤمن أو تعذيبه بأقسى أنواع العذاب. وكفركم به تعالى وهو خالقكم ورازقكم. ومنعكم المؤمنين عن دخول المسجد الحرام وإخراجكم أهل هذا المسجد. وهم النبى وأصحابه منه أى من بلده مكة. فكل ذلك من الصد عن سبيل الله والمسجد. والكفر به تعالى وإخراج المؤمنين من بلدهم أكبر عندالله. أى أعظم وزرا فى حكم الله تعالى من قتل رجل فى أول يوم من رجب خطأ لجهله بدخول زمن الشهر. وقد علمتم أن فتنة الناس عن دينهم أكبر وزرًا من القتل فى الشهر الحرام كما تقدم فى الآية (١٩١) من هذه السورة صفحة ٣٧. ثم بين سبحانه للمؤمنين خطأهم فى الطمع فى إيمان هؤلاء المشركين وشدة عنادهم فقال ولا يزالون. أى سيستمر هؤلاء الذين تكرهون قتالهم يقاتلونكم فى كل فرصة إلى أن يردوكم إلى الكفر إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ومن يرجع منكم إلى الكفر ويستمر حتى يموت كافرا فقد بطل كل ما عمله من خير. وحرم ثمرته فى الدنيا. فلا يكون له ما للمسلمين من مزايا الإسلام. وفى الآخرة فلا ينال من نعيمها شيئا، بل سيكون من الخالدين فى النار. أما الذين آمنوا وحافظوا على إيمانهم والذين هاجروا من مكة وطنهم خوفا على دينهم وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله فإنهم يحق لهم أن يرجوا رحمة الله أى جنته، والله تبارك وتعالى غفور لهفواتهم. رحيم لا يؤاخذ المخلص بما فعل خطأ. ولما كثر تساؤل المسلمين عن حكم الخمر والميسر وعندما تنبهوا لشرورهما قال سبحانه: قل لهم أيها النبى إن فى تعاطيهما ذنبا كبيرا، وفيهما أيضا منافع دنيوية للناس بالتجارة فى الخمر وكسب المال دون مشقة فى الميسر. ولكن ذنبهما أعظم ضررا من فائدتهما. ففى الآية ترغيب الترك، ثم جاءت بعد ذلك الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥ قاطعة فى التحريم. وهنا يحسن أن نقف على سر عظيم من أسرار رحمته تعالى بعباده وهو الذى خلقهم ويعلم مواطن الضعف منهم. ذلك أنه

سبحانه إذا أراد أن يوجههم إلى تشريع جديد لم يألفوه يتلطف بهم فلا يحملهم عليه بعنف، بل يتدرج بهم حتى يصل بهم إلى النهاية التى قدرها، وقد بين ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم انظرها فى شرح الآية(١٨٤) من هذه السورة صفحة ٣٥. وقال العلماء إنه لما كانت عادة شرب الخمر متأصلة فى طبائع الناس أول العصر الإسلامى، وأراد سبحانه أن ينقذهم من شرورها تدرج بهم فى أربع مراحل فأشار أولا إلى كراهتها إشارة لطيفة فى مكة فى الآية (٦٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، ولما تنبهت بعض العقول لشرها وكثر التساؤل عنها نزلت الآية التى معنا هنا، وتركهم سبحانه يدركون بعقولهم أن الشىء الذى يكون ضرره أكبر من نفعه يكون ممنوعا، فلذا تركها كثير من أرباب الفطنة حتى نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال بعد سماع هذه الآية: (حرمت ورب الكعبة).

ولكن لما كان التحريم ليس بنص صريح، وكان شربها عادة مستحكمة، بقى على شربها قوم، بعد ذلك عالج سبحانه الأمر بالنص على تحريمها تحريما مؤقتا كما فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧ ولما تعود الجميع تركها أغلب الوقت وتهيأت النفوس لحملها على التشريع النهائى وهو التحريم الصريح القاطع جاءت الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥.

فابتعد عنها الجميع وأنقذهم الله سبحانه من شرها. ومن العجب أن يتقمص الشيطان ألسنة بعض شباب هذا الجيل من استرخت عزائمهم فصاروا يرددون أن الله تعالى لم يحرم الخمر وإنما قال (اجتنبوه) ولم يقل لا تشربوا. كما قال فى القتل مثلا. وأنساهم الشيطان أن الأمر بالاجتناب أى البعد عن ساحته أقوى فى النهى عنه من النهى عن فعله لأن النهى عن الشرب لا يفيد المنع عن لمسها باليد مثلا بخلاف الأمر بالبعد عن ساحتها فإنه يفيد عدم الدنو منها، نسأل الله تعالى لأبنائنا السلامة من حبائل عدوهم الأصيل الرابض لهم بالمرصاد كما فى الآية (١١) من سورة المائدة صفحة ١٥٥. ولما سألوه ﷺ عن مقدار ما ينفقونه فى سبيل الله أهو كل أموالهم أم بعضها؟ قال: ينفقون العفو أى السهل الذى يدفع بسخاء نفس، وهذا غير الزكاة المفروضة المبين مصارفها فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. كذلك أى مثل هذا النوع من البيان الواضح يبين الله لكم آياته فى الأحكام المتعلقة بمصالحكم لعلكم تتفكرون فى النافع والضار فتعملون الأول وتتركون الثانى.

فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْيَتَٰمَىٰ[1] قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ[2] وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَٰتِ[3] حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ[4] لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَآءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّٰبِينَ[5] وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

﴿أعنتكم﴾: حملكم مشقة.

﴿ولا تنكحوا المشركات.. ولا تنكحوا المشركين﴾: انظر معنى الشرك والكفر فى شرح الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨. وهذا الحكم وهو عدم نكاح المؤمنين للمشركات، وعدم تزويج المشركين بالمؤمنات هو الأصل، ويتفق معه ما فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧. حيث منعت المؤمنة من الزواج بالكافر، ومنعت المؤمن من أن يبقى فى عصمته كافرة، وبعد ذلك جاءت الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦ وخصصت عدم زواج المؤمنين بالمشركات والكافرات بغير الكتابيات منهن، وأجازت أن يتزوج المؤمن كتابية كما سيأتى.

﴿أمة﴾: امرأة مملوكة للغير. ﴿عبد﴾: رقيق مملوك للغير.

﴿المحيض﴾: هو الحيض والمراد هنا هو مكانه أو زمانه، والمراد عن حكم ملامسة المرأة أثناء الحيض (هو أذى) أى منشأ ضرر «فى المحيض» أى فى وقت الحيض.

﴿نساؤكم حرث لكم﴾: الحرث مكان الزرع من الأرض، أى هن كمكان الزرع.

المعنى: لعلكم تتفكرون فى أمر الدنيا وأمر الآخرة فلا تفعلوا إلا الأصلح لكم فيها. ولما نزلت الآيات المشددة فى حرمة مال اليتيم كالآية (١٠) من سورة النساء صفحة ٩٩ والآية (١٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩ والآية (٣٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، تحرج كثير من المسلمين الذين فى حوزتهم يتيم، فكانوا يصنعون لليتيم طعاما خاصا ويقصرونه عليه فلا يقربه غيره حتى كان كثيرا ما يعتريه الفساد إذا مكث مدة طويلة، فسأل بعضهم عن حكم الله فى ذلك فنزلت الآية ﴿ويسألونك﴾ إلخ، أى عن كيفية المعيشة معهم مع هذا الحرج، فقال

(١) اليتامى. (٢) فإخوانكم. (٣) المشركات. (٤) آياته. (٥) التوابين.

سبحانه: قل لهم أيها النبى: إصلاح لهم، أى مخالطة على وجه الإصلاح لهم بالتربية والتهذيب ولأموالهم بالحفظ والتنمية، خير من مجانبتهم فى المعيشة مع ترك ذلك، لأنكم إن تخالطوهم فى المعاشرة والأكل معهم فهم إخوانكم فى الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه على الوجه اللائق الذى فيه صلاحه ولا يقاطعه لما فى ذلك من تعويده على الجفوة، والله يعلم المفسد لهم ولأموالهم عند المخالطة من المصلح لهم ولها فيجازى كلا حسب عمله. ولو شاء الله تحميلكم المشقة بتحريم المخالطة لفعل وأحرجكم كما شدد على من قبلكم كما فى آخر آية من هذه السورة، لأنه عزيز أى غالب يقدر على فعل ما يشاء، حكيم لا يكلف نفسه إلا ما فيه مصلحتها. ولما استأذن بعضهم فى أن يتزوج مشركة نزل قوله تعالى: ولا تنكحوا أيها المؤمنون النساء المشركات أى الكافرات غير الكتابيات ووالله لامرأة رقيقة مؤمنة خير من مشركة حرة ولو أعجبتكم المشركة لجمالها أو مالها. لأن بين المؤمنة وإن كانت أمة وبين المشركة غاية التباين فيما يجب لله عز وجل، وفى اعتقاد الرسل، وفى اليوم الآخر، بخلاف الكتابية فإنها تؤمن بالله ورسله واليوم الآخر. ولا تنكحوا أى تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات حتى يؤمنوا بالله، ووالله إن العبد الرقيق المؤمن خير من مشرك حر ولو أعجبكم المشرك. ثم بين سبحانه بعض أسباب المنع فقال أولئك، أى أهل الشرك من شأنهم أنهم يدعون ويرغبون فى أسباب دخول النار كحب الأصنام والتوسل بها، فمن الخطر معاشرتهم، والله تعالى يدعو على لسان رسله إلى أسباب دخول الجنة والمغفرة بإذنه وتوفيقه من يستحق ذلك أى فأطيعوا أوامره. ومن فضله سبحانه أنه يبين ويوضح دلائل حكمة شرعه للناس لعلهم يتذكرون أن الحكمة فيما شرع. ولما رأى المسلمون أن اليهود لا يخالطون الحائض مطلقا حتى فى المأكل والمسكن، والنصارى يمسوهن فى الحيض كالطاهرات سألوا عن ذلك، فنزل: «يسألونك عن المحيض» إلخ، أى عن الحكم فى ملامسة المرأة أثناء الحيض، قل هو منشأ أذى وقذارة فلا تقربوهن بالملامسة حتى ينتهى الحيض ويغتسلن، أما غير الملامسة من أكل وغيره فلا حرج، فإذا تطهرن فلامسوهن فى المكان الذى أمر الله عز وجل بالإتيان فيه وهو موضع النسل، إن الله يحب التوابين الذين إذا أذنبوا تابوا، ويحب المتطهرين من الأقذار الحسية والمعنوية. ثم بين سبحانه ما أشار إليه فى قوله: «من حيث أمركم» مع الإشعار بالحكمة فيما أمر به فقال: «نساؤكم حرث لكم» أى مكان تزرعون فيه الولد فلا تضيعوا الحكمة وتتركوا مكان الزرع.

﴿أنى شئتم﴾: كيف شئتم.

(سـورة البقرة) ٤٥

فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ[1] وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ[2] أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ[3] وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ[4] فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ[5] يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ[6] قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا[7] وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ

﴿عرضة﴾: قيل فى المصباح تقول العرب: لا تعرض لفلان بكسر الراء فى (تعرض) أى لا تعترض له فتمنعه بسبب اعتراضك من أن يبلغ مراده. ويقال: سرت فى الطريق فعرض لى فيه عارض من جبل أو نحوه، أى مانع، والعرب لم تستعمل وزن (فُعْلَة) بضم فسكون إلا بمعنى المفعول فيقولون (غرفة) من ماء أى مقدارا مغروفا منه، كما فى الآية (٢٤٩) من هذه السورة صفحتى ٥١، ٥٢. ويقولون (مُضْغَة) أى مقدار ما يمضغ فى الفم انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤. و(لُقمة) أى شىء يلقم، وهكذا. وعرضة هنا مأخوذة من قولهم: عرضت العود على الإناء أى وضعته عليه ليمنع دخول شىء فيه، فالعود (عرضة) أى مانع.

﴿لأيمانكم﴾: جمع يمين وهو يطلق على الحلف بالله عز وجل. وعلى المحلوف عليه، وقد جمع المعنيين الحديث الشريف وهو قوله ﷺ: (من حلف على يمين ورأى غيرها خيرًا منها فليُكفّر عن يمينه وليفعل الذى هو خير) فاليمين الأولى بمعنى المحلوف عليه، والثانية بمعنى الحلف نفسه. والمراد فى الآية هو المحلوف عليه.

(١) ملاقوه.
(٢) لأيمانكم.
(٣) أيمانكم.
(٤) الطلاق.
(٥) والمطلقات.
(٦) ثلاثة.
(٧) إصلاحا.

﴿أن تبروا﴾: بيان لأيمانكم، أى للأمور المحلوف عليها بأنها هى البر والتقوى، والإصلاح بين الناس. فيكون حاصل المعنى: لا تجعلوا الله أى الحلف بالله سبحانه مانعا لكم من فعل المحلوف عليه الذى هو البر والتقوى.. إلخ.

(وللعرضة) معنى آخر، هو ما ينصب للشىء ويُعَرَّض له كالهدف للسهام. يقال جعلته عرضة لكذا، أى نصبته له، وكان معرضا له، ومن ذلك قول الشاعر (إن النساء لعرضة للتطليق) أى معرضات له، وإرادة هذا المعنى هنا فى الآية بعيد، والأنسب هو المعنى الأول.

﴿اللغو فى أيمانكم﴾: هو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد نحو لا والله.

﴿كسبت قلوبكم﴾: أى ما قصدتموه وعقدتم عليه النية.

﴿يؤلون من نسائهم﴾: أى يحلفون ألا يلامسوا نساءهم. انظر تفصيل المادة فى الآية (٢٢) من سورة النور صفحة ٤٦٠.

﴿تربص﴾: انتظار.

﴿فاءوا﴾: رجعوا.

﴿عزموا الطلاق﴾: صمموا عليه.

﴿قروء﴾: جمع قرء بضم أوله وفتحه، ويطلق على الطهر الواقع بين حيضتين، وعلى الحيضة، ويرجح أن المراد بالقرء هنا الأطهار، ويؤكد ذلك تأنيث ثلاثة لأنها تؤنث مع المذكر كما فى أربعة أشهر، وتذكر مع المؤنث كما فى سبع ليال وثمانية أيام انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢.. فلو كان المراد الحيضات لقال ثلاث قروء.

المعنى: فأتوا نساءكم فى مكان النسل على أى وضع شئتم ما دمتم تتحرون النسل الذى به بقاء النوع الإنسانى، وقدموا لأنفسكم ما ينفعكم وهو طاعة الله وطلب الولد الصالح الذى يدعو لكم، واتقوا الله فلا تعصوه لأنكم ستلاقونه بعد البعث فيجازيكم. وبشر أيها النبى المؤمنين الطائعين بكل خير. وكان الرجل يغلب عليه الغضب فيحلف بالله ألا يفعل كذا من

الخير، أو أن يفعل كذا من الشر، فإذا قيل له لمَ لم تفعل هذا الخير؟ يقول أخاف من الحنث فى يمينى، فأنزل الله «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم.. إلخ»، أى لا تجعلوا الحلف بالله مانعا من فعل المحلوف عليه من الخير، بأن تجعلوه مانعا من بركم بأرحامكم وبالمساكين، ومانعا من أن تتقوا ما حرم عليكم، ومانعا من أن تصلحوا بين الناس فيفسدهم الشقاق. وقد بين ﷺ أن من حلف على شىء من ذلك لا يفعل المحلوف عليه بل يفعل الخير ويترك الشر ويكفر عن يمينه، والله سميع عليم. فلا تخالفوا أوامره. واعلموا أن رحمته سبحانه بكم أنه لا يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم التى تجرى على ألسنتكم من غير قصد، فلم يعتبر يمينا يكفر عنه عند الحنث، وإنما يؤاخذكم باليمين المقصود فكم المصمم عليه من قلوبكم. فيؤاخذكم عند الحنث فيه بالكفارة أو العقاب فى الأخرة إذا لم يكن له كفارة، كالأيمان الكاذبة أو على شهادة الزور. والله عز وجل غفور لعباده ما كان منهم من اللغو، حليم فلا يعجل العقوبة ليتوب العبد.

يقول الفخر الرازى «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» فى الآية مسألتان: المسألة الأولى «اللغو» الساقط الذى لا يعتد به سواء كان كلاما أو غيره كقوله سبحانه ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ وقوله ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾.. أما المفسرين فقد ذكروا وجوها: الأول: قول الشافعى أنه قول العرب (لا والله) و(بلى والله) مما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف. والثانى: قول أبى حنيفة أن اللغو هو أن يحلف على شىء يعتقده أنه كان ثم بان أنه لم يكن.

وأثر الصحابى فى تفسير كلام الله حجة. والحجة الأولى: قوله ﷺ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير». الحديث دل على وجوب الكفارة على الحانث مطلقا من غير فصل بين المجد والهازل. الحجة الثانية أن اليمين معنى لا يلحقه الفسخ. فلا يعتبر فيه القصد كالطلاق والعتاق فهاتان الحجتان يوجبان الكفارة فى قول الناس (لا والله) و(بلى والله) إذا حصل الحنث ثم الذى يدل على أن اللغو لا يمكن تفسيره بما قال الشافعى ويجب تفسيره بما قاله أبو حنيفة أن اليمين فى اللغة عبارة عن القوة قال الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة والمقصود من اليمين التقوية أى تقوية جانب البر على جانب الحنث بسبب اليمين وهذا يكون فى الموضع الذى يكون قابلا للتقوية وهذا إنما يكون إذا وقع اليمين على فعل فى المستقبل أما إذا وقع اليمين على الماضى فذلك لا يقبل التقوية البتة. فعلى هذا اليمين على الماضى تكون خالية عن الفائدة المطلوبة منها والخالى عن المطلوب يكون لغوا. فثبت أن اللغو هو اليمين على الماضى. والقول الثالث فى تفسير يمين اللغو هو أنه إذا حلف على ترك طاعة أو فعل معصية فهذا هو يمين اللغو وهو المعصية قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ فبين أنه تعالى لا يؤاخذ بترك هذه الأيمان ثم قال ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أى بإقامتكم على ذلك الذى حلفتم عليه من ترك الطاعة وفعل المعصية، قالوا هذا التفسير مناف لقوله عليه السلام «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» وهذا التأويل ضعيف من وجهين: الأول: أن المؤاخذة المذكورة فى هذه الآية صارت مفسرة فى آية المائدة بقوله تعالى ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته.. الآية﴾ ولما كان المراد بالمؤاخذة إيجاب الكفارة والكفارة ههنا واجبة علمنا أن المراد من الآية ليس هو هذه الصورة. الثانى: أنه تعالى جعل المقابل للغو هو كسب القلب، ولا يمكن تفسيره بما ذكره من الإصرار على الشىء الذى حلفوا عليه. لأن كسب القلب مشعر بالشروع فى فعل جديد، فأما الاستمرار على ما كان فذلك لا يسمى كسب القلب. الثالث: أنها اليمين المكفرة سميت لغوا لأن الكفارة أسقطت الإثم فكأنه يقول لا يؤاخذكم الله باللغو إذا كفرتم. وهذا قول الضحاك. والقول الرابع وهو قول القاضى أن المراد به ما يقع سهوا غير مقصود إليه والدليل على قوله تعالى بعد ذلك ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أى يؤاخذكم إذا تعمدتم والمعلوم أن المقابل للعمد هو السهو. المسألة الثانية: احتج الشافعى بهذه الآية على وجوب الكفارة فى اليمين الغموس قال إنه تعالى ذكر هنا فى آية سورة البقرة:

﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وفى آية سورة المائدة ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ وعقد اليمين محتمل لأن يكون المراد منه عقد القلب به، ولأن يكون المراد به العقد

الذى يضاد الحل، فلما ذكر هنا قوله ﴿بما كسبت قلوبكم﴾ علمنا أن المراد من هذا العقد هو عقد القلب، وأيضا ذكر المؤاخذة هنا ولم يبين تلك المؤاخذة ما هى؟ وبينها فى آية سورة المائدة بقوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته.. إلخ﴾ فبين أن المؤاخذة هى الكفارة. فكل واحدة من هاتين الآيتين مجملة من وجه ومبينة من وجه آخر فصارت كل واحدة منهما مفسرة للأخرى من وجه، وحصل من كل واحدة منهما أن كل يمين ذكر على سبيل الجد وربط القلب، فالكفارة واجبة فيها واليمين الغموس كذلك واجبة فيها.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ قد ذكرنا أنه تعالى بين فى هذا الموضع أنواعًا من الشرائع والأحكام. بقى أن يقال: أى مناسبة بين هذا الحكم وبين ما قبله حتى يحسن ذكره عقيبه؟ فنقول قد ذكرنا أن سبب نزول الآية الأولى أن قوما من الصحابة حرموا على أنفسهم المطاعم والملابس واختاروا الرهبانية وحلفوا على ذلك فلما نهاهم الله تعالى عنها قالوا: يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا أنزل الله هذه الآية واعلم أن الكلام فى أن يمين اللغو ما هو قد سبق على الاستقصاء فى سورة البقرة فى تفسير قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فلا وجه للإعادة ثم قال تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (عقدتم) بتشديد القاف بغير ألف، وقرأ حمزه والكسائى وأبو بكر عن عاصم (عَقَدْتم) بتخفيف القاف بغير ألف، وقرأ ابن عامر (عاقدتم) بالألف والتخفيف. قال الواحدى يقال: عقد فلان اليمين والعهد والحبل عقدًا إذا وكده وأحكمه، ومثل ذلك أيضا عقد بالتشديد إذا وكد، ومثله أيضا عاقد بالألف.

إذا عرفت هذا فتقول: أما من قرأ بالتخفيف فإنه صالح للقليل والكثير، يقال: عقد زيد يمينه، وعقدوا أيمانهم، وأما من قرأ بالتشديد فاعلم أن أبا عبيدة زيف هذه القراءة وقال: التشديد للتكرير مرة بعد مرة. فالقراءة بالتشديد توجب سقوط الكفارة عن اليمين الواحد لأنها لم تتكرر وأجاب الواحدى رحمه الله عنه من وجهين: الأول: أن بعضهم قال: عقد

بالتشديد والتخفيف واحد فى المعنى. الثانى: هب أنها تفيد التكرير كما فى قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾ إلا أن هذا التكرير يحصل بأن يعقدها بقلبه ولسانه، ومتى جمع بين القلب واللسان، فقد حصل التكرير، أما لو عقد اليمين بأحدهما دون الآخر لم يكن معقدا. وأما من قرأ بالألف فإنه من المفاعلة التى تختص بالواحد مثل عافاه الله. ومثل ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

وطارقت النعل، وعاقبت اللص فتكون هذه القراءة كقراءة مَنْ خفف. المسألة الثانية: (ما) مع الفعل بمنزلة المصدر، والتقدير: ولكن يؤاخذكم بعقدكم أوبتعقيدكم أو بمعاقدتكم الأيمان. المسألة الثالثة: فى الآية محذوف، والتقدير: لكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذف وقت المؤاخذة لأنه كان معلوما عندهم أو بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف. وأما عن كيفية استدلال الشافعى بهذه الآية على أن اليمين الغموس توجب الكفارة فقد ذكرناها فى سورة البقرة.

يقول الزمخشرى: اللغو فى اليمين، الساقط الذى لا يتعلق به حكم، واختلف فيه فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سئلت عنها فقالت: هو قول الرجل: (لا والله) و(بلى والله). وهو مذهب الشافعى وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشىء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبى حنيفة (بما عقدتم الأيمان) بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية. وروى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد دعنى أجب عنك فقال:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّده عاقدات العزائم.

وقرئ عقدتم بالتخفيف وعاقدتم والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذف وقت المؤاخذة لأنه كان معلوما عندهم أو بنكث ما عقدتم فحذف المضاف (فكفارته).. إلخ.

بعد ذلك يوضح سبحانه الإيلاء. وكان الرجل يحلف على أن لا يلامس امرأته ويتركها معلقة: لا هى مطلقة ولا زوجة. فوضع سبحانه حدا لهذا فقال «للذين يؤلون» أى يحلفون على البعد من نسائهم، انتظار مدة أربعة أشهر. ليتروى فيها أحدهم لعله يرجع إلى رشده. فإن

رجعوا فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنثوا فى اليمين ولامسوا زوجاتهم وكفروا عن اليمين فإن الله تعالى يغفر لهم ما سبق من إضرار زوجاتهم، رحيم بفتح باب التوبة. وإن صمموا على الطلاق فليراقبوا الله لأنه سميع لإيلائهم، عليم بنياتهم، هل هم معذورون أو يقصدون الإضرار بالمرأة.

فالحاصل أن من حلف أن لا يلامس زوجته لا يجوز أن يهمل أكثر من أربعة أشهر، فإن تاب وعاد قبل انقضائها فلا جناح عليه، وإن أبى حتى انقضت تعين أحدأمرين: إما الرجوع أو الطلاق، فإن لم يطلق ولا يراجع طلقها عليه الحاكم. والمطلقات ينتظرن بأنفسهن عن الزواج مدة ثلاثة قروء، أى يجب أن ينتظرن ولا يتزوجن حتى تنتهى هذه المدة وهذا فى المدخول بهن غير اليائسات من الحيض لكبر سن أو لصغر فهاتان عدتهن ثلاثة أشهر كما فى الآية (٤) من سورة الطلاق صفحة ٧٤٩، وغير الحوامل لأن عدتهن وضع الحمل كما فى الآية السابقة من سورة الطلاق، وغير المتوفى عنهن أزواجهن فعدتهن أربعة أشهر وعشر كما سيأتى فى الآية (٢٣٤) من هذه السورة صفحة ٤٨، وغير الإماء فإن السنة بينت أن عدتهن قرءان. أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن كما فى الآية (٤٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧.

ولا يحل للمطلقات أن يكتمن ما فى أرحامهن من الولد استعجالا للزواج، ولا أن يكتمن الحيض لتطويل مدة العدة فتأخذ نفقة بدون حق، فإن كن يؤمن بالله الذى لا يخفى عليه شىء، وباليوم الآخر الذى سيحاسبن فيه، فلا يفعلن ما نهاهن الله عنه. وأزواج المطلقات أولى بردهن أى مراجعتهن فى ذلك أى فى مدة التربص. والمراد أن الرجل إن أراد مراجعتها وأبت وجب تقديم رأيه على رأيها إن أراد بالمراجعة إصلاحا لما بينهما، وأن لا يكون مريدا بالرجعة الإضرار بها كتطويل العدة حتى لا تتزوج ففى تلك الحالة يحرم عليه المراجعة. ويجب لها من الحقوق فى حال قيام الزوجية من مهر ونفقة وحسن معاشرة مثل الذى يجب عليهن للرجال مما يقتضيه العرف بين الناس فى معاشرة الأزواج من حفظ عرضه وولده وماله وخدمته فى بيته. فالمماثلة فى الوجوب لا فى جنس ما يجب، ويزيد الرجال عليهن درجة وسيأتى بيانها.

﴿درجة﴾: هى قوامتهم عليهن لأنهم هم الذين ينفقون، انظر الآية (٣٤) من سورة النساء

صفحتى ١٠٥، ١٠٦.

المعنى: الطلاق الذى يجوز المراجعة بعده لا يزيد عن مرتين، أى تطليقة بعد تطليقة. فإن طلقتم دون الثلاث فيجوز لكم إمساكهن أى مراجعتهن، بشرط أن تكون المراجعة مقرونة بالمعروف شرعا من حسن العشرة والبعد عن الإضرار، أو تسريحهن أى تركهن مقرونا بإحسان كجبر خاطر وأداء حقوق بلا مماطلة من مؤخر صداق وغيره. ولا يحل لكم أن تأخذوا فى مقابل الطلاق مما آتيتموهن من صداق وغيره شيئا، لمنافاة ذلك للإحسان.

دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ[1] فَإِمْسَاكٌ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ[2] وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟
مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا
ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[3] ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ
وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ
ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ[4] ٱللَّهِ هُزُوًا

والخطاب فى الآية للحاكم لتنتظم الضمائر الآتية. وإسناد الأخذ والإتيان إلى الحكام لأنهم هم الآمرون بها عند التقاضى إليهم. ومحل ما تقدم إذا كان الزوج هو الذى اختار الطلاق، أما إذا كانت المرأة هى التى طلبته فلا جناح أن يأخذ منها مالاً لتحقيق رغبتها كما قال «إلا أن يخافا» إلخ، أى الزوجان أو أحدهما، كأن تخاف المرأة أن تعصى الله فى أمر زوجها أو تخونه، أو يخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع فى مؤاخذتها إذا رأى منها كرها له، أو يخافا معا سوء العشرة، وعندئذ فلا جناح عليهما فيما افتدت به نفسها من مال ليطلقها، فلا إثم على الرجل فيما أخذ، ولا على المرأة فيما أعطت.

وتلك الأحكام المذكورة حدود الله التى حدد بها الحلال والحرام فلا تتجاوزوها بالمخالفة

(١) الطلاق.
(٢) بإحسان.
(٣) الظالمون.
(٤) آيات.

لأن من يتجاوزها فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله. فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرتين فلا تحل له من بعد الثالثة إلا بعد أن تتزوج رجلا غيره ويعاشرها معاشرة الأزواج. فإن طلقها الزوج الثانى بعد الملامسة فلا إثم على الزوج الأول ولا على هذه المطلقة من الثانى فى أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعد انقضاء العدة من الثانى. إن ظنا أن يحافظا على أوامر الله بعد اعتبارهما بما سبق. وتلك الأحكام السابقة هى حدود الله التى لا يجوز تخطيها يوضحها سبحانه لقوم يفهمون ما يبين لهم. وإذا طلقتم النساء طلاقا رجعيا وقاربن انقضاء العدة فيجوز لكم إمساكهن بالمراجعة، بشرط أن يكون الإمساك بقصد الإحسان لا الإضرار بهن، أو تسريحهن أى تركهن حتى تنقضى العدة. ولتمام العناية بهذا الموضوع الكثير الوقوع بين الناس وللتحذير من مخالفة الله عز وجل فيه صرح سبحانه بما فهم مما سبق فقال: ولا تمسكوهن بالرجعة قبل انقضاء العدة ضرارا أى بقصد الإضرار بإطالة العدة حتى يمنعها عن الزواج أطول مدة يستطيعها. ولذا قال: «لتعتدوا» أى عليهن أى تظلموهن وتلجئوهن لدفع مال. ومن يمسكهن بقصد الإضرار فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب. ولا تتخذوا آيات الله التى بينت تلك الأحكام هزوا أى مهزوءا بها بسبب مخالفتها فإن هذا لا يليق بمؤمن.

﴿الكتاب﴾: القرآن.

﴿الحكمة﴾: أسرار الشريعة.

﴿بلغن أجلهن﴾: انقضت عدتهن.

﴿تعضلوهن أن ينكحن﴾ إلخ تمنعوهن من أن يتزوجن الذين يرغبن فى أن يكونوا أزواجا لهن.

﴿ذلك يوعظ به﴾: أفرد اسم الإشارة مع إن المخاطبين جمع بدليل (منكم) ملاحظا فى الأول جنس المخاطبين. وفى الجمع أفراده، وهذا أسلوب عربى فصيح نظيره لفظ (مَنْ) فى الآية (٦) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩، والآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. والآية (١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ[1] وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ[2] إِذَا تَرَاضَوْا[3] بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ[4] يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ[5] حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ[6] بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ[7]

﴿أزكى﴾: أجلب للبركة.

﴿أطهر﴾: أنظف للسمعة وأبعد من الشبهة عن الرجل والمرأة.

﴿المولود له﴾: الأب.

﴿فصالا﴾: فطاما للطفل.

﴿تسترضعوا أولادكم﴾: تجعلوا لهم مراضع.

المعنى: واذكروا أيها المؤمنون نعمته تعالى عليكم بهدايتكم للإسلام لتشكروه بطاعته، واذكروا القرآن الذى أنزله عليكم ليعظكم به لعل ذلك يساعدكم على تقوى الله. واعلموا أن الله بكل شىء عليم ومنه تذكركم لكتابه والخوف منه، وسيجازيكم على ذلك، و إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن فلا يحل لمخلوق منكم أن يمنعهن من أن يتزوجن الرجال الذين يرغبن فى أن يكونوا أزواجا لهن، فالخطاب لأولياء المرأة وكل من يمكنه منعها، أى لا يجوز لأحد أن يقف فى طريق رغبة المطلقة فيمن تريد الزواج منه إذا تراضى الخاطبون والنساء المخطوبات بالطريق المعروف شرعا وعادة بأن لا يكون هناك مانع ولا ما يخل بشرف أهلها كعدم تحقيق الكفاءة. وذلك النهى عن المنع يوعظ به من كان يؤمن بالله ويعلم أنه مراقبه، ويؤمن باليوم

(١) الكتاب.
(٢) أزواجهن.
(٣) تراضوا.
(٤) والوالدات.
(٥) أولادهن.
(٦) والدة.
(٧) أولادكم.

الآخر الذى سيجازى فيه على ما عمل، لأنه هو الذى ينفع فيه الوعظ، ذلكم أى ترك المنع باتباع الشرع أجلب للبركة وأطهر للرجل والمرأة لما يخشى عليهما من الريبة بسبب ميل كل لصاحبه. والله يعلم من المصلحة مالا تعلمون. والوالدات سواء أكن زوجات أو مطلقات عليهن أن يرضعن أولادهن عامين كاملين لمن أراد من الآباء أن يتم رضاعة ولده، ولا تجبر الأم على الزيادة عليهما، وعلى الآباء إطعامهن وكسوتهن إن كن مطلقات. أما الزوجات فرزقهن ثابت لهن بالزوجية بالمعروف بين الناس أنه فى طاقة الأب أى بلا إسراف ولا تقتير، لأن الله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها أى ما فى طاقتها. لا تضار أى لا تؤذى والدة بسبب ولدها بأن تكره على إرضاعه مع التضييق عليها فيما تستحقه من رزق وكسوة، ولا يضار مولود له بسبب ولده، بأن يكلف فوق طاقته. وعلى الوارث أى وارث الأب وهو الصبى إن كان والده ترك له مالا أوجده إن لم يترك والده شيئا مثل الذى كان على أب الطفل من الرزق والكسوة للمرضع. فإن أراد الوالدان فطام الطفل قبل الحولين بعد اتفاق وتشاور فيما فيه مصلحة الطفل حتى لا يضر فلا حرج عليهما فى فطامه قبل الحولين.

﴿جناح﴾: ذنب.

﴿سلمتم﴾: أعطيتم.

﴿المعروف﴾: المتعارف بين الناس.

﴿يتربصن﴾: ينتظرن بدون زواج.

﴿عرضتم به﴾: لوحتم به من غير تصريح.

﴿لا تعزموا﴾: لا تصمموا جازمين.

﴿عقدة النكاح﴾: عقد الزواج.

﴿الكتاب﴾: المكتوب أى المفروض وهو العدة.

﴿أجله﴾: نهايته.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ

﴿أو تفرضوا.. إلخ﴾: المراد توجبوا على أنفسكم مقدارا من المال تدفعونه لهن صداقا، انظر الآية (٣٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، وقال علماء اللغة إن (أو) الواردة بعد نهى أو نفى تفيد العموم كأنه قال ما لم تمسوهن وما لم تفرضوا إلخ. أى إذا انتفى الأمران ومثالها فى النهى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) الآية (٢٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿فريضة﴾: صداقا.

﴿الموسع﴾: ذو السعة والرخاء.

المعنى: وإن أردتم أيها الآباء أن تجعلوا لأولادكم مراضع غير الوالدات برضا منهن وتشاور فلا إثم عليكم فى هذا الاسترضاع إذا سلمتم المراضع ما آتيتم أى ما أردتم إعطاءه لهن من الأجر بالقدر المتعارف عليه بين الناس حتى لا يسئن إلى الطفل أو يهملنه. واتقوا الله فلا تتسببوا فى إيذاء الطفل ووالدته وأعلموا أن الله بصير بعملكم فيجازيكم عليه خيرا أو شرا والذين يتوفون منكم ويذرون أى يتركون زوجات، يجب عليهن أن ينتظرن بدون زواج بعد موت الزوج أربعة أشهر وعشر ليال إذا كن غير حوامل. أما الحوامل فقال ابن عباس رضى الله عنهما: (أن الحامل المتوفى عنها زوجها تمكث أطول الأجلين: أجل الوضع أو أجل الأربعة أشهر وعشر). فإذا انقضت عدتهن فلا جناح عليكم أيها الأولياء والحكام، ولا عليهن أيضا فيما فعلن فى أنفسهن من الزينة والتهيؤ للخطاب، بشرط أن يكون ذلك بالشىء المعروف عند ذى

(١) أزواجا.
(٢) الكتاب.

المروءة وهو ما لا تبرج فيه. والله بما تعملون خبير، فلا تفعلوا إلا ما يبيحه سبحانه خوفا من غضبه. ولا جناح عليكم يا من تريدون الزواج من المعتدات عدة وفاة أو طلاق بائن. أما المعتدات من طلاق رجعى فلا يجوز حتى التعريض لأنهن فى عصمة أزواجهن إلى نهاية العدة فيما لوحتم به دون تصريح من خطبة النساء أى طلبهن للزواج، كأن يقول الرجل إنك امرأة صالحة، أو مثلك يرغبها الرجال. ولا يصرح كأن يقول أريد زواجك فإنه حرام ما دامت فى العدة. ولاجناح عليكم أيضا فيما أضمرتم فى أنفسكم من الرغبة فى زواج المعتدة لتعذر الاحتراز عنه. ولذا قال «علم الله أنكم ستذكرونهن» قطعا بدافع الرغبة البشرية، ولا تصبروا على السكوت عن إظهار الرغبة فيهن، فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهن بالزواج سرا كأن يقول لها فى خلوة، عاهدينى على ألا تقبلى خطبة أحد حتى تخبرينى، لما فى هذه المواعدة من خطر الفتنة ومظنة التهمه والجر إلى التصريح المنهى عنه، ولكم أن تقولوا أمام الناس القول المعروف المتقدم وهو التعريض. وإنما كرره ليحذر الناس من التساهل فيه لشدة الدوافع اليه. ولذا صرح بما فهم مما سبق فقال: ولا تعزموا عقدة الزواج عزما جازما لأنه يجر إلى الحرام واكتفوا بإكنان الرغبة فى النفس المعفو عنها حتى تبلغ العدة نهايتها، عند ذلك يصح أن تعزموا العزم الذى من شأنه أن يستتبع الفعل، وبما أن الله يعلم ما فى أنفسكم من عزم ونية امتثال وغيرها فاحذروا عقابه إذا خالفتم أمره، واعلموا أن لمن خالف وتجاوز أسرار الرغبة إلى العزم الذى يجر إلى الفعل مخرجا بالتوبة، لأنه سبحانه غفور لمن يتوب، حليم لا يعجل بالعقوبة ليفسح المجال للتوبة. وأنزل فيمن يطلق امرأته ولم يكن فرض لها مهرا ولا لامسها: لا جناح عليكم إذا طلقتم النساء مالم تمسوهن أو لم تفرضوا لهن مهرا، أى لا تبعة عليكم من مهر ولا نفقة إذا طلقتم لعذر وكان ذلك قبل الملامسة وقبل تقدير المهر، ولها فى هذه الحالة متعة تقدر على الموسع ذى اليسار بقدر غناه وعلى المقتر أى الفقير بقدر الحاجة.

﴿فرضتم﴾: تقدم المراد بها فى الصفحة السابقة.

﴿قدره﴾: مقدار طاقته.

قدره وعلى المقتر قدره متاعا[1] بالمعروف حقا على
المحسنين ﴿٢٣٦﴾ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون
أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب
للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون
بصير ﴿٢٣٧﴾ حافظوا[2] على الصلوات[3] والصلوة[4] الوسطى
وقوموا لله قانتين[5] ﴿٢٣٨﴾ فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا
أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿٢٣٩﴾
والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا[6] وصية لأزواجهم[7]
متاعا[8] إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح
عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز
حكيم ﴿٢٤٠﴾ وللمطلقات[9] متاع[10] بالمعروف حقا على

﴿المقتر﴾: الفقير.

﴿الذى بيده عقدة النكاح﴾: هو الزوج.

﴿الصلاة الوسطى﴾: صلاة العصر.

﴿قانتين﴾: خاشعين.

﴿رجالا﴾: جمع راجل وهو غير الراكب.

﴿متاعا إلى الحول﴾: ما تمتع به من سكن ونفقة إلى نهاية الحول.

﴿غير إخراج﴾: أى غير مخرجات من بيوت أزواجهن كرها.

المعنى: إن المتعة تقدر على الغنى بقدر غناه، وعلى الفقير بقدر الحاجة، وتكون بالقدر المتعارف عند أهل المروءة، حقا أى واجبا لها على من يحسن التعامل بين الناس جبرا لغضاضة الطلاق على نفسها وشهادة بنزاهتها. ووصف المتاع بالإحسان لا ينافى الوجوب لأن الله سبحانه وصف القيام بالواجب بالإحسان فى آيات كثيرة منها ما جاء فى الآية (٩١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧ إذ النصح لله والرسول فيها واجب. وما جاء فى الآية (١٢٠) من نفس السورة صفحة ٢٦٣، ووصف سبحانه الثابت فى القتال بالمحسن مع أنه واجب والفرار حرام انظر الآيتين (١٤٧)، (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٦، ٨٧. وصور المطلقة أربع: (أولها) أن يطلقها قبل أن يمسها ولم يفرض لها مهرا. وهذه لها متعة لا نفقة.

(الثانية) أن يكون الطلاق قبل المسيس وبعد فرض المهر فلها نصف الصداق.

(الثالثة) أن يكون الطلاق بعد المسيس وبعد فرض المهر فلها كل المهر.

(١) متاعا. (٢) حافظوا. (٣) الصلوات. (٤) والصلاة. (٥) قانتين.
(٦) أزواجا. (٧) لأزواجهم. (٨) متاعا. (٩) وللمطلقات. (١٠) متاعا.

(الرابعة) أن يكون بعد المسيس وقبل تسمية المهر فلها مهر المثل. وسيأتى حكم المتعة فى أول شرح صفحة ٥٠ الآتية.

فقوله وإن طلقتموهن إلخ هى الصورة الثانية، فلها النصف فى كل حال إلا فى حال واحدة هى أن يعفو النساء فيتركن هذا النصف، أو يعفو الزوج ويترك لها الصداق كله تفضلا، وعفوكم أيها الأزواج والزوجات أقرب لتقوى الله عز وجل. فهذا حث لكل منهما على السبق إلى التفضل «ولا تنسوا الفضل بينكم» بالمودة وحسن العشرة بين المطلق وأهل زوجته ثم ذكر سبحانه ما يعين على مراقبة الله فى تنفيذ أحكامه فقال سبحانه «حافظوا على الصلوات»: الخمس، بأدائها فى أوقاتها على أحسن وجه، خصوصا الصلاة الوسطى التى بين صلاتى النهار وصلاتى الليل، لأنها فى وقت يظن اشتغالكم فيه بتجارتكم ومعاشكم وقوموا لله فى صلاتكم خاشعين، ثم أكد وجوب الصلاة بأنها لا تسقط عن المكلف بأى حال ما دام فيه شعور فقال «فإن خفتم»: عدوًا أو سبعًا مثلا فصلوا ماشين أو راكبين إذا دخل وقت الصلاة فى حال المقاومة وظننتم أن المقاومة تستغرق وقتها، فصلوا لا يمنعكم من صلاتكم كر ولا فر، وقولوا فى صلاتكم ما تقولون عادة، ويومئ المصلى بقدر ما يستطيع، ولا يلزمه التوجه للقبلة، فإذا ذهب سبب الخوف فصلوا كالمعتاد.

والذين يتوفون منكم وقد تركوا زوجات يوصى الله أهل الميت وصية لأزواج المتوفين منهم بمتاع من نفقة وسكنى إلى نهاية الحول غير مخرجات من بيوت أزواجهن كرها فإن خرجن من تلقاء أنفسهن قبل العام فلا جناح عليكم يا أولياء الميت فيما تفعل تلك الزوجات من معروف شرعًا كالزينة وترك الحداد إذا كان الخروج بعد الأربعة أشهر وعشر فلا جناح عليكم فى تسببهن فى قطع النفقة. ولا جناح عليهن فى الزينة وترك الحداد. قال مجاهد: نزل فى عدة المتوفى عنها آيتان: آية الأربعة أشهر وعشر، وهذه الآية. والآيتان فى حالتين، فإن اختارت المرأة الإقامة فى دار الزوج والنفقة من تركته فعدتها سنة، وإلا فعدتها أربعة أشهر وعشر. فللعدة أجل محتم وهو الأقل، وأجل هى مخيرة فيه هو بقية العام، وللمطلقات متاع بالمعروف بين الناس حق حقا، أى وجب وجوبا على المتقين.

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟

﴿ألم تر﴾: أى هل لم تعلم يا من يصح منك العلم، وتنظر نظر المعتبر.

﴿الذين خرجوا من ديارهم﴾: قال المرحوم الشيخ محمد عبده: مادام القرآن لم يبين هؤلاء القوم ولا مكانهم، ولا زمانهم، فلا يهمنا البحث عنهم، لأن العبرة التى أرادها الله سبحانه يكفى فيها أن هؤلاء قوم ساقهم الجبن والخوف من عدوهم إلى الفرار، وترك الديار، مع أنهم لم يكونوا قلة، وإنما خوف الموت هو السبب فى كل بلاء.

﴿فقال لهم الله موتوا﴾: المراد أماتهم الله سبحانه بأن أذلهم ومكن عدوهم منهم، ثم أحيا منهم جيلا جديدا لم يكن جبانا، والموت والحياة يعتريان الجماعة الواحدة باعتبار حالات مختلفة، فمعنى موتهم أن العدوَّ نَكَّل بهم وأذلهم حتى صاروا لا وجود لهم كأمة، ومعنى إحيائهم رجوع استقلالهم وعزتهم ووجودهم فى الحياة كأمة محترمة، وإطلاق الحياة على الحالة المعنوية الشريفة فى الأشخاص أو الأمم،

(١) آياته.
(٢) ديارهم.
(٣) ولكن.
(٤) وقاتلوا.
(٥) فيضاعفه.
(٦) ويبسط.
(٧) الملأ.
(٨) إسرائيل.
(٩) تقاتلوا.
(١٠) نقاتل.
(١١) ديارنا.
(١٢) وأبنائنا.

وإطلاق الموت على مقابلها، كل ذلك معهود فى القرآن، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾ الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. وقال سبحانه: ﴿استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ الآية (٢٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠. ويوضح ذلك دقة التعبير حيث عطف الموت على الخروج جبناً بحرف (الفاء) الدالة على اتصال الذل بالفرار مباشرة. وعطف إحياءهم على الموت بحرف (ثم) الدالة على التراخى فى الزمن.

﴿يقرض الله قرضا حسنا﴾: تركيب يفيد الحث على إنفاق الحلال فى وجوه الخير ابتغاء رضوان الله ليعطيه سبحانه أكثر منه (انظر أصل معنى مفردات هذا التركيب فى شرح الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ وجاء به بعدما تقدم إشعارا بأن دفع العدو يحتاج المال.

﴿فيضاعفه له﴾: أى يعوضه بدله أكثر منه مرات عديدة انظر الآيتين (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥، (٢٦٥) من نفس السورة صفحة ٥٦.

﴿يقبض﴾: أى يضيق الرزق.

﴿ويبسط﴾: أى ويوسع الرزق انظر الآيات (٣٥، ٣٦، ٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

﴿الملأ﴾: هم الجماعة من الوجهاء التى تحيط بالرئيس فتملأ عيون الأتباع مهابة.

﴿لنبى لهم﴾: هو صمويل.

﴿ابعث﴾: المراد عيِّن.

﴿ملكا﴾: المراد أميرًا نرجع إليه فى شئون الحرب وغيرها.

المعنى: فرض هذا المتاع على الذين يخافون عقاب الله فيبتعدون عما يغضبه، كهذا البيان الواضح يبين الله كل آيات الأحكام ليسهل عليكم أن تعقلوا حكمته فى هذا التشريع. وختم الله بهذه الآية أحكام المطلقات لتشمل ما لم يدخل فيما سبق من صور المطلقات الأربع المتقدم ذكرها، وهما صورتا المسوسة المفروض لها مهر، وغير المفروض. قال بعض العلماء: إن المتعة

ذكرها، وهما صورتا الممسوسة المفروض لها مهر، وغير المفروض. قال بعض العلماء: إن المتعة غير الصداق، وأنها واجبة لمن لا تستحق صداقا مندوبة لمن تستحقه كله أو نصفه. بل قال الحسن: إن لكل مطلقة متاعا، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أم لا، وظاهره الوجوب فى الكل. وقال قوم إنه مندوب فى المدخول بها. ثم شرع سبحانه فى ذكر قصص بعض السابقين للعبرة بما فيها من أن الجبن سبب الذل، والشجاعة سبب العزة، فقال سبحانه: «ألم تر» بقلبك وتعلم يا من يصح منك العلم إلى الذين خرجوا من ديارهم ومع أنهم كثيرون فقد خافوا الموت بجبنهم، فجزاهم الله بموتهم الأدبى وإذلال عدوهم لهم، وبعد انقراض هذا الجيل الجبان أحياهم الله بإخراج جيل جديد أرجع ملكهم. إن الله ذو فضل على الناس حيث جعل من المصائب حافزا للعزائم، وجعل اعتداء الظالم منبها لشعور المظلوم بقسوة الظلم فيستميت فى دفعه ويصلح أمر الناس، انظر الآية (٢٥١) الآتية من هذه السورة صفحة ٥٢. ولكن أكثر الناس لا يقومون بحقوق هذه النعمة من الشكر فلم يستفيدوا منها. ولما هيأ سبحانه النفوس للشعور بذم الخضوع للذل أمر المؤمنين بقتال أعدائهم فقال: «وقاتلوا فى سبيل الله» أى لإعلاء دينه. ولما كان الجهاد يطلب الإنفاق حث عليه فقال «من ذا الذى يقرض» إلخ، أى أقرضوا وادفعوا فى سبيل الله بطيب نفس ومال حلال فيضاعف الله ثوابه، والله يضيق الرزق على من يشاء امتحانا أيصبر، ويوسعه على من يشاء امتحانا هل يشكر. وإلى الله المرجع والمجازاة. ولما كان الذى حصل لبنى إسرائيل بعد انقضاء زمن التيه وهو أربعون سنة كما فى الآية (٢٦) من سورة المائدة صفحة ١٤١. أنهم (أى بنى إسرائيل) رجعوا إلى الله تعالى وندموا على ما حصل منهم وعزموا على دخول فلسطين، فنصرهم الله تعالى على من فيها من الوثنيين، وبعد زمن كثير انحرفوا ثانيا كما هى عادتهم فسلط الله سبحانه عليهم جبابرة الوثنيين فشردوهم واستولوا على التابوت الذى كانوا يحملونه معهم فى الحروب لتقوى قلوبهم، لما كان كل هذا قال سبحانه فى ذلك ألم ترفضه الجماعة من بعد موت موسى حين قالوا لنبيهم أقم لنا أميرًا نقاتل معه فى سبيل الله الوثنيين فى فلسطين، قال: أتوقع جبنكم إن فرض عليكم القتال. قالوا: ولم الجبن والحال أنا أخرجنا من ديارنا وأبعدنا عن أبنائنا بسبب سبى الأبناء؟ فلما فرض عليهم القتال تولوا وجبنوا.

إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[1] ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ[2] عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ[3] عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ[4] تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ[5] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ

﴿أنى يكون﴾: كيف يكون.

﴿سعة من المال﴾: رزقا واسعا.

﴿بسطة﴾: سعة.

﴿آية ملكه﴾: أى علامة كونه ملكا.

﴿التابوت﴾: هو الصندوق الذى كانت فيه ألواح التوراة، ووصايا الله سبحانه لبنى إسرائيل. قال المرحوم الشيخ محمد عبده: إن التابوت كان بعد موسى عند فتاه (يوشع) انظر الآية (٦٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، وصار يتنقل بعد ذلك عند رؤسائهم فى الشريعة، وإنهم كانوا يستنصرون به، ويقدمونه أمام الجيش، فتقوى عزائمهم، فينصرهم الله عز وجل بتلك الشجاعة، ولذلك لما ضعف يقينهم، وفسدت أخلاقهم،، غلبهم عدوهم وأخذ منهم التابوت، فلم يغن عنهم وجود التابوت عند فسادهم شيئا، وكان ذلك بسبب الحروب التى وقفت بينهم وبين مَنْ جاورهم من الفلسطينيين الذين أذلوا اليهود وأخذوا التابوت منهم. وكان (صمويل) الذى ينطق به العرب (شمويل) قاضيا لبنى إسرائيل من بعد هذه الحروب، وهو نبيهم الذى طلبوا منه أن يعين لهم ملكا كما تقدم، وكان بعد موسى بنحو ألف سنة كما قال ابن كثير والشيخ محمد عبده.

﴿فيه سكينه﴾: سكينة أى تطمين لقلوبكم، والمراد فى إتيانه ووجوده بينكم تطمين قلوبكم.

(١) بالظالمين.
(٢) اصطفاه.
(٣) واسع.
(٤) هارون.
(٥) الملائكة.

(آل موسى وآل هارون): المراد موسى وهارون ومَنْ تبعهما من أنبياء بنى إسرائيل، انظر المراد من (آل) فى شرح قوله تعالى ﴿ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. ﴿تحمله الملائكة﴾: الذى يؤخذ مما فى كتب العهد القديم أن أهل فلسطين الذى غلبوا اليهود أصيبوا بأمراض ونقص فى الزروع، فتشاءموا من وجود التابوت بينهم، وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم، فوضعوا التابوت على عجلة تجرها بقرتان ووجهوهما إلى موضع بنى إسرائيل تخلصا منه.

ولعل السبب فى قول نبيهم (تحمله الملائكة) هو أن البقرتين اللتين كانتا تجران العجلة من فلسطين إلى موضع بنى إسرائيل كانتا تسيران بدون قائد ولا سائق والعادة أن ما يجرى من الخبر بإلهام لا دخل للبشر فيه يقول عنه الناس إنه إلهام ملائكى لذا قال تحمله الملائكة.

(فصل طالوت): أى انفصل بالجيش عن محل إقامته متوجها إلى القتال.

﴿مبتليكم﴾: أى مختبركم. ﴿لم يطعمه﴾: أى لم يذق ماءه. ﴿غرفة﴾: من الغرف، وهو أخذ مقدار قليل من شىء كثير، وهى هنا بمعنى مفعول، أى مغروفة كلقمة بمعنى ملقومة، ونهبة بمعنى منهوب.

المعنى: جبنوا جميعا إلا قليلا منهم، والله عليم بمن ظلموا أنفسهم وأمتهم بالجبن وسيجازيهم ثم شرع سبحانه يفصل هذه الحادثة فقال: وقال لهم نبيهم صمويل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا كما طلبتم، قالوا كيف يكون هذا والحال أننا أحق بالملك منه لأنه ليس من كبرائنا ولا من أغنيائنا؟ فرد نبيهم قولهم بما يفيد أن ما ذكروه لا دخل له فى استحقاق القيادة بل المعول عليه صفات ذاتية فى الشخص تؤهله لاختيار الله له، منها إنه منح سعة علم وقوة جسم، فقد كان أعلم بنى إسرائيل بفنون الحرب وبالكتاب المقدس، وكان أطولهم قامة ذا مهابة، والله يؤتى ملكه من يشاء ممن يستحقه لا بالوراثة، واسع الفضل عليم بمن هو أهله. ولما طلبوا من نبيهم دليلا على أن الله اختاره ملكا قال لهم إن دليل ذلك هو أن يأتيكم التابوت

فيه ما يطمئن قلوبكم وفيه قطع من ألواح التوراة مما تركه أتباع موسى وهارون من أنبياء بنى إسرائيل حال كونه تحمله الملائكة. ولما حصل هذا وخضعوا وخرج بهم طالوت من مكان إقامتهم متوجها لقتال أعدائهم الوثنيين بفلسطين أراد امتحانهم ليعلم المخلص مأمون الطاعة وغيره ليبعده عن الجيش لخطر وجود من يخالف أمر القائد عند الشدة، فسار بهم مسافة اشتد عطشهم فيها، ثم قال إن الله مختبركم بنهر سيلاقيكم، فمن شرب منه كثيرا فليبتعد عنا، ومن لم يطعمه أى لم يذق منه كثيرا فليبق معى. ولما وصلوا النهر شرب أغلبهم كثيرا، واكتفى قليل منهم بغرفة بيده يخفف بها قسوة العطش، ثم تخطى النهر طالوت والمخلصون معه بسرعة وتأخر الأكثرون حتى شبعوا ماء وحملوا منه ما استطاعوا، فلما جاوزه هو والمخلصون معه أولاً ثم لحقهم الباقى بدليل المناقشة الآتية وإنما اقتصر فى الذكر على مجاوزة المخلصين لأنهم هم الذين صاحبوا قائدهم فى المجاوزة بسرعة.

﴿جالوت﴾: هو أكبر طاغية فى وثنيى فلسطين أعداء بنى إسرائيل.

﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾: قال الراغب الأصفهانى فى كتابه (غريب القرآن).

﴿الظن﴾ اسم للإدراك الذى يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدا لم تتجاوز الوهم. ومتى قوى الظن استعمل معه حرف (أَنّ) المشددة التى تفيد التوكيد كما هنا.

ومثل ما هنا ما فى قوله تعالى فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ والآية (٢٠) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿برزوا﴾: ظهروا.

﴿أفرغ علينا صبرا﴾: أى أصبب على قلوبنا صبرا يقوينا فالمراد صبرنا.

﴿داود﴾: كان جنديا فى عسكر طالوت.

﴿وآتاه الله الملك﴾: جعله ملكا على بنى إسرائيل.

ءامنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا[1] الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[2] ﴿٢٤٩﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين[3] ﴿٢٥٠﴾ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وءاتاه[4] الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين[5] ﴿٢٥١﴾ تلك ءايات[6] الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴿٢٥٢﴾ ۞ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات[7] وءاتينا عيسى ابن مريم البينات[8] وأيدناه[9] بروح القدس

﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا النبوة والزبور، انظر الآية (١٦٣) من سورة النساء صفحة ١٣١.

﴿البينات﴾: المعجزات الواضحة المذكورة فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١.

﴿الروح القدس﴾: الروح المقدس الطاهر وهو جبريل.

المعنى: قال الذين شربوا كثيرا لا قدرة لنا على قتال جالوت وجنوده. وقال الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم ليجازيهم على ثباتهم: كم من فئة قليلة، أى كثيرا ما حدث أن غلبت جماعة قليلة مؤمنة كثرة غير مؤمنة بتسهيل الله إذا صبروا، فإنه سبحانه مع الصابرين بالنصر والتأييد. وعند ذلك أبعد طالوت الجنود الذين خالفوا وشربوا كثيرا، أبعدهم عن الجيش لمخالفتهم أمر قائدهم، وعدم طاعة الجندى من أقوى أسباب الهزائم انظر الآية (١٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٧. ولما برز طالوت والمؤمنون معه لجالوت قالوا ربنا أعنا عليهم بالصبر وثبت أقدامنا فى مواطن القتال. فاستجاب سبحانه

---

(١) ملاقوا.
(٢) الصابرين.
(٣) الكافرين.
(٤) وآتاه.
(٥) العالمين.
(٦) آيات.
(٧) درجات.
(٨) البينات.
(٩) وأيدناه.

وهزموهم، وقتل داود جالوت، فاشتهر داود وعد فى الأبطال، وكان جزاؤه أن آتاه الله الملك على بنى إسرائيل والنبوة والزبور، وعلمه مما ينفعه كصنعة الدروع، انظر الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩.

فكان عليه السلام نبيا ملكا. ثم بين سبحانه حكمة الإذن فى قتال الجبابرة فقال «ولولا دفع الله الناس» إلخ، أى لولا أن الله تعالى يسخر أهل العدل والحق لدفع شر أهل الظلم والباطل لتغلب الظالمون وفسدت الأرض ومن عليها، ولكن الله من فضله ورحمته بالضعفاء سخر للظالم من ينتقم منه.

تلك القصص المتقدمة أدلة من عند الله على صدقك أيها النبى، لأنك أمى لا تدرى من أخبار السابقين هذه الحقائق التى نتلوها عليك مقرونة بالحق، فكل ما يقال عنها خلاف ذلك باطل. وإنك أيها النبى لمن المرسلين حقا، إذ لولا الوحى لما عرفت من هذه الحوادث شيئا على الوجه الصحيح. انظر الآيتين (٤٤) و(٤٥) من سورة القصص صفحة ٥١٣... تلك الرسل المتقدم أنك منهم فضلنا بعضهم على بعض، ونص على من بقى لهم أتباع فقال: «منهم من كلم الله» وهو موسى، انظر الآية (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١. والآيات (١٤٣- ١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥. «ورفع بعضهم درجات» يريد سبحانه بهذا البعض نبينا محمدا ﷺ. ووسطه فى الذكر بين موسى وعيسى إشارة إلى وجه فضله وهو أن شريعته وأمته وسط كما تقدم فى الآية (١٤٣) من هذه السورة صفحتى ٢٧، ٢٨ وفضله أنه صاحب رسالة عامة للناس كلهم خالدة إلى يوم القيامة. فكان رحمة للعالمين، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢ والآية (٢٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦.

﴿وأتينا عيسى بن مريم﴾ المعجزات الواضحة. وإنما ذكر عيسى باسمه لحكم، منها إبطال ما يزعمه عنه أهل الكتابين اليهود والنصارى من التفريط والإفراط فاليهود افتروا عليه بأنه ابن زنا والنصارى قدسوه حتى ألحقوه بالله تعالى، وقوينا أدلة نبوته بروح القدس جبريل.

﴿خلة﴾: صداقة.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ[1] وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ[2] مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ[3] وَالْكَافِرُونَ[4] هُمُ الظَّالِمُونَ[5] ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[6] وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ[7] وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ[8] حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ[9] وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

﴿القيوم﴾: البالغ النهاية فى القيام بتدبير ملكه وفى الأساس قام على الأمر أى دام وثبت.

﴿سنة﴾: هى ما يتقدم النوم من الفتور.

﴿كرسيه﴾: سلطانه وعظمة قدرته.

﴿لا يؤوده﴾: لا يثقله ولا يشق عليه.

﴿الرشد﴾: ضد الغى.

﴿الغى﴾: الجهل الناشئ عن اعتقاد فاسد. والمراد طريق الرشد وطريق الغى.

﴿الطاغوت﴾: كل ما تكون طاعته سببا للطغيان والبعد عن الحق سواء أكان مخلوقا يعبد، أو رئيسا جبارا يطاع فى الشر خوفا من بطشه، أو شيطانا يضل عن طريق الصواب. ويطلق الطاغوت على الواحد والمتعدد، فيقال رجل طاغوت أى طاغية، ورجال طاغوت أى طاغون.

المعنى: لو شاء الله عدم اختلاف أتباع الرسل من بعد ما جاءتهم أدلة الحق ما اختلفوا ولكانوا متفقين قهرا عنهم كالملائكة، وما وقع بينهم خلاف أو قتال، ولكن طبعهم يقتضى أن يختلفوا كما تقدم فى الآية (٢١٣) من هذه السورة صفحتى ٤١، ٤٢. والاختلاف يؤدى إلى القتال غالبا. ثم بين سبحانه أهم ما اختلفوا فيه فقال: ﴿منهم من آمن ومنهم من كفر﴾ ولو شاء الله حتى بعد اختلافهم هذا عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، بأن يخلقهم على أن يعذر المخالف

---

(١) البينات. (٢) رزقناكم. (٣) شفاعة.
(٤) والكافرون. (٥) الظالمون. (٦) السموات.
(٧) السموات. (٨) يؤوده. (٩) بالطاغوت.

من يخالفه، ويقتصر كل منهما فى نصرة رأيه على الحجة وحدها، ولكنه سبحانه جعل فى غرائزهم أن القوى يميل لمقاتلة مخالفه فى الرأى، وشرع لهم تحريم البغى ليحصل فى الآخرة ثواب وعقاب، وإلا لكانوا جميعا ملائكة، وتغير نظام هذا العالم. والله يفعل ما يريد. وقد أرادهم أن يكونوا غير الملائكة.

ثم بيّن سبحانه ما يهذب النفوس مع التحذير من عقابه بقوله سبحانه ﴿انفقوا مما رزقناكم﴾ فى سبيل الله من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا بيع فيه حتى يشترى البخيل نفسه وينقذها من العذاب بمال يبذله، ولا صداقة يحمل بها صديق عن صديقه شيئا من ذنوبه، انظر الآية (٩١) من سورة آل عمران صفحتى ٧٧، ٧٨. والآية (٥٤) من سورة يونس صفحتى ٢٧٤، ٢٧٥. والآية (١٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٤. والآية (٤٧) من سورة الزمر صفحة ٦١٣. والآيات (١١-١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. والآيات (٣٤- ٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٣؛ ولا شفاعة إلا بإذنه تعالى، ولا يأذن فيها لمن دنس نفسه بالبخل، والكافرون بنعمه تعالى الغافلون عن هذا اليوم هم الظالمون لأنفسهم.

الله الواحد الحى القائم بتدبير ملكه على أحسن وجه لا تغلبه سنة ولا نوم، له كل ما فى السموات إلخ، فهم ملكه وعبيده، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضى عنه، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢، يعلم ما بين أيدى خلقه أى ما قدموه فى الدنيا، وما خلفهم أى ما أعد لهم فى الآخرة، فلا يأذن فى الشفاعة إلا لمستحق، انظر الآيات (١٠٩- ١١٢) من سورة طه صفحة ٤١٦، ولا يعلمون شيئا من علومه إلا ما شاء أن يطلعهم عليه، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يشق عليه حفظهما، لأنه العلى فى سلطانه، العظيم فى عزه وجلاله. لا إكراه على الدخول فى الدين بعد ظهور الأدلة التى تبين الرشد والغى، لأن أساس الدين العقيدة ولا يمكن الإكراه على العقائد كما فى الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١. فمن يكفر بالطاغوت فيعصى كل طاغية يحارب الله ورسوله، ويؤمن بالله فلا يطيع غيره.

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ(١) إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ(٢) يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ(٣) ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ(٤) النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٥) ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ(٦) فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ(٧) اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ(٨) رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي(٩) وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي(١٠) وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ(١١) فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٢) ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي(١٣) هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ

﴿العروة﴾ أصلها مقبض الدلو أو الكوز، والمراد بها هنا السبب الموصل إلى رضا الله.

﴿الوثقى﴾: تأنيث الأوثق، أى الأشد فتلا وإحكاما. ﴿لا انفصام﴾: لا انقطاع.

﴿ولى الذين آمنوا﴾: أى متولى أمورهم وناصرهم.

﴿الذى حاج إبراهيم﴾: أى جادل وهو نمروذ.

﴿بهت﴾: أى تحير ودهش وعجز عن الجدل.

﴿خاوية على عروشها﴾: خالية من السكان ساقطة حيطانها على سقوفها.

﴿أنى يحيى﴾: أى كيف يحيى؟

المعنى: من يؤمن بالله فقد اشتد تمسكه بالدين الحق الذى من تمسك به فقد تمسك بشىء متين لا ينقطع أبدًا، والله سميع بالأقوال، عليم بالنيات، فيعلم المخلص والمنافق. والله متولى

---

(١) الظلمات
(٢) الطاغوت.
(٣) الظلمات.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) إبراهيم.
(٧) آتاه.
(٨) إبراهيم.
(٩) يحيى.
(١٠) أحى.
(١١) إبراهيم.
(١٢) الظالمين.
(١٣) يحيى.

أمور المؤمنين فيخرجهم بهدايته من ظلمات الشبهات والوساوس الشيطانية إلى نور الحق واليقين، والكافرون متولى أمورهم كل مفسد طاغ من الكهنة وشياطين الإنس والجن يخرجونهم من نور الفطرة بإفسادها إلى ظلمات الكفر والمعاصى.

ثم ذكر سبحانه بعض ولايته للمؤمنين وخذلان الكافرين فقال: ألم تر، أى ألم تعلم يا من يصح منك العلم إلى نمروذ الذى جادل إبراهيم عليه السلام فى ربوبية ربه حيث أنكرها، لأن إعطاءه الملك والسلطان أبطره وأورثه كبرًا، لأن النفس الشريرة تقابل نعمه تعالى بالكفر بدل الشكر. فلما قال لإبراهيم من ربك الذى تدعونا إلى الإيمان به، قال إبراهيم: ربى هو الذى يحيى ويميت. قال نمروذ مغالطا: أنا أحيى من حكم بإعدامه بالعفو عنه وأميت من شئت بقتله. ولما كان هذا جدلا باطلا قد يصعب على الجهلة فهم الحقيقة فيه انتقل إبراهيم إلى حجة لا يستطيع فيها نمروذ مكابرة فقال: إن الله يأتى بالشمس إلخ، فعجز الكافر وأفحم. والله لا يهدى من ظلم نفسه بالإعراض عن التفكير فى الدليل على وجوده.

وألم تعلم أيضا مثل الذى مر على قرية خربة أثارت فى نفسه شبهة وإنقاذ الله له لسلامة فطرته، فلما قال متعجبا من شدة خرابها كيف يحيى الله أصحاب هذه القرية بعد موتهم فأماته الله وتركه ميتا مائة عام ويصح أن تكون الموتة الصغرى كما فى الآية (٢١) من سورة الكهف صفحة ٢٨٣ وما قبلها؛ ثم بعثه أى أحياه وقال له على لسان ملك كم لبثت أى وقتًا مكثت؟ والحكمة فى السؤال إظهار عجز العبد عن الإحاطة بشئونه تعالى، قال تخمينا كما خمن أصحاب الكهف فى الآية(١٩) صفحتى ٢٨٢، ٢٨٣: يوما أو أقل، قال الملك: كلا بل مكثت على حالك التى كنت عليها مائة عام.

﴿لم يتسنه﴾: لم يتغير.

﴿آية للناس﴾: دليلا على قدرتنا.

﴿ننشزها﴾: نضم أجزاءها بعضها إلى بعض، وفى قراءة ننشيها من الإنشاء وهو الخلق الجديد.

فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

﴿قال أولم تؤمن﴾: الهمزة للتقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفى الآتى بعده.

﴿بلى﴾: المراد اقر بأنى مؤمن ولكن.. إلخ انظر (بلى) فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿صرهن﴾: من صاره يصوره أماله بوزن عاقه يعوقه.. تقول العرب صرت الغصن أملته لأجنى ثمره.. وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره كباعه يبيعه ومعناه الإمالة والضم أيضا كما نقله الطبرى عن العرب، أى اجعلهن يملن إليك بالإيناس.

﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾: ومثلها ﴿ويزيدهم من فضله﴾ الآية (٣٨) من سورة النور صفحة ٤٦٤. أى والله يضاعف الأجر أى يزيده إلى سبعمائة أو أكثر كما فى قوله سبحانه (بغير حساب) الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

وهذا التفاوت يكون حسب تفاوت أحوال المنفقين من قوة الإيمان وشدة الإخلاص، والبذل فى سبيل الله مع الحاجة، والبذل مع الغنى، فرب دينار واحد يبذله فى طريق الخير محتاج إليه أكثر ثوابا من عشرة دنانير يبذلها من ليس فى حاجة إليها.

﴿منا﴾: هو تعداد الإحسان على المحسن إليه كأن يقول المحسن للمحسن عليه أنا أعطيتك كذا وفعلت لك كذا.

﴿أذى﴾: هو أعم من المن يشمله ويشمل ما هو أقسى منه كأن يعيره بأنه ناكر الجميل مثلا.

المعنى: وإذا أردت دليلا على قدرتنا فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير هذه المدة الطويلة وإلى حمارك كيف مات وتفتت عظامه. فعلنا ذلك لنريك قدرتنا ولنجعلك دليلا عليها للناس.

(١) إبراهيم. (٢) أموالهم. (٣) يضاعف. (٤) واسع. (٥) أموالهم.

ثم انتقل سبحانه من دليل خاص بهذا الرجل فى نفسه ولمن شاهده إلى دليل عام لجميع الناس مستمر يستدل به على البعث فى كل زمان وهو قدرته تعالى على تكوين عظام الحيوان ولحمه من مادة الأرض، وهذا الدليل أكثر سبحانه من الاحتجاج به على المنكرين للبعث من كل أمة، انظر الآية (٢٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، والآيات (٤٩، ٥١، ٩٨، ٩٩) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧١، ٣٧٨، والآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (١٦) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، والآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٢٤، والآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٩٧.

فلما ظهر الحق لهذا الرجل اعترف بقوة يقينه بقدرة الله. ثم ذكر سبحانه مثالا ثالثا لعنايته بالمؤمنين ونقلهم من رتبة العلم إلى رتبة عين اليقين فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ إلخ أى أرنى بعينى كيفية إحياء الموتى رؤية عيان، قال: ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى هذا السؤال.. أى أنت تعلم قدرتى وتؤمن بها.. قال إبراهيم نعم أعلم، ولكنى أريد علم المشاهدة ليطمئن قلبى بضم علم العيان والمشاهدة إلى علم البرهان، قال خذ أربعة من الطير أى ليكون فى كل جهة من الجهات الأربع بعض من الطير فصرهن إليك. قال أبو مسلم: المعنى فخذ أربعة من الطير فآنسهن بك حتى تصير بحيث تجيب دعوتك ثم أجعل كل واحد منها على جبل ثم نادها بما عودتها به فإنها تسرع إليك كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة (كن) فيكونون كما يريد، انظر الآية (٢٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.. فالمقصود ذكر مثال محس فى دعوة الأرواح إلى الأجساد بسهولة.. والمراد بالسعى الإتيان السريع طيرانا أو مشيا.. والله تعالى عزيز لا يعجزه شىء، حكيم فى كل ما يفعل..

ولما فرغ سبحانه من أمثلة عنايته بالمؤمنين شرع فى بيان بعض ما يقربهم إليه وهو الإنفاق فى سبيله فقال: مثل ماينفقه الذين ينفقون فى سبيل الله وهو كل ما يوصل إلى رضاه، كمثل حبة بر مثلا والمعنى أن المنفق لوجه الله يضاعف الله تعالى له الجزاء أضعافا كثيرة سبعمائة فأكثر كما قال (والله يضاعف لمن يشاء) فيزيده على السبعمائة بما لا يحصر. والله تعالى واسع لا يحد فضله، عليم بمن يستحق المضاعفة..

ثم بين سبحانه بعض ما يكون عليه هذا الإنفاق المضاعف الأجر بأنه هو الصادر من مؤمن لا يمن على المنفق عليه ولا يؤذيه، فهؤلاء لهم أجرهم الذى وعدهم به ربهم فى الآية السابقة، ولا يخافون يوم يخاف الناس من الفزع الأكبر.

(الجـزء الثالث) ٥٦

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ
مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ(١) بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ
مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا
لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ(٢) ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ(٣) ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(٤) لَهُ فِيهَا مِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ(٥) وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا

﴿رئاء الناس﴾: مرائيا لهم ليمدحوه.

﴿صفوان﴾: حجر كبير أملس.

﴿تراب﴾ المراد غبار.

﴿وابل﴾: مطر شديد. ﴿صلدا﴾: أملس لا غبار عليه.

﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾: أى تحقيقا للثواب عليه واعتقادا منهم بأنه حاصل لهم اعتقادا ناشئا من صميم أنفسهم بخلاف المنافقين فإنهم لا يرجونه لإنكارهم له.

﴿ربوة﴾: مكان مرتفع. ﴿أكلها﴾: ثمرها الذى يؤكل. ﴿ضعفين﴾: أى أربعة أمثال ما ينتج من غيرها وهذا تصوير آخر غير ما تقدم فى الآية (٢٦١) من هذه السورة صفحة ٥٥ يبين لنا حال فريق من المنفقين أموالهم طلبا لرضاء الله، وأن الله سبحانه يمنحهم من الثواب مثل ما يمنح غيرهم ممن لم يصلوا إلى حالهم فى قوة الإيمان وشدة الإخلاص.

﴿فطل﴾: الطل هو المطر الخفيف صغير القطر، والأصل فالذى يصيبها ويكفيها طل.

﴿أيود﴾: هل يحب، والاستفهام للإنكار المفيد للنفى أى لا يحب.. إلخ. ﴿جنة﴾: بستان.

المعنى: ولا هم يحزنون على فوات النعيم يوم يحزن البخلاء. ثم أكد سبحانه النهى عن المن والأذى بقوله (قول معروف ومغفرة) إلخ. أى كلام جميل يقال للسائل كيرحمك الله، أو ربنا يعطيك ويعطينا، ومغفرة أى ستر عليه ما يقع منه من الإلحاح وغيره، خير للسائل من صدقة يتبعها أذى. والأذى يشمل المن. والمراد أن العمل الصالح يجب أن يكون خاليا من كل عيب يذهب من فائدته.

---

(١) صدقاتكم. (٢) الكافرين. (٣) أموالهم. (٤) الأنهار. (٥) الثمرات.

والله تعالى غنى. وإنما أمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وليظهر عيب البخيل، حليم لا يعجل العقوبة للمخالف لعله يرجع. ثم أكد سبحانه قبح المن والأذى بجعله كالرياء المذموم عند جميع الناس فى العاقبة الوخيمة فقال (لا تبطلوا صدقاتكم) إلخ، ولا تضيعوا ثواب صدقاتكم تضييعا كتضييع الذى ينفق ماله مرائيا للناس ليمدحوه، ولا يبغى رضا الله لانشغال قلبه بمظاهر الدنيا، ولا يؤمن بالله حتى يخافه، ولا باليوم الآخر حتى يعد له ما ينجيه من هوله، فمثل هذا المرائى ونفقته كمثل حجر ناعم عليه غبار رقيق نزل عليه مطر شديد أذهبه ولم يبق منه شىء، فهؤلاء المراءون لا يستطيعون الحصول على شىء من ثمرة إنفاقهم إذا أصابهم غضبه تعالى أو أحبط أعمالهم، كما لايستطيع الحجر إمساك ما عليه من الغبار إذا أصابه مطر شديد. والله تعالى لا يهدى الكافرين عقابا لهم وفى الكلام إشارة إلى أن المن والأذى من صفات الكافرين فيجب على المؤمن الابتعاد عنهما.

ثم ضرب المثل للمخلصين فقال: ومثل الذين ينفقون أموالهم طلبا لرضاه وتيقنا من ثوابه تيقنا صادرا من صميم أنفسهم لا نفاقا، قال الحسن رضى الله تعالى عنه: كان الرجل منا إذا هم بحسنة يتثبت، فإن كانت لله فعل، وإن أحس برياء أمسك، مثل إنفاق هؤلاء كمثل بستان فى مكان عال معرض شجره للشمس والهواء نزل عليه مطر كثير فأثمر قدر غيره أربع مرات، فإن لم يصبه وابل كفاه طل لجودة أرضه وحسن موقعه. والمراد أن هذه الجنة تثمر كثيرا قل المطر أو كثر، فكذا نفقات المخلصين تنمو عند الله قلت أو كثرت. ولكثرة وقوع الناس فى الرياء والمن والأذى ضرب الله سبحانه لها مثلا آخر يبرزها فى صورة مخيفة فقال: ﴿أيود أحدكم﴾ إلخ، أى لا يحب أحدكم أن يصير إلى حال رجل له بستان من نخيل وأعناب وغيرها كما يستفاد مما يأتى، وإنما اقتصر على ذكرهما لأهميتهما، وقد أصابته الشيخوخة فصار محتاجا لما فى البستان، ومع ذلك له ذرية ضعفاء لا يقدرون على كسب ولا على دفع ضر. وذكر الذرية لإظهار قسوة الحسرة عليه لأنه إذا رأى المصيبة تعمه وتعم عياله الضعفاء كان ألمه أشد وحسرته مضاعفة.

إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ[1] لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ[2] مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ[3] يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ[4] عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ[5] ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[6] مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ[7] فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿إعصار﴾: ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم ترتفع حاملة غبار كهيئة عمود.

﴿ولا تيمموا﴾: تقصدوا.

﴿الخبيث﴾: المراد به هنا الردىء الذى لا تحرص عليه النفوس لا الحرام فإنه منهى عن اقتنائه فضلا عن إنفاقه.

﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾: قال الراغب: الإغماض إطباق الجفن عند الشعور بالنوم، وقد استعير بها هنا للتغافل والتساهل، ويصح أن يكون (تغمضوا) مضمن معنى التساهل، وبما أن ﴿تغمضوا﴾ متعد فمفعوله مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل ولستم بآخذيه فى أى حال من الأحوال إلا فى حال أن تغمضوا أبصاركم عنه متساهلين فى أخذه لرداءته. ﴿حميد﴾: دائم استحقاق الحمد على نعمه التى لا تنقطع. ﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا معرفة أسرار أحكام القرآن والإصابة فى القول والعمل ووضع كل شىء محله. ﴿الألباب﴾: العقول. ﴿فنعما هى﴾: فنعم إبداؤها.

المعنى: فأصاب الجنة ريح فيه نار أى شديد الحرارة يحرق الشجر ويذهب النبات، فكذلك المرائى والمانُّ أو المنَّان والمؤذى يكونون يوم القيامة فى شدة الحاجة إلى نفقاتهم التى قرنت بالرياء أو المن أو الأذى، فإذا بهم يجدونها قد حبطت وذهب ثوابها وسيقوا إلى جهنم، فيجمعون مع الحسرة بضياع أموالهم عبثا حسرة العذاب الأليم، كهذا البيان الواضح يبين الله تعالى آياته لتعتبروا بما فيها.

وبعدما بين سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه حال المنفق شرع فى بيان ما ينبغى مراعاته فى المبذول فقال: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ وهى أجودها وأحبها إلى النفس كما فى

(١) الآيات. (٢) طيبات. (٣) الشيطان.
(٤) واسع. (٥) الألباب. (٦) للظالمين. (٧) الصدقات.

الآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨. أى أنفقوا فى سبيل الله من أجود أموالكم من النقد وعروض التجارة، ومما أخرجنا لكم من الأرض من حب وثمر، ولا تقصدوا المال الردىء تنفقون منه وحده والحال أنكم لا تأخذون هذا الردىء لو أعطى لكم سدادا لحقوقكم إلا مغمضين أبصاركم عن النظر فيه لكراهتكم له. فالمراد لا تعطوا ما لا ترضون لأنفسكم. إن الله غنى عنكم، وإنما أمركم بما فيه مصلحتكم، حميد يستحق الحمد دائما، ومن جملة حمده وشكره على نعمه تحرى الإنفاق من الطيب، ثم بين سبحانه البخل ليتنبه المؤمن وينقطع عذر البخيل فقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ إلخ، أى يخيل إليكم بوسوسته أن الإنفاق يذهب المال فاحرصوا عليه، ويأمر بوسوسته أيضا بالفحشاء كالبخل ومنع الزكاة، والله تعالى يعدكم فى كتابه جزاء ما أنفقتم مغفرة لذنوبكم، وفضلا أى رزقا حسنا، أى يجمع لكم بين خيرى الدنيا والآخرة.

والله عز وجل واسع الفضل عالم بنيات المنفقين، وهو سبحانه يؤتى الحكمة من يشاء من عباده الصالحين، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرى الدنيا والآخرة. وما يتعظ وينتفع إلا أصحاب العقول الخالصة من ظلمة الشهوات.

ثم أراد سبحانه أن يبين حُكمًا عامًا لجميع أنواع النفقات وما فى حكمها من النذر بعد بيان ما كان منها فى سبيل الله فقط فقال سبحانه: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ قليلة أو كثيرة، سرا أو علنا، فى حق أو باطل، أو نذرتم من نذر، فى طاعة أو معصية، فإن الله سبحانه يعلمه ويجازى عليه، وما من نصير يدفع عذاب الله عمن ظلم.

ثم فصَّل سبحانه بعض ما أجمل أولا فقال: إن تبدوا. أى تظهروا إعطاء الصدقات «فنعمَّ» هذا الإبداء، وإن تعطوها خفية ويكون الآخذ فقيرا محتاجا فالإخفاء خير لكم لبعده عن الرياء وعن جرح كرامة الفقير. ويكفر هذا الإعطاء مطلقا سرا وعلنا شيئا من سيئاتكم، ومن السيئات ما لا يكفرها إلا السعى على الأولاد أو الحج المبرور مثلا، والله بما تعملون من خير وشر، خبير، وسيجازى عليه.. وأكثر العلماء يرون أن إظهار صدقة الفرض كالزكاة أفضل، وإخفاء صدقة التطوع أفضل إلا لمن وثق من نفسه عدم الرياء وكان قدوة للناس فيحسن له إظهارها ليقتدى به غيره.

خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ١ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ٢ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم ٣ بِاللَّيْلِ ٤ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ٥ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ٦ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ٧ ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ٨ ۚ فَمَن

وقال: الفقراء، ولم يقل فقراءكم أو فقراء المسلمين، ليفيد أن صدقة التطوع مطلوبة لكل فقير ولو كان كافرا، إلا الكافر المحارب فإنه لا يجوز إعطاؤه.

﴿إلا ابتغاء وجه الله﴾: أى إلا طلبا لرضى الله. ﴿أحصروا فى سبيل الله﴾: أى حبسهم عن الكسب أنهم خصصوا جميع أوقاتهم للجهاد والاستعداد له. ﴿ضربا فى الأرض﴾: الضرب فى الأرض كناية عن السفر، والمراد أنهم لم يسافروا للتجارة وكسب الرزق لاشتغالهم عنه بالجهاد.

﴿سيماهم﴾: علاماتهم. ﴿إلحافا﴾: إلحاحا. ﴿يتخبطه الشيطان﴾: التخبط الضرب الشديد على غير نظام. ﴿المس﴾: الجنون.

المعنى: لما كانت الآية السابقة قد شملت الصدقة على المسلم والكافر، وكان بعض الصحابة قد تحرج من الإنفاق على المشركين.

لبعدهم عن الهداية، ولما كان شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ليكون إنسانا كاملا، أراد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أنه لا يجوز أن تربطوا الصدقة على المحتاج بإيمانه وهداه، لأن الهدى من الله فليس عليك أيها النبى هداهم، وأمتك مثلك، وإنما عليك البلاغ فقط، والله وحده هو الذى يهدى من يشاء بتوفيقه للنظر الصحيح إذا كان سليم الفطرة لم يفسدها، وما تنفقوا فى وجوه البر من خير أى مال حلال فثوابه لأنفسكم، والحال أنكم لا تنفقون إلا لطلب رضا الله لا رياء ولا جلبا لنفع دنيوى، واعلموا أن ما تنفقونه من خير يوفى إليكم جزاؤه تامًا، ولا تظلمون أى لا تنقصون منه شيئا.

---

(١) هداهم. (٢) بسيماهم. (٣) أموالهم. (٤) بالليل.
(٥) الربا. (٦) الشيطان. (٧، ٨) الربا

ثم بين سبحانه من هم أحق الناس بالصدقة وهم من اجتمعت فيهم خمس صفات فقال: (الفقراء) إلخ، أى أن الصدقات المطلوبة تعطى للفقراء أصحاب الصفات الآتية، وهم أهل الصفة، والصفة بضم الصاد سقيفة كانت فى المسجد النبوى، وكانوا أربعمائة من فقراء المهاجرين ليس لهم مأوى غير هذه السقيفة تقيم الشمس. الصفة الأولى: أنهم أحصروا فى سبيل الله. والثانية: أنهم لا يستطيعون سفرا لكسب رزق لتفرغهم للجهاد. الثالثة: أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف. الرابعة: أن لهم علامات خاصة بهم وهى التواضع وأثر التعب. والخامسة: أنهم لا يسألون الناس شيئا حتى يلحفوا. والمراد لا يسألون أصلا فلا يقع منهم إلحاح كما هو الشأن فى محترفى التسول. والدليل على عدم وقوع سؤال منهم أصلا عدم معرفتهم إلا بعلامتهم، ولوسألوا لعرفوا بالسؤال. وأيضا شدة تعففهم حتى يظن أنهم أغنياء، ولوسألوا لما كانوا كذلك. قال ﷺ ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان لكن المسكين الذى لا يجد ما يكفيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يسأل الناس، إقرءوا إن شئتم: (لا يسألون الناس إلحافا). ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المنفق وزمان الإنفاق فقال: ﴿الذين ينفقون أموالهم﴾ إلخ المراد أنهم يشغلون أوقاتهم وأحوالهم بالصدقات لحرصهم على الخير، فكلما رأوا فرصة سارعوا ولم يتعللوا بوقت ولا حال.

ولما كان على النقيض من هؤلاء الأخيار الذين ينفقون بدون مقابل، الذين جمعوا مع البخل أكل أموال الناس بالباطل، وهم المرابون، حذر سبحانه من عاقبتهم بقوله: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ إلخ، المراد بالأكل مطلق الأخذ، لا يقومون من قبورهم بسبب الذهول والخبل الذى يلحقهم من شدة الهول إلا كما يقوم الذى يضربه الشيطان ضربا شديدا، وهذا تشبيه جاء على أسلوب العرب من تخيلهم أشياء مخيفة يبنون عليها كلامهم للتنفير منها كتخيلهم (غول وشيطان) للشىء القبيح، و(ملك) للحسن، ومنه ما جاء فى الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٦١. ذلك الأكل من الربا وما حل بهم من العذاب بسبب قولهم إن البيع الذى هو حلال قطعا مثل الربا فإذا جاز فالربا حلال، فكذبهم سبحانه فى هذه التسوية بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا).

جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[1] ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[2] ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟[3] وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ[4] ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[5] وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ[7] لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟[8] إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ[9] لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

﴿موعظة﴾: وعظ وزجر عن الحرام.

﴿ما سلف﴾: ما مضى.

﴿يمحق الله الربا﴾: يذهبه ويذهب بركة ما خالطه.

﴿ويربى الصدقات﴾: يزيد فى فائدتها فى الدنيا والآخرة.

﴿وذروا﴾: اتركوا.

﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾: أى فاعلموا أنكم على حرب مع الله ورسوله أى فأنتم أعداؤهما.

﴿فلكم رءوس أموالكم﴾: أى أصل أموالكم الخالى من الربا.

﴿ذو عسرة﴾: أى صاحب عسر لا يستطيع سداد أصل الدين.

﴿فنظرة إلى ميسرة﴾: أى فانتظار عليه إلى يسر وغنى يمكنه معه الأداء.

المعنى: فمن بلغه نهى من الله تعالى عن الربا فسمع وامتثل فله ما مضى من الربا قبل التحريم لأنه لا عقاب إلا بعد تحريم، وأمره بعد ذلك إلى الله تعالى يعامله بعدله، ومن العدل

(١) أصحاب.
(٢) خالدون.
(٣) الربا.
(٤) الصدقات.
(٥) الصالحات.
(٦) الصلاة.
(٧) الزكاة.
(٨) الربا.
(٩) أموالكم.

ألا يعاقب قبل بلوغ الحكم، لكن العبارة تشعر بأن رد الربا إلى أصحابه أفضل. ومن عاد إلى أكل الربا مستحلا له بعد هذا النهى فهو خالد فى النار؛ لأن استحلال الحرام كفر. يمحق الله الربا ويجعله سبب شقاء آكله، ويزيد فائدة الصدقات بالبركة فى مال صاحبها فى الدنيا وبزيادة أجرها فى الآخرة. والله لا يرضى عن شديد الكفر باستحلال الحرام. دائم ارتكاب الإثم. وقوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلخ، تعريض بمن يأكل الربا؛ كأنه يقول: لو كان من هؤلاء لامتنع عنه. وتمهيد لقوله يأيها الذين آمنوا اتقوا الله واتركوا ما بقى لكم من الربا عند الناس، فإن لم تتركوه فاعلموا أنكم فى حرب مع الله تعالى، ومن كان فى حرب معه فقد هلك، لأنه سبحانه قادر على الانتقام منه فى الدنيا بضياع المال والحسرة عليه عند فراقه، وبعذاب أليم فى الآخرة. وإن تبتم عن الربا امتثالا لأمر الله عز وجل فلكم أصل أموالكم فقط. ولا تأخذوا الزائد من الربا.

لا تظلمون المدين بأخذ الزائد، ولا يظلمكم المدين بنقص شىء من رأس المال.

وإن وجد مدين ذو عسرة وعجز عن سداد أصل الدين فانتظروه حتى يصير قادرا، ولا ترابوا المال عليه. وتصدقكم على المعسر بإبرائه من أصل الدين كله أو بعضه خير لكم من انتظار ميسرة لما فى التعاطف والتراحم من كبير الأجر عند الله، إن كنتم تعلمون الخير العظيم فى التصدق. روى مسلم أنه ﷺ قال: (من انظر معسرا أو ترك له شيئا مما عليه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله).

ثم ختم سبحانه آيات الربا بالموعظة التى تذكر المؤمن بيوم القيامة وتسهل عليه التسامح والتفضل فقال: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ فيوفى كل نفس جزاء ما عملت خيرا أو شرا، ولا يظلم الطائع بضياع شىء من أجره، ولا العاصى بزيادة شىء من العقاب عما يستحق. وقد ورد أن من آخر الآيات نزولا آيات الربا.. وكان بين نزولها وبين وفاته ﷺ تسع ليال.

﴿لا يأب﴾: لا يمتنع. ﴿وليملل﴾: أى يلق على الكاتب ما يكتبه.

﴿ولا يبخس منه شيئا﴾: أى ولا ينقص من الدين شيئا ولو قليلا.

﴿سفيها﴾: مجنونا أو محجورا عليه لتبذير. ﴿أو ضعيفا﴾: صبيا أو كبيرا خرفا لا يعى ما يقول.

﴿لا يستطيع أن يمل﴾: لنحو خرس أو جهل باللغة التى يكتب بها.

﴿وليه﴾: من والد أو وصى أو قيم أو مترجم. (بالعدل﴾: بالصدق والحق.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا[1] فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا[2] الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا[3] أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ[4] وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً[5] حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ

﴿تضل إحداهما﴾: المراد بالضلال هنا النسيان الذى يوقع فى الخطأ. ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾: كان الظاهر أن يقول فتذكرها الأخرى، بالضمير بدل الاسم الظاهر، لكنه سبحانه عدل عنه لأنه لا يفيد المعنى المراد، لأن المراد أن كل واحدة من المرأتين عرضة لأن تنسى شيئا من عناصر الشهادة، وتتذكر شيئا، وقد تكون إحداهما تذكرت شيئا نسيته الأخرى، وهذه الأخرى تذكرت شيئا نسيته زميلتها، فتصير كل واحدة منهما متذكرة وناسية فى آن واحد، ومجموع شهادتهما يكون شهادة واحدة سليمة من الخطأ. فلو قال: أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى، لكان الكلام خاصا بحالة واحدة وهى أن تكون إحداهما متذكرة لكل شىء، والثانية ناسية لبعض الأشياء، فيكون التذكر خاصا بواحدة والنسيان خاصا بالأخرى، وليس هذا هو المراد. والله أعلم.

﴿لا تسأموا﴾: أى لا تملوا ولا تكسلوا. ﴿أقسط عند الله﴾: أى أعدل فى شرع الله.

---

(١) (٢) إحداهما. (٣) تسأموا. (٤) للشهادة. (٥) تجارة.

﴿وأقوم للشهادة﴾: أى أعون على إقامتها على وجهها.

﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾: أى وأقرب إلى عدم الشك.

﴿حاضرة تديرونها بينكم﴾: حضور التجارة بحضور البدلين من الثمن والمبيع تدار بين المتعاملين يدا بيد.

المعنى: أنه سبحانه بعد أن بين الحلال والحرام فى التعامل أمر هنا بحفظ المال بكتابة الدين والإشهاد عليه وأخذ الرهن إذا لم تتيسر الكتابة، فالمراد إذا داين بعضكم بعضا بمال إلى أجل معين كشهر كذا فاكتبوا مقداره وأجله، لأن ذلك أبعد عن النسيان عند التقاضى وسد لباب الفتنة بالإنكار. وقال بعض العلماء إن الأمر بكتابة الدين للوجوب خصوصا إذا فسدت الذمم، يؤيد ذلك قوله تعالى الآتى فى الكلام على التجارة الحاضرة ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾.

ثم بين سبحانه كيفية الكتابة فقال: ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ عادل يحافظ على حق كل من الطرفين، وإذا طلب كاتب للكتابة وهو عدل عالم بشروط المعاملات لا يجوز أن يمتنع. وأكد حرمة الامتناع بأمره صراحة بقوله: ﴿فليكتب﴾ وليلق على الكاتب مَن عليه الدين ليكون إملاؤه حجة عليه ﴿وليتق الله﴾ فى إملائه فلا ينقص منه شيئا. فإن كان المدين سفيها إلخ، فليملل وليه بالصدق والحق، واستشهدوا على الدين شاهدين يوقعان على الوثيقة من رجالكم العدول، فإن لم يكن الشاهدان رجلين فليشهد رجل وامرأتان ممن تعرفون عدالتهم خوفا أن تخطئ إحدى المرأتين لعدم قوة ضبطها المعاملات المالية، لأنها ليست من الأمور التى تهتم بها غالبا، فتذكرها الأخرى، أى تذكر كل منهما صاحبتها ما قد تنساه. ولا يمتنع الشهود إذا دعوا لتحمل الشهادة وقت الكتابة لما فى الكتابة من الفوائد الآتية المشار إليها بقوله: ذلكم، أى هذه الأحكام أعدل فى شرع الله وأعون على إقامة الشهادة على وجهها. وهذا يفيد أن للشاهد الحق فى أن يطلع على الوثيقة ليتأكد مما شهد عليه، وأقرب إلى انتفاء الشك. (إلا أن تكون تجارة) إلخ، أى يجب الدين، أما التجارة فى الأشياء الحاضرة عند التعامل والمتبادلة يد بيد بدون تأجيل شىء منها.

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ[1] مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ[2] وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ[3] وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[4] وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ[5] وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

﴿جناح﴾: مؤاخذة. ﴿لا يضار كاتب ولا شهيد﴾: أى لا يضر المتعاملان أو أحداهما الكاتب أو الشاهد بتحميلهما مشقة تكلفهما مالا فى سفر أو بتكليفهما ما لا يليق كسفر طويل مشيا على الأرجل أو إرغامهما على كتابة أو شهادة زور أو ما فيه غبن. ﴿فسوق بكم﴾: أى خروج بكم عن طاعته تعالى. ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم﴾: كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال المهابة فى النفوس فتسارع للعمل، وللتنبيه على أن كل جملة منها مستقلة عما قبلها تفيد معنى خاصا بها. فالأولى فيها الحث على التقوى. والثانية وعد منه سبحانه بإنعامه على عباده بتعليمهم ما به يتقونه. والثالثة فيها تعظيم لشأنه تعالى وأنه لا يشرع سبحانه وتعالى إلا عن علم تام. فالواو فيها للاستئناف، لا للعطف، ولا للحال. ﴿فرهان مقبوضة﴾: أى فشىء يرهن يقبضه صاحب الدين. ﴿آثم قلبه﴾: أى فإثمه شديد لأنه ناشئ من صميم قلبه لا نسيانا، والعرب إذا أرادت المبالغة فى شىء أسندت الفعل إلى العضو المختص فيقول أحدهم هذا الشىء رأته عينى وسمعته أذنى.

المعنى: فلا حرج عليكم فى عدم كتابة التجارة الحاضرة لعدم التنازع، ولما فى ذلك من المشقة. وأشهدوا إذا تبايعتم فى المعاملة الحاضرة لأن الإشهاد يدفع ما قد يحصل من الاختلاف خصوصا إذا كان التعاقد فى أشياء كبيرة القيمة. ولما كان شأن ما يحصل فى التجارة الحاضرة أن يكون قريبا من زمن العقد اكتفى فيها بالشهادة بخلاف الديون المؤجلة، فقد يموت أحد الشهود، فلهذا وجب الكتابة، وإذا أوجب الله تعالى على الشاهد والكاتب عدم الامتناع فلا يصح أن تضروهم. وأن تفعلوا ما نهيتم عنه فقد خرجتم عن طاعة ربكم، واتقوا عقاب الله بأن تفعلوا ما أمركم به، وتبتعدوا عما نهاكم عنه على لسان رسوله، وهو سبحانه

(١) فرهان. (٢) أمانته. (٣) الشهادة. (٤) السموات. (٥) وملائكته.

يعلمكم ما فيه صلاح حالكم فى الدنيا والآخرة بما يشرعه لكم. ولولا ذلك لتخبطتم فى السير وانحرفت بكم السبل. وهو سبحانه واسع العلم بكل شىء فلا يشرع لكم إلا عن علم محيط بأسباب المصالح التى أمركم بها وأسباب المفاسد التى نهاكم عنها. ومن هذا يعلم أن التقوى لا تكون إلا بعد علم بما شرعه الله من حلال وحرام، وعلم بما يصحح العبادة وما يفسدها.

نعم هناك علم آخر يكون ناتجا عن تقوى الله، وهو علم خاص يفيضه الله على عبده التقى، فيعطيه نورا يفرق به بين دقائق الشبهات التى لا يعلمها كثير من الناس، ويزيده طمأنينة قلب إلى ما يعتقد فيعيش مستريح الضمير آمنا فى سيره إلى الله انظر الآية (٢٩) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٠، ٢٣١. وفى ذلك قال ﷺ (من تعلم فعمل بعلمه علمه الله ما لم يعلم) وفى رواية (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

بعد ذلك يقول الحق: وإن كنتم مسافرين وتداينتم وليس معكم كاتب ولا شهيد فالذى تحفظون به أموالكم أشياء مرهونة يقبضها الدائن ضمانا لدينه. ويجوز الرهن فى الحضر لرهنه ﷺ درعه عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير. فإن آمن بعضكم بعضا بحسن ظنه سفرا أو حضرا فلم يكتب ولم يشهد ولم يرتهن فيجب على المدين الذى ائتمنه الدائن أن يؤدى الدين الذى هو أمانة عنده، وليتق الله ولا ينكر الحق، ولا تكتموا أيها الشهود الشهادة بالامتناع عن أدائها إذا طلبتم لها، لأن كتمانها ذنب كبير متمكن من أشرف مكان وهو القلب. والله بما تعملون من أداء أو كتمان عليم وسيجازيكم.

لله ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا يشرع لمن فيهما ما فيه مصلحتهم. وإن تظهروا للناس ما فى أنفسكم من السوء بإظهار أثره، أو تخفوه احتراسا من الناس لا خوفا من الله، فسيجازيكم عليه يوم القيامة، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فإذا أراد للعبد غفرانا وفقه للعمل الصالح الذى يذهب السيئات، والله على كل شىء قدير. فلا راد لما أراد.

ثم ختم سبحانه السورة بما فيه إرشاد الناس إلى الأخوة لا يفرقهم جنس ولا تبعية نبى دون نبى ولا كتاب دون كتاب فقال فى صورة شهادة منه تعالى لنبيه الأكرم وأصحابه الأخيار ﴿آمن الرسول﴾ إلخ وقد تقدم بيان ذلك فى الآية (٤) والآية (١٧٧) من هذه السورة صفحات ٣، ٣٣، ٣٤.

آمن النبى وصحبه قائلين لا نفرق بين أحد من رسله حتى لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بالرسل جميعا، فهى بيان مزية هذه الأمة وتعريض بغيرها.

﴿لها ماكسبت﴾: من خير. ﴿وعليها ما اكتسبت﴾: من شر.

﴿إصرًا﴾: أصله الحمل الثقيل والمراد به هنا التكاليف الشاقة.

المعنى: وقالوا سمعنا كلام الله سماع فهم وقبول، واطعنا ما أمرنا به عز وجل عن إخلاص ويقين، لانفاقًا ولا تقليدًا لايؤثر فى القلب.

ولما كان شأن المؤمن الذى يقول هذا أن يكون يقظا لأقل تفريط، يلوم نفسه على مادون الكمال، كان من شأنه أيضًا أن يقول مع السمع والطاعة: غفرانك ربنا، أى نسألك أن تغفر ماقد يقع منا، وإليك وحدك مرجعنا، فوفقنا لما يرضيك عنا يوم لقائك، وتلقين الله للمؤمنين هذا الدعاء توجيه منه سبحانه لهم إلى اليقظة والمسارعة للتوبة عند كل هفوة.

ثم بشر سبحانه عباده الذين يلجأون إليه بتيسير الطاعة لهم فقال: ﴿لايكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ إلخ، أى مافى طاقتها كما فى الآية (٧٨) من سورة الحج صفحتى ٤٤٤، ٤٤٥.

لها ثواب ماكسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر.

وغاير التعبير فى جانب الشر بما يفيد التكلف لأن فطرة الإنسان التى فطره الله تعالى عليها لا شر فيها، والشر لايأتيها إلا بتكليف من الخارج. ولهذا نرى فاعل الشر يشعر بقبح عمله فى صميم قلبه ويكره أن يعرفه عنه الناس، فالشر ممقوت حتى فى نظر صاحبه. انظر شرح الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ثم أراد سبحانه أن يعلم عباده مايدعونه به

(١) مولانا. (٢) الكافرين. (٣) ألِفْ لَامْ مِيمْ.

مِن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٣) سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا مِائَتَان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ

فقال: ﴿ربنا لاتؤاخذنا﴾ أى قولوا فى دعائكم ربنا لاتؤاخذنا بالعقاب إن نسينا أى تركنا ماينبغى فعله عن غفلة، أو أخطأنا أى فعلنا مالاينبغى عن خطأ غير مقصود، ولاتكلفنا أمرا يشق علينا عمله كما كلفت به مَنْ قبلنا من بنى إسرائيل، حيث كانت لاتُقبل توبة مذنب منهم إلا بقتل نفسه كما تقدم فى الآية (٥٤) من هذه السورة صفحة ١١.

وكان الشىء المتنجس لايطهر بالغسل بل لابد من قطع مكان النجاسة من الثوب مثلاً، وكان المطلوب فى الزكاة ربع المال لاربع عشره كما هو فى الإسلام إلى غير ذلك. ولاتحملنا مالا قدرة لنا على الصبر عليه من البلايا والفتن. واعف عنا بمحو أثر ما قد يقع منا، واغفر لنا ذنوبنا، أى استرها فلا تفضحنا بإظهارها ولا بالمؤاخذة عليها، وارحمنا فى كل الأحوال بتوفيقنا لسنة رسولك، أنت مولانا، أى ناصرنا ومتولى أمورنا، فانصرنا على الكافرين؛ لأن من شأن المولى أن ينصر مولاه على مَنْ كفر به باتخاذه أولياء من دونه سبحانه يلجأ لهم ويتقرب إليهم بالذبائح والنذور لينفعوه عند الله، فانصرنا يامولانا على الجاهلين منهم والجاحدين بالحجة والبرهان، وعلى المعتدين منهم بالسيف. واعلم أنه يجب على المؤمن أن يتنبه إلى أن الله سبحانه ماعلمنا هذا الدعاء لمجرد أن نحرك به شفاهنا، بل لنتوجه به إليه بقلوبنا عاملين مايرضيه. فإن مَنْ يستغفر من الذنب وهو مُصر عليه كالمستهزئ بربه. نسأل الله سبحانه السلامة والتوفيق ﴿ألم﴾ تقدم الكلام عليها أول البقرة.

﴿ألم﴾: تقدم شرحها أول سورة البقرة. ﴿القيوم﴾: دائم القيام بشئون خلقه على أتم وجه.

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ تقدم تفسيرها فى آية الكرسى وهى آية ٢٥٥ من سورة البقرة صفحة ٥٣.

﴿لما بين يدية﴾: ماتقدمه. ﴿الفرقان﴾: قوى الفرق بين الحق والباطل، فيشمل الكتب السابقة وغيرها كصحف إبراهيم وزبور داود، ويشمل العقل السليم أيضًا فهو من عطف العام على الخاص، ﴿أنزل﴾: كل مايجىء من قبل الحضرة العلية الإلهية يسمى اعطاؤه تنزيلا كما قال ﴿وانزلنا الحديد﴾ الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ

﴿محكمات﴾: هى الآيات الواضحة الدلالة التى يمكن الجميع فهمها كقوله ﴿لاتقربوا الزنا﴾، ﴿لاتقتلوا أولادكم﴾، ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ وما أشبه ذلك.

﴿هن أم الكتاب﴾: أى أصل القرآن وعمدته وأساس أحكامه التى يرد كل ماعداها مما يحتمل أوجها كثيرة إليها.

﴿متشابهات﴾: محتملات لأوجه كثيرة. والمحكم والمتشابه فى القرآن له معنيان: ماهنا، وما فى أول سورة هود صفحة ٢٨٣ مع مافى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿زيغ﴾: بُعد عن الحق والصواب. ﴿ابتغاء الفتنة﴾: طلبًا لفتنة الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه.

﴿وابتغاء تأويله﴾: رجاء أن يُأَوّلوه ويصرفوه عن معناه الذى يوافق المحكم إلى مايوافق أغراضهم وشهواتهم. ﴿بعد إذ هديتنا﴾: المراد بعد هدايتنا.

المعنى: الله هو الذى نزل عليك القرآن ممتلئا بالحق والصدق مصدقا لما تقدمه من كتب الأنبياء فيما لم يحرفوه منها، وأنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل هاديين للناس من الضلال، وكذلك أنزل كل مايفرق بين الحق والباطل. إن الذين كفروا بآيات الله التى أنزلها لهداية عباده لهم عذاب شديد. والله عزيز أى غالب لايعجزه عذابهم، ذو انتقام أى عقوبة شديدة بمَنْ خالف أمره. وهو سبحانه لايخفى عليه شىء مطلقًا، فيعلم السر وأخفى، فيثيب الطائع ويعذب العاصى.

---

(١) الكتاب. (٢) التوراه. (٣) بآيات. (٤) الكتاب.
(٥) آيات. (٦) محكمات. (٧) الكتاب. (٨) متشابهات.
(٩) تشابه. (١٠) والراسخون. (١١) الألباب.

وكيف لايعلم أحوالكم وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء من ذكورة وأنوثة، وتمام ونقص، ولون مخصوص، وغير ذلك لا إله غيره يفعل ذلك، وهو العزيز الذى لايُغلب، الحكيم فى أفعاله. وهو الذى أنزل عليك أيها النبى القرآن منه آيات واضحات يفهمها كل مكلف هى أساس الكتاب والمرجع لما فيه، ومنه آيات محتملات لأوجه متعددة، فالذين فى قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه ليفتنوا به ضعاف العقول بتأويله على مايوافق أهواءهم، فإذا سمعوا متشابها كقوله سبحانه: ﴿تبارك وجه ربك﴾ أو ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أشاعوا فى الناس أن إله محمد يشبه الخلق له وجه وله يد...... إلخ والحق أن تأويل المتشابه لايعلمه إلا الله عز وجل وإلا العلماء الراسخون فى العلم؛ فيرجعونه إلى المحكم ويقولون كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فلا يمكن أن يختلف بعضه عن بعض. وبما أنه سبحانه قال: ﴿ليس كمثله شىء﴾ فيجب أن يحمل الوجه واليد وغيرهما على صفة تليق به سبحانه وتعالى لاشبه بينها وبين مافى الخلق، فكما أن سمعه وبصره وكلامه لايشبه شىء منها مافى الخلق فكذلك وجهه ويده سبحانه. ولم يكلفنا الله عز وجل بمعرفة حقيقة سمعه وبصره.

فى المحكم الآيات الدالة على عدله تعالى وأن ثوابه على قدر عمل العبد.. والمتشابه مايرد إليه مثل ﴿يضل من يشاء ويهدى من يشاء﴾ و ﴿ولو شاء الله لهدى الناس جميعا﴾ و ﴿وإنه خالق كل شىء﴾ والآيات (٣٩) من سورة الأنعام صفحة: ١٦٨، ٣١ من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧؛ (٣٠) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣؛ (٢٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٥.

ومايتذكرويفهم الحق إلا أصحاب العقول الخالصة من الزيغ وهؤلاء هم الذين يلجئون إلى الله دائما قائلين: ربنا لاتزغ قلوبنا بتحويلها عن الحق بعد أن تفضلت وهديتنا، وهب لنا من عندك الرحمة.

﴿كدأب آل فرعون﴾: الدأب العادة والحال الثابتة. ﴿بئس المهاد﴾: قبح الفراش الذى يئوون إليه. ﴿آية﴾ دليل. (فئتين التقتا﴾: فرقتين التقتا للقتال. ﴿زين للناس﴾: قال عمر بن الخطاب المزين هو الله. والمراد خلق حبها فى القلوب ليعمر الكون، ولتكون وسائل للآخرة بتكثير النسل للجهاد والإنفاق فى سبيل الخير العام. فالمراد أنشأ الله الناس على هذا وفطرهم عليه. أنظر

رحمة إنك أنت الوهاب ﴿٨﴾ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴿٩﴾ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار ﴿١٠﴾ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿١١﴾ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴿١٢﴾ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿١٣﴾ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة

الآية (٣٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٦. ١٩٧. والآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١. فليس المراد مدح التكالب عليها. انظر كتاب ﴿محمد الرسالة والرسول﴾ لنظمى لوقا صفحة ٨٤.

﴿القناطير﴾: جمع قنطار المراد به المال الكثير. ﴿المقنطرة﴾: البالغة فى الكثرة. والعرب إذا أرادت المبالغة فى شىء اشتقت منه صفة من لفظه والحقتها به فيقولون ظل ظليل وليل أليل.

﴿المسومة﴾: المطهمة الحسان.

المعنى: ويقولون اعطنا ياربنا رحمة تنقذنا بها من الزلل إنك كثير العطاء. ربنا نقر بأنك ستجمع الناس قطعا فى يوم القيامة الذى لاشك فى حصوله لأنك وعدت به وأنت لاتخلف الميعاد. وفى هذا اليوم لن تنفع الكافرين أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا ولو قليلا، وسيصيرون وقود النار، وذلك لأن عادتهم وحالهم فى الكفر والعناد كعادة آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم كعاد وثمود. فإنهم جميعًا كذبوا بآيات الله عز وجل المتلوة فى كتب الأنبياء والمنبثة فى الآفاق، فأخذهم الله إلى جهنم بسبب ذنوبهم والله شديد العقاب لمن كفر بآياته. قل أيها النبى للكافرين ستغلبون فى الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية، وفى الآخرة تساقون إلى جهنم، وما أقبحها فراشًا لكم. قد كانت لكم عبرة يمكنكم الانتفاع بها لو أخلصتم؛ تلك هى أنكم رأيتم فرقتين التقتا يوم بدر للقتال: فئة قليلة تقاتل لنصرة دين الله وهى فئة المؤمنين، وكان عدد أفرادها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم سوى فرسين، وأكثرهم ليس معه ما يركبه من إبل وغيرها؛ وفئة أخرى كافرة كثيرة

---

(١) أموالهم. (٢) أولادهم. (٣) بآياتنا. (٤) تقاتل. (٥) الأبصار. (٦) الشهوات. (٧) والقناطير.

والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿١٤﴾ * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿١٥﴾ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴿١٦﴾ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿١٧﴾ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿١٨﴾ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴿١٩﴾ فإن حاجوك فقل

العدد كانوا ألف مقاتل، وأغلبهم راكبون خيلاً وإبلاً؛ فلما بدأ القتال وشاهد الكفار بسالة المؤمنين وشدتهم فى القتال بدرجة غير مألوفة لهم وقع فى قلوبهم الرعب، حتى صاروا يرون المؤمنين مثلى عددهم أى ألفين، رأى العين، أى رؤيا ظاهرة لا لبس فيها. وهذا مدد معنوى من الله يمد به المؤمنين الصادقين ليمحو الكفر والكافرين. ولذا قال الله: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ ممن يستحقه. إن فى ذلك التأييد للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لعبرة وموعظة لأصحاب البصائر، فيزداد إيمان المؤمن ويقبل على الإيمان الموفق. زين الله للناس حب المشتهيات من النساء والبنين الذكور المعدين للدفاع، والأموال الكثيرة من ذهب وفضة، والخيل الحسان.

﴿الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم. ﴿الحرث﴾: الزرع من نبات وشجر وماء ﴿حسن المآب﴾: من إضافة الصفة للموصوف. ﴿أزواج مطهرة﴾: زوجات مبرآت من كل ما يعيب النساء حسيا كالحيض والنفاس، أو معنويا كالكيد والغيرة ونكران الجميل. ﴿ورضوان﴾: قال الراغب الرضوان الرضى الكثير وخص فى القرآن بما كان من الله أنظر الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿القانتين﴾: الطائعين.

﴿الأسحار﴾: جمع سَحَر بفتحتين وهو ثلث الليل الأخير.

---

(١) الأنعام. (٢) متاع. (٣) الحياة. (٤) جنات. (٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) وأزواج. (٨) ورضوان. (٩) الصابرين. (١٠) الصادقين. (١١) القانتين. (١٢) والملائكة.
(١٣) الإسلام (١٤) الكتاب (١٥) بآيات.

﴿القسط﴾: العدل.

المعنى: ذلك المذكور من الأشياء الستة هو مايستمع به الناس فى حياتهم الفانية، والله عنده المرجع الحسن فى الآخرة من النعيم الدائم. ثم فصل هذا النعيم بقوله: قل أيها النبى لهؤلاء الذين جعلوا كل همهم فى المتاع الزائل هل أخبركم بأحسن مما ذكر من هذا المتاع الفانى؟ فاسمعوا أقل لكم أن عندى للمتقين جنات تجرى من تحت قصورها، وأشجارها الأنهار خالدين فيها، لاتزول أبدًا كما يزول نعيم الدنيا، ولهم فيها زوجات مطهرة من كل عيب، ولهم فوق ذلك رضا من الله عز وجل كثير دائم لاغضب بعده، والله بصير بعباده، فيعلم مَنْ يستحق هذا النعيم ومن لايستحقه.

ثم وصف أهل التقوى بأنهم هم الذين يقولون ربنا إننا آمنا بك وبرسلك فاغفرلنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، والصادقين قولا بتقرير الحق، وعملاً بإتقان العمل، ونية بعدم التردد فى عمل الخير، والقانتين أى المداومين على الخشوع، والمنفقين للمال فى طريق الخير، والمستغفرين فى الأسحار أى المصلين فى الليل والناس نيام. قال مجاهد وابن كثير: المستغفرون هناهم المصلون؛ لأن أهل التهجد آخر الليل يطلبون بتهجدهم مغفرة الله عز وجل.

﴿شهد الله﴾ - أى أخبر الله ملائكته بأنه سبحانه واحد لايعبد سواه، والملائكة أخبرت الرسل بذلك، والرسل أخبرت أهل العلم، والعلماء أخبروا الناس كافة بأنه إله واحد، مقيمًا للعدل بين خلقه. ثم أكد توحيده المشهود به فقال: لا إله إلا هو العزيز الغالب الذى لايغلب، الحكيم فيما يفعل.

إن الدين المرضى عند الله هو الإسلام الذى بعث الله به جميع الرسل، والمراد بالإسلام هنا الأصول التى اتفق الجميع عليها المشار إليها فى الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

وهى التوحيد والرسالة والبعث ومكارم الأخلاق، أما الفروع فلكل أمة مايناسبها فى عصرها أنظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. والآية (٦٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٣.

أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ (١) وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ (٢) ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ (٣) ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ (٤) ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ (٥) بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ (٦) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٧) ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ (٨) يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ (٩) ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ (١٠) ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ (١١) لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وما اختلف اليهود والنصارى فى الدين بأن وحّد بعضهم وكفر بعضهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان أنبيائهم وفى كتابهم، بغيًا وحسدًا وقع بينهم، لا لشبهة عرضت، وإلا لأزالها أقل برهان مما بين أيديهم وماجاء به خاتم الرسل صلوات الله تعالى عليه. ومَنْ يكفر بعد تلك الآيات والبراهين فسيلاقى جزاء كفره حتمًا فى أقرب وقت. فإن حاجك وجادلك فى الدين الكافرون بعد إقامة هذه الحجج فلا تجادل وقل: انقدت مخلصًا وخضعت بظاهرى وباطنى لله لا أشرك به غيره.

﴿أسلمت وجهى لله﴾: انقدت مخلصًا وخضعت بظاهرى وباطنى لله لا أشرك به غيره. ﴿الأميين﴾: المراد بهم هنا مشركو العرب. ﴿القسط﴾: العدل ﴿حبطت﴾: بطلت. ﴿الذين أوتو نصيبا من الكتاب﴾: المراد بهم اليهود.

المعنى: وحيث أنه لافائدة فى محاجتهم فأعلمهم أنك ومن اتبعك من المؤمنين خضعتم لله وحده، وقل لأهل الكتاب عامة.. يهودًا أو نصارى وللمشركين من العرب الأميين أى الذين لايقرءون كتابًا: هل أسلمتم بعد تلك الحجج أم مازلتم على عنادكم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الحق وأنجوا أنفسهم من العذاب، وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم؛ لأن الذى عليك إنما هو إبلاغهم حكم الله، وقد بلغت، وليس عليك هداهم. والله بصير بعباده فيجازى كلا بما يستحق. إن اليهود الذين يكفرون بآيات الله التى قرءوها فى التوراة الدالة

(١) الكتاب. (٢) والأميين. (٣) البلاغ. (٤) بآيات.
(٥) النبيين. (٦) أعمالهم. (٧) ناصرين. (٨) الكتاب.
(٩) كتاب. (١٠) معدودات. (١١) جمعناها.

على صدقك أيها النبى ويقتلون أنبياء الله بغير حق. وبما أن الخطاب لليهود المعاصرين له ﷺ بدليل ماسيأتى من إنذارهم بالعذاب ولا إنذار لغير الموجود، يكون المعنى: قتل آباؤهم ورضواهم عن فعل آبائهم، فكأنهم اشتركوا معهم فى القتل فاستحقوا مثل عقابهم، ومن جرائهم أيضًا أنهم يقتلون المصلحين من أمتهم الذين كانوا يأمرونهم بالعدل. فبشرهم بعذاب شديد الألم، أى ليس لهم خبر يسرهم إلا الإنذار بالعذاب. فالكلام سيق على سبيل التهكم بهم وقطع أملهم فى النجاة. هؤلاء هم الذين بطلت كل أعمالهم فلم تنقذهم من القتل والأسر والطرد من الديار، وفى الآخرة فلم تنقذهم من العذاب، وليس لهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. وذكر مايدل على أنهم اختلفوا فى كتبهم بعد العلم فقال «ألم تر» أى ألم تنظروتعجب أيها السامع لحال هؤلاء اليهود الذين آتاهم الله حظًا من علم التوراة، وإذا دعوا إليها لتحكم بينهم وبين خصومهم فيما اختلفوا فيه تولى فريق منهم وهم علماؤهم وأصحاب الرياسة فيهم وتبعهم العوام، وهم مصممون على الإعراض. وهذا أشنع احتقار لكتاب أكرمهم الله تعالى به، وذلك أنهم لما قيل لهم كيف تكفرون بمحمد وصفته عندكم فى التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فى دعواكم، امتنعوا، وإنما استحلوا كل هذه الجرائم لزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما قليلة هى أربعون يوما عدد أيام عبادتهم العجل، وغرهم حتى ارتكبوا. ذلك ما افتروه فى دينهم من الباطل الذى يوافق أهواءهم. فعلى أى حال يكون هؤلاء الأشرار إذا جمعناهم للحساب يوم القيامة ووفى الله كل نفس ماكسبت من خير أو شر؟.

﴿تولج الليل فى النهار﴾ إلخ: أى تدخل بعض الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار، وتدخل بعض النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار والكلام كناية عن تطويل أحدهما وتقصير الآخر للحكمة التى أرادها الله سبحانه من ذلك. ﴿وتخرج الحى من الميت﴾: كالحيوان من التراب، والفرخة من البيضة والبيضة فى نظر العرب الذين نزل القرآن بلغتهم تعتبر ميتًا، لأنهم لا يطلقون ﴿الحَى﴾ إلا على مافيه حياة فعلاً تجعله يتنفس ويتحرك، والبيضة عندهم كالنبات فيها استعداد للنمو لكنها عقب خروجها من الفرخة مباشرة تعتبر ميتًا فى نظرهم = وبالعكس كالبيضة من الفرخة، والتراب من الحيوان بعد موته، وبعض

وهم لا يظلمون ﴿٢٥﴾ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴿٢٦﴾ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴿٢٧﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴿٢٨﴾ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير ﴿٢٩﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه

مانينفصل عنه فى حياته. ﴿فليس من الله فى شىء﴾: فليس من دين الله فى شىء، أى فهو بعيد عما شرعه سبحانه.

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾: أى إلا فى حال خوفكم منهم أن يؤذوكم، بشىء تتقونه منهم، أى فلكم حينئذ أن توالوهم ظاهرا بقدر مايدفع عنكم الضرر، فهى فى الواقع موالاة ظاهرية لا الحقيقية المنهى عنها ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أى عقاب نفسه، وعقاب الله شديد.

المعنى: ولايظلم أحد بزيادة فى سيئاته ولابنقصان فى حسناته.

وإذا استمر إعراض هؤلاء الكافرين عن دينك أيها النبى واستولى عليهم الغرور فدعهم وارجع إلى الله بالدعاء والثناء، وقل يا الله يامالك الملك الحق، تعطى بعض الملك الصورى لِمَنْ تشاء، وتنزعه ممَنْ تشاء، وتعز مَنْ تشاء بشىء من أسباب العز، وتذل مَنْ تشاء بسحب الأسباب عنهم، بيدك الخير أى والشر، بدليل ﴿تذل وتنزع﴾ لايعجزك شىء. ومن مظاهر قدرتك أنك بحكمتك فى تكوين الأرض وجعل سير الشمس بحساب صار يزيد كل من الليل والنهار بمقدار ماينقص من الآخر. ومن قدرتك العجيبة أنك تخرج من الميت حيا ومن الحى ميتا، وترزق مَنْ تشاء ولارقيب عليك يحاسبك؛ لأن الأمر كله بيدك. وإذا كان الكافرون على هذا الحال من العناد فاحذروهم. ولا يتخذ مؤمن كافرا وليا يصطفيه فيطلعه على أسرار المؤمنين الخاصة لما فى هذا من ضرر مصلحة المؤمنين، خصوصًا وهم يرونهم يهزءون بهم وبعبادتهم كما فى الآية (٥٧) من سورة المائدة صفحة ١٤٨: فلا يجوز أن يصطفى المؤمن من غير المؤمنين أحدا: وهذا لايمنع أن تعاملوا

(١) مالك. (٢) الليل. (٣) الكافرين.
(٤) تقاة. (٥) السموات.

بالحسنى على الوجه المبين فى الآيتين (٨)، (٩) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٦. ومَنْ يفعل ذلك بأن يوالى غير المؤمنين فقد ضل عن شرع الله وأصبح لايربطه به شىء.

إلا أن تخافوا من الكافرين ضررا يلحقكم إذا أظهرتم التخويف منهم وعدم الثقة بهم وكنتم ضعافا لاتستطيعون دفع ضررهم أى فلكم فى هذه الحالة أن تظهروا لهم التودد صورة حتى تتقوا آذاهم، واحذروا عذاب الله نفسه إذا تخطيتم ماحدده لكم. وإليه سبحانه مصيركم يوم القيامة فيجازيكم بما عملتم.

أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[1] ﴿٣٢﴾ * إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ[2] وَآلَ عِمْرَانَ[3] عَلَى الْعَالَمِينَ[4] ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ[5] رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ[6] الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا

قل أيها النبى لهم إن تخفوا مافى قلوبكم مما نهاكم الله عنه أو تظهروه يعلمه الله، لأنه العليم بكل شىء فى السموات والأرض، وسيجازيكم على ماتخفون وما تعلنون، لأنه قدير على كل مايريده.

واحذروا يوم القيامة الذى تجد فيه كل نفس جزاء ما عملته من خير حاضرا، وأما ماعملته من سوء فإنها تكرهه وتحب أن يكون بينها وبينه مسافات.

﴿أمدا﴾: مسافة بعيدة. ﴿اصطفى﴾: اختار وفضل.

﴿محررًا﴾ معتقًا من شواغل الدنيا متفرغا لخدمة بيتك المقدس. وكان هذا النوع من النذر مشروعًا عندهم. ﴿الرجيم﴾: المرجوم باللعن الكثير.

المعنى: تود النفس المذنبة وتحب أن يكون جزاء عملهم بعيدا عنها. وكرر ويحذركم الله نفسه لخطورة مخالفته تعالى وتساهل الناس فيها.

والله رءوف بعباده؛ ولذا بالغ فى تحذيرهم مما يضرهم ووهب لهم عقلا يدلهم على النافع والضار.

(١) الكافرين. (٢) إبراهيم. (٣) آل عمران.
(٤) العالمين. (٥) عمران. (٦) الشيطان.

قل أيها النبى لكل مَنْ يدعى محبة الله: إن كنتم تحبون الله حقا فاتبعونى فيما أفعل؛ لأنه بأمر الله الذى تدعون محبته، يحبكم الله أى يرضى عنكم ويغفر لكم ذنوبكم. وقل لهم أطيعوا الله باتباع كتابه، والرسول باتباع سنته؛ فإن أعرضوا فاعلم أنهم كاذبون فى دعوى محبتهم لله؛ لأنهم لو صدقوا لأحبهم وهو سبحانه لايحب الكافرين، وهم كافرون، فلا يحبهم، وإنما يحب سبحانه ويصطفى المخلصين مثل آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، وهم مريم وعيسى عليهما السلام، بجعل النبوة والرسالة فيهم. ذرية من آل إبراهيم وآل عمران يشبه بعضها بعضا فى الخير والفضل والله سميع عليم حين قالت امرأة عمران (حنة بنت فاقوزا) أم مريم، أى سميع لمناجاتها، عليم بإخلاصها لما قالت يارب إنى نذرت لخدمة بيتك مافى بطنى متفرغا لذلك، فتقبل منى ذلك إنك السميع لدعائى، العليم بنيتى.

فلما وضعت وتبين أنها أنثى، وهى لاتصلح عادة لخدمة البيت المقدس مثل الذكور، قالت متحسرة حزينة: يارب إنى وضعتها أنثى: قالت ذلك والحال أن الله يعلم أنها أنثى، وأنها خير من ألف رجل، وأتمت كلامها فقالت: يارب ليس الذكر الذى طلبته منك كالأنثى التى وهبتها لى لأنه يصلح لخدمة بيتك وهى لاتصلح، وإنى سميتها مريم، وإنى أطلب منك أن تحفظها هى وذريتها من الشيطان الرجيم. فقبل سبحانه مريم من أمها ورباها ونماها تحت رعايته تربية حسنة جامعة لحسن الجسد والروح فى وسط طاهر.

﴿كفلها زكريا﴾: جعل زكريا كافلا لها. وكيفية ضم زكريا لها بينتها الآية (٤٤) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠.

﴿المحراب﴾ هو أشرف مكان فى المنزل، وكان لايسمى محرابا إلا إذا كان يصعد إليه بسلم.

﴿أنَّى لك هذا﴾: أى من أين جاء لك هذا. ﴿هنالك دعا﴾: أى فى ذلك المكان عند مريم فى المحراب.

﴿مصدقا بكلمة من الله﴾: أى مؤمنا بعيسى وقد كان أول مَنْ آمن به لما بعثه الله.

وسمى عيسى كلمة لأنه جاء بكلمة ﴿كن﴾ بدون أب على خلاف المعتاد انظر الآية (٤٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠.

حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿٣٧﴾ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴿٣٨﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴿٣٩﴾ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل مايشاء ﴿٤٠﴾ قال رب اجعل لى ءاية قال ءايتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار ﴿٤١﴾ وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك

﴿حصورًا﴾: أى حابسا نفسه.

ومانعها عن كل ماينافى الكمال. ويطلق الحصور على الممتنع عن النساء زهدا ولا يصح هذا دليلا على فضل ترك الزواج، لأن يحيى ليس أفضل من أبيه ولا من جده إبراهيم، ولا من خاتم النبيين صلوات الله عليهم جميعًا. ﴿اجعل لى ءاية﴾: أى علامة أعرف بها وجود الحمل لأسرع بالشكر عليها.

﴿إلا رمزا﴾: أى إشارة بيد أو رأس مثلاً.

﴿العشى﴾: من الظهر للغروب.

﴿والإبكار﴾: الإبكار أصله مصدر لفعل ﴿أبكر﴾ بمعنى بَكّر بتشديد الكاف، أى فعل شيئًا فى ﴿البكرة﴾ وهى الوقت من طلوع الفجر إلى الضحى، والمراد بالإبكار هنا نفس البكرة أنظر الآية (١١) من سورة مريم صفحة ٢٩٧.

المعنى: وجعل الله زكريا كافلاً لمريم، وصار كلما دخل عليها المكان الخاص بها وجد عندها رزقا. قال ابن عباس: كان زكريا قد استأجر لها مرضعا وفطمت بعد الحولين. وكان أكثر مكثها فى المحراب وحدها.

وقال ابن جرير: إن بنى إسرائيل أصابهم قحط شديد حتى ضعف زكريا عن كفالتها، وكان نجار من بنى إسرائيل يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها، فيباركه الله، فيدخل عليها زكريا فيجد عندها فضلا من الرزق، فيسألها من أين لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله الذى يرزق بلا حساب وتقدم تفسيرها فى الآية (٣٧) من هذه السورة صفحة ٦٧: وفى هذا المكان وفى هذا الجو من الرحمة وفى حضرة هذه المولودة النجيبة تذكر زكريا الذرية الصالحة، وكان قد بلغ من الكبر عتيا كما فى سورة مريم، فاتجه إلى الله عز وجل قائلا: هب لى من عندك ذرية

(١) يامريم. (٢) الملائكة. (٣) الصالحين. (٤) غلام. (٥) ثلاثة.
(٦) الإبكار. (٧) الملائكة. (٨) يامريم. (٩) اصطفاك.

واصطفاك على نساء العالمين ﴿٤٢﴾ يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴿٤٣﴾ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴿٤٤﴾ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴿٤٥﴾ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴿٤٦﴾ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴿٤٧﴾ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿٤٨﴾ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين

مباركة ويفهم مما فى سورة مريم أن الذى طلبه زكريا ولد ذكر. فنادته الملائكة فى الحال وهو قائم يدعو فى محراب مريم، وقد يكون المنادى مَلَكًا واحدا معه غيره كما سيأتى فى الآية (٤٥) من هذه السورة صفحة ٧٠: إن الله يبشرك بولد اسمه يحيى يكون أول مصدق بنبى الله عيسى، ويسود على قومه بالعلم والفضل، ويحبس نفسه عن شهوات الدنيا ونقائصها. قال زكريا ليطمئن قلبه على كيفية وجود هذا الغلام: يارب على أى حال يولد لى مع كبرى وعقم امرأتى؟ قال: الأمر كذلك أى كما سمعت؛ لأن الله يفعل مايشاء لاتعجزه الأسباب. قال يارب اجعل لى علامة أعرف بها الحمل حتى أتلقاه بالشكر. قال: علامتك أنك تعجز عن الكلام مع الناس مدة ثلاثة أيام فلا تستطيع التفاهم معهم إلا بالإشارة، فإذا رأيت هذه العلامة فداوم على ذكر ربك وسبحه فى العشى والإبكار. وهذا يدل على أن منعه من كلام الناس كان معجزة لإنه لم يمتنع عن الذكر. واذكر إذ قالت الملائكة يامريم إن الله سبحانه اصطفاك أولا حين تقبلك من أمك، وهيأ الصالحين لتربيتك، وطهرك مما يستقبح من فاسد الأخلاق وذميم الصفات.

﴿اقنتى لربك﴾: الزمى طاعته مع تمام الخضوع.

﴿اركعى مع الراكعين﴾: اخضعى لأوامر الله عز وجل مع الخاضعين لها. ﴿أقلامهم﴾: للقرعة على مَنْ يكفل مريم. قال ابن عباس: إن أم مريم لما وضعت أنثى خشيت ألا تقبل لخدمة بيت المقدس فلفتها فى ثوب ووضعتها عند الأحبار، فأراد كل منهم أن يقوم بكفالتها لأنه كانت بنت إمامهم عمران، وأخيرا اتفقوا على أن يقترعوا فَمنْ خرجت له القرعة أخذها،

(١) اصطفاك. (٢) العالمين. (٣) يامريم. (٤) الراكعين. (٥) أقلامهم. (٦) الملائكة.
(٧) يامريم. (٨) الصالحين. (٩) الكتاب. (١٠) التوراة. (١١) إسرائيل

فأحضروا أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركًا بها ووضعوها فى جراب وأمروا بعض الغلمان ممنْ فى بيت المقدس أن يدخل يده ويخرج قلما، فالذى يخرج قلمه يكفل مريم، فخرج قلم زكريا. ﴿بكلمة﴾: أى مولود حامل بكلمة ﴿كن﴾ التى يكون بها كل شىء، فإطلاقها على عيسى على سبيل المبالغه لأنه نتج عنها بدون الوسائط المعتادة. ﴿وجيها﴾: ذا وجاهة وكرامة فى الدارين.

﴿كهلا﴾: هو الرجل التام الرجولية. ﴿كن فيكون﴾: لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول. وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعًا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الكتاب﴾: المراد به هنا الكتابة والخط، أى يكون قارئًا لا أميًا.

﴿الحكمة﴾: العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

﴿أخلق لكم﴾: أى أقدر وأصور أنظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

المعنى: واصطفاك ثانيًا على نساء العالمين بولادة نبى من غير أن يمسك رجل. يامريم داومى على طاعة ربك خاشعة له، وخصوصا السجود لأنه أعلى مراتب العبادة، واخضعى بإخلاص مع الخاضعين من الصالحين.

ذلك الذى قصصناه عليك أيها النبى من أخبار مريم وأمها وزكريا كله من أخبار الغيب التى لاتعلمها أنت ولا قومك. نوحيه إليه، ولولا ذلك لما علمت شيئًا، فكيف بعد هذا يجادل المكابرون فى صدق رسالتك، وماكنت حاضرا مع المقترعين على كفالة مريم، وماكنت معهم وقت تخاصمهم وتنازعهم أولا قبل القرعة على مَنْ يكفلها.

واذكر إذ قالت الملائكة، والقائل هو جبريل وكان معه آخرون. أنظر الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧: إن الله يبشرك بمولود يحصل بمجرد كلمة كن اسمه المسيح، أى الممسوح الذى يكون له مركز الملوك، وكان لايمسح بالزيت المقدس غير الملوك، عيسى ابن مريم، نسبه إليها ليشعرها بأنه سيكون بدون أب ينسب إليه، وسيكون ذا وجاهة وكرامة فى الدنيا والآخرة، ومن المقربين فى دار النعيم، ويكلم الناس وهو طفل كما يكلمهم وهو تام الرجولية. وسيكون من الصالحين.

(ســـورة آل عمران) ٧١

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ

قالت مريم متعجبة: كيف يكون لى ولد ولم أتزوج؟ قال الملك: أمر الله كما أخبرتك. والله يخلق مايشاء كما يشاء. إذا قدر وجود شىء وجاء زمنه فإنه يوجد بسرعة بلا تأخير: لأنه لايحتاج فى وجوده لغير كلمة ﴿كن﴾ فيكون.

ويعلمه الخط والكتابة فلا يكون أميا. ويعلمه العلم النافع وأسرار خلقه. ويعلمه التوراة التى نزلت عليه، ويجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل قائلاً لهم: احتج على رسالتى إليكم بأنى قد جئتكم ببرهان صدقى. وهو أنى أخلق أى أصنع وأقدر لكم شيئًا من الطين.

﴿كهيئة الطير﴾: أى على صورته. ﴿الأكمه﴾: الذى ولد أعمى.

﴿لما بين يدى﴾ أى تقدمه. ﴿بعض الذى حرم عليكم﴾: أى فى التوراة كلحوم الإبل. وكل ذى ظفر. أنظر الآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠. ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾:

كررها للتأكيد وليرتب عليها ما بعدها. ﴿أحس عيسى منهم الكفر﴾:

أى شعر من قومه بالكفر برسالته حتى هموا بقتله. ﴿مَنْ أنصارى إلى الله﴾: أى مَنْ يكون من جندى متوجها معى إلى نصرة دين الله.

﴿الحواريون﴾: هم صفوة أتباعه، مأخوذ من الحور بفتحتين وهو صفاء بياض العين، لبياض قلوبهم وصفاء طبائعهم. ﴿متوفيك﴾: رأى كثير من العلماء أن معناه قابض روحك ورافعها مع أرواح الشهداء، واستدلوا على ذلك بالآيتين (٨، ٣٤) من سورة الأنبياء صفحات ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤. ﴿مطهرك من الذين كفروا﴾: أى مبعدك من سوء تصرفهم.

(١) التوراة. (٢) صراط. (٣) الشاهدين. (٤) الماكرين. (٥) ياعيسى.

المعنى: أجعل لكم من الطين جسما على صورة الطير فأنفخ فيه فيصير طيرا حيا بإذن الله، وهذا احتراس منه عليه السلام خوف أن يؤلهوه، ولذا كرره هنا وفى سورة المائدة، لأن المقام خطير، وأبرئ مَنْ فيه عيب من عيبه، وأحيى بعض الموتى ليشهدوا بصدقى ثم يموتون. وأخبركم بما يكون غائبًا عنى مما فى بيوتكم ماتأكلونه وماتدخرونه، إن فى ذلك مما سبق من المعجزات دليلاً على صدق رسالتى إليكم إن كنتم مؤمنين بالله، لأنه لايجعل المعجزات إلا مع الرسل. وجئتكم مصدقا لما تقدم من التوراة التى هى كتابكم لا مكذبا لها، ولأخفف عنكم مافيها من التشديد بإحلال بعض ماحرمته عليكم عقابا لكم. فاتقوا الله ولاتكذبونى، واطيعونى فيما آمركم به لأن فيه مصلحتكم.

إن الله ربى وربكم فاعبدوه وحده، وهذا الذى أمرتكم به طريق مستقيم موصل للجنة. ولما أرسل عيسى وبلغهم كل ماسبق وشعر منهم بالكفر ونية السوء والغدر به، اتجه إلى خواصه وقال لهم مَنْ يساعدنى فى نصرة دين الله قالوا نحن أنصار الله وأعوان دينه، آمنا بالله، واشهد ياعيسى بأنا منقادون لأمره تعالى. فالإسلام وهو الخضوع لما شرعه الله هو دين كل نبى وإن اختلفت بعض تفاصيله باختلاف العصور. ثم أكدوا إقرارهم فقالوا: ربنا آمنا بما أنزلت من الإنجيل واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع الشاهدين للرسل يوم القيامة بأنهم بلغوا دعوتك لبنى إسرائيل وبما كان منهم من الكفر. ومكر الكفار بتدبير قتل عيسى، ومكر الله عز وجل أى أبطل مكرهم، والله خير الماكرين، أى المدبرين فى خفاء، لأن تدبيره للمصلحة لا للفساد كمكر غيره. ومكره سبحانه فى هذا المقام هو إلقاء شبه عيسى على غيره حين أرادوا قتله كما فى الآية (١٥٧) من سورة النساء صفحة ١٣٠، وكان مكرهم هذا حين قال الله ياعيسى إنى مستوفى أجلك فى الدنيا، والمراد عاصمك من أن يقتلك كافر حتى أقبض روحك عند انتهاء أجلك وأنت مكرم على فراشك، ورافعك إلى فى المنازل الرفيعة مع أدريس والشهداء، انظر الآية (٥٧) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١. ومطهرك أى مبعدك من خبث الذين كفروا.

كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[١] ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ[٢] ۝٥٦ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[٣] فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٥٧ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ

﴿فوق الذين كفروا﴾: فوقية فضائل ورحمة وقوة حجة. فيكونون خيرا من الكافرين أخلاقًا وأجمل أدبا وأرق قلوبا. وأحب للتراحم وأقوى حجة ﴿فمن حاجك فيه﴾: أى فمن جادلك فى أمر عيسى وقال غير الحق.

﴿نبتهل﴾: أى نضرع إلى الله بالدعاء خاشعين.

المعنى: وجاعل الذين اتبعوك فى دينك وآمنوا برسالتك فى منزلة أعلى من منزلة الكافرين. فتكون فوقيتهم روحية معنوية فى كل المعانى السامية خالدة إلى يوم القيامة. ثم إلىَّ مرجعكم جميعًا، المؤمن منكم والكافر، فأحكم بينكم فيما اختلفتم فيه. فأما الذين كفروا كاليهود ومَنْ ماثلهم فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا بالاضطهاد فى كل العصور، وإغراء العداوة والبغضاء بينهم، كما فى الآية (٦٤) من سورة المائدة صفحتى ١٤٩، ١٥٠؛ وفى الآخرة بعذاب أشد وأبقى، ومالهم من ناصرين يمنعون العذاب عنهم. وأما الذين آمنوا بك وبرسل الله كلهم، وعملوا الأعمال الصالحات المطلوبة منهم، فسأوفيهم جزاءهم كاملاً، والله لايحب الظالمين لأنفسهم بالخروج عن الحق واتباع الشهوات.

ذلك الذى تقدم من خبر عيسى من أقوى الأدلة على صدق دعواك أيها النبى، ومن أقوى مايذكر بوجوه العبرة، ويرشد إلى معرفة أسرار الدين. وبعد مابين سبحانه كيفية خلق عيسى ومجيئه بالبينات، وماكان من إيمان بعض وكفر بعض، أراد أن يبطل شبهة مَنْ بالغوا فى تقديسه من أتباعه حتى فتنوا به وجعلوه إلها أو ابن إله، قال ردا عليهم: إن عيسى كآدم فى أنهما وجدا من غير أب، بل آدم أعجب لأنه خلق من تراب بلا أب ولا أم، وعيسى وجد من أم، ولم يدع أحد أن آدم إله ولا ابن إله.

(١) القيامة. (٢) ناصرين. (٣) الصالحات.
(٤) الظالمين. (٥) الآيات. (٦) الكاذبين.

الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ

هذا الذى قلناه لك أيها السامع الحق الآتى من ربك العليم بكل شىء، فلا تشك فيه بعد هذه البراهين. فمن جادلك أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين فى أمر عيسى من النصارى بعد ذلك وأصر على أنه ابن الله مثلاً فقل تعالوا نجتمع رجالاً ونساء وأطفالا منا ومنكم، ثم نتضرع إلى الله ونطلب منه أن يلعن الكاذب منا فى أمر عيسى. وقد ورد أن النصارى لما سمعوا ذلك أحجموا عن المباهلة وقال علماؤهم:

﴿لاتباهلوا الرجل فو الله ماباهل قوم نبيًا إلا هلكوا جميعا﴾.

والحق أنه لايقدم على هذا الموقف شخص إلا إذا كان واثقًا من أنه على حق وإلا هلك وحل به غضب الله عز وجل.

إن هذا الذى قصصناه عليك فى أمر عيسى لهو القصص الحق، وماعداه من قول اليهود إنه ابن زنا، ومن قول المفتونين به من النصارى إنه إله أو ابن إله، فباطل.

﴿كلمة سواء﴾: تطلق الكلمة على الكلام المفيد كما تطلق على المفرد، والمراد هنا الكلام. كما فى الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤.

﴿أربابا﴾: جمع ﴿رب﴾ وهو يطلق على معان. منها رئيس الأسرة، ومنها مَنْ يربى غيره تربية جسمية، أو عقلية وثقافية، وماهنا من المعنى الأخير كما سيأتى فى سبب نزول الآية.

﴿حنيفا﴾: مائلا عن الباطل إلى الحق والمراد بعيدًا عن الضلال، خصوصًا الشرك. انظر ماتقدم فى الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦: (مسلمًا): الإسلام أصل معناه الخضوع والاستسلام لكل ما أمر الله به على لسان كل الرسل، قال تعالى ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ انظر الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥، والآية (٨٥) من سورة آل عمران صفحة ٧٧ والآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

(١)، (٢) الكتاب. (٣) إبراهيم. (٤) التوراة.
(٥) حاججتم. (٦) إبراهيم. (٧) بإبراهيم.

﴿وما كان من المشركين﴾: التصريح بهذا وماقبله لتوبيخ مشركى العرب الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم، وحنفاء مثله، كما تقدم بيان ذلك فى صفحة ٢٦.

المعنى: وليس فى الوجود إله إلا الله، وأنه هو العزيز الغالب الذى لايغلبه أحد، الحكيم فى تدبيره، فإن أعرضوا بعد ذلك عن الإيمان الصحيح فسيجازيهم على ذلك أشد الجزاء، لأنه عليم بإفسادهم عقائد الناس، وبعد ما بطلت جميع مزاعمهم وعجزوا عن المحاجة أمر سبحانه نبيه الكريم أن يدعوهم إلى أصل كل دين سماوى فقال عز وجل: قل لهم أيها النبى يأهل الكتاب من يهود ونصارى تعالوا نتفق على كلمة مستو فيها كل الكتب السماوية التى بيننا وبينكم وهى التوراة والإنجيل والقرآن، ثم فسر تلك الكلمة بقوله أن لانعبد نحن وأنتم إلا الله، فلا نتقرب بعبادة لغيره، ولانجعل غيره شريكا له فى الخلق والرزق واستحقاق العبادة، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، أى لانطيع أحبارنا وعلماءنا فيما يحلون ويحرمون من غير رجوع إلى كتب الله عز وجل. وقد ورد أن عدى بن حاتم وكان نصرانيا وأسلم لما سمع قوله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، قال: يارسول الله لم يكونو يعبدونهم. فقال ﷺ: أليسوا كانوا يحلون ويحرمون فتأخذون بما يقولون؟ قال: نعم، قال: هو ذلك.

أى هذا هو معنى اتخاذهم أربابا. فإن أعرضوا عن هذا التوحيد فقولوا لهم اشهدوا بأنا نحن المسلمون دونكم، وهذا كلام الواثق الذى يعتقد أن الأدلة والعقول السليمة كلها بجانبه.

ثم ذكر سبحانه فى سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام مايدل على أنه دين جميع الأنبياء الذين يجلونهم، وكانت قريش تجل إبراهيم عليه السلام، وتدعى أنها على دينه، فبين سبحانه لهم جميعًا من يهود ونصارى ومشركين أن إبراهيم الذى يجلونه لم يكن على شىء مما هم عليه الآن، وإنما كان على الإسلام الذى يدعوهم إليه سبحانه على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، فقال ﴿يأهل الكتاب... إلخ﴾ أى لِمَ تجادلون فى دين إبراهيم ويدعى كل منكم أن دين إبراهيم هو الدين الذى أنتم عليه ثم أقام سبحانه الحجة على الكتابيين بقوله: ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾. أى أن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى نحو ألف سنة، وبين موسى وعيسى نحو ألفين. فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا من بعد عهده بقرون طويلة. أفلا تعقلون أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا له؟ ياهؤلاء جادلتم فيما لكم به نوع علم لقرب عهدكم به ووجود كتابه بأيديكم وهو موسى وعيسى، ومع ذلك انحرف علمكم فطعنت اليهود فى عيسى

وألهته النصارى، فكيف تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، والله تعالى وحده هو الذى يعلم الحق وأنتم لاتعلمون.

فيجب أن ترجعوا إليه.

ولما كان مشركوا العرب يدعون أيضًا أنهم على ملة إبراهيم ويسمون أنفسهم الحنفاء، أى أتباع إبراهيم رد على الجميع بأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيًا ولا مشركًا كمشركى العرب. إن أحق الناس بالانتساب لإبراهيم هم الذين اتبعوه فى دينه الحق فى عصره أو بعده ومنهم هذا النبى محمد، والذين آمنوا من أمته.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[1] لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ[2] لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ[3] اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ[4] لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ[5] وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[6] آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ[7] عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[8] مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

﴿ولى المؤمنين﴾: متولى أمورهم وحافظهم. ﴿ودت﴾: أحبت وتمنت. ﴿طائفة من أهل الكتاب﴾: هم أشد اليهود خبثًا. ﴿تلبسون﴾: تخلطون.

﴿وجه النهار﴾: أوله. ﴿لاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾: أى لاتصدقوا إلا من تبع دينكم. يقال أمن فلان لفلان أى صدقه فيما يقول، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥، والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

﴿قنطار﴾ المراد به المال الكثير.

المعنى: والله متولى أمور المؤمنين به الذين لايتجهون لغيره فى كشف ضر أو طلب نفع، وكان اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين وحرصًا على صرفهم عن دينهم، حتى بلغ من حرصهم هذا أن يتجرأوا فيطلبوا من بعض كبار الصحابة كمعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان أن يدخلوا فى اليهودية بدعوى أنها دين إبراهيم أبى الأنبياء، وتفننوا فى عرقلة الدعوة المحمدية فنونا شتى

(١)، (٢) الكتاب. (٣) بآيات. (٤) الكتاب. (٥) بالباطل.
(٦) الكتاب. (٧) واسع. (٨) الكتاب.

أفظعها ماسيأتى فى الآية (٧٢) الآتية فى هذه الصفحة وانظر الآية (١٢٠) من سورة البقرة صفحة ٢٣، فقال فى ذلك سبحانه: ودت طائفة من اليهود أن يضلوكم، ومايضلون بعملهم هذا إلا أنفسهم؛ لأن العذاب سيضاعف لهم مرة على ضلالهم ومرة على محاولتهم إضلال غيرهم، انظر الآيتين (٦٧)، (٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، ومايشعرون بهذا الخطر لشدة حسدهم للنبى ﷺ. ثم وبخهم بندائهم بوصف أنهم أهل كتاب سماوى من شأنه أن يزجرهم عن الباطل فقال يأهل الكتاب لم تكفرون أى تجحدون الأدلة التى بينها الله لكم فى التوراة والإنجيل الدالة على صدق محمد وأنتم تشهدون أى تعترفون فى صميم قلوبكم ولكنكم تعاندون حسدا. يأهل الكتاب لم تخلطون الحق الذى جاء فى كتبكم من عند الله بالباطل الذى افتراه أحباركم ورهبانكم وتكتمون الحق من أن محمد رسول الله وأنتم تعلمون. ففى الكلام توبيخ شديد.

وقالت طائفة من اليهود لبعض منهم: اظهروا إيمانكم بالقرآن أول النهار واكفروا به آخره ليظهر لمَنْ دخل فيه من المسلمين أنه دين باطل بدليل انصراف أهل الكتاب عنه بعد الدخول فيه فيرجع من أسلم إلى الشرك ثانيا. وقال أيضًا خبثاء اليهود لأتباعهم: لاتصدقوا أحدا فى أمور الدين إلا إذا كان يهوديا؛ لأن اليهود أبناء الله وأحباؤه كما فى الآية (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠. قل أيها النبى ردًا عليهم إن الهدى إلى الحق هدى الله يعطيه مَنْ يشاء من خلقه وليس لازما لشعب معين. وهذه جملة جاءت بين كلام اليهود لتعجيل الرد عليهم، وبقية كلامهم أن يؤتى إلخ أى يؤتى الله أحدا غير يهودى نبوة أو غيرها من الفضائل مثلما آتاكم. ولاتصدقوا أن أحدا يقيم عليكم حجة يوم القيامة عند ربكم، قل أيها النبى فى تكميل الرد عليهم: إن الفضل بالنبوة وغيرها بيد الله يؤتيه مَنْ يشاء من خلقه، وهو أعلم بمَنْ يستحق رسالته من غير تقييد بجنس دون جنس. والله واسع الفضل عليم بمَنْ يستحق، والله هو الذى يختص برحمته من نبوة ورسالة وغيرها مَنْ يشاء، كررها ليبطل شدة فتنتهم، وهو وحده ذو الفضل العظيم، وفى الوقت الذى بلغ فيه تعصب اليهود هذا الحد يقرر القرآن أن أساس الإسلام مدح كل مستقيم مهما كان جنسه فيقول: ومن أهل الكتاب أمناء إذا أمنت أحدهم على مال كثير يؤدى الأمانة.

وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ(١) سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ(٢) ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ(٣) لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٤) وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ(٥) لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ(٦) وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ(٧) وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ(٨) وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن

﴿دينار﴾: هو عند العرب يساوى بالعملة المصرية فى عصرنا ثلاثة أخماس الجنيه الذهب. ﴿الأميين﴾: جمع أُمِّىّ وهو لفظ يطلق على مَنْ لايعرف القراءة والكتابة، نسبته إلى أمه أى فهو كيوم ولدته أمه، ومن هذا قوله تعالى ﴿الرسول النبى الأمى﴾ وقوله سبحانه ﴿بعث فى الأميين رسولاً﴾ ويطلق أيضا على المنسوب للأمة ﴿واحدة الأمم﴾. وهذا المعنى الثانى هو المناسب فى هذه الآية لأنه الموافق لما جاء فى كتبهم، فقد جاء فى التوراة التى بأيديهم اليوم فى الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية (لاتقرض أخاك «أى اليهود» بربا، وللأجنبى تقرض بربا) فهم يريدون بالأجنبى كل الأمم غيرهم، وجاء نظير ذلك فى سفر الخروج إصحاح ٢٢، ٢٥ وكذا فى سفر اللاويين أى الأحبار فى الإصحاح ٢٥، ٣٥ وكل ذلك مما حرفوه من التوراة ونسبوه إلى الله تعالى سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا انظر الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥. ويريدون بالأميين العرب لأنهم أمة أمية أكثرها لايقرأ كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحتى ٦٥، ٦٦؛ والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١. ﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى الذى قبله وإثبات نقيضه، انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿لا خلاق لهم﴾: أى لانصيب لهم فى نعيم الآخرة.

﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾: أصل اللى فتل الحبل والميل به عن الاتجاه المستقيم، والمراد به هنا تحريف التوراة وصرفها إلى مايريدون. وقد جاء وصفهم بذلك فى الآية (٤٦) من سورة

(١) الأميين. (٢) وأيمانهم. (٣) خلاق. (٤) القيامة.
(٥) بالكتاب. (٦)، (٧)، (٨) الكتاب.

النساء صفحة ١٠٨ وسيأتى بيانه. (أن يؤتيه الله الكتاب): المراد بالكتاب هنا الإنجيل. والحكم أى العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

المعنى: ومن اليهود مَنْ يخون ويستحل أموال غير اليهودى بحيث لو أمنته على دينار واحد لايرجعه إليك إلا إذا أثقلت عليه ولازمته بالقيام على رأسه ليلا ونهارًا. وسبب محاولة الخيانة هذه أنهم يزعمون أن التوراة تحل لهم أكل أموال كل الأمم غير اليهود فليس عليهم سبيل أى ذنب فى ذلك، ويقول هؤلاء اليهود هذا الكذب المفضوح وهم يعلمون أنهم كاذبون. ثم رد سبحانه عليهم فقال: بلى، أى بل عليكم إثم كبير فى استحلال أموال الناس؛ والحقيقة المقررة على لسان جميع رسله هى أن من أوفى بعهده الذى عاهد عليه الناس كالوفاء بالدين والأمانات، واتقى فلم يَعص ربه فى شىء، فإن الله يحبه، لأنه سبحانه يحب المتقين، ومن أحبه الله فاز بالسعادتين. إن الذين يستبدلون بالوفاء بعهد الله الذى أخذه عليهم فى كتبهم من الإيمان بالنبى المبشر به المبينة صفته عندهم فى التوراة والإنجيل كما سيأتى قريبا فى الآية (٨١) من هذه السورة صفحة ٧٦، ويستبدلون بأيمانهم التى يحلفونها كاذبين ليأكلوا أموال الناس بالباطل: الذين يستبدلون بكل ذلك ثمنا قليلاً هو متاع الدنيا الزائل، لانصيب لهم فى نعيم الآخرة، ولايكلمهم الله تعالى بما يسرهم ويفرج عنهم كربا، ولا ينظر إليهم نظر عطف ورحمة، ولايزكيهم أى يطهرهم من خبث الذنوب بالمغفرة، فتكون آخرتهم المسجلة عليهم أنهم فى عذاب أليم. وإن من اليهود فريقا هم علماؤهم يحرفون التوراة بوضع لفظ مكان لفظ، أو بتفسيرها بغير المراد، أو بقراءة شىء من كلامهم بنغم قراءة التوراة، ليظنه السامع من التوراة وماهو منها، ويقولون هذا المحرف بلفظه أو معناه من عند الله وماهو من عند الله، ويفترون على الله الكذب الكثير من هذا وغيره، وهم يعلمون أنهم كاذبون، وهذا أقبح أنواع الذنوب. ثم رد سبحانه على الذين عبدوا المسيح من النصارى بقوله ﴿ماكان لبشر﴾ أى مكان لبشر مخلوق لله أن يؤتيه الله من فضله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون توحيد الله بالعبادة والمراد ماكان جائزًا منه أن يجمع بين أجلّ نعمة وأكبر جريمة: ولكن الذى يصح أن يصدر عنه هو أن يقول للناس كونوا عبادًا لله عز وجل.

كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

﴿ربانيين﴾: الربانى منسوب إلى الرب مباشرة لأنه شديد التمسك بطاعته. ومن أفضل الربانيين العلماء العاملون.

﴿تدرسون﴾: أصل الدرس التكرار، فالمراد تكونون دارسين له فاهمين ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾: المراد بعد ثبوت إسلامكم.

﴿ميثاق النبيين﴾: الميثاق العهد الموثق أى المؤكد من كتاب منزل وحكمة أى علم بأسرار الشريعة.

﴿إصرى﴾: عهدى. ﴿أسلم﴾: أى خضع وانقاد. ﴿الأسباط﴾ هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، انظر الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

المعنى: ولكن يقول للناس كونوا شديدى التمسك بطاعة الله لتتشرفوا بانتسابكم إليه، ومن أسباب تشرفكم هذا أن تعلموا غيركم مافى الكتاب المنزل على رسولكم، وأن تكثروا دراسته لتفهموه حق الفهم. وقدم التعليم على الفهم مع أنه مؤخر عنه فى الوجود للإشارة إلى كثرة ثواب التعليم؛ لأنه طاعة واصل نفعها للغير. فالمراد أن الوسيلة الصحيحة الموصلة إلى رضا الرب هى علم الكتاب وتعليمه والعمل به، وبدون ذلك لايكون الإنسان ربانيا. ولايأمركم مَنْ آتاه الله الكتاب والحكمة بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا كما تقول العرب الملائكة بنات الله، انظر الآية (١٦) ومابعدها من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩. وكما قال بعض اليهود العزير بن الله، والنصارى قالوا المسيح بن الله، أى وابن الرب لابد أن يكون ربا مثله. هل يصح

---

(١) ربانيين. (٢) الكتاب. (٣) الملائكة. (٤) والنبيين. (٥) ميثاق.
(٦) النبيين. (٧) كتاب. (٨) الشاهدين. (٩) الفاسقون. (١٠) السموات.
(١١) إبراهيم. (١٢) وإسماعيل. (١٣) وإسحاق.

أن يأمركم النبى بالكفر بعد إسلامكم بالنطرة التى فطر الله تعالى الناس عليها؟ فالمراد أن الرسول جاء ليحارب مَنْ يفسد فطرة الله لا ليفسدها هو. واذكر حين أخذ الله العهد على النبيين وعلى أممهم بواسطة أنبيائهم مؤكدين العهد على أن الذى أعطيتكم أياه من كتاب وحكمة إذا جاءكم به رسول آخر مصدق للكتاب الذى معكم لتؤمنن بهذا الرسول ولتنصرنه على مَنْ يحاربه. ثم قال تعالى للأنبياء بعد أخذ هذا العهد أأقررتم بهذا العهد وأخذتم على الإيمان بكل رسول يأتى بعدكم وعلى نصرته عهدى على أممكم؟

قال النبيون: أقررنا أى وأخذنا العهد على أممنا، أى قال ذلك كل واحد منهم فى وقته. قال سبحانه: فاشهدوا على أنفسكم وعلى أممكم وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم. وهذا تحذير شديد أنظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧؛ والآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨.

فَمنْ تولى بعد هذا الميثاق المؤكد بأنْ نقضه فلم يؤمن بالرسول الآتى بعد رسوله مؤيدا بالمعجزات فهو فاسق أى خارج عن طاعة ربه، وجزاؤه جهنم خالدًا فيها. ثم بعد هذا البيان يعرض هؤلاء الكفار عن الإيمان فيطلبون دينا غير دين الله الذى ارتضاه لكل الأنبياء وهو الإسلام والحال أنه له سبحانه وحده خضع وانقاد جميع مَنْ فى السموات والأرض من العقلاء طائعين وكارهين، والانقياد كرها هو مايكون من الكافر عند الشدائد كما حصل لفرعون عند الغرق، أنظر الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠. وكما يحصل لكل كافر عند مشاهدة الموت، وعند الشدائد التى لايستطيع الخلاص منها. أنظر الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠ والآية (٣٢) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٣، ٥٤٤. وإليه سبحانه يرجع الجميع يوم القيامة فيجازيهم. وقل لهم أيها النبى أنت وأمتك نحن آمنا بالله وما أنزل علينا من القرآن، وتقدم مثلها فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦، وما أنزل على إبراهيم ومَنْ بعده من الأنبياء، وما أوتى النبيون كداود وسليمان وأيوب وغيرهم وما أنزل الله تعالى على إبراهيم وموسى منه مافصله القرآن.فنؤمن به كذلك كما فى الآية (١٤) إلى آخر سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ والآية (٣٦) ومابعدها من سورة النجم صفحة ٧٠٣، ومنه ماجاء مجملاً فنؤمن به كذلك كما هنا وكما فى الآية (١٣٦) والآية (١٦٣) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٣١.

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ[1] دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[2] ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟
بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ[3] وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ[4]
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[5] ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ
أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[6] وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَٰلِدِينَ[7] فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ[8] ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟
كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم
مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

﴿يبتغ﴾ يطلب. ﴿البينات﴾: الأدلة الظاهرة.

المعنى: وآمنا بما أُوتى النبيون كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، لانفرق فى الإيمان بين أحد منهم كما فرق أهل الكتاب قبلنا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما تقدم فى الآية ﴿٢٨٥﴾ من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢. ونحن لله وحده مستسلمون أى منقادون بإخلاص. ومَنْ يطلب دينا غير الإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء كما تقدم فى الآية (١٩) فلن يقبل منه، ولذا يكون فى الآخرة من الخاسرين لكل خير. كيف يهدى الله قومًا هم أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بأن الذى تنطبق عليه الصفات الموجودة عندهم فى التوراة والإنجيل هو الرسول من عند الله، ولما جاء محمد أقروا فى أنفسهم بأنه صاحب تلك الصفات، وأنه النبى المبشر به فى التوراة والإنجيل، خصوصًا وقد أيد ما فى كتبهم بالمعجزات والأدله القاطعة على صدقه، انظر الآيتين (٨٩، ١٤٦) من سورة البقرة صفحتى ١٧، ٢٨. والله لايهدى القوم الظالمين: لأن استمرارهم على الظلم والجحود يمنعهم من سلوك أسباب الهداية. هؤلاء الذين كفروا بعد علم حسدا، عليهم لعنة الله أى سخطه الموجب لطردهم عن رحمته، وعليهم لعنة الملائكة والناس أجمعين، انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

خالدين فى آثار تلك اللعنه وهى جهنم، لايخفف عنهم العذاب ولا يؤخرون عن دخولها. إلا الذين تابوا من بعد ظلمهم المانع من الهداية، وأصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التى تمحو

---

(١) الإسلام. (٢) الخاسرين. (٣) إيمانهم.
(٤) البينات. (٥) الظالمين. (٦) والملائكة.
(٧) خالدين. (٨) إيمانهم.

آثار الذنوب؛ لأن الله تعالى يغفر لمَنْ تاب. رحيم بفتح باب التوبة للمذنب. إن الذين كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفاته التى فى كتبهم وشهادتهم وإقرارهم بأن صاحبها هو الرسول المنتظر، ثم ازدادوا كفرا بمحاربتهم محمدا وإيذائه والصد عن دينه بالكيد، لن تقبل توبتهم من الذنوب الزائدة على ذنب الكفر لأن الله تعالى لايقبل توبة من كافر عن ذنب مادام على كفره. أما إذا تاب من أصل الكفر ثم أذنب بعد ذلك فإن الله تعالى يقبل توبته، أما ذنوبه التى ارتكبها وهو كافر كالقتل أو غيره فإنه الله تعالى يمحوها بمجرد إيمانه كما فى الآية (٣٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢. وهؤلاء الكافرون الذين ازدادوا كفرًا وماتوا على كفرهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا إذا أمكن أن يملكه، سواء تصدق به لينقذ نفسه، أو افتدى به لمن يمكن أن يأخذه منه ليفديه. انظر الآية (١٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢١.

فهؤلاء ليس لهم إلا العذاب الشديد الألم. فأقسام الكافر هنا ثلاثة: مَنْ يتوب من الكفر توبة مقبولة ويعمل صالحا فهذا يستحق المغفرة والرحمة، والثانى مَنْ يتوب توبة غير مقبوله لأنه يتوب عن ذنب مع البقاء على الكفر فلو تاب عن الكفر أولاً ثم أذنب بعد ذلك وتاب منه فإن الله تعالى يتوب عليه، والثالث مَنْ مات وهو كافر فهذا خالد فى النار نسأل الله تعالى السلامة.

﴿البر﴾: الخير الواسع. ﴿حِلاً﴾: أى حلالاً. انظر ﴿وطعام الذين أُوتوا الكتاب حل لكم﴾ الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦.

﴿إسرائيل﴾: لقب نبى الله يعقوب ثم أطلق على ذريته.

﴿حرم إسرائيل﴾: المراد بإسرائيل هنا هم اليهود من أولاد يعقوب.

ومعنى تحريمهم على أنفسهم أنهم تسببوا بظلمهم فى أن الله حرم عليهم طيبات كانت حلالاً لهم تأديبا لهم.

﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾: متعلق بـ ﴿حَرَّم﴾ بمعنى تسبب فى التحريم.

أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ

﴿حنيفا﴾: المراد بعيدا عن كل باطل ﴿أول بيت﴾: المراد بالبيت الكعبة المشرفه، والأولية زمانية بالنسبة لبيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء. قال صاحب المنار: فليس فى الأرض مكان عبادة بناه الأنبياء أقدم منه. وهذا يستلزم أولية الشرف. ﴿وضع للناس﴾: المراد بناه نبى الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بأمره سبحانه وتعالى ليكون مكان عبادة للناس انظر الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ٢٥. أما بيت المقدس فالذى بناه نبى الله داود وجدده ابنه سليمان عليهما السلام، وكان ذلك بعد عهد إبراهيم عليه السلام بعدة قرون قال ابن كثير: مايروى أن أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام غير صحيح ومنقول من الإسرائيليات.

﴿بكة﴾: قال كثير من العلماء بكة هى مكة.

﴿مباركا﴾: هذا بيان لحال من حالات البيت، وهو أنه مقارن للبركة التى يظهر أثرها فيما يفاض على جيرانه والعابدين حوله من ثمرات الأرض وتجبى إليه خيرات العالم استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿هدى للعالمين﴾: أى مكان عبادة وذكريات صالحة تهدى للسعادة فى الدارين. ﴿آيات بينات﴾: أى دلائل وعلامات ظاهرة على أنه وضع بأمر الله سبحانه وأنه محل تكريمه وأنه سبحانه وعد أهله بالأمان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

(١) ناصرين. (٢)، (٣) إسرائيل. (٤)، (٥) التوراة. (٦) صادقين. (٧) الظالمون. (٨) إبراهيم. (٩) للعالمين. (١٠) آيات. (١١) بينات. (١٢) إبراهيم. (١٣) العالمين. (١٤) الكتاب.

﴿مقام إبراهيم﴾: أطلق مقام إبراهيم على الحَجَر الذى كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع جدارها ثم أطلق على المكان الذى كان إبراهيم عليه السلام يصلى فيه حول الكعبة بجوار هذا الحجر، ولذا قال بعضهم: مقام إبراهيم هنا هو موضع قيامه للصلاة، وأمرنا بالصلاة فيه. انظر الآية (١٢٥) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

قال ابن عباس: الحرم كله مقام إبراهيم.

﴿ومَنْ دخله كان آمنا﴾: المراد مَنْ دخل حرم البيت الذى حرم الله المعاصى فيه، وليس المراد مَنْ دخل فى جوف البيت نفسه، انظر الآية (٥٧) من سورة القصص صفحة ٥١٥. وهذه علامة أيضًا من علامات إكرام الله تعالى لهذا البيت محل اتفاق بين جميع قبائل العرب. قال صاحب تفسير المنار: وليس معنى ذلك أن الخلق تعجز عن إيذاء مَنْ دخل البيت على سبيل خرق العادة بمعنى أنه يكون معجزة، ليس المراد ذلك ولكن المراد أنه تعالى ألهمهم احترام البيت لاعتقادهم نسبته إليه سبحانه وتعالى، وإلى جدهم إبراهيم عليه السلام، وبذلك فلا يُرَدّ أن الحجاج ضرب مَنْ كان بداخله فى أول عهد بنى أمية، لأنه مافعل ذلك مستحلا وإلا كان كافرا، بل فعله وهو يعلم أنه بذلك عصى ربه تبارك وتعالى، وماحمله على ذلك إلا السياسة التى تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد أنه حق، وتُوقِعه فى كثير من المظالم.

المعنى: ومالهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب. ثم بيَّن سبحانه أن علامة الإيمان الصحيح هو الإنفاق فى الخير كما فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. فقال سبحانه: ﴿لن تنالوا البر﴾ أى الخير حتى تنفقوا مما تحبونه. فإن ذلك دليل على أنكم تفضلون ماعند الله. وما تنفقوا من شىء قليل أو كثير محبوب أو غير محبوب فالله تعالى يعلمه ويجازى على حسبه.

وكان اليهود لايكفون عن عرقلة دعوته ﷺ بكل مايظنونه يبلبل الأفكار، فمرة يقولون لو كان محمد على ملة إبراهيم والنبيين كما يدعى لما استحل ما كان محرما عليهم كلحوم الإبل وألبانها. ومرة قالوا إن جميع الأنبياء من إسحاق بن إبراهيم كانوا يصلون إلى بيت المقدس فلو

كان محمد على ماكانوا عليه لما تحول إلى الكعبة. فأبطل سبحانه ذلك بقوله: كل الطعام كان حلالا لبنى يعقوب إلا ماتسببوا فى تحريمه على أنفسهم حيث ظلموا وارتكبوا سيئات كثيرة اقتضت أن يعاقبهم الله تعالى، فأنزل سبحانه فى التوراة تحريم بعض الطيبات كما فى الآية (٥) من سورة النساء صفحة ١٣٦: فكانت جرأتهم المتسببة فى التحريم سابقة نزول التوراة. فقل لهم أيها النبى مقيمًا الحجة عليهم: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فى قولكم إن التحريم كان قبل التوراة لأن جميع المطعومات كانت قبل نزول التوراة حلالاً للجميع بحكم أن الأصل هو الحل فى كل الأشياء والتحريم لايكون إلا بدليل انظر الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧؛ وانظر ماحرمه الله عليهم وسببه فى الآيات (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و(١٦٠، ١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣: فإذا لم تأتوا بالتوراة ثبت كذبكم على الله تعالى. ومن افترى على الله الكذب من بعد مالزمته الحجة فهو ظالم لنفسه بعدم ترك الحسد الموجب للهلاك. فإذا لم يأتوا بالتوراة ولن يأتوا بها فقل لهم تسجيلا لبغيهم: صدق الله فيما أخبر به من عدم تحريم شىء على إسرائيل قبل التوراة. وإذا كان الأمر كذلك وأردتم النجاة فاتبعوا ملة إبراهيم إلخ. تقدم بيانها فى الآية (٦٧) من هذه السورة صفحة ٧٣. فالاتجاه إلى الكعبة اتباع لإبراهيم لا إعراض عن ملته كما تزعمون. مباركًا وهدى فيه فضيلة حسية هى توافر ثمرات الأرض لجيرانه مع أنه فى واد غير ذى زرع، ومعنوية وهى أنه مكان هداية بالحج والصلاة إليه، وفى الحج والصلاة ما لايخفى من أسباب الهداية. وفى هذا البيت أدلة ظاهرة على أنه من صنع الله ومحل تكريمه: منها مقام إبراهيم. ومعرفة جميع قبائل العرب ذلك باليقين دليل على صدق القرآن فى أن إبراهيم هو الذى بناه. ومن أدلة تكريمه أن الذى يدخل فى حرمه يكون آمنا من كل سوء. اتفق على ذلك جميع العرب. فكان الرجل يلقى فيه قاتل أبيه فلا يؤذيه، وحتى الحيوان يغدو ويروح فيه لايمسه أحد بسوء. جرى على ذلك العرب دهورا طويلة إلى يومنا. ومن علامات تكريمه وجوب الحج إليه ليكون اجتماع كبار المسلمين عنده مهيئًا لهم بعد التعاون والتآلف لبحث كل مايعود على الإسلام بالعز وعلى أهله بالسعادة. ومازال الناس يحافظون على ذلك من عهد إبراهيم إلى عهد نبينا محمد عليهما الصلاة

بِآيَاتِ[1] اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ[2] لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ[3] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[4] يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ[5] كَافِرِينَ[6] ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ[7] اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ[8] مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا[9] وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ[10]

والسلام، ولم يمنع العرب من ذلك ماطرأ عليهم من الشرك. ومَنْ كفر أى جحد أن هذا بين الله الذى كرمه بكل ماسبق وأن إبراهيم هو بانيه بعد هذه الأدلة فلا يضر إلا نفسه: لأن الله تعالى غنى عن العالمين جميعا. وهم الفقراء إلى فضله ورحمته. وبعد ما أقام سبحانه الدليل على أن محمدا على ملة إبراهيم أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على إصرارهم على الضلال فقال: قل يأهل الكتاب لم تكفرون أى تصرون على الكفر.

﴿تبغونها عوجا﴾: أى تقصدون بصدكم عنها جعلها معوجة فى نظر الناس. ﴿وأنتم شهداء﴾: أى عالمون من كتبكم ومقرون بأنها حق انظر الآية (٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦.

﴿يعتصم بالله﴾: يتمسك بدينه ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾: هى أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. ﴿واعتصموا بحبل الله﴾: أى تمسكوا بحبل الله المتين الذى هو القرآن. ﴿شفا حفرة﴾: أى طرف حفرة من جهنم، والمراد كنتم قريبين من الوقوع فى جهنم لولا أن تداركم الله بالإسلام وهذا تمثيل للمعنويات بالحسيات كما هو أسلوب العرب عند الترغيب أو التنفير انظر الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، والآية (٣٠) من سورة ق صفحة ٦٩٠.

المعنى: ما الذى يحملكم على الكفر بآيات الله وقرآنه، مع أن الله مطلع على أعمالكم؛ أفلا تخافون عقابه. وقل لهم لم تصدون عن سبيل الله أى تحاولون صرف مَنْ آمن بشبه وتشكيكات

(١) بآيات. (٢) الكتاب. (٣) بغافل. (٤) الكتاب. (٥) إيمانكم.
(٦) كافرين. (٧) آيات. (٨) صراط. (٩) إخوانا. (١٠) آياته.

تقصدون بها جعل سبيل الله معوجة فى نظر مَنْ يغتر بكيدكم، وأنتم تعلمون من كتبكم أنها سبيل الله المستقيم وما الله بغافل عما تعملون من هذا الصد وغيره من جرائمكم وسيحاسبكم عليها. ولم يكف خبثاء اليهود الكيد بالتشكيك فى تحليل بعض الطعام وفى جعل الكعبة قبلة كما تقدم، بل عمدوا إلى نوع آخر ليحبطوا الدعوة المحمدية وهى فى مهدها؛ ذلك أنهم يعلمون أنه كان بين قبائل المسلمين فى الجاهلية فتن وحروب تنابذ فيها الطرفان بالشعر والنثر، فأرادوا إثارة ذكراها لتتقد نار الفتنة من جديد فيتم لهم ما أرادوا، فأرسلوا غلامًا فى مجتمع المسلمين ينشد الشعر الذى قيل أيام تلك الحروب، فأثار هذا الشعر بعض ما كان بين الأوس والخزرج أكبر قبائل الأنصار من كره وعداوة، وكادوا يقتتلون، فأدركهم النبى ﷺ وحال بينهم وقال: أترجعون إلى غلظة الجاهلية وأنا مازلت بينكم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وألف بين قلوبكم؟ وعند ذلك أدرك الجميع أنها نزعة شيطانية فبكوا وعانق بعضهم بعضًا. فأنزل الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب﴾ يقصد خبثاء اليهود، يردوكم بعد إيمانكم إلى الكفر. وكيف تكفرون أى لايصح ذلك وأنتم تتلى عليكم آيات الله من القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع من خشية الله.

وأيضًا حاضر بينكم رسول الله يزيل شبهاتكم ويرسم لكم طريق خلاصكم، ومَنْ يتمسك بدين الله فقد هدى إلى طريق مستقيم موصل لدار النعيم. يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقواه، وحافظوا على إسلامكم فى كل لحظة حتى لايفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون. وتمسكوا بالقرآن الذى هو حبل الله المتين، ولاتعملوا ما فيه تفرقكم شيعا وأحزابًا، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. وتذكروا نعمة الله عليكم إذ كنت فى الجاهلية أعداء فألف بين قلوبكم بالإسلام فأصبحتم ببركة نعمته تعالى إخوانا متحابين. واذكروا أنكم كنتم بسبب كفركم على طرف حفرة من نار جهنم، أى ليس بينكم وبين الوقوع فى جهنم إلا الموت على الكفر فأنقذكم الله منها بالإيمان، كهذا البيان البديع يبيّن الله لكم دائمًا دلائل طرق الخير.

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ[1] وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ[2] فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[3] ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ[4] اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ[5] ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[6] وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ

﴿أمة﴾: جماعة. ﴿يدعون﴾: المراد يطلبون الناس إلى عمل الخير، سواء كان الطلب بالأمر أو النهى و ﴿الخير﴾ هو كل عمل فيه صلاح الدين أو الدنيا. ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾: من عطف المفصل على المجمل، وهو له وقع على النفوس أقوى من الاقتصار على المفصل وحده، و ﴿المعروف﴾ هو العمل المعروف نفعه شرعًا وعقلاً من كل ما فيه صلاح الدين والدنيا. و﴿المنكر﴾ هو كل ما تنكره الشريعة والعقول السليمة من كل مافيه مفسدة وإضرار بالنفس أو الغير.

﴿ففى رحمة الله﴾: أى فى الجنة التى هى أثر رحمة الله.

﴿كنتم خير أمة﴾: أوجدكم الله خير أمة... إلخ.

المعنى: لعلكم تهتدون إلى الخير وتجتنبون الشر. ولتكن منكم إلخ: المراد يجب أن تكونوا كلكم أمة من خصائص أفرادها أنهم يدعون.. إلخ. فالكلام من قبيل قولهم: ليكن لى منك صديق حميم. وبهذا تتفق الآية مع الآية (١١٠) الآتية قريبا وكذا مع غيرها أنظر الآيات (٧٨، ٧٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٢، ١٥٣ و(٤١) من سورة الحج ٤٣٩. لكن بشرط أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وكل هذا فى الأمور المعلومة لكل الناس. أما ما قد يخفى على غير الفقهاء فى الدين فلا يتصدى للأمر به والنهى عنه إلا الخبير به الذى يستطيع استنباط الصواب أنظر الآية (٨٣) من سورة النساء صفحة ١١٥. والخير كل ما فيه سعادة الدارين.

(١) البينات. (٢) إيمانكم. (٣) خالدون. (٤) آيات. (٥) للعالمين. (٦) السموات.

ثم بيّن سبحانه كيف تكون الدعوة إليه فقال: يأمرون بالمعروف وهو كل ما فيه طاعة، وينهون عن المنكر وهو كل مافيه معصية. ومن يفعل ذلك ضمن الفلاح أى الفوز بالسعادة. ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا شيعا يعادى بعضهم بعضا، واختلفوا فى الدين يكفر بعضهم بعضا. من بعد ماجاءهم البينات والبراهين الموجبة للاتفاق على الحق، انظر الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ والآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦. وأولئك المختلفون لهم عذاب عظيم.

واذكر لهم يوم القيامة وأهواله حين تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين. فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم توبيخا: أكفرتم بعد أن خلقكم الله مؤمنين به بالفطرة فأفسدها إهمالكم والتأمل فى الأدلة وافتتانكم بالدنيا فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم فيدخلون فى آثار رحمة الله وهى الجنة خالدين فيها.

تلك آيات الله التى جاءت فى وعد المؤمنين ووعيد الكافرين نتلوها عليك أيها النبى مصحوبة بالحق، فلن يتخلف شئ مما فيها، وما الله يريد ظلما لأحد، بأن يعذب مَنْ لايستحق أو ينقص أجر المستحق. ولله كل مافى السموات والأرض خلقا وملكا، الكل فى قبضة قدرته تعالى، وإليه سبحانه ترجع كل الأمور فى النهاية، فيجازى كل مكلف بما يستحقه. كنتم خير أمة إلخ: أى وجدتم الآن على أنكم خير أمة، لأن جميع الأمم فى ذلك الحين غلب عليها الفساد. ثم بيّن وجه الخيرية بقوله: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله على الوجه الصواب. وإذا كان كل الأمم أمرها الله على لسان أنبيائها أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فما وجه خيرية هذه الأمة على غيرها؟ الجواب أن هذه الأمة أمرت بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل الطرق الممكنة باليد واللسان والقلب بلا هوادة حتى ولو أدّى ذلك إلى القتال انظر الآيتين (٧٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٣ و (٩) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٥، ٦٨٦. وهذا مالم يكن فى الأمم الماضية. وعلى ذلك تكون الأمة التى تفرط فى القيام بهذا الواجب الذى ميزها على غيرها قد فقدت خاصيتها وعرضت نفسها لغضب الله سبحانة وتعالى، انظر ماحل بمنْ فرطوا فى ذلك فى الآيات (١٦٣ ـ ١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠.

أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم(١) مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ(٢) ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ(٣) يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ(٤) ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ(٥) أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ(٦) ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ(٧) وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ(٨) فِى ٱلْخَيْرَٰتِ(٩) وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(١٠) ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾: أى لن يلحقوا بكم ضررا إلا أذى بلسان من سب أو تهديد كاذب.
﴿ضربت عليهم الذلة﴾: أصله من ضرب الخيمة على الشيء فتحيط به؛ أى أحاطت بهم الذلة من كل جانب.

﴿أينما ثقفوا﴾: فى أى مكان وجدوا فيه.
﴿إلا بحبل من الله﴾: إلا إذا عصمهم عهد من الله لهم بعدم إيذائهم إذا دفعوا الجزية.
﴿حبل من الناس﴾: إذا عقدوا معهم عهدا على أن لايضر بعضهم بعضًا كما فعل ﷺ معهم بالمدينة، ولكنهم على عادتهم نقضوه فحاربهم.

﴿باءوا﴾: رجعوا. ﴿المسكنة﴾: الاستكانة والخضوع والمهانة. ﴿أمة﴾: جماعة.

﴿قائمة﴾: مستقيمة من قولهم قام العود إذا استقام.

﴿آناء الليل﴾: جمع إنْو بكسر فسكون بمعنى جزء. ﴿فلن يكفروه﴾: أى فلن يجحدوا جزاءه بأن يحرموا منه.

المعنى: لو آمن اليهود والنصارى مثل إيمانكم لكان خيرا لهم لما فيه من السعادة الخالدة. من أهل الكتاب مؤمنون بحق كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشى وأصحابه من النصارى، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن الدين الخالص.

---

(١) الكتاب. (٢) الفاسقون. (٣) يقاتلو كم.
(٤) بآيات. (٥) الكتاب. (٦) آيات.
(٧) الليل. (٨) ويسارعون. (٩) الخيرات.
(١٠) الصالحين.

ولما كانت الكثرة الفاسقة ربما تزعج المؤمنين قال سبحانه مطمئنا أصحابه ﷺ: لن يضروكم بشىء يخيفكم. لأنه لايكون إلا أذى بلسان مَنْ سب كما يفعل السفهاء الجبناء، لأنهم إن تعدوا ذلك وقاتلوكم يعطوكم ظهورهم منهزمين مغلوبين فلا تخشوا بأسهم، ولايجدون مَنْ ينصرهم عليكم. ولزمهم الذل وأحاط بهم فى أى مكان وجدوا فيه، إلا فى حال اعتصامهم بعهد من الله للمؤمنين بعدم إيذائهم إذا دفعوا الجزية، وعهد من الناس الذين يعيشون معهم بأن لايضر بعضهم بعضا. ولكن لسوء طبائعهم لايحافظون على عهد، وماتقدم فى أوائل البقرة خير شاهد على ذلك: ولهذا قال: ورجعوا بغضب من الله. أى استحقوه لنقضهم العهود، وضربت عليهم المسكنة، أى الاستكانة والمهانة. ذلك المذكور من ضرب الذل والغضب بسبب استمرارهم على الكفر بالأدلة التى أقامها الله تعالى على الحق وقتلهم أنبياءهم. ذلك الكفر والقتل بسبب تعودهم مداوَمة المعصية والعدوان كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢.

ثم أنصف الصالحين منهم بقوله ﴿ليسوا سواء﴾: أى أن أهل الكتاب ليسوا متساوين فى منازعتهم وأفعالهم، بل منهم طائفة مستقيمة لاتنحرف عن الحق، يتلون القرآن فى ساعات الليل وهم يصلون، كعبد الله بن سلام وأصحابه،ومَنْ أسلم من نصارى نجران والحبشة، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبادرون فى عمل الخيرات خشية الفوات، وهؤلاء عند الله من الصالحين. ومايفعلوه من خير فلن يجحدوا جزاءه ويحرموه، بل يثابون عليه، والله عليم بالمتقين فيجازيهم على قدر تقواهم.

﴿فيها صر﴾: هو البرد الشديد الذى يجفف النبات كأنه حرقه بالنار.

﴿حرث قوم﴾: الحرث الزرع. ﴿بطانة من دونكم﴾: بطانة الرجل خاصته الذين يطلعون على باطنه.

﴿لايألونكم خبالا﴾: يألون:

كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ[1] وَلَا أَوْلَادُهُم[2] مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ[3] النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[4] ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ[5] الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ[6] وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ[7] إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ[8] كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

يقصرون قال القاموس: الخبال فى الأصل الذى يلحق الإنسان فيورثه اضطرابًا كالمرض والجنون ويستعمل فى كل شىء يصيب الإنسان والمراد لايقصرون بل يجتهدون فى إفساد الأمر عليكم. ﴿ودوا﴾: أحبوا. ﴿ماعنتم﴾: العنت: شدة الضرر والمشقة.

﴿بالكتاب كله﴾: المراد بالكتاب الجنس فيشمل كل كتب الله كالتوراة والإنجيل.

﴿عضوا عليكم الأنامل﴾: أى أطراف الأصابع. والكلام كناية عن شدة الغيظ.

﴿تمسسكم حسنة﴾: أى تأتيكم نعمة من الله كنصر فى حرب أو غنيمة.

المعنى: إن الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم بالفداء ولا أولادهم بالاستعانة بهم من عذاب الله شيئاً ولو قليلاً، فعاقبتهم مصاحبة النار خالدين فيها، ومثل المال الذى ينفقونه فى شهواتهم ومحاربتهم له ﷺ كمثل ريح شديدة البرودة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى فأهلكته: فالمال الذى أنفقوه فيما ذكر هو الذى أفسد فطرهم واتلف عقولهم فلم تفكر فى العواقب، فالمال كالريح والفطركالزرع. وماظلمهم الله بإتلاف ماتلف ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أسبابه.

(١) أموالهم.
(٢) أولادهم.
(٣) أصحاب.
(٤) خالدون.
(٥) الحياة.
(٦) أفواههم.
(٧) الآيات.
(٨) بالكتاب.

ونزل فى رجال من المسلمين كانوا يوالون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من قرابة أو جوار أو محالفة فى الجاهلية، ولما كان فى المبالغة فى هذه الموالاة خطر على سلامة المسلمين، حذر سبحانه منها فقال: ﴿لاتتخذوا بطانة من دونكم﴾ أى غير أبناء ملتكم المؤمنين. ثم وصف البطانة المنهى عنها بأنهم لايقصرون فى إفساد أمركم، وأنهم يحبون ويتمنون ضرركم، وقد ظهرت علامات بغضهم لكم من كلامهم، فهى لشدتها عندهم يصعب عليهم إخفاؤها، وماتخفيه صدورهم من البغض لكم أقوى وأشد مما يفلت من ألسنتهم.

قد بينا لكم العلامات الفارقة بين مَنْ يصح أن يكون من خاصتكم وبين مَنْ لايصح إن كنتم تعقلون، فاعتبروا ولا تأمنوا على أسراركم خصوصا الحربية مَنْ كان من هذا النوع. وقد تقدم فى الآيتين (٢٨، ٢٩) من هذه السورة صفحة ٦٧ شرح أوفى لهذا الموضوع.

ونزل فى اليهود المنافقين قوله: هاأنتم هؤلاء تحبونهم لقرابة أو صداقة ولا يحبونكم لشدة تعصبهم لدينهم الباطل، فلا يصح أن يكونوا فى باطلهم أحرص منكم على حقكم، وأنتم تؤمنون بكل كتب الله المنزلة وهم لايؤمنون بشىء من كتابكم، وإذا لقوكم قالوا آمنا معكم ليغرروا بكم، وإذا خلوا أى فارقوكم وخلا بعضهم إلى بعض عضوا أطراف أصابعهم من شدة غيظهم منكم وعجزهم عن إهلاككم؛ قل لهم: استمروا على غيظكم إلى الموت فلن تروا مايسركم أبدا، انظر الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، إنه عليم بما فى صدوركم من الغيظ الذى تحاولون إخفاءه، فلا يمكنكم من إضرار عباده المخلصين. وبلغ من شدة بغضهم لكم أن الحسنة التى تأتيكم من الله كنصر أو غنيمة أو كثرة مَنْ يدخل معكم فى دينكم تحزنهم، وإن تصبكم سيئة كهزيمة أو جدب أو شدة يفرحوا بها، فهم بالغو النهاية فى عداوتكم، فكيف توالونهم وتصافونهم.

﴿غدوت﴾: أى خرجت من بيت أهلك غدوة أى أول النهار.

﴿تبوئ﴾: أى تنزل وترتب. ﴿مقاعد للقتال﴾: أى مواطن للحرب، بأن قسمتهم إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة.

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ

﴿طائفتان منكم﴾: هما حيان من الأنصار بنو سلمة وبنوحارثة.

﴿من فورهم هذا﴾: أى من ساعتهم هذه بدون إبطاء.

﴿مسومين﴾: مغيرين من قولهم سوم على القوم إذا أغار عليهم وفتك بهم.

﴿ليقطع طرفا﴾: متعلق بالنصر المفهوم من قوله ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أى ومابنصركم الله إلا ليقطع طرفا... ومعنى القطع هنا الإهلاك ومعنى الطرف هنا أشرافهم، وذلك لأن من شأن الأشراف ألا يكونوا فى المقدمة، فالمعنى ليهلك صناديد الكفر. وقال بعض المفسرين إن المراد من الطرف هنا الطائفة الأقرب إلى المسلمين فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ الآية (١٢٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٦٣، ٢٦٤.

﴿أو يكبتهم﴾: أى يخزيهم ويذلهم انظر الآية (٥) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٥. وأصل الكبت الغيظ والغم.

المعنى: إن تصبروا على ما أمركم الله من الحذر منهم وتتقوا الله فى موالاتهم وغيرها لايضركم كيدهم شيئًا ولو قليلاً. لأنه محيط بما يحاولون من كيد، فلا يعجزه رد كيدهم. ثم أراد سبحانه أن يذكر المسلمين بحادثتين عظيمتين، هما واقعتا أحد وبدر، وذكر فى ذلك نحو الستين آية من (١٢١) إلى ١٧٩. وسبب غزوة أحد أن المشركين لما انكسروا فى بدر اشتد غيظهم، فخرج أبو سفيان بن حرب من مكة فى شوال من السنة الثالثة فى نحو ثلاثة آلاف

(١) مقاعد. (٢) بثلاثة. (٣) آلاف.
(٤) الملائكة. (٥) الاف. (٦) الملائكة.

مقاتل. ولما علم ﷺ بذلك خرج فى ألف من أصحابه لملاقاة الكفار عند أُحُد فى شمال المدينة، وفى منتصف الطريق رجع عبد الله بن أبى كبير المنافقين بثلث الجيش بدعوى أنه ﷺ لم يأخذ رأيه فى القتال، وكادت تحدث بذلك فتنة فى جيش المسلمين لولا فضل الله تعالى، كما سيأتى بيانه، وماسيأتى فى الآية (١٥٤) صفحة ٨٨ يدل على أن بعض المنافقين بقى فى الجيش ولم يرجع مع عبد الله بن أبى ابن سلول ولما كانت هذه الغزوة من الغزوات المهمة المليئة بالعبر، ولايتسع المقام هنا لإيفائها حقها، نحيل مَنْ أراد المزيد على شرح حديث ٤٧٩ من كتابنا صفوة البخارى، ليجد هناك كل ماحصل. واذكر لهم أيها النبى حين غدوت من أهلك ترتب المؤمنين فى مواطن القتال. والله سميع لكل ماقلته لهم، عليم بما سيكون من أسباب فشلكم.

واذكر أيضًا حين همت طائفتان منكم أن تفشلا بالجبن والضعف والرجوع مع عبد الله بن أبى عندما رجع بثلث الجيش من وسط الطريق، ولما كانوا صادقى الإيمان ولم يكونوا منافقين كعبد الله تولى الله سبحانه صرف الفشل عنهم وثبتهم، وعلى الله يتوكل المؤمن بعد أخذ العدة ولايخاف شيئًا. وذكرهم أيضًا بنصره سبحانه لهم ببدر لصدق إيمانهم وحسن طاعتهم، وكانوا أذلة.. وأذلة جمع ذليل وأصله الخاضع لقهر مَنْ هو أقوى منه، وهذا ليس مراد هنا بل المراد هنا قليلو العدد ضعفاء فى العدة. لقلتهم وكثرة عدوهم، كما سيأتى فى الأنفال، فاتقوا الله ولاتخالفوا رسوله لعلكم تشكرونه على نصركم. تبوئ المؤمنين مواطن القتال حين تقول لهم بعد أن همّ بعضهم بالفشل:

أليس يكفيكم أن يساعدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لتطمئن قلوبكم. بلى أى بل يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ثم وعدهم بزيادته فقال إن تصبروا وتتقوا مخالفة الرسول ويأتيكم الكفار بسرعة يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مرسلين منه لتقويتكم.

وماجعل الله إمداد الملائكة إلا بشرى لكم بأنكم ستنصرون ولتطمئن قلوبكم فلا تهابوا كثرة العدو. وما النصر إلا من عند الله يؤتيه الغالب الحكيم فى منحه لمن يستحقه بالصبر والتقوى. يمددكم ربكم بالملائكة إذا صبرتم واتقيتم مخالفة الرسول، ليهلك بعضا من أعدائكم

فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

أو يغيظهم ويذلهم أو المراد يهلك بعضا ويذل بعضا. واختار إمام المفسرين ابن جرير أن المسلمين لم يمدوا بالملائكة فى غزوة أحد لأنهم لو أمدوا لما انهزموا، ولأن الوعد بالإمداد كان مشروطا بأمرين: الصبر والتقوى، هما لم يحصلا من المسلمين فى أُحد، فلذا نكبوا بأشد نكبة كما سيأتى.

﴿أضعافا مضاعفة﴾: كان المدين فى الجاهلية يقول للدائن إذا حل أجل الدين: أجّل الطلب وأزيدك، وبطول الزمن يتضاعف رأس المال عدة مرات. فهذا هو الربا المضاعف. وجاءت بعد ذلك الآية (٢٧٥) من سورة البقرة صفحتى ٥٨، ٥٩ تنهى عن الربا مطلقا.

﴿السراء والضراء﴾: اليسر والعسر.

المعنى: فيرجعوا خائبين. ولما وقع ﷺ فى الحفرة التى أعدها له الكفار، وكسرت سنه وجرحت وجنته، غضب وقال: اللهم العن أبا سفيان بن حرب، اللهم العن فلانا وفلانا، لأناس سماهم من زعماء المشركين، فنزل قوله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ أى ليس لك أيها النبى من أمر خلقى شىء من التصرف فيهم إلا أن تبلغهم شرعى، أما مجازاتهم على أعمالهم فلى وحدى أحكم فيها كيف أشاء ﴿أو يتوب عليهم﴾ مرتبط بقوله قبل ﴿أويكبتهم﴾ والأصل ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليه أو يعذبهم بسبب ظلمهم، فليس لك من الأمر شىء فى ذلك.

---

(١) ظالمون. (٢) السموات. (٣) الربا. (٤)، (٥) أضعافا مضاعفة. (٦) للكافرين.
(٧) السموات. (٨) والكاظمين. (٩) فاحشة.

ولكنه سبحانه عجل بنهيه ﷺ عن لعن أناس معينين للتنبيه على خطورة تعجل الإنسان على ماليس له به علم خصوصا فى الأمور الخطيرة كلعن شخص معين ربما يكون أراد الله له الهداية، وقد حصل فعلا أن كل من دعا عليهم ﷺ فى هذا اليوم تابوا وصاروا من كبار أصحابه. فسبحان مَنْ استأثر بعلم الغيب وحده ثم أكد سبحانه عموم سلطانه بقوله﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ إلخ، أى كل ما فيهما خلقه وعبيده، يغفر لِمَنْ يشاء منهم إذا علم سلامة فطرته، ويعذب مَنْ يشاء إذا علم إصراره على المعصية. ولما كانت العبر فى الحوادث الجسام تفتح القلوب لتلقى الأوامر بقبول وإذعان، جرت سنة الله تعالى فى القرآن أن يمزج القصص بالأحكام، فقال محذرا من شر أمراض المجتمع، وهو الربا الذى يقسى القلوب على المحتاج ويعودها عدم الصدقة، ولذا لا تجده مذكورا فى القرآن بالذم إلا بجانبه الحث على الصدقة، كما هنا وكما فى الآية (٢٧٦) من سورة البقرة ٥٩؛ والآية (٣٩) من سورة الروم صفحتى ٥٣٥، ٥٣٦، فقال تعالى: لاتأكلوا الربا المخرب للبيوت، واتقوا النار التى أعدها الله تعالى للكافرين. قال أبو حنيفة رضى الله عنه: هذه أخوف آية فى القرآن. هدد الله بها المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إذا لم يتقوه ويجتنبوا ماحرمه عليهم.

ثم بين سبحانه طريق تقواه بقوله: واطيعوا الله إلخ، وسارعوا إلى أسباب مغفرة ربكم، بأن تسارعوا إلى التوبة من كل ذنب كالربا، وبأن تقبلوا على عمل الخيرات كالصدقات، وهذه هى أسباب دخوله الجنة الواسعة جدا التى لايعلم مداها إلا الله سبحانه، لأن عرضها إذا كان كعرض السموات السبع والأراضين السبع متجاورة ممتدة فكم يكون طولها؟ هذه الجنة أعدها الله تعالى للمتقين الموصوفين بالصفات الخمس الآتية:

الأولى: ينفقون فى حال اليسر والعسر فى كل حالة بما يناسبها، كما قال ﷺ (اتق النار ولو بشق تمرة). وذلك ليبقى قلب المؤمن مملوءا بالرحمة ولايتعود البخل.

الثانية: كظم الغيظ بأن يخفوه بالصبر ولايظهر أثره.

الثالثة: العفو أى التجاوز عن إساءة المسىء وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، فهى مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ.

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ(١) تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ(٢) خَـٰلِدِينَ(٣) فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ(٤) ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ(٥) ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ(٦) ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ(٧) ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟(٨) مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ(٩) ﴿١٤٢﴾

(١) وجنات. (٢) الأنهار. (٣) خالدين.
(٤) العاملين. (٥) عاقبة. (٦) الظالمين.
(٧) الكافرين. (٨) جاهدوا. (٩) الصابرين.

الرابعة: وهى أعلى مما قبلها هى الاحسان إلى المسىء. ولهذا جاءت هذه الصفة بأسلوب مخالف لما قبلها ومابعدها.

وإذا لاحظت ما تقدم من دعائه ﷺ على بعض المشركين لما آذوه تفهم حكمة ذكر هذه الصفات فى هذا المقام.

الخامسة: أنهم إذا فعلوا خطيئة كبيرة كالزنا أو ظلموا أنفسهم بذنب صغير تذكروا بقلوبهم فطلبوا مغفرته تعالى لذنوبهم. كما فى الآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥. موقنين أنه لايغفر الذنوب غيره تعالى.

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾: أى مضت من قبل وجودكم طرق فى تصرفه سبحانه فى ملكه اقتضاها نظامه تعالى فى خلقه من نصر أصحاب الحق وإهلاك الظالمين. ﴿ولاتهنوا﴾: ولاتضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من هزيمة.

﴿وأنتم الأعلون﴾: أى المتازون بأن قتالكم لله عز وجل، وقتال أعدائكم للشيطان. وقتلاكم فى الجنة، وقتلاهم فى النار. ﴿إن يمسسكم قرح﴾: أى إن يصبكم جراح وقتل.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾: أى يكرم بعضكم بالاستشهاد فى سبيله، ويكون منكم مَنْ يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة، كما تقدم فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾: أى يخلصهم من كل عيب ويطهرهم. ﴿ويمحق﴾: أى يهلك. ﴿أم حسبتم﴾: أى هل ظننتم أن تدخلوا الجنة ولم يتبين مَنْ جاهدوا حق الجهاد، ويتبين الصابرون

الذين لاتفزعهم الشدائد. وتقدم مثل هذا التركيب فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

المعنى: ولم يديموا العزم على الذنب لأنهم يعلمون أن الله تعالى نهى عن الإصرار واعتبره من صفات الكفار، كما فى الآية (٤٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥. أولئك الموصوفون بالصفات الخمس جزاؤهم من ربهم مغفرة لذنوبهم، وجنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، ونعم أجر العاملين كما أمرهم الله. ثم رجع سبحانه للكلام عن غزوة أحد مذكرا بأن سنته نصر المتقين وخذلان المخالفين، فقال تعالى: ﴿قد خلت﴾ أى مضت من قبلكم عاداتنا مع أمم، فسيروا فى الأرض فانظروا عاقبة المكذبين، وكيف هلكوا.

هذا الذى تلوته عليكم من الإرشاد الإلهى بيان للناس جميعا، وهدى من الضلال، وتذكير وعظة للمتقين، لأنهم هم الذين ينتفعون بالتذكير، كما فى الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦. ولاتضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من هزيمة، ولاتحزنوا على مَنْ قتل منكم، وكان النبى ﷺ حزن حزنا شديدا على قتل عمه حمزه رضى الله عنه فى هذه الموقعة وأنتم المتازون عن خصومكم فى أمور كثيرة، منها أنكم فى النهاية غالبون، كما فى الآية (١٧٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦؛ وإن كنتم مؤمنين، فلا يجوز أن يحصل منكم شىء من ذلك، لأن الإيمان يوجب الثقة بالله.

ثم بين سبحانه بعض أسباب عدم الحزن فقال: إن كان أصابكم فى أحد قتل أو جراح فقد أصاب خصومكم مثله يوم بدر ومع ذلك لم يضعفوا مع أنهم على باطل فكيف وأنتم على الحق.

وتلك الأيام أى أيام النصر نجعلها بين الناس مداولة لهذا تارة وذاك أخرى لحكمة نعلمها، وفى النهاية تكون العاقبة للمتقين. وأشار سبحانه لبعض هذه الحكم فقال: وليعلم الله علم ظهور وتحقق الذين قاتلوا عن إيمان والذين نافقوا، وليتخذ منكم شهداء مكرمين عند الله ويشهدون على غيرهم يوم القيامة. والله لايحب الظالمين الذين يحاربون الحق.

ومَنْ يكرهه الله عز وجل فلابد من خذلانه. وأيضًا فعل سبحانه ماتقدم ليمحص ويصفى من العيوب الذين أخلصوا فى إيمانهم، ويهلك الكافرين لبغيهم. ثم خاطب كل مَنْ حضروا

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا

واقعة أُحد بقوله ﴿أم حسبتم﴾ إلخ؛ أى هل تظنون أنكم تدخلون الجنة ولم يتبين مَنْ جاهدوا حق الجهاد ولم يخالفوا أوامر رسولهم وقائدهم، ويتبين الصابرون الذين لاتفزعهم الشدائد. فمحصل المعنى كما فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢: هل ظننتم كما يظن المغرورون أن تدخلوا الجنة وأنتم إلى الآن لم تجاهدوا حق الجهاد، ولم يتمكن الصبر من نفوسكم والجنة لاتنال إلا بهما.

﴿خلت﴾: مضت. ﴿أفإن مات﴾: كما مات قبله كثير من إخوانه الأنبياء ﴿أو قتل﴾: كما قتل قبله بعض إخوانه من رسل بنى إسرائيل انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧.

﴿انقلبتم على أعقابكم﴾: أى رددتم إلى الكفر. ﴿وما كان لنفس أن تموت إلخ﴾: ما: نافيه و: كان: من الأفعال التى تدخل على جملة المبتدأ والخبر فتبقى رفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها. و: أن: فى ﴿أن تموت﴾ حرف يجعل الفعل المذكور بعده فى قوة المصدر، وهذا المصدر هو اسم كان مقدم على خبرها، وخبرها هو ﴿لنفس﴾، و ﴿إذن الله﴾ مراد به هنا مشيئته. والمعنى التحليلى للتركيب: وما كان الموت حاصلاً لنفس مطلقا بسبب من الأسباب إلا بسبب واحد هو مشيئة الله تعالى؛ والمعنى المراد: أنه يستحيل أن يموت مخلوق من الأحياء إلا إذا أراد الله ذلك؛ واعلم أن هذه الصيغة وردت فى القرآن فى سبعة مواضع، ويدور المراد من مضمونها على ثلاثة معان: الأول إفادة أن الفعل المذكور فى خبر كان

(١) أعقابكم. (٢) الشاكرين. (٣) كتابا. (٤) الشاكرين.
(٥) قاتل. (٦) الصابرين. (٧) الكافرين. (٨) فآتاهم.

لاينبغى أن يكون، مع أنه ممكن فى ذاته عقلا كما فى قوله تعالى ﴿وما كان لنبى أن يغل إلخ﴾ الآية (١٦١) من سورة آل عمران صفحتى ٨٩، ٩٠.

والثانى: إفادة أن هذا الفعل مستحيل عقلا كما فى قوله تعالى ﴿وما كان لله أن يتخذ من ولد إلخ﴾ الآية (٣٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٩. وقوله ﴿ماكان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١.

والثالث: إفادة النهى عن هذا الفعل كما فى ﴿وما كان لنبى أن يكون له أسرى إلخ﴾ الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ وقوله ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إلخ﴾ الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١. وقوله تعالى ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله إلخ﴾ الآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩. وما معنا هنا فى هذه الآية من القسم الثانى.

﴿كتابا مؤجلا﴾: أى كتب الله الموت على كل نفس كتابا ذا أجل محدود لا تتعداه. ﴿وكأى من نبى﴾: كلمة تفيد التكثير أى كثير من الأنبياء. ﴿ربيون﴾: هم الربانيون المتقدمون فى الآية (٧٩) من هذه السورة صفحتى ٧٥، ٧٦. ﴿فما وهنوا﴾: أى فما ضعفوا ولا فتروا عن القتال مع نبيهم. ﴿وما استكانوا﴾: وما خضعوا لعدوهم. ﴿إسرافنا فى أمرنا﴾: أى تجاوزنا حدود ما شرعته لنا.

المعنى: أن النبى ﷺ استشار أصحابه عندما علم بخروج قريش من مكة أيخرج لملاقاتهم خارج المدينة عند أُحد أم يبقى بالمدينة، فرأى عبد الله بن أُبى ومن معه عدم الخروج من المدينة، وكان ﷺ أميل إلى هذا الرأى، ورأى كثير من شباب المسلمين الخروج، وتبعتهم الكثرة من الصحابة، ولما خرجوا وهزم المسلمين كما سيأتى خاطب سبحانه هذه الكثرة التى رأت الخروج للقتال بقوله: ولقد كنتم تمنون الموت لتنالوا الشهادة أو الغنيمة كما حصل لأهل بدر. فقد رأيتم أسبابه وهو شدة الحرب وأنتم تنظرون إليها نظرة فاحصة لاعابرة غير مقصودة. وذلك أن الإنسان قد يرى شيئًا لكنه لاشتغال قلبه بشىء آخر لايتنبه له، فهذه الجملة مؤكدة لما

قبلها، فلم انهزمتم وقد رأيتم ماطلبتم؟ ولما هجم المشركون عليه ﷺ بعد فرار أصحابه وركزوا سهامهم نحوه ولم يكن حوله سوى عشرة قتل أكثرهم، ظن الكفار أنه ﷺ قد قتل، فنادوا فرحين: قُتل محمد. فاشتدت هزيمة المسلمين وفروا، قال سبحانه فى لوم هؤلاء: وما محمد إلا رسول قد مضت من قبله الرسل، واستمر أنصارهم محافظين على دين أنبيائهم. فهل يصح إذا مات محمد أو قتل أن ترجعوا أنتم كفارا، ومن يرجع منكم إلى الكفر ويجبن عن قتال الكفار فلن يضر الله شيئًا وإنما يضر نفسه، لأن الله تعالى غنى عنكم وقادر على أن يخلق خيرا منكم، وسيجزى الله بالعز الشاكرين لنعمه بالثبات والصبر عند الشدائد.

مستحيل أن تموت نفس إلا بمشيئة الله فى أجل محدد، فلم فررتم والفرار لايدفع الموت والثبات لايقطع العمر، ثم أراد سبحانه أن يلوم الذين شغلتهم المغانم فتركوا مواقعهم كما تقدم فتسببوا فى هزيمة المسلمين فقال (من كان يريد ثواب الدنيا ... إلخ﴾ أى أن مَنْ يريد بعمله من قتال وغيره حظ الدنيا أعطاه الله تعالى شيئًا منه، ومَنْ قصد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله سبحانه ثوابها، لأن الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ﴿أى فثوابه على الله﴾ ومَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه. وقد تقدم فى الآيتين (٢٠١، ٢٠٢) من سورة البقرة صفحة ٤٠. إن المؤمن الذى يطلب بعمله ثواب الدنيا والآخرة يعطه الله تعالى ثوابهما.

وسيجزى الله الشاكرين لنعمه بالثبات مع نبيه والدفاع عن دينه. ثم ضرب سبحانه لهم المثل بالصابرين من الأمم قبلهم فقال: وكثير من الأنبياء قاتل معه ربيون كثير، أى جمع كثير من المؤمنين، المخلصين. فما ضعفوا عن القتال، وماخضعوا لعدوهم. والله يحب الصابرين على البلاء فيجازيهم بالنصر والثواب العظيم.

وما كان قول هؤلاء الربيين عند ملاقاة عدوهم إلا قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا، فهمًا منهم بأنه لا مصيبة إلا بذنب. كما فى الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٣٤، وتجاوزنا حدودنا. وثبت أقدامنا عند القتال، وانصرنا على الكافرين بك المحاربين لرسلك فآتاهم الله ثواب الدنيا بالنصر والغنيمة.

﴿حسن ثواب﴾: من إضافة الصفة لموصوفها أى الثواب الحسن فى الآخرة كقولهم ﴿جميل الصبر﴾ أى الصبر الجميل.

﴿سلطانا﴾: برهانا.

﴿مأواهم﴾: أى المكان الذى يأوون إليه فى الآخرة. ﴿بئس مثوى﴾: أى قبحت النار محل إقامة.

وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

﴿تحسونهم بإذنه﴾: أى تقتلونهم قتلا ذريعا بتيسيره سبحانه وتعالى. قال الراغب: أصله من قولهم حَسَسْتُ فلانًا أى أصبت حاسة من حواسه إصابة قاتلة. ومن قولهم كبدت فلانا أى أصبت كبده. ﴿صرفكم عنهم﴾: أى شغلكم عن قتالهم بمنع معونته لكم. ﴿ليبتليكم﴾: أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس الصادق والمنافق. ﴿تصعدون﴾: أى تذهبون بعيدًا فى صعيد الأرض فرارًا من القتال. ﴿ولاتلوون﴾: ولا تميلون على أحد مَمنْ ثبت معه ﷺ بنجدة أو مساعدة.

﴿يدعوكم﴾: يناديكم لترجعوا. ﴿فى أخراكم﴾: وهو خلف ظهوركم.

﴿فأثابكم غما بغم﴾: فجزاكم غما بالهزيمة بسبب غمكم له ﷺ لمخالفة أمره. أو غما على غم بالهزيمة والجراحة وانتصار العدو. ﴿لكيلا تحزنوا﴾: لأجل ألا تحزنوا بعد هذا التأديب.

المعنى: وأعطيهم ثواب الآخرة الحسن وهو المغفرة والجنة، والله يحب المحسنين لأعمالهم فيجيب دعاءهم. وكان عبد الله بن أبىّ ومَنْ رجع معه من المنافقين كما تقدم أشاعوا فى المدينة بعد انكسار المسلمين أن النصر سيكون دائمًا لقريش فيجب أن نصطلح معهم، فأنزل

(١) أعقابكم. (٢) خاسرين. (٣) مولاكم. (٤) الناصرين.
(٥) سلطانا. (٦) ومأواهم. (٧) الظالمين. (٨) وتنازعتم.
(٩) أراكم. (١٠) تلوون. (١١) أخراكم. (١٢) فأثابكم.

الله تعالى محذرًا المؤمنين ومطمئنًا لهم قوله: يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفرو بقلوبكم من المنافقين يردوكم إلى الشرك فتخسروا الدنيا والآخرة: بل الله مولاكم أى ناصركم، فاستغنوا به واتبعوا أوامره فهو خير الناصرين. وطمأنهم بقوله: سنلقى فى قلوب الذين كفروا الخوف منكم بسبب جعلهم مع الله شركاء ليس عندهم عليها دليل، وكل الذى عندهم مجرد وهم ناشىء عن تقليد: فإذا ما رأوا المسلمين يقاتلون بقوة إيمان لثقتهم بنصر الله انهزموا أمام هذه القوة، وسيكون آخر ما يأوون إليه النار وبئس النار مثوى للظالمين للحق وأهله. ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ إلخ: بيان ذلك أن النبى ﷺ لما نظم الجيش أول المعركة كما تقدم جعل خمسين من الرماة فوق ربوة فى سفح أُحُد خلف الجيش ليحموا ظهره من هجوم يأتيهم من الخلف، وجعل أميرا عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم ألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الهزيمة أو كان النصر، ولما انهزم المشركون أول المعركة وتركوا وراءهم مغانم كثيرة اختلف الرماة مع أميرهم، فالكثرة منهم نزلوا لجمع الغنائم ظنا منهم ألا رجعة للمشركين وبقى عبد الله بن جبير وعشرة معه امتثالا لأمر الرسول. عند ذلك رأى خالد بن الوليد وكان رئيس فرسان المشركين أن ظهر المسلمين قد انكشف، فهجم على مَنْ بقى من الرماة وقتلهم؛ عند ذلك رجع المشركون وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب وهزموهم شر هزيمة، وحصل له ﷺ ماتقدم بيانه. وفى هذا قال سبحانه: ولقد صدقكم الله ماوعدكم به فى قوله ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ حين كنتم تقتلونهم قتلاً شديدًا أول الأمر بعونه وتيسيره سبحانه، حتى إذا فشلتم فى الرأى والتقدير وتنازعتم أيها الرماة واختلفتم مع أميركم وعصيتم أمر نبيكم، حصل منكم كل هذا بعد ما أراكم سبحانه ماتحبون من النصر. فكان منكم فريق يريد الدنيا وهم الذين نزلوا من الرماة لجمع المغانم. ومنكم مَنْ يريد الآخرة وهم العشرة الذين ثبتوا مع أميرهم، عند ذلك منع سبحانه عنكم تأييده وصرفكم عن قتالهم بما شغلتم به من الهزيمة ليميز صادق الإيمان والعزم من الضعيف. ولقد عفا عنكم لما ندمتم والله ذو فضل بالعفو وقبول التوبة.

وكان صرف الله لكم عن قتال المشركين فى وقت ماكنتم تصعدون أى تذهبون بعيدا عن موطن القتال ولا تميلون على أحد ممن ثبت مع نبيكم بمساعدة، والحال أنه ﷺ كان ينادى عليكم لترجعوا فلم ترجعوا، فجازاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم له ﷺ بمخالفة أمره ليربيكم ويؤدبكم حتى لاتحزنوا بعد ذلك على مايفوتكم من خير.

وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ[١] وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ[٢] يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا[٣] قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[٤] بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ[٥] إِذَا

﴿أمنة﴾: أمنا، وفسره بأنه نعاس، والنعاس فتور يتقدم النوم كالسنة.

﴿مضاجعهم﴾: المراد المكان الذى يصرعون فيه.

﴿وليبتلى الله مافى صدوركم﴾: أصل الابتلاء الاختبار كما فى (٣١) من سورة محمد صفحة ٦٧٦ والمراد ليمتحن الله إسلامكم هل هو صحيح أم زائف فتظهر حقيقة ماأنتم عليه ﴿مافى صدوركم﴾ من مبادئ الإسلام وذلك أن القرآن أكثر مايستعمل الصدر فى الإسلام، والقلب فى الإيمان، وقلما يطلق أحدهما على معنى الآخر، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ و (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، وانظر قوله تعالى ﴿كتب فى قلوبهم الإيمان﴾ الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٨، ٧٢٩ ولم يقل كتب فى صدورهم الإيمان، ولذا يقال اعتقد فلان بقلبه ولا يقال اعتقد بصدره.

﴿وليمحص مافى قلوبكم﴾: يقال محصت الشىء إذا خلصته مما فيه من العيوب فالمراد ليخلص عقائد قلوبهم من وساوس الشيطان.

﴿ذات الصدور﴾: المراد الوجدانات والسرائر الملازمة للصدور.

﴿الجمعان﴾: جمع المؤمنين وجمع المشركين.

﴿استزلهم الشيطان﴾: أى أوقعهم فى زلة وغلطة.

---

(١) أصابكم. (٢) الجاهلية. (٣) هاهنا.
(٤) الشيطان. (٥) لإخوانهم.

المعنى: ولا تحزنوا على ماأصابكم من جروح وقتل فلا تبالوا بعد ذلك بمخاطر، والله خبير بما تعملون، فليحاسب كل منكم نفسه. ثم أنزل الله عليكم من بعد الغم نعاسا يؤمنكم به، وذلك أنهم لما أدركوا بسرعة أن ما أصابهم كان بتقصير بعضهم فاستغفروا الله وعزموا على عدم العودة، عند ذلك أنزل الله عليهم النعاس ليستردوا ما فقدوه من قوة، والنوم للمصاب نعمة لأنه يضع حدا بينه وبين الماضى المحزن، ولذا لما أفاقوا رجعوا إليه ﷺ تلمع سيوفهم كأنها شهب، فظن المشركون أن هذا مدد جديد فانصرفوا مكتفين بما حصل. وكان هذا النعاس إنما غشى طائفة المؤمنين الصادقين، أما طائفة المنافقين الذين بقوا مع الجيش ولم يرجعوا مع عبد الله ابن أُبى فإنهم لم يهمهم إلا أنفسهم أى لا أمر الدين ولا أمر الرسول فلم يناموا بل كانوا مسرورين بما حصل، يظنون بالله ظنا غير الظن الحق، حيث ظنوا أن الله سبحانه لن ينصر محمدا، وهذا هو ظن أهل الجاهلية المشركين الذين لايقدرون وعد الله حق قدره، يقول بعضهم لبعض ولضعاف المؤمنين الذين دخلوا فى الإسلام حديثا: ليس لنا من أمر النصر نصيب فلو كان محمد على حق لنصره الله.

قل لهم أيها النبى إن القضاء فى كل شىء من نصر وغيره لله وحده، وقد ضمنه لمَنْ اتقاه ولم يخالف أمر رسوله.

ويخفى هؤلاء المنافقون من التشكيك فى الدين ما لا يظهرون لك خوفا من بطش الكثرة المؤمنة بهم، ومن تشكيكهم أنهم يقولون همسا: لو كان لنا من أمر النصر نصيب كما يقول محمد وأصحابه من أنهم جند الله وأنهم هم الغالبون ما قتل من رجالنا مَنْ قتل هنا. قل لهم أيها النبى أن موت كل شخص مقدر، وله عند الله تعالى زمان ومكان لايتعداهما فلو كنتم فى بيوتكم ولم تخرجوا مع المجاهدين وكان مقدرًا فى علم الله أنكم ستقتلون فى مكان وزمان المعركة لخرج الذين كتب عليهم القتل فى الأزل إلى مصارعهم التى يسقطون فيها قتلى، أى فقتل مَنْ قتل ضرورى الوقوع، لأن ما قدره الله عز وجل لايتخلف. وإنما قدر الله ماحصل ليميز الخبيث من الطيب، وليظهر لكم ما انطوت عليه نفوسكم أيها المؤمنون من ضعف أو قوة، لأن بعض الناس يغتر فيطن فى نفسه ما ليس فيها، فيتوهم أنه شجاع وهو جبان، وكريم وهو

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

بخيل، ولايظهر حقيقته إلا تجربته بالعمل، وليتمحص ما فى قلوبكم من وساوس الشيطان، والله تعالى عليم بالسرائر التى قد تخفى على أصحابها فتخدعهم كما حصل فيمَنْ تمنوا الموت، انظر الآية (١٤٣) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٨٦، والله عالم بكل شىء، وإنما يبتلى ليظهر للناس ما خفى عليهم. إن الذين انهزموا منكم وتركوا النبى ﷺ وراءهم يوم التقى الجمعان إنما أوقعهم الشيطان فى زلة بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب، وهو مخالفتهم لأمره ﷺ.

وإذا رجعت للآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣، تفهم لم قال ﴿ببعض﴾ هنا.

ولقد عفا الله عنهم لما اعترفوا وتابوا. فيأيها الذين آمنوا تنبهوا ولاتكونوا مثل الكافرين الظاهرين والمنافقين الذين قالوا فى شأن إخوانهم فى النسب أو المودة.

(ضربوا فى الأرض﴾: سافروا. ﴿غزًّى﴾: جمع غازٍ، بوزن رُكّع وراكع، وهو من نوادر أوزان الجمع المعتل، وفعله غزا يغزو بوزن عدا يعدو، ومفرده غازٍ وجمعه غزًّا كما هنا، وغزاة أيضًا، فالمعنى وكانوا غزاة فى سبيل الله. ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾:

فبسبب رحمة وضعها الله فى قلبك و ﴿ما﴾ حرف يفيد تأكيد ربط السبب وهو الرحمة بالمسبب وهو ﴿لنت﴾ أى سهلت أخلاقك.

﴿فظا﴾: جافا فى المعاملة.

﴿غليظ القلب﴾: لاشفقة فيه.

﴿فإذا عزمت﴾: أى قطعت برأى بعد المشاورة. ﴿فتوكل على الله﴾:

(١) القيامة.

أى فثق به سبحانه وأنت قادم على ماتريد. ﴿يغل﴾: يخون فى الغنيمة، من الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

المعنى: إذا سافروا لنحو تجارة وماتوا أو كانوا غزاة وقتلوا لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا. لاتقولوا أيها المؤمنون هذا القول الدال على الجهل بقضاء الله فى الموت كما تقدم، ليجعل سبحانه أثر ذلك القول ونتيجته حسرة فى قلوب الكافرين وحدهم، فيحرمها من طمأنينة الرضا بقضاء الله وقدره، فيستولى عليهم الضجر وقلق النفس فيزدادوا ضعفًا ويقيكم الله شرهم. والله يحيى ويميت حسب تقديره. فقد يعيش المسافر والمقاتل ويموت المقيم القاعد. والله لئن قتلتم أيها المؤمنون فى الجهاد أو متم وأنتم فى طريقه أو أثنائه موتا طبيعيا لمغفرة من الله لذنوبكم ورحمة منه لكم خير مما يجمع الحريصون على الحياة وأسعد حظا لظفركم بمغفرة تمحو الذنوب ورحمة ترفع الدرجات. ثم بين سبحانه أن مرجع الجميع إليه فقال: ولئن متم أى موتا عاديا أو قتلتم فى الجهاد أو غيره فلابد من حشركم وجمعكم عنده تعالى يوم القيامة ليحاسبكم ويجازيكم. فبسبب رحمة عظيمة منحها الله لك أيها النبى سهلت أخلاقك لأصحابك بعد ما خالفوك فلم تغضب عليهم، ولو كنت فاقد الرحمة جاف المعاملة قاسى القلب لتفرقوا من حولك وبقيت وحدك، فاعف عنهم نهائيا فيما تسببوا فيه من إيذائك واستغفر لهم ربك فيما خالفوه، وبهذا تشملهم شفقتك عليهم فيزداد حبهم لك، وداوم على مشاورتهم فيما ليس فيه وحى، ولا تترك المشاورة لما وقع منهم من خطأ فى هذه الواقعة، فإن الخير فى تربيتهم على هذا المبدأ العظيم، لأن خطأ الكثيرين أقل من خطأ الواحد. فإذا قطعت برأى بعد المشاورة فثق بربك وأنت قادم على العمل، فالله يحب الواثقين بمساعدته الذين لايرون غيره لأنه صاحب التصرف فى كل شىء. ولذا قال سبحانه: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ كما حصل يوم بدر، وإن يخذلكم كما حصل فى أُحد فلا أحد ينصركم من بعد خذلانه، وعلى الله يتوكل المؤمنون لأنهم يعلمون أنه لا ناصر سواه. ولما كان سبب الهزيمة فى أُحد هو حرص الرماة على الغنائم وخوفهم أن يفوتهم شىء منها كما تقدم، أراد سبحانه أن ينبههم إلى خطئهم ويرشدهم إلى الغنيمة حق كل مجاهد وأنه ﷺ لايعطى بعضا ويترك بعضا وإلا كان ممن يغل ويخون فى الغنيمة، وماجاز لنبى من الأنبياء فضلاً عن نبيكم وهو أكرمهم

لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

عند ربه أن يتصرف فى الغنيمة قبل قسمتها على مستحقيها؛ لأن مَنْ يغلل يأت بما خان فيه يوم القيامة ليفضح على رءوس الأشهاد. انظر تفصيل مايحصل فى ذلك يوم القيامة فى حديث رقم ٤١٣ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ماعملت وافيا بدون نقص.

﴿باء بسخط من الله﴾: أى رجع مغضوبا عليه من الله.

﴿مـأواه﴾: أى مكانه الذى يأوى إليـه.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم من العقائد الفاسدة.

﴿الكتاب والحكمة﴾: الكتاب المراد هنا صفة الكتابة فينقلهم من الأمية إلى العلم، انظر الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، وقد تقدم فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٧٠؛ والحكمة هى معرفة أسرار الشريعة.

﴿أصابتكم مصيبة﴾: فى أحد بقتل سبعين منكم. ﴿قد أصبتم مثليها﴾: يوم بدر حيث قتلتم من عدوكم سبعين وأسرتم سبعين. ﴿أنَّى هذا﴾: أى من أين هذا الفشل.

﴿أو ادفعوا﴾: أى العدو عن أهلكم ووطنكم على الأقل.

المعنى: ولا تظلم نفس شيئًا من جزاء عملها. ثم طمأن سبحانه المؤمنين وحذر الكافرين فقال: أفمن اتبع رضوان الله بسيره فى الطريق الذى يرضيه كصالحى المؤمنين كمَنْ رجع من سعيه فى الدنيا بسخط الله لأنه عصاه كالكافرين والمنافقين الذين عاقبتهم أن مثواهم جهنم وبئس النهاية نهايتهم.

---

(١) رضوان. (٢) ومأواه. (٣) درجات. (٤) آياته.
(٥) الكتاب. (٦) ضلال. (٧) أصابتكم. (٨) أصابكم.
(٩) قاتلوا. (١٠) لاتبعناكم. (١١) للإيمان. (١٢) بأفواههم.

والجميع مؤمنون وكافرون على درجات عند الله فليسوا سواء فى الثواب والعقاب، فالمؤمنون لهم منازل فى الجنة تختلف باختلاف درجات أعمالهم، والمغضوب عليهم لهم درجات فى جهنم تختلف باختلاف جرائمهم والله بصير بما يعملون فيعطى كلا على قدر ما يستحقه. ثم أراد سبحانه أن يوبخ العرب على كفرهم بمَنْ كان سببا فى بقاء ذكرهم إلى يوم القيامة، فقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ أى من العرب الذين نشأت بينهم الدعوة وحملوها إلى سائر العالم إذ بعث من بينهم رسولا إلى الناس كافة، ولهذا لم يقل ﴿بعث إليهم﴾ وإلا لكان مبعوثا للعرب خاصة، من أنفسهم أى عربى، وهذا تشريف لهم لأنهم صاروا من الأمم التى اختار الله منها أنبياء إجابة لدعوة إبراهيم كما فى الآية (١٢٩) من سورة البقرة صفحة ٢٥. والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١. وكل نبى كان بلسان قومه كما فى الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، والآية (٥٨) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ وهذا يقتضى أن يكون العرب أول مَنْ يؤمن به لأنه فخر لهم وكتابه بلغتهم، أنظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

هذا الرسول يتلو عليهم كلام الله ويزكيهم وينقلهم من الأمية ويعلمهم الكتابة والقراءة فيحصلون كل علم نافع، ويعلمهم معرفة أسرار الأشياء وخاصة الشريعة بعد ما كانوا قبل مجيئه فى ضلال ظاهر. ثم وبخ سبحانه المؤمنين الذين جزعوا يوم أُحد بقوله أو لما أصابتكم إلخ، المعنى أجزعتم وتخاذلتم ولما أصابتكم مصيبة كنتم قد أصبتم من عدوكم قدرها مرتين قلتم مستغربين مع أنكم السبب: من أين جاءت هذه المصيبة؟ قل لهم أيها النبى: الذى أصابكم حاصل من أنفسكم لأنها السبب حيث خالف رماتكم أمره ﷺ. والله قدير ومن سنته فى خلقه أنه ينصر المطيع ويخذل العاصى. ثم بين ما تقدم فقال وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإرادة الله تعالى وقضائه بأن مَنْ يخالف قائده يخذل. ثم بين الحكمة فيما حصل فقال: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أى علم ظهور، والمراد ليظهر للناس المؤمنين والمنافقين الذين قال لهم المؤمنون استمروا مع الجيش وقاتلوا معنا فى سبيل إعلاء كلمة الله، أو على الأقل ادفعوا العدو عن أهلكم ووطنكم قالوا مراوغين: لو نعلم أنكم ستلقون قتالاً لبقينا معكم ولكنا نعلم أنه لن

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ(١) وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢) ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا(٣) ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ(٤) اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا(٥) وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

يحصل قتال. هؤلاء المنافقون بقولهم هذا تباعدوا عن الإيمان المظنون فيهم وصاروا إلى أهل الكفر أقرب. ولم يحكم بكفرهم نهائيا تأديبا لمَنْ يتهجم على التكفير بدون دليل قاطع، وأيضًا لفتح باب الإيمان لمَنْ لم يتمكن النفاق من قلبه... يقولون بأفواههم ليس هناك حرب مع أنهم يعتقدون فى صميم قلوبهم أن الحرب واقعة لا محالة.

﴿ادرءوا﴾: ادفعوا. ﴿استجابوا لله﴾: أطاعوه. ﴿القرح﴾: المراد به هنا الجرح. ﴿فانقلبوا﴾: أى رجعوا.

المعنى: والله أعلم بالنفاق الذى يكتمونه وسيجازيهم عليه، وهم الذين قالوا بعد المعركة لأجل إخوانهم الذين قتلوا فى أُحد، قالوا والحال أنهم قد قعدوا وتخلفوا عن القتال: لو أطاعونا وتخلفوا مثلنا ما قتلوا كما أننا لم نقتل. قل أيها النبى ردا عليهم: فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين فى أن الحذر ينفع من القدر، وقدر الله تعالى وقضاؤه فى القتل كقضائه فى الموت العادى لابد من نفاذه ولا يتوقف على حرب، فليس كل محارب يموت، ولا قاعد يسلم. ثم بيّن سبحانه فساد ما يضلل به المنافقون من أن الذى سلم من القتل أسعد حظًا من الذى قتل، فقال: ولاتحسبن أيها السامع الذين قتلوا فى سبيل الله من الشهداء أمواتا كأمواتكم بل هم أحياء حياة برزخية لانعلم حقيقتها وأما الذى نعلمه فهو أنهم منعمون كما تقدم فى الآية (١٥٤) من سورة البقرة صفحة ٣٠ عند ربهم، عندية شرف وكرامة، كما قيل فى

(١) لإخوانهم. (٢) صادقين. (٣) أمواتا.
(٤) آتاهم. (٥) إيمانا.

أدريس فى الآية (٥٧) من سورة مريم صفحة ٤٠١، يرزقون رزقا حسنا لا نعلم حقيقته لكننا نعلم أنهم سعداء به، مسرورين لما آتاهم الله تعالى من فضله زيادة على ذلك الرزق الذى استحقوه بجهادهم انظر الآية (٣٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٥، ٥٧٦، ويفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم خلفهم ولم يقتلوا ولم يلحقوا بهم إلى الآن. يستبشرون بأنه لا خوف على إخوانهم من مكروه، ولا يحزنون لفوات محبوب، ويستبشر هؤلاء الشهداء بنعمة من الله عز وجل هى جزيل ثوابه، وفضل زيادة فى الثواب، ويسرون أيضًا بصدق وعده تعالى فى أنه لايضيع أجر المؤمنين. وروى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أُحد وعلموا أنه ﷺ مازال حيا ندموا وهموا بالرجوع للقضاء على كبار المسلمين، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم قوة أصحابه خصوصا بعدما ندموا وشعروا بأن الله تعالى لابد ناصرهم، فنادى مناد فى المدينة بالخروج لملاقاة المشركين ثانيا على أن لايخرج إلا مَنْ شهد المعركة فى أحد، فخرجوا جميعا حتى مَنْ كان جريحا بعد تضميد جراحه، فأشاع المنافقون فى المدينة أن أبا سفيان جمع جموعًا كثيرة من قريش لايمكن التغلب عليها يريدون بذلك تثبيط المؤمنين عن القتال فلم يبال بهم أحد، بل قابلوا هذه الدعاية الخبيثة بقولهم: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ وساروا حتى بلغوا مكانا يقال له حمراء الأسد يبعد عن المدينة نحو ثلاثة أميال، عند ذلك علموا أن رجالا من قريش نصحوا أبا سفيان بالرجوع قائلين أن المغلوب دائمًا يقاتل قتال المستميت، فخاف المشركون، فأنزل الله فى ذلك قوله: الذين استجابوا لله والرسول لما طلبهم للقتال ثانيا من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا أعمالهم منهم وهم كلهم طبعا، واتقوا معاصيه ، لهم أجر عظيم فى الآخرة. هؤلاء الذين قال لهم المنافقون إن الكفار قد جمعوا لكم جموعهم فاخشوهم ولا تخرجوا، فزادهم هذا القول إيمانا بنصر الله لأنهم تابوا وقالوا كافينا الله شرهم، ونعم الوكيل الذى نكل إليه أمورنا.

فرجعوا مصحوبين بنعمة من الله هى قوة الإيمان، وفضل هو الأجر العظيم، لم يمسسهم سوء من أحد، واتبعوا بأقدامهم ما يرضى الله تعالى عنهم.

رِضْوَانَ[1] اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ[2] يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ[3] فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ[4] لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

﴿يسارعون فى الكفر﴾: يقعون فى أعمال الكفر سريعا وهم المنافقون ﴿أن مانملى لهم خير لأنفسهم﴾: أى أن إمهالنا لهم بتطويل أعمارهم خير. ﴿ليذر﴾: ليترك. ﴿يجتبى﴾: يختار.

المعنى: والله ذو فضل عظيم فلا يمنعه عمَّنْ أخلص فى طاعته.

إنما ذلكم المنافق القائل لكم إن الناس قد جمعوا لكم هو الشيطان الأكبر من شياطين الإنس المشار إليهم فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١. يخوفكم من أوليائه وأحبابه كفار قريش الموالين له فى الباطن، فلا تخافوا الكافرين لأنهم لايستطيعون ضركم، وخافونى أنا الرب القادر لأن الأمر كله بيدى إن كنتم راسخين فى الإيمان فلا تبالوا بهم ولايحزنك أيها النبى أعمال المنافقين وكفرهم فإنهم بذلك لايضرون أولياء الله بل يضرون أنفسهم، فمن يضروك إذًا لأنك من جند الله مادمت محافظا على أوامره. وإنما وقعت منهم تلك المحاولات الفاشلة لأن من قضاء الله تعالى أن مَنْ تفسد فطرته التى خلقه عليها سليمة يفقد الاستعداد للخير، فيحرمه سبحانه من أقل نصيب من نعيم الآخرة كما فى الآية (١٠١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

إن الكافرين الذين اختاروا الكفر بدل الإيمان لن يضروا الله شيئًا ولو قليلا، وإنما يضرون أنفسهم، ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم فهم كالمنافقين فى فشلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة. ولايحسبن هؤلاء الكافرون أن إمهالنا لهم وعدم إهلاكنا لهم سريعا خير لأنفسهم، كلا بل هو لزيادة شقائهم بكثرة المعاصى فيكون لهم فى الآخرة عذاب مهين. ثم أراد سبحانه أن يبين بعض حكمه فيما حصل فى يوم واحد فقال: ماكان الله ليترك المؤمنين المخلصين على ماأنتم عليه أيها المسلمون عامة، المخلصون والمنافقون، من اختلاط الصادق

(١) رضوان. (٢) الشيطان. (٣) يسارعون. (٤) بالإيمان.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ[1] اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2] وَلِلَّهِ مِيرَاثُ[3] السَّمَاوَاتِ[4] وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ[5] وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[6] ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ[7] وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ[8] الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

بالمنافق، والاغترار باشتراكهم فى صور العبادات كالصلاة والصيام فينخدع المخلص فى المنافق، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويبين المنافق من المؤمن، بواسطة التعرض للمحن والشدائد.

ولما كان يخطر بالبال أنه كان يمكن أن يطلع الله المؤمنين جميعا على غيبه نفى سبحانه ذلك وإلا لكانوا كلهم رسلا، ولكنه يختار من رسله مَنْ يشاء أن يطلعهم على بعض الغيب الذى لا تصل إليه عقولهم ولهم فى علمه مصلحة ليبلغوه لأممهم كالبعث والجنة والنار وما فيهما وغير ذلك. فآمنوا بالله ورسله بأن تؤمنوا بكل ما جاءوا به عنه تعالى. وأن تؤمنوا كما أمرتكم وتتقوا مانهيتكم عنه فلكم أجر عظيم فى الآخرة. وإلى هنا انتهى الكلام على غزوة أُحد، وعاد سبحانه وتعالى إلى بيان بعض أعمال اليهود فقال: ﴿ولايحسبن..﴾ إلخ.

﴿سيطوقون مابخلوا به﴾: أى يجعل المال الذى بخلوا به طوقا من نار فى أعناقهم يوم القيامة. **﴿عذاب الحريق﴾**: أى المحرق، فالمراد عذاب النار.

﴿قدمت أيديكم﴾: المراد ما قدمتم.. فعبر عن الإنسان باليد لأن أكثر أعماله بها.

﴿عهد إلينا﴾: أى أوصانا فى التوراة وأمرنا أن لانؤمن لرسول أى لانصدقه حتى يأتينا بقربان.

﴿القربان﴾: مايتقرب به إلى الله تعالى من صدقة أو حيوان يذبح للفقراء. ﴿تأكله النار﴾ **أى تحرقه وكانوا تعنتوا مع بعض أنبيائهم فطلبوا** منه ذلك فذبح بقرة وتركها فى الخلاء **فجاءت نار من السماء فأحرقتها**، ومع ذلك كذبوه وقالوا ساحر.

(١) آتاهم. (٢) القيامة. (٣) ميراث. (٤) السموات.
(٥) بالبينات. (٦) صادقين. (٧) بالبينات. (٨) الكتاب.

﴿البينات﴾: المعجزات الواضحات. ﴿الزبر﴾: جمع زبور وهى المواعظ التى تهز القلوب والتى جاء بها داود عليه السلام. ﴿والكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم ﴿المنير﴾: الموضح لطريق الحق.

المعنى: ولا يحسبن اليهود الذين يبخلون ببذل بعض ماآتاهم الله بخلهم خيراً لهم بل هو شر لهم، لأنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة. انظر كيف فسر ﷺ هذه الآية وبيَّن كيفية التطويق فى حديثى رقم ٢٠٤، ٢٠٥ من كتابنا صفوة البخارى. ولله ميراث السموات والأرض ومافيهما، أى فلن يبقى فى يد الإنسان شئ، فمن الجهل أن يبخل على نفسه بما ينجيها من العذاب، والله بما تعملون أيها البخلاء خبير؛ وسيجازيكم شر الجزاء.

ولما نزل قوله تعالى «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» الآية (٢٤٥) من سورة البقرة صفحة ٥٠، قالت اليهود تهكما على القرآن والرسول إن الله فقير ونحن أغنياء وإلا لما طلب منا قرضا. فهددهم سبحانه بقوله: لقد سمع الله قول الذين... إلى قوله سنكتب ماقالوا، أى نأمر الملائكة بأن تسجل عليهم فى صحائفهم هذا الجرم، وتسجل أيضا قتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول لهم يوم القيامة على لسان خزنة جهنم: ذوقوا عذاب النار المحرقة، قائلين لهم أيضا: ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أن الله ليس بصاحب ظلم لعباده، أى العذاب أصابكم بذنوبكم وبكونه تعالى عادلا فى حكمه لايظلم فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولايجعل الفاسق كالمؤمن ولا الأشرار كالأخيار، فيكون أضاع على المتقين تعبهم. وهؤلاء اليهود الذين قالوا إن الله أوصانا فى التوراة بأن لانصدق رسولاً إلا إذا جاءنا بقربان تأكله النار وهم كاذبون فى أن الله أمرهم بهذا أو جعله شرطا لتصديق الأنبياء، لأن النبوة تثبت بكل معجزة لا بخصوص ماطلبوا، ولذا رد عليهم بقوله: قل لهم أيها النبى قد جاءكم رسل كثيرون من قبلى بالمعجزات الواضحات التى هى أقوى مما طلبتم كإحياء الموتى، وجاء بعضهم بما طلبتم من القربان، فلم قتلتم البعض وحاولتم قتل الآخر كعيسى ولم تكتفوا بتكذيبهم إذا كنتم صادقين فى دعواكم أنكم تصدقون عند المعجزة.

ثم أراد سبحانه أن يُسلى نبيه حتى لايجزع لتكذيبهم فقال عز وجل: فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالمعجزة الخالدة وهى القرآن الذى لو اجتمع الإنس والجن لما استطاعوا أن يأتوا بسورة

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

منه، فلا تحزن لأنه قد كذب رسل من قبلك جاءوا لأممهم بالمعجزات الواضحات والمواعظ المؤثرات والكتب المنيرة لطريق النجاة.

﴿الغرور﴾: الخديعة أى أنها تخدع المشغول بها فلا ينتبه لما يستقبله من خطر. ﴿لتبلون﴾: تمتحنون وتختبرون.

﴿من عزم الأمور﴾: أى الأمور المعزوم عليها أى التى يجب العزم والثبات عليها.

﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾: الميثاق العهد الذى أخذ على أهل الكتاب. ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾: أى طرحوا تعاليمه وأهملوها.

﴿بمفازة من العذاب﴾: أى بمكان يفوزون فيه بالنجاة من العذاب.

المعنى: بعدما رد سبحانه عليهم أراد أن يُسلى رسوله من جهة أخرى، فقال: كل نفس لابد أن تموت، فلا تضجر من عنادهم فإنه منته بموتهم، ولا تعجل بعقابهم فى هذه الدار فإن المدخر لهم بعد الموت لا يدانيه عذاب الدنيا كله. ولذا قال وإنما توفون أجوركم كاملة يوم القيامة، فمَنْ زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة الدائمة، ومامتاع هذه الحياة الفانية إلا متاع الخديعة الذى يعمى صاحبه عن الخطر الذى يستقبله فى الآخرة.

(١) القيامة. (٢) الحياة. (٣) متاع.
(٤) أموالكم. (٥) الكتاب. (٦) ميثاق.
(٧) الكتاب. (٨) السموات.

ثم أراد سبحانه أن ينبه نبيه وأصحابه إلى التسلح بالصبر على ما سيلاقيه من المتاعب فقال ﴿لتبلون.. إلخ﴾ أى سيلاقيكم ابتلاء وامتحان فى أموالكم بالتكليف بإنفاقها فى الخير، وبما يصيبها من تلف، وفى أنفسكم بالقتل والأسر والأمراض والتكاليف الأخرى، ولتسمعن من اليهود والنصارى ومن المشركين أذى كثيرًا كالطعن فى دينكم واتهام الرسول بأنه ساحر كذاب وتحقير مَنْ يؤمن معكم، وإن تصبروا على ذلك ولا تضق به نفوسكم وتمروا به كراما وتتقوا الله فلا تعصوه فهو خير لكم، لأن ماذكر من الصبر والتقوى من الأمور التى يجب الثبات عليها. ثم بيَّن سبحانه بعض إيذاء أهل الكتاب له ﷺ حيث كتموا صفاته التى عندهم فى التوراة، وأنكروا أنه هو النبى المبشر به، فقال سبحانه: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق﴾ إلخ. واذكر أيها النبى وقت أخذ الله العهد على أهل الكتاب لتبين مافى الكتاب من صفاته ﷺ وعلامات نبوته للناس ولا تكتمونه، ذكر ذلك للمبالغة فى إيجاب البيان، فنبذوا تعاليم الكتاب وأهملوه. ثم بين سبب ذلك فقال ﴿واشتروا به﴾ إلخ، أى استبدلوا ببيان الحق الواجب عليهم بالعهد ثمنا قليلا تافها هو حب الرياسة على الجهال من أتباعهم وابتزاز أموالهم، لأنهم لو أسلموا لضاع منهم كل ذلك، فبئس ما أخذوا لأنه زائل أضاعوا به نعيما خالدًا، انظر الآية (١٧٤) من سورة البقرة صفحة ٣٣.

لا تحسبن أيها النبى الذين يفرحون بما أتوا الناس من الضلال الذى يظنونه ينفعهم، ويحبون أن يمدحهم الناس بأنهم حفاظ التوراة العاملون بما فيها وهم فى الحقيقة لم يحافظوا ولم يفعلوا بل فعلوا نقيضه وهو تضليل الناس وصرفهم عن الحق الواضح كما فى الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥، فلا تحسبنهم ﴿بمفازة﴾ أى بمنجاة من العذاب فى الدنيا بل سيلاحقهم الخذلان والكمد بنصيرة أهل الحق عليهم ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم. ثم زاد فى طمأنينة النبى ﷺ وأصحابه فقال: ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ إلخ، أى لايتصرف فيها أحد إلا بمشيئته فلا تبالوا بغيره لأنه هو وحده القدير على كل شىء، ومنه خذلان الكافر وتعذيبه، ونصر المؤمن وتنعيمه.

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ[2] ٱلَّيْلِ[3] وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ[4] لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ[5] ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا[6] وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[7] وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا[8] سُبْحَٰنَكَ[9] فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[10] مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ[11] أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[12] إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ[13] مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ[14] وَأُوذُوا

﴿لآيات﴾: أدلة وبراهين على قدرة الله وصدق رسوله.

﴿الألباب﴾: العقول. ﴿مناديا﴾: هو الرسول والقرآن الذى جاء به.

﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾: الناشئة من تقصير فى عبادتنا لك.

﴿سيئاتنا﴾: التى ارتكبناها فى حقوق العباد. ﴿الأبرار﴾: جمع بار وهم المحسنون فى أعمالهم. انظر الآيتين (١٧٧، ١٨٩) من سورة البقرة صفحات ٣٣، ٣٤، ٣٧.

﴿على رسلك﴾ أى على لسان رسلك. ﴿بعضكم من بعض﴾: أى أن الذكر والأنثى من جنس واحد فلا تفاضل بينهما إلا بالعمل الصالح.

المعنى: قال الفخر الرازى: إن المقصود من هذا الكتاب الكريم هو جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق سبحانه، فتراه هنا عز وجل لما أطال الكلام من رد شُبَه المبطلين، رجع هنا إلى إثارة القلوب بذكر مايدل على توحيده وكبريائه وجلاله فذكر هذه الآيات وأراد بذلك سبحانه أن يبين سبب غفلتهم عن الأدلة وهو أنهم

(١) السموات. (٢) واختلاف. (٣) الليل.
(٤) لآيات. (٥) الألباب. (٦) قياما.
(٧) السموات. (٨) باطلا. (٩) سبحانك.
(١٠) للظالمين. (١١) للإيمان. (١٢) القيامة.
(١٣) عامل. (١٤) ديارهم.

أفسدوا عقولهم بالتقليد، فقال إن فى خلق السموات والأرض ومافيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلمة والنور بنظام لايتخلف، لأدلة وبراهين على قدرة الله وحكمته، لأولى الألباب أى العقول الخالصة من الغفلة والشهوات والتقليد الأعمى، وانظر لذلك حكمًا كثيرة فى الآيات:

(١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، (٦٧) من سورة يونس صفحتى ٢٧٦، ٢٧٧ (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧ (٦، ١٠، ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

وأولو الألباب هم الذين يذكرون الله فى الصلاة قيامًا عند القدرة عليه، وقعودا أى قاعدين عند العجز عن القيام، وعلى جنوبهم أى مضطجعين عند العجز عن القعود، والمراد يحافظون على الصلاة فى كل حال، ويتفكرون فى مخلوقات السموات والأرض ومافيها من عجائب ونظام لايقدر عليه سوى الخلاق العليم، قائلين فى أثناء تفكيرهم: ياربنا ماخلقت هذا النظام باطلاً بغير حكمة، سبحانك أى ننزهك عن هذا، فقنا عذاب النار لأنك يارب حكمت بخزى وإهانة مَنْ تدخله النار، وما للظالمين الذين حكمت بدخولهم النار أنصار وأعوان يدفعون عنهم العذاب. ياربنا إننا سمعنا رسولك وكتابك ينادينا أن آمنوا بربكم فأسرعنا إلى الإجابة، فاستر عنا يوم الحشر الأكبر ذنوبنا، وكفر أى اسقط عنا بعفوك أو بقبول حسناتنا، كما قلت: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، وآتنا ما وعدتنا به على لسان رسلك من الرحمة والفضل، فأجاب ربهم دعاءهم ووعدهم بأنه لايضيع عمل عامل منهم، بل يحفظه لهم ويجازيهم عليه خير الجزاء، سواء أكان العامل ذكر أم أنثى، فكلهم فى العبودية له سواء، وإنما التفاضل بالعمل الصالح. ولذا قال: فالذين هاجروا فرارا بدينهم إلى مكان يحافظون فيه عليه، وأخرجوا من ديارهم قهرا عنهم خشية القتل، كما فعل ﷺ عند الهجرة إلى المدينة، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وأوذوا أى آذاهم الكفار بالشتم والضرب وسلب المال كما حصل لآل ياسر فى مكة.

فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا[1] لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ[2] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[3] ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ[4] ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ[5] قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ[6] جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ[7] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[8] خَالِدِينَ[9] فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[10] لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ[11] لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ[12] اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(١) وقاتلوا.
(٢) جنات.
(٣) الأنهار.
(٤) البلاد.
(٥) متاع.
(٦) ماواهم.
(٧) جنات.
(٨) الأنهار.
(٩) خالدين.
(١٠) الكتاب.
(١١) خاشعين.
(١٢) بآيات.

﴿تقلب الذين كفروا﴾: تنقلهم وتفرقهم.

﴿متاع قليل﴾: أى تمتع قليل إذا قيس بنعيم الآخرة.

﴿مأواهم جهنم﴾: أى المكان الذى يأوون إليه. ﴿بئس المهاد﴾: قبح الفراش.

﴿نزلا من عند الله﴾: النُزل ما يُعد للضيف عند نزوله.

﴿صابروا﴾: غالبوا أعداءكم فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونن أصبر منكم.

﴿رابطوا﴾: أقيموا فى ثغور بلادكم التى يخشى منها على بلادكم.

المعنى: وقَاتَلُوا مَنْ يحارب الدعوة وقُتلُوا استشهادًا فى سبيل الله، الذين فعلوا كل هذا وعزتى وجلالى لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، أثيبهم

بهذا ثوابا من عند الله أى ثوابا عظيما يليق بالمنعم، والأصل ثوابا من عندى لكنه أظهر لفظ الجلالة لتفخيم الثواب. والله عنده الثواب الحسن.

ثم أراد سبحانه أن يبين للمؤمنين أن ماوعدهم به من الثواب هو السعادة الدائمة وماعداه زائل فقال: لايُغرنَّك أيها السامع أو القارئ تنقل الذين كفروا فى البلاد للتجارة والكسب مع التمتع بالحرية وشهوات النفس، فإن كل هذا متاع قليل إذا قيس بنعيم الآخرة الخالد المعد للمؤمنين، ثم بعد هذا التمتع الزائل يكون مأواهم الذى يأوون إليه هو جهنم وبئست فراشا أعدوه لآخرتهم. هذا ما أعد للكافرين.

لكن الذين اتقوا ربهم فلم يعصوه لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حال كون ذلك النعيم نزلاً أعد لهم من عند الله، وماعند الله بعد ذلك من الرضوان الأكبر خير للأبرار من الجنات لأنه نعيم للروح. ثم استثنى من عموم الكافرين من أهل الكتاب المذمومين فيما تقدم فقال: وإن من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله، كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود والنجاشى وأصحابه من النصارى، ومأأنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم هو التوراة والإنجيل الصحيحان، حال كونهم خائفين خاضعين بقلوبهم، لايشترون بآيات الله ثمنًا قليلا كما يفعل مَنْ لم يؤمن من أحبارهم ورؤسائهم أولئك المؤمنون من أهل الكتاب لهم أجرهم مرتين كما فى الآية (٥٤) من سورة القصص صفحة ٥١٤.

إن الله سريع الحساب. أى يحاسب جميع الخلائق فى أقصر وقت ويوفى كلا جزاءه. يأيها الذين آمنوا اصبروا على مشاق التكاليف وصابروا أعداءكم أى اغلبوهم فى الصبر على الجهاد والشدائد حتى يعجزوا هم دونكم، ورابطوا بعدتكم فى منافذ بلادكم حتى لايفاجئكم عدوكم على غرة منكم، واتقوا الله فلا تعصوه، لأن التقوى أساس النجاح، يرجى لكم الفلاح وهو الفوز بالمطلوب فى الدنيا بالعزة وفى الأخرى بالنعيم. نسأل الله تعالى حسن الختام.

(٤) سورة النساء مدنية
وآياتها ستة وسبعون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[1] وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ[2] أَمْوَٰلَهُمْ[3] ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ[4] إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ[5] ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ[6] فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ[7][8] ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً[9] أَوْ مَا مَلَكَتْ

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وبث منهما﴾ أى نشر وفرق فى الأرض من النفس وزوجها.

﴿الأرحام﴾ المراد بها روابط القرابة.

﴿الخبيث بالطيب﴾: المراد بالخبيث الردىء من الأشياء وبالطيب الجيد.

﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾: أى لاتأخذوها لتضموها إلى أموالكم. ﴿حوبا﴾: ذنبا.

﴿ما طاب﴾: ماحل. ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾: أى اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا.

المعنى: يأيها الناس المؤمن منكم والكافر اتقوا ربكم بالبعد عن معاصيه، الذى أنشأكم من نفس واحدة هى آدم عليه السلام ثم خلق الله حواء من آدم، يقول رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج مافي الضلع أعلاه، فإن ذهبت لتقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج» فكنتم نوعًا واحدًا يسهل بينكم التآلف. ثم بيّن سبحانه كيفية خلقهم المذكور فقال عاطفا على مقدر مفهوم من السياق وخلق منها أى من نوعها زوجها والأصل خلق تلك النفس أولاً ثم خلق من نوعها زوجها ثانيا ليسنجما وتكون بينهما المودة والرحمة المشار إليهما فى الآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣، ثم فرع منهما رجالا كثيرا ونساء كثيرات ونشرهما فى أنحاء الأرض ليعمروها، أنظر المراد من النفس الواحد فى الآيات

---

(١) واحدة . (٢) اليتامى. (٣)، (٤) أموالهم. (٥) أموالكم.
(٦) اليتامى. (٧)، (٨) وثلاث ورباع. (٩) فواحدة.

(١٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٤ و (٧٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٥ و (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣ و (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ ونظير هذا الاستعمال ماتقدم فى الآية (١٦٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٠. ثم أكد الأمر بالتقوى بقوله واتقوا الله الذى تساءلون به، الذى يسأل بعضكم بعضا قضاء حاجته بسبب تعظيم المسئول له تعالى. كان الرجل يقول لصاحبه اسألك بالله أن تفعل هذا أى أطلب منك أن تفعل كذا بسبب إيمانك به تعالى وتعظيمك له. واتقوا الأرحام أى واتقوا قطعها بأن تصلوها، وقرئ والأرحام بكسر الميم. ومعنى هذه القراءة وتساءلون بالأرحام وكان الرجل منهم يقول لصاحبه أسألك بالرحم التى بينى وبينك أن تفعل كذا. فكأنه سبحانه وتعالى يقول: لاتفرطوا فى هاتين الرابطتين بينكم رابطة الإيمان بالله ورابطة القرابة. إن الله كان عليكم رقيبا يعلم كل أعمالكم ويحاسبكم عليها. وآتو أيها الأوصياء اليتامى الذين تحت وصايتكم أموالهم أى لاتفتروا عليهم بل أنفقوا عليهم شيئا فشيئًا مع الاعتدال، ولاتختزنوها باسم حفظها وأنتم تطمعون فى إخفائها أو تنتظرون موتهم لتأخذوها ميراثا، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب أى لاتأخذوا الطيب من أموال اليتيم وتضعوا مكانه الخبيث من أموالكم؛ كانوا فى الجاهلية يأخذ الوصى الشاة السمينة من مال القاصر ويعطى بدلها هزيلة، ولاتأخذوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم بدون عوض مطلقًا، لأن كل ما تقدم النهى عنه كان إثما كبيرا. وروى عن عائشة أن الرجل فى الجاهلية تكون فى وصايته اليتيمة الغنية بنت عمه مثلا ويعجبه جمالها ويرغب فى مالها الذى ملكته من غير طريق الميراث لأن العرب ماكانت تورث الصغير كما سيأتى فيتزوجها بأقل من صداق مثلها فنهى الله عن ذلك وأمرهم بالعدل وقال وإن خفتم ألا تعدلوا فى الصداق ولم تطمئن نفوسكم إلى العدل فى صداقهن فتزوجوا ماحل لكم غيرهن مثنى وثلاث إلخ. أى كل واحد يأخذ مايستطيع من هذا العدد بشرط العدل والقدرة على النفقة فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات فتزوجوا واحدة فقط أو عاشروا ما ملكت أيمانكم من الإماء لأنه ليس لهن من الحقوق مثل ما للزوجات. من أراد معرفة رأى عائشة فى تفسير الآية فليرجع لحديث رقم ٥٠٣ من كتابنا صفوة صحيح البخارى.

أَيْمَٰنُكُمْ[1] ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ[2] نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ[3] ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا[4] وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ[5] حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ[6] وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ[7] فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ[8] وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ[9] وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ

﴿أدنى﴾: أقرب. ﴿ألا تعولوا﴾: العول الجور، أى أقرب إلى ألا تجوروا أى إلى عدم الجور. ﴿صدقاتهن﴾: جمع صدقة بفتح فضم لغة فى الصداق، والمراد مهورهن. ﴿نحلة﴾: أى عطية طيبة بها نفوسكم غير طامعين فى استرداد شىء منها. ﴿هنيئا﴾: مستلذا لاتنغيص بعده.

﴿مريئا﴾: حسن التغذية.

﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو السيئ التصرف لصغر أو تبذير ذكرا كان أو أنثى.

﴿قياما﴾: أى بها قيام حياتكم ومعاشكم.

﴿وابتلوا اليتامى﴾: اختبروهم فى حسن التصرف قبل البلوغ بأن تعطوهم بعضا من المال ليتصرفوا فيه تحت مراقبتكم. ﴿بلغوا النكاح﴾: أى بلغوا السن المؤهل للزواج. ﴿آنستم منهم رشدا﴾: أى تبينتم منهم صلاحا فى المعاملة المالية. ﴿إسرافا وبدارًا أن يكبروا﴾: أى لاتتعجلوا فى أكلها لأجل أن تسرفوا فيه وتبادروا بالأكل قبل أن يكبر صاحب المال فينزعه من أيديكم.

المعنى: ذلك الاقتصار على الواحدة أقرب إلى عدم الجور أى العدل، وأعطوا النساء مهورهن حال كونها نحلة أى عن طيب نفس، فإن رضيت نفوسهن عن إعطائكم شيئًا من الصداق، أى من غير إضرار منكم ولا خديعة فيحل لكم أن تأخذوه حال كونه هنيئًا مريئا

(١) أيمانكم.
(٢) صدقاتهن.
(٣) أموالكم.
(٤) قياما.
(٥) اليتامى.
(٦)، (٧) أموالهم.
(٨)، (٩) الوالدان.

والمراد بالأكل مطلق التصرف. ولاتؤتوا السفهاء يأولى الأمر أموالكم، المراد أموالهم وإنما نسبها لأولى الأمر لحملهم على المحافظة عليها كأنها أموالهم، الأموال التى جعلها الله لكم أيها المسلمون قيام حياتكم وعليها نظام معاشكم، وارزقوهم فيها أى اجعلوا أموالكم مكان رزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتنموها فتكون نفقاتهم من الربح لا من أصل المال وإلا نفد، ولهذا لم يقل وارزقوهم منها وقولوا لهؤلاء السفهاء فى حال اعتدالكم فى الصرف عليهم قولاً طيبا ترضاه نفوسهم، فإن كان السفيه صبيا فقولوا له مثلا هذا مالك نحفظه لك وسنسلمه لك قريبا، وإن كان السفيه كبيرا وعظتموه وعرفتموه عاقبة الإتلاف من الفقر والحاجة إلى الغير لعله يتنبه. واختبروا اليتامى قبل البلوغ حتى إذا بلغوا الحلم وعلمتم رشدهم فسلموهم أموالهم فورا. ثم أكد الأمر بالدفع بقوله: ولا تأكلوها إلخ، ليرتب عليه بعض دواعى الأكل ليحذرهم إسرافا أى لأجل الإسراف فى أخذها مبادرين به قبل أن يكبروا فينتزعوها من أيديكم، ومَنْ كان من أولياء اليتامى غنيًا بماله الخاص فالواجب أن يحمل نفسه على العفة عن مال القاصر ويرجو بولايته ثواب الله، ومن كان منهم فقيرا فليأكل من مال الفقير بالقدر المعروف عند العقلاء الصالحين وهو مايسد الجوع ويستر العورة. فإذا سلمتوهم أموالهم عند الرشد فأشهدوا عليهم أنهم تسلموها على حالة كذا سدا لباب التنازع وقطعا لوسوسة الشياطين. وكفى بالله محاسبا مجازيا للمحسن والمسيئ فاحذروه. وكان أهل الجاهلية لايورثون إلا مَنْ يدافع عن العشيرة، فلا يورثون النساء ولا الصغار، وكان هذا ظلمًا للضعفاء، فأنزل الله تعالى إبطالا لذلك: للرجال نصيب بينته الآيات الآتية، والمراد بالرجال الذكور كبارًا وصغارًا، مما ترك أحد والديهم أو أقربائهم الميتين، وللنساء نصيب كذلك كبيرات أو صغيرات من المتروك قليلا أو كثيرا، جعله الله تعالى لهم ولهن نصيبا مفروضا، أى محتما ليس لأحد أن ينقص منه شيئًا. وإذا حضر قسمة التركة أحد من قرابة الميت الذين لايرثون. فإنهم يعطون من نصيب الورثة الأغنياء لا لحاجة القريب ولكن ليشعر بمحبة قريبه الوارث له بإهدائه ما أعطى فلا يتسرب إلى نفسه حسد على المال الذى نزل على الوارث من السماء من غير نصب ولا مشقة.

وَٱلْيَتَـٰمَىٰ[1] وَٱلْمَسَـٰكِينُ[2] فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا[3] خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ[4] ٱلْيَتَـٰمَىٰ[5] ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ[6] ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً[7] فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

المعنى: كذلك إذا حضر القسمة اليتامى والمساكين الأجانب فأعطوهم مما ترك الميت قبل القسمة إن كان الورثة كلهم كبارا، أما الصغار فلا يؤخذ من نصيبهم شيء، وقولوا لليتامى والمساكين قولا معروفا فيه اعتذار لهم بحرمة التصرف فى مال القاصر، وحكمة إعطاء ذوى القربى غير الوارثين أن المال الذى يأتى الشخص من غير مشقة قد يثير فى النفوس الحسد، فيطلب التودد إليهم بحسب مايليق بحالهم كالهدية مثلا، وذلك فضلاً عما فيه من صلة الرحم وشكر المنعم، فإنه يصرف النفوس عن الحسد إلى المحبة.

ورأى بعض العلماء أن القول المعروف مطلوب حتى إذا كان الورثة كبارا، وذلك بملاطفة الآخذ حتى لايتأذى عزيز النفس. وليخش الله الأوصياءُ الذين لو تركوا من خلفهم أى بعد موتهم ذرية ضعافًا مثل الذين تحت أيديهم الآن خافوا عليهم أن يسيئ الناس معاملتهم، والمراد أنه يجب على الأوصياء أن يقدروا فى أنفسهم أنهم هم الذين ماتوا، وأن هؤلاء اليتامى أبناؤهم، فيعاملونهم بالشفقة والرحمة التى يحبونها لهم، فليتقوا الله فى أمر مَنْ تحت أيديهم من اليتامى، وليقولوا لهم فى مخاطبتهم وتربيتهم قولاً سديدا فيه جبر خاطرهم على فقد آبائهم،

(١) واليتامى.
(٢) والمساكين.
(٣) ضعافا.
(٤) أموال.
(٥) اليتامى.
(٦) أولادكم.
(٧) واحدة.

كأن يقولوا فى مخاطبتهم: افعل هذا يابنى أو ياولدى، ويستقبلوهم بحسن الترحيب، ويرشدوهم إلى محاسن الآداب بالحكمة والموعظة الحسنة. فسبحان الرحمن الرحيم الذى أدب الكبير، وجبر خاطر الصغير، فله الحمد على كل حال.

إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم مايجر إلى النار، وسيصلون أى سيدخلون سعيرا أى نارا شديدة.

يوصيكم الله أى يأمركم فى شأن ميراث أولادكم بأن تجعلوا للذكر مثل نصيب الأُنثيين إذا اجتمع فى الورثة ذكور وإناث، أما إن كان الورثة كلهم نساء أى بنات ليس معهن ابن فوق اثنتين أى زائدات على بنتين فلهن ثلثا ماترك الميت، وإن كانت واحدة فلها النصف، أما لو ترك بنتين فقط فنهما الثلثان لأن الثلثين ثبت للأختين كما فى آخر آية من هذه السورة فالبنتان أولى، ولأن البنت تستحق الثلث مع الولد الذكر فمع البنت أولى؛ ولأبويه أى والد الميت ووالدته لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ذكر أو أنثى، إلا أنه إن كان الولد أنثى فالأب يأخذ السدس فرضا وباقى التركة بعد الفروض تعصيبا، فإن لم يكن له أى للميت ولد وورثه أبواه فقط فلأمه الثلث وللأب الباقى، أما إذا وجد معهما أحد الزوجين كان ثلث مابقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة للأم والباقى للأب. فإن كان للميت أخوة اثنان فصاعدا ذكورا أو إناثا فلأمه السدس والباقى للأب ولا شىء للإخوة، لأن الأب حجبهم. وهذا التوريث من بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء دينه. آباؤكم وأبناؤكم لاتعلمون أنتم أيهم أقرب لكم نفعا. والمراد أن الله تعالى فرض تلك الفرائض حسب علمه وحكمته، ولو وكلها إليكم لما علمتم أيهم أنفع لكم فتقعوا فى الخطأ وتعطوا مَنْ يضركم وتحرموا مَنْ ينفعكم، لذلك فرض الله تعالى عليكم هذا التقسيم فرضًا محتما صادرًا من الله العليم الحكيم.

﴿كلالة﴾: الكلالة هو الذى لا والد له ولا ولد.

المعنى: ولكم نصف ماترك زوجاتكم إن لم يكن لهن ولد ذكرًا أو أنثى. فإن كان لهن ولد منكم أو من غيركم فلكم الربع مما تركن، تأخذونه من بعد إخراج قيمة الوصية التى أوصين بها وتسديد الدين الذى عليهن.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ(١) إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً(٢) أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ(٣) مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ(٤) تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ(٥) خَٰلِدِينَ(٦) فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

وللزوجات واحدة أو متعددات الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد منهن أو من غيرهن، يقسم بينهن بالسوية، فإن كان للزوج ولد ذكرا أو أنثى فللزوجة أو الزوجات الثمن من بعد إخراج الوصية وتسديد الدين ويقدم الدين فى كل الأحوال على الوصية إذا ضاق المال عن سدادها. وإن وجد رجل يورث حال كونه لا والد له ولا ولد أى لافرع ولا أصل أو امرأة كذلك ولأحدهما أخ أو أخت لأم فلكل واحد منهما السدس. فإن كان الأخوة أو الأخوان من أم أكثر من واحد بأن كانوا اثنين فما فوق فهم شركاء فى الثلث للذكر مثل الأنثى. أما إذا كان الأخ من الأب فإنه يرث بالتعصيب أى يأخذ كل الباقى إذا انفرد، أو إذا كانت الأخت من الأب وانفردت ترث النصف كما سيأتى آخر السورة. وتحترم وصية الميت إذا كان غير مضاربها للورثة، كأن يوصى بأكثر من ثلث تركته أو يوصى لوارث، ومن وجوه الضرر أن يقر بدين لا حقيقة له لزوجته أو لغيرها، إلى غير ذلك مما يعود على الورثة بالضرر، فإن كل ذلك يهمل ولا يلتفت إليه. يوصيكم الله بالمحافظة على هذا التقسيم وصية صادرة منه، وهو العليم بمَنْ يجور ومَنْ يعدل فى وصيته، حليم من شأنه أن لايعجل بالعقوبة فلا يغتر المضار بالإمهال، تلك الأحكام المذكورة فى اليتامى والوصايا والمواريث حدود الله وضعها فاصلة بين الحق والباطل، فلا يجوز تعديها، فمن يطعه سبحانه بالمحافظة عليها يدخله جنات إلخ، ومَنْ يعص الله ورسوله ويتعد حدوده التى بينها هنا وغيرها يدخله نارا...

(١) أزواجكم. (٢) كلالة. (٣) واحد.
(٤) جنات. (٥) الأنهار (٦) خالدين.

يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟

﴿اعـتـدنا﴾: أصله أعـددنا أى هيـأنا.

﴿ولاتعـضلوهن﴾: أصل العـضل الحـبس والتضييق، والمراد هنا لاتمنعوهن عن الزواج.

المعنى: مَنْ يعص الله يدخله نارًا خـالدا فيـهـا وله عـذاب شـديد الأهانة. والنسـاء اللاتى يفـعلن الفـاحـشـة وهـى السـحـاق وهو ماتفعله المرأة مع مثلها، فاستشهدوا عليهن أربعة من رجالكم، فإن شهدوا فاحبسوهن فى البيوت بأن توضع المرأة وحدها بعيدة عَمنْ كانت تساحقها حتى يتوفاهن مَلَك الموت أو يجعل الله لهن سبيلا إلى الخروج من الحبس بالتوبة أو بالزواج المغنى عن المساحقة.

والرجلان اللذان يأتيان الفاحشة وهى اللواط فآذوهما بعد ثبوت ذلك بالشهادة أيضًا، فإن تابا قبل إيذائهما بإقامة الحد عليهما بأن ندما وأصلحا كل أعمالهما وطهرا نفسيهما فأعرضوا عنهما، أى كفوا عن إقامة الحد عليهما، إن الله كان كثير قبول التوبة من المخلص، شديد الرحمة فيغلبها على الغضب.

ولما ذكر سبحانه أن التوبة مع الإصلاح تقتضى ترك العقوبة فى الدنيا اتبع ذلك بشرط قبول التوبة: إنما التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه قبولها تكون للذين يعملون السوء

(١) خالدا.
(٢) واللاتى.
(٣) الفاحشة.
(٤) يتوفاهن.
(٥) واللذان.
(٦) يأتيانها.
(٧) بجهالة.
(٨) الآن.

بجهالة أى بحمق وسفاهة ثم يتوبون من قريب أى عقب الذنب مباشرة كما فى الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥.

هذا هو الوقت الذى تقبل فيه التوبة قطعا بأذن الله. والآية الآتية بينت الوقت الذى لاتقبل فيه قطعا، والتوبة فى غير هذين الوقتين مسكوت عنها فهى محل رجاء وخوف، فكلما قرب وقت التوبة من وقت الذنب كان رجاء العفو أقوى، وكلما بعد بالإصرار وعدم المبالاة كان عدم القبول أقوى. أنظر ماتقدم فى سورة البقرة الآية (٨١) صفحة ١٦، وكان الله عليما بإخلاص التائب وعدمه، حكيما فى جعل الندم توبة حتى يرغم أنف الشيطان: وليست التوبة المقبولة للذين يعملون السيئات ويستمرون مصرين عليها إلى أن يحضرهم الموت أو يأخذوا فى النزع ويصبحوا عاجزين عن الذنب فيتوبوا، ولا للذين يموتون وهم كفار أى إذا تابوا فى الآخرة لاتقبل توبتهم. أنظر الآية (١٠٦) من سورة المؤمنون ومابعدها صفحة ٤٥٥ والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤. أولئك المذكورون من الفريقين اعتدنا وهيأنا لهم عذابا شديد الألم.

وكان عادة أهل الجاهلية أن يرث الرجل نساء أقربائه. فإن شاء تزوج المرأة منهن بلا صداق وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء منعها من الزواج حتى تفتدى بمال، وإلا تركها حتى يرثها، فجاء الإسلام بالنهى عن هذه الوحشية، فقال سبحانه: لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها عنهن. والتقييد بالكره لتشنيع عليهم، وإلا فلا يجوز أن يرثها برضاها، أى لايجوز أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما يورث المتاع والحيوان، ولا يحل لكم أيضًا منعهن عن الزواج بغيركم بأن تمسكوهن فى عصمتكم مع الإعراض عنهن وإظهار الكراهة لهن ولا تطلقوهن لتضايقوهن حتى تذهبوا أى تأخذوا بعض ما آتيتموهن...

﴿فاحشة مبينة﴾: معصية واضحة كالزنا والنشوز. ﴿قنطارا﴾: المراد به هنا صداقا كثيرا. ﴿بهتانا﴾: ظلما. ﴿أفضى بعضكم إلى بعض﴾: أطلع كل منكما صاحبه على عورته. ﴿ميثاقا غليظا﴾: عهدا مشددا على الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، الآية (٢٢٩) من سورة البقرة صفحة ٤٦.

المعنى: لايحل لكم أن تمنعوهن عن الزواج لتأخذوا بعض ماأعطيتموه لهن من الصداق إلا أن يرتكبن معصية واضحة ثابتة كالزنا أو الخروج على طاعة الزوج، فعند ذلك يجوز لكم أن تضايقوهن حتى يفتدين منكم بالخلع وهو أن تدفع المرأة مالا نظير إطلاق سراحها.

أما إذا لم تأت الزوجات بما يشين فيطلب منكم أن تعاشروهن بالمعروف المستحسن من الإنصاف فى المبيت والنفقة وجميل القول، فإن كرهتموهن لعيب فيهن غير ماتقدم

بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ[1] مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ[2] قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا[3] وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا[4] غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً[5] وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ[6] وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ[7] وَعَمَّٰتُكُمْ[8] وَخَٰلَٰتُكُمْ[9] وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ[10] الَّٰتِىٓ[11] أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم[12] مِّنَ الرَّضَٰعَةِ[13] وَأُمَّهَٰتُ[14] نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ[15] الَّٰتِى[16] فِى حُجُورِكُم مِّن

فاصبروا، فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، من ثواب جزيل، أوولد صالح، أو حفظ مال وعرض، إلى غير ذلك. وكان من أسباب مضارة الزوجات أن الرجل تعجبه المرأة غير زوجته ولا يستطيع الجمع بينهما فيضار زوجته حتى يلجئها إلى دفع ماأخذته ليتزوج مَنْ

(١) بفاحشة.
(٢) إحداهن.
(٣) بهتانًا.
(٤) ميثاقا.
(٥) فاحشة.
(٦) أمهاتكم.
(٧) وأخواتكم.
(٨) وعماتكم.
(٩) وخالاتكم.
(١٠) وأمهاتكم.
(١١) اللاتى.
(١٢) وأخواتكم.
(١٣) الرضاعة.
(١٤) وأمهات.
(١٥) وربائبكم.
(١٦) اللاتى

يريدها، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك فقال: وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، تطليق امرأة وتزوج أخرى، والحال أنكم آتيتم المرأة المراد طلاقها صداقا بالغا حد الكثرة، فلا تأخذوا من هذا الصداق الكثير شيئا ولو قليلاً وهل يصح أن تأخذوه ظلما وإثما مبينا. ثم كرر التوبيخ بقوله: وكيف تأخذونه وقد خلا كل منكما بصاحبه بدون ستر، وأيضًا أخذ الله لأجلهن عليكم عهدا مشددا بأن تعاشروهن بمعروف. ولاتتزوجوا أو تبقوا فى عصمتكم من النساء مَنْ كانت زوجا لآبائكم، والمراد بالآباء ما يعم الأجداد أيضًا، لكن مامضى يعفو الله عنه بشرط مفارقته لها عند علمه بالتحريم. إن زواج الابن زوجة أبيه كان فاحشة بالغة فى القبح، ومقتا من الله ومن المؤمنين ذوى المروءة، وقبح طريقًا يسلكه عاقل عنده حياء. ولهذه المناسبة ذكر بقية المحرمات من النساء فقال: حرمت عليكم أمهاتكم ويشمل الجدات. وبناتكم ويشمل بنات الأولاد، وأخواتكم ولو لأم، والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت كذلك، ولو لأم، وأمهاتكم اللاتى جاءت أمومتهن من الرضاعة فقط، وأخواتكم من الرضاعة كذلك.

وقد أنزل سبحانه الرضاعة منزلة النسب فجعل المرضعة أما للرضيع، وبحكم ذلك يكون زوجها أبًا له وجده جدا، وكل ولد ولدته المرضعة قبل رضاعه أو بعده فهو أخوه، وحرمت عليكم أمهات زوجاتكم بمجرد العقد على بنتها ولو طلقها قبل الدخول، وربائبكم أى بنات زوجاتكم من رجل آخر اللاتى يغلب أن يربين تحت رعايتكم مع أمهن، فالقيد للغالب، وإلا فبنت الزوجة محرمة ولولم تترب فى حضانة زوج أمها.

﴿حلائل﴾: جمع حليلة وهى الزوجة. ﴿سلف﴾: مضى. ﴿المحصنات﴾: الإحصان يطلق فى القرآن على أربعة معان: الإسلام والحرية كما فى الآية (٢٥) الآتية، والعفة كما فى الآية (٢٥) أيضًا والآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦، والآية (٤)، (٢٣) من سورة النور صفحتى ٤٥٧، ٤٦٠، والزواج كما هنا. وسميت بذلك لأن زوجها يحصنها ويحفظها من الخطيئة.

وإذا كسرت الصاد فالمراد أنها أحصنت فرجها كما فى الآية (١٢) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

﴿مسافحين﴾: السفاح الزنا.

﴿أجورهن﴾: مهورهن.

﴿طولا﴾: غنى.

﴿من فتياتكم المؤمنات﴾: هنا كلام كثير فى شرط الإيمان وذكر الألوسى رأيين. أنظرهما فى أول الجزء الخامس للألوسى.

نِسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى[1] دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ[2] أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ[3] وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ[4] مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ[5] كِتَٰبَ[6] ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم[7] مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ[8] فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم[9] بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[10] ٱلْمُؤْمِنَٰتِ[11] فَمِن[12] مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم[13] مِّن فَتَيَٰتِكُمُ[14] ٱلْمُؤْمِنَٰتِ[15] وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم[16] بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ

المعنى: ومحل تحريم بنت الزوجة إذا دخل الزوج بالأم. أما إذا طلق الأم قبل الدخول بها فإنه يحل له الزواج ببنتها، وهذا هو قوله سبحانه ﴿من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ وصرح بالمفهوم لشدة العناية بالأعراض فقال: فإن لم تكونوا دخلتم بالأمهات فلا جناح عليكم فى زواج بناتهن بعد طلاق أمهاتهن. وحرم عليكم حلائل أبنائكم ويشمل ابن الابن وإن نزل

(١) اللاتى.
(٢) وحلائل.
(٣) أصلابكم.
(٤) والمحصنات.
(٥) أيمانكم.
(٦) كتاب.
(٧) بأموالكم.
(٨) مسافحين.
(٩) تراضيتم.
(١٠) المحصنات.
(١١) المؤمنات.
(١٢) فمما.
(١٣) أيمانكم.
(١٤) فتياتكم.
(١٥) المؤمنات.
(١٦) بإيمانكم.

وابن البنت، فزوجاتهم تحرم على الجد، الذين من أصلابكم. أما الابن الذى ليس من الصلب كالابن المتبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية فكان الرجل يختار ولدا أجنبيا ويلحقه بأولاده فى كل شىء حتى الميراث، وكانوا يحرمون زوجاتهم على مَنْ تبناهم، فجاء الإسلام وأبطل هذا التحريم، وأجاز أن يتزوج المتبنى زوجة مَن تبناه كما سيأتى فى أول سورة الأحزاب.

أما الابن من الرضاعة فللعلماء فيه رأيان، فالجمهور على أنه كابن النسب تحرم زوجته. واختار بعضهم حل زوجته لأنه ليس ابن صلب والله تعالى حرم زوجة ابن الصلب فقط. ومما يحرم عليكم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد، وأدخل ﷺ فى حكمهما الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، لكن ماسلف ومضى من ذلك لايعاقبكم الله عليه، بشرط أن يفارق إحداهما عند سماع الحكم. وحرم عليكم المحصنات أى ذوات الأزواج من النساء إلا ماملكت أيمانكم من الإماء فى حرب الدفاع عن الدين وأزواجهن فى دار الحرب لم يقعوا فى الأسر فإنه يصح افتراشهن بعد ثبوت أنهن غير حوامل. كتب الله تعالى عليكم كل تلك الأحكام كتابا أى أوجبها إيجابا. وأحل الله لكم ماسوى ماحرم عليكم. فيما تقدم أن تطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهرًا حال كونكم محصنين أى قاصدين إحصان أنفسكم وزوجاتكم. فالإحصان هنا معناه العفة. وأكد ذلك بقوله غير مسافحين أى زانين، فما طلبتم التمتع به من الزوجات فآتوهن مهورهن التى فرضتموها لهن فريضة أى قدرتموها لهن، أنظر ماتقدم فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة صفحتى ٤٨، ٤٩. ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به أنتم وهن من بعد الفريضة، أى لاحرج بعد تقدير المهر إن تراضيتم على الزيادة فيه أو النقص منه متى كان ذلك عن طيب نفس. ومَن لم يستطع منكم غنى ومالاً واسعا يمكنه من زواج الحرائر المؤمنات، وهذا قيد للأفضل وإلا فالحرة الكتابية مقدمة على الأمة فيحل له أن يتزوج الأمة المؤمنة والله أعلم بمقدار إيمانكم فلا تحتقروا الأمة فقد يكون إيمانها أحسن. بعضكم من بعض، أى متساوون فى الدين، أنظر الآية (١٩٥) من سورة آل عمران صفحتى ٩٥، ٩٦؛ فتزوجوهن بإذن مواليهن، وآتوهن مهورهن.

أجورهن بالمعروف محصنت[1] غير مسفحت[2] ولا متخذت[3] أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفحشة[4] فعليهن نصف ما على المحصنت[5] من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴿٢٥﴾ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴿٢٦﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوت[6] أن تميلوا ميلا عظيما ﴿٢٧﴾ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسن[7] ضعيفا ﴿٢٨﴾ يأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أمولكم[8] بينكم بالبطل[9] إلا أن تكون تجرة[10] عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴿٢٩﴾ ومن يفعل ذلك عدونا[11] وظلما فسوف نصليه نارا

﴿محصنات﴾: المراد هنا عفيفات. ﴿غير مسافحات﴾: أى غير زانيات.

﴿أخدان﴾: جمع خدن بكسر فسكون وهو خليل المرأة التى يزنى بها سرا.

﴿فـإذا أحـصـن﴾: المراد هنا تزوجن.

﴿فاحشة﴾: أى زنا.

﴿ماعلى المحصنات﴾: المراد بها هنا الحرائر الأبكار. ﴿العذاب﴾: المراد به الحد وهو الجلد. ﴿العنت﴾: المشقة والضرر من مقاومة دواعى الفطرة لأنها قد تحدث أضرارًا عصبية أو خلقية.

المعنى: ادفعوا لهن مهورهن بالمتعارف من غير نقص ولا مماطلة حال كونهن عفيفات. وأكد العفة بقوله غير مسافحات، أى غير مجاهرات بالزنا، فإذا تزوجن فإن آتين بفعلة فاحشة وهى الزنا فعليهن من الحد نصف ماعلى الحرائر الأبكار، وهذا النصف خمسون جلدة، ولارجم عليها لأنه لايُنَصّف، وليس معنى هذا أنها لاتحد إذا كانت بكرا، فالحد ثابت عليها مطلقا بهذه الآية وبالسنة الصحيحة. ويقاس على الإماء فى هذا العبيد الذكور. وقد يقال إذا كان نصف الحد ثابتا عليها وهى بكر فلم قيده بالإحصان؟ أجيب بأنه لدفع توهم أنه يزيد بالزواج. ذلك أى نكاح الإماء جائز عند عدم القدرة على زواج الحرة مع خوف المشقة. والصبر

---

(١) محصنات. (٢) مسافحات. (٣) متخذات.
(٤) بفاحشة. (٥) المحصنات. (٦) الشهوات.
(٧) الإنسان. (٨) أموالكم. (٩) بالباطل.
(١٠) تجارة. (١١) عدوانا.

عن زواج الإماء مع العفة خير لكم من جهات كثيرة، منها أن أولادكم سيكونون عبيدًا لمالك الأمة، ومنها أنه لو طلبها سيدها للخدمة فى سفر أو حضر لما جاز لزوجها منعها. ولهذا قال العلماء زواج الأمة كأكل الميتة لايحل إلا للمضطر، والله سبحانه غفور لمن أقدم، رحيم حيث رخص لدفع الحرج.. يريد الله بذكر كل ماتقدم من الأحكام أن يبيّن لكم ماخفى عليكم من مصالحكم وأفضل الأعمال، ويرشدكم إلى طرق الذين سبقوكم من الأنبياء من اختيار الأحكام الصالحة فى كل زمان بما يناسبه، ويريد أيضًا أن يرشدكم لأسباب قبول توبتكم، عليم بما ينفعكم، حكيم لايشرع إلا مافيه مصلحتكم. والله يريد أن يتوب عليكم، أعاده ليربط به مقابله وهو قوله: ويريد الذين يتبعون الشهوات وهم خصومكم من المشركين واليهود الذين لايهتمون إلا بما يحقق شهواتهم ولا يقدرون للعاقبة حسابا أن تميلوا أى تنحرفوا عن الحق حتى تكونوا مثلهم. يريد الله أن يخفف عنكم فيما شرعه، فلا يجعل فيه حرجا كما تقدم فى آخر سورة البقرة، لأنه يعلم أن الإنسان ضعيف لايقدر على مقاومة المشاق والميل الشديد إلى النساء. قال ابن عباس ثمان آيات نزلت فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وهى آيات (٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٤٠، ١١٠، ١١٦، ١٥٢).

وبعدما تكلم سبحانه من أول السورة إلى هنا فى المحافظة على أموال اليتامى والنساء والميراث ناسب أن يذكر قاعدة عامة للتعامل فى الأموال وهى أن لايأخذ أحد مال أحد بطريق غير مشروع كالسرقة والغصب ومنع الإرث إلى غير ذلك، فقال تعالى ﴿لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لكن إذا كانت الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم فلكم أخذها. والمراد كل معاملة مشروعة. ولاتقتلوا أنفسكم أى لايقتل بعضكم بعضا.

وجاء به هنا لأن أكل المال ظلما يسبب القتل غالبا. إن الله رحيم بكم حيث حرم عليكم سبب هلاككم. ومن يفعل ذلك القتل عدوانا أى قصدًا لاخطأ، وظلما لاقصاصا ولا دفاعا، فسوف ندخله نارا.

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا

﴿كبائر﴾: الكبيرة كل معصية اقترن بها وعيد شديد، وقدر لها حد كالزنا والقتل والسرقة. ﴿سيئاتكم﴾: هى الصغائر التى لم تقترن بشىء مما تقدم. ﴿موالى﴾: أى ورثة لهم حق الولاية. ﴿مما ترك﴾: أى على ماترك فمن بمعنى على، انظر الآية (٧٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

﴿والذين عقدت أيمانكم﴾: المراد بهم الزوج والزوجة لأن من عادة عقد الزواج أن يضع كل من طرفيه يمينه فى يمين الآخر. ﴿قوامون على النساء﴾ أى من شأنهم القيام على شئونهن لأن الأسرة لابد لها من رئيس يوجه سياستها ولا يصح أن تكون المرأة كما سيأتى، فتعين أن يكون الرجل. ﴿قانتات﴾: مطيعات لأزواجهن.

﴿حافظات للغيب﴾: أى يجب عليهنَّ حفظه من عرض ومال فى غيبة أزواجهن.
﴿نشوزهن﴾: عصيانهن.

المعنى: وكان إدخالكم النار سهلا عليه سبحانه فخافوه بأن تبتعدوا عن الكبائر التى نهاكم عنها يسقط عنكم الذنوب الصغائر ويدخلكم الجنة دخولا كريما حسنا. ولما فرغ من التعريض لأموال الغير بالجوارح شرع يبّين حرمة التعريض لها بالقلوب كالحسد، فلما قالت النساء: نرث النصف من الرجال فلم لايكون علينا النصف من العقاب فى الذنوب؟.. وقال الرجال: نرجو أن نفضل على النساء فى ثواب الأعمال كما فضلنا عليهم فى الميراث، نزل: ﴿ولا تتمنوا مافضل الله﴾إلخ، والمراد أن لكل من الرجال والنساء أعمالاً تخصه لايقوم بها غيره غالبا،

(١) واسألوا. (٢) موالى. (٣) الوالدان. (٤) أيمانكم. (٥) قوامون.
(٦) أموالهم. (٧) فالصالحات. (٨) قانتات. (٩) حافظات. (١٠) واللاتى.

فعلى الرجال الجهاد ومتاعب الرزق، وعلى النساء الحمل والرضاع والحضانة وشئون المنزل، وكل له أجره على قدر عمله، فيجب أن يرضى كل بما قسمه الله ولا يحسد غيره، وإذا أراد المزيد من الفضل فليتجه إلى الله تعالى ويطلب المزيد بالعمل الصالح لا بالحسد والتمنى؛ ولذا قال ﴿واسألوا الله من فضله﴾ قال ابن عباس: لا يقل أحدكم ليت ما أعطى لفلان كان لى. ولكن ليقل اللهم أعطنى. إن الله كان بكل شىء عليما، فالفضل منه عن علم بأسباب استحقاقه.

ولكل من الرجال والنساء الموروثين جعلنا لهم موالى أى ورثة لهم حق الولاية على ماترك الموروث، وهؤلاء الموالى هم الوالدان والأقربون، والمراد جميع الأصول والفروع والحواشى التى تقدم أول السورة أنها ترث، ويدخل فيهم أيضًا الزوج والزوجة لأن لكل منهما حق الارث بعقد الزوجية.

فآتوهم يأولى الأمر نصيبهم، ولاتمنعوا أحدا حقه، لأن الله تعالى شهيد ورقيب على أعمالكم. والرجال من شأنهم أنهم يقومون على نظام الأسرة التى منها النساء بسبب تفضيل الله تعالى لهم عليهن بأشياء كثيرة منها نقصان استعداد المرأة فى مهام الأمور كما تقدم فى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١؛ ونقصان من ثوابهن فى العبادة لفوات مدة الحيض والنفاس، ومنها أن الرجال خصوا بالرسالة والنبوة والإمامة الكبرى وإقامة الشعائر كالأذان والخطبة وصلاة الجمعة، وبما أنفقوا من أموالهم من صداق ونفقة على الزوجة والأولاد والخدم، ثم شرع فى بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، فالصالحات منهن مطيعات للأزواج حافظات لأعراضهن ومال أزواجهن بسبب حفظ الله وتوفيقه لهن لصلاحهن، وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان بخلاف القسم الثانى المبين فى قوله واللاتى تخافون نشوزهن بظهور أماراته كإهمال شئون المنزل أو إظهار الدلال بجمالها فعالجوهن بما يأتى على الترتيب: الأول الوعظ بما يلين قلوبهن ويذكرهن بغضب الله فإذا لم ينفع فاهجروهن فى المضاجع بأن تكونوا معهن فى مرقد واحد مع إعراضكم عنهن وليس أقسىَ على المرأة التى تظن أن أنوثتها أقوى سلاح فى إخضاع الرجل من أن ترى الرجل كسر هذا السلاح بحزمه، فإذا لم ينفع هذا أيضًا فى بعض النساء فاضربوهن ضربا غير مبرح قال ابن عباس تضرب بالسواك ونحوه كاليد والعصا الصغيرة، لأن المقصود هو إيلامها

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا[1] يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ[2] إِحْسَانًا[3] وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ[4] وَالْمَسَاكِينِ[5] وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[6] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ[7] اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ[8] عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ[9] رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ[10] لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

نفسيا بأنها استحقت أن تعامل معاملة العبيد، فإن أطعنكم بترك النشوز فلا تبغوا أى تطلبوا لكم عليهن طريقا لإيذائهن. والمراد فكفوا عنهن وسامحوهن.

﴿والجار ذى القربى﴾: هو الذى قرب جواره ولو كان غير مسلم.

﴿والجار الجنب﴾ هو الأبعد من الأول. وحدد بعضهم الجوار بأربعين دارًا. والأصح أن الجار المطلوب الإحسان إليه هو الذى تراه فى غدوك ورواحك وتشعر بغيابه.

﴿الصاحب بالجنب﴾: الملازم لك، ويشمل خليلك فى الحضر ورفيقك فى السفر، وامرأتك التى تضاجعك. ﴿مختالا﴾: هو المتكبر الذى يظهر اختياله فى مشيته وحركاته مستعليا على غيره. ﴿فخورا﴾: هو المتكبر الذى يظهر أثر كبره فى أقواله ويكثر من تعداد مناقبه التى يزعم أنه امتاز بها عن الناس.

﴿رئاء الناس﴾: أى رياء ليمدحهم الناس.

المعنى: إن علت أيديكم عليهن بدون حق فاعلموا أن يد الله تعالى عليكم أعلى وأعظم فاجتنبوا ظلمهن. وإن توقعتم آثار شقاق بين الزوجين أو نزاع فابعثوا إليهما رجلا عدلا من

(١) إصلاحا. (٢) وبالوالدين.
(٣) إحسانا. (٤) واليتامى.
(٥) والمساكين. (٦) أيمانكم.
(٧) آتاهم. (٨) للكافرين.
(٩) أموالهم. (١٠) الشيطان.

أهل الزوج ورجلا مثله من أهلها ليكونا حكمين أعرف ببواطن أمورهما وأرغب فى الإصلاح ونفوس الزوجين عنهما راضية، فإن يرد الحكمان إصلاحا يوفق الله بين الزوجين.

والمعنى إن تكن نية الحكمين خالصة بارك الله عز وجل وساطتهما واعبدوا الله أى اخضعوا لسلطانه فى السر والجهر، ولاتشركوا معه شيئًا من مخلوقاته فى الدعاء والتضرع له. وأحسنوا بالوالدين إحسانا بالبر ولين الجانب وأحسنوا بذى القربى وهم أقرب الناس إليكم بعد الوالدين، أنظر الآية (٨٣) من سورة البقرة صفحة ١٦. وأحسنوا لليتامى بالعطف عليهم لتعوضوهم فقد آبائهم، وللجار ذى القربى أى القريب فى المنزل، فالقرابة كما تكون بالنسب تكون بالجوار، والجار الأبعد دارًا من الأول كما تقدم، وصاحبك الذى تغلب مصاحبته لك، وابن السبيل المنقطع عن أهله فى السفر وفى حاجة إلى مساعدة، وإلى الأرقاء الذين ملكتهم أيمانكم بالرفق بهم وعدم تكليفهم مايشق عليهم والمساعدة على عتقهم، أنظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. والآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. ثم بين سبحانه حكمة تلك الوصايا المتقدمة فقال إن الله لايحب من كان مختالا فخورا، لأنهم يأنفون من قرابتهم وجيرانهم الفقراء، أنظر الآيتين (٣٧، ٣٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. هؤلاء المختالون الفخورون هم الذين من شأنهم أن يبخلوا بما آتاهم الله من فضله ولايكتفوا بهذا الجرم بل يأمرون غيرهم بالبخل بغضا للبذل وتسهيلا على أنفسهم بأن يوجد لهم شركاء فى صفتهم وهى البخل، ويخفون ما أنعم الله تعالى به عليهم من السعة والخير. ثم بيّن سبحانه نتيجة بغضه لهم فقال: وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا شديد الإهانة. وهم الذين ينفقون أموالهم لأجل مراءاة الناس ليغتنموا من وراء ذلك متاعا زائلا، ولا يؤمنون بالله إلخ حتى يكون ذلك داعيا لهم إلى الإخلاص فى الإنفاق ولم يجدوا مخلصا ينصحهم، بل لم يصاحبوا إلا شياطين الإنس والجن الذين لايدلون على خير. ومَنْ يكن الشيطان قرينه فبئس القرين قرينه. وأى ضرر يلحقهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر؟ لا ضرر، بل المحقق هو النفع.

﴿ذرة﴾: هى الواحدة من الهباء المنتشر فى الجو. عن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب ثم أخرجها ونفخ فيها وقال كل واحدة من هذه ﴿من الغبار المتطاير﴾ ذرة. ﴿يضاعفها﴾: أى

يزيدها إلى عشر أمثالها كما فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ ﴿عابرى سبيل﴾: أى سالكين إلى الماء طريقا فى المسجد.

﴿من الغائط﴾: أحدثتم حدثا أصغر.

﴿لامستم النساء﴾: أى أحدثتم حدثا أكبر.

﴿فتيمموا﴾: اقصدوا.

﴿صعيدا﴾: هو كل ماصعد على وجه الأرض ولم تدخله صنعة الإنسان كالتراب والحجر غير المدهون بما يغطيه.

﴿طيبا﴾: طاهرا.

وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً[1] يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[2] وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ[3] حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ[4] ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[5] يَشْتَرُونَ

المعنى: وماذا يضرهم لو أنفقوا بعض مارزقهم الله، وكان الله بهم عليما، فلا يظلم فاعل خير مقدار ذرة. وإن تلك الذرة حسنة يضاعفها إلى عشر ويعطى من عنده تفضلا أجرًا عظيما زائدا على الأمثال العشرة. انظر الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. فكيف يصنع هؤلاء المجرمون إذا جئنا يوم القيامة من كل أمة بشهيد يشهد عليهم بما حصل منهم وهذا الشهيد هو نبيهم. وجئنا بك أيها النبى على هؤلاء الذين بعثت إليهم شهيدا على مَنْ آمن وعمل صالحا، ومَن كفر وعمل سيئًا، ومَنْ نافق ومَنْ أخلص. انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

يوم هذا المشهد يتمنى الذين كفروا أن تسوى بهم الأرض فيكونوا هم وهى سواء ترابا لايبعثون حتى يشاهدوا هول هذا الموقف. أنظر آخر سورة ﴿عم﴾ ولايستطيعون كتمان شىء مما عملوا بعد أن يلجئهم الله إلى الاعتراف بعد الإنكار كما فى الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، فأخرس الله سبحانه ألسنتهم وأنطق جوارحهم. أنظر الآية (٦٥) من سورة يس، والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحتى ٥٨٥، ٦٣٢ على الترتيب.

---

(١) يضاعفها. (٢) الصلاة. (٣) سكارى. (٤) لامستم. (٥) الكتاب.

عند ذلك يلقون فى النار وهم مقرون بعدله عز وجل.

وبعد أن نهاهم عن الشرك أراد أن يحذرهم مما قد يجر إليه من حيث لايشعرون فقال ﴿لاتقربوا الصلاة﴾ إلخ؛ نزلت بعد أن صلى أحد المسلمين وهو سكران وقرأ ﴿قل يأيها الكافرون أعبد ماتعبدون إلى آخر السورة﴾ بدون ﴿لا﴾. والمراد لاتقربوا الصلاة أو مكانها حال كونكم سكارى إلى أن تفيقوا وتعلموا ماتقرءون وماتدعون به، وكان مقدمة لتحريم الخمر، ولاتقربوا مكان الصلاة حال كونكم جنب فى جميع الأحوال إلا فى حال كونكم عابرى سبيل الماء = كأن يكون ماء الغسل فى مكان لايصل إليه الجنب إلا بالمرور فى المسجد. ولايليق أن يحمل عابر السبيل على المسافر لأن حكمه سيأتى فى الآية نفسها فلا معنى لتكراره بلا سبب. وقد كانت أبواب بيوت الصحابة من جيران المسجد مفتحة فى المسجد.. وإن كنتم مرضى يضركم استعمال الماء أو مسافرين أو مقيمين وأحدثتم الحدث الأصغر أو الأكبر فلم تجدوا ماء. هذا القيد غير راجع للمرضى قطعا لأن المرض يبيح التيمم مع وجود الماء وراجع قطعا للمقيم المحدث حدثا أصغر أو أكبر، واختلفت الأنظار فى رجوعه للمسافر فقال الجمهور يرجع إليه فلا يتيمم المسافر إلا عند فقد الماء بعد البحث عنه، وقال آخرون لايرجع إليه فتكون الأعذار المبيحة للتيمم ثلاثة: السفر. المرض. عدم وجود الماء فى الحضر. ورجع هذا بأن قيد السفر مع عدم وجود الماء يكون لغوا لأن عدم وجود الماء كان فى إباحة التيمم حتى فى الحضر. وأيضًا إن الشارع اعتبر مشقة السفر، فأباح الفطر للصائم، وقصر الصلاة من أربع إلى ركعتين كما سيأتى قريبا. ومشقة حمل الماء فى السفر والبحث عنه للطهارة أشد من صلاة الركعتين اللتين خففهما سبحانه عن المسافر. فتيمموا اقصدوا بعد دخول وقت الصلاة شيئًا مما صعد على وجه الأرض طيبا أى طاهرًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إلى المرفقين. وأجاز مالك إلى الكوعين إن الله كان عفوا - كثير العفو - والتسامح حيث يسر لكم الصلاة بالتيمم ولم يلزمكم بإعادتها، غفورا لما يصدر من العبد من هفوات ومنها صلاته وهو سكران، وكان ذلك قبل البت فى التحريم وبعد مابيّن سبحانه تلك الأحكام العظيمة من أول السورة إلى هنا أراد أن يحذر المؤمنين من إهمالها كما أهمل أهل الكتاب قبلهم فعاقبهم فقال: ألم تر وتعلم أيها السامع إلى الذين أعطاهم الله نصيبا من التوراة لكنهم حرموا أنفسهم من هدايته، فهم بذلك يشترون الضلالة.

الضَّلَٰلَةَ[1] وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا[2] لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ[3] ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ[4] السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ

﴿الضلالة﴾: مصدر لفعل ضل، قال صاحب المختار ضَلّ ضاع وهلك يضل ضلالاً وضلالة، وقال صاحب المصباح ضَلّ الرجل الطريق يَضِل بكسر الضاد ضلالاً وضلالة أخطأ الطريق المستقيم.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود.

﴿يحرفون الكلم﴾: يغيرون كلام التوراة الذى فيه صفة النبى ﷺ ليبعدوا الناس عن تصديقه.

﴿غير مسمع﴾: كلمة ذات وجهين إن قالها المؤدب فمعناها لا سمعت مكروها؛ لكن الخبثاء يريدون بها لا سمعت خيرًا. ﴿راعنا﴾: تقدم مايريدونه منها فى الآية (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠ وهو نسبة إلى الرعونة.

﴿ليا بألسنتهم﴾: تحويلا للكلام عن ظاهره إلى معنى خبيث، أنظر تفصيل ذلك فى الآية (٧٨) من آل عمران صفحة ٧٥.

﴿نطمس وجوها﴾: الطمس إزالة الشىء أو إخفاؤه أنظر الآية (٨٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٩، ٢٨٠، والآية (٦٦) من سورة يس صفحة ٥٨٥، والآية (٨) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤. والوجه يطلق على وجه البدن المعروف، وعلى وجه النفس أى جهتها التى تقصدها وتسمونها مقصدا، فمن الأول أنظر الآية (١١١) من سورة طه صفحة ٤١٦، ومن

(١) الضلالة.
(٢) وراعنا.
(٣) الكتاب.
(٤) أصحاب.

الثانى انظر الآية (١٢٥) صفحتى ١٢٣، ١٢٤ والآيتين (٣٠، ٤٣) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٦.

﴿فنردها على أدبارها﴾: الرد على الأدبار يكون حسيا ومعنويا؛ فمن الأول أنظر الآية (١٥) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٨، ٢٢٩. والثانى أنظر الآية (٢٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٦.

﴿أو نلعنهم﴾: قال أبو مسلم اللعن هنا مراد به الهلاك ويصح أن تكون ﴿أو﴾ بمعنى (الواو) يقول العربى: للنفس تقاها أو عليها فجورها يريد وعليها فجورها، أنظر شرح الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

﴿أصحاب السبت﴾: تقدم الكلام عليهم فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣. وسيأتى بالتفصيل فى الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠.

﴿لايغفر أن يشرك به) أصل معنى الشرك هو أن يعبد مع الله سبحانه غيره ومعنى الكفر يشمل ذلك ويشمل إنكار شىء من الشرع معلوم بالضرورة كإنكار البعث وإنكار رسالة رسول من الرسل.

فبين الشرك والكفر عموم وخصوص مطلق، فكل شرك كفر، وليس كل كفر شركا.

﴿ويغفر مادون ذلك﴾: أى يغفر ماهو أقل خطرًا من الشرك.

وهو المعاصى العملية التى لاتنافى الإيمان كالسرقة والزنا مثلا وعلى ذلك فالكفر وهو أخو الشرك ومساو له لايغفر أيضًا بل صاحبه مخلد فى النار أنظر الآية (٣٩) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٣٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٧، والآية (٥٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، والآية (٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (١٠) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿يزكون أنفسهم﴾: أصل معنى التزكية تطهير النفس من النفس أنظر الآية (٩) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩. والمراد هنا يمدحونها بالباطل.

المعنى: . يبذلون فى سبيل الضلال وهو الكيد للإسلام ويريدون منكم أن تضلوا سبيل الحق لتكونوا مثلهم فلا يخافوكم أنظر الآيات (١٠٩، ١٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٢١، ٢٣؛ (٧٢، ١٠٠) من سورة آل عمران صفحتى ٧٢، ٧٩؛

والله أعلم منكم بأعدائكم، وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم وحسبكم الله حافظا لكم منهم، وناصرا لكم عليهم.

ومن هؤلاء اليهود قوم وهم أحبارهم يحرفون كلام التوراة مزيلين له عن مواضعه ليضعوا مكانه مايحقق أغراضهم؛ وذلك أنه كان فى التوراة من صفات النبى المنتظر أنه ربعة أى متوسط الطول، ولما جاء ﷺ ووجدوا الوصف منطبقا عليه غيروا الوصف وجعلوه ﴿طويلا﴾ أنظر الآية (٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، ويقولون للنبى ﷺ إذا أمرهم بشىء: سمعنا قولك، يظهرون له أنهم صدقوه، ويقولون فى سرهم همسا من بعضهم لبعض وعصينا كما يفعل المستهزئ الجبان، ويقولون أيضًا فى خطابهم له ﷺ «اسمع» ماتقوله «غير مسمع» هذه الكلمة ذات وجهين إذا قالها مُهَذَّب فإنه يريد بها الدعاء للمخاطب أى لاسمعت مكروها.

وإن قالها خبيث كهؤلاء اليهود فإنه يريد الشر أى لا سمعت خيرًا، ويقولون أيضًا: راعنا، يوهمون أنهم يقصدون انظرنا وهم أن فيك رعونة - حماه الله تعالى منها - يقولون ذلك ليا للكلام وتحويلا له إلى المعنى الخبيث، وطعنا فى الدين بالاستهزاء به، أنظر الآيتين (٥٧، ٥٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا بدل سمعنا وعصينا، واسمع وانظرنا بدل راعنا، لكان خيرا لهم عند الله وأقوم أى أليق بذوى العقول، ولكن أبعدهم الله عن رحمته بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا كعبد الله بن سلام وأصحابه لتغلب سلامة فطرتهم على إفساد اليهود أنظر سبب ذلك فى شرح الآية (١٠٠) من سورة البقرة صفحة ١٩.

يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا من القرآن مصدقا لما معكم من التوراة فى إقرار التوحيد الخالص وإثبات نبوة محمد ﷺ وترك الفواحش إلى غير ذلك، أى سارعوا إلى الدخول فى الإسلام من قبل أن نطمس مقاصدكم من الكيد للإسلام والقضاء عليه، ونرد ذوى المقاصد السيئة منكم على أدبارهم أى خاسرين بسبب انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، أو نسجل اللعنة وهى الطرد من الرحمة مع الإذلال والخضوع لتحكم الطغاة فيهم. أنظر الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٢.

كما لعنا أصحاب السبت لما اعتدوا فيه كما فى الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠. وكان أمر الله مفعولا أى لايستطيع أحد منع ماأراد، فهو تهديد لهم لعلهم يرجعون ولما كان عملهم هذا من ضمن الإشراك بالله لأنه تكذيب لكتابه ورسوله حذرهم سبحانه من خطر الشرك بقوله: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به﴾ فصاحب الشرك مخلد فى النار، ويغفر كل ذنب أقل منه لمن يشاء من عباده، بأن يوفقهم لكثرة الأعمال الصالحة التى تمحو السيئات كما فى الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١.

وسبب عدم غفران الشرك أن من يشرك بالله فقد افترى واجترأ فى الكذب على الله عز وجل، وارتكب إثما عظيما فى فُحشه تصغر بالنسبة إليه جميع الذنوب، لاينفعُهُ شيئًا بل يجلب له سخرية الناس وغضب الله سبحانه، ولما كان من افترائهم على الله ماسجله عليهم فى الآيات (٨٠، ١١١) من سورة البقرة صفحات ١٥، ١٦ ـ ٢٢، (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠، (٦) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، رد عليهم بقوله: ألم تر إلى الذين يزكون أى يمدحون أنفسهم بالباطل بتأثير الغرور، وتزكية الشخص نفسه بالباطل لاقيمة لها، بل الله هو صاحب التزكية الحقة النافعة.

﴿فتيلا﴾: هو مايكون فى شق نواة التمرة مثل الخيط، وتضرب العرب به المثل للشىء الحقير. ﴿الذين أوتوا نصيبا..الخ﴾: هم أحبار اليهود. ﴿الجبت﴾: كل ماخضع له الناس من

دون الله من شيطان وساحر وكاهن.

﴿الطاغوت﴾:

صيغة مبالغة من الطغيان، ويطلق على كل مَنْ تكون طاعته سبب لزيادة طغيانه من مخلوق يعبد أو رئيس يطاع فى الباطل انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿للذين كفروا﴾: اللام بمعنى (فى) أى فى شأن الذين كفروا. ﴿نقيرا﴾: هو الموضع المنخفض فى ظهر نواة التمرة ومنه تنبت النخلة، وأصل النقير موضع منقار الطائر.

يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[1] يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ[2] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ[3] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ[4] ٱلْكِتَٰبَ[5] وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم[6] مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[7] سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ[8] جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟

المعنى: - بل العبرة بتزكية الله لمن يشاء لصلاحهم وتقواهم كما فى الآية (٣٢) من سورة النجم صفحتى ٧٠٢، ٧٠٣. لا لأجناسهم ولاينقص أحد من جزاء عمله شيئًا صغيرًا. فالكلام مثل ماتقدم فى الآية (٤٠) من هذه السورة صفحة ١٠٧.

أنظر أيها النبى وتعجب كيف يفترون على الله الكذب بما تقدم بيانه، وكفى بافترائهم هذا إثما ظاهرا لأنه ثبت من قوله سبحانه أنه لايحابى أحدا بدون عمل لأنه من الجنس الفلانى بل أكرم الناس عنده أتقاهم. ولما ذهب كعب بن الأشرف على رأس وفد من علماء اليهود إلى مكة لتحريض المشركين على محاربة المسلمين قال أبو سفيان هؤلاء هم أهل العلم بالكتب الأولى فاسألوهم هل ديننا خير ونحن نخدم بيت الله ونسقى الحجاج ونكرم الضيف ونفك

(١) الكتاب. (٢) والطاغوت.
(٣) آتاهم. (٤) إبراهيم.
(٥) الكتاب. (٦) وآتيناهم.
(٧) بآياتنا. (٨) بدلناهم.

المكروب. أو دين محمد وقد ترك دين آبائه فقالت اليهود: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى سبيلا ممَنْ آمنوا به.. فنزل فى هؤلاء قوله تعالى: ألم تر وتعجب من ضلال هؤلاء وتضليلهم مع أنهم أعطوا بعضا من التوراة وفيها الحق، يخضعون للشيطان وكل طاغية، ويقولون فى شأن الذين كفروا هؤلاء المشركون أرشد وأقوم من المسلمين طريقا. ولا جرم أشنع من جرم مَنْ يقول إن دين مَنْ يشرك بالله أصوب من دين مَن يؤمن بالله ولذا قال: أولئك اليهود المضللون وهم الذين لعنهم الله عز وجل فلن تجدلهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. ولما كان منشأ نقائص اليهود هم البخل والحقد على غير اليهودى، قال ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ المراد ليس لهم حظ من الملك والسلطان. فلو فرضنا أن لهم نصيبا منه فإنهم لايؤتون الناس كافة غير اليهود شيئًا ولو حقيرًا، وهذا من شدة حسدهم وكراهتهم الخير لغيرهم. وإذا كان هذا حالهم فى محقرات الأموال فكيف لايقتلهم الغيظ.إذا ظهر من العرب نبى يخضع لسلطانه اليهود. ولهذا وبخهم بقوله ﴿أم يحسدون الناس﴾ أى النبى ﷺ وأصحابه على ماآتاهم الله من فضله من كتاب وحكمه وسلطان؛ انظر الحسد فى الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم﴾ إلخ.. المراد أنه إذا كان فضل الله فيما مضى قد شمل أجدادهم وأجداد محمد وهم إبراهيم وذريته ﴿إسماعيل وإسحق ويعقوب﴾ فكيف يريدون الآن قصره عليهم، ولا سبب إلا الحسد. والكتاب والحكمة تقدما فى الآية (١٢٩) من سورة البقرة صفحة ٢٥.

وآتيناهم ملكا عظيما كملك يوسف وداود وسليمان، فلا عجب إذا أوتى محمد وأصحابه ملكا أيضًا، فمن اليهود مَن آمن بالتوراة وما فيها من البشارة بمحمد كعبد الله بن سلام وأصحابه، ومنهم مَنْ أعرض عن كتابهم التوراة فلم يخضع له.

وكفى بجهنم سعيرا لهم. ثم فصل كيف يكون هذا العذاب فقال: كلما نضجت جلودهم بالحريق خلقنا لهم جلودا غيرها جديدة ليذوقوا العذاب لأن الإحساس يصل للنفس بواسطة الجلد الذى فيه الحياه فسبحان العليم بأسرار خلقه.

الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[1] سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ[2] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[3] خَالِدِينَ[4] فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ[5] مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ[6] إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ[7] فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ[8] وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ

﴿مطهرة﴾: تقدم بيانها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦.

﴿ظلا ظليلا﴾: تقدم بيان مثل هذا التركيب فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥.

﴿الأمانات﴾: جمع أمانة وهى كل مايؤتمن عليه الإنسان ويتعلق به حق لغيره ويجب حفظه وأداؤه لصاحبه، وهى أنواع ولذا جمعها، فالمال أمانة، والعلم أمانة يجب بذله لكل منتفع به، والتكاليف التى وضعها الله فى ذمة العبد أمانة.

﴿نعما يعظكم به﴾: أى نعم الشىء الذى يعظكم ويأمركم به وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل.

﴿أحسن تأويلا﴾: أى مآلا فى الآخرة.

﴿الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾: هم منافقوا اليهود.

﴿الطاغوت﴾: تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

والآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩.

المعنى: إن الله كان عزيزا أى غالبا لايمنعه أحد عما يريد، حكيما فى حكمه لايسوى بين المؤمن والكافر كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

(١) الصالحات. (٢) جنات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين.
(٥) أزواج. (٦) الأمانات. (٧) تنازعتم. (٨) الطاغوت.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ تقدم تفسيرها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦؛ وقوله وندخلهم ظلا ظليلا تفصيل لبعض ماتقدم فى قوله سندخلهم جنات نظير مافى الآية (٥٨) من سورة هود، وقال بعضهم هو إدخال غير الأول، فهو كناية عن نعيم الروح بعد ذكر نعيم الجسد من قولهم فلان يعيش فى ظل فلان، أى فى عزِّه وعطفه، وهذا النعيم هو الرضوان الأكبر المذكور فى (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، ظلا ظليلا أى وارفا انظر تفسير هذا التركيب فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥ والكلام جرى على مايعهده العرب من أن هذا يفيد التنعم الكامل وإلا فليس هناك شمس لها حر يتقى، وبعد مابين أن اليهود خانوا أمانة الله فى كتمانهم مافى التوراة من صفته ﷺ وطاعتهم للطواغيت، أراد سبحانه أن يحذر المسلمين من سلوك طريقهم حتى لا يلحقهم غضبه سبحانه فقال: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ والأمانة كما تكون بين الإنسان وربه ككل النعم التى وهبها الله تعالى له فإنه يجب على الإنسان صرفها فيما يرضى الله تعالى، وكذلك تكون بين المرء وأخيه الإنسان كالودائع والعلم. ولما فى أداء الأمانة من المزايا العظيمة شدد سبحانه فى المحافظة عليها، انظر الآية (٢٨٣) من سورة البقرة صفحة ٦١. والآية (٢٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، والآية (٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.. إلى غير ذلك، وإذا حكمتم بين الناس مطلقا ولو كفارًا ولذا لم يقل بين المسلمين لأن العدل مطلق دائمًا، فاحكموا بالعدل، وهو لايقتصر على القضاء بين المتخاصمين، بل يشمل تصرف الوالى، وكل رئيس مع مرؤسيه؛ انظر الآية (١٣٥) الآتية صفحتى ١٢٥، ١٢٦ والآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧؛ ونعم العدل وأداء الأمانة شيئا يعظكم ويوصيكم الله به، فاحترسوا من مخالفة أمره، لأنه سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم ونياتكم. يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله فيما أمر به ونهى عنه فى القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين به القرآن ككيفية الصلاة والحج ومقادير الزكاة وغير ذلك، وأطيعوا أولى الأمر بشرط أن يكونوا منكم أى مسلمين؛ وأولو الأمر الذين يجب طاعتهم هم الجماعة التى يكل إليها المسلمون تصريف شئونهم من العلماء والحكام وقواد الجند والمفكرين الذين يرجع إليهم الناس فى المصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر ليس فيه نص صريح صحيح عن الشارع يخالفه وكانوا مختارين فى إبداء رأيهم وجبت طاعتهم شرعا، وإن اختلف

أولو الأمر فى شىء فردوه إلى الله والرسول. وطريقة الرد أن يختار أولو الأمر من بينهم أو مع ضم غيرهم ممن هم أهل خبرة بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وعلل الأحكام التى يصح القياس عليها، فيعرضوا الأمر على تلك القواعد فما وافقها أخذوا به، انظر الآية (٨٣) الآتية صفحة ١١٥ فإنها تدل على أن الخبراء بالكتاب والسنة هم بعض أولى الأمر كلهم، حيث جعل الاستنباط لبعضهم لا للجميع، إن كنتم تؤمنون بالله لأن المؤمن لايخالف ربه، واليوم الآخر فتخافون شدائده. ذلك الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم فى

وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ[1] ضَلَٰلًا[2] بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ[3] يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم[4] مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَٰنًا[5] وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم[6]

الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة. ثم شرع سبحانه فى بيان طائفة من اليهود وهم المنافقون منهم فقال: ألم تر أيها النبى وتعجب إلى الذين يزعمون كذبا أنهم آمنوا بما أنزل من القرآن وما أنزل من قبلك هى التوراة، ثم بعد ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الكاهن ولى الشيطان، مع أنهم أمروا فى الكتب التى يزعمون أنهم آمنوا بها أن يكفروا به، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤. والآية (٣٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، وبيان ذلك يأتى فيما بعد.

﴿إلا ليطاع﴾: اللام فى ﴿ليطاع﴾ تسمى لام الحكمة أى الحكمة المقتضية لإرسال الرسل هى أن يطيعهم المرسل إليهم فيحصل صلاح الخلق ومثلها فى الآية (١) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ والآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ ﴿شجر بينهم﴾: نشأ واختلط عليهم.

المعنى: كان رجال من يهود قريظة والنضير دخلوا فى الإسلام ونافق بعضهم وأخلص بعضهم، وحصلت بينهم خصومة فى قتيل، وكان أبو برزة الأسلمى من كهان اليهود يقضى بينهم

- (١) الشيطان. (٢) ضلالا. (٣) المنافقين. (٤) أصابتهم. (٥) إحسانا. (٦) دياركم.

فى المنازعات، وكان لايتعفف عن الرشوة، فرغب المنافقون من اليهود فى التحاكم إليه لضعف حجتهم، وأراد المخلصون فى إسلامهم التحاكم إلى النبى ﷺ، وعارض الفريق الأول، فأنزل الله هذه الآيات ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ إلخ. ويريد الشيطان من الإنس والجن أن يبعدهم عن الحق مسافات بعيدة يعسر عليهم معها الرجوع إلى الحق، ثم صرح بما فهم ضمنا من نفاقهم فقال: وإذا قيل لهم أى لهؤلاء المنافقين تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله فى القرآن من الأحكام، وإلى الرسول ليحكم بيننا بما أراه الله تعالى، رأيتهم وصرح بصفتهم ليشعر بعلة الإعراض وهى النفاق، يعرضون عن التحاكم إليك إعراضا متعمدا خوفا من تمسكك بالحق فتضيع شهوتهم الباطلة.

ثم بين سبحانه وتعالى اضطرابهم وجهلهم حيث ظنوا أنهم يستطيعون التغرير به ﷺ فقال: فكيف يكون حالهم إذا أصابتهم مصيبة من المصائب التى لابد أن يقع فيها المنافق فتفضحه بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وإعراضهم عن حكم الله جاءوك للاعتذار حال كونهم يحلفون بالله زاعمين أن الحلف يخفى خبثهم: ماأردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا إحسانا فى المعاملة مع الناس، وتوفيقا بالصلح والتراضى، أولئك المنافقون وهم الذين يعلم الله مافى قلوبهم، فأعرض أيها النبى عنهم ولاتقبل عليهم ببشاشة ولا تكريم، وعظهم ببيان سوء حالهم إذا هم أصروا، وقل لهم فى السر فإنه يؤثر فى النفس مالا يؤثر الجهر أمام الناس قولا يغوص فى نفوسهم ويبلغ غاية مايراد منه. ثم بين سبحانه أنهم أخطأوا الطريق لإهمالهم المسارعة إلى التوبة حيث عولوا على الاعتذار الباطل فقال: وما أرسلنا رسولا من الرسل السابقين إلا ليطاع فيما يأمر به مما فيه مصلحة الجميع بأذن الله أى بأمره تعالى للناس المنزل إليهم أن يطيعوه، ولو أنهم حين ظلموا أنفسهم بالنفاق والتحاكم لغيرك جاءوك عقب المعصية بلا إبطاء فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول مما أهانوه به من الإعراض عنه والتحاكم إلى غيره لوجدوا الله كثير قبول التوبة رحيما بعباده، ولكنهم لم يفعلوا هذا ظانين أن تمويههم الباطل ينجيهم ﴿فلا﴾ أى فليس الأمر كما يظنون وحق ربك لايؤمنون إيمانا ينجيهم إلا بثلاثة شروط: الأول أن يحكموك فيما شجر بينهم من خلاف أى يقبلوك حكما فيما نشأ وصعب حله بينهم من مشاكل، والثانى: ألا يجدوا فى قرارة أنفسهم ضيقا مما قضيت به، والثالث: أن يسلموا، أى ينقادوا لحكمك انقيادا تاما لاتلكؤ فيه. ولما فرغ سبحانه من بيان طريق التوبة السهل الميسر أراد أن يبين كيف

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم⁽¹⁾ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ⁽²⁾ صِرَاطًا⁽³⁾ مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ⁽⁴⁾ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ⁽⁵⁾ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم⁽⁶⁾ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ⁽⁷⁾ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي⁽⁸⁾ كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَاتِلْ⁽⁹⁾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

يكون حالهم لو اشترط فى توبتهم ماكان شرطه على الأمم السابقة فقال: ولو أنا فرضنا وأوجبنا عليهم أى على أمتك أيها النبى إذا أذنبوا وأرادوا التوبة أن اقتلوا أنفسكم كما فعلنا مع بنى اسرائيل قبلهم، انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، أو كتبنا عليهم أخف من القتل وهو الخروج من الديار بالهجرة فرارًا بالدين.

﴿أشَدَّ تثبيتًا﴾: أقرب إلى ثبات إيمانهم.

﴿خذوا حذركم﴾: خذوا سلاحكم أى تيقظوا لعدوكم.

﴿فانفروا﴾: أى سارعوا لقتال العدو إذا تعدى عليكم.

﴿ثبات﴾: جمع ثُبَة بضم ففتح وهى الجماعة المتميزة عن غيرها ﴿وإن منكم لَمَنْ ليبطئن﴾: من بطأ المشدد بمعنى أبطأ، أى يتثاقلن ويتأخرن.. ويلاحظ أن فى هذه الجملة ثلاث تأكيدات لجريمة المنافقين هذه. ﴿شهيدًا﴾: حاضرًا المعنى: لو أوجبنا عليهم قتل أنفسهم أو خروجهم من ديارهم مافعلوه إلا قليل منهم وهم مَنْ صدقوا فى إيمانهم وهم قليل فى كل أمة، انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة (٣١٨)، ولو أنهم فعلوا مايوعظون به من طاعة الرسول والمسارعة إلى الاستغفار لكان خيرًا لهم فى الدنيا والآخرة وأشد تثبيتا لإيمانهم؛ لأن كثرة الطاعات تقوى الإيمان، وإذن لو فعلوا ماطلب منهم وقوى إيمانهم لأعطيناهم من عندنا أجرا عظيما. السعادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة. بسبب مازدنا فى هدايتهم وتوفيقهم إلى

(١) لآتيناهم. (٢) ولهديناهم. (٣) صراطا. (٤) النبيين. (٥) والصالحين.
(٦) أصابتكم. (٧) أصابكم. (٨) ياليتنى. (٩) فليقاتل.

صراط مستقيم وهو المبين فى سورة الفاتحة... ثم أشار إلى أصحاب الصراط المستقيم فقال: ومن يطع الله والرسول فى كل ما أمرا به، فأولئك يكونون مع الذين أنعم الله عليهم بما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، وهم أربع درجات: النبيون.. وهم أعلاهم.، والصديقون وهم الذين بالغوا فى التصديق حتى وصلوا أعلى درجاته وأشرقت بصائرهم حتى صاروا يعرفون الحق من الباطل من أول نظرة، والشهداء جمع شهيد بمعنى شاهد وهم القائمون بالعدل.. الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر المشار إليهم فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

والآية (١٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

والرابعة الصالحون وهم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ولم يبلغوا أن يكونوا حججا ظاهرين حتى يشهدوا على غيرهم كالذين قبلهم وما أحسن هؤلاء رفقاء، فهذا مدح من الله عز وجل دونه كل مدح من الخلق. ذلك الجزاء لمن أطاعه هو الفضل الكامل لأنه من الله ذى الفضل العظيم، وكفى بالله عليما بعباده، فلا يغيب عنه شىء من أعمالهم ونياتهم. وبعد مابيَّن سبحانه مابه صلاح المؤمنين فى الداخل من العدل وعدم الشرك شرع فى بيان مابه أمنهم فى الخارج فقال: يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم، أى احذروا عدوكم، واستعدوا لدفع كيده دائما، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٦، فسارعوا لصد العدو جماعة بعد جماعة حسبما يقتضى نظام الحرب، وانفروا جميعا إذا هجم العدو على دياركم، وعند ذلك يجب على كل مسلم أن يحارب. وهذا يقتضى أن تكون الأمة كلها على استعداد للحرب كل فيما يصلح له. وإن منكم ياجميع المسلمين فيشمل المنافقين وضعاف الإيمان والجبناء لفريقا وعزتى ليبطئن أى ليتبطأ عن الجهاد لنفاقه ولا يحضر فإذا أصابتكم مصيبة بقتل أو هزيمة قال قد أنعم الله علىَّ لأنى لم أكن حاضرًا معهم، ومن فظاعة جرمه أنه يعد مايغضب الله نعمة. ولئن أصابكم فضل من الله كغنيمة مثلا ليقولن ندما على تأخره وتهالكا على الدنيا: ياليتنى كنت معهم فى المعركة فأفوز بالغنيمة كما فازوا، يقول ذلك كأنه لم يكن بينكم وبينه مودة ولا تعارف، أى يقول قول العدو. ومن جهلهم أنهم عدوا الفوز بحطام الدنيا الفانى فوزًا عظيمًا، فاتركوا هؤلاء جانبًا، وليقاتل فى سبيل الله....

الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ
هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ
فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ

﴿يشرون﴾: يبيعون.. قيل فى كتاب لسان العرب: للعرب فى كلمتى (شروه) و(اشتروه) مذهبان. فالأكثر منهما أن تكون لفظ شروه بمعنى باعوه... واشتروه بمعنى ابتاعوه.. وربما جعلوهما بمعنى واحد.

وقيل فى المختار.. شرى فلان الشىء إذا باعه، وإذا اشتراه أيضا فهو من الأضداد وقال الراغب ﴿شريت﴾ بمعنى بعت أكثر استعمالا عند العرب ومن هذا يتبين أن الأكثر فى شرى وباع تقديم الشىء وأخذ الثمن والقليل العكس.

وأن اشترى وابتاع الأكثر فيهما تقديم الثمن وأخذ الشىء ولهذا لم تأت شرى فى القرآن إلا بمعنى باع، وذلك فى أربعة مواضع فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠، والآية (٢٠٧) من سورة البقرة صفحتى ٤٠، ٤١ والآية (٧٤) التى هنا فى هذه السورة والآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ .. لكنها جاءت فى كلام العرب قليلاً بمعنى ﴿اشترى﴾ كما فى قول عنترة العبسى.

حصانى كان دلال المنايا.. فخاض غمارها وشرى وباعا

و﴿اشترى﴾ جاء فى القرآن بالمعنيين إلا أنها بمعنى أخذ الشىء ودفع الثمن أكثر، فبمعنى باع لم يأت إلا مرة واحدة بينما جاء بالمعنى الأول فى (١٩) موضعا... الأول - الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ الثانى - الآية (٤١) من سورة البقرة صفحة ٩.... والثالث - الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥ ... ~~الرابع - الآية (٨٦)~~ من سورة البقرة صفحة ١٧.. الخامس - الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠..

---

(١) الحياة. (٢) يقاتل. (٣) تقاتلون. (٤) والولدان. (٥، ٦) يقاتلون.
(٧) الطاغوت. (٨) فقاتلوا. (٩، ١٠) الشيطان. (١١) الصلاة. (١٢) الزكاة. (١٣) متاع.

السادس - الآية (١٧٤) من سورة البقرة صفحة ٣٣..

السابع - الآية (١٧٥) من سورة البقرة صفحة ٣٣..

الثامن - الآية (٧٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٥..

التاسع - الآية (١٧٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٢..

العاشر - الآية (١٨٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٤..

الحادى عشر - الآية (١٨٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٤..

الثانى عشر - الآية (١٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٩٦..

الثالث عشر - الآية (٤٤) من سورة آل عمران صفحتى ١٠٧ - ١٠٨..

الرابع عشر - الآية (٤٤) من سورة المائدة صفحة ١٤٥..

الخامس عشر - الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨..

السادس عشر - الآية (٩) من سورة التوبة صفحة ٢٤١..

السابع عشر - الآية (٢١) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥..

الثامن عشر - الآية (٩٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٩..

التاسع عشر - الآية (٦) من سورة النحل صفحة ٥٣٩..

أما المرة التى جاء فيها بمعنى باع فهى الآية (٩٠) من سورة البقرة صفحة ١٨.. فاحفظ هذا واستصحبه معك فى كل المواطن.

﴿القرية الظالم أهلها﴾: هى مكة لما كانت تحت سيطرة المشركين.

﴿الطاغوت﴾: تقدم شرحها فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤ والآية (٥١) من ~~سورة النساء صفحة ١٠٩~~..

المعنى: - فليقاتل فى سبيل الله الذين يبيعون متاع الحياة الدنيا ويأخذون بدله نعيم الآخرة. ثم بيَّن سبحانه أن المقاتل فى سبيله قد استحق الأجر سواء انتصر أو انكسر فقال: مَنْ يقاتل فى سبيل الله فيقتله العدو أو يقتل هو العدد فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا، ثم حث المتباطئين

فقال: ومالكم إلخ، أى ماذا ثبت لكم من الأعذار حتى تتركوا الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل إنقاذ المساكين الضعفاء المحصورين بمكة من الرجال الذين لايستطيعون الهجرة، والنساء والولدان الذين لايملكون حيلة للخلاص، وقد كان الكفار يعذبونهم لإرغام أهلهم الذين اسلموا وهاجروا إلى المدينة على العودة إلى مكة؛ هؤلاء الضعفاء الذين يقولون داعين الله: ياربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها بالشرك، وتعذيب مَنْ يسلم. وهو أشد من القتل كما فى الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧.. واجعل لنا من عندك وليا يتولى أمورنا حتى تخلصنا من الظلم، واجعل لنا نصيرا ينصرنا عليهم ويسهل لنا الخلاص. وقد استجاب الله لهم فيسر لبعضهم الهجرة، وجعل لِمَنْ بقى منهم خير ولى وأعز نصير، وهو نبيه ﷺ حيث مكنه من فتح مكة فأصبح ﷺ ولى هؤلاء الضعفاء، وأصبحوا به أقوياء. ثم أعاد الترغيب فى القتال لدفع الشر مع مقابلته بضده وهو القتال فى سبيل الشيطان فقال الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله وهو سبيل الخير والمصلحة والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطغيان والكفر، فإذا لم يقاتل المؤمنون الطغاة فسدت الأرض، انظر الآية (٢٥١) من سورة البقرة صفحة ٥٢.. وإذا كان الأمر كذلك فقاتلوا أولياء الشيطان ولا تخافوا لأن كيد الشيطان لاعدائه ضعيف لأنه باطل، والباطل لايقف أمام الحق إذا وجد الحق أنصارا، لأن الله فى جانب من يدافع عن الحق. وبعد ما حذر سبحانه من المثبطين وحث على القتال فى سبيله شرع فى ذكر شأن آخر من شئون العرب قبل الإسلام وبعده؛ وذلك أن العرب كانوا قبل الإسلام فى تخاصم وحروب مستمرة، ولاسيما بين الأوس والخزرج، ولما جاء الإسلام وأمرهم بالسلم وتهذيب النفوس بالصلاة والزكاة والكف عن العدوان، ورغب فى التسامح حتى رقت طبائعهم، ولما اشتد إيذاء المشركين للضعفاء من المسلمين فى مكة كما تقدم ودعت الضرورة للقتال، ودعاهم ﷺ إليه، كرهه بعضهم، فنزل قوله: ألم تر أيها النبى وتعجب من هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسارعون إلى سفك الدماء البريئة لأوهى الأسباب، لما دعاهم الله إلى الدفاع المشروع لدفع الظلم إذا فريق منهم وهو فريق ضعاف الإيمان الجهلة بالصواب يخافون بأس الناس من الكفار كما يخشون الله بل أشد، لأنهم رجحوا جانب خشية الكافر وقالوا تمنيا لعدمه: ربنا لم أوجبت علينا القتال فى هذا الوقت المبكر فهلا أخرتنا وزدت فى مدة الكف عن القتال إلى أجل قريب هو أجل موتنا العادى؟ ووصفوه بالقرب إجابة الرجاء، فقال سبحانه: قل لهم أيها النبى تزهيداً لهم فيما يرجونه من متاع زائل: متاع الدنيا هو كل مايتمتع به الإنسان فيها...

الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ

﴿فتيلا﴾: هو ما يكون فى شق النواة مثل الخيط. ﴿بروج﴾: قصور كبيرة. ﴿مشيدة﴾: مرتفعة يصعب الوصول إليها.

المعنى: - كل نعيم الدنيا قليل بل لاشى إذا قيس بما عند الله فى دار النعيم الخالد. وثواب الآخرة الحاصل بالطاعات خير من هذا المتاع القليل لمن اتقى الله تعالى ولم يعصه، ولا يظلم ربك أحدا من جزاء عمله مقدار فتيل، وقد تقدم شرحها فى الآية (٤٩) من هذه السورة صفحتى ١٠٨، ١٠٩ ثم أخبر سبحانه هؤلاء الذين يخافون القتال بأن الحذر لايمنع القدر فقال: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ إلخ؛ أى فى أى مكان توجدون فيه فى حضر أو سفر يلحقكم الموت إذا جاء أجله ولو كنتم فى قصور حصينة. ثم شرع سبحانه فى بيان نوع آخر من دسائس المنافقين وخبثاء اليهود، وذلك أنه حبا منهم فى صرف الناس عنه ﷺ كانوا إذا أصابتهم مصيبة من هزيمة أو قحط يشيعون بين ضعاف العقول والإيمان أن سبب هذه المصائب هو شؤم محمد، وإذا أصابهم رخاء ونعمة قالوا إنها من فضل الله ورضاه عنهم، ففضح الله هذا الدس مبينا حقيقة الأمر بقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ إلخ ثم رد عليهم بقوله: ﴿قل لهم﴾ - أيها النبى - كل من الحسنة والسيئة من عند الله، أى أنه هو تعالى واضع أسباب كل منهما، فيعطى الخير لمستحقه، ويعاقب بالنقم مَنْ تسبب فيها، ولا دخل لمحمد فيها، انظر الآيات (١٨، ١٩، ٣٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧،

توضح شيئًا من هذا. ولما كان هذا شأنه تعالى قبل مجىء محمد وبعده قال تسفيها لهم: ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ إلخ أى ماذا أصاب عقول هؤلاء حتى صاروا كالبهائم التى لاتفهم مايلقى إليها، وإلا فماذا يقولون فى المصائب التى حلت بهم قبل بعثة محمد؟ وبعد ما أبطل دسهم

(٢٠١) أرسلناك.

شرع فى بيان الأمر فى ذاته فقال: ﴿ما أصابك﴾ أيها المكلف﴿من حسنة﴾وخير﴿فمن الله﴾لأنه معطيك أسبابها، وماأصابك من سيئة فمن الله لأنه معطيك أسبابها﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ لأنك أنت صرفت ما أعطاك من نعم فى طريق الشر فاستجلبت النقم، فإذا أعطاك الله العقل وصرفته فى كيفية سرقة أموال الناس، أوأعطاك المال فصرفته فى الخمر والميسر فمآلك الخسران، أما إذا صرفت عقلك فى تحصيل أسباب السعادة لك والناس، والمال للفقراء والمصالح العامة فجزاؤك من الله فى الدنيا السعادة وفى الآخرة النعيم الدائم. ولما كان الله سبحانه وتعالى هو المعطى لهذه العقول والأموال وسائر الجوارح التى بها يكتسب الخير والشر، صح أن نقول أن كل مانالنا من خير فهو من الله لأنه لولا عطاؤه سبحانه مانلنا الخير الكثير بها، ولما كنا نحن الذين حوّلنا هذه النعم من العقل والمال وغيرهما للشر صح أن يقال إن ما أصابنا من مصيبة هو من أنفسنا لأننا نحن الذين أسأنا استعمال هذه النعم ولا دخل لأحد فيما حل بنا، أنظر ماتقدم فى غزوة أحد فى الآية (١٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٧.

وأرسلناك أيها النبى رسولا سببا للرحمة لاسبب نقمة حتى يتشاءموا بك انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢.

وكفى بالله شهيدا، أى يكفيك شهادة ربك العدل الحكيم، فلا قيمة لقولهم الباطل. وإذا ثبت أنك رسول الله فمَنْ أطاعك فقد أطاع الله، ومَنْ أعرض عن طاعتك فلا تحاول أن تكرهه، لأنا لم نرسلك مهيمنا ومسيطرًا عليهم تجبرهم على الخير وتحاسبهم، لأن هذا من شأن الله وحده. ثم ذكر بعض التوائهم فقال: ويقولون أى هؤلاء المنافقون للنبى ﷺ إذا أمرهم بشىء: أمرك طاعة أى مطاع فإذا خرجوا من عندك دبر طائفة منهم وهم أساس الفتنة فيهم غير ما أمرتهم به، فلا تجزع لأن الله تعالى يعلم مايدبرون، وسيكفيك شرهم، فلا تتصد للانتقام منهم، وفوض أمرك إليه تعالى، وهو حسبك وكيلا عنك. أفلا يتأمل هؤلاء القرآن فيعلمون أنك صادق لأنه كلام الله الحق، إذ لو كان من عند غيره تعالى...

مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ

﴿يستنبطونه﴾: أى يستخرجون خفاياه.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾: قال السّدى والضحاك والجُبّائى: المعنى: ولولا فضل الله عليكم بإرسال النبى ﷺ ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان كلكم وبقيتم على الكفر والضلال إلا قليلا منكم. وهم الذين تفضل الله عليهم بالعقل الراجح. فاهتدوا به إلى طريق الحق. فسلموا من مهاوى الضلال. وعصموا من متابعة الشيطان بدون إرسال رسول وإنزال كتاب. كقس بن ساعدة وزيد بن عمر بن نفيل، وأضرابهم. وفى كثير من غير العرب أمثالهم. وبهذا التفسير لايرد مايقال من أنك إذا قلت لمن تذكره بحقك عليه: لولا مساعدتى لك لضاع مالك إلا قليلا. فإنك لم تجعل لمساعدتك فضلا فى بقاء القليل من المال للمخاطب. وإنما ذكرته بفضلك عليه فى بقاء أكثر ماله. لا فى كله. لايرد هذا هنا لأن الفضل المقدر نفيه المستتبع لاتباع الشيطان إنما هو فضل مخصوص وهو فضل إرسال الرسول وإنزال الكتاب. وهذا لا ينافى أن لله فضلاً آخر على هؤلاء الذين لايحتاجون إلى الرسول والكتاب. وهو فضل هبة العقل الراجح.

والتوفيق للانتفاع به فى البعد عن الشرك وما فيه إضرار بالغير أو فساد فى الأرض. وهؤلاء قليل جدا فى كل عصر. وماجاءت الشرائع بل والقوانين إلا لأغلب الأمة. لأن النادر لا حكم له كما قالوا. وقال أبو مسلم الأصفهانى: المعنى لولا فضل الله عليكم ورحمته بالنصر على أعدائكم والمعونة مرة بعد أخرى لاتبعتم الشيطان فيما يوسوس به إليكم من الخواطر الفاسدة المؤدية إلى الجبن، والفشل، والضلال إلا قليلا وهم أهل البصائر النيّرة. والعزائم

(١) اختلافا. (٢) الشيطان. (٣) فقاتل. (٤-٥) شفاعة. (٦) القيامة.

القوية من أفاضل المؤمنين الذين يعلمون أنه ليس من شرط كون الدين حقا حصول الدولة والغلبة فى الدنيا.

ولا من شرط كونه باطلا حصول الانكسار له، بل مدار الأمر فى كونه حقا أو باطلا على الدليل وحده، ونظير هذا ما فى الآية (٣٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

﴿لاتكلف إلا نفسك﴾: أى لايكلفك الله إلا فعل نفسك ولم يكلفك أن تهدى غيرك إنما عليك البلاغ فقط.

﴿بأسا﴾: الحرب الشديدة. ﴿أشد تنكيلا﴾: تعذيبا شديدا.

﴿كفل﴾: نصيب. ﴿مقيتا﴾: رقيبا ومهيمنا، وأصلها من قاته يقوت أى حافظ على حياته بما يقوته، ويلزم من ذلك أن يكون رقيبا عليه.

المعنى: لو كان القرآن من صنع غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا فى نظامه وفى أخباره، ومنها ما أخبر به عما يبيتون وما تكنه ضمائرهم، وقد أخبر عن غيب ماض ما كان يعلمه أحد، انظر الآيات (٤٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٠، (١٠٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، (٤٤) من سورة القصص صفحة ٥١٣؛ وعن مستقبل مثل ما فى أول سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١. ومع طول الزمن لم يوجد ما يخالفه، وأخبر أنه خاتم النبيين وكان أنبياء بنى اسرائيل يتلو بعضهم بعضا، ومع مضى هذا الزمن الطويل لم يأت نبى، إلى غير ذلك مما لا يعد. وحيث إن هذا القرآن صادق فى كل ما أخبر به فيجب أن يؤمنوا برسالته ﷺ ولايعملوا معه هذا العمل الشنيع. ثم ذكر نوعا آخر من جناياتهم فقال: وإذا جاء هؤلاء المنافقين وأمثالهم من ضعاف العقول من المسلمين خبر أمر حصل لجيوش المسلمين من الأمن والخوف، وكان هؤلاء أذاعوه وتحدثوا به، ولوسكتوا وأرجعوا الخبر إلى الرسول أو أولى الأمر أصحاب الخبرة المتقدم بيانهم فى شرح الآية (٥٩) من هذه السورة صفحة ١١٠ لعلم حقيقة الخبر، والمراد منه الذين يعرفون خباياه من أولى الأمر الذين يميزون بين مايصلح أن يقال وما لايقال، وهذا هو المعروف فى عهدنا بالرقابة على أخبار الحرب. ولولا فضل الله عليكم بالقرآن الذى فيه أسباب سعادتكم، ورحمته بإرسال رسول يبين لكم ما فيه مصلحتكم لاتبعتم

الشيطان فى طريق الفساد إلا قليلا، وهم الذين تفضل الله عليهم بفضل آخر هو سلامة الفطرة وصفاء العقول، فعرفوا الخير من الشر كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل الذين كانوا يؤمنون بالله وبالبعث قبل بعثته ﷺ فقاتل أنت أيها النبى ومن أطاعك لايكلفك الله إلا فعل نفسك، فإن فعلت فلا يضرك تخلف غيرك، وحرض المؤمنين أى حثهم على القتال ورغبهم فيه لعل الله أن يكف عنك بطش الكافرين وشدتهم، لأنه سبحانه أشد منهم بأسا وأشد منهم تعذيبا.

ولما كانت الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول منفعة للغير، وكان تحريضه ﷺ على القتال فيه وصول خير لمن يحرضهم إذا فعلوا، ولما كان تثبيط المنافقين عن القتال توسطا بالقول فى شر قال سبحانه: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾، وهى ماكانت فى أمر مشروع، وهى تعم الحث على الخير، والدعاء للمسلم، والكلمة الطيبة فى الصلح بين الناس يكن له نصيب منها؛ شاع استعمال النصيب فى الثواب المضاعف وهو هنا كذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾، وهى الكلام الموصل لضرر الغير، ومنه تثبيط المؤمنين عن الجهاد وتخويفهم بإذاعة الأخبار السيئة، يكن له كفل منها.

كثر استعمال الكفل فى المثل المساوى وهو هنا كذلك لأن السيئة بمثلها، والله سبحانه رقيب على أعمال العباد يعطى الشافع نصيبا من شفاعته على قدر نيته، ثم رغب سبحانه فى فرد من أفراد الشفاعة الحسنة فقال: ﴿وإذا حييتم﴾ إلخ لأن التحية فى الإسلام هى شفاعة من المسلم لأخيه عند الله بالدعاء له بالأمان من الخوف، وهى بلفظ السلام كما فى الآية (٦١) من سورة النور صفحتى ٤٦٨، ٤٦٩؛ والآية (٤٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦؛ بأحسن منها.

فإذا قال البادئ: السلام عليكم.. يقول الراد: وعليكم السلام ورحمة الله، وهكذا يزاد عليه ما أمكن.. أو ردوها أى أجيبوا بمثلها والأفضل الأول، وقد صح عن بعض السلف أنه رد تحية النصرانى بقوله: وعليكم السلام ورحمة الله، فقيل له فى ذلك، فقال: أليس فى رحمة الله يعيش. ﴿إن الله كان على كل شىء حسيبا﴾ أى رقيبا، فاحذروا مخالفة تعاليمه لأنه لاإله إلا هو، لايُرْجَى خير من غيره، وليجمعنكم ويحشرنكم لحساب يوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه فيجازيكم، ولا أحد أصدق منه.

مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ * فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

﴿فئتين﴾: فريقين. ﴿أركسهم﴾: نكسهم وردهم إلى كفرهم؛ ركس الشىء وأركسه قلبه على رأسه والمراد هنا قلب معنوى وهو رجوعهم إلى الغدر والشرك الظاهر ﴿ودوا﴾: أحبوا وتمنوا. ﴿أولياء﴾: أخلاء أصفياء.

﴿ميثاق﴾: عهد.

﴿حصرت صدورهم﴾: ضاقت.

﴿السلم﴾: المسالمة والصلح. ﴿كلما ردوا﴾: المراد كلما دعاهم المشركون إلى الكفر وعبادة الأصنام. ﴿الفتنة﴾: المراد بها الكفر والوثنية.

المعنى: لا أحد أصدق من الله حديثا، وقد أخبركم بوعده لما أطاع بالجنة، ووعيده لمن عصى بالنار، وكان يوجد بمكة فريق من المشركين ينافقون نفاقا من نوع آخر هو نفاق الولاء للمسلمين كذبا خوفا منهم إذا انتصروا فى النهاية فلا يعاملونهم بالشدة التى يعاملون بها الكفار المعاندين، وفى الوقت نفسه كانت ميولهم مع المشركين يفرحون بانتصارهم على المؤمنين، وكان المؤمنون فى المدينة بالنسبة لهؤلاء فريقين: فريق يرى أن يعدوا من الأولياء والأنصار فيستعان بهم على المشركين لأنهم كانوا يجهلون حقيقتهم، وفريق يرى أن يعاملوا معاملة المشركين المعادين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فمالكم فى المنافقين﴾إلخ؛ أى: أى شىء ثبت لكم فى شأن معاملة المنافقين حتى تتفرقوا فيهم فرقتين؟ والمراد إنكار وجود مايصح للخلاف فى أمرهم، بل الواجب الاتفاق على معاملتهم كالمجاهرين بالعداوة والله أركسهم أى ردهم إلى الكفر الظاهر بسبب كثرة ما كسبوه من أعمال المعاصى والشرك حتى انطمست قلوبهم. ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ إلخ؛ أى ليس فى

(١) المنافقين. (٢) ميثاق. (٣) يقاتلوكم.
(٤) يقاتلوا. (٥) فلقاتلوكم. (٦) يقاتلوكم

استطاعتكم أن تحاولوا هداية مَنْ أضله بسبب إصراره على الكفر، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧. ومن يضلل الله أى يبعد عن الهداية بسبب ما قدم من جرائم فلن تجد له طريقا يوصله للنجاة ثم بين سبحانه بعض أسباب إضلاله لهم فقال: ودوا وتمنوا أن تكفروا كما كفروا فتكونون مثلهم سواء ويقضى على الإسلام فى مهده، فلا تتخذوا منهم أصفياء إلى أن يؤمنوا ويهاجروا إلى المدينة ابتغاء نصرة دين الله. فإن أعرضوا عن ذلك فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم فى أى مكان وجدتموهم، ولاتتخذوا منهم أولياء أى أصدقاء توالونهم، ولانصيرا تستنصرون به إلا نوعين منهم فلا تفعلوا معهم ذلك؛ الأول الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم معاهدة ألا يعتدى أحدكم على الآخر، فإذا وصل هؤلاء إليهم فقد دخلوا فى حكمهم؛ والثانى الذين جاءوكم أى تركوا مكة وحضروا إليكم لأنهم ضاقت صدورهم من أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، أى يريدون مسالمتكم ومسالمة قومهم لخوفهم إذا حاربوا معكم من أن يفتك المشركون بأهلهم فى مكة، ولو شاء الله لسلطهم عليكم، أى من رحمته تعالى أن كف عنكم شر هاتين الطائفتين، ولو شاء لكانوا قوة مع الكفار عليكم فيقاتلونكم معهم، فإن استمروا على عدم التعرض لكم بمكروه فلم يقاتلوكم مع تمكنهم من ذلك وألقوا إليكم السلم، أى وثقتم منهم بالمسالمة والبعد عن العداوة فلا تتعرضوا لهم بسوء. ثم شرع سبحانه فى بيان حال نوع آخر من المنافقين وذلك أن قوما من قريش كانوا يحضرون إلى المدينة ويظهرون له ﷺ أنهم أسلموا ثم يرجعون إلى مكة فينغمسون فى عبادة الأصنام، يقصدون بهذه الذبذبة بين المؤمنين والكافرين أن يأمنوا كُلًّا منهما لأنهم لاهَمَّ لهم إلا سلامة أنفسهم وأموالهم، فأنزل الله تعالى فيهم: ستجدون منافقين آخرين أى غير ما سبق يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإسلام ويأمنوا قومهم بعبادة الأصنام معهم، كلما دعاهم المشركون إلى الكفر معهم....

﴿أركسوا فيها﴾: أى وقعوا فيها أشنع وقوع. ﴿حيث ثقفتموهم﴾: أى فى مكان وجدتموهم.

﴿سلطانا مبينا﴾: حجة وبرهانا واضحا ﴿فتحرير رقبة﴾: أى عتق رقبة المراد بها العبد الرقيق.

﴿مسلمة﴾: أى مؤداة.

أَرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا[١] مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً[٢] وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ[٣] فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا[٤] فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

﴿ميثاق﴾: عهد وقاسوا على المعاهد الذمى الذى يعيش مع المسلمين لأنه أولى بهذا الحكم من المعاهد ﴿شهرين متتابعين﴾: أى يتابع صيام أيام الشهرين دون انقطاع.

﴿ضربتم فى سبيل الله﴾: أى سافرتم للجهاد.

المعنى: . وقعوا فى الكفر غارقين فيه، فهؤلاء إن لم يبتعدوا عنكم ويبتعدوا عن الدس لكم عند المشركين، وإن لم يقدموا إليكم المسالمة والمصالحة، وإن لم يكفوا أيديهم عن قتالكم، إن لم يفعلوا كل هذا فخذوهم بالأسر، واقتلوهم فى أى مكان قدرتم عليهم فيه. وهؤلاء إذا لم يبتعدوا عما سبق جعلنا لكم عليهم سلطانا، أى حجة واضحة تبيح لكم قتالهم. ولما ذكر حكم المنافقين الذين يخادعون المسلمين ناسب أن يذكر حكم قتل مَنْ لايجوز قتله من مؤمن ومعاهد وذمى عمدا وخطأ، فقال ﴿وماكان لمؤمن﴾ إلخ، أى وماصح لمؤمن أن يقتل مؤمنًا بغير حق في أى حال: لا فى حال كون القتل خطأ، كأن يريد رمى صيد فيصيب رجلا، ومَنْ قتل مؤمنًا خطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة كفارة لعدم تثبته وتساهله فى تصرفاته التى من شأنها الخطر، وعليه أيضًا دية وهى مائة بعير أو قيمتها يسلمها إلى أهل المقتول يقتسمونها كالميراث إلا أن يتصدق الورثة على القاتل بإعفائه منها. فإن كان المقتول خطأ من قوم عدو لكم أى كفار محاربين ولكنه هو مؤمن بينهم، كأن يؤمن رجل فى قوم محاربين كافرين ويعجز عن الهجرة إلى بلاد المسلمين ويقتله المسلم خطأ بظن أنه محارب، فعليه تحرير رقبة كفارة كما تقدم، وليس عليه دية لأنه

(١) سلطانا. (٢) خطأ. (٣) ميثاق. (٤) خالدا.

لاتوارث بين المسلم وغيره، والمفروض أن أهله كلهم كفار. وإن كان المقتول خطأ كافرًا من قوم بين المسلمين وبينهم معاهدة بأن لايقتل أحد الطرفين من الآخر، ومثل المعاهدين أهل الذمة وهم الذين يعيشون مع المسلمين وتحت حكمهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم، فعلى القاتل دية تسلم إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة، أى فالواجب فى قتل المعاهد والذمى كالواجب فى قتل المسلم.

وقدم فى قتل المؤمن التحرير إشعارا بأن حق الله فى قتل المؤمن مقدم على حقوق الناس، ويجوز التنازل عن الدية فى الأولى دون الثانية لأن من شأن المؤمن أن لايقبل منة من غيره. فمَنْ لم يجد رقبة أو لم يجد ثمنها فعليه بدلها صيام شهرين متتابعين لايفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار، فإن فصل أعاد من أولهما وبطل ما مضى، شرع الله لكم ذلك لمحبته أن يتوب عليكم توبة منه عليكم لما وقع منكم من عدم التحرى، وكان الله عليما بما يصلحكم، حكيما فيما شرع لكم من أحكام. ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ إلخ: لم يذكر لذلك كفارة كسابقة بل شدد حتى قال الفخر الرازى فى هذه الآية من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ، وقد اختلف العلماء قديما فى خلود القاتل عمدا فى النار وعدم قبول توبته قال ابن عباس وآخرون لا توبة لقاتل مؤمن عمدا لأن هذه الآية آخر ما نزل فى القتل، ونزلت بعد الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨ وتلك الآية خاصة بمغفرة ما دون الشرك بستة أشهر، فهى مخصصة لها، يعنى أن قوله فى آية المغفرة ﴿لمن يشاء﴾ يفتح باب عدم المغفرة للقاتل عمدًا. وقال آخرون إن هذا العذاب لمن يقتل مستحلا القتل، وقال آخرون إن المراد بالخلود طول المكث لدة بلغ من طولها أنه لايعلمها إلا الله تعالى، وقال آخرون إنه لاينجو من هذا الجزاء إلا مَنْ تاب وندم وضاقت عليه الدنيا بسبب شعوره بذنبه وشغل كل أوقاته بالطاعات وأكثر من الصدقات وكل ماينفع الناس واستمر على ذلك حتى مات، فإذا فعل كل ذلك فهو محل رجاء عند الله فى أن لايسوى بينه وبين المشرك. يأيها الذين آمنوا إذا سافرتم للجهاد فى سبيل الله فتبينوا أى تحققوا وتثبتوا ولاتتسرعوا، وسيأتى بيان سبب نزول هذه الآية فى الصفحة التالية.

فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ

﴿فتبينوا﴾: أى تحققوا وتثبتوا ولاتتسرعوا. ﴿السلام﴾: التحية الدالة على انقياده للإسلام. ﴿غير أولى الضرر﴾: كالعمى والعرج والمرض.

المعنى: كما رواه ابن جرير أن رجلا من قبيلة كافرة أسلم وحده دون جميع قومه، ولما غزتهم سرية من سرايا المسلمين هربوا جميعا وبقى هو لثقته بإسلامه، ولجأ بغنمه إلى جبل فلما أدركه المسلمون بادرهم بقوله: السلام عليكم لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فظن أسامة بن زيد أنه قال ذلك خوفا فقتله وأخذ غنمه، فلما بلغ النبى ﷺ حزن حزنا شديداً وقال: أقتلتموه طمعا فى غنمه؟ فماذا تقولون يوم القيامة فى لا إله إلا الله التى سمعتموها؟ فنزل قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتثبتوا مما يقع أمامكم ولا تتسرعوا بتصرفات تضر، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم تحية الإسلام لست مؤمنا حقا ولكنك تخاف القتل، طالبين بعملكم هذا حطام الدنيا الفانى وهو الغنم، فلا تفعلوا ذلك لأن عند الله مغانم أكثر وأحسن من هذه، وقد كنتم من قبل وأنتم بمكة مثله تخفون دينكم خوفا من بطش قريش كما أخفى هو دينه عن قومه، فمن الله عليكم بتيسير الهجرة والقسوة حتى

(١) السلام. (٢) الحياة. (٣) القاعدون.
(٤) والمجاهدون. (٥) بأموالهم. (٦) المجاهدين.
(٧) بأموالهم. (٨) المجاهدين. (٩) القاعدين.
(١٠) درجات. (١١) توفاهم. (١٢) الملائكة.
(١٣) واسعة. (١٤) مأواهم.

أظهرتم إسلامكم فتبينوا من الآن فصاعدا حتى لا تقعوا فيما وقعتم فيه، إن الله كان بما تعملون خبيرا بما فى نفوسكم فلا تخالفوه.

ثم شرع فى الحث على الجهاد بقوله: لايستوى أى فى المنزلة عند الله القاعدون عن الجهاد المأذون لهم فى القعود اكتفاء بغيرهم، من المؤمنين الذين ليس لهم عذر، والمجاهدون فى سبيل الله، أى لايستوى القاعدون المذكورون مع المجاهدين. ثم بين عدم التساوى بقوله: فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين الأصحاء المأذون لهم درجة، أى منزلة يعلمها سبحانه، وكلا من القاعدين بأذن والمجاهدين وعده الله المنزلة الحسنى وهى الجنة، أى أنهم وإن تفاوتوا فى درجات الثواب فقد استووا فى دخول الجنة؛ وفضل الله المجاهدين على القاعدين بغير عذر ولا إذن أجرًا عظيمًا، بينه سبحانه بقوله: درجات منه ومغفرة لكل ذنب، ورحمة ينعمون بها، وكان الله كثير المغفرة والرحمة، لم تنص الآية على حكم أصحاب الأعذار، وفى الأحاديث مايفيد أن بعضهم له أجر وإن لم يساو أجر مَنْ جاهد إذا نصحوا لله ورسوله كما فى الآية (٩١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، وظاهر حال ما فى الآية (٩٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، ربما يدل على أن بعض مَنْ عجز عن الجهاد لعذر لايقل عن أجر مَنْ جاهد فعلاً، والله أعلم. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة وبقى بمكة مسلمون واشتد إيذاء الكفار لهم، أوجب الله الهجرة على القادر عليها، فاختار بعضهم الإقامة بمكة مع ما هم فيه من الذل ومنعهم على مساعدته ﷺ فأنزل الله تعالى: أن الذين توفاهم الملائكة أى تتوفى أرواحهم ملائكة الموت حال كونهم ظالمى أنفسهم بترك الهجرة والتعرض لذل العدو بدون عذر وقال الملائكة توبيخا لهم: فى أى شىء من الدين كنتم؟ أى أكنتم محافظين تمام المحافظة عليه؟ قالوا معتذرين: كنا مستضعفين فى أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين، قالت الملائكة توبيخا لهم: ألم تكن أرض الله واسعة تفرون إليها بدينكم؟ فأولئك المقصرون فى الهجرة مسكنهم فى الآخرة جهنم، وبئست جهنم نهاية ومصيرا.

مصيرا (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا (٩٩) ۞ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما (١٠٠) وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١) وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا

﴿مراغما كثيرا﴾: أي إقامة [illegible] كثيرة [illegible] فيها [illegible]

﴿ووقع أجره على الله﴾: أي [illegible]

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ [illegible]

القصر وصلاة الخوف [illegible] مبسوطة في كتب الفقه [illegible] العلماء أن القصر [illegible] (١) [illegible] الأركان [illegible] الخوف المشار إليها في الآية (٢٣٩) من سورة البقرة صفحة ٤٩. (٢) [illegible] في الصلاة الرباعية [illegible] في الأرض والخوف، فإذا وجد الأمران أبيح القصر [illegible] عددها وأركانها؛ وإذا انتفى الأمران [illegible] تامة الأركان وإن وجد [illegible] والإقامة قصرت الأركان [illegible] وإن وجد السفر والأمن [illegible] ﷺ [illegible] بيانه هنا [illegible] ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾: أي يؤذوكم بقتل أو جرح أو غيرهما.

المستضعفين: [illegible] من الرجال [illegible] أو الفقراء الذين لا يجدون زادا ولا راحلة [illegible] لا يستطيعون حيلة الخروج لعجزهم

(١) والولدان (٢) مراغما (٣) [illegible] (٤) [illegible] (٥) الصلاة

ولا يعرفون طريقا للهجرة لجهلهم بمسالك الأرض فأولئك المستضعفون يرجى من الله العفو عنهم، والله عفو غفور. وفي ذكر المغفرة هنا إشعار بأن ترك الهجرة أمر خطير يحمل المضطر على اعتبار تركها ذنبا ليعلق قلبه بها، ويحمل من له أدنى قدرة على محاولتها.

ثم شرع يرغب في الهجرة وينبه المستضعفين إلى البحث عن حيل تمكنهم منها فقال: "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرًا»؛ أي يجد كثيرا من الأمكنة التي يعيش فيها سعيدا، وسعة في الرزق. ثم بين أن فضل الله لابد أن يدرك المهاجر، سواء وصل إلى المكان الذي يريده أم لا، فقال: ومَنْ يخرج من بيته ناويا الهجرة إلى ما فيه رضا الله ثم يدركه الموت ولو بعد خروجه من البيت مباشرة فقد استحق أجره الذي وعد الله به المهاجرين في سبيله، فإن الله غفور لما كان الهفوات التي قد يكون منها تأخير الهجرة ولو قليلا، رحيم حيث أعطى ثواب المهاجرين لِمَنْ لم تتم هجرته ولما كان الجهاد والهجرة يستلزمان السفر أتبع الكلام فيهما ببيان كيفية الصلاة في السفر والحرب فقال: «وإذا ضربتم في الأرض» أي سافرتم فليس عليكم حرج في أن تخففوا من الصلاة الرباعية وتخففوا أيضًا بعض شروط الصلاة مطلقا كما سيأتي بيانه، إن خفتم أن يؤذيكم الذين كفروا، فإنَّ الكافرين كانوا لكم أعداء ظاهري العداوة، فهم لا يضيعون فرصة اشتغالكم بالصلاة فينالوا منكم. وبعدما أذن في القصر إجمالا شرع يبين كيفية بعضه وهو ما إذا لم يشتبك الجيشان في القتال أما إذا التحموا في القتال فإنه يصلي كل حسب استطاعته كما في الآية (٢٣٩) من سورة البقرة صفحة ٤٩. فقال: وإذا كنت أيها النبي، ومثلك كل إمام للجيش، في المحاربين وكنتم تخافون العدو فأردت أن تقيم الصلاة بهم فاجعلهم طائفتين، إحداهما تصلي معك، والأخرى تراقب العدو، وليأخذ الذين يصلون معك أسلحتهم معهم أثناء الصلاة ليكونوا مستعدين في كل لحظة، فإذا سجد الذين معك فلتكن الطائفة الأخرى من ورائكم تحرسكم إلى أن تنتهي الأولى من صلاتها نصف الصلاة معك وباقيها وحدهم، ثم يسلموا وينصرفوا لحراسة العدو مكان الطائفة الأولى، وكل هذا وأنت قائم في الركعة الثالثة في غير صلاة الصبح، وفي الصبح في الثانية، تقرأ منتظرا الطائفة الثانية التي لم تصل.

فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً[1] وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ[2] عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ[3] فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا[4] وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[5] إِنَّ الصَّلَاةَ[6] كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا[7] مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ[8] بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ[9] اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

﴿ود الذين كفروا﴾: أحبوا وتمنوا. ﴿فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾: ينقضون عليكم دفعة واحدة. ﴿كتابا موقوتا﴾: مكتوبا أى مفروضة فى أوقات محددة. ﴿ولاتهنوا فى ابتغاء القوم﴾: لاتضعفوا فى طلب الكفار.

﴿بما أراك الله﴾: قال الزمخشرى أى بما عرَّفك الله.

﴿ولاتكن للخائنين خصيما﴾: اللام فى للخائنين بمعنى عن وخصيما أى مخاصما ومدافعا أى لاتكن مخاصمًا للأبرياء دفاعا عن الخائنين، ويصح أن تكون اللام للتعليل بمعنى مخاصمًا للأبرياء لأجل الخائنين.

المعنى: - تأتى الطائفة الأخرى التى لم تصل فتبدأ صلاتها معك وأنت قائم فى الركعة الثالثة، أو فى الركعة الثانية فى صلاة الصبح بالنسبة لك، والأولى بالنسبة لهم، وبعد أن تسلم أنت من صلاتك يتمون هم مابقى من صلاتهم، وليأخذ هؤلاء أيضًا حذرهم أى مايتحرزون به من العدو كالدرع ونحوه، وأسلحتهم أى مايقاتلون به كالسيف والخنجر مثلا.

ثم بيَّن حكمة هذا الاحتراس الشديد بقوله: ﴿ود الذين كفروا﴾ إلخ أى تمنوا أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم التى تحتاجون إليها فى الحرب فيحملوا عليكم حملة واحدة ليقضوا عليكم وأنتم على غير استعداد. ولا حرج عليكم إن حل بكم مايؤذيكم من مطر أو مرض فى أن لا تحملوا أسلحتكم معكم أثناء الصلاة لثقل حملها بسبب مايبللكم من مطر أو يضعفكم من

(١) واحدة. (٢) للكافرين. (٣) الصلاة.
(٤) قياما. (٥، ٦) الصلاة. (٧) كتابا.
(٨) الكتاب. (٩) أراك.

مرض. وأمرهم بعد ذلك بالاحتياط فقال: ﴿وخذوا حذركم﴾ أى كونوا على حذر لئلا يفاجئكم العدو. ثم أراد أن يقوى عزائمهم فقال:﴿إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾.. فى الدنيا والآخرة، فلا يزعجكم الأمر بالحذر الشديد. فإذا فرغتم من صلاة الخوف على الوجه المبيَّن فداوموا على ذكر الله فى جميع الأحوال حتى فى حال المقاتلة لتقوى عزائمكم. قال ابن عباس بعدما فسر هذه الآية: لم يعذر الله تعالى أحدًا فى ترك ذكره إلا مَنْ فقد عقله. فإذا اطمأننتم بالرجوع من السفر أو أمنتم العدو بانصرافه أو انهزامه فأقيموا الصلاة كاملة العدد والأركان إذا رجعتم من السفر، أو كاملة الأركان فقط إذا كنتم مازلتم فى السفر. إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا محدد الأوقات لايجوز تأخيرها عنها. ومَنْ أراد المزيد من البيان فى كيفية صلاة الخوف والسفر، فليرجع إلى حديثى رقم ١٢٤، ١٣٥ من كتابنا صفوة البخارى، فقد وفينا الموضوع حقه بما لم يسبق له مثيل.

ولاتهنوا وتضعفوا أيها المؤمنون فى طلب الكفار الذين أعلنوكم بالعداء، إن تكونوا تتألمون من القتال فإنهم يتألمون مثلكم وأنتم تمتازون عنهم بأنكم ترجون من الله إحدى الحسنيين النصر أو الجنة، وهم لايرجون ذلك لأنهم كفروا به سبحانه فليس لهم فى فضله طمع، انظر الآية (٥٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩. ولما أمرهم بالمحافظة على الدين الذى يدعو إلى العدل من أن يصاب من الخارج، أراد أن يأمرهم بالمحافظة على العدل فى الداخل، فقال: إنا أنزلنا إليك أيها النبى القرآن مصحوبا بالحق لتحكم بين الناس بما ألهمك الله عند النظر فيه، ولا تكن مخاصما الناس لأجل الخائنين. وسبب ذلك أن رجلا من المسلمين يقال له طعمة بن أبيرق سرق درعا من حديد ووضعها أمانة عند يهودى، ولما بحث أصحابها وجدوها عند اليهودى، فأخبرهم بأن الذى جاء بها إليه طعمة، وأنكر طعمة ذلك وحلف، فقال اليهودى: والله ماسرقتها ياأبا القاسم ولكن رماها علىَّ طعمة، وكان لطعمة جيران وأقارب يبرءونه فذهبوا إلى الرسول ﷺ وشهدوا ببراءته، فكاد الرسول يصدقهم. فعاتبه الله بهذه الآيات وقال له: استغفر الله مما هممت به من الحكم لطعمة لمجرد حلفه أنه ماسرق وشهادة أقاربه، بل يجب البحث فى مقدار قرابتهم له وغيظهم من اليهودى إذ قد يكون لذلك دخل فى انحراف شهادتهم.

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ

﴿يختانون أنفسهم﴾: يبالغون فى خيانة أنفسهم. وتقدم أصل معناها فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٦، ٣٧ ﴿بهتانا﴾: كذبا عظيمًا.

المعنى: - بعد ما نهاه ﷺ عن الدفاع عن طعمة أراد أن يأتى بحكم عام يشمله ويشمل أقاربه وجيرانه المدافعين عنه ومَنْ ماثلهم فقال: ولاتجادل مدافعا عن الذين يخونون أنفسهم خيانة شديدة بالمعصية، لأن ضررها راجع إليهم، لأن الله لايحب كثير الخيانة والإثم، أما الذى يفعلها هفوة ثم يسارع إلى التوبة فهو إلى عفو الله أقرب.

ومن صفات هؤلاء أنهم يستترون فى معاصيهم حياء من الناس ولا يستحيون من الله وهو حاضرٌ معهم بعلمه كما فى الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٥، ٧٢٦؛ والله معهم حين يدبرون بليل أى خفية ما لا يرضى به سبحانه من القول كتدبير طعمة وجيرانه، والله محيط بأعمالهم ظاهرة أو خفية كما هو محيط بأقوالهم الخفية.

ثم وجه سبحانه الخطاب للذين كانوا يدافعون عن طعمة ها أنتم هؤلاء دافعتم عنهم فى الدنيا فَمَن يجرؤ أن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ أى لا أحد يستطيع ذلك. ومَنْ يكون عليهم وكيلا؟ أى حافظا لهم من عذابه تعالى. ثم فتح باب التوبة بقوله:

ومَنْ يعمل مايسيء غيره كعمل طعمة مع اليهودى، أو يظلم نفسه بكل ذنب قاصر عليه كشرب خمر أو كذب، ثم يستغفر الله نادما مخلصا، يجد الله غفورًا لذنبه رحيما به، والمراد يقبل توبته. ومَنْ يكسب إثما فوباله على نفسه، أى لايعاقب بالذنب غير فاعله، ومَنْ يكسب خطيئة صغيرة أو إثما أى معصية كبيرة ثم يتهم به شخصا بريئا كرمى طعمة لليهودى بالسرقة فقد احتمل أى حمل بصعوبة وشدة بهتانا وذنبا ظاهرًا لا شبهة فيه. ولولا فضل الله عليك أيها النبى باطلاعه لك على سرهم، ورحمته بالعصمة من الخطأ الذى يضر الغير، لهمت

(١) تجادل. (٢) جادلتم. (٣) الحياة. (٤) يجادل. (٥) القيامة. (٦) بهتانا.

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) * لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ

طائفة من الذين يخونون أنفسهم أن يضلوك أى يبعدوك عن القضاء بالحق، وفى الحقيقة ما يضلون إلا أنفسهم لأن وبال تصرفهم عليهم وحدهم.

﴿الكتاب﴾: أى القرآن. ﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا القدرة على تحرى الحق والصواب. ﴿نجواهم﴾: النجوى التناجى بالحديث سرًا، وقد يراد بها المتناجون أنفسهم كما فى الآية (٤٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠. ﴿يشاقق الرسول﴾: يخالفه بأن يكون فى شق والرسول فى شق آخر.

﴿نوله ماتولى﴾: نتركه وما اختاره لنفسه.

﴿ونصله﴾: أى وندخله ﴿إلا إناثا﴾: المراد معبودات ضعيفة كالإناث لاتدفع عدوًا ولا تأخذ ثأرا، وكانت العرب تصف الضعيف بالأنثى، وقيل المراد بالإناث أصنامهم ذات الأسماء المؤنثة المذكورة فى الآية (١٩) والآية (٢٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١ ذلك لأنهم جعلوها رمزا للملائكة الذين كانوا يعبدونهم ويسمونهم بنات الله، انظر الآية (٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٧٦، والآيتين (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩. ﴿مريدًا﴾: شديد التمرد والخروج على الطاعة.

﴿مفروضا﴾: معينا، أو واجبا استيلائى عليه.

المعنى: - ومايضرونك أيها النبى شيئًا من الضرر ولو صغيرًا، لأنك إنما تعمل بالظاهر، وما كان يخطر ببالك أن المسلم يحلف كذبا كما حلف طعمة أنه برىء. وأنزل الله القرآن وألهمك

(١) الكتاب. (٢) نجواهم. (٣) إصلاح.
(٤) ضلالا. (٥) إناثا. (٦) شيطانا.

تحرى الحق ولذلك حفظك من الإسراع بإدانة اليهودى وعلمك ما لم تكن تعلم من خفيات الأمور، وكان فضل الله عليك بهذا وغيره عظيما لا يساويه فضل مخلوق. وبعد ما بيَّن سبحانه قبح مادبره طعمة وأقاربه سرًا، أراد أن يبين حكما عاما فى كل مايدبر سرا، وهو أن أغلبه يكون شرا كما فى الآية (١٠) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٦، ٧٢٧؛ فقال: ﴿لاخير فى كثير من نجواهم﴾ أى نجوى الناس كافة إلا نجوى مَنْ أمر بصدقة أو عمل بر، أو كلمة إصلاح بين متخاصمين. ومَنْ يفعل شيئا من هذه الفضائل الثلاث سرًا ابتغاء أى طلب رضاء الله عنه لا رياء ولا منفعة شخصية، فسوف يؤتيه الله أجرا عظيمًا.

وبعدما بيَّن ثواب الذين يتناجون بالخير شرع يبين مَنْ يتناجون بالشر ليحاربوا تعاليم الرسول فقال: ومَنْ يحارب تعاليم الرسول من بعد ما تبين له الهدى على لسانه ﷺ، ويتبع بمحاربته هذه سبيلاً وطريقا غير طريق المؤمنين المبيَّن فى سورة الفاتحة، نتركه وماأراد، وفى الآخرة ندخله جهنم وقبحت جهنم نهاية ونظير هذا آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. وبعدما بيَّن سبحانه أن مَنْ يخالف الرسول يدخله جهنم، وكانت مخالفة الرسول متفاوتة الدرجات، أراد سبحانه أن يبين ما يصح مغفرته منها وما لا يصح فقال: ﴿إن الله لايغفر﴾ إلخ؛ تقدم تفسيرها فى الآية (٤٨) من هذه السورة. ومَنْ يشرك بالله فقد بعد عن طريق الحق مسافات بعيدة، ولايمكن أن يرجع سالما. ثم بيَّن بعض أحوال المشركين فقال: ﴿إن يدعون﴾ إلخ؛ أى مايدعون لقضاء حاجاتهم وتفريج كربهم غير الله تعالى إلا معبودات ضعيفة لا تملك لهم نفعًا ولاتدفع عنهم ضرًا، ومايدعون بدعائهم لهذه المعبودات إلا شيطانًا متمردًا، لأنه هو الذى أغراهم بعبادتها موصوف بأنه ملعون ومطرود من رحمة الله عز وجل، وبأنه قال وعزتك لأجعلن لى من عبادك نصيبا مفروضا محتمًا استيلائى عليه، انظر الآية (٦٢) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. وكذا انظر الآية (٨٢) من سورة ص صفحة ٦٠٥.

ولأضلنهم عن الحق بالوسوسة، ولأمنينهم بالأمانى الباطلة كطول العمر وعدم البعث والجزاء إلى غير ذلك حتى يغفلوا عن الموت وعن تذكر الآخرة فيعصوا الرسل. ثم بين بعضًا من إضلاله فقال: ولآمرنهم بالوسوسة التى يطيعونها كما يطيع المأمور أمر سيده.

فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا

﴿فليبتكن﴾: البتك القطع والتبتيك التقطيع الكثير. ﴿الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم. ﴿يغيرن خلق الله﴾: بسوء التصرف فيه حسيا ومعنويا؛ الأول كخصى الرجال حتى يصبحوا كالنساء، والثانى كإفساد الفطر السليمة وتحويلها إلى الشر. ﴿غرورا﴾: أى باطلا يغر ضعيف العقل وليس له نصيب من الحق ﴿مأواهم جهنم﴾: أى مكانهم الذى يأويهم جهنم.

﴿محيصًا﴾: مفرا

﴿قيلا﴾: قولاً

﴿وليا ولا نصيرا﴾: تقدم الفرق بينهما فى صفحة ٢١.

﴿نقيرا﴾: تقدم فى الآية (٥٣) من هذه السورة صفحة ١٠٩ ﴿أسلم وجهه لله﴾: أخلص نفسه لله وجعلها له وحده لا تعرف ربا سواه. انظر معانى الوجه فى صفحة ١٠٨.

﴿حنيفا﴾: بعيدا عن الأديان الباطلة.

المعنى: حلف الشيطان بعزة الله ليحملن أتباعه على أن يقطعوا آذان الأنعام احتراما للأصنام، فكانوا إذا ولدت الناقة خمس مرات وجاء الخامس ذكرا قطعوا أذنها أو شقوها ليكون ذلك علامة على أنها أصبحت ملكًا للأصنام لايركبها ولا ينتفع بها أحد كما سيأتى تفصيله فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة، وكان من أسخف أعمالهم الوثنية، ولذا خصه بالذكر

(١) الأنعام. (٢)، (٣) الشيطان. (٤) مأواهم. (٥) الصالحات.
(٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) خالدين. (٩) الكتاب
(١٠) الصالحات. (١١) إبراهيم.

مع أنه داخل فيما قبله، وحلف أيضًا ليأمرنهم بتغيير خلق الله بسوء التصرف فيه فالله أحسن كل شىء خلقه، والشيطان وجنوده يفسدون لمحاربة الرسل والمصلحين، ومَنْ يتخذ الشيطان وليا له من دون الله يصرفه كيف يشاء فقد خسر خسرانا واضحًا فى دنياه وآخرته، يعدهم الشيطان بكل ضار كالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله تعالى، وبالغنى إذا لعبوا القمار إلى غير ذلك. انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة، ويمنيهم بالباطل كما تقدم، ومايعدهم فى الحقيقة إلا بما يغر وليس له أصل. أولئك الذين يلعب بهم الشيطان هذا التلاعب مكانهم الذى يأوون إليه فى النهاية هو جهنم ولا مفر لهم منها. وبعد ما ذكر جزاء الكافرين أتبعه بجزاء المؤمنين كما هى عادة القرآن ليبرز الفرق بينهما فقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ، وعدهم الله بذلك وعدًا حقا لا شك فى تحققه، ولا أحد أصدق من الله قولاً. ولما كان مما منى به الشيطان أتباعه ما منى به اليهود والنصارى من أنهم أبناء الله وأحباؤه كما فى الآية (٨) من سورة المائدة، وبأنه لايدخل الجنة غيرهما كما فى الآية (١١١) من سورة البقرة، وكان بعض المسلمين قابل قولهم هذا بقوله نبينا آخر الأنبياء فنحن أفضل الأمم، لما كان كل هذا رد الله تعالى على الجميع بإرجاع الأمر إلى الحق فيما قالوا، فقال عز وجل ﴿ليس بأمانيكم﴾ إلخ، أى ليس الأمر مرتبطا بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأمانى أهل الكتاب، بل بالعمل الصالح مع الإيمان، ومَنْ يعمل سوءا يجز به فى الدنيا والآخرة ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا، تقدم بيانها فى الآية (٨٩) من هذه السورة.

ومَنْ يعمل شيئًا من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئًا. والآية تفيد أن الإيمان شرط فى انتفاع العامل بعمله فى الآخرة، أما الكافر فلا ينجيه عمله من جهنم، انظر الآية (٢٣) من سورة الفرقان، ولا أحد أحسن دينا ممن أخلص عمله لوجه الله تعالى وهو محسن لعمله محافظ على كل ما يستطيع من الحسنات وكان فى ذلك متبعا لملة إبراهيم عليه السلام البعيد فى ملته عن الأديان الباطلة.

﴿ما كتب لهن﴾: ما فرض لهن من الصداق. ﴿المستضعفين من الولدان﴾: هم الصغار اليتامى. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿بعلها﴾: زوجها. ﴿نشوزا﴾: أى سوء معاملة كأن يستعلى عليها لتعلق قلبه بغيرها مثلا.

وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ[1] خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ[3] فِى يَتَٰمَى[4] ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى[5] لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ[6] وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ[7] بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾: تفسير التركيب. وأحضر الله الأنفس عند الشح بحيث لا تفارقه، والمراد أنها جبلت عليه، والشح. البخل الشديد المصاحب للحرص. وعبارة الشيخ محمد عبده: أى أنها معرضة له.. لكن آية ﴿إن الإنسان خلق هلوعا.. إلى قوله إذا مسّه الخير منوعا﴾ تدل على أنه جبل عليه وأمرته الشرائع بمحاربته أو تخفيف حدته.

المعنى: وجعل الله إبراهيم خليلا أى صفيا مختارا ولله كل ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وتصرفا، فليحذر الذين يخالفونه، وليطمئن المطيعون، وكان محيطا بكل ما فيهما علما وقدرة. ولما نزلت الآيات الأولى فى أول السورة وكان فيها مفاجأة للعرب نظرًا لما تعودوه من حرمان النساء والأطفال من الميراث، جال بخاطر بعضهم كيف يرث الصغير والمرأة وهما لايحسنان التصرف وكيف يستطيع العدل بين الزوجات فى كل شىء ومن الأشياء مالا يقدر عليه كالميل القلبى؟ وهل هذا يشعر بأن التعدد ممنوع أو سينزل الله لنا مايعدل تلك الأحكام تيسيرا علينا كما قيل فى الآيتين (٦٥، ٦٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧؛ وتوهموا أن ما نزل أول السورة غير قطعى فيصح تقييده أو إطلاقه أو تيسيره بأى وجه فأكثروا من سؤاله ﷺ لعل الإفتاء يأتى بما يريدون فأنزل الله تعالى: يستفتونك أى يطلبون منك الفتيا يأيها النبى فى شأن النساء وبيان الغامض عليهم من أحكامهن من حيث الحقوق المالية والزواج والنشوز والخصام والصلح والعدل وكيف تكون العشرة والفراق، ويدل على أن الاستفتاء كان

(١) إبراهيم. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤) يتامى. (٥) اللاتى. (٦) الولدان. (٧) لليتامى.

فى كل ذلك الجواب الآتى فى الآيات الأربع؛ قل أيها النبى فى جوابهم: الله يفتيكم فيما خفى عليكم من أحكامهن وستأتى هذه الفتوى الجديدة فى الآيات الثلاث الآتية بعد هذه مباشرة، ويفتيكم أيضًا فيهن مايتلى عليكم كل يوم فى القرآن فى يتامى النساء إلخ، وهو ما تقدم أول هذه السورة فى الآية (٣) ومابعدها، اللاتى لاتؤتونهن مافرض لهن من صداق مثيلاتهن، والحال أنكم ترغبون فى أن تتزوجوهن لجمالهن والتمتع بأموالهن مع عدم العدل فى المهر أو ترغبون عن زواجهن لعدم جمالهن، ولاتزوجوهن غيركم حتى يدركهن الموت لتأخذوا مالهن من مال جاءهن من غير الميراث كالهبة مثلا لأنهم ماكانوا يورثون النساء كما تقدم، ومايتلى عليكم فى القرآن، يفتيكم أيضًا فى الضعفاء من اليتامى الصغار بأن تعطوهم حقوقهم، وأن تقوموا لهم بالعدل فى كل شىء على أتم وجه كما تقدم أول السورة، وماتفعلوا لهم من خير زائد على أصل العدل فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه أحسن الجزاء، فمعاملة اليتيم على ثلاث درجات: محرمة وهى هضم شىء من حقوقه، وواجبة وهى العدل معه.

ومستحبة وهى الزيادة فى إكرامه بما ليس من ماله، وبهذا ظهر للمستفتين أن الأحكام الأولى كانت نهائية فيما يتعلق بحق النساء واليتامى. ثم شرع سبحانه فى بيان أحكام لم تبين من قبل فقال: وإن امرأة خافت أى خشيت وتوقعت من زوجها استعلاء عليها أو تقصيرًا فى النفقة أو إعراضا عنها بعدم محادثتها أو مؤانستها كالمعتاد، فلا جناح عليهما فى أن يصلحا مافسد بينهما صلحًا نافعا بأن تترك له بعض الواجب لها رغبة فى بقاء الزوجية، وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها أو يطلقها، والصلح خير من النشوز والفرقة. ويجب أن يلاحظ الزوجان أن النفوس جبلت على الشح، فالنساء حريصات على حقوقهن، والأزواج حريصون على أموالهم، فإذا أمكن التغلب بالتسامح يكون خيرا، وأن تحسنوا العشرة فيما بينكم ويعذر بعضكم بعضا، وتتقوا أسباب الفراق، فإن الله يعلم كل ذلك فيجازى مَنْ أحسن بالحسنى.

﴿قوامين بالقسط﴾: أى مداومين على القيام بالعدل.

﴿شهداء لله﴾: شهداء بالحق لوجه الله تعالى لا لغرض دنيوى

المعنى: . وتتقوا الظلم فذلك خير لكم، لأن الله يغفر لكم به ما مضى من ميل، وقد رحمكم حيث لم يؤاخذكم بالميل القلبى. وإذا لم يمكن الصلح وتفرقا بخلع أو طلاق فالله لايتركهما، بل

وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا

يغنى كلا عن صاحبه من واسع فضله، بأن يرزقها زوجا غيره، ويرزقه غيرها، وكان الله واسع الفضل حكيما فى تدبيره. ولله مافى السموات ومافى الأرض ملكا وتصرفا، فلا يعجزه إغناء كل منهما. ولما كان أساس كل خير هو تقوى الله عز وجل فقد وصينا بها كل الذين جاءهم كتاب من الله قبلكم كما وصيناكم وصينا الجميع بقولنا إن تكفروا وتهملوا ما وصيناكم به فلن تضروا الله شيئًا، لأن له كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو سبحانه غنى عن عبادتكم، مستحق للحمد الكثير لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد منكم. ثم كرر ملكه لما فى السموات والأرض ليرتب عليه ما بعده من تهديد كما سيأتى، وكفى بالله وكيلا لمَنْ أطاعه، فلا تعولوا على غيره. ثم هددكم بما يشعر بكمال قدرته فقال: إن يشأ يذهبكم ويفنكم يأيها الناس ويأت بقوم آخرين بدلكم يكونون خيرا منكم كما فى الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨؛ وهو قدير على ذلك، وقد فعل ذلك فى أمم مضت كعاد وثمود وقوم نوح، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لهذه الأمة مع عصيان أكثرها، لأن حكمته اقتضت أن تكون آخر الأمم ليوم القيامة. مَنْ كان يريد بسعيه وجهاده ثواب الدنيا فقط من سعة رزق ولذائذ عيش فارشدوه إلى أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة لاتزاحم إحداهما الأخرى، فلم يكتفى بالأدنى الفانى ويهمل الأعلى الباقى مع أن الجمع بينهما سهل عليه، وقد جمع الصالحون بينهما كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠، وكان الله سميعا لكل مايتحرك به لسان، بصيرا بكل مايدور فى خاطر، فليحذروه وليفعلوا مايرضيه ولما كان العدل أساس السعادة كرر الأمر به فقال: يأيها الذين آمنوا إلخ أى كونوا محافظين على القيام بالعدل شهداء بالحق لوجه الله لا لطلب نفع، ولو كانت الشهادة

---

(١) واسعا. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤)، (٥) السموات. (٦) قوامين. (٧) الوالدين

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ(١) الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ(٢) الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ(٣) وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا(٤) بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ(٥) بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ(٦) أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ(٧) أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ(٨) اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا

على أنفسكم فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق، أو على الوالدين أو الأقارب، إن يكن المشهود عليه غنيا يرجى نفعه أو فقيرا يخشى عليه فلا تمتنعوا عن الشهادة على الغنى طمعا فى غناه ولا على الفقير شفقة عليه، لأن الله سبحانه أولى بالنوعين، وأرحم بهما منكم، وأعلم بما فيه مصلحتهما.

﴿تلووا﴾: ألسنتكم فى الشهادة بأن تأتوا بها على غير وجهها.

﴿أو تعرضوا﴾: عنها فتكتموها. ﴿والكتاب الذى أنزل من قبل﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل كل مانزل على الأنبياء السابقين.

﴿بشر المنافقين﴾: أصل البشارة هى الخبر السار وعبر بها عن الخبر المحزن تهكما بهم واستهزاء انظر الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦.

﴿يخوضوا﴾: أصل معنى الخوض هو الدخول فى الماء الكثير الذى لاتؤمن عاقبة الدخول فيه، ثم استعمل قليلاً فى الدخول فى الحديث للتسلية، ومنه قوله تعالى فى المنافقين الذين استهزءوا بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ الآية (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢ ... ويستعمل قليلا أيضًا فى الحديث عن أمر خطير كقول العلماء: لايجوز الخوض فى الكلام عن الروح لأنها سر من أسرار الله عز وجل... ويستعمل كثيرا فى الدخول فى الباطل كما فى هذه الآية التى نحن بصدد شرحها وكثير غيرها فى القرآن.

المعنى: يقول صاحب تفسير المنار فى الجزء الخامس.. قد علم مما سبق مكان هذه الآيات ومابعدها إلى آخر السورة مما قبلها وهى أحكام عامة فى الإيمان والعمل وأحكام

(١، ٢) والكتاب. (٣) وملائكته. (٤) ضلالا. (٥) المنافقين. (٦) الكافرين. (٧) الكتاب. (٨) آيات.

المنافقين وأهل الكتاب فى ذلك. فأما قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ إلخ فهو يتصل بما قبله من الآيات القريبة خاصة بما فيه من الأمر العام بالقسط بعد الأمر بالقسط فى اليتامى والنساء، فهنالك خص اليتامى والنساء فى سياق الاستفتاء فيهن، ولأن حقهن آكد، وظلمهن معهود... وههنا عمم الأمر بالقسط لأن العدل حفاظ النظام وقوام أمر الاجتماع وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس أو الوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد فى ذلك لغناه، أو مراعاته لفقره، لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية وحقوق القرابة وغيرها. وكانت محاباة الأقربين معهودة فى الجاهلية لأن أمرهم قائم بالعصبية، فالواحد منهم كان ينصر قومه وأهل عصبيته لأنه يعتز بهم، كما يظلم النساء واليتامى لضعفهن، وعدم الاعتزاز بهن، فحظر الله سبحانه محاباة المرء نفسه أو أهله هنا وإعطائهم ما ليس لهم من الحق، يقابل حظر ظلم النساء واليتامى هناك وهضم ما لهن من الحق. روى ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مولى لابن عباس قال «لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت ﴿البقرة﴾ أول سورة نزلت ثم أردفتها سورة النساء».. قال فكان الرجل تكون عنده الشهادة قِبَلَ ابنه أو ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى فنزلت «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله» فتأمل كيف بقى تأثير المحاباة فيهم بعد الإسلام حتى نزلت هذه الآية.

القوامون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها فإن ﴿قوامين﴾ جمع قوام وهو المبالغ فى القيام بالشىء، والقيام بالشىء هو الإتيان به مستويًا تامًا لانقص فيه ولا عوج، لذلك أمر تعالى بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط لتأكيد العناية بهذه الأشياء، ومَنْ بنى جدارًا مائلاً أو ناقصًا لايقال إنه أقام البناء أو أقام الجدار، قال تعالى «فوجدوا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه»... وإنما احتاج الجدار إلى إقامة لأنه كان مائلا متداعيًا للسقوط. وهذه العبارة أبلغ مايمكن أن يقال فى تأكيد أمر العدل والعناية به. فالأمر بالعدل والقسط مطلقًا يكون بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض.. تقول

اعدلوا أو اقسطوا وتقول كونوا عادلين أو مقسطين وهذه أبلغ لأنها أمر بتحصيل الصفة لابمجرد الإتيان بالقسط الذى يصدق بمرة.

وتقول: أقيموا بالقسط، أى لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة فى نفوسكم، والقسط يكون فى العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد. ويكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطة.. أو يحكمان الناس فيما بينهم. وكان ينبغى أن يكون المسلمون بمثل هذه الهداية أعدل الأمم وأقومهم بالقسط وكذلك كانوا عندما كانوا مهتدين بالقرآن، وصدق على سلفهم قوله تعالى: «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون».. ثم خلف من بعد أولئك السلف خلف نبذوا هداية القرآن وراء ظهورهم، حتى صارت جميع الأمم تضرب المثل بظلم حكامهم وسوء حالهم، وتفخر عليهم بالعدل بل صار الذين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه يلتمسون من تلك الأمم القسط، ومايهدى إليه من العلم. انظر الآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧.

وقوله تعالى: ﴿شهداء لله﴾ خبر بعد خبر أى كونوا شهداء لله والشهداء جمع شهيد بوزن ﴿فعيل﴾.. والأصل فى صيغة: فعيل: أن تدل على الصفات الراسخة كعليم وحكيم فهو على هذا أمر بالعناية بأمر الشهادة والرسوخ فيها، وقد تقدم تفسير الشهادة فى تفسير أواخر سورة البقرة فتراجع فى الجزء الثانى من تفسير المنار، ومعنى كون الشهادة لله أن يتحرى فيها الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة ولامحاباة لأحد ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أى كونوا شهداء بالحق لوجه الله وامتثال أمره واتباع شرعه، الذى تنال به مرضاته ومثوبته. ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها لأن الشهادة إظهار الحق. أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم، فإنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقربين أن يعانوا بما ليس لهم بحق، بالإعراض عن الشهادة عليهم، أو ليها والتحريف فيها لأجلهم، وإنما البر والصلة فى الحق والمعروف والحق أحق أن يتبع. والذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم.

فتكون المحاباة فى الشهادة من أسباب فشو الظلم والعدوان، وذلك من المفاسد التى لايأمن شرها أحد من الناس. فالمحاباة فى الشهادة مفسدة ضررها عام وإن كانت لمصلحة يريد المحابى بها نفع أهله أو الشفقة على فقير أو العصبية لغنى ولذلك قال عز وجل: ﴿إن يكن غنيا أو فقيرًا فالله أولى بهما﴾ أى إن يكن المشهود عليه من الأقربين أو غيرهم غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما وشرعه أحق أن يتبع فيهما. فلا تحابوا الغنى طمعًا فى بره، ولا خوفًا من شره، ولا الفقير عطفًا عليه ورحمة به، فمرضاة الفقير ليست خيرًا لكم ولا له من مرضاة الله تعالى، ولا أنتم أرحم بالفقير وأعلم بمصلحته من ربه عز وجل، ولولا أنه تعالى يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق، هى خير للشاهد والمشهود عليه، سواء كان غنيًا أو فقيرًا لما شرع الله ذلك وأوجبه، روى ابن جرير عن السدى فى الآية قال نزلت فى النبى ﷺ اختصم إليه رجلان غنى وفقير فكان حلفه مع الفقير يرى أن الفقير لايظلم الغنى فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير. أ هـ. أى كان ميله القلبى موجهًا إلى الفقير لظنه أنه لايتصدى لظلم الغنى وهو وإن ظن ذلك لايحكم إلا بالحق الذى تظهره البينة والحجة سواء أنزلت الآية فى ذلك أم لا، وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية أنه قال. ونعم ما قال. هذا فى الشهادة فأقم الشهادة يابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو الأقربين أو على ذى قرابتك وأشراف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس، وأن الله رضى بالعدل لنفسه والإقساط... والعدل ميزان الله فى الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الصادق على الكاذب، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدق الصادق ويكذب الكاذب ويرد المعتدى ويوبخه ربنا تبارك وتعالى، وبالعدل يصلح الناس....

يابن آدم إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، يقول الله أنا أولى بغنيكم وفقيركم ولايمنعك غنى غنّى ولافقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم فإن ذلك من الحق. أ هـ.

.. فلا تتبعوا شهوات أنفسكم فى شهادتكم كراهة أن تعدلوا بين الخصمين فى الشهادة لأن العدل لا يفوت عليكم إلا متعة زائلة، وأن تحرفوا الشهادة أو تكتموها بأن لاتشهدوا أصلاً يجازكم الله أشد الجزاء لأنه سبحانه خبير بكل ماتعملون يأيها الذين آمنوا من أتباع محمد آمنوا بالله ورسوله إلخ. المراد اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله واجمعوا بين الإيمان بالله

وبخاتم رسله وبالقرآن، وبين الإيمان بالكتب التى أنزلها الله على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل الصحيحين وصحف إبراهيم وزبور داود. والإيمان على هذا الوجه هو مزية هذه الأمة انظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢ وانظر نظير ذلك فى الآية (٢٨) من سورة الحديد صفحتى ٧٢٣، ٧٢٤...

ومَنْ يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل وبعد عن الحق. ثم شرع سبحانه فى بيان بعض أصحاب هذا الضلال فقال: إن الذين آمنوا ثم كفروا إلخ هم بعض المنافقين الذين أظهروا الإيمان ثم أظهروا الكفر ثم ازدادوا كفرًا بمحاربتهم النبى ﷺ وإيذاء أصحابه حتى تمكن الجحود من قلوبهم فلم يبق فيها استعداد للإيمان الصحيح لايمكن أن يغفر الله لهم لأنه لايغفر الكفر كما تقدم فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ١٠٨، ولايهديهم إلى الطريق الموصل للجنة، لأنه سبحانه لايهدى الفاسقين كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧. وأخبر أيها النبى المنافقين بأن لهم عذابا شديد الألم؛ هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين أولياء يوالونهم بالمودة وينصرونهم فى السر متجاوزين ولاية المؤمنين ومعرضين عنها. هل بعملهم هذا يطلبون عند الكافرين العزة والقوة؟ إن كان كذلك فهم مخطئون لأن القوة والعزة كلها لله وللمؤمنين المخلصين كما فى الآية (٨) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤.

يتخذونهم أولياء وأصفياء ويجالسونهم والحال أن الله قد نزل عليكم أيها المسلمون جميعا بما فيكم المنافقون فى القرآن بمكة فى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣. أن إذا سمعتم آيات الله من القرآن يكذبها المشركون ويستهزئون بها باللغو عند سماعها كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ فلا تقعدوا يا مَنْ أظهرتم الإسلام مع الكافرين المستهزئين حتى ينتقلوا لحديث غير الاستهزاء، وذلك أن المسلمين بمكة كانوا ضعافًا فلا علاج لحفظهم كرامة القرآن إلا الانصراف عن الخوض فيه.

وإذا كنتم ممنوعين من الجلوس معهم عند سماع ما فيه طعن فى دينكم فكيف توالونهم وتتخذون منهم أصفياء.

فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[1] وَٱلْكَٰفِرِينَ[2] فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ[3] نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[4] وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ[5] عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[6] يُخَٰدِعُونَ[7] ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ[8] وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ[9] قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ[10] أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن

﴿يتربصون بكم: ينتظرون مايحل بكم من خير أو شر.

﴿فتح من الله﴾: المراد فتح الله عليكم باب خير.

﴿للكافرين نصيب﴾: حظ من النصر.

﴿نستحوذ عليكم﴾: يريدون ألم نحافظ عليكم وكنا قادرين على أسركم ولكنا لم نفعل إخلاصا منا لكم.

المعنى: إنكم إذا قعدتم معهم وهم يهزءون تكونون مثلهم فى الكفر لإقراركم لهم عليه وعدم إنكاركم أو انصرافكم. وهذه الجملة تعليل للنهى غير داخلة فيما أنزل قبل فى الأنعام. ثم توعد سبحانه الفريقين فقال: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾. هؤلاء المنافقون هم الذين ينتظرون مايحل بكم، فإن كان لكم فتح من الله بنعمة النصر والغنيمة قالوا نحن معكم فى الدين والجهاد فأعطونا مما غنمتم انظر الآيتين (٧٢، ٧٣) من هذه السورة صفحة ١١٢. أن كان للكافرين نصيب من

(١) المنافقين.
(٢) والكافرين.
(٣) للكافرين.
(٤) القيامة.
(٥) للكافرين.
(٦) المنافقين.
(٧) يخادعون.
(٨) خادعهم.
(٩) الصلاة.
(١٠) الكافرين.

النصر والغنائم قال هؤلاء المنافقون للكافرين: ألم نحافظ عليكم ونمنعكم من إيذاء المؤمنين لكم بالقتل والأسر بتخذيلهم وإطلاعكم على أسرارهم حتى انتصرتم، فأعطونا مما كسبتم.

فالله يحكم بين صادق الإيمان منكم والمنافق يوم القيامة، فيدخل الصادق الجنة والمنافق النار، أما فى الدنيا فكل منكما معصوم الدم والمال لنطقه بكلمة التوحيد، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين المخلصين فى إيمانهم القائمين على حدود الله طريقا إلى النصر عليهم، أى لايمكنهم من أن يغلبوهم. إن هؤلاء المنافقين يفعلون مع الله عز وجل فعل المخادع، حيث يظهرون أمارات الإيمان ويبطنون الكفر، وهو سبحانه يفعل معهم ذلك أيضًا حيث حفظ دماءهم وأموالهم فى الدنيا، وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار. وإذا قاموا للصلاة مع المؤمنين قاموا متثاقلين بلا نشاط ولا رغبة، يظهرون للناس أنهم مؤمنون، ولا يذكرون الله إلا قليلا، وهو مايفعلونه أمام المؤمنين إذا اضطروا لذلك فى صلاة أو حج مثلاً، يقفون هذه المواقف حال كونهم مذبذبين أى جعلهم الشيطان مترددين بين المذكور من المؤمنين المخلصين والكافرين المعلنين. ثم فسر هذه الذبذبة بقوله لا إلى هؤلاء إلخ.. أى لا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة لإضمارهم الكفر، ولا منسوبين إلى الكافرين المعلنين لتظاهرهم بالإيمان ومَنْ يضلله الله لعدم استعداده للهداية كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧.. فلن تجد له طريقا إلى الهداية.

ثم وجه سبحانه الخطاب للمؤمنين الصادقين فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء﴾إلخ.. لأن هذا من فعل المنافقين، فاحذروا أن تقعوا فيه. وقد تقدم تفسير الولاية المنهى عنها فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿سلطانا مبينا﴾: أى حجة ظاهرة فى استحقاقكم العذاب.

﴿الدرك الأسفل﴾: الدرك الطبقة من المكان الذى له طبقات بعضها فوق بعض.

﴿اعتصموا بالله﴾: أى تمسكوا بكتابه وشرعه.

تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) * لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله... إلخ﴾

قال القرطبى: لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ وبين أن الكفر به كفر بالكل لأنه مامن نبى إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء.

ومعنى ﴿يريدون أن يفرقوا... إلخ﴾ أى بين الإيمان بالله والإيمان برسله. فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر وإنما كان كفرًا لأنه سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل، ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوا منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمرهم الله بالتزامها، فكأنهم جحدوا الصانع سبحانه وجَحْدُ الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية... وكذا التفريق بين رسله فى الإيمان بهم هو أيضًا كفر.

المعنى: لايصح أن تجعلوا لله عليكم يوم القيامة حجة ظاهرة لتعذيبكم هى اتخاذكم الكافرين أولياء تطلعونهم على أسرار دولتكم ومايضر سلامتها. إن عاقبة المنافقين أنهم يكونون يوم القيامة فى الطبقة السفلى من جهنم، وهى شر طبقاتها، لأنهم شر أهلها، بما جمعوا بين الكفر وبين غش المؤمنين، ولا تجد لهم نصيرًا ينقذهم منها. إلا الذين تابوا من الكفر والنفاق، وأيدوا توبتهم بثلاثة أمور: الأول. أصلحوا ما أفسدوا بأن يجتهدوا فى الأعمال الصالحة.

(١) سلطانا. (٢) المنافقين. (٣) الكافرون.

والثانى. اعتصامهم أى تمسكهم بكتاب الله ودينه المتين فتخلقوا بأخلاقه انظر الآية (١٧٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ١٣٢، والآية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩، ٨٠.

والثالث. إخلاصهم فى عملهم لله لايريدون إلا رضاه، فلا يقصرون جلب نفع أو دفع ضر، فأولئك الذين يعملون ذلك يكونون رفقاء المؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة، وسوف يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا لايعلم قدره سوى المنعم به. وأى شىء من المصلحة يعود عليه سبحانه من تعذيبكم إن شكرتم نعمه بصرف كل ماأنعم به عليكم فيما يرضيه، وهذا لا يكون إلا عن إيمان كامل، ولذا قال: وآمنتم بأنه الواحد صاحب كل هذه النعم. وكان الله شاكرا أى مثيبا على الشكر بأجزل العطاء، عالما بكل ماتعملون فلا يضيع على أحد شيئًا من جزاء عمله. ولما كان التشديد فى التحذير من المنافقين ربما يفيد جواز الجهر بالسوء مطلقا متى كان حقا فيتعود الناس الجرأة على ذكر مساوئ الغير وفى ذلك فساد كبير، حذر سبحانه من هذا فقال: لايحب الله الجهر بالسوء.. إلخ. أى لايرضى عن إعلان القول الذى يسىء الغير، إلا جهر من ظلم بأن يشكو ظالمه لحاكم وغيره ممَّن يرجو مساعدته فى رفع الظلم. وإنما خص النهى عن الجهر بالسوء مع أن التناجى به منهى عنه أيضا كما فى الآية (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦. لأن المقام هنا فى الجهر بعيوب المنافقين ولأنه أشد ضررًا وأجاز الشارع أيضًا قول السوء فى المجاهر بالمعصية للتحذير منه وكذا فى الشهادة وفى مواضع أخرى يترتب على قول الحق فيها مصلحة راجحة.. انظر شيئًا من ذلك فى شرح الآيتين (١١، ١٢) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦.

إن الله كان سميعا لقول السوء، عليما بالسبب الباعث عليه من دفع ظلم أو مجرد تشنيع، وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبين حكم إبداء الخير من قول أو فعل وإخفائه، وحكم العفو عن الجهر بالسوء فقال: ﴿إن تبدوا خيرا﴾ أى تظهروا الخير من قول أو فعل، أو تفعلوه سرًا وتصفحوا عمن أساء بعد القدرة عليه، فإن الله يجزيكم أحسن الجزاء، ويعفو عن سيئاتكم، لأنه سبحانه كثير العفو. قدير لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل. وإنما خص العفو

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ

بالذكر فى الجزاء لأنه أشق على النفس وأهم المقاصد فى الألفة بين الناس. إن الذين يكفرون بالله وبرسله ثم بيَّن كيفية كفرهم به تعالى مع أنهم يقرون به فقال ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله فى الإيمان به تعالى والكفر بهم كلهم أو بعضهم، وهؤلاء الأخيرون هم الذين يقولون نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فاليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمَّد، والنصارى الذين آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد ويريدون بقولهم هذا أن يتخذوا بين الإيمان الصحيح والكفر طريقا أى دينا وسطا يدينون به مع أنه لا وسط بين الإيمان والكفر كما فى الآية (٣٢) من سورة يونس صفحة ٢٧١؛ أولئك الذين فرقوا بين الله ورسله وبين أنبيائه هم المبالغون فى الكفر. ثبت هذا الحكم ثبوتا قاطعا لأن عدم الإيمان برسول واحد ممَّن ثبتت رسالتهم كفر به تعالى، لأنه تكذيب له فى أخباره بأنه اختاره رسولاً، وأعتدنا أى وأعددنا وهيأنا.

﴿الصاعقة﴾: قصفة الرعد المصحوبة بنار. ﴿اتخذوا العجل﴾: أى جعلوه إلها وعبدوه؛ انظر الآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ونلاحظ أن ذكر اتخاذ العجل بعد طلب رؤية الله جهرة للترقى فى ذكر الجرائم أو للترتيب الزمنى، لأن اتخاذ العجل كان قبل طلب الرؤية، انظر الآية (٥١) من سورة البقرة صفحة ١٠ وكذا الآية (٥٥) من نفس السورة صفحة ١١ والآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ومابعدها إلى الآية (١٥٥) ﴿سلطانا مبينا﴾:

(١) للكافرين. (٢) يسألك. (٣) الكتاب. (٤) كتابًا.
(٥) الصاعقة. (٦) البينات. (٧) سلطانا. (٨) بميثاقهم.
(٩) ميثاقا. (١٠) ميثاقهم. (١١) بآيات.

أى سلطة ظاهرة فأخضعناهم له مع شدة تمردهم فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١. ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾: الجبل الذى ناجى موسى ربه عليه.

﴿بميثاقهم﴾: أى بسبب إعطائهم العهد بأن يطيعوا ويعملوا بما فى التوراة. ﴿الباب﴾: باب القرية كما فى الآية (٥٨) من سورة البقرة صفحة ١١. ﴿لاتعدوا فى السبت﴾: أى لاتتجاوزوا حدود الله بالصيد يوم السبت كما فى الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ١١٩.

﴿ميثاقا غليظا﴾: عهدًا مؤكدًا.

﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾: أصلها بنقضهم أى بسبب نقضهم العهود، وزيدت ﴿ما﴾ لتأكيد سببية ماذكر فى لعنهم المفهوم من المقام، وجاء صريحا فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨.

﴿قلوبنا غلف﴾: أى مغلفة لاتفهم ماتقول يامحمَّد.

﴿بل طبع الله عليها﴾: الطبع أى التغطية والختم.

المعنى: أعددنا لهم بسبب كفرهم عذابا شديد الإهانة والذين آمنوا بالله ورسله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض كما فعل غيرهم، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم التى وعدناهم بها وهى الجنة. وكان الله غفورًا لهفوات مَنْ صلح إيمانه، رحيما به فيضاعف حسناته يسألك أيها النبى أهل الكتاب ﴿اليهود﴾ أن تنزل عليهم كتابا من السماء جملة واحدة كما نزل على موسى ألواح الوصايا العشر، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، وجعلوا ذلك شرطا لإيمانهم بك، ولكنهم فى الحقيقة كاذبون كأمثالهم، انظر الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣.

فلا تحزن لتعنتهم هذا لأنه موروث عن آبائهم، فقد سألوا موسى تعنتا أعظم مما سألك أبناؤهم حيث قالوا أرنا الله عيانا، أى لن نؤمن لك حتى نرى الله كما يرى بعضنا بعضا، انظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١. فأخذتهم الصاعقة وأهلكتهم بسبب ظلمهم أنفسهم

حيث شبهوا الخالق بالمخلوق. ثم نذكر لهم جريمة أبشع من ذلك هى أنهم جعلوا من الذهب عجلاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات على يدى موسى قاطعة بنفى شريك لله عز وجل، ومع ذلك عفونا عنهم ولم نهلكهم جميعا حتى لايبقى لهم نسل. وآتينا موسى قوة وسلطة عليهم جعلتهم يقتلون أنفسهم لتقبل توبتهم كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١.

ورفعنا فوقهم الطور بسبب أخذ العهد عليهم بأن يعملوا بما فى التوراة بقوة وقلنا لهم ادخلوا باب القرية خاضعين لله منكسى رءوسكم إنكسارا لعظمته، وقلنا لهم أيضا لاتعدوا ولاتتجاوزوا أوامر الله بسبب صيد السمك فى يوم السبت وقد نهاكم عنه، وأخذنا منهم عهدًا مؤكدًا بأن تخلصوا فى العمل بما شرعه الله تعالى لكم ولاتعصوا له أمرًا.

فبما نقضهم إلخ أى فبسبب هذه الجرائم السبع لعناهم، وقد ذكر اللعن صراحة فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨، والجريمة الأولى كثرة نقضهم العهود، والثانية كفرهم بالبراهين التى أقامها الله دالة على صدق أنبيائه، والثالثة قتلهم الأنبياء بغير حق كقتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام، والرابعة قولهم لنبينا ﷺ، قلوبنا غلف لا نفهم ماتقول.

وسارع سبحانه بالرد عليهم فى هذه بقوله، بل طبع الله عليها بسبب كفرهم وجحودهم الذى أفسدها، أى فليس الأمر كما يقولون كما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧ فلا يؤمن منهم إلا قليل كعبد الله بن سلام وأصحابه. والخامسة كفرهم بنبوة عيسى عليه السلام بقرينة السادسة ومابعدها، وهى قولهم على مريم إلخ.

﴿بهتانا﴾: كذبا يبهت العقول أى يحيرها.

﴿شبه لهم﴾: أى وقعت الشبهة لهم وظنوا أنهم قتلوه مع أنهم قتلوا غيره ظانين أنه هو.

﴿وماقتلوه يقينا﴾: يقينا صفة لمصدر مفهوم من النفى فى ﴿ما﴾.. أى انتفى نفيًا متيقنًا.

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ

﴿والمقيمين الصلاة﴾: قال الزمخشرى فى كتابة الكشاف ﴿المقيمين الصلاة﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة وهذا باب واسع فى لغة العرب، ذكر له سيبويه أمثلة وشواهد وقال الألوسى: ومايتقل عن عثمان باطل إذ كيف يظن بالصحابة وهم فصحاء العرب اللحن فى الكلام فضلاً عن القرآن. وكيف بتصور منهم الخطأ فى أعز كتاب عليهم وكيف يُظن بعثمان عدم المسارعة إلى تغيير خطأ وقع فى القرآن، وكيف يتركه للعرب بعده تقيمه هى بألسنتها. وأيضًا إذا كان الذين جمعوا القرآن وهم خيار الصحابة فكيف يقيمه غيرهم. فلعمرى إن هذا مما يستحيل عقلاً وشرعا وعادة، فالحق إن هذا الخبر المروى عن عثمان باطل... وقال صاحب المنار: هذه جملة مستقلة و ﴿المقيمين﴾ منصوب على المدح على ما قاله سيبويه وغيره من النحاة أى أخص وأمدح المقيمين الصلاة منهم الذين يؤدونها على وجه الكمال فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان وهذا الأسلوب لايأتى فى الكلام البليغ إلا لحكمة، والحكمة هنا هى مزية الصلاة وكون إقامتها آية كمال الإيمان على أن تغيير إعراب كلمة بين أمثالها ينبه الذهن للتأمل فيها ويهدى الفكر إلى استخراج مزيتها، وهذا من أركان البلاغة.

المعنى: وبسبب افترائهم على مريم كذبا شديدًا فى قبحه حيث رموها حماها الله بالزنا. السابعة قولهم تبجحا واستهتارًا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. فوصفهم له بالرسول كان استهزاء منهم قبحهم الله كأمثالهم المشركين فى قولهم لنبينا ﷺ ﴿ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. وكذبهم سبحانه بقوله

(١) بهتانا. (٢) الكتاب. (٣) القيامة. (٤) طيبات. (٥) الربا. (٦) أموال.
(٧) بالباطل. (٨) للكافرين. (٩) الراسخون. (١٠) الصلاة.

﴿وماقتلوه وماصلبوه﴾ بعد قتله كما يزعمون، ولكن وقعت لهم شبهة فقتلوا غيره. وإن الذين اختلفوا فى قتله لفى شك من قتله حيث قال بعضهم لما رأى الجثة: الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده فليس هو، وقال آخرون: بل هو. فما لهم حينئذ بقتله من علم يوثق به، ولكن الذى عندهم مجرد ظن يجرون وراءه، والظن لايغنى من الحق شيئًا خصوصا فى العقائد. ثم بين سبحانه الحقيقة التى يجب اعتقادها فقال: ﴿وماقتلوه يقينا﴾ أى انتفى قتلهم له نفيا متيقنا، بل رفعه الله أى لم ينالوا منه مايهينه، بل أكرمه الله ورفعه مكانا عليا كإدريس، انظر ماتقدم فى الآية (٥٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧١، ٧٢. وكان الله عزيزا قاهرا وغالبا لغيره ولايقهره أحد حكيمًا في تصرفاته، وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى إيمانا صحيحا بأنه عبد الله ورسوله عندما يدركه الموت وينكشف عنه الغطاء فيعلم الحق، فيؤمن اليهودى بأنه نبى صادق لا ابن زنا، ويؤمن النصرانى بأنه عبد الله ورسوله لا إله ولا ابن إله، ولكن إيمانهم هذا لاينفعهم كما لم ينفع فرعون عندما أدركه الغرق. ولا يغرنك أنك لاتدرك هذا وأنت بجوار مَنْ يموت أو يموت فجأة، لأن سر خروج الروح ومشاهدة الحقيقة لم يستطع العلم الوصول إليها. ألا ترى أنه تعالى أخبر أن ملائكة الموت تضرب الكافر عند موته على وجهه كما فى الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥ مع أن الجالس بجواره لايرى شيئًا. وفائدة إخباره سبحانه بذلك هى حثهم على الإيمان فى وقت ينفع فيه. ويوم القيامة يكون عيسى شاهدًا عليهم بأنه بلغهم، انظر الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١. فبسبب ما وقع من اليهود من ظلم أنفسهم بما ارتكبوه مما سبق بيانه وماسيأتى حرمنا عليهم طيبات كانت حلا لهم تأديبا لعلهم يرجعون انظر الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وبسبب منعهم من الدخول فى دين الله خلقا كثيرًا، وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه فى التوراة فى الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية ونظير ذلك فى سفر الخروج الإصحاح ٢٢، ٢٥ وكذلك فى الإصحاح ٢٥، ٣٥ من سفر اللاويين. وأكلهم أموال الناس غير اليهود بباطل افتروه على الله حيث زعموا أن الله أحل لهم مال غير اليهود كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة آل عمران، وقد أعددنا للكافرين من هؤلاء اليهود فى الآخرة عذابا شديد الألم. لكن الراسخين فى علم التوراة الصحيحة قبل التحريف من اليهود كعبد الله بن سلام، والمؤمنون من أصحابك أيها النبى، يؤمنون بما أنزل إليك من القرآن، وما أنزل

من قبلك على موسى وعيسى وإبراهيم، والمقيمين الصلاة، الأصل والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة يؤمنون بما أنزل إليك كذلك، لكن لأهمية الصلاة التى هى عماد الدين غير الله سبحانه وتعالى إعراب المقيمون وجعله منصوبا على تقدير فعل مدح، أى أمدح من بين هؤلاء المقيمين الصلاة ليلفت النظر بتغيير الإعراب إلى أهميتها.

﴿الأسباط﴾: جمع سبط وهو ولد الولد. والمراد هنا ذرية أولاد يعقوب ومعنى الإيحاء إليهم هو الإيحاء إلى أنبيائهم الكثيرين لأنه لم يكثر فى أمة واحدة من الأمم أنبياء مثل ما كثروا فى بنى إسرائيل كما أنه لم تجرأ أمة على قتل أنبيائهم مثل جرأة بنى إسرائيل على ذلك انظر بقية الكلام على الأسباط فى شرح الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿زبورا﴾: المراد به كتابا، وكان فيه حكم ومواعظ وثناء على الله عز وجل.

﴿تكليما﴾: خاصًا وهو أنه بلا واسطة مَلَك كالمعتاد مع الرسل.

المعنى: والمؤتون الزكاة والمؤمنون من كل الأمم بالله واليوم الآخر يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. ليس أحد من هؤلاء كاليهود والنصارى المتعصبين الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، أولئك الموصوفون بما تقدم سنؤتيهم فى الآخرة أجرًا عظيما لايخطر على قلب بشر. ولما كان اليهود يؤمنون بنبوة نوح عليه السلام وكل الأنبياء من بعده، وليس نوح وكثير ممَّن بعده من اليهود أراد سبحانه أن يثبت تعنتهم بإفحامهم بأن محمدا ﷺ فرد من أفراد

(١) الزكاة. (٢) والنبيين. (٣) إبراهيم. (٤) وإسماعيل.
(٥) وإسحاق. (٦) وهارون (٧) وسليمان. (٨) قصصناهم.
(٩) والملائكة. (١٠) صلالا.

أنبياء الله الكثيرين فلم كفرتم به، فما ذاك إلا لحسدكم له لأنه ليس منكم، فقال سبحانه: إنا أوحينا إليك أيها النبى كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده كهود وصالح وشعيب وغيرهم، وأوحينا كذلك إلى إبراهيم وذريته، وذكرهم بخصوصهم مع أنهم داخلون فى النبيين الذين بعد نوح ليبين لليهود أن منهم أنبياء كثيرين فلا يجوز أن يبخلوا على العرب بنبى واحد. وكذلك أرسلنا رسلاً قد ذكرناهم لك من قبل هذه السورة كما فى الآيات من (٨٣) إلى (٨٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٥، ١٧٦ مما نزل بمكة، ورسلاً لم نذكرهم لك فلا يعلمهم إلا الله تعالى، انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨، وكلم الله موسى تكليما بلا واسطة. فهو رسول أيضا موحى إليه:. أرسلنا هؤلاء جميعًا رسلا مبشرين المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل. أى إنما أرسلناهم منذرين لنقطع حجة مَنْ يقول لو أرسلت إلينا رسولاً منا، انظر الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩، والآية (٤٧) من سورة القصص صفحة ٥١٢، وكان الله عزيزًا لايغلب على مايريد، حكيما فى تصرفه، ومنه قطع حجة المعاندين. ولما كان كل ماتقدم يوجب على كل منصف أن يشهد بصدق رسالته ﷺ أراد سبحانه أن يطمئن نبيه إذا استمروا على عنادهم ولم يشهدوا له بالصدق. فقال سبحانه: ﴿لكن الله يشهد﴾. أى إذا لم يشهدوا هم فالله يشهدلك، وكفى به شهيدا بصحة ما أنزل إليك، أنزله مع علمه بأنك أهل لإنزاله عليك، والملائكة أيضًا يشهدون لك، فلا تبال بإنكار المعاندين. ثم بيَّن سبب إنكارهم وهددهم فقال: إن الذين كفروا بعدم تصديقك ومنعوا الناس عن الدخول فى دين الله قد ضلوا وبعدوا عن الحق مسافات بعيدة لايمكنهم الرجوع إلى الهدى. ثم كرر وصفهم بالكفر توبيخا لهم فقال: ﴿إن الذين كفروا﴾ إلخ....

﴿لاتغلوا فى دينكم﴾: لاتتجاوزوا الحدود فى دينكم الذى اخترتموه، وقد جاوزت اليهود فأنزلت المسيح عن منزلته، وتجاوزت النصارى فى تعظيمه حتى قالوا إنه ابن الله. ﴿وكلمته﴾.. أى تحقيق كلمة = كن = ﴿وروح منه﴾: أى سر من أسراره فى كيفية خلقه وفى معجزاته.

المعنى: وظلموا محمد رسول الله بإنكار صفته التى عندهم فى التوراة؛ لم يكن الله ليغفر لهم ماداموا على الكفر، ولا ليهديهم طريقا إلى الصواب إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا، وكان تخليدهم فى جهنم هينا على الله تعالى.

وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا

يأيها الناس جميعا بما فيكم أهل الكتاب قد جاءكم الرسول المعروف بعلاماته عندكم.. انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨ بالقرآن المشتمل على الحق فآمنوا به تفعلوا خيرا لأنفسكم، وإن تكفروا فلن تضروا الله شيئًا لأن له مافى السموات ومافى الأرض فهو غنى عنكم وعن عبادتكم. وإن يشأ يأت بخير منكم، انظر الآية (١٩) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، والآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨؛ وكان الله عليما بمَنْ يؤمن ومَنْ لايؤمن، حكيما لايسوى بينهما فى الجزاء، انظر الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

يأهل الكتاب لاتتجاوزوا الحدود فى دينكم فتنقصوا من رفعة الله أو ترفعوه إلى منزلة الألوهية، فلا تقولوا على الله إلا الحق الثابت بنص أو برهان، ولم يقل الله تعالى لكم عن المسيح شيئًا مما تزعمون، إنما المسيح رسول الله إلى بنى إسرائيل، أى لاابن الله ولا ابن زنا، وأثر كلمة ﴿كن﴾ التى ألقاها الله تعالى إلى مريم وروح منه تعالى، فآمنوا بالله على الوجه اللائق به من أنه سبحانه ليس له ولد. وبرسله فلا تقولوا على أحدهم أنه ابن زنا، ولاتقولوا أيها النصارى الآلهة ثلاثة:

الأب والابن وروح القدس، أو الله وعيسى وأمه كما فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١. انتهوا عن هذا القول الباطل يكن انتهاؤكم خيرا لكم. ثم قرر سبحانه الحق الذى يجب أن يعتقد فقال: إنما الله إله واحد تنزيهًا له من أن يكون له ولد. وكيف يكون ذلك وكل ما فى السموات والأرض ملكه وعبيده. فكيف يكون عبده المملوك له جزءا منه وولدا

(١) خالدين. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤) ألقاها.
(٥) ثلاثة. (٦) واحد. (٧) سبحانه. (٨) السموات.

لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً

له. وكفى بالله وحده وكيلا حافظًا لما فى السموات والأرض ومدبرًا له، فليس فى حاجة إلى ولد. وكيف كان يدبرها سبحانه آلاف السنين قبل وجود هذا الولد المزعوم الذى لم يمكث على وجه الأرض سوى بضع سنين. ثم رد على النصارى بما هو أبلغ فقال: لن يستنكف أى لن يترفع المسيح ويأنف أن يكون عبد الله...

﴿المقربون﴾: هم خواص الملائكة كجبريل وميكائيل وعزرائيل.

واعتصموا به﴾: أى تمسكوا بالقرآن.

﴿الكلالة﴾: تطلق الكلالة على مَنْ ليس له والد ولا ولد عند موته وفى المنار عند تفسير الكلالة فى الآية (١٢) من سورة النساء.. يقول صاحب المنار: إن الله أنزل آيتين فى الكلالة هذه الآية. والآية (١٧٦) من سورة النساء.

فبيَّن فى هذه الآية مايرثه الإخوه لأم من الكلالة فقط للحاجة إلى ذلك وعدم الحاجة عند نزول الآية إلى بيان مايأخذه إخوة العصب، وكأنه وقع بعد ذلك إرث كلالة فيه إخوة عصب وسئل النبى صلوات الله تعالى عليه عن ذلك فنزلت الآية الأخرى التى فى آخر السورة جعلت للأخت الواحدة النصف إن انفردت، وللأختين فأكثر الثلثين، وللأخ فأكثر كل التركة.

﴿وله أخ أو أخت﴾: أجمع الصحابة على أنهما من الأم

المعنى: - ولا الملائكة المقربون يأنفون أن يكونوا عبيدًا لله.

وإذا كانت شبهتكم فى جعل عيسى إلها أنه ولد من غير أب وأنه كان يحيى الموتى إلخ فالملائكة كذلك من غير أب، وأعمالهم الخارقة أقوى من أعمال عيسى، بل عيسى نفسه كان

(١) الملائكة. (٢) الصالحات. (٣) برهان. (٤) صراطا. (٥) الكلالة.

بنفخة من جبريل: انظر الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧، والآية (١٢) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣. وقد بلغ من قوة الملائكة أن يقتلع أحدهم المدينة بأكملها ويجعل عاليها سافلها، فكانوا أولى بأن تجعلوهم آلهة، وهذا مالم يقل به أحد منكم.

ومَنْ يستنكف عن عبادة الله من جميع الخلق ويستكبر عنها غرورا بنفسه، فسيحشرهم أى ومعهم مَنْ لم يستنكف ولم يتكبر، سيحشرهم جميعا. ويدل على أن المراد الجميع العاصى منهم والطائع التفصيل الآتى فى قوله: فأما الذين آمنوا ولم يستنكفوا وعملوا الصالحات فيوفيهم الله أجورهم الحسنة بعشر أمثالها ويزيدهم على ذلك من فضله إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك. أنظر الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا شديدًا ولايجدون يوم القيامة صديقا يشفع لهم ولانصيرا يدفع عنهم بقوته العذاب.

وبعدما أقام الحجة على جميع الكافرين والمنافقين خاطب الجميع بقوله: يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، أى حجة قاطعة، وهى المعجزات ودلائل التوحيد، وأنزلنا إليكم بواسطة رسولنا محمد ﷺ نورًا هو القرآن فيه بيان لكل ما تحتاجون إليه، فأما الذين آمنوا بالله إيمانا صحيحا وتمسكوا بما فى القرآن من عقائد وأحكام فسيدخلهم يوم القيامة فى دار رحمته وهى الجنة، ويمن عليهم بفضله وهو النظر إلى وجهه الكريم، أما فى الدنيا فيهديهم أى يوفقهم إلى سلوك طريق النجاة وهو الإسلام الصحيح. وقد ذكر جزاءهم فى الآخرة للمسارعة إلى تبشيرهم بالمقصود الأصلى. ولما تقدم فى الآية (١٢) صفحة ١٠٠ ذكر الكلالة، وكان الإخوة فيها لأم، سأل بعضهم النبى ﷺ عن حكم مَنْ له أخ أو أخت لأبوين أو لأب، فقال تعالى: يستفتونك أيها النبى أى فى الكلالة، بدليل الجواب، قل لهم: الله يفتيكم فيها، ثم بين الفتوى بقوله: إن امرؤ هلك أى مات ليس له ولد ذكر أو أنثى أى ولا والد لأن هذا هو الكلالة كما تقدم أول السورة، لأنه لو كان للميت والد لحجب جميع الأخوة، فتوريث الإخوة هنا يدل على عدم الوالد، وله أخت من أبوين أو أب فلها نصف ماترك، وهو أى الأخ من أبوين أو أب يرثها فى جميع ماتركت إن لم يكن لها ولد، أى ولا والد كما تقدم؛ فإن كان لها ولد ذكر فلا شىء للأخ، وإن كان أنثى فللأخ ما بقى بعد نصيب الأنثى أو الإناث، وإن كانتا أى الأختان اثنتين فصاعدا فلهما الثلثان مما ترك الأخ، وإن كانوا أى الورثة إخوة رجالا ونساء أى فيهم من النوعين..

فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

(٥) سُورَةُ المَائِدَةِ مَدَنِيَّة
وآياتها عشرون ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ[1] أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ[1] إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ[2] ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ[3] وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا[4] وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ

فللذكر من هؤلاء الأخوة مثل حظ أى نصيب الأنثيين.. يبين الله لكم أمور دينكم وتفصيل فرائضكم، كراهة أن تضلوا وتبتعدوا عن الصواب فى أعمالكم وفى قسمة التركات. والله بكل شىء عليم، فلا يشرع لكم إلا ما فيه مصلحتكم. فله الحمد والشكر.

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أوفوا﴾: الوفاء الإتيان بالشىء وافيا تاما. ﴿العقود﴾: هى العهود المؤكدة التى أخذها الله على عباده، أو أخذها العباد بعضهم على بعض فيما هو جائز شرعًا.

﴿بهيمة﴾: هى كل حيوان من شأنه ألا ينطق. ﴿الأنعام﴾: هى الإبل والبقر وتشمل الجاموس والغنم الضأن والمعز.

﴿الصيد﴾: هو ما يصاد من الحيوان الوحشى، كالظباء، والبقر والحمير الوحشيتين كما سيأتى فى الآيتين (٩٥، ٩٦) من هذه السورة صفحة ١٥٦.

﴿حُرُم﴾: جمع حرام وهو المحرم بضم فسكون، وهو مَنْ كان فى أرض الحرم أو كان ناويًا حجًا أو عمرة ولو لم يكن دخل أرض الحرم.

﴿شعائر الله﴾: تقدم بيانها فى الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والمراد بها هنا ما جعل شعارًا وعلامة على أعمال ومناسك الحج والعمرة من إحرام وطواف وسعى

(١) الأنعام. (٢) شعائر.
(٣) القلائد (٤) ورضوانا

إلخ..﴿الشهر الحرام﴾: المراد جنس الشهر الحرام، فيشمل الأشهر الحرم الأربعة المبينة فى الآية (١٩٤) من سورة البقرة صفحة ٣٨، والآية (٣٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٦. ﴿الهدى﴾: هو ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على فقرائه. ﴿القلائد﴾: جمع قلادة وهى ما يوضع فى عنق الهدى ليكون علامة على أنه مهدى للكعبة حتى لا يتعرض له أحد، وإحلال القلائد المنهى عنه يكون بنزعها من عنق الحيوان المهدى للبيت الحرام وما كانت العرب تقلد الإبل وإنما كانت تقلد البقر والغنم. ﴿ءامين البيت﴾: قاصدين البيت للحج أو العمرة. انظر الآية (٩٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٨. ﴿ورضوانا﴾: هو الرضى العظيم انظر شرح الآية (١٦) من سورة المائدة صفحة ١٣٩.

﴿إذا حللتم﴾: أى خرجتم من الإحرام أو من أرض الحرام.

﴿يجرمنكم﴾: يحملنكم. ﴿شنآن﴾: أى بغض.

المعنى: كان كثير من الكلام فى السورة السابقة فى مجادلة أهل الكتاب، وكان اليهود منهم مشهورين بنقض العهود وتحريم ما أحل الله عز وجل وبالعكس، وكان الكلام معهم فى هذه السورة كثيرًا أيضًا فى نحو ٨٦ آية. قال سبحانه: يأيها الذين آمنوا حافظوا على العهود ولا تكونوا مثل غيركم، وقد أحل الله لكم أكل لحم بهيمة هى الأنعام كلها، ولم يحرم عليكم إلا ما سيتلى عليكم فى الآية الثالثة ﴿من هذه السورة﴾. ولم يحل لكم ما يصاد من الحيوان الوحشى وأنتم فى أرض الحرم ولم لم تكونوا محرمين بحج، أو وأنتم محرمون بالحج أو العمرة ولو لم تكونوا فى أرض الحرم، إن الله يقضى ما يريد القضاء به كما تقتضيه حكمته. ولا تجعلوا شعائر دين الله حلالاً تتصرفون فيها كما تريدون من التهاون فيها، أو تصيدون فى الحرم إلى غير ذلك مما فيه استهزاء بها. ولا تحلوا القلائد بنزعها عن عنق الهدى فتعرضوها لأخذ الناس لها فضلاً عما فى ذلك من احتقار شعيرة من شعائر الله تعالى. ولا تحلوا دم وأموال القاصدين للبيت الحرام يطلبون فضلاً من الله أى رزقا بالتجارة ورضوانا بالحج. وإذا خرجتم من الحرم أو فرغتم من أعمال الحج فاصطادوا ما شئتم من صيد البر، ولا يحملنكم بغضكم...

قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ[1] وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ[2] ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ[3] دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ[4] مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ[5] وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

المفردات: ﴿الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾: هذه الأربعة ذكرت على سبيل الحصر فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة وشرحت هناك صفحة ٣٣، وذكرت كذلك فى الآية (١٤٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٧، ١٨٨ والآية (١١٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٢. ﴿المنخنقة﴾: ما حبس نفسها حتى ماتت. ﴿الموقوذة﴾: هى ما ضربت بشىء ثقيل كحجر أو عصا حتى ماتت. ﴿المتردية﴾: هى ما وقعت من مكان مرتفع أو فى مكان منخفض بئر فماتت. ﴿النطيحة﴾: هى التى نطحتها أخرى حتى ماتت. ﴿وما أكل السبع﴾: المراد به كل حيوان مفترس كالذئب والفهد والسبع مثلاً، والمراد ما أكل بعضها فماتت من جرحه. ﴿ذكيتم﴾: ذبحتم. ﴿وما ذبح على النصب﴾: نصب جمع نصيب بمعنى منصوب، وكانت حجارة ينصبها العرب حول الكعبة يذبحون عليها تعظيمًا لآلهتهم. ﴿تستقسموا بالأزلام﴾: أى تعرفون ما قسم لكم فى الغيب بواسطة القرعة بالأزلام وهى جمع زلم بفتحتين وهو السهم، وكانت العرب تأخذ ثلاثة منها مكتوب على أحدها: أمرنى ربى، وعلى الثانى: نهانى ربى، وليس على الثالث شىء، ويضعونها فى جراب، ومن أراد سفرًا أو عمل شىء أخرج واحدا منها، فإن خرج الأول سافر أو فعل ما يريد، وإن خرج الثانى امتنع، وإن خرج الثالث أعاد القرعة. ﴿فسق﴾: أى خروج عن الطاعة. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾: ﴿اليوم﴾ المراد به الزمن الذى نزلت فيه هذه الآية وكان هذا اليوم قبل وفاته ﷺ بنحو ثمانين يومًا قالت اليهود لعمر بن الخطاب: إن فى كتابكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال عمر وأى آية؟ قالوا: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم... إلخ﴾.

(١) والعدوان. (٢) بالأزلام. (٣) الإسلام (٤) يسالونك (٥) الطيبات.

قال عمر: إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفه فى يوم الجمعة، رواه الشيخان وغيرهما.

﴿أكملت﴾: الكمال من الألفاظ التى الأصل فيها ألا تستعمل إلا فى الكيفيات والمعنويات، لا فى الكميات والحسيات، فيقال: فلان كامل الخُلُق، ولا يقال تام الخُلُق فالكمال بحر لا ساحل له، ولذا يقال: الكمال لله وحده. ولهذا ناسب أن يكون فى جانب الدين لأنه هو الوسيلة الوحيدة للسعادة الخالدة التى هى أسمى مطالب الحكماء، ولا يغفل عنها إلا الحمقى والسفهاء.

﴿دينكم﴾: المراد من الدين هنا شريعة الإسلام كما هو مبين فى آخر الآية وهى الشريعة التى بَيَّنَتْ العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق ولم تترك طريقًا من طرق الخير إلا أرشدت إليه، ولا طريقًا من طرق الشر إلا حذرت منه، فكانت الرحمة العظمى المهداة من الخالق لخلقه. ﴿وأتممت﴾: التمام من الألفاظ التى الأصل فيها أن تستعمل فى الكميات والماديات فيقال: فلان تام الأعضاء، وهذا بيت تام الأركان، ولما كانت المعنويات الرفيعة أشرف وأعلا منزلة من الماديات مهما سمت، ناسب أن يكون الكمال فى جانب الدين الحق لأنه الوسيلة الوحيدة للسعادة الخالدة كما تقدم. ولما كانت النعمة المرادة هنا هى فتح مكة، وهدم معاقل الشرك وتطهير البلاد من حمية الجاهلية فأمن المؤمنون على أنفسهم وأهليهم، وكان كل ذلك سعادة لكنها دون السعادة الدائمة، لما كان كل ذلك ناسبها الإتمام الذى يستعمل كثيرًا فى الماديات الفانية: ﴿مخمصة﴾: مجاعة تخمص لها البطون أى تضمر. ﴿متجانف﴾: الجنف الميل كما تقدم فى الآية (١٨٢) من سورة البقرة صفحة ٣٥، والمراد مائل ومنحرف إلى الإثم. ﴿الجوارح﴾: جمع جارحة والهاء للمبالغة لا للتأنيث كعلامة، والجارح هو المعلم على الصيد من الكلاب أو الطيور التى من شأنها أن تجرح ما تصيده.

المعنى: لا يحملنكم بغضكم لقوم، المراد بهم مشركو مكة، لأجل صدهم ومنعهم لكم عن دخول المسجد الحرام فى عام صلح الحديبية الذى سيأتى الكلام عليه فى الآية ﴿١٨﴾ من سورة الفتح صفحة ٦٨١، ولا يحملنكم على أن تعتدوا عليهم بالقتل وغيره بدون سبب، وتعاونوا على فعل الخير، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة، صفحتى ٣٣، ٣٤. وعلى كل ما يتقى به الشر، ولا تتعاونوا على ارتكاب الذنب وتجاوز حدود الله شرعها لحسن المعاملة بين الناس، واتقوا الله فى كل ما أمر به لأنه شديد العقاب لِمَنْ لم يتقه......

ثم شرع فى بيان المحرمات المشار إليها فى الآية الأولى فقال:

﴿حُرِمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾

ثم فصل بعض أنواع الميتة فذكر منها خمسة، وذكر واحدًا مما أهل لغير الله به وهو ما ذبح على النصب لأنه كان كثيرًا عند العرب. فمحرمات الطعام أربعة إجمالاً وعشرة تفصيلاً. إلا ما ذكيتم من كل هذه الأشياء: أى أدركتموها وفيها حياة فذكيتموها الذكاة الشرعية، وهى أن يكون فى الحيوان حركة بعد ذبحه فى أى عضو من أعضائه ولو فى أذنه أو ذنبه.

وحكمة حرمة القرعة بالسهام أنها خرافات وأوهام لا يعول عليها إلا ضعيف العقل، ولما فيها من إفساد العقائد ونظام الأعمال. ومَنْ أراد أيضاحًا أوسع فى هذا المقام ومعرفة الفرق بين المحرم هنا وبين القرعة المباحة فليرجع إلى شرح حديث رقم ٣٥٣ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. ذلكم أى كل ما تقدم فسق وخروج عن طاعة الله عز وجل. اليوم أى يوم نزول هذه الآية، وكان قبل وفاته ﷺ بنحو ثمانين يومًا: يوم وقف النبى ﷺ بعرفة فى حجة الوداع وكان يوم الجمعة.

يئس الذين كفروا وانقطع رجاؤهم فى أن ينتصروا عليكم لما شاهدوه من انتشار الإسلام وقوته. فلا تخافوهم وخافونى وحدى، لأن الضر والنفع بيدى. اليوم أكملت لكم دينكم ببيان الحدود والحلال والحرام، فلا زيادة ولا نقصان بعد اليوم. قال ابن عباس: المراد بالدين هنا كل ما فيه من عقائد وأحكام وعبادات وآداب وما فى معناها بالتفصيل، وأهم الحدود والمعاملات وما عدا ذلك وضع المتخصصون فى فقه الشريعة قواعده التى يستخلص منها الأحكام الجزئية. وأتممت عليكم نعمتى بفتح مكة وهدم منار الجاهلية، واخترت لكم الإسلام دينا. فمَنْ وقع فى ضرورة كمجاعة شديدة حال كونه غير مائل إلى الإثم كما هو مبين فى شرح الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٢. فأكل من هذه المحرمات فإن الله غفور رحيم بعدم مؤاخذته. ثم شرع فى تفصيل الحلال الذى ذكر إجمالاً فقال: يسألونك ما هو الحلال لهم من الطعام، قل أحل لكم كل طيب لا تستخبثه النفوس السليمة، وصيد ما علمتموه من الجوارح...

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ
وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ
حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ

المفردات: ﴿مكلبين﴾: معلمين لها طريقة الصيد. والمكلب بكسر اللام مؤدب الجوارح ومروضها على الصيد، مأخوذ من الكلب بفتح فسكون وهو الحيوان المعروف لأن التكليب فيه أكثر.

﴿المحصنات﴾: المراد هنا العفيفات ﴿أجورهن﴾: مهورهن. ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾: تقدم تفسيرها فى الآية (٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٠٣، ١٠٤. ﴿حبط عمله﴾: أى بطل ﴿المرافق﴾: جمع مرفق بكسر فسكون ففتح كمنبر. وبالعكس كمجلس. وهم العظم الذى عند المفصل الذى بين الذراع والعضد.

﴿الكعبين﴾: هما العظمان البارزان فى الرجل عند مفصل الساق من القدم.

المعنى: كلوا من صيد الجوارح إذا كنتم علمتموها مما علمكم الله من طرق التعليم والتأديب التى ألهمها الله تعالى لكم بواسطة العقل، فإذا استوفت الشروط فكلوا من الحيوان الذى تمسكه لكم، أما إذا أمسكته الجوارح لنفسها فلا يحل أكله. واذكروا اسم الله على تلك الجوارح عند إرسالها على الصيد، واتقوا الله فلا تقربوا ما حرم، ومنه صيد غير المعلم أو غير المسمى عليه، لأن الله سريع الحساب، فيجازى بسرعة على السيئة والحسنة. ﴿اليوم

(١) الطيبات. (٢) الكتاب.
(٣) والمحصنات. (٤) المؤمنات.
(٥) والمحصنات. (٦) الكتاب.
(٧) مسافحين (٨) بالإيمان
(٩) الخاسرين (١٠) الصلاة.

أحل لكم الطيبات﴾ أعاده للتأكيد وليربط به ما بعده، وطعام اليهود والنصارى المحلل لهم فى كتبهم حل لكم، أما الخمر والخنزير فلا، لأنها محرمة على لسان كل نبى، وطعامكم حل لهم، أى وكل طعام حلال فى شريعتكم أيها المسلمون فقد أصبح حلالاً لهم، ولو كان قبل ذلك محرمًا عليهم، كلحوم الإبل وكل ذى ظفر إلى آخر ما بينته الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، فإن الإسلام نسخ تحريم ذلك بنزول القرآن الناسخ لكل حكم خالف أحكامه من الكتب السابقة؛ أى فإباحة الطعام مشتركة بين الجانبين، دون إباحة النساء فإنها لنا دونهم. كما فى قوله: ﴿والمحصنات﴾ أى وأحل لكم زواج المحصنات أى العفيفات من المؤمنات والعفيفات من الكتابيات، بشرط أن توفوا لهن مهورهن، وأن تكونوا قاصدين إحصان أنفسكم وإحصان زوجاتكم، لا زانين علنا أو سرًا. ومَنْ يكفر بتعاليم الإيمان وما تقتضيه بأن يمتنع عن توحيد الله وعن طاعته فقد بطل كل عمله من الخير فلا ينفعه فى الآخرة بالإنقاذ من الخلود فى النار، انظر شرح الآيتين (٧، ٨) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨. وكذلك الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣؛ فيكون فى الآخرة من الخاسرين المحرومين من النعيم. يأيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام للصلاة وكنتم محدثين فلابد من الوضوء وهو أن تغسلوا وجوهكم إلخ، وقد كان الوضوء ثابتًا بالسنة حيث علمه جبريل عليه السلام للنبى صلوات الله عليه صبيحة فرض الصلاة وهو بمكة، فجاءت هذه الآية بالمدينة وفى آخر العهد لتؤكد وجوبه بجعله حكمًا متلوا لا يحتمل تغييرًا. وقوله: ﴿وأرجلكم﴾ بالنصب على عطف على وجوهكم، وقرئ أرجلكم بالكسر معطوفًا على رءوسكم، وتكون هذه القراءة أفادت المسح على الخف والجورب. ويكون المعنى فاغسلوا الأرجل إذا كانت مكشوفة، وامسحوها إذا كانت داخلة فى خف أو جورب. وبينت السنة أن الغسل لابد أن يعم الرجل، أما المسح فيكفى فيه مرور الأصابع مبللة على ظهر الخف؛ وإن كنتم جنبًا فاطهروا بغسل الجسد كله بالماء الطهور. ولما فرغ من بيان أعمال الوضوء وكان يظن أن ذلك وقد نزل آخر الأمر قد يكون ناسخا لما نزل قبل ذلك من إباحة التيمم فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧ ذكر التيمم هنا ثانيًا ليسجل خلوده أيضًا كالوضوء، ويدفع احتمال ظن النسخ فقال: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ مرضًا يمنع من استعمال الماء أو مسافرين....

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

المفردات: ﴿من الغائط﴾: تقدم تفسير الآية كلها فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿حرج﴾: مشقة.

﴿ميثاقه﴾: عهده

﴿واثقكم به﴾: عاهدكم عليه وأخذه عليكم بواسطة رسوله محمَّد ﷺ.

﴿بذات الصدور﴾: أى خفياتها

﴿الملامسة﴾ لها ملابسة تامة حتى كأنها صاحبة لها لا تفارقها.

﴿قوامين لله﴾: أى كثيرى القيام بحقوق الله مخلصين لوجهه لا ترجون إلا رضاه لا رياء ولا سمعة.

﴿شهداء بالقسط﴾: شاهدين بالعدل بدون محاباة لأحد.

﴿ولا يجرمنكم﴾: أى لا يحملنكم.

﴿شنآن قوم﴾: بغضكم لقوم.

المعنى: إذا وجد عذر من هذه الأعذار فتيمموا. وإنما أجاز لكم ذلك لأنه لا يريد أن يجعل عليكم مشقة فى تكاليف الدين، ولكن يريد بتشريعاته طهارتكم حسيا من النجاسات ومعنويا

(١) لامستم.
(٢) وميثاقه.
(٣) قوامين.
(٤) الصالحات.
(٥) بآياتنا.
(٦) أصحاب.

من الذنوب، وليتم نعمته عليكم بالجمع بين الطهارتين. وإذا تعسرت إحداهما حلت الأخرى مكانها فلا تتعطلوا عن الصلاة يومًا كما كان الحال عند الأمم قبلكم لعلكم تشكرون هذه النعم بالمداومة على الطاعة.

واذكروا نعمة الله عليكم بهدايتكم إلى الإسلام. واذكروا عهوده التى أخذها عليكم بواسطة رسوله كعهد بيعة العقبة وبيعة الرضوان الآتية فى الآيتين (١٠ ، ١٨) من سورة الحج صفحات ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦ ، هذه العهود وغيرها التى عاهدكم عليها فى الوقت الذى قلتم فيه سمعنا قولك أيها النبى وأطعنا أمرك.

واتقوا الله فلا تخافوا عهوده لأنه سبحانه عليم بخفيات الصدور، فإياكم والتفكير فيما يغضبه. ومَنْ أراد معرفة بيعاته ﷺ تفصيلاً وما حصل فيها فليرجع إلى حديث رقم ٧ من كتابنا صفوة البخارى وبعدما بيَّن المطلوب من المسلمين من عباده ومحافظة على عهده أراد أن يبين لهم ما يجرى بينهم وبين الناس فقال:

﴿كونوا قوامين﴾ إلخ، أى محافظين على القيام بكل ما أخذ عليكم العهد به مخلصين فى ذلك لله لا تريدون إلا رضاه وكونوا فى شهادتكم بين الناس عدولاً فلا تحابوا مشهودًا له ولا تظلموا مشهودًا عليه. ولا يحملنكم كرهكم لقوم على عدم العدل فى الشهادة فتضيعوا عليهم حقهم.

وتقدم نظير هذا فى الآية (٢) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ وكذلك فى الآية (١٣٥) من نفس السورة صفحتى ١٢٥، ١٢٦.

وإذا كان العدل أساس نظام الدولة فاعدلوا، أى حافظوا عليه لأنه أقرب طريق موصل لتقوى الله والبعد عن غضبه. ولهذا أيضًا كرر الوصية بها فقال: واتقوا الله لأنه خبير بما تعملون، فيجازى مَنْ فرط فيها. ثم أراد أن يبين جزاء مَنْ اتقى وغيره فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلخ.

وبعد التذكير بنعمة إيصال الخير أراد أن يذكر بنعمة الإنجاء من الشر فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾....

إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ(١) بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(٢) وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ(٣) وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ(٤) وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ(٥) تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ(٦) فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ(٧) لَعَنَّٰهُمْ(٨) وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً(٩) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ(١٠)

المفردات: ﴿قوم﴾: هم كفار قريش قبل الهجرة عندما هموا بقتله وقتل كثير من أصحابه انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، واليهود بعد الهجرة حينما هموا بقتله ﷺ بحجر يلقونه عليه وهو جالس بجوار حائط عندهم، فأخبره الله تعالى بغدرهم فانصرف انظر شرح أول سورة الحشر صفحتى ٧٢٩ ، ٧٣٠. ﴿يبسطوا إليكم أيديهم﴾: بسط اليد كناية عن إيقاع الأذى. ﴿فكف أيديهم﴾: أى أحبط مكيدتهم. ﴿ميثاق﴾: أى عهد ﴿اثنى عشر نقيبا﴾: هم زعماء أسباطهم المتقدم ذكرهم فى الآيتين (١٣٦ ، ١٤٠) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧ وهم الذين فجر موسى العيون بعددهم كما فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢ . ﴿وعزرتموهم﴾: أى نصرتموهم. ﴿فبما نقضهم﴾: أى فبسبب نقضهم. وانظر مثل هذا فى الآية (١٥٥) من سورة النساء صفحة ١٢٩ . ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾: أى يغيرون كلام الله الذى فى التوراة ويبعدونه عن موضعه الذى وضعه الله تعالى فيه، وهذا التصرف يحصل بأمور بينتها الآيات (٧٥، ٧٩، ١٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ٣٣ ... و الآية (٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٥ ... و الآية (١٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٩ ... و الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ٩١: ﴿حظا﴾: نصيبا. ﴿خائنة﴾: تستعمل العرب وزن فاعلة وتريد به المصدر فتقول: قائلة بمعنى القيلولة، وخاطئة تريد الخطيئة كما فى الآية (٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، فخائنة هنا بمعنى الخيانة.

(١) ميثاق. (٢) إسرائيل. (٣) الصلاة. (٤) الزكاة.
(٥) جنات. (٦) الأنهار. (٧) ميثاقهم. (٨) لعناهم.
(٩) قاسية (١٠) نصارى

المعنى: تذكروا نعمته تعالى عليكم فى أوقات الشدة التى همَّ فيها اليهود والمشركون بالفتك بكم وإبطال دعوتكم فأحبط كيدهم ونجاكم، فحافظوا على تقوى الله عز وجل يزدكم حفظًا وقوة وعلى الله وحده يتوكل المؤمنون، فإنه سبحانه خير مَنْ يدفع الشر ويجلب النفع.. وبعد ما بيَّن سبحانه قيمة حفظ العهود أراد أن يذكر بعض الأمم التى نقضتها وما حل بهم ليحذر المسلمون من عملهم فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل﴾ على أمور مهمة ذكر القرآن فى مواضع كثيرة منها غير ما هنا ما فى الآيات (٨٣ ، ٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦ ، و(٨١ ، ١٨٧) من سورة آل عمران صفحتى ٧٦، ٩٤ و(١٥٤) من سورة النساء صفحة ١٢٩ و (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥؛ وبعثنا منهم قادة لهم وكفلاء عليهم بالوفاء لله تعالى بالعهود. وقال الله لبنى إسرائيل إنى معكم بعلمى لما يكون منكم وبالنصر إن وفيتم بالعهد. ثم بيَّن الميثاق فقال: لئن أى وعزتى لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى الذين سأرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمَّد، وهذا هو الميثاق الذى أشارت إليه الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦، وعزرتموهم بالمساعدة على الجهاد فى سبيل الله، وبذلتم من الصدقات فوق الواجب، وتقدم بيان القرض الحسن فى الآية (٢٤٥) صفحة ٥٠، لو فعلتم ذلك لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، فَمَنْ كفر وجحد شيئًا مما أمرت به بعد ذلك العهد فقد انحرف وترك وسط الطريق الموصل للنجاة، ومَنْ انحرف اتجه إلى إحدى سبل الضلال المشار إليها فى الآية (١٥٣) الأنعام صفحة ١٨٩، ولكن هؤلاء اليهود نقضوا العهود، وبسبب هذا طردناهم عن رحمتنا وملأنا قلوبهم قسوة لا ينفع فيها وعظ ولا تدخلها رحمة. وكان من آثار ذلك أنهم تجرءوا على كلام الله فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق ومن صفة محمَّد ﷺ، ونسوا مقدارًا مما ذكرهم الله تعالى به فى التوراة، فالذى عندهم مما فى التوراة الصحيحة هو بعضها فقط، انظر الآيات (٢٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٦ و (١٤٤ ، ١٥١) من سورة النساء صفحات ١٠٧، ١٠٨ ، ١٢٨، ١٢٩؛ ولاتزال أيها النبى تطلع على خيانة منهم، أى هذا هو حالهم دائمًا إلا قليلاً منهم وهم مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، فاعف عن هؤلاء المؤمنين منهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم، واصفح عما يمكن أن يكون منهم من إساءة إليك إن الله يحب المحسنين بالعفو والصفح والمقصود بالعفو محو الشىء، والمقصود بالصفح الإعراض وعدم المؤاخذة على الذنب. ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ أى ادعوا أنهم أنصار الله عز وجل وهم كاذبون...

أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ[1] فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ[2] وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ[3] قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ[4] وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ[5] مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ[6] سُبُلَ السَّلَٰمِ[7] وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ[8] إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ[9] مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ[10] وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

المفردات: ﴿العداوة﴾: أى التعادى المسبب للتقاتل.

﴿والبغضاء﴾: أى الكراهة، فهو من عطف السبب على مسببه.

﴿نور﴾: المراد به هنا القرآن، لأنه ينير الطريق لمن اتبعه كما سيأتى انظر الآيات (١٧٤) من سورة النساء صفحة ١٣٣ و(١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨ و (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ و(٨) من سورة التغابن ٧٤٦.

﴿وكتاب مبين﴾: ﴿مبين﴾ أى موضح لطرائق النجاة، ولما وصف الكتاب بهذه الصفة واكتسب معناها صحَّ عطفه على ما قبله من قبيل عطف الصفة على الصفة، كما تقول جاء محمد العالم والكريم، ومما يؤيد أن الكتاب هنا هو والنور يدلان على شىء واحد إعادة الضمير عليه مفردًا فى قوله ﴿يهدى به الله﴾، ولو كانا متغايرين لقال ﴿بهما﴾.

﴿يهدى به﴾: المراد يزيده هداية، انظر الآية (١٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨١ والآية (١٧) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥.

﴿رضوانه﴾. قال الراغب: الرضوان هو الرضى التام، ولما كان أعظم الرضا هو رضى الله سبحانه خص لفظ الرضوان فى القرآن بما كان من الله، انظر الآيات (٧٢) من سورة التوبة

---

(١) ميثاقهم. (٢) القيامة. (٣)، (٤) الكتاب.
(٥) وكتاب. (٦) رضوانه. (٧) السلام.
(٨) الظلمات. (٩) صراط (١٠) السموات

صفحة ٢٥٣ و(٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤؛ و (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ و(٢٧) من سورة الحديد أيضًا صفحة ٧٢٣؛

﴿سبل السلام﴾: السبل جمع سبيل وهى الطريق، وقد جاء فى القرآن مجموعًا كما هنا، ومفردًا وهو كثير، فإذا كان مجموعًا مقابلاً للصراط المستقيم، فالمراد به كل الطرق الموصلة لغير الحق، ولما فيه هلاك سالكها كما فى قوله تعالى ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩.

وإذا ذكر مجموعا فى مقام مدحه والترغيب فيه كما هنا، فإنه يراد به كل الأعمال الصالحة الموصلة للسلامة من المخاطر فى الدنيا والآخرة، ولذلك أضافها سبحانه إلى السلام، أى أنها كلها مهما تعددت فإنها توصل إلى شىء واحد، هو النجاة من كل شر.

وإذا جاء مفردًا مضافًا للنبى ﷺ فإنه يراد به مجموع شريعته من عقائد وأعمال، كما فى قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى.. إلخ﴾.

الآية (١٠٨) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، فهى بمعنى الصراط المستقيم فى الآية (١٥٣)، المتقدمة.

المعنى: ـ ومن النصارى أخذنا أيضًا العهود كما أخذناها على اليهود، وما أخذ عليهم كثير، منه ما اشتركوا فيه مع اليهود كالإيمان بالرسول الذى يأتى ونصرته، ومما انفردوا به أن المسيح عيَّن الرسول الذى سيأتى بعده باسمه ومع ذلك كفروا به، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩؛ فنسى هؤلاء أيضًا نصيبًا مما ذكرهم الله به فى الإنجيل، فكان جزاؤهم أن هيج الله وقوى بينهم أى بين النصارى بعضهم مع بعض التعادى والتقاتل والبغضاء أى الكراهية، وهو من عطف السبب على المسبب، إلى يوم القيامة، وقد تحقق هذا إلى يومنا هذا، فلم نر أهل ملة واحدة يتقاتلون جريًا وراء الشهوات والمطامع مثل ما نرى بين النصارى، وهذا جزاؤهم فى الدنيا، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون فى الآخرة، أى فسيعاقبهم أشد العقاب.

ثم بعد كل هذا خاطبهم بما فيه نجاتهم فقال: يأهل الكتاب من يهود ونصارى قد جاءكم

رسولنا محمَّد ﷺ يبين لكم بعض ما كنتم تخفون من الكتاب أى من التوراة والإنجيل كإخفاء آية الرجم التى ستأتى فى شرح الآية (٤١) وما بعدها من هذه السورة صفحة ١٤٤ وما بعدها: وكإخفاء صفته ﷺ، والبشارة به، ويعفو عن كثير مما تخفونه صيانة لكم من زيادة الفضيحة لعلكم ترجعون انظر الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ .

قد جاءكم من الله نور هو الكتاب المبيِّن لكم طريق الحق؛ وفوائد هذا الكتاب أولاً أنه يهدى به الله مَنْ اتبع فى أعماله ما يرضيه إلى الطريق التى يسلم فيها من مخاوف الدنيا والآخرة.

وثانيًا أنه يخرج مَنْ آمن به من ظلمات الكفر والجهل إلى نور التوحيد والعلم بإرادته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام.

فهذه هى الهداية إلى سبل السلام ذكرت بعنوان آخر هى أنها أقرب طريق يوصل للمقصود، فعطفها نظير العطف فى الآية (٥٨) من سورة هود صفحة ٢٩٣.

وبعد ما بيَّن أحوال أهل الكتاب عامة ذكر ما يخص النصارى فقال:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ والذين قالوا ذلك انقرضوا الآن.

كما بدأ ينقرض مَنْ يقول بالتثليث المشار إليه فى الآية (٧٣) الآتية صفحة ١٥٢، وكذا مَنْ يقول: إن المسيح وأمه إلهان كما فى الآية (١١٦) الآتية أيضًا صفحتى ١٦٠، ١٦١ ، بدأ يقل هؤلاء بعد انتشار مذهب «البروتستانت» أى إصلاح النصرانية الذى يدين به أعظم أمم النصارى مدنية الآن، وهو مبنى على أن المسيح رسول فقط، ولكنهم ينكرون نبوة محمَّد ﷺ أو عمومها. قل يأيها النبى ردًا على هؤلاء إن كان الأمر كما تزعمون فمَنْ يملك من أمر الله وإرادته شيئًا يدفع به الإهلاك بالعذاب إن أراد الله أن يهلك المسيح وأمه بل ومَنْ فى الأرض جميعًا.

أى لا أحد يستطيع ذلك، لأن لله ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيد له بما فيهم المسيح؛ يخلق ما يشاء كيف شاء من تراب مباشرة بلا أب ولا أم كآدم، أو بدون أب كالمسيح، لأنه قدير على كل شىء، فلا وجه لشبهتكم فى عبادة المسيح لأنه ولد بدون أب....

وَالنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا

المفردات: ﴿وقالت اليهود والنصارى﴾: الكلام على التوزيع، إذ المعنى أن كل واحدة منهما تقول عن نفسها ذلك، ولا تدخل معها الأخرى، انظر ما قيل فى شرح الآيتين (١١١، ١١٣) من سورة البقرة صفحة٢٢ .

﴿على فترة من الرسل﴾: على حين فتور وانقطاع وجود أحد من الرسل. روى البخارى أن الفترة بين عيسى ونبينا عليهما السلام كانت ستمائة عام.

﴿إذ جعل فيكم أنبياء... إلخ﴾ قال ابن جرير: إن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى عليه السلام ليصعدوا معه الجبل عندما صعد لمناجاة ربه سبحانه وتعالى، صاروا كلهم أنبياء... وقال الألوسى: والمراد بهم موسى وهارون ويوسف وجميع أولاد يعقوب على القول بأنهم كانوا أنبياء.... والسبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه فقد قال ابن السائب ومقاتل أنهم كانوا أنبياء.. وقال الماوردى وغيره المراد بهم مَنْ أرسلوا بعد موسى، وقيل المراد بهم مَنْ تقدم ومَنْ تأخر.

﴿وجعلكم ملوكًا﴾: أى كالملوك فى الحرية والاستغناء عن الغير والتمتع بالخيرات، ومنه قولهم فلان ملك زمانه.

﴿الأرض المقدسة﴾: أى المطهرة من الوثنية لكثرة ما بعث فيها من الأنبياء دعاة التوحيد، وهى ما بين العريش إلى الفرات.

﴿كتب الله لكم﴾: أى قدر فى علمه أنكم تدخلونها وتسكنونها ما دمتم مطيعين. ﴿قومًا جبارين﴾: أشداء البطش وهم الجبابرة الكنعانيون.

---

(١) والنصارى. (٢) أبناء (٣) احباؤه (٤) السموات
(٥) الكتاب (٦) يا قوم (٧) وآتاكم (٨) العالمين
(٩) يا قوم (١٠) خاسرين (١١) يا موسى.

المعنى: . ومن دعاوى اليهود والنصارى الباطلة قول كل فريق منهم عن نفسه نحن المقربين إلى الله المحبوبون له كقرب الأبناء من الأب ومحبته لهم فلا يعذبنا وليس فى الناس مَنْ يشاركنا فى ذلك.

هكذا قالت كل طائفة عن نفسها. قل لهم أيها النبى إلزاما وتبكيتا إن كان لكم منزلة لست لغيركم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا من اضطهاد وإذلال لليهود كما فى أول سورة الإسراء، وكما هو مشاهد إلى يومنا هذا، وللنصارى أيام الرومان، ومن المصائب التى تحل بهم كل يوم بسبب ما يرتكبون من الظلم والمفاسد. إذن فليس الأمر كما تزعمون بل أنتم بشر ككل خلق الله عز وجل يجرى عليكم ما يجرى عليهم. مَنْ يعمل سوءًا يجز به فيغفر لمَنْ يشاء إذا تاب، ويعذب مَنْ يشاء لإصراره على المعصية، لا فرق عنده فى ذلك بين أتباع موسى وعيسى ومحمَّد. ثم أكد الرد بقوله:

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ إلخ؛ أى أن كل ما فيهما مستوون عنده تعالى بأنهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم بعدله على حد سواء... يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمَّد المبَشَّر به فى كتبكم، يبين لكم ما تحتاجون إليه فى الدين والدنيا بعد انقطاع وجود الرسل، أى فأنتم فى حاجة إلى ما يرشدكم إلى طرق العمل المنجى، اتقاء أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم يوم القيامة يا ربنا لم تعذبنا ولم يأتنا منك مَنْ يبشرنا إذا أطعنا وينذرنا إذا عصينا، فقد جاءكم بشير ونذير وانقطعت حجتكم، والله قادر على كل شىء من إرسال الرسل وقطع الحجج وتعذيب المخالف. ثم ذكر سبحانه بعض مخالفات اليهود ونقضهم العهد، فقال:

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالشكر عليها والطاعة ثم عدد بعض هذه النعم فقال إذ جعل فيكم أنبياء كثيرين لم يبعث فى أمة أكثر منهم، وجعلكم كالملوك أحرارًا فى تصرفكم أغنياء عن غيركم بما لم يؤت أحدًا من عالم زمانكم: من فلق البحر، والمن والسلوى، وتظليل الغمام فى التيه، وتفجير الماء من الحجر، إلى غير ذلك يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى وعد الله أنكم ستدخلونها، ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين خوفا من الجبابرة فتنقلبوا أى ترجعوا بهذا الجبن خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها﴾....

حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ[1] ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ[2] وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ[3] إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ[4] إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ[5] ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ[6] ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ[7] ﴿٢٦﴾ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ

المفردات: (ابنى آدم): هما هابيل وقابيل.

﴿قربانا﴾: هو ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبائح وغيرها كما تقدم فى الآية (١٨٣) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ .

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾: المراد أنه سبحانه لا يتقبل عمل عبده ويثبت عليه بالنعيم الدائم إلا إذا كان تقيًا.

أما الكافر فإنه لا ينفعه فى الإنقاذ من الخلود فى النار عمل من أعمال البر، انظر شرح الآية (٧) من سورة الزلزلة صفحة٨١٨.

وقد يستجيب سبحانه دعاءه فينقذه من خطر فى الدنيا لا لتقواه، ولكن ليظهر للخلق سوء طبعه ويقطع عليه باب العذر، انظر الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣.

المعنى: . إن بنى إسرائيل لما نجاهم الله من فرعون أمرهم بدخول الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، فأخذ موسى من كل سبط رئيسًا على قومه وسار بهم، فلما دنا من الأرض الموعودة بعث النقباء يتجسسون أخبار الكنعانيين، فلما وصلوا وجدوهم ضخام الأجسام أشداء البأس، فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن يكتموا عن الجيش لئلا يتزعزع وموسى واثق من نصر الله الذى وعده، فكتم بعض النقباء ولم يكتم أكثرهم، فجبن الجيش وقالوا إن فيها جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها بقتال غيرنا أو بغير قتال.

قال رجلان من الذين يخافون مخالفة أمر الله وقد أنعم الله عليهما بالثبات وكانا من النقباء الذين كتموا ما رأوا، وأحدهما يوشع: ادخلوا على الجبارين باب عاصمتهم، وفاجئوهم

(١) داخلون. (٢) غالبون (٣) ياموسى
(٤) فقاتلا (٥) قاعدون (٦، ٧) الفاسقين.

فى مضيق من الأرض حتى لا يجدوا للحرب مجالاً، فإن دخلتم معتمدين على الله فإنكم ستغلبون. فلا تجبنوا، وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين، لأن وعد الله حق.

فقالوا غير مبالين ولا منتفعين بنصيحة: لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب يا موسى أنت وربك فقاتلا الجبارين. قالوا ذلك استهزاء وعدم مبالاة بأمر الله لقسوة قلوبهم وبعدهم عن الأدب. إنا ههنا قاعدون ننتظر النتيجة.

قال موسى: يا ربى إنى لا أملك إلا أمر نفسى ونفس أخى هارون، وهذا منه عليه السلام شكوى إلى الله واعتذار وتنصل من عصيان قومه، فافرق أى احكم بيننا وبينهم بما يستحقه كل منا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. وأراد بذكر نفسه وأخيه فقط قلة الموافقين لا الحصر. وإلا فمعه الرجلان اللذان يخافان الله.

فقال سبحانه مجيبًا دعاء موسى: إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها وتملكها أربعين سنة يتيهون فى الأرض، أى يسيرون فى برية من الأرض تائهين، لا يستقرون فى مكان، وكانت هذه الأرض فيما بين مصر والشام، فلما مات هؤلاء الكبار فى التية حتى موسى وهارون ماتا فيه أيضًا ونشأ بعدهم ذرية لم تألف الذل الذى كانوا فيه فى مصر على يد فرعون فكانوا شجعانا ودخلوا الأرض المقدسة، فلا تأس أى لا تحزن على تعذيب القوم الفاسقين الخارجين عن طاعة ربهم.

ولما كان الحامل لليهود على محاربة نبينا محمَّد ﷺ هو الحسد والغيرة، أراد سبحانه أن يسليه على حسدهم، ببيان أن الحسد قديم فى طبع الإنسان، وأنه كان السبب فى أفظع الجرائم، فذكر قصة آدم فى ذلك.

فقال: واتل أيها النبى على أهل عصرك بما فيهم أهل الكتاب خبر ابنى آدم هابيل وقابيل تلاوة مقرونة بالحق والصدق، حين قرب كل منهما قربانا فتقبل الله قربان هابيل لتقواه ولم يتقبل قربان قابيل لعدم تقواه، فقال قابيل لأخيه حسدًا: لأقتلنك.

فقال أخوه: إنما يتقبل الله من المتقين، أى فليس الذنب عندى، بل ابحث عن العيب فى نفسك وأصلحها. والله يا أخى لئن مددت يدك إلىَّ لتقتلنى فما أنا بفاعل مثلك.

يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

المفـردات: ﴿أن تبوء بإثمى وإثمك﴾: المراد ترجع بإثم قتلى وإثمك الذى كان سبب عدم قبول قربانك.

﴿فطوعت له نفسه﴾: أى سهلت له.

﴿سوءة﴾: السوءة هى العورة التى يسوء منظرها.

﴿يا ويلتا﴾: أصلها يا ويلتى فأبدلوا ياء المتكلم ألفا، وهى كلمة يقولها المتحسر عند حلول الدواهى، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. ويقولها المتعجب عند سماعه شيئًا غريبًا عليه كما فى الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥.

المعنى: فلن أقتلك أبدًا ولو دفاعا خوفا من الله أن يرانى سافكا لدم إنسان. ولما كان الوعظ الدقيق ربما لا يفيد أتبعه بالتذكير بعذاب الآخرة فقال: إنى أريد أن ترجع بإثم قتلى وإثمك السابق فتحمل ذنبين بعد أن كان عليك ذنب واحد فتكون بذلك من أصحاب النار. فهونت له نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه فقتله، فصار من الخاسرين لأقرب الناس إليه ولنعيم الآخرة. ولما كان هذا أول موت تحير قابيل فى كيفية مواراة جثة أخيه التى يسوءه أن يراها بارزة، فبعث الله غرابا فى الأرض ليُرى الله القاتل كيفية مواراة سوءة أخيه. قال أبو مسلم إن

(١) العالمين. (٢) أصحاب
(٣) جزاء (٤) الظالمين
(٥) الخاسرين (٦) يوارى.
(٧) يا ويلتا (٨) فاوارى
(٩) النادمين (١٠) إسرائيل
(١١) بالبينات (١٢) جزاء

عادة الغراب البحث فى الأرض ليدفن ما يخطفه، ويظهر أن الغراب أطال البحث بدليل قوله ﴿يبحث﴾ الذى يدل على تكرار الفعل بخلاف ما لو قال (بحث)، ولما رأى قابيل ذلك تعلم منه، ولما شعر أنه جاهل وأقل خبرة من الغراب قال متحسرًا: يا ويلتا أبلغ من عجزى أن أكون أقل من الغراب تصريفًا للأمور.

ومن عجيب أمر الإنسان الذى يفخر بأنه أرقى الحيوانات أنه تتلمذ أول مرة على غراب. فأصبح من النادمين بسبب تحيره وكون الغراب أحسن منه، وتبرؤ أبويه منه.

ومن أجل فظاعة هذا الجرم العظيم واستعداد الناس للحسد الباعث عليه، فرضنا وحكمنا على بنى إسرائيل فى التوراة، وخص فى الذكر بنى إسرائيل مع أن هذا الجزاء ثابت لمَنْ قبلهم، لما تميزوا به عن سائر خلق الله من شدة الحسد ومن جرأتهم على هذا الذنب مع أشرف الخلق. فهم الشعب الوحيد الذى قتل أنبياءه؛ فكأن المعنى حكمنا على كل قاتل خصوصًا إذا كان من بنى إسرائيل، ثم بيَّن الذى كتبه فقال: أنه مَنْ قتل نفسًا بغير قتل نفس يوجب القصاص الآتى فى الآية (٤٥) الآتية صفحتى ١٤٥ ، ١٤٦؛ أو بغير فساد فى الأرض بما سيأتى بيانه فى الآية الآتية، فكأنما قتل الناس جميعًا لاشتراك الاثنين فى انتهاك حرمة الدماء والخروج على الله واستجلاب غضبه. ومَنْ أحياها بأن كان سبب بقائها حية، كأن دفع عنها القاتل أو أنقذها من هلاك مطلقًا، فكأنما أحيا الناس جميعًا فى استحقاق رحمة الله وجزيل ثوابه وقد جاء فى عقاب ابن آدم هذا قول النبى ﷺ: (كل نفس تُقتل بغير حق يكون على ابن آدم الأول كفل منها لأنه هو الذى سَنَّ هذه السُنة السيئة).

ولقد جاءت بنى إسرائيل رسلنا بالأدلة الواضحة على صدقهم وعلى حرمة القتل ثم إن كثيرًا منهم بعد المكتوب عليهم وإرسال الرسل لمسرفون فى الأرض بالقتل والبغى. ولما كانت الآية تشعر بأن القتل لا يكون إلا قصاصا أراد أن يبين أنه يكون أيضًا للمفسدين، وفى بعض الفساد من الشرور والفتن ما هو أشد من القتل، فقال:

إنما جزاء الذين يحاربون الله بمحاربة تعاليم كتابه وعدم امتثالها، ورسوله بمحاربة إرشاده وسنته التى بيّن بها القرآن:.

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ[١] أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا[٢] فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[٣] مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ[٤] مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا[٥] مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ

المفردات: ﴿فسادًا﴾: أى مفسدين.

﴿من خلاف﴾: أى تقطع اليد اليمنى من آخر الكف والرجل اليسرى عند القدم.

﴿وابتغوا﴾: أى اطلبوا.

﴿الوسيلة﴾: هى كل ما يتوسل به إلى رضاء الله تعالى، وهى اتباع ما أمر به سبحانه وترك ما نهى عنه قال ابن كثير فى تفسيره: قال ابن عباس الوسيلة هنا هى القربى أى الطاعة. وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وغيرهم، وعبارة قتادة (أن يتقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه).

ثم قال ابن كثير: وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لاخلاف بين المفسرين فيه.

﴿نكالا﴾: هو التعذيب الشديد.

المعنى: إن محاربة الله ورسوله هى إثارة الفتن والقلاقل والإخلال بالأمن، انظر الآية (١٠٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٠، والذين يفعلون ذلك هم الذين يسعون فى الأرض مفسدين، ويسمون فى اصطلاح الفقهاء محاربين، وفى عصرنا بالخارجين على القانون، ويشترط فيهم أن يكونوا عصبة ذات قوة مسلحة تحترف السلب وهتك الأعراض وقتل مَنْ يقف فى طريقها عنوة جهارًا، فجزاء هؤلاء أن يقتلوا أو يصلبوا إلى آخر ما ذكر من أربع عقوبات يعاقب الإمام بها على قدر الجريمة، فإن كانت الجريمة هى الإفساد بالقتل فقط قتله، وإن كانت بالقتل وأخذ المال صلبه، بأن يربط حيًا فى خشبة أو شجرة مثلا حتى يموت،

(١) خلاف. (٢) وجاهدوا. (٣) القيامة
(٤) بخارجين (٥) نكالا.

وإن كانت سرقة فقط تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن لم يحصل منهم شيء سوى إخافة الناس وإزعاجهم ينفوا من الأرض التى أفسدوا فيها إلى مكان بعيد، والسجن مثل النفى. ولما كان خطر هؤلاء شديدًا عبر فى عقابهم بصيغة التفعيل الدالة على الشدة فى النكاية بهم. ولذلك أيضًا جمع بين قطع اليد والرجل فى السرقة مع أنه فى سرقة الفرد العادية حكم بقطع يد واحدة كما فى الآية (٣٨) الآتية. ذلك الجزاء فضيحة لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. ومن هذا يعلم أن الحدود لا تكفر الذنب، ولكن ورد فى بعض الأحاديث ما يدل على أن التوبة الصحيحة مع الحد تكفر. ومن أراد تفصيل الموضوع وبيان الحق فيه فليرجع إلى شرح حديث رقم (٧) من كتابنا صفوة صحيح البخارى. فإن تاب هؤلاء المفسدون قبل تمكن الإمام منهم فلا يقام عليهم الحد المتقدم، لأن توبتهم وهم فى قوتهم تدل على أنها صحيحة، لأنه سبحانه غفور لما سلف، رحيم برفع العقاب عنهم. والذى يرتفع عنهم هو حق الله تعالى فقط. أما إذا سرقوا فلابد من رد المسروق لأهله. وإذا قتلوا فالأمر متروك لأصحاب الدم إن شاءوا عفوا وأخذوا الدية إلى آخر ما ذكر فى شرح حديث رقم (٧) من كتاب صفوة البخارى المتقدم.

فيأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتعدوا عن معاصيه، واطلبوا كل عمل يوصل لرضاه. وجاهدوا أنفسكم بمنعها عن الشرور، وجاهدوا الكفار والمحاربين بكل ما تستطيعون. لعلكم تفوزون فى الدنيا بالعز وفى الآخرة بالنعيم.

إن الذين كفروا لو فرض أن لكل واحد منهم ما فى الأرض جميعًا. انظر الآية (٥٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، ٢٧٥: ومثله معه أيضًا وبذلوه ليفتدوا به من العذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، بل ولهم عذاب شديد الألم بعد رفض الفداء. يومئذ يتمنون أن يخرجوا من النار بأى ثمن، وما هم بخارجين منها ولهم عذاب دائم. وبعدما بيّن حكم السرقة الكبرى أراد بيان حكم السرقة الصغرى فقال: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فإن سرق مرة تقطع اليد اليمنى بالطريقة المتقدمة فى الآية (٣٣). وإن سرق ثانيا تقطع رجله اليسرى. فإذا عاد ثالثًا تقطع اليد اليسرى. وفى الرابعة رجله اليمنى لأجل جزائه بما فعل. وللتنكيل به أى تشديد العقوبة، والله عزيز لا يعجز عما يريد، حكيم يشرع لكل ذنب ما يناسبه. فمن تاب عن السرقة من بعد ظلمه نفسه بها.....

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ[2] فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ[3] وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ[4] لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ[5] لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ[6] لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ[7] لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ

المفردات: ﴿يسارعون فى الكفر﴾: يقعون فيه مسرعين.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود.

﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾: يغيرون كلام التوراة مبعدين له عن مواضعه التى وضعه الله فيه.

﴿السحت﴾: الحرام كرشوة وربا وأجرزنا.

المعنى: فمَنْ تاب وأصلح عمله ورد المسروق لأصحابه فإن الله يقبل توبته لأنه كثير المغفرة والرحمة.

ألم تعلم أيها المخاطب أن الله له ملك السموات والأرض يدبر أمرهما بالحكمة والعدل، يعذب مَنْ يشاء ممنْ أفسدوا وعصوا، ويغفر لمَنْ يشاء ممنْ تابوا وأصلحوا، لأنه قدير على كل شيء من تعذيب أو مغفرة ورحمة.

وكان يهود المدينة وما حولها يدعون التمسك بالتوراة، فوقع فيهم حادث زنا من محصنين وخافوا عليهما من حكم التوراة، فأرسلوهما إلى النبى ﷺ.

وقالوا إن وجدتم عند محمد حكمًا أسهل فارضوا به واقبلوه وإلا فلا. فلما جاءوه ﷺ وسألوه قال: ما تجدون فى كتابكم؟ يريد التوراة، قالوا:

---

(١) السموات
(٢) يسارعون
(٣) بأفواههم
(٤)، (٥)، (٦) سمّاعون
(٧) أكالون.

نسود وجوههما ونفضحهما. فقال ﷺ: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا بها وبقارئ يعرف العبرية فقرأ حتى وصل آية الرجم وضع يده عليها وتخطاها، وكان عبدالله بن سلام حاضرا فقال:

ارفع يدك، فرفعها فوجدوا مكانها آية الرجم، فأمر ﷺ به، وأنزل الله فيهم وفى المنافقين منهم ومن غيرهم ﴿يأيها الرسول لا يحزنك﴾ إلخ؛ أى لا تهتم بمسارعة الذين يسارعون إلى التعمق فى الكفر بالتحيز إلى أعداء المؤمنين من المشركين.

ثم بيَّن هؤلاء المسارعين فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، وهم المنافقون.

ومن الذين هادوا قوم سمَّاعون أى كثيرو الاستماع منك تجسسا عليك ليكذبوا ويحرفوا ما تقول ليصرفوا الناس عنك، سمَّاعون لأجل نقل ما تقول لقوم آخرين لم يأتوك وتجبرا، وهم زعماؤهم وأصحاب الرياسة فيهم، وهم الذين أرسلوا غيرهم يسأله ﷺ عن حكم الزنا؛ هؤلاء المتكبرون يحرفون كلام التوراة مبعدين له عن مواضعه بالطرق التى بينت فى شرح الآية (١٣) من هذه السورة صفحة ١٣٨، يقولون لأتباعهم الذين أرسلوهم إليه ﷺ: إن أوتيتم من محمد حكما أخف من الرجم فخذوه وارضوا به واقبلوه وإلا فاحذروا قبوله.

ثم قال سبحانه فى هؤلاء اللاعبين بدينهم:

ومن يرد الله فتنته أى فضيحته وخزيه بإظهار ما فى نفسه فلن تملك ما يدفع ما يريده الله له. وعلل ذلك بقوله:

أولئك هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر والنفاق، لأن الحسد صار طبعًا لهم، فهم كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، لهم فى الدنيا خزى بالفضيحة والذم بنصر المؤمنين، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

ثم ذكر صفات أخرى لهم تؤكد استحقاقهم الخزى فقال:

﴿سماعون للكذب﴾ الذى يفتريه رؤساؤهم على كتاب الله، كثيرو أكل الحرام، وإذا كان حالهم كما علمت فإن جاءوك متحاكمين إليك فأنت مخير أيها النبى بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم.

عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ[1] فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ[2] فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ[3] وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ[4] اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي[5] ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ[6] ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

المفردات: ﴿القسط﴾: العدل.

﴿هدى ونور﴾. أى فيها ما يهدى إلى ما فيه سعادة الأخرى وما يضىء طريق الحياة فى الدنيا.

﴿الذين هادوا﴾: أى رجعوا من الكفر إلى الإيمان، والمراد بهم اليهود.

﴿الربانيون﴾: هم أهل الورع من أحبارهم كما تقدم فى الآية (٧٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٥، ٧٦

﴿الأحبار﴾: هم علماء اليهود.

﴿استحفظوا﴾: أى جعلهم الله تعالى حفظة ما علموه من كتابه وهو التوراة.

﴿والجروح قصاص﴾: أى متماثلات.

انظر الآية (١٩٤) من سورة البقرة صفحة ٣٨ .

المعنى: . وإن اخترت الإعراض فلا تخش غضبهم لأنهم لن يضروك شيئًا قليلاً فضلا عن الكثير، لأن الله عاصمك من الناس، وإن اخترت الحكم فاحكم بينهم بالعدل لأن الله يحب العادلين.

وتعجب أيها النبى من حال هؤلاء كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله فى المسألة التى سألوك عنها، وما ذلك منهم لطلب الحق، وإنما جريا وراء الشهوات وطلب الأسهل؛ ولذا قال:

(١)، (٢) التوراة.
(٣) الربانيون.
(٤) كتاب
(٥) بآياتى
(٦) الكافرون.

ثم يتولون من بعد قبول التحكيم إذا لم يوافق حكمك أهواءهم، وليس هؤلاء بالمؤمنين فى الواقع، لا بالتوراة التى فى أيديهم، ولابك عند تحاكمهم إليك.

ثم أظهر جرمهم فى حق التوراة فقال:

إنا أنزلنا التوراة فيها ما يهدى إلى طريق الوصول إلى رضا الله، ونور يضىء ما خفى على الناس من طريق الحياة السعيدة، يحكم بها النبيون كموسى ومَنْ بعده إلى بعثة عيسى الذين انقادوا وخضعوا لحكم الله، وهذا يشعر بذم اليهود الذين تمردوا عليها؛ يحكمون بها لليهود، ويحكم بها أيضًا الربانيون والأحبار بما جعلهم الله تعالى حفظة أمناء عليه من شرعه الذى فى كتابه.

وكان هؤلاء النبيون ومن بعدهم شهداء أى رقباء يحمون الكتاب من التغيير كما فعل عبدالله ابن سلام، انظر شرح الآية (٤١) من هذه السورة صفحة ١٤٤ .

وإذا كان الأمر كما ذكر من عناية الله تعالى بكتبه فلا تخشوا أيها الأحبار الناس وخافونى فى ترك أمرى فإن النفع بيدى، ولا تتركوا آياتى التى فى التوراة وتأخذوا بدل إهمالها عوضًا حقيرًا من الرشوة أو الجاه.

ثم أيد كونهم غير مؤمنين بقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ متى استحلوا ذلك. وفرضنا على بنى إسرائيل فى التوراة من العقوبات أن النفس تؤخذ بالنفس إذا قتلت عمدا بغير حق، والعين تفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تقطع بالأذن، والسن تقلع بالسن، والجروح ذوات قصاص، أى يقتص من الجانى بمثل ما فعل بالمجنى عليه إن أمكن كاليد باليد والرجل بالرجل، وما لا يمكن فيه ذلك كما لو ضربه بقطعة عظم فى مخ رأسه فإنه لا يمكن أن يفعل به ذلك تمامًا، ففى هذه الحالة يقدر تعويض مالى.

وقد أقرت شريعتنا هذه الأحكام فوضحت ما جاء فى الآية (١٧٨) من سورة البقرة صفحة ٢٤، فمنْ تصدق بما ثبت له من الحق بأن عفا عن الجانى فالتصدق كفارة يكفر بها ذنوبه، ويعفى عنه كما عفا عن أخيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فى هذه الجنايات وأهمل العقاب بالمثل فأولئك هم الظالمون...

الظَّٰلِمُونَ[1] ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم[2] بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[3] وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[4] وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[5] ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ[6] بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ[7] وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً[8] وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ[9] فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ[10] إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

المفردات: ﴿وقفينا على آثارهم﴾: أى بعثنا عيسى متبعا آثار هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة.

﴿وليحكم أهل الإنجيل... إلخ﴾: فى الكلام تقدير قول مقدر وذلك معهود عند العرب وكثير فى القرآن.

انظر الآيات (٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠؛ و(٥٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠؛ و(٣١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤؛ و(٢٠) من سورة الأحقاق صفحة ٦٦٩ .

والأصل قلنا لهم ﴿ليحكم ... إلخ﴾ ويدل على ذلك قراءة حمزة ﴿وليحكُم﴾ بكسر اللام وفتح الميم، أى وأنزلنا الإنجيل هاديًا وموضحًا ومصدقًا ولأجل أن يحكم أهله بما طلب منهم العمل به فيه من الإيمان بخاتم المرسلين ووجوب اتباعه، انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨ و(٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩ .

﴿لما بين يديه من الكتاب﴾: لما سبقه من الكتب السماوية. فالكتاب مراد به الجنس، فيشمل التوراة والإنجيل.

(١) الظالمون.
(٢) آثارهم.
(٤،٣) التوراة.
(٥) الفاسقون.
(٦) ، (٧) الكتاب.
(٨) واحدة.
(٩) آتاكم.
(١٠) الخيرات.

﴿ومهيمنا عليه﴾: أى رقيبا على ما سبقه من الكتب يقر الحق ويظهر خطأ ما صرفوه.

﴿شرعة﴾: هى الشريعة.

﴿ومناهجًا﴾: أصله الطريق الواضح فعطفه على الشريعة عدلف تفسير لبعض صفات الشريعة.

﴿ليبلوكم﴾: أى يختبركم أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس عملكم، واللام متعلقة بمقدر مفهوم من سياق الكلام والمعنى: ولكن أرادت حكمتنا أن تكونوا متفاوتى الاستعداد فتختلفوا فيتم اختباركم انظر آيتى (١١٨، ١١٩) من سورة هود صفحة٣٠١ .

﴿فاستبقوا الخيرات﴾: أى ابتدروها وسارعوا إليها انتهازًا للفرصة انظر الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ والآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ .

المعنى: - هم الظالمون لأنهم ظلموا أحد الخصمين بهضم حقه، ولم يحكموا بالعدل وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين مصدقا بقوله وعمله لما سبقه وهو التوراة، ولم يغير فيها إلا ما أحله لأمته من بعض ما حرم على من سبقهم كما فى الآية (٥٠) من سورة آل عمران صفحة ٧١، وأعطينا عيسى الإنجيل مشتملاً على هدى من الضلال فى العقائد، ونور يضىء للسائر طريق الصواب فى أحكامه العملية، ومصدقًا لما سبقه من التوراة أيضًا.

فالمسيح مصدق للتوراة بقوله وعمله، والإنجيل مصدق لها بنصوصه، وهذا الإنجيل هدى... إلخ: أى شديد الهداية أكثر من التوراة لما فيه من المواعظ الروحية المخففة من غلظة قلوب بنى إسرائيل وينتفع به المتقون منهم قبل غيرهم..

وإذا كان هذا حال الإنجيل فإننا قلنا لهم بعد نزوله عليهم: ليحكم أهله وهم النصارى بما أنزل الله فيه من الأحكام التى أمرهم الله تعالى بالعمل بها، ومَنْ لم يحكم منهم بما فيه فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

وأنزلنا إليك أيها النبى الكتاب الكامل وهو القرآن مقترنًا بالحق فى كل أحكامه، مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية، ورقيبًا عليها يقر ما فيها من الحق، ويبين ما دخلها من التحريف، فاحكم أيها النبى بين أفراد أمتك التى بعثت إليها بما فيهم أهل الكتاب بما أنزل الله فى القرآن، ولا تتبع أهواءهم مبتعدًا عما جاءك من الحق فى هذا القرآن بأن تحكم بما حرفوه مما يسهل عليهم شهواتهم.

لكل أمة منكم أيها الناس كافة جعلنا شريعة وطريقًا فى الأحكام العملية تناسب عصرها واستعدادها، انظر الآية (٦٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٣، أى فيجب على أهل الكتاب أن يخضعوا لهذا الشرع الأخير الناسخ لكل ما سبقه فى الأعمال، أما العقائد فهى واحدة عند جميع الأنبياء كما فى الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠ .

ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة لجعلكم كذلك بأن يخلقكم على استعداد واحد، ويلزمكم حالة واحدة، ولا يختلف أحد منكم عن الآخر فى عقله ولا فى تفكيره مهما تغير الزمن والوطن.

ولكنه لم يشأ ذلك، بل جعلكم مختلفى العقول والأخلاق والاختيار، فلا تصلح لكم شريعة واحدة مع تطور الزمن، فجاء لكم بشرائع صالحة لحالكم، ليختبركم فيما أعطاكم من الشرائع والنعم، فيظهر المطيع والعاصى.

ولما كانت الشريعة الإسلامية هى النهائية الخالدة جاء بها فى غير العقائد والعبادات مرنة لتصلح لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، ولم يأت بنهى قاطع إلا فى أمهات الفضائل وأمهات الرذائل التى لا تختلف فى عصر عن عصر، كبر الوالدين والإحسان للفقير والصدق، وتحريم الكذب، وقتل البرىء، إلى غير ذلك. وإذا كان الأمر كذلك فسارعوا إلى ما هو خير لكم، لأن ذلك مقصود كل الشرائع. إلى الله مرجعكم يوم القيامة جميعًا، فينبئكم بما اختلفتم فيه، فيظهر مَنْ كان على حق ومَنْ كان على باطل.

وأنزلنا إليك أيها النبى القرآن، وأنزلنا إليك قولنًا لك أن احكم بينهم أى الأمر بالحكم إلخ، وليس مكررًا مع الأمر بالحكم أولاً، بل ليفيد أن الأمر به كان فيما نزل عليه، وهذا يفيد عناية خاصة.

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (١) ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ (٢) يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ (٣) أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٤) ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ (٥) فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٦) ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (٧) إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ

المفردات: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾: أى أخلاء موالين لهم بالنصرة والعون وإطلاعهم على أسرار دولتكم كما تقدم توضيحه فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ .

﴿فى قلوبهم مرض﴾: هم المنافقون.

﴿يسارعون فيهم﴾: أى يسارعون فى مودتهم.

﴿دائرة﴾: مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان.

﴿بالفتح﴾: أى النصر.

﴿أمر من عنده﴾: بقتل أعداء الإسلام وفضيحة المنافقين.

﴿جهد أيمانهم﴾: مؤكدين أيمانهم.

المعنى: - ولا تتبع شهواتهم المخالفة لما أنزل إليك، واحذر فتنتهم لك بصرفك عن بعض ما أنزل الله إليك ولو قليلاً.

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: أن بعض أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا يا محمد إنا أحبار اليهود، ولو اتبعناك لاتبعك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فإن قضيت لنا صدقناك.

---

(١) لفاسقون.
(٢) الجاهلية.
(٣) والنصارى.
(٥) الظالمين.
(٥) يسارعون.
(٦) نادمين.
(٨) أيمانهم.

فأبى ﷺ، فأنزل الله ﴿وأن احكم بينهم﴾ إلخ.

فتكون الآية إقرار له ﷺ على ما فعل وأمرًا له بالثبات وعدم الانخداع بهم. فإن تولوا عن حكمك فاعلم أن حكمة الله فى ذلك هى أن إرادته تمت على أن يصيبهم أى يعذبهم ببعض ذنوبهم فى هذه الحياة، أما فى الآخرة فيوفيهم جزاء كل ذنوبهم. ثم سلاَّه ﷺ بقوله:

﴿وإن كثيرًا من الناس لفاسقون﴾ وإذا أعرضوا عن حكمك فهل حكم الجاهلية يطلبون وهو حكم يسير وراء الشهوات لا وراء العدل؟ ولا أحد أحسن من الله حكمًا عند قوم يوقنون بصحة شرعه.

ولما كان المنافقون فى المدينة كثيرين ويخشى منهم، وقد اغتر المؤمنون المخلصون بظاهرهم، ويخشى أن يطلعوا الكفار على أسرار المؤمنين، حذر الله موالاة الأعداء من اليهود والنصارى فقال:

﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ لأن بعض اليهود يوالى ويصادق بعضهم الآخر، وكذا النصارى، وأيضًا مجموع اليهود والنصارى يجتمعون فى عداوتهم للمسلمين.

وإذا كانت عداوة اليهود أشد، وإذا كان كل منهم يحصر مودته لأهل ملته، فكيف توالونهم أنتم أيها المؤمنون، ومن يتولهم منكم بعد الآن فإنه يعتبر منهم، فهو ضال لضلالهم، والله لا يهدى القوم الظالمين بوضع الولاية والصداقة فى غير موضعها.

فترى الذين فى قلوبهم مرض النفاق يسارعون فى مودة الأعداء يقولون معتذرين عن عملهم: نخاف أن تصيبنا شدة فنحتاج إليهم. وهذا يدل على أنهم كانوا يتوقعون فشل المؤمنين وقوة الأعداء، انظر الآية (٩١) من سورة النساء صفحتى ١١٦، ١١٧ . فاصبر أيها النبى فعسى الله أن يأتى بالفتح أى النصر لنبيه، أو أمر من عنده بفضيحتهم وهتك سترهم وقتل الأعداء، فيصبح المنافقون نادمين على نفاقهم.

وعند ذلك يقول المؤمنون بعضهم لبعض متعجبين: أهؤلاء هم الذين أقسموا بالله غاية جهدهم فى توكيدها أنهم لمعكم وعلى دينكم؟

انظر مثل هذا فى الآيتين (٥٦)، (٦٢) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٠ ، ٢٥١ .

حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ[1] فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ[2] ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[3] يُجَٰهِدُونَ[4] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ[5] عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ[7] وَهُمْ رَٰكِعُونَ[8] ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ[9] ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ[10] مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ[11] ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

المفردات: . ﴿حبطت أعمالهم﴾: أى بطلت وذهبت عبثًا.

﴿وهم راكعون﴾: المراد خاضعون لأمر الله عن طيب نفس مع انكسار الصالحين، وتقدم مثل هذا المعنى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة صفحة ٩ .

المعنى: . فكان مآل نفاقهم أن جميع أعمالهم التى كانوا يوهمونكم بها أنهم منكم من صلاة وصيام وجهاد ذهبت عبثا، فصاروا خاسرين لكل نافع، وأصيبوا فى الدنيا بالفضيحة، وفى الآخرة بالدرك الأسفل من النار.

ولما كان عمل مَنْ يصادق خصوم الدين مستدعيًا للردة والكفر، أراد سبحانه أن يبين له ﷺ حقيقة كانت خافية عليه يطمئن لها قلبه فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾، أى دخلوا فى الإيمان حقيقة أو تظاهرا، مَنْ يرتد أى يرجع إلى الكفر فسوف يأتى الله بدلهم بقوم فيهم ست صفات حميدة:

الأولى يحبهم الله وقد سبق فى الآية (٣١) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ معنى حب الله وأن من آثاره المغفرة وحسن الجزاء.

والثانية يحبونه ومن آثار ذلك أنهم لا يبالون إلا بما يرضيه،

الثالثة والرابعة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ويفسرهما قوله تعالى فى آخر سورة الفتح ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ الآية (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٤،٦٨٣ .

(١) أعمالهم. (٢) خاسرين.
(٣) الكافرين. (٤) يجاهدون.
(٥) واسع. (٦) الصلاة.
(٧) الزكاة (٨) راكعون
(٩) الغالبون (١٠) الكتاب
(١١) الصلاة.

الخامسة يجاهدون فى سبيل الله بإخلاص، والسادسة ولا يخافون لومة لائم.

وفيها تعريض بالمنافقين الذين كانوا يخافون قوة اليهود والمشركين.

ذلك المذكور من الصفات فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء من عباده الصالحين، والله واسع فى الفضل عليم بمَنْ يستحقه.

وقد تحقق هذا الخبر الغيبى وارتد عن الإسلام ١١ فرقة، ثلاث فى عهده ﷺ وقد أهلكهم الله تعالى، وسبع فى عهد أبى بكر، وقاتلهم رضى الله تعالى عنه حتى أقر الدين، وواحدة فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه، وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم.

وقيل أن جبلة ندم بعد أن سافر إلى الشام وأسلم. ثم بيَّن سبحانه مَنْ تجب موالاته بعد النهى عن موالاة أعدائه فقال: ﴿إنما وليكم الله﴾ إلخ أى ليس لكم أيها المؤمنون ولى وناصر إلا الله ورسوله وأنفسكم، بعضكم أولياء بعض كما فى الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة٢٥٢.

ثم ذكر صفة المؤمنين بقوله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاضعون لحكم الله متواضعون تواضع الصالحين.

ومن يتول الله بالإيمان به والتوكل عليه، والرسول والمؤمنين بمناصرتهم فإنه يغلب قطعا، لأن حزب الله هم الغالبون وحدهم. ثم أعاد النهى عن موالاة اليهود والنصارى مبينا سببًا آخر لعدم موالاتهم فقال:

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم أى عبادتكم هزوا أى مهزوءًا به ومسخورًا منه، ولعبا أى ملعوبا به وأداة تسلية، واتقوا الله فلا توالوهم إن كنتم مؤمنين صادقين تحرصون على كرامة دينكم.

ثم ذكر نوعا من استهزائهم فقال: وإذا ناديتم أى أذنتم ودعوتم الناس للصلاة اتخذوا الصلاة والمناداة لها هزوا ولعبا.

روى أنهم كانوا إذا رأوا المسلمين ساجدين يسخرون بهم، وإذا سمعوا المؤذن يقول أشهد أن محمدًا رسول الله قال بعضهم هلك الكذاب ويتضاحكون، انظر الآيات (من ٢٩ إلى آخر سورة المطففين) صفحة ٧٩٨. ذلك الاستهزاء الواقع منهم بسبب أنهم قوم لا يعقلون، لأن عدم العقل والسفه يؤدى إلى الجهل بمحاسن الحق.

قل يأهل الكتب[1] هل تنقمون منا إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فسقون[2] ۝٥٩ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطغوت[3] أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ۝٦٠ وإذا جاءوكم قالوا ءامنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ۝٦١ وترى كثيرا منهم يسرعون[4] في الإثم والعدون[5] وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ۝٦٢ لولا ينههم[6] الربنيون[7] والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ۝٦٣ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا

المفردات: ﴿مثوبة عند الله﴾: أى جزاء ثابتًا فى حكم الله والمثوبة تطلق على الخير والشر ولكنها تطلق على الخير أكثر.

﴿وعبدالطاغوت﴾: معطوف على لعنة الله أى ومَنْ عبدالطاغوت والطاغوت كل طاغية جبار، وعبادته الخضوع له.

﴿يسارعون فى الإثم والعدوان﴾: أى يسارعون إلى الوقوع فى الكذب والتعدى والظلم.

﴿وأكلهم السحت﴾: المال الحرام كالرشوة والربا كما تقدم فى الآية (٤٢) من هذه السورة صفحتى ١٤٤، ١٤٥

﴿لولا﴾: كلمة تفيد الحث على ما بعدها.

﴿الربانيون﴾: الصلحاء كما تقدم فى الآية (٧٩) من سورة آل عمران.

﴿الأحبار﴾: العلماء.

﴿يد الله مغلولة﴾: روى أنهم كانوا إذا أصيبوا بجدب وطلب منهم نفقة فى خير اعتذروا بهذا العذر القبيح، يريدون أنه سبحانه وتعالى أمسك عنهم الرزق، فهى كناية عن التقتير عليهم، ولكنها كناية بشعة لا تصدر إلا عن جلف غليظ القلب.

المعنى: ـ وأراد سبحانه أن ينبههم إلى أن الدين ليس مثار استهزاء فقال: قل لهم أيها النبى مبكتا:

(١) الكتاب.
(٢) فاسقون.
(٣) الطاغوت.
(٤) يسارعون.
(٥) والعدوان.
(٦) ينهاهم.
(٧) الربانيون

يا أهل الكتاب هل تكرهون منا وتعيبون علينا إلا إيماننا الصادق بالله وبكتبه ومنه الكتاب الذى أنزل عليكم، وإيماننا بأن أكثركم فاسقون أى خارجون عن شرائع الله.

ثم نبههم إلى أن الأحق بالنقمة والعيب هو ما هم عليه فقال: قل لهم هل أخبركم بعمل أقبح من استهزائكم بديننا وأذاننا للصلاة من حيث الجزاء عند الله يوم القيامة؟ ثم أجاب عن هذا السؤال فقال:

مَنْ لعنه الله إلخ، أى عمل مَنْ لعنه الله أى العمل الذى استوجب من الله اللعن والغضب والمسخ والخضوع لكل طاغية جبار، وهذا العمل ذكر فى القرآن كثيرًا كقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقضهم العهود، وعبادة العجل، وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا، إلى غير ذلك.

انظر كيف جعلهم قردة وخنازير فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة١٣ . أولئك الملعونون المغضوب عليهم مكانهم فى الآخرة أشد شرًا، لأنهم أشد ضلالاً وبعدًا عن الطريق المستقيم. ونزل فى منافقى اليهود: وإذا جاءوكم أيها المؤمنون قالوا آمنا مثلكم والحال أنهم قد دخلوا عليكم متلبسين بالكفر، فهم كاذبون، وهم وأنفسهم قد خرجوا من عندكم بالكفر، أى لم يتغير منهم شىء، خرجوا كما دخلوا. وإذا صح أنهم يخادعونكم فكيف يخادعون الله وهو أعلم بما كانوا يكتمون.

وترى أيها النبى كثيرًا من هؤلاء اليهود يسارعون فى قول الإثم أى الكذب والعدوان والظلم وتجاوز حدود الله تعالى وفى أكلهم الحرام. وعزتى لقد قبح ما كانوا يعملون.

ثم بين سبحانه أن الفساد قد عم هذه الطائفة حتى شمل علماءهم فقال لولا أى هلا ينهاهم ويزجرهم الربانيون والأحبار عن هذا الكذب وأكل الحرام؟ أى لم يفعلوا ولو فعلوا لما تعودوا هذا الإجرام، كما سيأتى فى الآية (٧٩) صفحة١٥٣، وعزتى لقبح ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار أيضًا. ثم ذكر سبحانه شناعة أخرى من شناعاتهم دليلاً على جرأتهم على الإثم فقال: وقالت اليهود يد الله مغلولة بالرزق عنا، فليس عندنا ما نتصدق به. فدعا سبحانه وتعالى عليهم بقوله:

﴿غلت أيديهم﴾ أى فى سلاسل جهنم يوم القيامة، وطردوا عن رحمة الله بسبب هذا القول الفظيع.

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا(١) وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ(٢) وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٣) كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ(٤) آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ(٥) جَنَّاتِ(٦) النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ(٧) وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٨) ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ

المفردات: ﴿مبسوطتان﴾: كناية عن غاية الجود والعطاء الشامل. وثنّى اليد لأن العرب تقول الكريم يعطى بكلتا يديه..

﴿أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾: هذا كناية عما دأبوا عليه من إشعال الفتنة والكيد للمسلمين والإيقاع بينهم وبين المشركين، فالله سبحانه يحبطه ويدفع شره.

﴿منهم أمة مقتصدة﴾: أى طائفة معتدلة.

المعنى: كذبوا، بل هو سبحانه وتعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء حسب علمه وحكمته فيمن يستحق السعة أو التضييق.

وعزتى ليزيدن كثيرًا منهم وهم زعماؤهم الخائفون على ضياع جاههم ما أنزل إليك أيها النبى طغيانا على طغيانهم وكفرا على كفرهم، فكلما نزل شىء من الوحى فيه سعادتك وشرفك اشتد حسدهم وطغيانهم ومحاربتك.

ثم ذكر سبحانه نوعًا مما عوقبوا به فقال: وألقينا بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين شملتهم الآيات (٥٧، ٦٥، ٦٦) السابقة فى هذه السورة، العداوة والكره، فكل منهما يحارب الآخر ويكرهه دائمًا انتقامًا من الله منهم، أما ما يريدونه من الشر بالنسبة للرسول وأصحابه فقد تولى الله دفعه عنهم بقوله:

﴿كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾ وأبعد الشر عن المسلمين، ورد كيدهم فى نحورهم، وهم بعملهم هذا يسعون فى الأرض للإفساد، وهذا أظهر فى بعضهم وهم اليهود،

(١) طغيانًا. (٢) العداوة.
(٣) القيامة. (٤) الكتاب.
(٥) ولأدخلنهم. (٦) جنات.
(٧) التوراة (٨) الكافرين.

فإنهم لايعيشون إلا فى جو فسدت فيه العلائق بين الناس ليمتصوا أموالهم، والله لا يحب المفسدين، فهم من المكروهين له تعالى.

ولو أنهم آمنوا بالنبى المبشر به فى كتبهم وهو خاتم النبيين، واتقوا عذاب الله باتباعه لجازيناهم فى الآخرة بتكفير ذنوبهم وإدخالهم الجنة.

أما فى الدنيا فلو أنهم عملوا بما فى التوراة والإنجيل الصحيحين وما أنزل إليهم من ربهم على لسان خاتم رسله لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كناية عن سعة الرزق وهناءة العيش، وأحاطت النعمة بهم من كل جانب، انظر الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١، والآيتين (٢، ٣) من سورة الطلاق صفحتى ٧٤٨، ٧٤٩؛ والآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة نوح صفحة ٧٦٨، والآية (١٦) من سورة الجن صفحة ٧٧١. من أهل الكتاب طائفة معتدلة فى أمر الدين لا تغالى فتقدس مخلوقًا وتلحقه بالله عز وجل، ولا تفرط فتنكر نبوة نبى ثبتت نبوته بالقطعيات، وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام كعبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشى وأصحابه من النصارى، وكثير منهم بئس ما كانوا يعملون من العناد والحسد وتحريف الحق. ولما كان ﷺ قد يجتهد فى سياسة أمته بما يرى معه أنه يجوز له تأخير بعض الأشياء حتى تسنح الفرصة كما حصل فى قصة زينب وزيد فى الآيات (٣٧، ٣٨، ٣٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٥، ٥٥٦ وفى الآية (٧٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ ومن الآية (١) إلى الآية (١٠) من سورة عبس صفحتى ٧٩١، ٧٩٢،

لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يطمئن رسوله من شر كل مخلوق، وأن يأمره بأن يصدع بالحق ولا يبالى، فقال: يأيها الرسول إلى الناس كافة، وهو نداء تشريف ليس كمثله تشريف، بلغ الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل بأن لم تبلغ البعض فكأنك لم تبلغ شيئًا؛ لأن شرع الله عز وجل لا يتجزأ، ولا تخف فإن الله يعصمك أى يحفظك من قتل الناس لك، لأن قتلك يمنع إتمام رسالتك.

أما ما دون القتل من جرح وغيره كما حصل فى أُحد فى شرح الآية (١٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٤ فلا يضر الرسالة، فلا مانع من وقوعه، والله حفظك لأنه لايهدى الكافرين إلى تحقيق أمنيتهم من إحباط دعوتك.

ٱلْكِتَٰبِ[1] لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ[2] وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا[3] وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ[4] ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ[5] وَٱلنَّصَٰرَىٰ[6] مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا[7] فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ[8] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[9] وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ[10] إِسْرَٰٓءِيلَ[11] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ

المفردات: ﴿تأس﴾: تحزن.

﴿فتنة﴾: بلاء وعذاب.

المعنى: . لما كان سبب غرور اليهود والنصارى وحسدهم له ﷺ هو افتخارهم بأنهم أهل كتاب وما عداهم جهلة مشركون، أبطل سبحانه هذا الغرور بقوله: قل أيها النبى لهم لستم على شىء يعتد به فى الدين إلى أن تقيموا التوراة والإنجيل؛ أى تحافظوا على ما فيهما من التوحيد الخالص والبعد عن السحت، والإيمان بما بشرا به من نبى من ولد إسماعيل، أما مجرد حفظ ألفاظهما والتفاخر بحملهما فهذا لا فخر فيه؛ لأن الحمار يحمل الكتب كما فى الآية (٥) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ . وتحافظوا أيضًا على ما أنزل إليكم من ربكم على لسان خاتم النبيين.

ولكن هل تظن أيها القارئ أنهم سيفعلون هذا؟ كلا بل سيزيد ما أنزل إليك أيها النبى من لقرآن طغيانهم وكفرهم كما تقدم فى الآية (٦٤) من هذه السورة صفحتى ١٤٩، ١٥٠؛ فلا تحزن على عدم إيمان القوم الكافرين؛ وذلك لأنه ﷺ كان رءوفا رحيما يحب الخير لكل مَنْ

---

(١) الكتاب.
(٢) التوراة.
(٣) طغيانًا.
(٤) الكافرين.
(٥) والصابئون.
(٦) والنصارى.
(٧) صالحًا
(٨) ميثاق
(٩) إسرائيل
(١٠) يا بنى
(١١) إسرائيل.

أرسل إليهم، ويحزن إذا حرموا منه، كما فى الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ ....

ولما قدم أن مجرد حمل الكتب لا ينفع أراد أن يبين النافع المنجى فقال: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾... إلخ وتقدم شرحها فى الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣، وغيَّر إعراب الصابئين للحكمة المتقدم بيانها فى الآية (١٦٢) من سورة النساء.

وهى هنا لفت النظر إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب، وأن حكمهم كحكم مَنْ لهم كتب من اليهود والنصارى والمسلمين فى نفى الخوف عنهم إذا أخلصوا وعملوا الصالحات.

ولما كانت العناية بالمحافظة على العهود هى المقصود الأسمى أعاد التذكير بها فقال: ﴿لقد أخذنا ميثاق﴾... إلخ. تقدم أن الميثاق هو العهد المؤكد، وتقدم فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ١٣٨ ما أخذ به العهد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لم يحصل مثله لأمة أخرى، وذلك لكثرة شرورهم وسرعة تمردهم على شرع الله عز وجل.

ثم بيَّن كيف عاملوا رسلهم فقال: كلما جاءهم رسول بما لا تميل إليه أنفسهم من ميثاق التكاليف استكبروا كما صرح بهذا الجواب فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧ .

وكانت نتيجة هذا الاستكبار أنهم كذبوا فريقًا من الرسل وقتلوا فريقًا كزكريا ويحيى عليهما السلام، وقد تقدم أيضًا فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧؛ وظنوا أن جرمهم هذا لا يصيبهم الله تعالى بسببه ببلاء وعذاب لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباوه، فعموا عندما ظهر الحق ولم يبصروا العبر فيمَنْ مضى من الأمم، وصموا آذانهم عن سماع الحق.

ثم تاب الله عليهم لما تابوا، فنجاهم من إذلال البابليين لهم دهرًا طويلاً، انظر الآية (٥) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٤، ٣٦٥؛ ثم عمى وصم كثير منهم، وقليل منهم مقتصد كما تقدم فى الآية (٦٦) من هذه السورة صفحة ١٥٠، والله تعالى بصير بما يعملون، وسيجازيهم بما يستحقون يوم القيامة.

ثم شرع فى بيان قبائح اليهود وإبطالها فقال سبحانه: كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح، وقد تقدم الكلام على طوائفهم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ١٣٩، قالوا هذا الباطل مع أن المسيح نفسه قال: يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم.

إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ[١] وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[٢] مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ[٣] وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[٤] وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ[٥] ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[٦] لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

المفردات: ﴿خلت﴾: مضت.

﴿صديقة﴾: ملازمة للصدق فى القول والعمل، انظر الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢، والآية (١٩) من سورة الحديد صفحتى ٧٢١، ٧٢٢

﴿يأكلان الطعام﴾: كناية عن كونهما حيوانين مخلوقين كسائر الحيوانات التى لا تعيش إلا بالأكل.

﴿أنى﴾: كيف.

﴿يؤفكون﴾: يصرفون.

﴿لا تغلوا﴾: أى لا تتجاوزوا الحد.

المعنى: - إنى عبد مثلكم لرب واحد، فاعبدوه وحده لأنه مَنْ يشرك معه فى العبادة غيره فقد حرم الله عليه الجنة، ومكانه الذى يأوى إليه هوالنار، ولا يجد مَنْ ينصره فيخرجه منها

ثم ذكر كفر طائفة أخرى من النصارى فقال: لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة:

---

(١) ومأواه.
(٢) للظالمين.
(٣) ثلاثة.
(٤) واحد.
(٥) الآيات.
(٦) للكتاب.

الأب، والأبن، وروح القدس. كهذا يقولون، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين يثبتون على الكفر منهم عذاب شديد الألم.

أفلا يتوبون إلى الله بعد كل هذه الأدلة ويستغفرونه حتى يغفر لهم لأنه كثير المغفرة والرحمة. ثم شرع فى بيان حقيقة المسيح وأمه عليهما السلام فقال:

ما المسيح إلا رسول من رسل الله الكثيرين الذين مضوا، وما أمه إلا صديقة كسائر النساء الصديقات، وكان هو وأمه يأكلان الطعام لحفظ بدنيهما كسائر الحيوانات فضلا عن سائر الناس، وكل مَنْ يأكل يحتاج قطعًا إلى تبرز، فمن السفه أن يتخذ مثله إلهًا.

ولهذا قال: انظر أيها السامع وتعجب كيف نبين لهؤلاء البراهين القاطعة على بطلان مايزعمون فى المسيح.

ثم انظر كيف يصرفهم الشيطان عن التأمل فيها، ثم قل لهم أيها النبى مبكتا وموبخًا على عبادة مالا ينفع: أتعبدون من دون الله مالايملك لكم ضرًا تخشونه إذا امتنعتم عن عبادته، ولا نفعًا ترجونه ولا توحدون الله مع أنه هو وحده السميع لأدعيتكم وكل أقوالكم، العليم بما فى نفوسكم، ويحاسبكم عليه ويجازيكم.

وقل لهم أيضًا لا تتجاوزوا الحد فى دينكم تجاوزا مغايرًا للحق بأن يرفع النصارى منكم المسيح إلى رتبة الإله، ويدعى اليهود منكم أنهم أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبهم إذا خالفوا محمدًا ﷺ.

ولا تتبعوا شهوات قوم هم أسلافهم وأئمة الدين منهم قد ضلوا من قبل بعثة خاتم النبيين، وأضلوا معهم خلقًا كثيرًا، وضلوا أخيرًا بعد بعثته ﷺ عن الشريعة المحمدية التى هى الطريق المستقيم.

ثم بين سبحانه بعض أسباب هذا الضلال والإضلال وما عوقبوا به فقال: لعن الذين كفروا ....

مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا

المفردات: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾: عبّر سبحانه عن اليهود باسمهم، وعن المشركين بصفتهم، وهنا عبر عن النصارى بأنهم الذين ﴿قالوا﴾ ولم يقل ﴿الذين تنصروا﴾ مثلاً، مثل ما قال فى المشركين. ﴿الذين أشركوا﴾ وحكمته فى ذلك الإشعار بقرب مودتهم، حيث يقولون إنهم أنصار الله تعالى فهم أحباب أهل الحق، وفيه تعريض بصلابة اليهود، والمشركين والامتناع من الانقياد، لأن اليهود لما قال لهم نبيهم موسى ﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾.

قالوا: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ الآية (٢٤) من سورة المائدة صفحة ١٤١ .... والمشركون لما دعاهم الرسول ﷺ إلى الخير قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ .. والنصارى لما قال لهم نبيهم عيسى عليه السلام ﴿من أنصارى إلى الله قالوا نحن أنصار الله﴾ الآية (٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٧١. فالنصارى لم يتبجحوا بالرد تبجح اليهود والمشركين.

﴿تفيض من الدمع﴾: أصل معنى الفيض سيلان الماء، وهنا جعل الأعين تفيض مبالغة كأنها هى نفسها التى فاضت من كثرة الدّمْع، كما يقولون ﴿سال الوادى﴾ أى سال الماء فى الوادى بكثرة حتى كأن الوادى هو الذى سال، انظر أصل معنى ﴿فاض﴾ فى شرح الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩.

---

(١) إسرائيل. (٢) خالدون.
(٣) فاسقون. (٤) عداوة.
(٥) نصارى.

المعنى: لعن الله الذين كفروا به من بنى إسرائيل على لسان داود فى الزبور، وعيسى بن مريم فى الإنجيل؛ ذلك اللعن بسبب عصيانهم له تعالى واعتدائهم المستمر على أحكام الله بافتراء الكذب عليه وعلى أنبيائهم بالقتل والتكذيب. ثم بين سبب استمرارهم على ذلك فقال: كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه مهما اشتد قبحه، فشجع ذلك الفساق على التجاهر، وعلم الذرية القبح والكبائر. لبئس ما كانوا يفعلون. ومن آثار هذا أنك ترى أيها النبى كثيرًا من بنى إسرائيل يصافون ويصادقون الكافرين ليحرضوهم على قتالك والكيد لك، قبح شيئًا قدموه لأنفسهم العمل الذى سبب سخط الله عليهم، وكان من أثره أنهم خالدون فى العذاب. ولو كان هؤلاء الذين يوالون المشركين يؤمنون بالله وبالنبى محمد ﷺ وبالقرآن ما اتخذوا المشركين بالله الملعونين فى كل كتاب وعلى لسان كل نبى أصفياء أخلاء، ولكن كثيرًا من هؤلاء اليهود الذين يدّعون الإيمان بموسى وكتابه خارجون عن دين موسى وعاصون لكتابه. ثم بين الحالة النفسية لأهل الكتاب والمشركين بالنسبة للمؤمنين من العداوة والمودة ودرجة كل منهما، فقال: لتجدن أيها الرسول اليهود والمشركين أشد الكفار عداوة للمؤمنين، ولتجدن أقربهم مودة النصارى، أى أن أحد الفريقين بالنسبة للمؤمنين فى أقصى مراتب أحد النقيضين، والآخر فى أقصى مراتب نقيضه، وكونهم أقرب مودة بسبب أن منهم قسيسين أى علماء بكتبهم، ورهبانًا أى منقطعين للعبادة، أى فيهم مَنْ يعلم ومَنْ يمثل الزهد، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر، لأن من آداب دينهم التواضع، بخلاف الحال عند اليهود، وقد أثبتت الأيام هذه المعجزة فكان أكثر الناس دخولا فى الإسلام النصارى ولا نكاد نجد يهوديًا يسلم.

ومن أسباب قربهم من المسلمين أنهم إذا سمعوا القرآن المنزَّل على الرسول المبشر به فى الإنجيل ترى أيها الناظر أعينهم تمتلئ من الدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته، وهذا كناية عن رقة قلوبهم وعدم تكبرهم بسبب معرفتهم بعض الحق، فكيف لو عرفوا جميع الحق بسماع جميع القرآن. وبيان ذلك أنه لما اشتد إيذاء قريش للمؤمنين فكانوا يعذبون كل مَنْ يظهر إسلامه، ولم يمنع النبى ﷺ من إيذائهم سوى عمه أبى طالب، فقد كانت قريش تخافه، عند ذلك رأى النبى ﷺ أنه عاجز عن دفع ظلم قريش، فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: إن فيها ملكا صالحًا لا يُظلم عنده أحد. فهاجر إليها نحو ثمانين رجلاً منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول وجعفر بن أبى طالب، فلما وصلوا طلب منهم النجاشى أن يسمعوه شيئًا مما نزل على رسولهم، فقرأ جعفر سورة مريم وكان فى المجلس قسيسون ورهبان، فانحدرت دموعهم لما عرفوا الحق، وفيهم وفى أمثالهم نزلت هذه الآية وعقب ذلك مباشرة قالوا معلنين إيمانهم: يا رب آمنا بما أنزلت على محمد نبيك، فأقبل إيماننا واكتبنا مع الشهداء على الناس يوم القيامة.

مَعَ الشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ

المفردات: . ﴿باللغو فى أيمانكم﴾.. تقدم فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة صفحة ٤٥ أن اللغو ما يجرى على اللسان من غير قصد يمين..

﴿بما عقدتم﴾.. أى بتعقيدكم الأيمان أى بتوثيقها بالقصد والنية.

﴿أوسط ما تطعمون﴾... أى من معتاد ما تأكلون أنتم وأهليكم.

المعنى: لأنهم عدول وهم المشار إليهم فى الاية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٨،٢٧ والآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢ .

ويقولون أيضًا أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله وبما جاءنا من الحق على لسان محمَّد والحال أنا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فى دار النعيم، فأعطاهم الله من الثواب بسبب قولهم هذا الناشئ عن اعتقاد جنات تجرى من تحتها الأنهار إلخ، وأنقذهم من الكفر الذى يجازى أصحابه بملازمة الجحيم أى جهنم.

ولما جاء فى سياق مدح النصارى حديث الرهبانية وهى مبنية على كسر النفس والبعد عن لذائذ الحياة، وكان هذا ربما يفيد جوازها فى الإسلام، بل فكر فيها ثلاثة من خيار أصحابه

---

(١) الشاهدين. (٢) الصالحين.
(٣) فأثابهم (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) بآياتنا (٨) أصحاب
(٩) طيبات (١٠) حلالا
(١١) أيمانكم. (١٢) الأيمان
(١٣) فكفارته (١٤) مساكين
(١٥) ثلاثة (١٦) كفارة.

ﷺ، انظر قصتهم فى حديث ٥٢١ من كتابنا صفوة صحيح البخارى، لما كان كل هذا وكان الإسلام آخر الأديان الذى أراد الله تعالى أن يكون هو الدين العام الخالد، ولم يجعل فيه حرجًا ولا تضييقًا، حذر المسلمين من أمثال هذه الرهبانية فقال تعالى: يأيها الذين آمنوا لا تحرموا على أنفسكم طيبات ما أحل الله لكم المبينة فى أول السورة ظانين أن هذا يقربكم من الله. ثم أكد هذا النهى بقوله: ولا تعتدوا بتعدى حدوده تعالى التى فصل بها بين الحلال والحرام، أى فلا تدخلوا فى الحرام شيئًا من الحلال ولا العكس؛ لأن الله عز وجل لا يحب من يعتدى على حدوده، فاحذروا غضبه.

ثم صرح بالأمر بضد ما نهى عنه تأكيدًا فقال: وكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالاً فى نفسه فليس مما حرمه عليكم أول السورة من الميتة وما بعدها، وحلالاً فى طريقة كسبه وتناوله فلا يكون ربا أو مثله، وبأن لا تسرفوا فى تعاطيه، انظر الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦ والآية (٣١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، طيبًا مستلذًا غير مستقذر. والمراد من الأكل مطلق الأخذ والاستعمال، واتقوا الله فلا تفتاتوا عليه فى التحريم والتحليل ولما نزلت هذه الآية وكان بعض الصحابة حرم على نفسه بعض الملذات وحلف على ذلك، بين سبحانه حكم الأيمان، فقال:

لا يؤاخذكم الله بالعقاب أو الكفارة بلغو اليمين، ولكن يؤاخذكم بما قصدتموه وصممتم عليه النية؛ يؤاخذكم بالعقاب إذا كانت اليمين غموسًا وهى التى تغمس صاحبها فى النار كأن يحلف على شىء أنه حصل وهو يعلم أنه لم يحصل، أو بالعكس، فلا كفارة لهذه إلا جهنم.

ويؤاخذكم بالكفارة فى غير ذلك كأن يحلف أن يفعل كذا ولايفعل.

وتلك الكفارة هى إطعام عشرة مساكين غداء وعشاء من معتاد ما تطعمون أهليكم الذين تحت رعايتكم؛ فلا يجوز لمعتاد أكل اللحم والخضر والفاكهة أن يطعم الخبز والجبن مثلا. ويجوز أن يعطى المسكين ما يكفيه طعام يوم من مال أو قوت أو كسوتهم بما يستر الجسم. وتزيد المرأة المسكينة غطاء للرأس، أو عتق رقبة رقيق فمن لم يجد واحدا من الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة عند بعض، وغير متتابعة عند آخرين؛ ذلك كفارة أيمانكم.

أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ

المفردات: . ﴿الميسر﴾ .. هو القمار بكل أنواعه. ﴿الأنصاب﴾ .. حجارة كانوا يذبحون عندها تعظيمًا لأصنامهم كما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ١٣٥ . ﴿الأزلام﴾ ... السهام التى كانوا يعرفون بها الغيب كما تقدم فى الآية (٣) أيضًا.

﴿رجس﴾ .. خبيث مستقذر عند أرباب العقول السليمة. ﴿فيما طعموا﴾ .. أكلوا وشربوا. ﴿ليبلونكم﴾ .... يختبرنكم. ﴿الصيد﴾ ... تقدم فى الآية (١) صفحة ١٣٤ أن الصيد يطلق على مايصاد من حيوان البحر ومن حيوان البر الوحشى والمراد به هنا الثانى كما سيأتى فى الآية (٩٦) صفحة ١٥٦ .

المعنى: . إذا حلفتم وحنثتم. وصرح بالكفارة ثانيًا تأكيدًا، وليرتب عليها قوله: واحفظوا أيمانكم، فلا تعرضوها بدون سبب قوى ولا تكثروا منها ولو صادقة فضلا عن الكاذبة، انظر الآية (٢٢٤) من سورة البقرة صفحة ٤٥ . كهذا البيان البديع يبين الله لكم آياته الدالة على شرعه لعلكم تشكرون نعمته على إخراجكم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ثم ذكر سبحانه فى معرض الكلام على المطعومات بعضا منها بلغ من خبثه أن يقرن بما فيه شرك فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ أى مقاربتها وتناولها من وسوسة الشيطان وتزيينه. وجرت عادة القرآن أن ينسب كل منكر شرعا إلى الشيطان لأنه سببه، وإذا كان الأمر كذلك فاجتنبوه أى ابتعدوا عن هذا الرجس كله رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما تحبون. ثم بين حظ الشيطان فى الخمر والميسر بخصوصهما لأنهما من المطعومات فى الغالب فقال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ تقدم شرحه فى الآية (٦٤) من هذه السورة صفحتى ١٤٩ ، ١٥٠ ، بسبب تعاطى الخمر والميسر.

(١، ٢) أيمانكم. (٣) آياته (٤) والأزلام (٥، ٦) الشيطان.
(٧) العداوة. (٨) الصلاة. (٩) البلاغ (١٠، ١١) الصالحات

وهذه مفسدة دنيوية. أما الآخروية فهى فى قوله: ﴿ويصدكم عن ذكر الله﴾ أى يلهيكم ويصرفكم عن تذكر الله وما يجب له ﴿وعن الصلاة﴾ خصها مع أنها داخلة فى ذكر الله لأهميتها. فبعد كل هذا البيان هل أنتم منتهون؟ الكلام على معنى الأمر المؤكد أى انتهوا. ثم عطف على قوله ﴿فاجتنبوه﴾: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فى كل ما أمرا به ونهيا عنه، واحذروا مخالفتهما فإن فيها شقاء الدنيا والآخرة كما تقدم، فإن أعرضتم عما أمرتكم فلا تغتروا بتأخير العذاب لأنه ليس فى يد رسولنا، بل الذى فى قدرته ومطلوب منه هو إبلاغكم أحكامنا إبلاغا واضحًا يقطع العذر أما العذاب فعلينا نحن وسنوفيكم جزاءكم كما فى الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة (٣٢٨). ولما نزل هذا التشديد فى تحريم الخمر والميسر، سأل بعضهم عن حال الذين ماتوا وكانوا يشربون ويأكلون مال الميسر، وعن حال من كان غائبًا منهم بعيدًا عن المدينة وقت نزول هذه الآية، وطبعًا كانوا يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر وهم لا يعلمون القطع بالتحريم؛ لهذا كله أنزل سبحانه: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأحياء والأموات والحاضرين والغائبين إثم ومؤاخذة فيما أكلو من الميسر وشربوا من الخمر فيما مضى قبل القطع بالتحريم، أو قبل العلم به، إذا ما اتقوا فيما مضى ما كان محرمًا عليهم كالمذكور أول السورة، وكإسراف فى المباح، وآمنوا بما كان قد نزله سبحانه من القرآن، وعملوا الصالحات التى كانت قد شرعت فى ذلك الزمن كالصلاة والصيام والجهاد، ثم اتقوا ما حرمه الله بعد ذلك عند العلم به، وآمنوا بما نزل فى هذا المحرم أخيرًا وفى غيره لأن الإيمان يزيد بزيادة المطلوب به كما فى الآية (١٢٤) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، والآية (٢٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٢، والآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨؛ ثم اتقوا أى ارتقوا فى التقوى فابتعدوا عن الشبهات خوفا من الوقوع فى الحرام، وأحسنوا كل أعمالهم بأن أتوا بها على أكمل وجه، والله يحب المحسنين فيحفظهم من كل مكروه. ولما كان ظاهر العموم فى الآية ٨٧ من هذه السورة صفحة ١٥٤ ربما يفيد نسخ حكم آيتى (١، ٢) من هذه السورة صفحتى ١٣٤، ١٣٥، ولما كان الإسلام شديد الحرص على المحافظة على حرمة البيت الحرام ومن احترامه ألا يؤذى قاصده غيره ولو حيوانًا، أكد سبحانه الحكم الأول ودفع توهم النسخ وبين جزاء مَنْ يخالف بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾ أى يعاملنكم معاملة المختبر ليظهر للناس حالكم بشىء من الصيد المحرم صيده كما تقدم فى الآية (١) صفحة ١٣٤ وسيأتى فى الآية (٩٦) صفحة ١٥٦ .

تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

المفردات: . ﴿حرم﴾ : . جمع محرم بسكون الحاء وكسر الراء.

﴿النعم﴾ : . هى الإبل والبقر والغنم.

﴿أو عدل ذلك صياما﴾ .. أى معادل ومساوى ذلك الطعام من الصيام

﴿وبال أمره﴾ .. أى سوء عاقبة فعله.

﴿الهدى والقلائد﴾ .. تقدما فى الآية (٢) من هذه السورة صفحتى ١٣٤، ١٣٥ .

﴿قياما للناس﴾ .. أى سببًا لقيام مصالح الناس الذين يجاورونه أو يحجون إليه ونظيرها فى الآية (٥) من سورة النساء صفحة ٩٨ . ﴿الشهر الحرام﴾ .. المراد الجنس فيشمل الأربعة الحرم.

المعنى: . تناله أيديكم ورماحكم أى أنه كثير فيسهل أخذه. ووجه الاختبار أن المسافر يتلهف على أكل اللحوم ولم يتيسر له حملها، فإذا وجد ما يريد من حيوان البر الوحشى الجائز الأكل كالغزال والطير الوحشى فإنه يتهافت عليه.

يبتليكم ليعلم علم ظهور وتحقق مَنْ يخاف ربه فى حال غيبته عن عيون الناس، فيكون خوفه خالصا لوجه الله تعالى لا رياء، فَمَنْ اعتدى بأخذ شىء من صيد الحرم بعد علمه بنهى الله عنه فله عذاب فى الآخرة شديد الألم، وفى الدنيا بالتعزيز والضرب.

ثم أعاد سبحانه النهى عن صيد البر للمحرم أو للداخل فى أرض الحرم كما تقدم أول السورة ليرتب عليه جزاءه فقال:

(١) بالغ. (٢) كفارة (٣) مساكين (٤) متاعا.
(٥) قيامًا. (٦) والقلائد. (٧) السموات

﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أى محرمون بحج أو عمرة، ومَنْ قتله متعمدًا فعليه جزاء ذلك من الأنعام مماثلاً لما قتله فى هيئته وصورته إن وجد، وإلا فعليه قيمة المماثل، يحكم به رجلان عدلان منكم. وقد حكموا فى قتل النعامة بواحد من الإبل، وفى بقر الوحشى وحماره ببقرة إنسية، وفى الظبى بشاة. فإن لم يكن للصيد مثيل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته يشترى بها طعامًا يعطيه للمساكين لكل مسكين مد وهو نصف قدح بالكيل المصرى الآن، حال كون هذا الجزاء المحكوم به مهديًا إلى فقراء الكعبة واصلا إليها، ويصح له أن يقدم لمساكين الحرم بدل هذا الجزاء من الحيوان طعامًا من جنس غالب قوت أهل البلد يساوى قيمة الجزاء، يعطى منه لكل مسكين مد أيضًا، أو ما يعادل ذلك الطعام من صيام بأن يصوم عن كل مد يومًا.

فرض عليه الجزاء ليدرك سوء عاقبة فعله. عفا الله عما سلف قبل التحريم، ومَنْ عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه فينتقم الله منه فى الآخرة مع جزائه فى الدنيا بما سبق، والله عزيز أى غالب لا يغلبه أحد، ذو انتقام شديد ممنْ يصر على معاصيه. أحل لكم أيها المؤمنون صيد البحر من سمك وغيره مما لا يعيش إلا فيه، وطعامه وهو المملح من سمكه حتى صار يعيش زمنا طويلاً يتمتع بأكله المقيمون منكم والسيارة، أى المسافرون يتزودون منه. وحرم عليكم أن تصيدوا حيوان البر الوحشى المتقدم ذكره ما دمتم محرمين على الوجه المبين فى الآية (١) من هذه السورة صفحة ١٣٤ . واتقوا الله فلا تنتهكوا أوامره فإنكم ستحشرون إليه فيحاسبكم ويجازيكم. جعل الله الكعبة التى هى البيت الحرام الذى حرم الله انتهاكه سببا لقيام مصالح الناس الذين يجاورونه والذين يحجون إليه، بإيداع تعظيمه فى قلوب الجميع، وجذب الأفئدة إليه، وصرف الناس عن الاعتداء على مَنْ يجاوره وكذلك جعل الأشهر الحرم والهدى وهو ما يهدى للكعبة من الأنعام للتوسعة على جيرانها الفقراء، وجعل القلائد المتقدم بيانها فى الآية (٢) من هذه السورة صفحتى ١٣٤ ، ١٣٥، جعل كل هذه قيامًا للناس، فلا يصاب واحد بأذى فيها ولا واحد منها بسوء. قالوا كان فى الأمم ملوك يدفع بعضهم شر بعض، ولما لم يكن فى العرب ملوك جعل الله فيهم البيت، وهذه المذكورات تدفع شر المعتدى ولو فى بعض الأمكنة والأزمنة والحالات، فعل الله ذلك لأجل أن تعلموا إذا تأملتم فيه أن الله تعالى يعلم ما فى العالم العلوى والسفلى.

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ(١) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ(٢) لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا(٣) عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا(٤) عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ(٥) ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

المفردات: . ﴿بحيرة﴾ .. هى الناقة التى تلد خمسة آخرها ذكر؛ فإن العرب كانوا بعد الخامس يبحرون أذنها أى يشقونها ويتركونها هبة للأصنام فلا تركب ولا تحلب ولا تمنع من ماء ولا مرعى، فشق أذنها علامة أنها ملك للأصنام. ﴿سائبة﴾ .. هى الناقة التى ينذرها الرجل، فكان أحدهم يقول إذا شفيت من مرضى مثلاً فناقتى سائبة أى متروكة للأصنام كسابقتها. ﴿وصيلة﴾ .. كانت الشاة عندهم إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكرًا ذبحوه لخدام الأصنام، وإذا ولدت ذكرًا وأنثى معًا قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح للآلهة. فوصيلة بمعنى واصلة. ﴿حام﴾ .. الحامى هو الفحل من الإبل الذى خرج من صلبه عشرة أبطن، فإنهم كانوا يقولون حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنعونه ماء ولا مرعى.

المعنى: يعلم أسرارهما، وهو سبحانه بكل شىء، سواء ما ذكر أو غيره، عليم العلم الكامل بكل دقائقه؛ لذلك جعل فى قلوب العرب على غلظتها تعظيمًا لهذا المكان وللأعمال التى تعمل فيه ولأزمانها، وكان فى ذلك حقن للدماء وسعة فى الرزق. واعلموا أن الله شديد العقاب على مَنْ أصر على معصيته، وأنه غفور رحيم لمَنْ رجع إليه وأطاع.

هذه أحكام شرعناها لكم لخيركم، وليس على رسولنا إلا إبلاغها لكم، وقد فعل ولم يقصر فى تبليغكم كل ما طلب منكم، فلا عذر لكم بعد الآن. والله يعلم ما تظهرونه من أقوال وأفعال، وما تكتمونه وسيجازيكم على الجميع، فاحذروا مخالفة أمره، وبما أنه سبحانه سيجازى الجميع فاعلموا أن عدله وحكمته اقتضيا أن لا يستوى عنده الخبيث مع الطيب، أى الضار

(١) البلاغ. (٢) الألباب
(٣، ٤) تسألوا (٥) كافرين

والنافع، والفاسد والصالح، والحرام والحلال، والظالم والعادل، إلى غير ذلك، ولو أعجبك أيها المخاطب كثرة الخبيث من الناس ووجاهتهم، ومن الأموال المحرمة فى التوسعة والتمتع بها، فالقليل الطيب من كل شىء خير من الكثير الخبيث مهما ظن فيه من الفوائد. فاتقوا الله يا أصحاب العقول الخالصة من شهوات المغريات لعلكم تفلحون إذا اتقيتموه. ولما شعر بعض الصحابة من آية «اليوم أكملت لكم دينكم» = الآية (٣) من هذه السورة صفحة ١٣٥ = أن مدة بقائه ﷺ بينهم أصبحت قليلة، أكثروا من السؤال عن أشياء لم تقع، وكان فى هذا خطر التشديد عليهم فى تشريع أحكام ثقيلة عليهم؛ روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (أيها الناس إن لله فرض عليكم الحج فحجوا).. فقال أحدهم: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ حتى كررها السائل ثلاثًا، ثم قال ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم). لكل هذا نزل قوله تعالى: لا تسألوا عن أشياء مما لاخير لكم فيه كالتكاليف الشاقة وأسرار أعراض الناس، كقولهم مَنْ والد فلان؟ لشخص كانوا يشكون فى نسبته لأبيه؛ ولهذا قال إن تبد لكم أى يظهر الله جوابها تسؤكم لشدة تكاليفها أو بفضيحة أصحابها. واعلموا أنكم إن تسألوا عن مثل هذه الأشياء التى يسوءكم جوابها، إن تسألوا عنها فى وقت نزول القرآن أى فى حياته ﷺ فإنها تظهر لكم، فتعرضوا أنفسكم لغضب الله إذا فرطتم فى التكاليف، أو لفضيحة ما كان مستورًا. عفا الله تعالى عن جملة تلك الأشياء التى نهيتم عن السؤال عنها بعدم التكليف بها، فاسكتوا أنتم أيضًا قد سأل مثل تلك الأشياء المستتبعة للندم قوم من قبلكم من بنى إسرائيل فأصبحوا بسببها كافرين حيث لم يقوموا بما كلفوا به، فسألوا موسى أن يقاتلوا فلما فرض، أعرضوا، انظر الآية (٢٤٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٠، ٥١ . وسألوا عيسى إنزال مائدة ثم كفروا بها، انظر الآية (١١٥) الآتية من هذه السورة صفحة ١٦٠ . وسألوا زيادة عبادة ولم يحافظوا عليها، انظر الآية (٢٧) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣ إلخ.

ولما نهى سبحانه فى الآية (٨٧) من هذه السورة صفحة ١٥٤ عن تحريم ما أحله أراد أن يبين ضلال أهل الجاهلية فى جرأتهم على التحريم فقال: ما جعل الله أى ما شرع ولا أذن أن يتخذ الناس بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاما، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب حيث يفعلون هذه الأفعال المنكرة ويقولون أمرنا الله بها تكريمًا لشفعائنا عنده وهى الأصنام

هذا فعل رؤسائهم، أما أكثرهم وهم المقلدون فهم لا يعقلون أن ذلك كذب من الرؤساء معطل للانتفاع بما أحل الله تعالى. وإذا قيل لهم تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله فى القرآن...

وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ

المفردات: . ﴿شهادة﴾ .. تطلق على الشهود أى الحضور، ومنه عالم الغيب والشهادة، وعلى الحلف، وعلم العلم، وعلى الإيصاء. ﴿من غيركم﴾ .. أى من غير المسلمين. ﴿ضربتم فى الأرض﴾ .. سافرتم. ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ .. أى قاربتم نهاية الأجل. ﴿تحبسونهما﴾ .. المراد بالحبس هنا الإمساك لأداء اليمين لا السجن المعروف. ﴿من بعد الصلاة﴾ .. صلاة العصر إذا كانا مسلمين وإلا فصلاة أهل دينهما، لأن المراد الوقت الذى يخاف فيه من الكذب. ﴿إن ارتبتم﴾ .. شككتم. ﴿عثر﴾ .. من العثور وهو الاطلاع على الشىء مصادفة. ﴿استحقا إثما﴾ .. أى فعلا ما يوجب استحقاق جزاء ذنب. ﴿الأوليان﴾ .. أى الأقربان من الميت اللذان لهما الأولوية فى البحث عن شئونه.

المعنى: . وتعالوا إلى الرسول المبين لما أنزل الله، أعرضوا وقالوا كافينا ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وأحكام. فرد عليهم سبحانه مسفهًا لهم بقوله ﴿أولو﴾ إلخ، أى أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم جهلاء ولا يهتدون إلى سبيل الحق. وبعدما بين سبحانه أن الجامد على التقليد الأعمى قلما ينفع فيه إصلاح، أراد أن ينبه المؤمنين إلى العناية بأنفسهم، والحرص على عدم تسرب الخلل إليهم، فقال ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ إلخ، أى الزموا إصلاح أنفسكم بمراقبة الله تعالى وإرشاد العالم للجاهل منكم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه إذا فعلتم ذلك لا يضركم مَنْ ضل من غيركم إذا دمتم أنتم مهتدين. ثم وجه سبحانه الخطاب لكل الناس فقال: إلىَّ مرجعكم جميعًا، المؤمن وغيره، والصالح والفاسق، فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون، ويجازى كلا على حسب عمله.

---

(١) شهادة. (٢) فأصابتكم (٣) الصلاة
(٤) شهادة (٥) الأوليان

روى الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه أنه خطب يومًا فقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، يريد الآية المتقدمة، ولكنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يعمهم الله بعذاب من عنده. ولما فرغ سبحانه من أحكام تتعلق بأمور دينهم شرع فى بيان أحكام تتعلق بدنياهم وقع سببها أثناء نزول السورة؛ وذلك أن رجلين نصرانيين أحدهما يسمى تميما الدارى، والآخر عدى بن بدَّاء بتشديد الدال كانا يتجران فى الجاهلية بين مكة والشام، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة وهاجر معه كثير من قريش حوَّل تميم وزميله تجارتهما إلى المدينة، وكان بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص تاجرا أيضًا أسلم وهاجر إلى المدينة مع أهله وخرج فى تجارة إلى الشام مع تميم وزميله، وكان معه ضمن تجارته ﴿جام﴾ وهو إناء من فضه محلى بالذهب، فمرض فى الطريق، فكتب وصيته ووضعها فى وسط متاعه، وأوصاهما إن مات أن يسلما متاعه إلى أهله، ولما مات أخذا الجام وباعاه لما رجعا إلى المدينة بألف درهم وسلما متاعه إلى أهله، فلما فتحوه علموا فقد الجام، فسألوهما عنه فأنكرا، فترافعوا إليه ﷺ فنزلت ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ إلى آخر الآية. فأمر ﷺ باستحضارهما وتحليفهما بأنهما ما قبضا غير ما سلماه. وبعد مدة ظهر الجام عند قوم فسئلوا عنه فقالوا اشتريناه من تميم وعدى فكذبوهما فترافعوا إلى النبى ﷺ ثانيًا، فنزلت الآية الآخرى ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما﴾ إلخ، فأمر ﷺ رجلين من أهل بديل أن يحلفا على أن الجام للورثة، فحلف عمرو بن العاص وآخر وأخذاه.

ومعنى الآيتين: يأيها الذين آمنوا الشهادة المشروعة بينكم إذا شعر أحدكم بأسباب الموت هى شهادة اثنين من رجالكم عدلين، هذا إن كنتم مقيمين، أما إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا مسلمين تشهدونهم فشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن أدوها كما حملوها فالأمر ظاهر وإن شككتم فى أمانتهما فاحجزوهما بعد صلاة العصر ليحلفا ويقولا فى يمينهما لا نشترى بيمين الله ثمنًا ولو كان المقسم له من أقاربنا، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذا كتمنا لمَنَ المذنبين. فإن علم أنهما استحقا إثما بالكذب فالشاهدان المعول عليهما فى فض النزاع رجلان آخران من أقارب الميت الذين استحق أقربهم رد الشهادة عليه. ﴿فالأوليان﴾ بيان ﴿للآخران﴾ فيقسمان بالله....

المفردات: ﴿شهادتنا﴾.. المراد بالشهادة هنا اليمين كما فى الآية (٦) من سورة النور صفحة ٤٥٧، وسميت اليمين شهادة لأنها كالشهادة على المحلوف.

﴿أدنى﴾.. أقرب.

﴿أو ترد أيمان﴾.. أى إلى الورثة.

﴿روح القدس﴾.. الروح المقدس وهو جبريل.

﴿الأكمه﴾.. مَنْ ولد أعمى.

﴿كهلاً﴾.. هو الرجل التام الرجولية.

﴿تخرج الموتى﴾.. من القبور بعد إحيائهم انظر الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١.

لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ * يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم

المعنى: يقسمان قائلين والله ليميننا أحق بالقبول من يمينهما وطلب التعبير بذلك تأدبًا وإلا فيمينهما لاحق فيها قطعًا،

وما اعتدينا عليهم فى تكذيبهم ولا فى يميننا، إنا إذا كنا اعتدينا لمن الظالمين لأنفسنا وللحق، ونحن نعلم جزاء الظالم.

ذلك أى تحليف الشاهدين الأولين بعد صلاة، أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها الصحيح خوفا من عذاب الآخرة أو خوفًا من أن ترد إلى الورثة فيحلفوا بعد حلفهم فيظهر كذبهم.

---

(١) لشهادتنا	(٢) شهادتهما	(٣) الظالمين
(٤) بالشهادة	(٥) أيمان	(٦) أيمانهم
(٧) الفاسقين	(٨) علام	(٩) يا عيسى
(١٠) والدتك	(١١) الكتاب	(١٢) التوراة
(١٣) إسرائيل		

فالمعنى: ذلك أقرب إلى تأدية اليمين صحيحة خوف عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة المحرمة فى كل الأديان، أو خوف أن يطلب اليمين من غيرهم، وفى هذا إهدار لحلفهم وفضيحة على رءوس الأشهاد.

فاتقوا الله أيها الناس بترك الخيانة والكذب، واسمعوا ما يأمركم الله تعالى به سماع قبول حتى تنالوا هدايته، لأنه لا يهدى الخارجين عن أوامره.

ولما كان معظم السورة فى مجادلة أهل الكتاب أراد سبحانه أن ينذرهم بما سيكون يوم القيامة. فقال: ﴿يوم يجمع الله﴾ إلخ، أى واذكر لهم أيها النبى يوم يجمع الله الرسل فيسألهم وهو أعلم بكل ما حصل، لكن أراد أن يقيم الحجة على مَنْ خالف كسؤال الموءودة فى سورة التكوير الآية (٨) صفحة ٧٩٤. أى هل أجابتكم أممكم إجابة إيمان وإقرار أم كفر وإنكار؟

قالوا لا علم لنا ببواطن جميع مَنْ عاصرونا ولا بحال مَنْ جاءوا بعدهم إذ هذا خاص بك لأنك علام الغيوب.

أما ما تقدم فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ من شهادة الرسل على أممهم فإنها شهادة على أنهم بلغوهم فقط لتتقطع حجتهم انظر الآية (١٦٥) من سورة النساء أيضًا صفحة ١٣١.... أما حقيقة باطنهم فليس لهم بها علم كما فى الآيتين (٩٤، ١٠١) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٧، ٢٥٩ و٤٦ من سورة هود صفحة ٢٩١.

وبعدما ذكر سبحانه سؤال الرسل إجمالاً شرع فى تفصيل سؤال واحد منهم لإقامة الحجة على مَنْ أرسل إليهم الذين كان الحديث عنهم فى هذه السورة، وهم بنو إسرائيل فقال:

إذ قال الله يا عيسى إلخ، روح القدس هو جبريل. وبقية الآية تقدم فى الآيات (٤٦، ٤٨، ٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١....

واذكر يا عيسى نعمتى عليك حين كففت عنك إيذاء بنى إسرائيل فلم أمكنهم من قتلك ولا من صلبك كما كانوا يريدون، منعتهم عنك حين جئتهم.....

بِالْبَيِّنَاتِ[1] فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[2] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى[3] ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ[4] ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[5] ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ[6] ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى[7] ابْنَ مَرْيَمَ

المفردات : ـ ﴿البينات﴾ .. المعجزات

﴿الحــــواريين﴾ .. حــــوارى الرجل هم خاصته.

﴿هل يستطيع ربك﴾ .. الاستطاعة هنا معناها الطاعة أى هل يطيعك ربك ويجيب دعاءك، كاستجاب بمعنى أجاب.

﴿مائدة﴾ .. هى الخوان الذى يوضع عليه الطعام وهو شىء مرتفع عن الأرض. وتطلق على الطعام نفسه.

﴿لأولنا﴾ .. أى مَنْ حضر نزولها.

﴿وآخرنا﴾ .. أى مَنْ يأتى بعدنا.

المعنى : ـ إذ جئتهم بالمعجزات الواضحات فقال الكافرون منهم: ما هذا الذى جئت به إلا سحر واضح.

واذكر نعمتى عليك أيضا حين أوحيت على لسانك أو فى الإنجيل إلى خواصك بأن آمنوا بى وبرسولى عيسى، قالوا آمنا واشهد يا ربنا بأنا مستسلمون ومنقادون لما تأمرنا به.

واذكر أيها النبى حين قال الحواريون لعيسى هل يطيعك ربك ويجيب دعاءك إذا سألته

(١) بالبينات
(٢) الحواريين
(٣) يا عيسى
(٤) الشاهدين
(٥) الرازقين
(٦) العالمين
(٧) يا عيسى

أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال عيسى اتقوا الله فلا تقترحوا من الآيات مثل ما كان يقترح سلفكم كقولهم:

أرنا الله جهرة وغيره مما كان فتنة لهم، إن كنتم مؤمنين حقا، لأنه يوجب الخوف منه تعالى.

قالوا موجهين طلبهم بأربعة أشياء؛ الأول: نريد الأكل منها تبركا، أو لأنا فى حاجة إلى طعام.

الثانى : تطمئن قلوبنا بزيادة اليقين.

الثالث : نعلم علم مشاهدة أنك قد صدقتنا فيما وعدتنا من أنَّ مَنْ يؤمن بنبوتك يحقق الله رجاءه.

الرابع : نكون عليها من الشاهدين بما عاينا لمَنْ يأتى بعدنا، ومع علمه عليه السلام بأن معجزاته التى قارنت دعوته أقوى مما اقترحوا، انظر الآية (١١٠) السابقة صفحتى ١٥٩، ١٦٠، فإنه أراد أن يقطع كل معاذيرهم فقال:

يا الله ياربنا أنزل علينا ما طلبوا يكون يوم نزولها يوم سرور لمَنْ حضر نزولها ولمَنْ لم يحضره، ودليلا جديدا يقوى ما سبقه.

قال الله : إنى منزلها عليكم، واشترط لهذا الوعد أن مَنْ يكفر منكم بعد إنزالها فإنى أعذبه عذابا لم يره أحد قبله

ولا شك أنه سيكون. عذابا آخر مع إفنائهم، لأن سنته تعالى أنه إذا أجاب قوما لما طلبوا من المعجزات ولم يؤمنوا أهلكهم، انظ الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣.

ولهذا لم يجب كفار قريش لما طلبوا فى الآيات (٩٠ ـ ٩٣) صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧ من سورة الإسراء وبيَّن سبحانه سبب المنع فى الآية (٥٩) من نفس السورة صفحة ٣٧٢.

وقال مجاهد والحسن وكثير غيرهم إن المائدة لم تنزل، وإنهم لما سمعوا الشرط

خافوا وقالوا لا حاجة لنا فيها. واذكر أيها النبى للناس يوم يقول الله يا عيسى بن مريم إلخ؛..وعبَّر عما سيقع في المستقبل بصيغة الماضى للإشارة إلى أنه محقق الوقوع.

ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك[1] ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام[2] الغيوب ﴿١١٦﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴿١١٧﴾ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿١١٨﴾ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين[3] صدقهم لهم جنات[4] تجرى من تحتها الأنهار[5] خالدين[6] فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴿١١٩﴾ لله ملك السموات[7] والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴿١٢٠﴾

المعنى : . سأل سبحانه عيسى عليه السلام توبيخا لمَنْ زعم هذا الباطل : هل أنت قلت للناس حقا اتخذونى أنا وأمى الهين متجاوزين إفراد الله وحده بالألوهية؟ وقد تقدم فى الآيات (١٧، ٧٢، ٧٣) صفحات ١٣٩، ١٥١، ١٥٢ طوائف النصارى من حيث اعتقادهم فى المسيح،

قال عيسى : سبحانك أى تنزيها لك عما لا يليق بك، ما ينبغى لى ولا يصح أن أقول ماليس لى بحق، لأنى أعرف أنى عبدك.

ثم استدل على براءته بقوله:

إن كنت قلته فقد علمته، لأنك تعلم ما انطوت عليه نفسى فضلا عما يصدر من لسانى، وأنا لا أعلم ما فى نفسك لأنك أنت وحدك علاَّم الغيوب ثم بعد ذلك بين ما صدر منه فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به.

(١) سبحانك
(٢) علاَّم
(٣) الصادقين
(٤) جنات
(٥) الأنهار
(٦) خالدين
(٧) السموات

ثم بين ما أمر به بقوله:

أن اعبدوا الله ربى وربكم، وبعد ذلك كنت رقيبا عليهم مدة بقائى معهم، فلما توفيتنى وانقطعت عنهم كنت أنت يارب وحدك الرقيب عليهم فيما تراقب من خلقك، وأنت على كل شىء شهيد لا على هذا فقط.

ولما كان المسيح عليه السلام يعلم أن من أمته المؤمن والكافر فوض أمرهم جميعا إلى الله تعالى فقال فى جملتهم:

إن تعذب مَنْ كفر منهم فإنهم عبادك وأنت العليم بظاهرهم وخافيهم، وتعلم أنهم عبدوا غيرك، فإن عذبتهم فهو عدل منك؛ وإن تغفر لمَنْ آمن منهم فإنه من فضلك ولا معقب لحكمك؛ لأنك أنت العزيز الغالب الذى لا يمنعه عما يريد أحد، الحكيم الذى يضع كل حكم فى موضعه، ولا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين فى إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم فى الدنيا، ثم بيَّن النفع فقال :

لهم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار هذا ما يكون لهم من النعيم الجسمانى.

أما النعيم الروحانى فهو رضوان الله تعالى عنهم ورضاهم عنه، فهو أكبر من كل نعيم.

كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ ثم ختم سبحانه السورة بما يؤيد خطأ النصارى وغيرهم فى إشراك غيره تعالى معه فى العبادةفقال:

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ أى فالكل عبيده فى قبضة يده، وهو على كل شىء قدير، من الإيجاد والإفناء، والمنع والعطاء، وتعذيب الكاذب وإثابة الصادق اللهم اجعلنا من عبادك الصادقين، ولاتجعلنا فتنة للظالمين.

سورة الأنعام

(٦) سُورَةُ الأنعَامِ مَكيَّة
وآياتها خمس وستون ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[1] وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ[2] وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ② وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ[3] وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ③ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ[4] رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ④ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ[5] مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑤ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿خلق﴾ . الخلق : إيجاد عن تقدير وحكمة مطلقة، أى سواء لوحظ فى المخلوق عند خلقه غيره أم لا. ﴿وجعل﴾ .. الجعل : إيجاد شىء ملاحظًا فيه شىء آخر، كجعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل فى السماء بروجا.

﴿الظلمات والنور﴾ .. وهما حسيان كظلمة الليل ونور النهار، ومعنويات كظلمة الجهل والكفر، ونور العلم والإيمان. وأفرد النور لأن الحق واحد والباطل كثير، انظر الآية (١٥٣) الآتية من هذه السورة صفحة ١٨٩.

﴿يعدلون﴾ .. يقال عدل كذا بكذا إذا سواه به، أى يسوون به تعالى الأصنام فى العبادة مع أنها لم تخلق شيئا.

﴿قضى أجلا﴾ .. هو أجل مدة حياة كل فرد فى الدنيا.

﴿وأجل مسمى عنده﴾ .. هو أجل قيام الساعة ﴿تمترون﴾ .. تشكون.

المعنى : كل الثناء الحسن والذكر الجميل مستحق له تعالى، لأنه مصدر كل نعمة تستوجب الحمد ومنها خلقه السموات والأرض، ووضع النظام الذى نتج عنه ظلمة فيها سكن المجتهد، ونور فيه سعيه وكسبه، انظر الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧؛

---

(١) السموات (٢) الظلمات - (٣) السموات
(٤) آيات (٥) أنباء

والآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ثم بعد هذا الصنع العظيم ترى الذين كفروا وجحدوا فضل ربهم يسوون به تعالى غيره ممَّنْ لا يستطيع خلق ذبابة يسوونه به فى التقديس والضراعة إليه والخوف منه، انظر آيتى ٧٣ من سورة الحج صفحة ٤٤٤، و (٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الكافرين لتوبيخهم على شنيع صنعهم وتذكيرهم بنعمه عليهم فى أنفسهم فقال: ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ من مبدأ خلقتكم إلى إنتهاء العالم، انظر الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠ والآية (٢٠) من سورة الروم صفحتى ٥٣٢، ٥٣٣؛ ثم قدر لكم أجلين : أجل لكل فرد يعرف بانتهاء حياته، وأجل معلوم له تعالى لا يعلمه غيره وهو أجل بعثكم من القبور للحساب والجزاء، ثم أنتم بعد كل هذا تجحدون وتجادلون فى الحق، وهو أن القادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته بل هو عليها أقدر، كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤؛ وهو سبحانه الخالق وحده المتصرف فى السموات والأرض، ويستوى فى علمه السر والجهر، ويعلم ما تكسبون من خير وشر. ثم أراد سبحانه أن يبين سبب عدم اهتدائهم مع قوة البراهين فقال: وما تأتيهم من آية من آيات ربهم القرآنية الناطقة بألوهيته ووحدانيته إلا كانوا عنها معرضين فلا يعتبرون. فقد كذبوا بالحق وهو القرآن لما جاءهم على لسان نبينا فاستهزءوا به، انظر الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧ والآية (٥) من سورة الشعراء صفحتى ٤٧٩، ٤٨٠، فسوف يحل بهم ما تضمنته الأخبار التى جاء بها القرآن من خذلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة كما فى الآية (١٠) الآتية من هذه السورة صفحة ١٦٣ والآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (١٠٦) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥؛ إلى غير ذلك. ثم شرع سبحانه فى بيان ما توعدهم به مبينا أن سنته فى أمثالهم كما جاء مفصلا فى سورة القمر فقال: ألم يروا ......

المفردات : ﴿قرن﴾ .. القرن من الناس القوم المقترنون فى زمن واحد ومتوسط زمانهم حوالى مائة عام؛ ويطلق القرن أيضا على أهل عصر فيهم نبى واحد أو ملك مهما طال زمانه كقوم نوح وهود وعاد إلخ.

﴿السماء﴾ .. المراد بها هنا المطر.

أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّٰهم في الأرض ما لم نمكن
لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهٰر تجري
من تحتهم فأهلكنٰهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا
ءاخرين ۝٦ ولو نزلنا عليك كتٰبا في قرطاس فلمسوه
بأيديهم لقال الذين كفروا إن هٰذا إلا سحر مبين ۝٧
وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر
ثم لا ينظرون ۝٨ ولو جعلنٰه ملكا لجعلنٰه رجلا
وللبسنا عليهم ما يلبسون ۝٩ ولقد استهزئ برسل من
قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ۝١٠
قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عٰقبة
المكذبين ۝١١ قل لمن ما في السمٰوٰت والأرض
قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى

﴿مدرارًا﴾.. غزيرا ﴿قرطاس﴾.. أى ورق.

﴿لا ينظرون﴾.. لا يمهلون.

﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾.. أى خلطنا الأمر عليهم كما يخلطون على أنفسهم فى قولهم ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم.

﴿فحاق﴾.. أى نزل وحل.

المعنى : ألم يعلم هؤلاء الكفار القرون الكثيرة التى كانت قبلهم وأهلكناها لمّا عملت مثل عملهم: مكناهم فى الأرض تمكينا لم نمكنه لكم أيها الكفار. فكانوا أطول منكم أعمارا وأقوى أجساما وأوسع سلطانا. ووسعنا لهم فى الرزق فأرسلنا المطر عليهم غزيرا وصيرنا الأنهار تجرى من تحت قصورهم وجناتهم. انظر الآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢: فلم يغن عنهم ماهم فيه شيئا. فأهلكناهم بسبب ذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. أى أنه سبحانه لا يعجزه شىء. إذا أهلك المفسد يعمر الأرض بغيره. انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الشمس صفحة ٨١٠.

ثم أراد سبحانه أن يبين لرسوله شدة عناد قومه وأنهم لا يرجى منهم فقال: ولو نزلنا عليك أيها النبى كلاما مكتوبا فى قرطاس فلمسوا القرطاس بأيديهم للتحقق ورفع الشبهة لقالوا

---

(١) مكناهم
(٢) الأنهار
(٣) فأهلكناهم
(٤) كتابا
(٥) جعلناه
(٦) لجعلناه
(٧) عاقبة
(٨) السموات.

تعنتا وعنادًا ما هذا الكتاب إلا سحر واضح وقالوا تشكيكا فى رسالته صلى الله عليه وسلم : لولا أنزل على هذا الذى يدعى النبوة ملك يخبرنا أنه نبى. ولو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم كما تقدم بيانه فى الآية (١١٥) من سورة المائدة صفحة ١٦٠، ثم لا يمهلون بل يأخذهم العذاب عاجلاً.

وأيضا لو جعلنا المنزل عليهم ملكًا لا بشرًا لجعلناه متمثلا فى صورة رجل ليمكنهم رؤيته لاستحالة رؤية البشر للملك على صورته الحقيقية. ولو جعلناه فى صورة رجل لاختلط الأمر عليهم كما كانوا وحينئذ يقعون فيما يلبسون أول الأمر، أى فهم يطلبون إما ما فيه هلاكهم. أو عبثا.

ثم سلى سبحانه نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه فقال: ولقد استهزئ برسل من قبلك فأحاط بالذين سخروا منهم العذاب الذى كانوا به يستهزئون، انظر الآية (٥٩) وما بعدها من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢ وما بعدها لتعرف كيف استهزئ بالرسل قبل محمَّد ﷺ قل أيها النبى مذكرًا قومك بأحوال مَنْ قبلهم : سيروا فى الأرض ثم انظروا بعين الاعتبار كيف صارت عاقبة المكذبين لرسلهم من إهلاكهم وترك ديارهم خرابا، انظر آيات (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، و (٤٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، و (٥٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

وقل أيها النبى لقومك الجاحدين: لِمَنْ ما فى السموات والأرض مُلكا وخَلقا وتصرفا؟ وقد ثبت أنهم يقرون بأنها لله كما فى آيتى (٨٤، ٨٩) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٣، ٤٥٤، وآيتى (٦١، ٦٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. ولذا قال فى الجواب: قل لله أى لا خلاف بيننا فى ذلك، فألجأهم بذلك إلى الاعتراف بخطأ عبادة غيره تعالى. وقل لهم أيضا : إن الله الذى يملك كل شىء كتب وأوجب على نفسه الرحمة بعباده فلا يعجل بعقوبتهم، ويقبل توبتهم، ووالله ليجمعنكم ويحشرنكم إلى يوم القيامة.

يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ[1] لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ[2] وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ[3] وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً[4] ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ

المفردات : . ﴿إلى يوم القيامة﴾.. إلى بمعنى ﴿فى﴾.. أى يجمعكم فى يوم القيامة أو بمعنى اللام كما فى قوله ﴿والأمر إليك﴾.. أى والأمر لك، ويساعده قوله ﴿يوم مجموع له الناس﴾ الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩ أى للحساب فيه ﴿لا ريب فيه﴾.. لا شك فيه.

﴿ما سكن﴾.. أى وما تحرك، ففى الكلام اكتفاء بذكر أحد الطرفين المتلازمين لانفهامه من المذكور كما فى قوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾.. أى أو البرد.

﴿وليًا﴾.. أى ناصرًا وملجأ يخضع له.

﴿فاطر السموات﴾.. مخترعها ومبتدئ خلقها.

المعنى : . ليجمعنكم ليوم القيامة جمعا لاشك فيه، ويجمع على الخصوص الذين خسروا أنفسهم بإهمال عقولهم، فهم لا يؤمنون أبدًا ما داموا على هذا الحال. وكما أن لله كل ما فى السموات والأرض له أيضا كل ما سكن وما تحرك فى الليل والنهار، أى أنه سبحانه مالك لجميع ما فى كل زمان وكل مكان، وهو السميع لكل أقوالهم وهمساتهم، العليم بكل ما تخفيه الصدور. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى أغير الله الذى هذه صفاته أتخذ ناصرا ومعبودا؟ أى هذا لا يصح ولا يكون من عاقل. ثم وصف نفسه بقوله: فاطر السموات والأرض، أى خالقهما لا على مثال سبق، وهو يطعم أى يرزق غيره طعاما ولا يحتاج إلى رزق من أحد.

(١) القيامة
(٢) الليل
(٣) السموات
(٤) شهادة.

وقل لهم أيضا إنى أمرت من الله أن أكون أول مَنْ انقاد لأوامره وخضع ليقتدى بى غيرى، وقيل لى لا تكونن من المشركين به تعالى غيره فى شىء أبدا، فالمراد أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

وقل أيضا أخاف إن عصيت ربى فيما أمر به عذاب يوم عظيم هوله وهو يوم القيامة.

مَنْ يُصرف عنه هذا العذاب يوم القيامة فقد رحمه الله. وإبعاد العذاب فى هذا اليوم هو الفوز والنجاح الواضح.

ولما بيَّن أن الخير والعذاب بيده يوم القيامة أراد سبحانه أن يبين أن الأمر كذلك فى الدنيا فقال:

وإن يمسسك أيها المخاطب بضر كمرض أو فقر وغيرهما من أنواع البلاء فلا مزيل له عنك إلا هو سبحانه، أى لا أحد من الخلق فضلا عن الأصنام. وإن يمسسك بخير كصحة أو غنى أو ولد فلا راد له، لأنه على كل شىء من الضر والخير قدير، فلا يكشف الضر سواه، ولا يحفظ النعمة غيره. وهو القاهر الغالب فوق عباده بالقدرة والإخضاع، انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ يتضح لك معنى القهر. وهو الحكيم فى تنفيذ أوامره، الخبير بأهل الخير والشر.

ولما قال مشركو مكة للنبى ﷺ : ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فأخبرونا بأنه ليس لك عندهم ذكر، فهل عندك مَنْ يشهد لك. أمره الله تعالى أن يقول لهم: أى شىء شهادته أكبر وأعظم وأحق بأن تكون أصح وأصدق؟ ثم أمره بأن يجيب عنهم بأن أكبر الشهادات شهادة الله، أى وإذا كانت هذه قيمة شهادته فهو شهيد بينى وبينكم بأنى صادق وبأنكم معاندون، وقل لهم إن الله تعالى أوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم وأخوفكم بما فيه من الوعيد، وأنذر به أيضا كل مَنْ بلغه إلى يوم القيامة. وخص الإنذار بالذكر مع أن القرآن فيه إنذار وتبشير لأن المخاطبين هنا كانوا كلهم كفار جاحدين يناسبهم التخويف.

﴿فتنتهم﴾ .. المراد بالفتنة هنا الكفر، والمعنى عاقبة كفرهم.

﴿ضل﴾ .. غاب. ﴿أكنة﴾ .. أغطية جمع كنان كغطاء وزنا ومعنى.

﴿يفقهوه﴾ .. يفهموه على حقيقته.
﴿وقرًا﴾ .. صمما وهو عدم السمع.

المعنى : . قل لهم أيها الرسول موبخا لهم على شركهم معلنا براءتك منهم: أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ثم قل لهم بعد هذا الاستفهام التوبيخى: أنا لا أشهد بما تشهدون.

أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[1] وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ[2] الْكِتَٰبَ[3] يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ[4] إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ[5] ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ[6] يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ

ثم قل لهم تقريرا للحق إنما هو إله واحد وإنى برىء مما تشركون به. ثم بين خطأهم وخديعة أهل الكتاب لهم فى قولهم ليس لمحمَّد فى كتبنا ذكر بقوله: الذين آتيناهم الكتاب.

وهم اليهود والنصارى يعرفون أن محمَّدًا رسول الله بصفته المبينة فى كتبهم معرفة محققة كتحقق معرفتهم لأبنائهم كما تقدم فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم بالكفر بالرسول وإنكار صفته، فهم لا يؤمنون أبدًا خوفًا على رياستهم أن تضيع إذا أسلموا وكانوا تابعين لسيد المسلمين. ثم أشار إلى سبب خسرانهم بأنهم فى أعلى درجات الظلم بقوله: ومن أظلم، أى ولا أحد أشد ظلما ممن اخترع على الله كذبا كزعم أن له ولدا أو شريكا أو وضع فى كتابه ماليس منه وقال هو من عند الله كما فى الآية (٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٥، أو كذب بآيات الله القرآنية والمعجزات القاطعة

---

(١) واحد (٢) آتيناهم (٣) الكتاب
(٤) بآياته (٥) الظالمون (٦) يجادلونك.

بصدق رسوله، ولا شك أن الجمع بين هاتين الجريمتين من أبشع الظلم المانع من الفلاح والنجاة، لأن الظالمين لا يفلحون.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يحذرهم من خطر سيلاقيهم قطعا فقال: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أى واذكر لهم أيها النبى يوم نحشر جميع الخلق ثم نقول للذين أشركوا منهم مع الله تعالى غيره توبيخا: أين مَنْ جعلتموهم شركاء لله وكنتم تزعمون أنهم يستحقون ذلك وأنهم يشفعون لكم عند الله؟ ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذى لازموه طول حياتهم إلا قولهم والله ربنا ما كنا مشركين بك، أى لم يكن منهم إلا الإنكار الشديد المؤكد بالقسم لما رأوا العذاب ظانين أن ذلك ينفعهم ولما ختم على أفواههم كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ وشهد عليهم الشهود كما فى الآية (٢٠) وما بعدها من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. وتبين أنه لا ينفع. اعترفوا، انظر الآية (٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٨٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٧.

انظر أيها المخاطب كيف كذبوا على أنفسهم بقولهم ما كنا مشركين. وغاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن لله شركاء يشفعون فيهم ثم أراد سبحانه أن يؤكد كذبهم فذكر بعضا مما حصل ويحصل منهم فقال:

ومنهم أى من هؤلاء المشركين فريق يستمع إليك أيها النبى وأنت تتلو القرآن ولكنهم لا ينتفعون لأننا عاقبناهم لشدة عنادهم وحسدهم وتكبرهم وتمكن كل هذه الأمراض من قلوبهم بأن جعلنا على قلوبهم أغطية تمنعهم أن يفقهوا المسموع من القرآن، وجعلنا فى آذانهم وقرًا وفى أعينهم عمى، وهذا هو معنى قوله وإن يروا كل آية مما يدل على وحدانيته تعالى وعلى صدق رسوله لا يؤمنوا بها، والكلام كناية عن أن ما فى قلوبهم من المرض حرمهم من الانتفاع بعقولهم وأسماعهم وأبصارهم. انظر الآيات (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، و (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، و (٧٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، و (٢٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، (٢٠) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥ و (١٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢١، و (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨. حتى إذا جاءوك يجادلونك فى دعوتك مكابرة لا لغرض الوصول للحق يقول هؤلاء الكافرون إنْ هذا، أى ما هذا...

إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١) ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ (٢) عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا (٣) نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ (٤) رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٥) ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا (٦) عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ (٧) ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

﴿أساطير﴾ .. جمع أسطورة وهى الأكذوبة انظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١. ﴿ينهون عنه﴾ .. أى ينهون غيرهم عن سماع القرآن لئلا يستولى على عقولهم فيؤمنوا، انظر الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣. ﴿وينأون عنه﴾ .. أى يعرضون عنه انظر الآيتين (٤، ٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

﴿وإن يهلكون﴾ .. إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ أى ما يهلكون إلا أنفسهم.. إلخ ومثلها إن الآتية فى الآية (٢٩).

﴿ولو ترى﴾ .. الخطاب لكل مَنْ يصح منه أن يرى فى ذلك الوقت ﴿إذ وقفوا على النار﴾.. أى حين تُوقفهم ملائكة العذاب على شفير جهنم انظر الآيات (٥٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، و (٤٤، ٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥ و ٩١ من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥؛ والأصل ﴿إذ يوقفون﴾ أى فى المستقبل يوم القيامة، ولكنه سبحانه عبَّر بالفعل الماضى بدل المستقبل ليفيد أنه محتم الوقوع حتى كأنه حاصل من الآن. ونظير ذلك ﴿أتى أمر الله﴾ الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ أى أنه لابد من حصوله ﴿ياليتنا نرد﴾.. أى يا ربنا نتمنى عليك أن تردنا إلى الدنيا إلخ انظر الآية (١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿بل﴾.. حرف يفيد إبطال ما فهم من كلامهم السابق من دعوى أنهم صادقون فى الرجوع إلى الحق لو ردوا إلى الدنيا، أى أن قولهم هذا غير صادر عن رغبة صحيحة فى الإيمان.

---

(١) أساطير (٢) وينأون (٣) ياليتنا
(٤) بآيات (٥) لكاذبون (٦) يا حسرتنا
(٧) الحياة.

﴿بدا لهم﴾.. أى ظهر واضحا.

﴿ما كانوا يخفون﴾.. أخفى، وكفر، وستر، كلها فى اللغة بمعنى واحد، وما كانوا يخفونه أى يكفرون به فى الدنيا هو البعث، والحساب، والعذاب لمَن كفر انظر الآيات (٢٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، و (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، و ١٤ من سورة الطور صفحة ٦٩٧؛ ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾.. ﴿هى﴾ أى الحياة التى نحياها. ﴿حياتنا الدنيا﴾ أصل كلمة ﴿دنيا﴾ مؤنث ﴿الأدنى﴾ أى الأقرب، وصارت ﴿الحياة الدنيا﴾ عبارة عن الحياة المقابلة للحياة الآخرة ونظير ماهنا ما قالوه فى آيتى (٣٧) من سورة المؤمنون صفحة ﴿٤٤٩﴾، و (٢٤) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣. ﴿أليس هذا بالحق قالوا بلى﴾..

انظر هذا فى الآية (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

﴿الساعة﴾.. المراد بها هنا نهاية عمر كل واحد منهم التى تعتبر المرحلة الأولى من مراحل القيامة. ﴿فرطنا فيها﴾.. الضمير يعود على الحياة الدنيا المفهومة من السياق كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وكضمير ﴿أنزلناه﴾ فى الآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥. ﴿أوزارهم﴾.. جمع وزر بكسر أوله وأصله الحمل الثقيل، يقال وزره يزره بوزن وعده يعده بمعنى حمله أى الوزر على ظهره. والمراد بالوزر هنا الذنب.

﴿ألا﴾.. كلمة تفيد تنبيه السامع لما بعدها ﴿ساء﴾.. قَبُح.

﴿لعب﴾.. المراد به هنا الفعل الذى لا يقصد به فاعله غالبا مقصدًا صحيحًا من تحصيل نفع أو دفع ضر، كأفعال الأطفال التى يتلذذون بها لذاتها ﴿ولهو﴾.. هو ما يشغل الإنسان عما يهمه مما يظن أن فيه تسلية.

المعنى : . إنهم لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون ما هذا الكلام الذى جئت به يا محمَّد إلا أكاذيب وخرافات من خرافات السابقين من الأمم قبلنا، ثم لا يكتفون بهذا التكذيب المتبجح بل ينهون الناس عن سماع القرآن انظر الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ ويعرضون عنه بأنفسهم ليظهروا للناس غاية النفور منه تأكيدا لنهيهم انظر آيتى (٤، ٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠، وما يهلكون ويضرون بذلك إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب، وما يشعرون بهذا الضرّر ولا بقصره عليهم.

ثم شرع فى بيان ما سيكون منهم يوم القيامة فقال: ولو ترى يا مَنْ يصح أن ترى حال هؤلاء حين توقفهم الملائكة على حافة جهنم، ليلقوا فيها وهى تفور، لرأيت شدة فزعهم عندما يشاهدون هؤلاء عظيمًا لا يتصور، عند ذلك يقولون لهول ما شاهدوا.

يا ربنا نتمنى أن نرد إلى الدنيا لنتجنب ما كان منا ولا نُكذِّب بآيات ربنا من القرآن والمعجزات ونكون من المؤمنين بكل ما جاء به الرسل، وهذا التمنى يصدر منهم عند مشاهدة النار، أما بعد دخولهم فيها فإنهم سيطلبون الخروج فعلا، انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ثم بيَّن سبحانه أنهم كاذبون حتى فى زعمهم هذا فقال: بل بدا لهم إلخ أى ليس قولهم هذا صادرًا عن عزم صادق ورغبة فى الإيمان، بل لأنه ظهر للعيان واضحًا لا يمكن إخفاؤه ما كانوا يخفون عن الناس فى الدنيا من الكفر بالبعث، والحساب، والعذاب لمَنْ كفر. وإذا كان الأمر كذلك وكان المانع لهم من الإيمان هو الكبر والحسد، وهما من الأخلاق الذاتية التى لا تفارق صاحبها، فلا يغتر أحد بتمنيهم، فإنهم لو ردوا إلى الدنيا كما تمنوا لعادوا إلى الكفر، وتكذيب الرسول حسدًا وكبرًا، انظر آيتى (٢٢، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩. والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، فهم كاذبون فيما يقولون فى تمنيهم، وقالوا لا حياة إلا حياتنا الدنيا هذه، وما نحن بمبعوثين كما يقول محمَّد. ولو ترى أيها السامع حين يوقف هؤلاء للعرض على ربهم لسؤالهم، انظر الآية ٢٤ من سورة الصافات، وقال لهم ربهم أليس هذا البعث وما بعده حقا لا باطلا كما زعمتم، قالوا: نعم وحقك يا ربنا، وأقسموا مبالغة فى التذلل لعله ينفعهم، فكان الرد قوله تعالى: فذوقوا العذاب الذى أنكرتموه من قبل بسبب كفركم المستمر. قد خسر هؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة كل ما ربحه المؤمنون به تعالى من نعيم الرضا بقضاء الله والصبر على المكاره واطمئنان النفس والقناعة وغير ذلك من كل ما امتاز به المؤمن فى الدنيا التى تجعل حياته طيبة كما فى الآية ٩٧ من سورة النحل صفحة ٣٥٩. خسروا كل هذا واستمروا حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة أى مباغتة قالوا معلنين الندم يا حسرتنا على ما فرطنا فى حياتنا الدنيا فلم نعمل فيها ما ينفعنا. قالوا ذلك وهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم. وقال بعضهم إن الذنوب تمثل لهم يوم القيامة أجساما قبيحة ثقيلة، انظر ما تقدم فى الآية (١٦١) من سورة آل عمران صفحتى ٨٩، ٩٠. ألا قبح ما يحملون. ثم بيَّن سبحانه حقيقة ما يغتر به الناس فقال:

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ إلخ....

وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ(١) بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ(٢) نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ(٣) اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ(٤) الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٥) ﴿٣٥﴾ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

المفردات: . ﴿إنه ليحزنك﴾.. كسرت همزة ﴿إن﴾ لأن الفعل قبلها علق عن العمل باللام فى ﴿ليحزنك﴾ وهذه اللام تسمى لام الابتداء لأنها لا تقع إلا فى أول الجملة لتفيد تقوية التأكيد المستفاد من ﴿إن﴾ ولمّا كَرِه العرب تجاور حرفين ﴿إن﴾ و ﴿اللام﴾ أخروا ﴿اللام﴾ وجعلوها فى خبر ﴿إن﴾.. ﴿يجحدون﴾.. الجحود التكذيب مكابرة لأنه إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ والآية (٢٠) الماضية صفحة ١٦٥.

المعنى: . وما أعمال الحياة الدنيا الخاصة بها التى لا علاقة لها بالآخرة إلا كلعب الأطفال أو كلهو الكبار فى عدم النفع المعتبر عند العقلاء، وعدم الثبات وقصر الزمن، وللدار الآخرة خير للذين يتقون الله لدوام نعيمها؛ هل تغفلون عن هذا فلا تعقلون هذا الفرق العظيم.. ولما اشتدت جرأة المشركين فى تحقير شأنه ﷺ محاولين صرف الناس عنه بكل السبل؛ فتارة يرمونه بالجنون والكذب والسحر كما فى الآيات (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و (٤) من سورة ص صفحتى ٥٩٧، ٥٩٨، و (٥٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥؛ وتارة يقولون إن محمَّدًا هو الذى افترى هذا القرآن على الله كما فى الآية ٤ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ والآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩، وتارة قالوا على القرآن نفسه إنه سحر كما فى الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، وتارة كانوا يقولون كان يصح أن نؤمن لو كان هذا القرآن نزل على رجل عظيم كما فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠: تقول لما كان كل هذا وكان ﷺ يحزن لذلك حزنا شديدا لأنهم قومه الذين يحب هدايتهم، أراد سبحانه أن يسليه ﷺ فقال: قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون مما سبق ومن اقتراح معجزات معينة كما تقدم فى الآية (٨) صفحة ١٦٣ وكما سيأتى فى الآيات من (٩٠) إلى (٩٣) صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، فلا تحزن لأنهم لا يكذبونك عن عقيدة بل هم

(١) الظالمين (٢) آتاهم (٣) لكلمات (٤) نبأ (٥) الجاهلين

جازمون فى صميم قلوبهم بأنك على حق، ولكن هؤلاء الظالمين يكابرون فى تكذيبهم بآيات الله الدالة على صدقك. ثم قوى سبحانه تسليته الأولى بتسلية ثانية فيها إرشاد لطريق النجاح فقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾، انظر الآية (٤٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، وآيتى (٤، ٢٥) من سورة فاطر صفحات ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٥؛ ولما كان التكذيب يستلزم الإيذاء اكتفى بذكره فى سياق الصبر فقال: ﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾ أى وصبروا على الإيذاء حتى آتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله فى وعده بنصر الصابرين كما فى آيتى (١٧١، ١٧٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، والآية (٤٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٧، والآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤؛ ولقد جاءك بعض أنباء المرسلين قبلك التى قصصناها عليك قبل هذا المتضمنة تكذيب الرسل ونصر الله لهم فى النهاية. ومَنْ أراد معرفة أشد ما فعله كفار قريش به ﷺ فليرجع إلى حديثى ٤٢٨، ٤٧٣ من كتابنا صفوة البخارى. ثم أكد سبحانه الصبر بأنه علاج لابد منه فقال: وإن كان شأنك معهم أنه كبر وعظم عليك إعراضهم عنك المفهوم من التكذيب فإن استطعت أن تطلب نفقًا أى طريقا فى جوف الأرض أو سلما تصعد عليه إلى جهة السماء فتأتيهم بمعجزة مما اقترحوه ليؤمنوا كما يزعمون فافعل وأت لهم بما يطلبون، ولن تستطيع، أى فارح نفسك بالصبر ولا تحزن ولا تحاول المستحيل. ولو شاء الله جمعهم على الهدى معكم لجمعهم بجعل الإيمان إجباريا لهم كالملائكة، ولكن هذا يستلزم أن لا تكون الدنيا دار تكليف، لأن التكليف يستلزم الاختيار، والاختيار يستلزم التفاوت فى التفكير والعادات والميول، وإذا انتفى كل هذا فلا جنة ولا نار، لأنهما وجدا على أساس تفاوت المكلفين فى الطاعة والمعصية، وإذا كانت هذه هى حكمة الله تعالى فلا تكونن أيها النبى بحرصك الشديد على إيمانهم من الجاهلين بسنة الله فى خلقه الذين يتمنون حصول ما ليس من الحكمة حصوله.

وخوطب نوح عليه السلام بأشد من هذا فى الآية (٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١؛ وبعد ما بيَّن سبحانه أن حكمته اقتضت تفاوت الناس، أراد أن يبين مَنْ منهم يختار الهدى وهل هؤلاء منهم أم لا ليريح ﷺ نفسه من الحزن عليهم، فقال: إنما يستجيب أى يجيب دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماع فهم وقبول، دون الذين لا يسمعون ولا ينظرون كأنهم أموات كما فى الآية (٤٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. وموتى القلوب يخرجهم الله تعالى يوم القيامة من قبورهم ثم ترجعهم الملائكة إليه تعالى لينالوا جزاءهم. ثم أراد سبحانه أن يبين شيئا من عنادهم ليزيد فى تسليته ﷺ فقال:

وقالوا لولا نزل عليه آية مما اقترحنا مما سبقت الإشارة إليه فى الآية (٨) صفحة ١٦٣ وسيأتى بعضه فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وما بعدها. قل لهم

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟

أيها النبى إن الله قادر على أن ينزل آية مما تقترحون ولكن أكثرهم لا يعلمون أن نزولها حسب اقتراحهم فيه فناؤهم جميعا إذا لم يؤمنوا كما تقدم بيانه فى الآية ٨ المشار إليها صفحة ١٦٣.

المفردات: . ﴿دابة﴾ : انظر معناها فى الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿يطير بجناحيه﴾: ذكر ذلك للتأكيد كما فى الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

﴿أمم أمثالكم﴾ الأمة هى الجماعة التى تجمعها صفات وعادات واحدة متجانسة ﴿فى الكتاب﴾ : هو اللوح المحفوظ، انظر آيات (٥٩) الآتية صفحة ١٧١، و (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤، و (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، و (٢٩) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨، و (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿من شىء﴾ : ﴿من﴾ للنص على عموم شىء بعدها. ﴿أرأيتكم﴾ : تتركب من الهمزة للاستفهام. والفعل رأى بمعنى علم وهذا الفعل متعد لمفعولين. وضمير التاء المفتوحة للمخاطب. والكاف حرف خطاب. والميم علامة الجمع ﴿أرأيتكم﴾ بمعنى أخبرونى. وذلك عن طريق مجازين.. الأول فى الاستفهام بإرادة مطلق طلب الإبصار. والثانى فى الرؤية بإرادة الإخبار إذ رؤية الشىء سبب فى الإخبار عنه.

والمعنى : أخبرونى إخبار مَنْ يعلم عن حالتكم عندما يصيبكم شىء فوق الأسباب هل تدعون أصنامكم التى لا تضر ولا تنفع أم تدعون الله سبحانه وتعالى.

(١) طائر (٢) الكتاب (٣) بآياتنا (٤) الظلمات (٥) صراط
(٦) أتاكم (٧) صادقين (٨) فأخذناهم (٩) الشيطان (١٠) أبواب.

﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾: التقييد بالمشيئة هنا إشارة إلى أن الذى يمكن أن يُكشف عنهم عند الرجوع إلى ربهم إنما هو عذاب الدنيا قبل بلوغ الروح الحلقوم، ومشاهدة مقدمات الموت التى لابد من حصوله بعدها أما بعد ذلك فلا ينفعهم تضرع لما دلت عليه آيات أخرى، انظر الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحتى ١٩٠، ١٩١، وآيتى (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠، وآيتى (٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩.

﴿البأساء﴾: ما يصيب الإنسان فى غير نفسه كفقد ولد أو مال ﴿الضراء﴾: ما يصيبه فى نفسه كالمرض.

﴿يتضرعون﴾ : أى يتذللون ويخشعون لربهم تائبين، محافظين على التوبة غير ناقضين لها، وإلا رجعوا خاسرين انظر الآية (١٣٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣، والآية (٢٣) من سورة يونس صفحة ﴿٢٦٩﴾، والآية (٥٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، والآية (٣٣) من سورة الروم صفحة ٥٣٥.

﴿فلولا﴾ : تأتى كلمة ﴿لولا﴾ فى لغة العرب لمعانٍ : منها أن تكون شرطية، تربط بين جملتين، نحو لولا طلوع الشمس لأظلم الجو، والمعنى لولا أن طلوع الشمس محقق لأظلم الجو. ومن ذلك فى القرآن ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ الآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩. ومنها إفادة التخصيص، وهو الحض على الفعل، أى طلب حصوله، قال تعالى ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ الآية (٣) من سورة الماعون صفحة ٨٢٣.

وهذا الطلب إما أن يكون على سبيل الرجاء، أو على سبيل الأمر. فمن الأول ﴿لولا أخرتنى..... إلخ﴾ الآية (١٠) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤، ومن الثانى ﴿لولا تستغفرون الله﴾ الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والفعل المذكور بعدها لا يكون إلا مضارعًا، أى دالاً على مستقبل، أو ماضيا مئولا بالمستقبل، فمن الأول ما تقدم فى صفحة ٥٠٠ ومن الثانى ما تقدم فى صفحة ٧٤٤، لأن معناها أرجوك يارب أن تؤخرنى إلى أجل.. إلخ. كما تقول لمن يطالبك بدين له عليك:

لولا أمهلتنى. تريد: أرجوك أن تمهلنى. وقد يراد بـ ﴿لولا﴾ هذه التوبيخ والإشعار بالندم على التفريط. وهذه تفيد ضمنًا عدم حصول الفعل المذكور بعدها، وإن كان فى صورة الماضى، ومنه قوله تعالى ﴿فلولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ الآية (١٦) من سورة النور صفحة ٤٥٩، فالمعنى إنكم تستحقون التوبيخ على عدم قولكم ما يكون لنا... إلخ فينبغى لكم أن تندموا على هذا التفريط.

وقد يراد بها أيضا التعجيز والتحدى، وذلك حينما يطلب بها من المخاطب ما يعجز عنه، ومن ذلك فى القرآن قوله تعالى ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ الآية (٨٣) من سور الواقعة صفحة ٧١٧ لأن المراد هل تستطيعون إرجاع الروح إذا بلغت الحلقوم إلخ ما سيأتى ونظير هذا التعجيز فى القرآن قوله تعالى ﴿قل كونوا حجارة أو حديدًا إلخ﴾ الآية (٥٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ ثم إن ﴿لولا﴾ لابد أن يكون الفعل المذكور بعدها متصلا بها، ولا يفصله فى اللفظ فقط لا فى المعنى إلا أحد ثلاثة أشياء.

﴿إذ﴾ و ﴿إذا﴾ ظرفان منصوبان بالفعل الذى أصله أن يكون قبلها نحو ما تقدم فى الآية (١٦) من سورة النور صفحة ٤٥٩ والآية (٨٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

والثالث الجملة الشرطية نحو قوله تعالى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها.. إلخ﴾ وسيأتى بيان ذلك فى الآية (٨٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧، فأصل التركيب فلولا ترجعون الروح إن كنتم غير مدينين.

ومن معانى ﴿لولا﴾ أيضًا إفادة التفجع أى التوجع للرَّزية، والتأسف لحصولها، ويكون المراد حمل السامع على التأسف لما حل بإخوانه فى الإنسانية الذين أهلكتهم المصائب لمخالفتهم أوامر ربهم، وبذلك يجتنبون جرائمهم التى أوقعتهم فى هذا الهلاك، ومن ذلك ما فى هذه الآية التى نحن بسبيل شرحها، وما فى قوله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض﴾ الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١، وقوله سبحانه ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة بل ضلوا عنهم.. إلخ﴾ الآية (٢٨) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

﴿فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾: من أبواب الرزق الواسع، وصحة الأجسام.

المعنى : . لما فرغ سبحانه من بيان آياته القاطعة بصدقه ﷺ، ومن الرد على مقترحاتهم أراد أن يرشد المستعد منهم لنوع من آياته فى الحيوانات لو تأملوها لعلموا أنه لا يكون إلا عن تدبير حكيم عليم، واستغنوا بذلك عن تعنتهم فى اقتراح آيات معينة فقال ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ أيها الناس فى تمييزها عن غيرها وتجانسها فى أفعالها ونظام حياتها، وفى هذا أقوى دليل على حكمة العليم القدير، ما فرطنا فى الكتاب من شىء، ثم إلى ربهم تحشر هذه الأمم، أى يحشر المكلفون جميعًا، ومن الحيوانات مَنْ وقع عليه ظلم من مكلف ليشهد على مَنْ ظلمه كما تشهد عليه جوارحه كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥، وآيتى (٢٠، ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢، وكما تشهد الموءودة فى الآية (٨) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤؛ والذين كذبوا بآياتنا من القرآن والحجج المبينة فى الكون، صم لا يسمعون دعوة الحق سماع فهم وتدبر، بكم لا ينطقون بما قد يعرفون من الحق غارقون فى ظلمات الشرك والعناد وتقليد الآباء،

مَنْ يشأ الله إضلاله يضلله بأن يتركه ونفسه يختار ما يشاء كما اقتضته سنته فى نظام هذه الدنيا أن لا يجبر أحدًا على شىء، انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، والآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧؛ وليس المعنى أنه يخلق الضلال فى العبد خلقًا قهرًا عنه فتكون أفعاله وحركاته كحركة الدم فى الجسم وعمل المعدة فى الهضم فلا دخل له فيها ولا يستطيع الخلاص منها. ومَنْ يشأ يجعله على صراط مستقيم وذلك بأن يوفقه للانتفاع بعقله وسمعه وبصره لسلامة طبعه ونظافته من الأمراض المميتة للقلوب انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٦٦ والآية (٢٧) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، والآية (١١) من سورة التغابن صفحتى ٧٤٦، ٧٤٧ وآيات (٥ـ ٧) من سورة الليل صفحة ٨١٠؛ كما لا يضل إلا فاسد الطبع الذى مرن على المعاصى حتى طمس قلبه، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحة ٧، والآية (٢٥٨) من سورة البقرة أيضًا صفحة ٥٤، والآية (٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٧، والآية (٦٧) من سورة المائدة صفحة

١٥٠، والآية (١٠٨) من سورة المائدة أيضا صفحة ١٥٩، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، والآية (١٠٤) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، والآيات (٨ ـ ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ وغير ذلك، فمن حيث إنه سبحانه واضع الأسباب والمسببات صح أن يقال أنه يضل مَنْ يشاء ويهد مَنْ يشاء بمعنى أنه كان قادرًا أن يغير لهم هذا النظام فيكون العالم كله مجبورًا، ومن حيث إنه سبحانه منح المكلفين الاختيار وسهل لهم الأسباب صح أن يرتب هدايته لهم وإضلاله على عملهم فيقول مثلا ﴿إن الله لا يهدى مَنْ هو مسرف كذاب﴾ الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١، ويقول ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، ثم بعد ذلك أراد سبحانه أن ينبههم إلى ما فى داخل فطرتهم التى أفسدوها لعلهم يرجعون فقال: قل أيها النبى لمشركى قومك أرأيتم، أى أخبرونى ماذا تفعلون إن أتاكم عذاب الله فى الدنيا كما أتى مَنْ قبلكم، كالريح الصرصر، والصاعقة والطوفان، أو أتتكم مقدمات الساعة وأهوالها، هل تدعون لكشف ذلك أحدًا من آلهتكم غير الله إن كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة تنفع، أم لا تدعون غيره تعالى؟ ثم أجاب بما هو الواقع منهم قطعًا فى مثل هذا فقال: بل إياه تدعون، أى لا تدعون غيره فى حال الشدة كما هى عادتكم دائمًا، انظر آيتى (٢٢، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، فيكشف سبحانه ما تدعونه لكشفه إن شاء وعند هذه الشدة تنسون ما تشركونه مع الله فى العبادة، ثم أراد سبحانه أن يخفف على رسوله شدة عناد قومه وقسوتهم عليه فأخبره بأن أمم الرسل قبله كانوا أقسى قلوبا من أمته. وأن الشدائد لم ترجعهم إلى الحق، ومع ذلك صبر هؤلاء الرسل كلما كذبوا حتى أتاهم نصر الله بإهلاك قومهم، انظر الآية (٣٤) الماضية صفحة ١٦٧ فقال هنا ولقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرة قبل أمتك فلما كفروا أنزلنا عليهم البأساء والضراء لعلهم يتضرعون، ويرجعون إلى الحق رجوعا صادقا لا نكسة بعده، ولكنهم لم يفعلوا، فيا حسرة عليهم حيث لم يفعلوا، واستمرت قلوبهم على قسوتها، وزين لهم الشيطان عملهم، فلما أهملوا ما ذكروا به كأنهم نسوه، بلوناهم بالحسنات بدل السيئات، لنسلك بهم كل طرق الاختبار، ونقطع عليهم سبل الاعتذار، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠، فوسعنا عليهم فى الرزق، وصحة الأجسام، فلم يزدهم ذلك إلا بطرًا وكبرًا، حتى إذا فرحوا.....

بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : . ﴿مبلسون﴾.. يائسون من النجاة متحسرون. ﴿دابر القوم﴾.. دابر الجماعة مؤخرها أى أهلكناهم عن آخرهم.

﴿أرأيتم﴾.. انظر تركيب أرأيتكم فى الآية (٤٠) صفحة ١٦٨ السابقة ﴿نصرف الآيات﴾.. أى ننوع الحجج على وجوه مختلفة، انظر آيات (١٠٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ و (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠ و (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨؛ ﴿يصدفون﴾.. يُعْرضون عن التأمل .

﴿خزائن الله﴾. جمع خَزْنَة، أو خِزَانَة وأصلها ما يخزن فيه الشىء النفيس، والمراد بها مستودع فيوضاته تعالى من رحمة، ورزق، وغير ذلك، انظر آيات (٢١) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ و (٩) من سورة ص صفحة ٥٩٨ و (٧) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

المعنى : . أنعمنا عليهم برغد العيش، حتى إذا فرحوا بما أنعمنا به عليهم فرح بطر وغرور، بدل أن يقوموا بحق المنعم، أخذناهم بعذاب الإفناء بغتة على غرة منهم، فإذا هم واقعون فى اليأس من النجاة، فقطع دابر الظالمين وهلكوا جميعا، والحمد لله رب العالمين على إهلاكهم لأن إهلاك الطغاة المفسدين إنقاذ لأهل الأرض من مفاسدهم.

وقل أيها النبى لهؤلاء المشركين أخبرونى إن أصمكم الله وأعماكم وختم على قلوبكم حتى صرتم مجانين هل عندكم إله غير الله يأتيكم بما سلبه منكم؟ الجواب لا قطعا، وإذا كان الأمر

(١) أخذناهم (٢) ارايتم (٣) وابصاركم (٤) الآيات
(٥) ارايتكم (٦) اتاكم (٧) الظالمون (٨) بآياتنا.

كذلك فلماذا تعبدون غيره، وغيره لا يملك لكم دفع ضر ولا جلب نفع؟!.. انظر أيها السامع كيف ننوع لهم البراهين ليتنبهوا ولكنهم مع ذلك يعرضون عنها إعراضا شديدا.

وقل لهم أيها النبى أيضا أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله الذى حلّ بأمثالكم من الأمم التى كفرت بأنبيائها بغتة ولم تتقدمه أمارات تشعركم بقرب نزوله كما حصل لقوم لوط انظر الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، أو يأتيكم جهرة أى ظاهرا ترون مقدماته كما حصل لقوم عاد انظر آيات (٢١) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ وما بعدها، فهل يهلك به إلا الظالمون منكم وهم المصرون على الشرك، أما الرسل ومَنْ آمن معهم فإنهم ينجون كما حصل لقوم نوح فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، ولقوم لوط كما فى آيتى (٨٣، ٨٤) من سورة الأعراف وغير ذلك كثير.

ولما سبق فى الآية (٣٧) أنهم كانوا يقترحون معجزات مخصوصة عنادا مع كثرة آيات الرسول ﷺ قال هنا فى تمام الرد عليهم:

وما نرسل المرسلين لأممهم إلا مبشرين مَنْ أطاع بالجنة، ومنذرين ومخوفين مَنْ عصى بالنار، أى ولم نرسلهم ليتلقوا من أممهم اقتراحات بمعجزات معينة ليسخروا منهم، فمَنْ آمن من هؤلاء الأمم واكتفى بمعجزة رسوله وأصلح عمله فلا خوف عليهم من عذاب ولا هم يحزنون على فوات ثواب.

أما الذين كذبوا بآياتنا التى اخترناها لكل رسول مناسبة لزمانه يمسهم العذاب بسبب استمرارهم على الفسق والخروج عن الطاعة وقل لهم أيها النبى: لا أقول لكم أيها الكفار عندى خزائن الله أتصرف بما فيها فأجعل فى الأرض جنات كما تقترحون فى آيتى (٩٠ و ٩١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، ولا أعلم الغيب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله، فلا أعلم القيامة التى تكثرون السؤال عنها تحديا وعنادا، ولا أقول إنى ملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر حتى تكلفونى ما فى آيتى (٩٢، ٩٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، وما أتبع إلا ما يوحى إلىَّ من الله. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم لا يستوى الأعمى أى الضالّ عن الحق، والبصير أى المهتدى، أفلا تتفكرون أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فتتفكرون. فالاستفهام توبيخ على عدم السماع وعدم التفكير فى تلك الحجج.

وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴿٥١﴾ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴿٥٢﴾ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿٥٣﴾ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴿٥٤﴾ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴿٥٥﴾ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله

﴿كتب ربكم على نفسه﴾ .. أى فرض وأوجب على نفسه تفضلا منه.

﴿أنه مَنْ عمل منكم .. إلخ﴾ .. هذا بدل أو بيان للرحمة ببعض أنواعها.

﴿بجهالة﴾ .. أى بسفه وطيش دفعه إلى السوء لا عن تعمد وإصرار دائم.

المعنى : . وأنذر بما يوحى إليك وهو القرآن المؤمنين الذين يخافون من حشرهم إلى ربهم للحساب والجزاء وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينفعهم الإنذار قال تعالى: ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ وفى معناها الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ والآية (١١) من سورة يس صفحة ٥٨٠؛ المؤمنين الذين يعتقدون أنه ليس لهم من دون الله ناصر ولا معين ولا شفيع، انظر الآية (٢٥٤) من سورة البقرة صفحة ٥٣ والآية (١٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦، أنذر هؤلاء لعلهم يحافظون على اتقاء ما يغضبه سبحانه روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود أن هذه الآية وما بعدها نزلتا فى ضعفاء المسلمين وفقرائهم فكأنه سبحانه يقول: إذا أعرض عنك المتكبرون فوجه عنايتك لهؤلاء المخلصين فإنهم سيكونون نواة أمتك فيما بعد. وبيان ذلك أنه مر ذات يوم نفر من صناديد قريش على النبى ﷺ ومعه بلال وصهيب وعمار بن ياسر وخباب وغيرهم من المستضعفين من المسلمين فقالوا يا محمَّد كيف تجالس هؤلاء دون كبار قومك؟ أهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك فلعلك إن فعلت نتبعك.

(١) بالغداة (٢) الظالمين (٣) بالشاكرين (٤) بآياتنا
(٥) سلام (٦) بجهالة (٧) الآيات.

فنزل فيهم : وأنذر إلى آخر الآية (٥٥)، وكانت هذه عادة المستكبرين دائما، انظر الآيات من (٢٧) إلى (٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩ وآيتى (٧٣، ٧٤) من سورة مريم صفحة ٤٠٣، وآيتى (١٠٩، ١١٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥. ولا تطرد أيها النبى هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره، والمراد فى جميع الأوقات، يريدون وجه الله أى مخلصين، لا تطردهم إرضاءً لكفار قريش الذين طعنوا فى إخلاصهم واتهموهم بالنفاق، فما عليك أيها النبى من حساب هؤلاء الضعفاء شىء، كما أنه ليس من حسابك عليهم شىء أى كل منكما محاسب أمام ربه فيما يتعلق بداخل ضميره، فهى فى معنى قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، انظر الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (١١٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦. وإذا كان الأمر كذلك فلا تسمع دس الكافرين وتطردهم، فإنك إن فعلت كنت فى عداد الظالمين، وحاشاه ﷺ أن يقع فى ظلم. وكهذه الفتنة التى وقع فيها الأقوياء فتنا كل متكبر بالضعفاء كما فتنا وامتحنا المستضعفين من المؤمنين والفقراء منهم بالأقوياء والأغنياء، انظر الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢ ليظهر معدن كل منهما، ويتبين المخلص فى إيمانه الذى لا يهتم إلا بما يقربه من الله من المتكبر الذى تهمه المظاهر، انظر الآية (٢٧) من سورة هود صفحة ٢٨٨ والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآيات من (٣١) إلى (٣٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ فتنًا بعضهم ببعض واختبرناهم ليقول المتكبرون أهؤلاء الفقراء المساكين هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا بهذه النعم التى يقول بها محمَّد، وهى أنهم سيكونون سادة فى الدنيا سعداء فى الآخرة؟ هذا لن يكون، انظر الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ فرد الله تعالى عليهم بقوله : أليس الله أعلم بمَنْ يشكر نعمته فيجازيه رغم أنوفكم. وبعد أن نهاه الله عن طردهم أمره سبحانه بأن يكرمهم ويجاملهم فقال: وإذا جاء الذين يؤمنون بآياتنا فقل لهم سلام من الله عليكم، أى أبلغهم تحيتى وطمئنهم بأن ربهم أوجب على نفسه تفضلا منه ورحمة أنه مَنْ عمل منكم ذنبا مندفعا إليه بلا روية ولا تصميم ثم سارع إلى التوبة والندم وأصلح أعماله بالإخلاص فى التوبة غفر الله له لأنه كثير المغفرة واسع الرحمة.

وبمثل هذا التفصيل البديع نفصل وننوع الآيات القرآنية الدالة على الحق لبيان الحجج والمواعظ، ولتظهر طرق المجرمين فيسهل اجتنابها. ثم أمره أن يقول لهؤلاء الطغاة أنى نهيت أى نهانى ربى ومنعتنى أدلة العقل عن أن أعبد الذين تدعونهم من دون الله.

قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَٰصِلِينَ[1] ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّٰلِمِينَ[2] ﴿٥٨﴾ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ[3] الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم[5] بِالَّيْلِ[6] وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

المفردات : . ﴿أهواءكم﴾ .. أى شهواتكم القائمة على الباطل لا على الدليل.

﴿بينة من ربى﴾ .. أصل معنى بينة واضحة شديدة الوضوح وتطلق على المعجزة كما فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (٩٢) من نفس السورة صفحة ١٨، و ١٠١ من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وتطلق أيضا على الدليل القاطع كالقرآن الكريم كما فى الآية (٩٩) من سورة البقرة صفحة ١٩، والآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨ والآية (١) من سورة النور صفحتى ٤٥٦، ٤٥٧ وتطلق أيضا على العلم القطعى الناتج عما تقدم كما فى الآية (٤٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٣ ويعبر عنها فى القرآن أحيانا بالبصيرة كما فى الآية (١٠٨) من سورة يوسف صفحة ٣١٩. ﴿يقص الحق﴾ .. أى يتبع فى فعله الحق، من قولهم قص أثره إذا اتبع طريقه ﴿مفاتح الغيب﴾ .. جمع مفتح بفتح الميم كمرصد ومراصد وهو المخزن أى عنده خزائن الغيب، أو جمع مفتح بكسر الميم كمبرد ومبارد وهو المفتاح.. ﴿فى كتاب مبين﴾ .. هو اللوح المحفوظ انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٢٩) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨ .. ﴿يتوفاكم بالليل﴾ .. المراد يضعف صلة الأرواح بالأجساد فلا يشعر النائم بما يشعر به المتيقظ، انظر الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢ .. ﴿جرحتم﴾ .. جرحه جرحًا كمنعه أحدث بجسمه تمزقا، ولهذا سميت السباع جوارح لأنها تجرح كما تقدم فى الآية (٤) من سورة المائدة صفحتى ١٣٥، ١٣٦. ومن المجاز فيه قولهم جرحه بلسانه أو فى شهادته إذا طعن فيه. وجوارح الإنسان هى يداه ورجلاه التى يكتسب بها. ولهذا قالوا إن المعنى هنا: ويعلم ما كسبتم من الإثم، لأن سياق الآية فى التهديد والتوبيخ فيناسبه كسب الذنب. ﴿يبعثكم فيه﴾ .. أى يوقظكم فى جنس النهار لا فى النهار المتقدم. ﴿القاهر فوق عباده﴾ .. أى الغالب فوق عباده بالقدرة والإخضاع انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١.

(١) الفاصلين (٢) بالظالمين (٣) ظلمات (٤) كتاب (٥) يتوفاكم (٦) بالليل.

المعنى : . قل لهم أيها النبى أيضا: لا أسير فى طريقكم الذى سلكتموه من اتباع الهوى وإغفال الدليل، لأن هذا هو الضلال بعينه؛ ولذا قال قد ضللت مثلكم إذا اتبعت أهواءكم، وما أنا حينئذ على شىء من الهداية.

ثم بَيَّن ما يجب أن يكون عليه المؤمن فقال: إنى سائر فى عملى على بينة واضحة من صحيح القرآن الذى جاءنى من عند ربى والحال أنكم قد كذبتم بهذا القرآن المعبر عنه ﴿ببينة﴾. ولما زعموا أنهم لم يصدقوه لعجزه ﷺ عن الإتيان بما توعدهم به من العذاب رغم تكرار طلبهم أن يأتيهم به، انظر آيات (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، و (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، و (٥٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، و (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١، ولما غالطوا بذلك رد عليهم بقوله: ما عندى أى ليس عندى ما تستعجلون حصوله من العذاب لأنه مرهون بإرادة الله وحكمته، وما الحكم فى كل شىء يحدث فى هذا العالم إلا لله، فهو وحده الذى ينزل العذاب على مَنْ يشاء متى يشاء، يتبع سبحانه فى فعله الحق والحكمة، وهو خير الفاصلين بين الحق والباطل. وقل لهم أيضا : لو أن عندى ما تستعجلون به من العذاب لقضى الأمر بينى وبينكم بإنزاله عليكم سريعا لشدة غضبى من عصيانكم لربى وإنقاذا لعباده الضعفاء من بطشكم، ولكنه ليس فى يدى، والله سبحانه وحده هو الأعلم بمقدار ظلم الظالمين، فهو وحده الذى يتولى عقابهم، كل على حسب حاله، وهو العليم أيضا بحكمة اختيار الوقت الذى ينزل فيه العذاب، انظر آيات (١١) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، و (٥٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، و (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨؛ ولذا قال: وعنده سبحانه مفاتح الغيب، أى أن سر الغيب المطلق كله بيده سبحانه لا يعلمه غيره إلا عن طريقه، ويعلم ما فى البر والبحر من الظاهر والخافى عليكم، أى أن تعلق علمه سبحانه بالمشاهدات كتعلقة بالمغيبات، فالكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، يعلم كل أحوالها لا يخفى عليه منها شىء مهما صغر؛ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تسقط حبة فى ظلمات الأرض، ولا يسقط شىء رطب ولا يابس من الثمار ونحوها إلا ثابت كل ذلك فى كتاب هو اللوح المحفوظ، وكل هذا كناية عن إحاطة علمه سبحانه بتفاصيل كل شىء فى هذا العالم صغيره وكبيره علويه وسفليه لا مجرد المذكورات فقط. وهو الذى يتوفاكم بالليل بالنوم فيه، انظر الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢، لراحتكم كما فى الآية (٧٢) من سورة القصص صفحة ٥١٧، مع أنه يعلم ما كسبتم من الذنوب فى النهار السابق على الليل الذى تفضل عليكم فيه بما فيه راحتكم، ثم يوقظكم فى النهار لتسعوا فى الأرض، وهكذا ينيمكم ويوقظكم إلى أن يقضى الأجل المقدر لكل فرد منكم فى هذه الدنيا، ثم يميتكم فترجعون إليه فينبئكم بما داومتم عليه من عمل خير أو شر، ويجازيكم عليه. وهو القاهر فوق عباده فلا يعجزه أحد منهم وقد تقدم بيانها فى الآية

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

(١٨) من هذه السورة صفحة ١٦٤، ويرسل عليكم لتسجيل أعمالكم حفظة...

المفردات : . ﴿حفظة﴾: هم الكرام الكاتبون فى الآية (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿ألا له الحكم﴾: ألا كلمة تدل على تنبيه السامع لما بعدها لأهميته. ﴿ظلمات البر والبحر﴾: الظلمات كناية عن الأهوال والشدائد.

﴿تضرعا وخفية﴾ : التضرع المبالغة فى الضراعة وهى التذلل والخضوع وتكون فى الغالب جهرًا. والخفية الاستتار خوفا من الرياء.

﴿أو يلبسكم شيعا﴾ : يقال لبست الأمر لبسا كضرب خلطته. وشيع جمع شيعة كسلعة وسلع، والشيعة كل قوم جمعهم أمر واحد، وهو منصوب على الحال أى حال كونكم متفرقين، كلٌّ متحيز لفريقه، ويقال الشيعة هى الجماعة التى تشايعت على الباطل أى تعاونت عليه وأشياعهم أمثالهم؛ ﴿بأس بعض﴾ : البأس الشدة.

﴿لكل نبأ مستقر﴾ : النبأ الخبر، والمستقر أصله الزمان أو المكان الذى يستقر فيه شىء والمراد يتحقق وقوعه فيه ﴿يخوضون فى آياتنا﴾ : الخوض الحديث بالباطل، والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم.

المعنى : . يرسل الحفظة يكتبون كل عمل من طاعة أو معصية حتى المباحات انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ والآية (١٨) من سورة ق صفحة ٦٨٩، بل يكتبون حتى خلجات القلوب، انظر حديث رقم ٦٤٨ من كتابنا صفوة البخارى. وحكمة إخباره سبحانه بذلك أن العبد إذا علم هذا خشى الفضيحة على رءوس الأشهاد. ويستمر عمل هؤلاء الحفظة إلى أن تأتى أسباب الموت ومقدماته، وعند ذلك تقبض روح العبد رسل الله من الملائكة الموكلين بقبضها، وبذلك ينتهى عمل الحفظة، وهم لا يفرطون بالتوانى عن الموعد المحدد،

(١) مولاهم (٢) الحاسبين (٣) ظلمات (٤) أنجانا
(٥) الشاكرين (٦) الآيات (٧) آياتنا.

ولا يسبقونه، ثم يرد الله جميع الخلائق إليه يوم القيامة للحساب والجزاء وهو سبحانه مولاهم الحق الباقى الذى لا يزول كما يزول ما اتخذوهم من دونه آلهة بالباطل. ألا له سبحانه وحده يوم القيامة القضاء النافذ وهو أسرع الحاسبين، يوفى كل عامل عمله عقب عمله، ويحاسب الخلق جميعا يوم القيامة فى أقصر وقت. وبعد ما بيَّن سبحانه أنه هو المولى الحق أراد أن ينبه الكفار إلى ما يجدونه فى قرارة نفوسهم عند الشدة من إغفال غيره سبحانه ودعائه وحده، فقال: قل لهم أيها النبى مَنْ ينجيكم من أهوال البر والبحر إذا حلت بكم وجعلتكم تدعونه تضرعا وخفية، أى معلنين ومسرين قائلين: والله لئن أنجانا من هذه الشدة لنكونن من الشاكرين. ثم أمره ﷺ أن يجيب عنهم لإفادة أنه لا جواب عندهم غيره، فقال: قل الله هو الذى ينجيكم منها ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم بعد مشاهدة هذه الإحسانات تعودون إلى الإشراك به مَنْ لم يعمل لكم شيئا؛ أى فلم تكتفوا بعدم الشكر بل ضممتم إليه أقبح معصية.

وبعد ما بيَّن سبحانه أنه هو القادر على إنقاذهم من الشدائد، أراد أن يبيِّن لهم أنه قادر أيضا على إلقائهم فيها فقال:

هو القادر على أن يبعث أى يسلط عليكم عذابا شديدا شاملاً يأتيكم من جهة العلو كالصيحة والصواعق، أو من جهة السفل كالخسف والزلزال، انظر آيتى (١٦، ١٧) من سورة الملك صفحتى ٧٧٥، ٧٥٦. ولم يعيّن سبحانه هذا العذاب الذى هدد به ليشمل كل ما يجد، وقد جد فى عصرنا مالم يكن فى حساب مخلوق وقت نزول القرآن مما تقذفه الطائرات وما تفجره الألغام والغواصات وما خفى كان أعظم. وقد سئل ﷺ عن هذه الآية فقال: (أما إنها لآتية ولم يأت تأويلها الآن) رواه أحمد والترمذى عن سعد بن أبى وقاص. يريد ﷺ أنها لن تحصل لأمته فى زمنه، ولكنها ستحصل ولابد لأمة دَعْوته وهم جميع الخلق إلى يوم القيامة. فسبحان علام الغيوب الذى علَّم رسوله مالم يكن يعلم. وقادر أيضا على أن يخلطكم فى القتال للتنازع على الدنيا متفرقين كل فى ناحية، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾. انظر أيها النبى كيف ننوع الآيات تقريبا للفهم. وتقدم مثلها فى الآية (٤٦) صفحة ١٦٩، لعلهم يفقهون الحقيقة فيرجعون عن العناد. وكذب بالقرآن وما فيه من العذاب قومك العرب مع أنه الحق. فقل لهم لست موكلا بكم أحفظ أعمالكم وأجازيكم بها، بل هذا لله تعالى، وما أنا إلا نذير، ولكل خبر مما أخبركم الله به وقت يتحقق فيه مدلوله، وسوف تعلمون صدق تلك الأخبار. وإذا رأيت أيها المؤمن الذين يخوضون فى آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين المستهزئين أو من أهل الأهواء المفرقين لكلمة المؤمنين، فأعرض عنهم، أى انصرف عنهم، لأن الجلوس معهم فيه إغراء لهم بالتمادى. وهذه الآية هى التى نبه الله سبحانه إليها فى الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧.

حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ[1] فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ[3] ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا[4] ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ[5] فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ[6] يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ

المفردات :ـ ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ : أصل التركيب ﴿إن﴾ و ﴿ما﴾ .. و ﴿إن﴾ شرطية تدل على ارتباط جملتين بعضهما ببعض و ﴿ما﴾ حرف يدل على تأكيد هذا الارتباط فى كل حال من أحواله.

﴿وذر﴾ : اترك وابتعد. ﴿تبسل نفس﴾: تبسل من البسل بمعنى الحبس أو الهلاك، يقال أبسله الله أى أهلكه.

﴿وإن تعدل﴾ : تفد. ﴿كل عدل﴾ : كل فداء ﴿أبسلوا بما كسبوا﴾ : هلكوا بسبب عملهم السيء ﴿حميم﴾ : هو الماء الشديد الحرارة.

﴿نرد على أعقابنا﴾ : الأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم والمراد يرجعنا الشيطان إلى الخلف والمراد به الكفر. ﴿استهوته الشياطين﴾ : حملته على اتباع الهوى والسير على غير رشد. ﴿حيران﴾ : حال من الذى استهوته الشياطين و ﴿حيران﴾ : أى تائه لا يهتدى إلى ما فيه نجاته.

المعنى :ـ ابتعد عنهم حتى يشتغلوا بحديث غيره، وإن عرض لك نسيان فجالستهم وهم يخوضون ثم تذكرت ففارقهم حالاً لأنهم ظالمون ونسب الإنساء للشيطان لأن من أدب القرآن

(١) الشيطان
(٢) الظالمين
(٣) الحياة
(٤) هدانا
(٥) الشياطين
(٦) أصحاب.

أنه ينسب كل ما لا خير فيه للشيطان ولو كان خطأ، انظر آيتى (٦٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٠، و (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. ولما كان ربما يتوهم أن الذى يجلس مع الخائضين ولو نسيانا مؤاخذ، دفع ذلك بقوله: وما على الذين يتقون الله من ذنب الخائضين شىء، أى لا يلحق المتقين الذين يجالسونهم نسيانا شىء يحاسبون عليه من ذنوبهم، ولكن عليهم فقط تذكيرهم بقبح أعمالهم، والقيام عن مجالسهم، وإظهار الكراهة لهم، لعلهم يتقون الخوض حياء أو خوفا من إساءة مَنْ هو أقوى منهم واترك أيها المؤمن الذين اتخذوا دينهم الذى فرض عليهم وطلب منهم الخضوع له وهو الإسلام لعبا ولهوًا، تقدم شرحها فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحتى ١٦٦، ١٦٧؛ والمراد لا تبال بهم وامض فيما أمرك به الله، وابتعد عن هؤلاء الذين خدعتهم الدنيا بالباطل حتى أنكروا البعث وانهمكوا فى ملذاتهم. وذكر بالقرآن، انظر آخر سورة ﴿ق﴾ صفحة ٦٩٢، لئلا تحبس كل نفس فى الهلاك بسبب ما كسبت من الذنوب حال كونها ليس لها ولى ينصرها ولا شفيع ينقذها من العذاب، وإن تقدم هذه النفس كل فداء تتقى به العذاب لا يقبل منها. أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالدنيا الذين هلكوا ليس لهم شراب فى جهنم إلا من حميم يتجرعه أحدهم ولا يكاد يسيغه يقطع أمعاءهم، انظر الآيات (١٧٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، و (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥، و (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤، وعذاب أليم غير ذلك من نار تشوى جلودهم، لهم ذلك بسبب كفرهم المستمر. قل لهم أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين هل يصح أن ندعوا من دون الله ما لا ينفعنا إن عبدناه، ولا يضرنا إن تركناه كما تفعلون فى عبادة الأصنام، ونرجع إلى الشرك بعد هداية الله لنا للتوحيد فنكون فى رجوعنا على أعقابنا مماثلين للذى استهوته الشياطين فهو هائم على وجهه فى الأرض حيران لا يهتدى إلى طريق النجاة، لهذا الضال رفقة مهتدون لم تضلهم الشياطين يدعونه إلى طريق الهداية والنجاة قائلين فى دعائهم ائتنا أى ارجع إلينا تسلم، فلا يجيبهم فيهلك. وقل لهم أيها النبى إن هدى الله الذى هدانا إليه وهو الإسلام هو الهدى وليس هناك هدى غيره.

وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ[2] وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[3] وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ[4] الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[5] وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[6] لِأَبِيهِ آزَرَ[7] أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً[8] إِنِّي أَرَاكَ[9] وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ[10] مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ[11] مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ[12] وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ[13] رَأَىٰ[14] كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ[15] ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى[16] الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى[17] الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا

المفردات : . ﴿يوم يقول كن فيكون﴾ لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول، وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الصور﴾ : هو فى اللغة اسم للبوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتًا قويًا؛ والله أعلم بحقيقة صور إسرافيل؛ ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ : أصل الغيب والشهادة مصدران بمعنى الغياب والحضور مع المشاهدة ثم أطلق الغيب على الغائب عن الحواس والشهادة على المُشَاهَد بالحواس ﴿لأبيه آزر﴾ : لعلك لاحظت أن القرآن عند حكاية محاورة نبى الله إبراهيم عليه السلام لهذا الكافر كان حريصا على التعبير عنه بأنه «أبوه» فى عدة مواضع: ما هنا وما فى الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، ومن (٤٢) إلى (٤٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٠، و (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، و (٧٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، و (٨٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، و (٢٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، و (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥. ذلك كله لندرك الحكمة السامية التى يرشد إليها الكتاب الكريم وهى أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله وإن كفر الآباء لا يضر الأبناء المؤمنين، كما لا يضر الآباء فسوق الأبناء، وأن صلاح كل واحد من الطرفين لا ينفع الآخر إذا كان فاسقا، انظر الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، و ٤٢،

(١) العالمين (٢) الصلاة (٣) السموات (٤) عالم (٥) والشهادة (٦) إبراهيم
(٧) آزر (٨) آلهة (٩) آراك (١٠) ضلال (١١) إبراهيم (١٢) السموات
(١٣) الليل (١٤) رأى (١٥) الأفلين (١٦، ١٧) رأى.

٤٣، ٤٥، ٤٦ من سورة هود صفحتى ٢٩٠، ٢٩١ و (١٧، ١٨) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٨، ٦٦٩؛ وكذا لا ينفع الرجل الصالح زوجته الفاجرة ولا تنفع الزوجة الصالحة زوجها الفاسق انظر آيتى (١٠، ١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، لكل هذا جاء سبحانه بالنتيجة محذرًا فى الآية (١٠١) من سورة «المؤمنون» صفحتى ٤٥٤، ٤٥٥، والآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ فهل ترى بعد ذلك أشقى من رجل أو امرأة يفرط فى حقوق الله سبحانه وتعالى معتمدًا فى النجاة على غيره من والد أو ولد؟ أما الغلامان المذكوران فى الآية (٨٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ لأن صلاح والديهما حملهما على توجيه ولديهما جهة الخير وكان الولدان مستعدين لهذا التوجيه فأكرم سبحانه الآباء بتوفيق الأبناء لما كانوا يحبونه لهما وبهذا نال الأب ثواب حسن تربية الأبناء فوق السرور بهم فى الآخرة. ولو كان الغلامان غير مستعدين للاستقامة لما نفعهما توجيه الآباء مهما فعلوا، انظر الغلام وأبويه فى الآيات ٨٠ من سورة الكهف صفحة ٣٩٢، و (١٧، ١٨) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٨، ٦٦٩؛ ﴿ملكوت السموات والأرض﴾: الملكوت هو الملك العظيم، كالرحموت للرحمة الواسعة، والرهبوت للرهبة الشديدة؛ فالوزن يفيد المبالغة فى مادته؛ ﴿جن عليه الليل﴾ : أى أظلم وستر جميع ما حوله.

﴿أفل﴾ : ذهب وغرب.

المعنى : . وقل لهم أيضا إنا معاشر المؤمنين أمرنا بأن نستسلم وننقاد لرب العالمين، وأن الله أمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه سبحانه لأنه هو الذى إليه وحده نحشر يوم القيامة فيحاسبنا، وهو سبحانه أيضا المنفرد بخلق السموات والأرض مقترنة بالحق أى لا لعبا وعبثا كما فى الآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٨، ٣٩) من سورة الدخان صفحتى ٦٥٨، ٦٥٩. واذكر يوم القيامة الذى يقول فيه للشىء كن فيكون أى يقول للخلق قوموا. فيقوموا قوله هذا هو الصدق الواقع لا محالة، وله وحده الملك فى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور، انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩، وهو سبحانه عالم ما غاب وما ظهر، أى يستوى فى علمه الغائب والشاهد أى الحاضر، وهو الحكيم فى أفعاله، الخبير بجميع الخفيات؛ وبعد ما بيَّن سبحانه بطلان عمل المشركين، أمر نبيه ﷺ بتذكيرهم بدعوة إبراهيم صاحب المكانة

العليا عند العرب وأهل الكتاب، فقال: وإذ قال إبراهيم، أى واذكر لهم أيها النبى وقت قول إبراهيم الذى يدّعون أنهم على ملته موبخًا لأبيه آزر على عبادة الأصنام: أتتخذ أصناما آلهة. ولحكمة عظمى كرر القرآن ذكر عابد الصنم الذى حاجه إبراهيم بوصف الأب، انظر الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، و (٤٢) إلى (٤٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٠، و (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، و (٧٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤ و (٨٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ و (٢٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ و (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥. ومراد إبراهيم أنه لا يصح أن تجعل لنفسك ولقومك آلهة من دون الله، إنى أراك وقومك بهذا فى ضلال مبين واضح. وقد كان قومه يعبدون الأصنام والكواكب السيارة، فحاجهم فى عبادة الأصنام فى سورة الأنبياء من أول الآية (٥١) إلى الآية (٦٧) صفحتى ٤٢٦، ٤٢٧، وفى هذه السورة حاجهم فى عبادة الكواكب فقال سبحانه: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ أى كما أريناه الحق فى أمر أبيه وقومه كنا نريه المرة بعد المرة ملكوت السموات إلخ ليرى ببصره ما ينير بصيرته، والمراد نريه وجوه الاهتداء بها ليعرف حكمتنا فى تدبير ملكنا، ليقيم الحجة على المشركين وليكون فى خاصة نفسه من الموقنين، أى العالمين عن دليل. ثم ذكر سبحانه بعضا من كيفية اهتداء إبراهيم إلى أوجه الحجة فقال:

فلما جنَّ عليه الليل ونظر إلى ملكوت السموات رأى كوكبا عظيما ممتازا عن جميع الكواكب بشدة ضوئه وكان هو المشترى، فقال: هذا الكوكب هو ربى، قال ذلك مجاراة لهم تمهيدا للإنكار عليهم واستدراجا لهم إلى سماع حجته، فلما أفل واحتجب قال : لا أحب الآفلين. أى فلا يصح أن أجعلهم آلهة لأن الأفول تغير، والله يغير ولا يتغير، والرب ليس كمثله شىء، وهذا له أمثال يأفلون مثله، أشار إلى ذلك بقوله ﴿الآفلين﴾. فلما رأى القمر بازغا أى طالعا من وراء الأفق أول ظهوره من جهة المشرق قال : هذا ربى على الطريقة السابقة، فلما أفل القمر وهو أكبر من الكوكب السابق فى النظر وأقوى نورًا فى الأرض، قال على مسمع من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى الصواب لأكونن من الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا الكوكب هو ربى لأنه أكبر مما سبقه....

ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يقوم إني بريء مما تشركون ﴿٧٨﴾ إني وجهت وجهي للذي فطر السموت والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴿٧٩﴾ وحاجه قومه قال أتحجوني في الله وقد هدىن ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ﴿٨٠﴾ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطنا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴿٨١﴾ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمنهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ وتلك حجتنا ءاتينها إبرهيم على قومه نرفع درجت من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴿٨٣﴾ ووهبنا له إسحق ويعقوب

المفردات : ﴿فطر السموات﴾ : ابتدأ خلقها. ﴿حنيفا﴾: الحنيف هو المائل عن الباطل المتميز إلى جهة الحق. ﴿وحاجه قومه﴾ : أى جادلوه، وقد بيَّن سبحانه شيئا من هذه المجادلة فى الآيات من (٥١) إلى (٧٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٦، ٤٢٧ وكذا فى الآيات من (٦٩) إلى (٨٩) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٤، ٤٨٥.

﴿سلطانا﴾ : أى حجة قاطعة :

﴿ولم يلبسوا إيمانهم﴾ : أى يخلطوا.

﴿بظلم﴾ : أى بكفر.

المعنى : هذا أكبر قدرا وأعظم ضياء فهو أحق منهما بالربوبية إذا كانت الربوبية بالمظاهر، فلما أفلت كما أفل غيرها صرح عليه السلام بالنتيجة المرادة من كل ما تقدم فقال: يا قوم إنى برىء من تأليه هذه الكواكب التى جعلتموها أربابا مع الله، إنى وجهت قصدى وجعلته خالصًا للإله الحق الذى فطر السموات والأرض حال كونى حنيفا بعيدا عن الباطل، وما أنا من المشركين مثلكم، وقد تقدم تفسيرها فى الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦، والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤. وجادل إبراهيم قومه، وخوفوه من أن تمسه آلهتهم بسوء كما يشعر بذلك الكلام الآتى، كما خوف قوم هود نبيهم بذلك فى الآية (٥٤) من سورة هود صفحة ٢٩٢. ومما حاجوه به أنهم يؤمنون به تعالى، وأنهم ما اتخذوا الأصنام إلا لتقربهم إليه وتشفع لهم عنده، وفى هذا تعظيم له تعالى لا كفر كما تزعم يا

(١) ياقوم (٢) السموات (٣) أتحاجونى (٤) هدان
(٥) سلطانا (٦) إيمانهم (٧) آتيناها (٨) إبراهيم
(٩) درجات (١٠) إسحاق

إبراهيم. فرد عليهم كل هذا بقوله أتحاجونى، أى هل يصح مجادلتكم لى فى شأن وحدانيته تعالى وما يجب له والحال أنه سبحانه قد هدانى إلى الحق، ومثل هذه الهداية هدايته تعالى لنبينا ﷺ فى الآية (٧) من سورة الضحى صفحة ٨١٢، ولا أخاف ما تشركون به من الكواكب والأصنام أن تصيبنى بسوء لأنى أعلم أنها لا تضر ولا تنفع، لكن إذا شاء ربى القادر وقوع مكروه لى فإنه يقع قطعا كما يشاء، وسع علم ربى كل شىء، فهو الذى يخاف منه لا من آلهتكم التى لا تعلم شيئا، فهل بعد هذا تعرضون عن التأمل فى عجز آلهتكم وجهلها فلا تتذكرون أنها غير قادرة على شىء وكيف أخاف من آلهتكم التى أشركتموها مع الله وهى لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون أنتم من أنكم أشركتم بالله صاحب القوة والملك كله مخلوقات لم ينزل الله بشركها له دليلا قاطعا. والكلام كناية عن امتناع وجود دليل على شركهم، فأى الفريقين منا ومنكم أحق بالأمن والطمأنينة فى الآخرة : فريق الموحدين، أو فريق المشركين. إن كنتم على شىء من العلم الصحيح أدركتم أنا نحن أحق بالأمن منكم. ثم بيَّن سبحانه من هم أحق بعدم الخوف فقال: الذين آمنوا بالله وحده ولم يخلطوا إيمانهم بشرك كما يفعل المشركون الذين يزعمون أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء، انظر الآية(٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ والآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، أولئك الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، لهم وحدهم يوم القيامة الأمن من الخلود فى النار، وهم المهتدون إلى الحق، وغيرهم على باطل. وتلك البراهين المذكورة من أول ﴿فلما جن عليه الليل﴾ إلى قوله ﴿مهتدون﴾ هى حجتنا التى آتيناها إبراهيم، أى أرشدناه إليها ليقيمها على قومه. نرفع درجات مَنْ نشاء من عبادنا بالعلم والحجة كإبراهيم. إن ربك أيها النبى حكيم فى كل فعله، عليم بمَنْ يستحق الرفع. وقد تفضلنا على إبراهيم فى أصله وفرعه، فوهبنا له إسحاق ويعقوب...

المفردات: ﴿وكلا فضلنا على العالمين﴾ : المراد عالمى زمانهم.

﴿واجتبيناهم﴾ : أى اصطفيناهم واخترناهم لرسالتنا، وهذا يدل على أن هناك رسلاً لله سبحانه غير هؤلاء المذكورين، انظر الآيتين (١٦٣، ١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١.

كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ[1] وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ[2] وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[3] ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ[4] وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ[6] وَإِخْوَٰنِهِمْ[7] وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ[8] وَهَدَيْنَٰهُمْ[9] إِلَىٰ صِرَٰطٍ[10] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ[11] ٱلْكِتَٰبَ[12] وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ[13] ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ[14] ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ[15] عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ

﴿لحبط عنهم﴾ : لبطل وسقط.

﴿الكتـاب﴾ : هو اسم جـامع لكل من صحف إبراهيم وموسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى. ﴿والحكم﴾ : المراد به الحكمة وهى معرفة أسرار الشريعة ووضع كل شىء فى محله.

﴿اقتـده﴾ : أى اقتد، والهاء حرف يزاد عند السكوت على الكلمة ساكنا، وقد يثبت فى الوصل ساكنا أيضا إجراء للوصل مجرى الوقف انظر مثلها فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

المعنى : ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أى ووهبنا لإبراهيم إسحاق وولده يعقوب. واقتصر هنا على إسحاق وابنه، لأن إسحاق ولد بما يشبه المعجزة، لأن إبراهيم كان بلغ من الكبر وكذا زوجه سارة حالاً لا يولد لهما فيه، انظر ذلك واضحا فى قوله تعالى حكاية عن زوج إبراهيم ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا﴾ انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ والآية (٢٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ وسيأتى حكمة إفراد إسماعيل عنهم فيما بعد. ﴿كلا هدينا﴾ أى هدينا كلا من إسحاق ويعقوب هديناه إلى ما يوصل لطريق الكرامات وجزيل الثواب. ﴿ونوحا هدينا من قبل﴾ أى وهدينا نوحا من قبلهم إلى ما هديناهم إليه. ﴿ومن ذريته﴾ معطوف على ﴿ونوحا هدينا﴾ بدون قيد ﴿من قبل﴾ أى وهدينا من ذرية إبراهيم داود

(١) وسليمان (٢) وهارون (٣) الصالحين (٤) وإسماعيل
(٥) العالمين (٦) وذرياتهم (٧) وإخوانهم (٨) واجتبيناهم
(٩) وهديناهم (١٠) صراط (١١) آتيناهم (١٢) الكتاب
(١٣) بكافرين (١٣) فبهداهم (١٥) أسألكم

وسليمان... إلخ وقد جزم ابن جرير بأن الضمير فى ذريته لنوح لأنه أقرب مذكور ولأن لوطا ويونس ليسا من ذرية إبراهيم.

وذهب سائر المفسرين إلى أن الضمير عائد على إبراهيم، لأن أصل الكلام فى شأنه، وإنما ذكر نوحا فى المقام لأنه جده لبيان نعمة الله عليه فى أصوله، وفى كثير من فروعه، ولذلك جمعهما سبحانه فى الامتنان عليهما بجعل النبوة فى نسلهما فى الآية (٢٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. وقال هؤلاء إن يونس من ذرية إبراهيم وإن لوطا ابن أخيه فهو ابنه حكمًا وقال صاحب المنار: ولم يرتب سبحانه هؤلاء الأنبياء حسب زمانهم لأنه أنزل كتابه للهداية والموعظة لا لمجرد التاريخ، ولأنه ليس كتاب مناقب يرتب أصحابها حسب درجاتهم، وإنما هو كتاب عبرة، وقد جعلهم سبحانه فى هذا المقام ثلاثة أقسام لكل قسم منهم معنى يجمعه.

فالقسم الأول ﴿داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون﴾ والجامع بينهم أن الله آتاهم النبوة والإمارة والحكم والسيادة، وكل منهم ابتلى فصبر، وأُنعم عليه بالسراء فشكر، ولذلك خصوا بلفظ ﴿المحسنين﴾ لإحسانهم فى تصريف الشئون...

والقسم الثانى ﴿زكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾ هؤلاء يجمعهم شدة الزهد فى الدنيا، والرغبة عن سلطانها، ولذا وصفهم بالصالحين، وهو أليق بهم وإن كان كل نبى صالحًا.

والقسم الثالث ﴿إسماعيل وإليسع ويونس ولوط﴾ ويجمع هؤلاء عدم خصوصية برزوا بها، إذ لم يكن لهم من سلطان الحكم ما للقسم الأول، ولا من المبالغة فى الزهد ما للقسم الثانى، واكتفى بذكر تفضيلهم على عالم زمانهم، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿ومن آبائهم﴾ أى وهدينا بعض آباء مَنْ ذكر من الأنبياء، وبعض ذرياتهم وإخوانهم، وهذا يدل على أن كثيرًا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لم يهتدوا، وقد جاء ذلك صريحًا فى الآية (٢٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. ﴿واجتبيناهم﴾ معطوف على ﴿فضلنا﴾ قال الراغب: يقال اجتبى الله العبد أى خصه بفيض إلهى يحصل له بسببه نعمة بلا سعى منه،

وهو خاص بالأنبياء، وبعض مَنْ يقاربهم من الصديقين والشهداء. ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ أعاد ذكر الهداية ثانيًا للتأكيد، وليربط بها متعلقها وهو ﴿إلى صراط مستقيم﴾. وليرتب عليها قوله: ذلك أى الهدى إلى صراط مستقيم هو هدى الله الموصل للخير يهدى به سبحانه مَنْ يشاء هدايته من عباده المستعدين لذلك كما فى الآية (٣٩) المتقدمة صفحة ١٦٨ ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهتدون المصطفون لبطل وسقط عنهم مع علو قدرهم ما كانوا يعملون من الصالحات، فكيف بغيرهم ممَنْ جمع بين الشرك وعدم مزية مما فى هؤلاء. أولئك الأنبياء هم الذين آتيناهم الكتاب. والمراد بإتيانه سبحانه لهم الكتاب إلهامهم الفهم الصحيح لما فيه، والتمكن من الإحاطة بدقائقه، سواء جمع لأحدهم مع ذلك إنزاله عليه، أو كان تلقاه عن غيره منهم، لأنه من المعلوم أنه لم ينزل على كل واحد منهم كتابًا، بل على قليل منهم فقط. وآتيناهم الحكمة والنبوة. فإن يكفر بهذه الثلاثة هؤلاء المشركون من أهل مكة، بأن لم ينتفعوا بها فقد وكلنا بأمر رعايتها والانتفاع بها قوما كراما هم أهل المدينة ومَنْ سلك سبيلهم ليسوا بهذه النعم كافرين، أى فليسوا مثل كفار مكة. أولئك الأنبياء الثمانية عشر المذكورون هم الذين هداهم الله إلى الحق، فبهداهم اقتد أيها النبى، أى سر على طريقتهم فى الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة، كالحلم والصبر والزهد وكثرة الشكر والتضرع، فيكون ﷺ جمع كل الفضائل التى تفرقت فيهم وقل أيها النبى لمَنْ بُعثت إليهم أولاً: لا أطلب منكم على هذا القرآن الذى أمرت أن أبلغه لكم أجرًا من مال ولا غيره.

ما هذا القرآن إلا تذكير وموعظة وإرشاد.

المفردات: ﴿وما قدروا الله﴾: أصل القدر معرفة المقدار، ثم استعمل فى معرفة الشىء على أتم وجه.

﴿قراطيس﴾: جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق وغيره. ﴿تبدونها﴾: تظهرونها ﴿ذرهم﴾: اتركهم ﴿فى خوضهم﴾: كلامهم الباطل.

﴿لما بين يديه﴾:

لِلْعَٰلَمِينَ(١) ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ(٢) ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ(٣) أَنزَلْنَٰهُ(٤) مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ(٥) فِى غَمَرَٰتِ(٦) ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ(٧) بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ

أى ما سبقه من الكتب. ﴿أم القرى﴾ : أى أهمها لأنها قبلة كل مسلم فى كل بلاد العالم. ولأن فيها أول بيت وضع للناس. ﴿عذاب الهون﴾ : هو الهوان الشديد.

المعنى : . ما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين عامة لا لكم خاصة حتى أطلب منكم أجرًا. وبعد ما قرر سبحانه أدلة التوحيد شرع فى تقرير إثبات إرساله رسلاً وإثبات اليوم الآخر فقال ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلخ، أى ما عرفوا الله حق المعرفة اللائقة به تعالى، حيث جهلوا من صفاته الحكمة والرحمة اللتين تقتضيان أن يرشد الخلق لما فيه سعادتهم ولا يتركهم فوضى كالبهائم، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، انظر الآية (١٥٧) من هذه السورة صفحة ١٩٠ والآية (١٧) من سورة هود صفحة ٢٨٦ والآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢، فما عرف هؤلاء المشركون ربهم حق المعرفة حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئا من الكتب مثل الذى يدعيه محمد، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ فمرادهم الطعن فى رسالته ﷺ بأسلوب فيه مبالغة، فرد سبحانه عليهم بقوله قل لهم أيها النبى مَنْ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى وهو التوراة؟ وقد كان العرب يعرفون ذلك كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ١٦٥، ولكنهم لما لجوا فى خصومتهم له ﷺ قالوا ما قالوا عنادًا وتجاهلاً لما كان يعرفه بعضهم.

أنزل الله كتاب موسى نورًا واضحًا فى نفسه، وهدى مرشدا للناس فى زمنه، تجعلونه وقرئ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون إلخ، والأمر عليها ظاهر؛ أما قراءة تجعلونه ففيها التفات من الغيبة للخطاب مع اليهود أنفسهم، وهذه القراءة نزل الإذن بها لما هاجر ﷺ إلى المدينة واشتدت فظاعة اليهود؛ أما قراءة الياء فكانت بمكة مع كل السورة. ومَنْ أراد معرفة تفصيل ذلك فليرجع إلى حديث البخارى فى كتابنا صفوة البخارى رقم ٤٢٧. والمراد أن هذا الكتاب

(١) للعالمين (٢) الكتاب (٣) كتاب (٤) أنزلناه
(٥) الظالمون (٦) غمرات (٧) والملائكة.

الذى نزل للهداية تلاعب به أصحاب الشهوات من أحبار اليهود فكتبوه فى أوراق متعددة يبدون منها ما لهم مصلحة فى إظهاره، ويخفون ما لهم مصلحة فى إخفائه، وكان هو الأكثر، وهذا يدل على أن مخالفتهم للتوراة الصحيحة كانت أكثر. ثم امتن سبحانه على المؤمنين بقوله: وعلمتم أيها المؤمنون بإتيان الله لكم هذا القرآن المبين لكل شىء ومنه ما خفى من جرائم المشركين واليهود ما لم تكونوا تعلمونه قبل ذلك. وبعدما سألهم هذا السؤال المفحم لقنه الجواب الوحيد الذى كان يجب أن ينطقوه فقال: قل لهم : الذى أنزل الكتاب على موسى هو الله، ثم اتركهم فى باطلهم يلعبون كالصبيان فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. وهذا القرآن كتاب أنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على موسى، كتاب باركه الله بمزايا كثيرة، منها بقاؤه إلى قيام الساعة، وامتيازه فى النظم والمعنى، ومصدق فى الجملة لما تقدمه من كتب الأنبياء فلا يقر إلا ما هو صحيح منها، ويرد ما حرفوه. أنزلناه إليك لتبشر المؤمنين وتنذر أهل مكة وما حولها من سائر بلاد العالم. والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من الجزاء فلابد أن يخافوا الله فيؤمنوا بهذا القرآن، أما منكرو البعث فلا يشعرون بالحاجة إليه. وهذا هو السبب فى أن مشركى العرب معرضون عنه، انظر الآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، يؤمنون ويحافظون على صلاتهم بأدائها على أتم وجه. وخصت الصلاة من بين أركان الإسلام لأنه لم يكن فرض عند نزول السورة غيرها.

ولما كان الناس بالنسبة لإرسال الله رسلا من البشر على ثلاثة أقسام :

قسم يؤمن وهم أتباع الرسل من كل أمة، وقسم ينكرها وهم مشركو الأمم السابقة كما تقدم فى هود ومشركى هذه الأمة، وقسم ثالث يقر بها لكنه يدعيها لنفسه كذبا. وقد أبطل سبحانه دعوى الفريق الثانى، وشرع هنا فى تهديد الفريق الثالث ومَنْ كان على شاكلته فى الكذب على الله وإدعاء القدرة على الإتيان بمثل القرآن فقال: ومَنْ أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممَنْ يكذب على الله كقوله : إن له شريكا أو ولدا، أو لم يرسل وحيا على بشر، أو يقول أوحى إلىَّ والحال أنه لم يوح إليه شىء كمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة، ومثله مَنْ قال سأنزل مثل ما أنزل الله كبعض مشركى مكة. انظر الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، ثم هدد سبحانه هذه الطوائف فقال: ولو ترى أيها السامع ما يحصل للظالمين وقت سكرات الموت والملائكة باسطو أيديهم قائلين لهم سلموا أرواحكم بلا إبطاء، اليوم تجزون عذاب الهوان الشديد. قال الفخر الرازى: الكلام كناية عن العنف والشدة فى إزهاق الروح وليس هناك قول لسان، والكل محتمل وإن كنا لا نرى شيئا، فقد يرى النائم شدائد ولا يشعر بها الجالس بجواره، والله أعلم بالغيب.

بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ(١) تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ(٢) كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ(٣) أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ(٤) وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟(٥) لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ(٦) سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ(٧) ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ(٨) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ(٩) فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ(١٠)

المفردات :. ﴿فرادى﴾ : أى أفرادا غير مجتمعين، والمراد ليس معكم أحد ممَّنْ تظنون أنه يشفع لكم، أو ينفعكم من الولد أو الوالد انظر الآية (٩٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٥. ﴿خـولناكم﴾ : أى أعطيناكم من الولد والمال وغيرهما.

﴿شفعاءكم﴾ : ما كانوا يعبدونه من دون الله ليشفعوا لهم.

﴿تقطع بينكم﴾ : فاعل تقطع مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل تقطع ما كان بينكم من روابط المودة انظر الآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿وضلّ عنكم﴾ : أى غاب وذهب. ﴿فالق الحب﴾ : أصل الفلق الشق. ﴿يخرج الحىّ من الميت﴾ : أى يخرج ما ينمو ويزيد من حيوان أو نبات أو شجر مما لا ينمو لو بقى على حاله. كالتراب والحب والنوى إذا ترك دون زرع، وكالنطفة إذا بقيت فى صلب الرجل. والجملة مستأنفة مبينة لكثير مما قبلها. ولذا لم تعطف.

---

(١) آياته
(٢) فرادى
(٣) خلقناكم
(٤) خولناكم
(٥) شركاء
(٦) الليل
(٧) ظلمات
(٨) الآيات
(٩) واحدة
(١٠) الآيات.

﴿ومخرج الميت من الحىّ﴾ : ذكر تتميمًا لكمال قدرته تعالى، أى كما أنه يخرج الحى من الميت مخرج الميت من الحى، ولذلك عطفها بالواو وإنما أتى أولاً بصيغة الفعل المضارع ﴿يخرج﴾ فقال ﴿يخرج﴾ الحى، وهنا قال ﴿مخرج﴾ بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أن صنع الله سبحانه فى إخراج الحى من الميت أظهر وأوضح فى بيان قدرته من إخراج الميت من الحى. وذلك أن الفعل المضارع يفيد الاستمرار والحركة، وهذا يجعله مستحضرا فى ذهن السامع، بخلاف الاسم أو الفعل الماضى، فكلاهما لا يفيد التجدد، ولا الاستحضار فى الذهن، ترى ذلك واضحا فى قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ الآية (٦٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٢، فانظر كيف قال فى إنزال المطر ﴿أنزل﴾ بصيغة الماضى، ولكن فى اخضرار الأرض الذى يحصل تدريجًا، قال ﴿تصبح﴾ بصيغة المضارع، ليتمكن السامع من استحضار الصورة البديعة فى أن صيرورتها تأتى تدريجًا، ولاشك أن إخراج الحىّ الذى تشاهده العيون مددًا كثيرة أبدع من إخراج الميت الذى ينتهى ويغيب عن الأعين والأذهان كما فى الآية (٦٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿فأنى﴾ : فكيف ﴿تؤفكون﴾ : تصرفون ﴿الإصباح﴾ : المراد بالإصباح هنا هو الغبش الذى يكون بين الفجر الكاذب، والفجر الصادق.

والفجر الكاذب هو الضوء الذى يظهر مستطيلا إلى السماء، أى الذى يقول عنه الفقهاء إنه «كذنب السّرْحَان» بكسر السين وسكون الراء، أى الذئب؛ ثم يضعف ويذهب، وعند ذلك يظهر الفجر الصادق، وهو الضوء المستعرض فى الأفق ثم يرتفع مع استعراضه هذا إلى أعلى شيئا فشيئا حتى تبزغ الشمس.

﴿الليل سكنا﴾ : أى وقت سكون وراحة للأجسام والعقول من عناء عمل النهار انظر آيات (٧١) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥١٧. ﴿حسبانا﴾ : أصله الحساب أطلقه عليهما مبالغة لدقة سيرهما حسب نظام الحساب المقرر لهما حتى كأنهما الحساب نفسه، ونظيره الآية (٥) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿فمستقر﴾ : أى مكان تستقرون فيه فوق سطح الأرض. ﴿ومستودع﴾ : فى القبور إلى وقت البعث... وقيل المستقر هو الرجل الذى تستقر

النطفة فيه، والمستودع المرأة التى يستودع الجنين فى رحمها، فكأنه قال خلقكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى.

المعنى : . يجازيكم الله بالعذاب بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق من أن له شريكا وأنه لا يوحى إلى أحد من البشر، وبسبب كونكم استكبرتم عن آياته فأعرضتم عنها ولم تفكروا فيها. ومما يهينهم به سبحانه أن يقول لهم يوم القيامة : ولقد جئتمونا للحساب منفردين عن الأنصار والشفعاء والأولاد والأموال وكل ما بعتم به آخرتكم من زخارف الدنيا، فأنتم اليوم على الهيئة التى ولدتم عليها فى التجرد من كل شىء حتى مما يستر العورة، وتركتم ما أعطيناكم فى الدنيا من زخارفها، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لله عز وجل يستحقون منكم معه سبحانه التعظيم والتقرب بالمال والنذر ليكونوا لكم شفعاء، فأين هم اليوم؟ ذهب كل هذا باطلاً، وتقطع ما كان بينكم من علاقات المودة والولاء، وغاب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء وتقديم الفداء.

انظر ما تقدم فى الآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤) من هذه السورة صفحة ١٦٥ وبعد ما بيَّن سبحانه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والبعث والرسالة، شرع فى ذكر بعض آياته الدالة على قدرته وعلمه وحكمته فقال:

إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحى كالحيوان والنبات من الميت كالتراب ومخرج الميت كاللبن والفضلات وغيرها من الحيوان.

ذلكم القادر العظيم هو الله فكيف يصرفكم الشيطان عن طاعته ومن آياته سبحانه أنه هو الذى يفلق غبش الصبح بإظهار ضوء الشمس فيذهب الغبش كما تذهب قشرة الحبة وتفنى، وجعل الليل وقت سكون وراحة من تعب عمل النهار وجعل الشمس والقمر يسيران بحساب دقيق للحكمة المبينة فى آيتى (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦، و (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ذلك كله تقدير العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء العليم بما فى ذلك من المصلحة.

وهو سبحانه الذى جعل ونظم لكم النجوم لتهتدوا بها فى السير فى ظلمات الليل فى البر والبحر. قد فصلنا الآيات والأدلة على وجود إله قادر لقوم يعلمون وينتفعون بها. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة، تقدم بيانها أول سورة النساء، وجعل منكم ذكرا وأنثى. قد فصلنا الآيات المبينة لتفاصيل خلق البشر وعظيم الحكم لقوم يفقهون.

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

المفردات : . ﴿فأخرجنا﴾ : لم يقل سبحانه ﴿فأخرج﴾ حتى يكون على نمط ﴿أنزل﴾ المذكور قبله بل حول الكلام من أسلوب الحديث عن الغائب إلى أسلوب المتكلم للفت نظر السامع إلى ما سيذكر بعد هذا الفعل من الصنع العجيب. وهذا الأسلوب يسميه علماء العربية ﴿التفاتا﴾ انظره فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٢٧) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿فأخرجنا منه﴾ : أى من النبات.

﴿خضرا﴾ : أى شيئا غضا أخضر.

﴿متراكبا﴾ أى بعضه فوق بعض.

﴿ومن النخل﴾ : خبر مقدم لمبتدأ مؤخر وهو ﴿قنوان﴾ الآتى . بيانه. و ﴿من طلعها﴾ : بدل من ﴿من النخل﴾ وهو بدل بعض من كل، مع إعادة حرف الجر كقول العرب يعجبنى من زيد من وجهه بشاشته.

﴿من طلعها﴾ : بيَّن اللغويون الطلع بأنه أول ما يظهر من ثمر النخل على هيئة كفين التقى أطراف أصابعهما من أعلى وآخرهما من أسفل مع تباعد يسير بين باطنيهما، ويسميه عامة المصريين (كوز النخل) ويكون فى وسطه الشماريخ التى تحمل البلح، وهو المسمى بالأكمام

(١) وجنات (٢) متشابه (٣) لآيات
(٤) وبنات (٥) سبحانه (٦) وتعالى
(٧) السموات (٨) صاحبة (٩) خالق
(١٠، ١١) الأبصار.

انظر الآية (١١) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩، وقد يطلق ويراد به الشماريخ نفسها التى بداخله كما هو ظاهر هنا وكما ذُكر فى الآية ١٠ من سورة ق صفحة ٦٨٩ وقد يطلق على غير ثمر النخل لقرب شبهه به انظر الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١ والمعنى ومن المخرج من طلع النخل قنوان إلخ. وإنما غيرَّ سبحانه الأسلوب، ولم يقل ومن النخل من طلعها قنوانًا حتى يكون متفقا مع سابقه ﴿خضرا﴾ ولاحقه ﴿جنات﴾ و ﴿الزيتون﴾ إلخ.

فعل ذلك سبحانه للفت النظر إلى ما فى النخل من جزيل الفائدة، وعجيب الصنع، حتى قال النبى ﷺ فى النخلة أنها تشبه المؤمن فى أن كل ما فيه نافع خصوصا عند أرباب النخيل.

﴿قنوان﴾ : جمع قِنو بكسر القاف وهو العود المحمل بالثمر فهو للثمر بمنزلة العنقود للعنب.

﴿دانية﴾ : قريبة سهلة التناول.

﴿وينعه﴾ : نضجه. ﴿الجن﴾ : يطلق لغة على كل مستتر عن العيون فيشمل الجن المعروف والملائكة الذين عبدوهم بإغراء شياطين الجن انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩ ﴿وخرقوا له﴾ : اختلقوا كذبا وباطلاً.

﴿يصفون﴾ : أى يفترون عليه سبحانه كذبا مزخرفا يحاولون به التمويه على البسطاء انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿بديع السموات.. إلخ﴾ : المراد بالبديع هنا هو الذى يوجد الشىء على مثال لم يسبق إليه.

﴿أنى يكون﴾ : كيف يكون.

﴿صاحبة﴾ : زوجة ﴿اللطيف﴾ : يطلق على ما دق عن الأنظار فلا تستطيع رؤيته، وعلى العليم بدقائق الأشياء، وعلى الذى يعامل غيره برفق ورحمة، انظر الآية (١٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

المعنى : . فصلنا الآيات لقوم يفقهون أى يعلمون دقائق الأشياء فيزدادون إيمانا. ومن نعمه وقدرته سبحانه أنه هو الذى أنزل من السحاب ماء فأخرج بسببه كل صنف من أصناف النبات المختلفة، ثم فصَّل ما أجمل فقال: فأخرجنا منه أى من هذا النبات أى حولناه إلى شىء كامل الخضرة، ونخرج من هذا الأخضر حبا منظما بعضه فوق بعض كسنابل القمح وغيرها. ثم شرع سبحانه فى تفصيل حال الشجر بعد الخضر فقال: ومن النخل من طلعها أى ومن طلع النخل قنوان قريبة من يد المتناول. وأخرج بالماء أيضا جنات مكنونة من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها أى بعضه يشبه بعضا فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال القدرة، وبعضه مختلف عن الآخر فى ذلك؛ انظروا أيها المخاطبون بعين الاعتبار إلى ثمر شجر الزيتون والرمان إذا أثمر وتدرج فى أحواله إلى أن يصل إلى نضجه. إن فى ذلك لأدلة عظيمة لقوم مستعدين للإيمان لسلامة فطرهم. وإنما اقتصر سبحانه على المذكور مَن الشجر لأنه هو المعروف عند العرب وقتئذ، وهم الذين نزل القرآن عليهم بلسانهم. ثم شرع سبحانه فى توبيخ مَنْ أشرك به مع وجود هذه الأدلة فقال: وجعلوا أى اعتقد الكفار أن لله شركاء من الملائكة، وقد عبدالمشركون الملائكة بسبب وسوسة الشياطين، انظر الآية (١٢١) الآتية من هذه السورة صفحة ١٨٢، وآيتى (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩؛ عبدوا الجن والحال أن هؤلاء المشركين يعلمون أن الله تعالى وحده هو الذى خلقهم ورزقهم لا هؤلاء الجن، فإنهم أيضا مخلوقون مثلهم، فكيف يجعلون مخلوقا مثلهم شريكا للخالق؟ وافترى الكفار أيضا على الله فجعلوا له بنين وبنات بغير علم منهم بما هو الخطأ والصواب وبلا فكر ولا روية، فقال اليهود: العزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، والعرب: الملائكة بنات الله، انظر آيات (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، ومن (١٤٩) إلى (١٥٨) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٥، ٥٩٦، ومن (١٦) إلى (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، و (٣٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٩؛ سبحانه وتعالى عما يفترونه عليه من أن له ولدًا أو شريكا. فهو بديع السموات والأرض فكيف يكون له ولد والحال أنه ليس له زوجة. وهو سبحانه الذى خلق كل شىء ومن جملة ذلك ما زعمتموه شريكا أو ولدا، ويعلم كل شىء ولو كان له ولد لعلم به. ذلكم الموصوف بصفات الكمال هو الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فيما مضى وما سيكون فاعبدوه وحده لأنه على كل شىء وكيل أى رقيب فهو مطلع على أعمالكم فاحذروا انتقامه. لا تدركه الأبصار فهو ليس كالمخلوقات، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف، فيستحيل على مخلوق الإحاطة به.

ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ[1] وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ[2] عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ[3] لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ[4] عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ[5] كَمَا لَمْ

المفردات : ﴿بصائر﴾ : جمع بصيرة وهى للقلب كالبصر للعين، والمراد بها هنا القرآن وما فيه من حجج واضحة.

﴿أبصر﴾ : أى تأمل بعين البصيرة، يقال أبصر الرجل إذا خرج من ظلمة الكفر والمعصية إلى بصيرة الإيمان والطاعة انظر الآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣.

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ : المراد لم يكلفنى ربى بحفظ أعمالكم وإحصائها.

﴿نصرف الآيات﴾ : أى ننوع الأدلة على وجوه شتى كما تقدم فى الآية (٤٦) من هذه الآية صفحة ١٦٩، انظر الآية (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠.

﴿درست﴾ : أصل معنى الدرس تكرار معالجة الفعل حتى يصل لغايته، يريدون أنك أخذت هذا القرآن عن غيرك من علماء أهل الكتاب انظر آيات (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، و (٤، ٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١.

---

(١) الآيات
(٢) جعلناك
(٣) أيمانهم
(٤) الآيات
(٥) وأبصارهم.

﴿عليهم بوكيل﴾ : ﴿على﴾ بمعنى عن انظر، مثلها فى ﴿على ملك سليمان﴾ آية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠.

﴿ولا تسبوا﴾ : المراد لا تقولوا كلاما خاليا من فائدة الإرشاد، لا تريدون به إلا مجرد التحضير كما سيأتى بيانه.

﴿الذين يدعون﴾ : المراد بالذين معبودات المشركين، وعَبّر عنهم بلفظ ﴿الذين﴾ الموضوع للذكور العقلاء، تغليبا للعقلاء من معبوداتهم كالملائكة عند العرب، والمسيح عند النصارى والعزير عند اليهود انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥؛ نقول تغليبا لهؤلاء على الأصنام، والتغليب فى كلام العرب كثير ومنه فى القرآن غير ما هنا ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ آية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

و ﴿يدعون﴾ أى يدعونهم لينفعوهم. ﴿من دون الله﴾ المراد معرضين عن الله. ﴿عدوا﴾ : أى بُعدا وتجاوزًا حدود الحق إلى الباطل.

﴿زينا لكل أمة.. إلخ﴾ : المراد أنهم لكثرة جرائمهم خلينا بينهم وبين تزيين الشياطين ولم نحفظهم من تسلطه عليهم ليزدادوا إثما فيزداد عذابهم، ونظير هذا قوله تعالى عن فرعون ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم﴾ آية (٤٠) من سورة القصص صفحة ٥١٢ فالمراد تركناهم ليغرقوا ولم ننقذهم انظر آية (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨. ﴿جهد أيمانهم﴾: المراد بالغين منتهى اجتهادهم فى تأكيد أيمانهم. ﴿آية﴾ : يريدون بها معجزة دالة على صدق الرسول. ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ : هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى ﴿لا يؤمنون﴾. والمعنى وما يشعركم أيضا أننا عند مجىء الآية التى يطلبونها نقلب قلوبهم بالهواجس والتأويلات الباطلة، والتفكير فى اختراع احتمالات يجادلون بها، ونقلب أبصارهم فى توهم خيالات كما هو شأنهم دائما من عدم الإذعان عند توارد الآيات عليهم من أول الأمر، كما هو شأن المبطل المعاند. فإنه لا يصغى إلى الدليل مهما كان واضحا انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

المعنى : . قل أيها النبى لهؤلاء المشركين المحرومين من هداية القرآن : قد جاءكم من خالقكم ومربيكم من الوحى ما هو كالبصائر للقلوب، فمَنْ أبصر الحق فنفع إبصاره عائد على نفسه، ومَنْ أعرض فلم يتدبر فعمى قلبه فوبال إعراضه على نفسه، وما أنا عليكم بحفيظ لأعمالكم، وإنما ذلك لله الذى يحفظها ويجازى عليها، وإنما أنا منذر فقط ومبلغ. ومثل هذا التنويع البديع فى الأدلة تنوع الآيات الدالة على المعانى الجليلة ليهتدى بها المستعدون للإيمان، وليُفْحَم هؤلاء المشركين فلا يجدون مخرجا إلا افتراء الكذب فيقولون عنادًا قد درست يا محمَّد وتعلمت من غيرك وليس هذا الذى تدعى نزوله عليك بوحى وإنما هو شىء تلقيته من أهل الكتاب.

فالمراد أن القرآن هو البودقة التى تظهر طبع ما يعرض عليها فينتفع بها سليم الطبع ويضل الفاسد كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ نصرف الآيات للسبب المتقدم ولنبين أسرار القرآن للذين رزقهم الله تعالى العلم الصحيح.

وبعد ما بيَّن سبحانه طوائف الناس بالنسبة للقرآن أمره ﷺ أن يتبع ما يوحى إليه فقال: اتبع ما أوحى إليك من ربك بالعمل به وبيانه للناس لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين فلا تبال بافترائهم عليك، فإن العاقبة لك وللمتقين. ثم أراد سبحانه تسلية رسوله فقال:

ولو شاء الله عدم إشراكهم بأن خلقهم مجبورين على الإيمان كالملائكة ما أشركوا، ولكنه خلقهم مختارين كما تقدم فى الآية (٣٩) صفحة ١٦٨ توضيح ذلك، وما جعلناك أيها النبى عليهم حفيظا أى رقيبا تحفظ عليهم أعمالهم، وما أنت عليهم بوكيل من جهتهم تجلب لهم ما ينفع وتدفع ما يضر ولما كان المؤمنون فى مكة قلة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها وسط طغيان كفار قريش، أمرهم الله بالحيطة فى مجادلة الكفار ولما قال كفار قريش : يا محمَّد إن لم تنته عن سب آلهتنا لنسبن مَنْ تزعم أنه أرسلك إلينا، فنزل قوله تعالى:

﴿ولا تسبوا.. إلخ﴾ أى ولا تشتموا آلهتهم ولا تذكروهم بقبيح لمجرد التشهير فقط فيحملهم ذلك على سب الله سبحانه بغير علم منهم أنهم يسبون الله متجاوزين حدود اللائق

بإلهه الذى يؤمنون به وبأنه خالقهم انظر آيات (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، وأن آلهتهم تشفع لهم عنده انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، وأنها تقربهم إليه سبحانه انظر الآية ٣ من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. رب قائل يقول: كيف ينهانا سبحانه عن ذلك وقد جاء فى القرآن وصف آلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع، وأنها حطب جهنم انظر الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وأنها لا تستطيع خلق ذبابة وإن يسلبهم الذباب شيئا فلا يستطيعون رده انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، نقول إن ما جاء فى القرآن مما ذكر لا يقال له فى العرف إنه سب، لأن السب هو الشتم الذى يقصد به مجرد الإهانة والتحقير، كأن يقول الرجل لآخر أنت ومعبودك تحت حذائى مثلا من كل كلام خلا من وجه الدلالة على الخطأ والإرشاد إلى الصواب أما ما ذكر فى القرآن عن معبوداتهم فإنما المقصود به بيان الحقيقة، والتنفير من الخرافات الباطلة التى لا تستند إلى حجة. ومما يدل على ذلك أن من معبودات بعض قبائل العرب الملائكة انظر الآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، ولا يمكن أن القرآن يتعرض للملائكة بسب. كذلك أى مثل هذا التزيين الذى حمل المشركين على ما ذكر غضبا لآلهتهم زينا لكل أمة عملهم من إيمان وكفر وخير وشر تبعا لاستعدادهم، فنسهل لكل ما يقتضيه طبعه كما فى آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ثم فى النهاية يكون مرجعهم إلى ربهم يوم القيامة فينبئهم بما كانوا يعملون ويجازيهم عليه. وأقسم بالله أولئك المشركون جهد أيمانهم مبالغة منهم فى التضليل لتغرير الضعفاء لئن جاءتهم آيه أى معجزة مما اقترحوه من تفجير الأرض ينابيع وإنشاء جنات .. إلخ انظر الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧ ليؤمنن بدين محمَّد بسبب هذه الاية، قل أيها الرسول لهم: إنما الآيات عند الله، فهو وحده القادر عليها، والمتصرف فيها بحكمته. ولما كان النبى ﷺ وكثير من المؤمنين يتمنون أن يجاب طلب هؤلاء الكفار كما تقدم فى الآية (٧) وما بعدها من هذه السورة صفحة ١٦٣، قال لهم سبحانه:

وما يشعركم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت كما يطلبون لا يؤمنون. وقد تقدم أيضا أول هذه السورة ما كان سيحصل منهم لو أجيبوا، وما يشعركم أننا نقلب أفئدتهم عند مجىء الآيات بالخواطر والتأويلات والاحتمالات، ونقلب أبصارهم فى توهم التخيلات فيكونون على حالهم عندما رفضوا الإيمان بالقرآن، انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

المـفـردات : . ﴿ونذرهم﴾ : ونتـركـهـم. ﴿يعـمـهـون﴾ : يتـرددون من شـدة الحـيـرة ﴿وحشـرنا عليهم كل شيء﴾: المـراد جـمـعناه وعـرضناه عليهم ﴿قبلا﴾ : جمع قبيل بمعنى صنف ونوع وهـو منصـوب علـى أنه حـال من ﴿كل شيء﴾ والمعنى عرضناه عليهم حال كونه صنفا بعد صنف إلخ.

﴿عدوا﴾ : العدو ضد الصديق يطلق على المـفـرد والجـمع والذكـر والأنثى، انظر آية (٥٠) من سـورة الكهف صـفـحـة ٣٨٨ والآية (٧٧) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٤، ٤٨٥؛ ﴿شياطين﴾ : الشيطان اسم لكل متمرد شرير من الإنس والجن. ﴿يوحى﴾ : الإيحاء الإعلام فى خفاء. ﴿زخرف القول﴾ : القول المزخرف فى الظاهر الفاسد الباطن. ﴿ولتصغى﴾ : أى تميل. ﴿وليقترفوا﴾ : أى يرتكبوا من الإثم. ﴿الممترين﴾ : أى الشاكين.

﴿تمت﴾ : أى أنها ستتحقق قطعا حتى كأنها تمت الآن فعلا إنما قلنا ذلك لأن السورة مكية ولم يكن وقتها حرب ولا نصر فهى بشرى له ﷺ وتطمين ﴿كلمة ربك﴾: المراد بها الجملة التى وعد فيها نبيه بالنصر، انظر آيات (٤٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، و (٤٧) من سورة

(١) طغيانهم
(٢) الملائكة
(٣) شياطين
(٤) الكتاب
(٥) آتيناهم
(٦) الكتاب
(٧) كلمة
(٨) لكلماته.

الروم صفحة ٥٣٧، و (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤، و (٣٠) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨؛ ﴿صدقًا وعدلاً﴾ : مصدران منصوبان على الحال من ﴿ربك﴾ أى حال كون ربك أيها النبى صادقا فى وعده لك بالنصر وتوعده لعدوك بالخذلان وعادلا فى حكمه فلا يسوى بين المؤمن والفاسق انظر آية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧، ويصح أن يكونا حالا من ﴿كلمة﴾ كما سيأتى فى شرح المعنى.

المعنى : . كحالهم أول الأمر وهم كفار، ونتركهم بعد ذلك فى طغيانهم ومجاوزتهم الحد يتحيرون هل هو حق أم سحر، ثم يغلب عليهم الطبع فيقولون أنه سحر، فيحرمون من الانتفاع به، انظر الآيات من (١٨ إلى ٢٥) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، ثم بيَّن سبحانه ما أشعر قوله ﴿وما يشعركم﴾ إلخ، من أنهم كاذبون فى إيمانهم فقال: ولو أننا نزلنا الملائكة فرأوهم المرة بعد المرة بأعينهم وسمعوا شهادتهم لك أيها النبى بالرسالة كما اقترحوا فى الآيات (٧) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، و (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، وكلمهم الموتى منهم بأننا أحييناهم لنقيم الدليل على صدق ما جئت به من أن الميت سيبعث كما اقترحوا فى الآية (٣٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨، والآية (٢٥) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، وجمعنا لهم كل شيء من الآيات وعرضنا عليهم ما طلبوه ومالم يطلبوه قبيلا بعد قبيل وصنفا بعد صنف، ما كانوا ليؤمنوا لأنهم لا ينظرون إلى الأدلة نظر اعتبار، وإنما ينظرون إليها نظر ريبة وحذر، فأقل هاجس يصرفهم عنها إلى ما تعودوا ووجدوا عليه آباءهم إلا أن يشاء الله إيمانهم قهرا كما تقدم فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨ . هذا فى الحقيقة حالهم، ولكن أكثر المؤمنين الذين يتمنون إجابة طلبهم بإنزال ما اقترحوا يجهلون هذه الحقيقة. ثم شرع سبحانه فى تسلية رسوله ﷺ ببيان أن هذا هو شأن الكفار فى كل أمة مع كل نبى فقال: وكذلك جعلنا أى كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبى قبلك أعداء هم شياطين الإنس والجن، يتمردون ويتكبرون عن قبول الحق، يوسوس بعضهم إلى بعض القول المزيف لأجل التغرير بالبسطاء، انظر تزيين إبليس لآدم فى آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤.

ولو شاء ربك عدم الإيحاء ما فعلوه، ولكنه لم يشأ أن يغير نظام الدنيا كما تقدم فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨. وإذا كان الأمر كذلك فذرهم أيها النبى وما يفترون ويكذبون من الكيد لك ليصرفوا الناس عنك، يوحى بعضهم إلى بعض القول الباطل ليغروا البسطاء، ولتصغى إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقته لأهوائهم، وليرضوه من غير بحث عن صحته، وليقترفوا بسببه ما هم مقترفون من المعاصى. وبعد كل هذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم مبكتا: أفغير الله، أى أيصح أن أعدل عن الحق فأطلب حكما غير الله يحكم بينى وبينكم، ويبين المحق منا من المبطل، والحال أنه سبحانه هو الذى أنزل إليكم القرآن مفصلا فيه كل ما يحتاج إليه المكلف فلا حاجة لحكم غيره. ثم بيَّن سبحانه أحقية الكتاب بأن يكون حكما بشهادة علماء لهم خبرة بالكتب السماوية فقال: والذين آتيناهم الكتاب وهم اليهود والنصارى يعلمون أن القرآن منزل من ربك مقترنا بالحق فليرجع إليهم الشاكون، وعلماء أهل الكتاب يقر بعضهم بلسانه بهذا الحق، وبعضهم بقلبه ويعاند حسدا كما فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨. فلا كونن أيها السامع بعد ذلك من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعرفون ذلك. ثم طمأن سبحانه نبيه بقوله: وتمت أى تحققت كلمة ربك التى وعدك فيها بالنصر حال كونها صادقة عادلة فى حكمها لا يستطيع أحد أن يبدل ويغير وعد ربك فلابد من تحققها وهو السميع لكل ما زخرفوا به وضللوا، انظر كلمات الله تعالى فى وعد أنبيائه فى آيتى (٩٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، و (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

المفردات : . ﴿إن يتبعون﴾ : إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ أى ما يتبعون.

وكذلك يقال فى ﴿إن﴾ فى ﴿إن هم إلا ... إلخ﴾ أى ماهم متبعون شيئا إلا الظن.. إلخ.

﴿يخرصون﴾ : الخرص بفتح فسكون قول الشخص غير المتيقن لما يقول، فهو التخمين الذى لا سند له. ﴿ومالكم ألا تأكلوا﴾ : ﴿ما﴾ اسم استفهام مشرب معنى التنفير من عدم الأكل، يقول العربى: مالك يافلان ألا تفعل كذا، يريد أى شىء ثبت لك من الفائدة فى عدم فعل كذا. والمعنى المراد هنا.. أى فائدة لكم فى عدم الأكل مما ذكر اسم الله عليه. والمراد لا فائدة لكم فى عدم الأكل منه مطلقا. ﴿وذروا﴾ : أى واتركوا.

ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ[1] مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ[2] ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ[3] لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ[4] ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

(١) بآياته (٢) ظاهر (٣) الشياطين (٤) ليجادلوكم

﴿ظاهر الإثم﴾ : هو الذى يفعل علنا.

﴿وباطنه﴾ : هو أفعال القلوب كالحسد ونية السوء، انظر الآية (٥١) من هذه السورة صفحة ١٨٩. ﴿يقترفون﴾ : أى يرتكبون من الذنب.

المعنى : . وهو العليم بمقاصدهم وسيجازيهم عليها. ثم أراد سبحانه أن يبين لنبيه أن أهل الضلال هم الكثرة فى كل الأمم ليطمئن ولا يجزع فقال: وإن تطع أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين أكثر مَنْ فى الأرض المراد وإن تطع ولو واحدًا من هذه الكثرة الغالبة بأن تخالف ما شرعه الله لك يضلوك عن سبيل الله لأنهم ضالون متبعون وسوسة الشيطان فلذلك لا يؤمنون أبدا. انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٣١٨ فما يتبع هؤلاء الكثيرون إلا الظن الباطل، والظن لا يغنى من الحق شيئا، وماهم إلا يكذبون فيما يقولون بلا سند ولو كانوا مخلصين لبحثوا. إن ربك وحده هو أعلم بمَنْ يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. فاتبع أوامره ولا تطع الكثرة المبطلة. ثم رتب سبحانه على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحريم الحلال وتحليل الحرام بيان بعض ذلك فقال: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه دون غيره مما سيأتى بيانه بعد آيتين إن كنتم بآياته المبينة للحق مؤمنين. وما لكم ألا تأكلوا إلخ أى لا فائدة لكم فى ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، بل فيه ضرر عليكم حيث حرمتم ما أحل الله طاعة لوسوسة الشياطين كما سيأتى فى الآية التالية، والحال أنه سبحانه قد فصل وبيَّن لكم ما حرم عليكم فى الآية (١٤٥) الآتية من هذه السورة صفحتى ١٨٧، ١٨٨، والآية (١١٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٢، وليس منه ما ذكر اسم الله عليه. حرم عليكم ما سيأتى بيانه إلا ما دعتكم إليه ضرورة كما تقدم تفصيل ذلك فى أول سورة المائدة. وإن كثيرا من الناس ليضلون غيرهم بتحسين المعاصى بأهوائهم وشهواتهم بغير علم مأخوذ من وحى صادق.

إن ربك وحده هو أعلم منك ومن جميع الخلق بالمعتدين الذين تجاوزوا ما أحله الله إلى ما

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ(١) وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ(٢) لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ(٣) مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ(٤) مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ(٥) ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ(٦) رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ

حرمه. واتركوا أيها المؤمنون الإثم الظاهر والباطن ومنه الحسد والكبر؛ إن الذين يكسبون الإثم ظاهرا أو باطنا سيلقون جزاء معصيتهم التى كانوا مستمرين عليها. ثم صرح بما فهم ضمنا مما تقدم فقال: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح والحال أنه فسق، لأنه أهل لغير الله به كما صرح بذلك فى الآية (١٤٥) الآتية صفحتى ١٨٧، ١٨٨، وإن الشياطين من الإنس والجن ليوحون إلى أوليائهم من المشركين زخرف القول من الشبهات ليجادلوكم به تلقينا عنهم. قال عكرمة أوحى بعض مجوس الفرس إلى صناديد مشركى قريش أن يقولوا للنبى ﷺ إنك تزعم أنك تتبع أمر الله فلماذا لا تأكل مما ذبحه الله وتأكل مما يذبحه البشر؟ ويريدون بما ذبحه الله الميتة. وإن أطعتموهم واستحللتم أكل الميتة وبالأولى ما أهل لغير الله إنكم لمشركون مثلهم.

المفردات : . ﴿أو مَنْ كان ميتا.. إلخ﴾ الهمزة للاستفهام المفيد للنفى داخلة على جملة مقدرة فى الكلام معلومة من السياق، تحتوى على مشبه ومشبه به، كالجملة المذكورة بعدها، و ﴿مَنْ كان ميتا﴾ جملة مركبة من مبتدأ وهو ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، وخبر وهو قوله ﴿كمَنْ مثله فى الظلمات... إلخ﴾ وهذه الجملة الثانية معطوفة بالواو على الجملة المقدرة، وتقدير الكلام هل أنتم أيها المؤمنون كأولياء الشياطين الذين يجادلونكم بباطل من القول مزخرف يوحيه إليهم شياطينهم، والمراد لا يمكن أن تكونوا مثلهم أبدًا انظر ذلك واضحًا فى الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ ثم جاء بالدليل على صدق مضمون الجملة الأولى فقال: كما لا يستوى مَنْ كان ميتا بالكفر فأحياه الله بالإيمان.. إلخ بمَنْ مثله فى الظلمات.. إلخ أى لا يمكن أن يكونا متساويين.

﴿ميتا﴾: قال ابن عباس : المراد بالميت هنا الكافر الضال، لأنه كالميت لا يستطيع عمل

(١) فأحييناه (٢) الظلمات (٣) للكافرين (٤) أكابر (٥) للإسلام (٦) صراط.

خير لنفسه. ﴿فأحييناه﴾: المراد أنقذناه من الكفر بالإيمان الذى هو حياة للقلوب. ﴿نورًا﴾ : أى قرآنا ينير الطريق المستقيم. انظر الآية (٨) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦. ﴿يمشى به فى الناس﴾ : أى يمشى بسببه بين الناس آمنا من جهنم.

﴿مَثَله﴾ : أى صفته العجيبة، وهو مبتدأ خبره قوله ﴿فى الظلمات﴾ والمعنى كمَنْ صفته أنه تائه فى الظلمات إلخ. ﴿فى الظلمات﴾ : المراد بها هنا الكفر والضلال. ﴿جعلنا﴾ : أى صيرنا. ﴿فى كل قرية﴾ : أى من القرى التى عتت عن أمر ربها وأردنا إراحة الخلق من إفسادها انظر آيتى (٨، ٩) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠، والقرية هنا هى المدينة الجامعة لكثير من الناس يقيم فيها أرباب النفوذ وأولو الأمر انظر الآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦.

﴿أكابر﴾ : قال ابن جرير : أكابر جمع كبير، يقول العربى الأكابر والأصاغر، والأكابر هم أرباب النفوذ المسموعو الكلمة وهى مفعول ثان لجعلنا، والمفعول الأول هو ﴿مجرميها﴾ أى صيرنا فى كل قرية مجرميها هم أكابرها، والمجرم هو كل مَنْ يفعل ما فيه إفساد فى الأرض وإضرار بالخلق. ﴿صغار عند الله﴾ : أى ذل وهوان. ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ : لاستحقاقه الهداية انظر الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ : المراد يسهله وينشطه له، لأنه يشعر فى قلبه نورًا يقوده إلى السلامة، قال تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ الآية (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ وقال تعالى ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾ الآية ٧ من سورة الحجرات صفحة ٦٨٥. قال ابن جرير: سأل جماعة النبى ﷺ وكيف يشرح الله صدر الرجل للإسلام؟ فقال: نور يقذفه فيه ينشرح له صدره وينفسح، قالوا: فهل لذلك إمارة يعرف بها؟ قال ﷺ: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقائه.. ﴿ومَنْ يرد أن يضله﴾: لاستحقاقه الإضلال انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧.

﴿ضيقًا﴾ : أى لا يتسع لشىء من الهدى، ولا يصل إليه شىء من الإيمان. ﴿حرجا﴾ : قال صاحب المنار : أصله مصدر لفعل ﴿حرج﴾ بوزن تعب، يقال حرج الرجل حرجا إذا اشتد به

الضيق، وأريد بالمصدر هنا اسم الفاعل، أى شديد الضيق، فهو تأكيد لما قبله. ﴿يَصَّعَّد﴾ : أصله يتصعد، أى يتكلف الصعود ويحاوله بمشقة، قال صاحب الأساس: يقول العربى صَعِد فلان السلّمَ، وصعد إلى السطح، وصعد فى السلم وفى السماء، وتَصَعَّد فى الجبل وتصاعد، أى تكلف الصعود. ﴿فى السماء﴾ : قال الراغب : سماء كل شيء أعلاه، انظر الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، المراد يصعد إلى جهة أعلى منه. ﴿الرجس﴾ : المراد به هنا العذاب بالخذلان فى الدنيا، ونار جهنم فى الآخرة، انظر الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥.

المعنى : . وبعد ما بيّن سبحانه أن المؤمن على هدى والكافر فى ضلال، ضرب مثلا يبين الفرق بين المؤمنين المهتدين، والكافرين الضالين، لينفر المؤمنين من طاعة الكافرين، ويحذرهم من غوايتهم، ويبين لهم أيضا أن سبب ضلال الكافرين تزيين الشياطين لهم ذلك حتى أصبحوا لا يميزون بين النور والظلمة فقال: ﴿أو مَنْ كان ميتا... إلخ﴾ أى هل أنتم أيها المؤمنون كأولياء الشياطين؟ كلا، كما أنه لا يستوى مَنْ كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نورًا يعيش بضوء هدايته. والمراد أنه أحاطت به ظلمات الجهل والتقليد وفساد الفطرة حتى أمسى لا يستطيع الخروج منها، أى لا يمكن أن تكونوا مثلهم، كما لا يمكن أن يكون السائر فى النور كالخابط فى الظلمات. كذلك، أى مثل هذا التزيين الذى تضمنه المثل السابق، وهو تزيين نور الهداية لمَنْ أحياه الله بالإيمان وتزيين ظلمات الكفر لموتى القلوب، مثل هذا التزيين زين للذين كفروا من قريش ما كانوا يعملون من الجرائم، والمزين لهم هذا هو الشيطان، انظر آية (٤٣) المتقدمة من هذه السورة صفحة ١٦٨ وآية (٣٩) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١؛ أما المؤمنون فالمزين لهم بالإيمان هو الله تعالى انظر الآية (٧) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٥، واكتفى بذكر المشركين فى التزيين الأخير دون المؤمنين لأن المقام فى بيان جرائمهم.

﴿وكذلك جعلنا فى كل قرية.. إلخ﴾ أى كما جعلنا فى مكة مجرميها هم أكابرها وأصحاب الكلمة فيها جعلنا فى كل قرية من قرى الأمم السابقة التى أردنا إهلاكها أكابرها مجرميها ليمكروا فيها والمراد تسليته ﷺ لئلا يحزن على هلاك قومه بمحاربتهم له، وما يعود ضرر مكرهم فى الآخرة بالعذاب وفى الدنيا بالخزى إلا عليهم انظر آيات (٥٠ إلى ٥٣) من سورة

النمل صفحة ٥٠٠، وانظر الآية (٤٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ ومن جرائم مشركى مكة أنهم إذا جاءتهم آية دالة على صدقه ﷺ قالوا لن نؤمن بما تقول يا محمَّد حتى يوحى الله إلينا، ويأتينا جبريل كما يأتى الرسل انظر آية (٥٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٨، فرد الله عليهم بقوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾أى هو وحده سبحانه الذى يعلم الشخص الذى يصح أن يكون محلا لرسالته لمزايا فيه وليست فى واحد منكم غير محمَّد. ثم توعدهم بأن عاقبة مكرهم ستكون عليهم فقال:

سيصيب الذى أجرموا صغار عند الله ومهانة وعذاب شديد بسبب دوام مكرهم انظر الآية (٢٦) من سورة الزمر صفحة ٦١٠، والآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢ فمَنْ يرد الله أن يهديه لاستحقاقه الهداية انظر الآية (٤٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، فإنه سبحانه يمنحه من ثمرات الهداية شرح صدره للإسلام. وهذا من زيادة الهداية المشار إليها فى الآيات (١٧) من سورة محمّد صفحة ٦٧٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨ من سورة النساء صفحتى ١١١، ١١٢. فهدايته تعالى للعبد هى إمداده لما فى استعداده وتيسيره له انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ومَنْ يرد أن يضله لاستحقاقه الإضلال يجعل صدره ضيقا شديد الضيق لا يتسع لقبول شيء جديد عليه، مخالف لما غرق فيه من تقليد الآباء، أو حب الرياسة، فيرى نفسه أولى بالرياسة ممَنْ يرشده إلى الصواب، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ويكون استثقاله لإجابة الدعوة، وشعوره بالنفور منها كشعوره بالعجز عن الصعود بجسمه فى جو السماء، قال ابن جرير : هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر فى شدة ضيقه عن وصول الإيمان كمثل امتناعه عن صعود السماء والمراد أن الكافر المعاند العاجز عن التغلب على خصمه يجد صدره شديد الضيق لايتسع للحق لأنه يزلزل كبرياءه، ولا يستطيع الخلاص من خصمه لأنه فوق طاقته انظر الآية (٣١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٧، ٤٣٨ كذلك أى كجعل الصدر ضيقا يجعل الرجس على الذين لا يؤمنون.

ثم وجه سبحانه الخطاب له ﷺ فقال: وهذا أى ما فى القرآن من الأحكام هو الطريق الموصل لرضا ربك، حال كونه مستقيما لا عوج فيه.

قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ
السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ
الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا
بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ
خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾
وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا
عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ

المفردات : ﴿دار السلام﴾ : هى الجنة لأنها دار أمان من كل مكروه.

﴿يا معشر﴾ : المعشر الجماعة المختلطون فى العشرة، المراد هنا الأشرار من الجن.

﴿مثواكم﴾ : أى محل إقامتكم.

﴿إلا ما شاء الله﴾ : المراد خالدين فى النار الملتهبة التى وقودها الناس والحجارة فى جميع الأزمنة إلا فى وقت خروجهم منها إلى الزمهرير التى تقطع شدة برودته أوصالهم، وخروجهم إلى الحميم إذا اشتد بهم العطش انظر آيتى (٤٣، ٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ فالآيتان تدلان أن الكفار يترددون بين جهنم والحميم.

﴿رسل منكم﴾ : المراد من جملتكم، لأن الرسل كلهم من الإنس انظر الآيات من (٢٩) إلى (٣٢) صفحتى ٦٧٠، ٦٧١.

المعنى : قد بينا الآيات ونوعناها حسب استعداد كل الطوائف لينتفع الذين يتذكرون ويعتبرون فتكون لهم دار السلام فى كفالة ربهم، وهو سبحانه وليهم، أى محبهم وناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة. وبعدما توعد سبحانه الكافرين ووعد المؤمنين بدار السلام شرع يبين ما سيكون قبل ذلك الجزاء من الحشر والحساب وإقامة الحجة فقال: ويوم يحشرهم أى واذكر أيها النبى لأمتك ما سيكون من حشر الثقلين الإنس والجن عندما نقول لأشرار الجن

(١) الآيات (٢) السلام (٣) يا معشر (٤) مثواكم (٥) خالدين (٦) الظالمين
(٧) يا معشر (٨) آياتى (٩) الحياة (١٠) كافرين (١١) غافلون (١٢) درجات

قد استكثرتم من إغواء الإنس كما فى الآية (٦٢) من سورة يس صفحة ٥٨٤، وقال مَنْ والى الشياطين من الإنس يا ربنا استمتع بعضنا ببعض، أى استمتع الجن بالإنس حيث جعلوا أنفسهم قادة لهم وأخضعوهم لأوامرهم، فاستمتع الجن بنشوة الرياسة، واستمتع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وزينوا لهم حظوظهم النفسية، وبلغنا أى وصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذى حددته لنا وهو يوم القيامة، وقد اعترفنا بذنوبنا، والمراد إظهار الحسرة والندامة، ولم يذكر هنا رد الشياطين على الإنس اكتفاء بذكره فى الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، وكان رده سبحانه عليهم أنه قال: النار هى محل إقامتكم فادخلوها خالدين لا تخرجون إلا لحظات إلى حميم يشوى الوجوه، إن ربك حكيم فى الثواب والعقاب لا يضع كلا منهما إلا فى محله عليم بالمستحق لهما. ومثل استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض فى الدنيا لما بينهم من التناسب نولى بعض الظالمين بعضا، أى نجعل بينهم موالاة بسبب ما كانوا يكسبون من الشرور الجامعة بينهما أى فالطيور على أشكالها تقع، انظر الآية (٦٧) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢، والآية (٧١) من نفس السورة صفحة ٢٥٣ ويوم القيامة يقول لهم يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم فى الدنيا رسل من قبلى اخترتهم من جملتكم، يقصون عليكم آياتى التى أوحيتها إليهم، ويحذرونكم شدائد لقاء يومكم هذا، وقالوا مرغمين شهدنا على أنفسنا بأن الرسل جاءونا وقصوا الآيات وأنذرونا وقابلناهم بالتكذيب. ثم بين سبحانه ما دعاهم فى الدنيا إلى هذا الموقف فقال تعالى: وغرتهم الحياة الدنيا بزخارفها، وشهدوا اليوم على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك الذى تقدم من إرسال الرسل إلخ ثابت بسبب أن من شأن ربك أيها النبى أنه لم يكن يهلك أهل القرى بظلم يقع منهم والحال أنهم غافلون أى لا يعلمون ما يجب عليهم، بل لابد أن يبلغهم ذلك رسول أو تابع رسول كالعلماء كما فى آية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، فتنقطع معاذيرهم فلا يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ كما فى الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٣. ولكل من المكلفين من الإنس والجن درجات ومراتب فى الثواب، انظر الآيات من (١٠ إلى ١٤) من سورة الواقعة صفحات ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥.

مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿بمعجزين﴾.. الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها و ﴿معجزين﴾ أى موقعين الله سبحانه فى العجز حتى تفلتوا من عقابه انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١ .

﴿على مكانتكم﴾.. تدور مادة مكان ومكانة فى اللغة على معنى التمكن، والإحساس بالثبات والقوة يقول العرب: مَكُن فلان بفتح الميم والكاف مكانة فهو مكين إذا تمكنَّ أبلغ تمكن، قال الزجّاج ﴿مكانتكم﴾.. أى تمكينكم فى الدنيا. ومنه قول العرب:

إن بنى فلان ذوو مَكِنَة من القوة بفتح الميم والنون بينهما كاف مكسورة يريدون أنهم أصحاب تمكن وحاصل المعنى تهديدهم بأن يعملوا إلى آخر ما فى طاقتهم وأقصى ما يمكنهم فلن يصلوا إلى ما يريدون. ﴿عاقبة الدار﴾.. أى العاقبة الحسنى لدار الدنيا، وهذه العاقبة هى الجنة ونعيمها. ﴿ذرأ﴾.. أى خلق وكثّر انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. ﴿من الحرث﴾.. أى الزرع. ﴿الأنعام﴾.. الإبل والبقر والغنم. ﴿لشركائنا﴾.. المراد المعبودات التى جعلناها شركاء لله نتقرب إليهم بالنذور، والقربات، ليكونوا وسيلتنا عند الله بالشفاعة ليقربونا إليه انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿ساء﴾..

(١) بغافل
(٢) لآت
(٣) يا قوم
(٤) عاقبة
(٥) الظالمون
(٦) والأنعام
(٧) أولادهم.

قبح. ﴿ليردوهم﴾.. يوقعوهم فى الردى وهو الهلاك. ﴿وليلبسوا عليهم﴾.. أى وليخلطوا عليهم. ﴿دينهم﴾.. المراد به ما بقى لديهم من دين إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿فذرهم﴾.. أى اتركهم.

المعنى : . لكل عامل منزلة بقدر عمله تتفاوت بتفاوته، وما ربك بغافل عما يعمل كل عامل، فلا يخطئ فى تقدير الجزاء وربك هو الغنى فليس محتاجا إلى العباد ولا إلى عبادتهم وإنما هى لمصلحتهم، صاحب الرحمة الواسعة ومنها تكليفهم بما فيه مصلحتهم، فإرسال الرسل ليس لنفعه سبحانه بل هو رحمة للناس. إن يشأ يذهبكم أيها العصاة أو الناس جميعا بالهلاك لأن النقمة تعم كما فى الآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، ويستخلف فى الأرض من بعد إهلاككم ما يشاء من الخلق مؤمنين، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لم يكونوا عصاة مثلكم وهو المؤمنون، وهم الذين كانوا مع نوح فى السفينة. إن الذى توعدون به من البعث والحساب وتفاوت الجزاء لواقع كما فى الآيات (٥، ٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢، و (٧، ٨) من سورة الطور صفحة ٦٩٧؛ ولستم معجزين القادر القاهر فيما يريد. وقل لهم أيها النبى لتشديد التهديد: يا قوم اعملوا ما فى استطاعتكم إنى عامل وثابت على إسلامى، فسوف تعلمون الفريق الذى تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله لها هذه الدار الدنيا لتكون وسيلة إليها بما فيها من العمل الصالح لأن الشأن فى عدل الله عز وجل ألا يسوى بين الكافر والمؤمن وبعد هذه المحاجة شرع سبحانه فى بيان بعض أعمالهم التى أشركوا بسببها فى الحرث والأنعام وقتل الأولاد طاعة لشياطينهم إلى غير ذلك:

﴿وجعلوا لله مما ذرأ..﴾ إلخ؛ وبيانه أن مشركى قريش كانوا يعينون جزءًا من ثمرات الزرع ونتاج الأنعام لله يصرفونها للضيفان والمساكين، وجزءا منها لآلهتهم ينفقونه لخدامها ويذبحونه عندها، فإذا زاد ما جعلوه لله عن المعتاد جعلوا ما زاد للآلهة، وإذا زاد ما للآلهة تركوه لخدامها قائلين إن الله غنى ليس فى حاجة لشيء من نصيب الآلهة. فأصل نظم الكلام كما يفهم من السياق وجعلوا لله إلخ، ولشركائهم أيضا نصيبا وإنما لم يذكر نصيب الشركاء لأنه أمر محقق عندهم واكتفى بالإشارة إليه فى قوله:

فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فشركاؤهم هى الأصنام لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم، فما عينوه لشركائهم لا يصرف منه شىء فى الوجوه التى يصرف فيها ما عينوه لله، وما كان لله يصرف لآلهتهم، ساء ما يحكمون من ترجيح مخلوق عاجز على خالق قادر. فاحذر أيها المؤمن أن تتسرب هذه الشناعة إليك من حيث لا تشعر. ومثل تزيين الشرك فى قسمة الحرث والأنعام زين لكثير من مشركى العرب شركاؤهم من شياطين الإنس والجن قتل أولادهم، وكان تزيينهم وتحسينهم يختلف باختلاف نوع الولد، فإذا كان أنثى زينوا لهم التخلص منها لأنها قد تجلب العار إذا وقعت أسيره أو تزوجت غير كفء، وإذا كان ذكرا زينوا لوالده تقديمه قربانا للأصنام، ففى ذلك خير للولد لأنه يصير محسوب الآلهة ولأبيه ليباركوا رزقه ويشفعوا له عند الله، وإذا كان الوالد فقيرا زينوا له التخلص من ولده ذكرا أو أنثى ليخلصه من ذل الفقر كما فى الآية (١٥١) من هذه السورة صفحة ١٨٩، والآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

زينوا لهم ذلك ليوقعوهم فى الردى، وليخلطوا عليهم ما كان عندهم من بقية دين إبراهيم بالوثنية ليبعدوهم عن هذه البقية. ولو شاء ربك عدم وقوع هذا منهم ما فعلوه، وقد تقدم بيان مشيئته تعالى فى الآية (١٢٥) من هذه السورة صفحة ١٨٣ وإذا كان الأمر كذلك فدعهم وافتراءهم فسيندمون وقت لا ينفعهم ندم. فالكلام تهديد لعلهم يتنبهون.

المفردات : . ﴿حجر﴾ : بمعنى محجور كذبح بمعنى مذبوح، انظر آية (١٠٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣، يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير.

﴿لا يطعمها﴾ : لا يذوقها.

﴿وصفهم﴾ : المراد كذبهم على الله فى التحليل والتحريم، وهو من قبيل قولهم وصفت عينه السحر وكلامه الكذب، أى ثبت له ذلك على أتم وجه، انظر آية ٦٢ من سورة النحل صفحة ﴿٣٥٣﴾.

﴿سفها﴾ : السفه خفة العقل كما تقدم فى آية (١٣) من سورة البقرة صفحة (٤) وما أقبحه إذا انضم إليه الجهل. ﴿معروشات﴾ : هى من الكرم ما يحمل على عيدان كهيئة العريشة.

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ

﴿أكله﴾ : ثمره الذى يؤكل، انظر الآية (٢٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٣.

ويفسر الإنشاء والأكل آيتا (٣٤، ٣٥) من سورة يس صفحة ٥٨٢ .

المعنى : . بعدما تقدم ذكر سبحانه جملة من جرائمهم مقترنة متجاورة ليعطى السامع صورة بشعة لجرأتهم على الله فقال: وقالوا أى مشركو قريش هذه الأشياء التى جعلناها للآلهة أنعام وحرث محجورة وممنوع تناولها لا يأكل منها إلا مَنْ نشاء من خدام الأصنام، قالوا هذا زعما منهم أن الله أذن لهم فى ذلك، انظر الآية (٥٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٥. وقالوا هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها وهى السائبة وما بعدها المذكورة فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، وهذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها حال ذبحها بل يذكر اسم أصنامهم قالوا كل هذا افتراء عليه سبحانه، وذلك أن التحليل والتحريم لا يكونان إلا من الله، فإذا حرموا وحللوا من عند أنفسهم أوهموا أتباعهم أن هذا بإذن الله وسيجزيهم الله بسبب استمرارهم على الافتراء أشد الجزاء. ومن أنواع كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون البحائر والسوائب المتقدم ذكرها فى سورة المائدة خالصة أى خاصة وحلال لهم لا تشاركهم النساء، وهذا هو المقصود من قولهم ومحرم على أزواجنا أى نسائنا هذا إذا ولد حيا، وإن يكن ما فى بطونها ميتة أى ولد ميتا فالذكور والإناث شركاء فيه يأكلون منه وهذا من جفاء الطبع فى حق النساء الضعيفات.

(١) أنعام (٢، ٣) وأنعام (٤) الأنعام (٥) أزواجنا (٦) أولادهم (٧) جنات (٨، ٩) معروشات (١٠) متشابها (١١) متشابه (١٢) وآتوا (١٣) الأنعام.

سيخزيهم الله وصفهم الكذب أو كذبهم البالغ نهاية القبح، لأنه حكيم لا يسوى بين الكافر والمؤمن، عليم بكل ما يفعلون فلا يظلم. ثم جمع سبحانه ما ينكر على العرب المشركين فى أمرين عظيمين فقال:

قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم كل خير وحرموا ما رزقهم الله تعالى مما ذكر فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧ وغيرها افتراء على الله، قد ضلوا بهذا العمل أى زاد ضلالهم بدليل قوله وما كانوا فى الأصل مهتدين فالضلال عندهم قديما وحديثا. قال ابن عباس: إذا أردت أن تعرف جهل العرب فاقرأ هذه الآية. ثم رجع سبحانه إلى ما هو المقصود الأصلى من السورة وهو إقامة أدلة التوحيد، ومحاربة الشرك فى كل مظاهره، ومن أبشع مظاهره تحريم ما أحل الله وبالعكس، فذكر فى ذلك عشر آيات قدم لها بالإشارة إلى فضله سبحانه عليهم بالأنعام وما تنبت الأرض ومع ذلك يتصرفون فيها بما يغضبه فقال: وهو الذى أنشأ وأوجد جنات معروشات وغير معروشات بأن تقوم على سوقها، وأنشأ النخل والزرع مما فى الجنات مختلفا ثمره فى شكله ولونه وطعمه وريحه، وأنشأ الزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كذلك، كلوا يا عبادى من ثمر كل هذه المذكورات إن كانت مما يثمر ويؤكل ثمره وكلوا من كل ما ينتج منها من زرع، وآتوا حقه الذى أوجبه الله فيه للفقراء يوم حصاده.

والمراد يوم جمع الزرع وقطع الثمر وقد يشعر هذا أن فى المال حقا غير الزكاة، لأن الزرع يشمل الخُضَر كالفجل والكرنب وغير ذلك مما يطبخ أو يؤكل دون طبخ وليس فى ذلك زكاة عند جمهور الأئمة، وكذا الرمان والعنب قبل صيرورته زبيبًا، ولذا قال كثير من المفسرين أن هذه حقوقًا فى المال غير مقدرة سوى الزكاة لما أخرجه الترمذى والدارقطنى وجماعة عن فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿إن فى المال حقا سوى الزكاة ثم قرأ ﴿وهو الذى أنشأ جنات... الآية﴾ ومثل هذا أخرجه البخارى فى تاريخه ويؤيد كل هذا ما ورد فى الحديث الصحيح (لا يؤمن بالله مَنْ بات شبعانا وجاره طاو إلى جنبه) وإجماع العلماء على أنه إذا وصل حال الفقير إلى حاجته إلى طعامه الضرورى الذى يهلك بعدها وجب على الناس أن يعطوه مقدار دفع الضرورة وإن كانوا ممَنْ لا تجب عليهم الزكاة انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤، ومَنْ أراد تفصيل كيف فرضت الزكاة ومتى بيَّن مقدارها وكيف كانت أولاً بمكة فليرجع إلى حديث رقم (٢٠١) من كتابنا صفوة البخارى. ولا تسرفوا أى لا يقع منكم إسراف فى صورة ما من صوره، فلا تسرفوا فى الأكل قبل الحصاد حرصا على حق الفقير، ولا فى الإعطاء حرصا على الأولاد من الجوع، ولا فى الأكل والشرب العادى كما فى الآية (٣١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، لأن الله تعالى لا يحب المسرفين، وأنشأنا لهم أيضا من الأنعام....

حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ

المفردات : . ﴿حمولة﴾ : هى ما يحمل الناس والمتاع من كبار الإبل.

﴿فرشا﴾ : المراد يتخذ من وبرها وأصوافها وشعرها فرش، انظر الآية (٨٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٦.

﴿أزواج﴾ : يطلق الزوج فى اللغة على كل اثنين تقارنا فى شىء، تقول عندى زوج نعل مثلا، ويطلق على كل واحد من القرينين كالذكر والأنثى من الحيوانات المتزاوجة. فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج وللأنثيين زوجان، تقول عندى زوجا حمام تريد ذكرا وأنثى. وهذا الاستعمال هو المراد هنا وإلا كان المذكور أربعة لا ثمانية. ﴿شهداء﴾ :أى شاهدين حاضرين.

﴿رجس﴾ : خبيث تعافه الطباع السليمة.

﴿فسقا﴾ : أى سبب فسق وخروج عن طاعة الله.

﴿باغ ولا عاد﴾ : تقدم فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣ أن الباغى هو الخارج على الإمام بالإفساد فى الأرض، والعادى هو الذى تجاوز حد الضرورة بأن يأكل حتى يشبع.

المعنى : . وخلق لكم من الأنعام ما يحملكم ويحمل متاعكم كما فى الآية ٧ من سورة النحل صفحة ٣٤٦، وجعل لكم منها فرشا للبيت، وقلنا لكم كلوا مما رزقكم الله من هذه الأنعام وغيرها، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بتحريم ما لم يحرمه الله أو بجعلها للأصنام، إن

(١) خطوات (٢) الشيطان (٣) ثمانية (٤) أزواج (٥) آلذكرين (٦) أم ما
(٧) صادقين (٨) آلذكرين (٩) أم ما (١٠) وصاكم (١١) الظالمين

الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة، انظر آيتى (١٦٨، ١٦٩) من سورة البقرة صفحة ٣٢، خلق من الأنعام المذكورة ثمانية أزواج، وبيَّن هذه الأزواج ليرتب عليه تبكيتهم وتجهيلهم على تحريم بعضها فقال:

من الضأن اثنين الذكر والأنثى أى الكبش والنعجة، ومن المعز اثنين أى التيس والعنز.

قل لهم أيها النبى آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله تعالى أم الأنثيين منهما أم الأجنة التى فى أرحام الأنثيين ذكورا أم إناثا. والاستفهام للإنكار أى لم يحرم الله شيئا منها فأخبرونى بعلم منقول عن واحد من رسل الله إن كنتم صادقين فى دعوى أن الله حرمها. ومن الإبل اثنين الجمل والناقة، ومن البقر اثنين هما الثور والثورة، أما البقرة فهى واحدة البقر تطلق على الذكر والأنثى. قل لهم أيها النبى آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحامها أى لا، لم يحرم شيئا كما سبق. فهل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟! والكلام تكرير للإفحام والتبكيت، والمعنى لم يكن شىء من هذا بل هو افتراء منكم. ولا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا فنسب إليه تحريم ما لم يحرمه ليضل الناس بغير علم، انظر الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦؛ والمراد تسجيل الجهل العام مع سوء النية، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وغيره ممَّنْ يتبعه فحرم من الهداية، لأن الله لا يهدى الظالمين.

وبعد ما ألزمهم سبحانه الحجة وبكتهم وهددهم أمر رسوله ﷺ أن يبين لهم ولغيرهم ما حرمه سبحانه دون غيره ومنه يعلم شناعة افترائهم بالزيادة عليه فقال:

قل أيها النبى لا أجد فيما أوحاه الله تعالى إلى طعاما محرما على آكل يأكله من ذكر أو أنثى إلا أن يكون ذلك الطعام ميتة أو دما مسفوحا إلخ، تقدم بيانها فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ فإنه أى المذكور من الثلاثة رجس أو يكون الطعام فسقا، وبين سبب كونه فسقا أنه أُهلَّ لغير الله به، والمراد ذكر غير اسم الله تعالى عند ذبحه، وتقدم مثل ذلك فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣ والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، فمَنْ ألجأته الضرورة لأكل شىء مما ذكر بشرط أن يكون غير باغ على إمامه بأن يكون مفسدا فى الأرض، ولا عاديا أى متجاوزا حد دفع الضرورة إلى الشبع....

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ⁽¹⁾ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ⁽²⁾ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ⁽³⁾ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا⁽⁴⁾ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ⁽⁵⁾ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ⁽⁶⁾ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا⁽⁷⁾

المفردات: ﴿غفور رحيم﴾ : غفور لعباده الخطأ اليسير فى تحديد المقدار الذى يدفع الضرر. رحيم حيث حرم عليهم ما يضرهم. انظر ما تقدم فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣، والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥. ﴿الذين هادوا﴾: معنى هاد رجع، والمراد بهم اليهود، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧..

﴿الحوايا﴾ : جمع حوية كقضايا وقضية، وهى المباعر جمع مَبْعر بفتح فسكون اسم مكان للبعر. وهى المصران الغليظة التى يكون فيها البعر قبل خروجه ويكون الشحم مختلطا فيه باللحم، ويأكله المصريون محشوا بالأرز والتوابل.

﴿بأسه﴾ : عذابه وانتقامه.

﴿إن تتبعون﴾ : إن. حرف نفى بمعنى ما.

﴿الظن﴾ : المراد به هنا الوهم الذى لا سند له. ﴿إن أنتم﴾: إن. كسابقتها.

﴿تخرصون﴾ : الخرص التخمين. ﴿هلم﴾ : أى احضروا وهاتوا.

المعنى : . بعد ما بيَّن سبحانه ما حرمه على جميع المكلفين شرع فى بيان ما حرمه على بنى إسرائيل خاصة عقوبة لهم كما تقدم فى آيتى (١٦٠، ١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣٠

---

(١) جزيناهم (٢) لصادقون (٣) واسعة
(٤) آباؤنا (٥) البالغة (٦) لهداكم
(٧) بآياتنا.

فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر﴾، قال ابن عباس : هو ماليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومهما لا لحومهما، إلا الشحم الذى فوق الظهر أو الحوايا أو الشحم الذى اختلط بعظم وهو ألية الضان لاختلاط شحمها بالعصعص. فهذه الثلاثة حلال، فالمحرم غير ذلك هو شحم الكلية، والثرب بالثاء بوزن النَّجْم وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش والأمعاء، فالمحرم هو الشحم الذى ينزع بسهولة لعدم اختلاطه بعظم أو لحم. ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم، وتقدم بيان البغى فى الآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠، وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به من تحريم وتحليل وبغى وغير ذلك. فإن كذبك المشركون الذين أرسلت إليهم لتقيم الحجج على الصواب لمحاجتهم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لمَنْ رجع إليه كما فى الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، أما إذا استمروا على عنادهم فأعلمهم بأنه تعالى لا يرد عذابه عن المجرمين. وبعدما أبطل سبحانه كثيرا من شبهاتهم شرع فى تلقين نبيه ﷺ رد شبهة من أخبث ما ضل بمثلها كثير من الكفار قبلهم، لقنها سبحانه لرسوله قبل أن يقولوها لئلا يفاجأ بها وليس معه جوابها فقال تعالى:

سيقول لك الذين أشركوا إلخ. أى سيقول لك أيها النبى المشركون : لو شاء الله أن لا نشرك به نحن ولا آباؤنا من قبلنا ما أشركنا، ولو شاء أن لا نحرم ما حرمنا شيئًا من الحرث والأنعام وغيرها، أى ولكنه شاء أن نشرك وأن نحرم فحرمنا، فوقوع ذلك منا دليل على مشيئته تعالى، يريدون أن يرتبوا على ذلك أنه سبحانه راض بما يعملون، أى فلا دخل لك يا محمد. وقد وقع ما أخبر به تعالى قبل وقوعه انظر الآية (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠، وآيتى (٢٠، ٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، بل بلغ من تبجحهم أنهم أدعوا أن الله أمرهم بهذا انظر الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، ومرادهم أن يقولوا إن ما فعلناه حق مشروع لأنه بإرادة الله وكل ما أراده فهو مرضى عنه منه، فهم يقصدون بما قالوا ما يلزمه فى زعمهم وهو رضاه سبحانه عن كل ما يريده.

ولما كان هذا التلازم باطلا لأنه لا يلزم من إرادته تعالى لشىء رضاه عنه، لأن كل ما يقع فى ملكه بإرادته لا جبرا عليه ومع ذلك لا يرضى لعباده الكفر كما فى الآية (٧) صفحتى ٦٠٦،

٦٠٧ وكذلك لا يرضى لهم المعاصى. وإلا ما عذبهم عليها. ولذا رد عليهم بتكذيبهم فى دعوى التلازم بقوله كذلك أى مثل هذا التكذيب بالمغالطة كذب الكفار قبلهم رسلهم عندما قالوا لهم إن الله لا يرضى لعباده الشرك ولا الفحشاء، ولا يأمر ولا يرضى إلا بالإيمان والعدل أما إرادته فتابعة لحكمته تعالى فى النظام الذى ارتضاه لهذه الدار الدنيا، ومن هذا النظام أنه يسهّل لكل مكلف ما يختاره بعد أن يرشده إلى الصواب قال تعالى:

﴿وقل الحق من ربكم فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر﴾ انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ وآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. فقولكم إن شركنا مرضى عنه تكذيب لرسولكم، كتكذيب الكفار قبلكم لرسلهم، واستمروا على هذا التكذيب حتى ذاقوا عذابنا. وهذا دليل على كذبهم، لأن الله تعالى لا يعذب على ما يرضيه، وبعد هذا التكذيب المقام عليه الدليل أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بدليل علمى على زعمهم فقال:

قل لهم هل عندكم من علم فتظهروه لنا؟ والاستفهام للتوبيخ والتعجيز، ولذا أعقبه ببيان حقيقتهم فقال: إن تتبعون إلا الظن، أى ليس عندكم علم بل ظن باطل لا يغنى عن الحق شيئا؛ ولذا قال وإن أنتم أى ما أنتم إلا تخمنون تخمينا لا يستند إلى شىء.

وبعد ما نفى عنهم أدنى مراتب العلم أثبت لنفسه سبحانه الحجة القاطعة؛ قل أيها النبى لهؤلاء الكفار الذين يبنون أصول دينهم على التخمين: إذا لم يكن عندكم علم فى أمر دينكم فلله وحده الحجة البالغة النهاية فى القوة، فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين يجبركم على الاستقامة، فيكون العالم كله ملائكة، ولكنه لم يشأ ذلك للحكمة المتقدمة فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨. وبعدما نفى عنهم العلم طلب منهم أن يحضروا مَنْ يشهد لهم على صحة ما يزعمون ليثبت أنهم ليسوا على شىء لا من العلم ولا من غيره فقال: قل هلم وهاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرمتموه. وهذا تعجيز لأنه ليس فى البشر مَنْ يعلم عن الله علما قطعيا كأنه مشاهد إلا الرسل. فإن فرض وأحضروا شهداء وادعوا أنهم قاطعون بما يشهدون فلا تشهد أيها النبى معهم، أى لا تقرهم على كذبهم، ولا تتبع شهواتهم لأنهم مكذبون بآياتنا أى أدلتنا التى بينّاها لهم قاطعة بصدق رسولنا....

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ * قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ[1] إِحْسَٰنًا[2] وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُم[3] مِّنْ إِمْلَٰقٍ[4] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ[5] مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم[6] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم[7] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي[8] مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم[9] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

المفردات : . ﴿يعدلون﴾: أى يجعلون له تعالى عديلا، أى شريكا مماثلا، انظر أول هذه السورة صفحة ١٦٢ والآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١. ﴿إملاق﴾ : هو الفقر. ﴿ما ظهر منها﴾ : هو ما تفعله الجوارح كالقتل والزنا والسرقة والكذب.

﴿وما بطن﴾: هو أفعال القلوب كالحسد ونية السوء ﴿أشده﴾ : بلوغ الأشد محصور بين البلوغ مبلغ الرجال الذى عنده يكون التكليف، وبين اكتمال القوى الجسمية والعقلية ويكون غالبا بين العشرين والأربعين من عمر الإنسان، فقوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما... الآية﴾ انظر الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ معناه البلوغ مبلغ الرجال. وعنده راودته امرأة العزيز عن نفسه" ومنه قوله تعالى ﴿ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا﴾ انظر الآية (٦٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٧. ويطلق ﴿الأشد﴾ أيضا على بلوغ الإنسان مبلغا يجعله صالحا للتصرفات المالية بأن يكون عاقلا حسن التصريف، وهذه الحالة عبر عنها القرآن بالرشد فقال فى اليتامى ﴿فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ انظر الآية (٦) من

(١) وبالوالدين
(٢) إحسانا
(٣) أولادكم
(٤) إملاق
(٥) الفواحش
(٦، ٧) وصاكم
(٨) صراطى
(٩) وصاكم.

سورة النساء صفحة ٩٨ والآية (٣٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩ والآية (٨٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢. أما قوله تعالى فى شأن نبيه موسى عليه السلام ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾ انظر الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. فإنا نجده سبحانه جمع بين بلوغ الأشد وبين الاستواء فبلوغ الأشد هو بلوغه مبلغ الرجال، واستواؤه هو اكتمال قوته الجسمية والعقلية، ويكون فى العادة بعد العشرين سنة.

وأما قوله ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ فهو يريد به أقصى بلوغ الأشد، وذلك يكون عند انتهاء شباب الإنسان، ودخوله فى سن الشيخوخة، وعند هذا المدى بُعث نبينا محمد ﷺ، فيؤخذ من كل ذلك أن بلوغ الأشد محصور المبدأ محصور النهاية، غير محصور ما بينهما.

﴿القسط﴾ : العدل ﴿ولو كان ذا قربى﴾ : الضمير فى ﴿كان﴾ يعود على مفهوم من سياق الكلام والمراد ولو كان المتعلق به القول قريبا لكم، ونظير هذا الضمير تجده فى ﴿عليها﴾ من قوله تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك عليها من دابة﴾ انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

المعنى : . ولا تتبع هؤلاء المكذبين الذين من صفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ويجعلون لربهم شريكا مماثلا ويعدما بين سبحانه ما حرمه وما أحله وحججه البالغة على المشركين، شرع فى بيان أصول المحرمات من الأعمال والأقوال وما يقابلها من أصول الفضائل فقال:

قل أيها النبى لهؤلاء المتبعين فى دينهم لمجرد التخمين والهوى فيما يحلون ويحرمون : تعالوا إلىَّ أقرأ عليكم الكلام الدال على ما حرمه ربكم عليكم، وخص التحريم بالذكر هنا مع أن الوصايا العشر التى سيذكرها فيها خمسة محرمة منهى عنها، وخمسة واجبة مأمور بها، لأن أغلب الكلام فيما سبق كان فيما حرَّموه، فكأنه يقول المحرّم هو ما نهى الله تعالى عنه لا ما حرمتم أنتم، وإلا فأفضل الكلام أتل ما حرم وما أوجب. وإذا علمت أن من الأساليب العربية الفصيحة أنْ يقول الرئيس لمرءوسه اسمع ما أمنعك من فعله: لا تفعل كذا ولا كذا، وإذا علمت

أيضا أن من المقرر أن الأمر بشيء نهي عن ضده والنهي عن شيء أمر بضده، فإذا قلت لرجل أمرتك بالصلاة فقد نهيته عن تركها، وإذا نهيته عن الكذب فقد أمرته بتركه، إذا علمت كل هذا سهل عليك فهم ما يأتي وشرع سبحانه في بيان ما حرم وما أوحى به فقال:

أن لا تشركوا به شيئا و ﴿أن﴾ حرف تفسير تفيد أن ما بعدها تفسير لما قبلها، فكأنه قال:

أول ما أتلوه عليكم من الوصايا هو أن لا تشركوا به شيئا؛

والثاني مما أتلوه عليكم وأوصاكم به ربكم أن تحسنوا للوالدين إحسانا كاملا، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت فكيف بالعقوق.

وقد تقدم نظير ذلك في الآية (٨٣) من سورة البقرة صفحة ١٦، والآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦، وسيأتي في الآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧؛

والثالث من الوصايا أنْ لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل فقر حل بكم فرارا من أن يؤلمكم مشاهدتهم جياعا، وهذا من تزيين شياطينهم كما تقدم في الآية (١٣٧) من هذه السورة صفحة ١٨٥، نحن نرزقكم وإياهم أي رزقكم ورزقهم علينا فلا تخافوا،

والرابع من الوصايا أن لا تقربوا المعاصي الشديدة القبح ما ظهر منها مما تفعله الجوارح كالزنا والسرقة، وما بطن كالحسد ونية السوء، انظر ما تقدم في الآية (١٢٠) من هذه السورة صفحة ١٨٢.

والخامس منها أنْ لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا إذا كان القتل بوجه حق كأن تكون قاتلة أو زانية بعد إحصان. ذلكم ما ذكر من الأحكام الخمسة في هذه الآية وصاكم بالمحافظة عليها ربكم لإعدادكم لأن تعقلوا ما فيه الخير فتعملوه وما فيه شر فتجتنبوه،

والسادس من الوصايا أن لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالفعلة التي هي أحسن كحفظه وتنميته، فحافظوا عليه إلى أن يبلغ رشده فسلموه له كما في الآية (٦) من سورة النساء صفحة ٩٨.

والسابع منها أن تجعلوا الكيل وافيا وكذا الميزان، والمراد المكيل والموزون، ولا تكونوا من المطففين الذين توعدهم الله تعالى بالهلاك في سورة المطففين. ولما كان الأمر بالقسط قد يوقع أهل الورع في حرج لأن العدل المطلق لا يتحقق إلا بمثل موازين الذهب فقد تزيد حبة واحدة أو تنقص، لكل ذلك قال سبحانه:

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي ما في طاقتها فعله، ولا يؤاخذ بمثل هذه الأشياء التي لا يمكن ضبطها، بل بالعدل المعروف عند الناس،

والثامن منها أنْ تعدلوا إذا قلتم قولا في حكم أو شهادة ولو كان المحتاج إلى قولكم ذا قرابة منكم.

والتاسع منها أنْ توفوا بالعهد الذي عاهدتم الله عليه، ويدخل فيه ما شرعه على لسان رسوله وقبلتموه بدخولكم في الإسلام، ويدخل فيه ما يعاهد الناس بعضهم بعضا فيما هو جائز شرعا وما يلزمون به أنفسهم من نذر أو يمين، انظر الآية (٧٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤، ومحل الوفاء بالعهد إذا كان على شيء فيه خير ومصلحة، لا في شر، ولذا عبّر عنه بعهد الله. ذلكم ما ذكر من التكاليف الأربعة وصاكم ربكم به لعلكم تذكرون دائما ما فيها من المنافع فتحافظوا عليها ولا تغفلوا عنها.

والعاشر منها أنْ تتبعوا الشرع لأنه صراطي المستقيم المذكور في سورة الفاتحة، وهذه الوصية العاشرة جامعة لكل خير، فهي أعم مما تقدم. ولا تتبعوا سبل الضلال الكثيرة فتتفرق أي تتشعب وتبعد بكم عن سبيله المستقيم. ذلك الأمر باتباع الطريق المستقيم وصاكم به ربكم لعلكم تتقون، وتبتعدون عما يضركم في الدنيا والآخرة. روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ خط بيده خطا ثم قال:

هذه سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وشماله وقال:

هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ هذه الآية. ولذا أفرد سبيل الحق لأن الحق واحد، والباطل طرقه كثيرة.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ

المفردات : ﴿تماما﴾ : بمعنى إتماما للنعمة.

﴿أنزل الكتاب﴾ : المراد جنس الكتاب الذى يشمل التوراة والإنجيل بدليل قوله ﴿طائفتين من قبلنا﴾ وهما اليهود والنصارى.

﴿دراستهم﴾ : أى قراءة ومدارسة للفهم.

﴿صدف عنها﴾ : أعرض ﴿يأتى ربك﴾ : أى أمره بالعذاب انظر الآية (٣٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٩. ﴿بعض آيات ربك﴾ : علامات قيام الساعة.

المعنى : . بعد ما أقام سبحانه على كفار مكة الحجج وأبطل ما يزعمون، ووصاهم بتلك الوصايا العشر التى قال عنها عبدالله بن مسعود: من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ مختومة بخاتمه فليقرأ هذه الآيات: قل تعالوا إلىّ لعلكم تتقون. بعد كل هذا أراد سبحانه أن يقطع على الكافرين طريق الأعذار الكاذبة التى تعللوا بها والتى سيتعللون بها، منها أن الكتب السماوية نزلت فى الماضى على أمم غيرهم وما كانوا يعرفون قراءتها، ومنها أنهم لو نزل عليهم كتاب كغيرهم لكانوا أحسن منهم، فرد الله تعالى عليهم بأنا أن كنا أنزلنا التوراة على غيركم فقد أنزلنا على نبيكم ماهو خير منها وبلغتكم وهو القرآن فلمَ لم تؤمنوا إن كنتم صادقين؟

فقال سبحانه ثم قل لهم أيها النبى: تعالوا أتلو عليكم ما قال ربكم أننا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة واقتصر على موسى والتوراة دون عيسى والإنجيل لأن بين التوراة والقرآن تشابها.

---

(١) الكتاب (٢) كتابه (٣) أنزلناه (٤) الكتاب (٥) لغافلين (٦) الكتاب
(٧) بآيات (٨) آياتنا (٩) الملائكة (١٠، ١١) آيات (١٢) إيمانها (١٣) آمنت

فكل منهما شريعة كاملة، والإنجيل ليس كذلك، فإن أكثره عظات، ولهذا نجد أن الله تعالى قرن بين القرآن والتوراة كثيرا، انظر ما تقدم فى آيات (٩١، ٩٢) من هذه السورة صفحة ١٧٧، وآيتى (٢٢، ٢٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، والآية (١٢) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧، إلى غير ذلك، إنما أنعمنا على الذى أحسن عمله، ونظير هذا الجزاء ما فى الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤، والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، والآية (٢٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، ومفصلا لكل شىء يحتاجون إليه، وهاديا إلى طريق الحق، وسببا لرحمة ربهم آتينا موسى التوراة الجامعة لهذه المزايا ليعد قومه لرجاء الإيمان بلقاء ربهم فى الجنة. وهذا القرآن الذى يتلى عليكم كتاب عظيم أنزلناه كثير البركة كما تقدم فى الآية (٩٢) من هذه السورة صفحة ١٧٧ فاتبعوه واتقوه ما نهاكم عنه لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم. أنزلنا لكم القرآن منعا لكم من أن تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم إنما أنزل الكتاب الهادى للصواب على طائفتين من قبلنا وإننا كنا غافلين عن مدارسة وقراءة كتبهم لجهلنا بلغتهم، أو تقولوا فى اعتذاركم لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم لأننا أزكى عقولا وأعلى همة وأجمع لصفات الشهامة وحب الصراحة ونجدة الضعيف وعدم المبالاة بالشدائد، وقد صدر منهم فعلا ما أخبر به القرآن قبل وقوعه، انظر الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩ والآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ والسورتان نزلتا بعد سورة الأنعام. فقد جاءكم من ربكم قرآن مبين لكل ما تحتاجون إليه فى تحقق سعادتكم وهدى ورحمة، تقدما فى الآية (١٥٤) من هذه السورة صفحة ١٩٠ السابقة، وإذا كان هذا هو حال آيات الله المشتملة على الهداية والرحمة فلا أحد أظلم لنفسه ممن كذب بها وأعرض عنها مبالغة فى التكذيب. سنجزى الذين يعرضون عن آياتنا أسوأ أنواع العذاب بسبب استمرارهم على الإعراض. وبعد أن هددهم أكد هذا التهديد وأراد أن يعرفهم بحقيقة ما سيلاقون وأنه لا يخرج عن واحد مما سيأتى فقال:

هل ينظرون أى لا ينظرون إلا أحد ثلاثة أشياء : فإما أن تأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم، أو يأتى أمر ربك أيها النبى بالعذاب فى الدنيا كما حلّ بكثير من الأمم قبلهم، أو تأتى بعض آيات ربك الدالة على قيام الساعة.

مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا[1] خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى[2] رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ[3] مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[4] حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يوم يأتى بعض آيات ربك هذه فيؤمن الناس اضرارا كما اضطرارًا فرعون فى الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠. لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت....

المفردات : . ﴿قيما﴾ : أصله مصدر كالصغر والكبر وجعل وصفا للمبالغة، والمراد دينا يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم، انظر الآية (٥) من سورة النساء صفحة ٩٨، والآية (٩٧) من سورة المائدة صفحتى ١٥٦، ١٥٧.

﴿حنيفا﴾ : مائلا عن الباطل إلى الحق.

﴿نسكى﴾ : هو فى الأصل مطلق العبادة وكثر استعماله فى عبادات الحج من سعى وطواف وذبائح، انظر الآية (١٩٦) من سورة البقرة صفحتى ٣٨، ٣٩، والآية (٢٠٠) من نفس السورة صفحتى ٣٩، ٤٠، والآية (٣٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٨، والآية (٦٧) من نفس السورة صفحة ٤٤٣.

﴿تزر﴾ : أصل الوزر الحمل الثقيل، يقال وزر الشىء يزره كوَعَد يَعِد حمله والمراد تحمل ذنبا.

﴿وازرة﴾ : أى حاملة وزرًا أى ذنبا. ﴿تزر وازرة وزر أخرى﴾ : يقول العربى: وزر فلان الشىء يزره بوزن وَعَدَه. يَعِده وَزْرًا. بفتح الواو. وسكون الزاى. ووِزْرًا بكسر الواو وسكون الزاى

(١) إيمانها
(٢) هداني
(٣) صراط
(٤) إبراهيم
(٥) العالمين.

أيضا أى حمله، وتقول أيضا : وَزَر الرجل أى حمل ما يثقل ظهره وتقول أيضا وزر فلان يزر بوزن وعد أيضا وَزْرا و وِزْرا أيضا أى ارتكب إثما فهو وَزِرٌ بفتح الواو وكسر الزاى وموزور. والأنثى وازرة. والوزر بكسر الواو وسكون الزاى. يستعمل مصدرًا كما تقدم. ويستعمل بمعنى الإثم أى الذنب. ويستعمل بمعنى الحمل الثقيل. وجمعه أوزار ومنه قوله تعالى ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣ أى أثقالها والوَزَر بفتحات هو الملجأ ومنه قوله ﴿كلا لا وزر﴾: الآية (١١) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ فمعنى ﴿لا تزر﴾ أى لا تحمل ﴿وازرة﴾ أى نفس مرتكبة ﴿وزر﴾ أى إثما و ﴿وزر أخرى﴾ أى إثم نفس مرتكبة أخرى والمراد جزاء ذنبها وهو العقاب. وبعد كل هذا فيحسن أن ننبه لأمر مهم هنا قد تخفى على بعض البسطاء دقائقه. وظروفه التى جاء فيها ذلك أن قوله تعالى ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى. وهذا ربما يوهم أن النفس غير المذنبة قد تحمل ذنب نفس أخرى. والعدل الإلهى يأبى ذلك لأنه سبحانه قرر أن كل نفس سواء كانت مذنبة أو غير مذنبة لا تحمل ذنب غيرها. فقد قال تعالى ﴿واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤. وكل هذا يقتضى أن يقول سبحانه ﴿ولا تزر نفس وزر أخرى﴾ ويزول الخفاء إذا علمنا أن الكلام هنا مع قادة الكفر أصحاب الأوزار الذين يسعون فى تضليل غيرهم ويقولون لهم لا تخافوا شيئا لأننا سنحمل عنكم خطاياكم إن كان لكم خطايا. قال تعالى فيهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ وفى هذا الأسلوب أيضا إبراز للعدل الإلهى على أكمل وجه حتى مع هؤلاء المجرمين حيث قرّر أن عذابهم إنما هو على ما ارتكبوه من الأوزار. لا بما ارتكبه غيرهم ولا يعارض هذا ما جاء فى الآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ مما يفيد ظاهره أن هؤلاء الكفار يحملون أثقالا مثل أثقالهم. فإنه فى الحقيقة سيحمل المجرم ذنب نفسه لكنه مضاعف. عذاب على ذنبه الذى فعله فى نفسه خاصة كالكفر مثلا. وعذاب على إضلاله لغيره وتسببه فى كفره وانحرافه عن الصواب فهو بمعنى ما فى آيات (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٦٠، ٦١.

المعنى : . لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل مشاهدة علامة الساعة الكبرى إيمانها بعده، ولا ينفع نفسا كانت فى الدنيا مؤمنة ولكنها لم تعمل خيرا وعملا صالحا ما تحاوله من توبة أو عمل خير عند مشاهدة العلامة لبطلان التكليف الذى يترتب عليه ثواب العمل الصالح، أى فلا عمل ينفع فى تخفيف العذاب، ولا إيمان ينفع من الخلود فى النار. والآية أى العلامة الكبرى المقصودة هنا هى طلوع الشمس من مغربها قبيل الطامة الكبرى التى تكور الشمس وتبس الجبال؛ روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

(لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعا، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها) إلخ. فقل أيها النبى لهؤلاء الكفار المتربصين بكم الدوائر : انتظروا ما تتمنون وقوعه لنا من الانكسار وذهاب الدين، إنا منتظرون وعد ربنا لنا بالنصر، ووعيده لكم بالخذلان والعذاب وهذا تهديد شديد وجهه لهم كثيرا لو كانوا يعقلون، انظر آيات (١٠٢، ١٠٣) من سورة يونس صفحة ٢٨٢، و (١٢١، ١٢٢) من سورة هود صفحة ٣٠٢، و (٢٩، ٣٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، وبعد ما وصى سبحانه بهذه الوصايا العظيمة التى كان آخرها الأمر باتباع الصراط المستقيم والبعد عن سبل الضلال أراد سبحانه أن ينبه هذه الأمة بأمر خطير هى عرضة له من التفرق فى الدين والتعصب للرأى حتى تصير الأمة شيعا تتعصب كل شيعة لمذهبها فتنقطع العلاقات بين اتباع الأمة الواحدة كما حصل فى أهل الكتب قبلها لما طال عليهم الزمن، فقال سبحانه محذرًا :

إن الذين فرقوا دينهم وجعلوه مذاهب متعارضة مختلفة بما ابتدعوه فيه وهم اليهود والنصارى ومَنْ يشابههم فى ذلك، انظر الآية (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٦٣، وكانوا شيعا أى فرقا، لست منهم فى شىء، أى أنت برىء منهم ومن عقابهم، إنما أمرهم فى الدنيا إلى الله عز وجل يدبره حسب حكمته ثم ينبئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون فى الدنيا ويجازيهم عليه. وبعد ما بيّن سبحانه أصول الفضائل التى أمر بها الإسلام وأصول الرذائل التى نهى عنها، أراد سبحانه أن يبين جزاء كل منهم فقال: مَنْ جاء ربه يوم القيامة مقترنا بالصفة الحسنة التى طبعتها فى نفسه الفعلة الحسنة التى عملها فى الدنيا فله من الجزاء جزاء عشر أمثالها، ومَنْ جاء بالسيئة فلا يجزى إلا جزاء مثلها المقدر بعدله تعالى. وهذا من فضله سبحانه لأنه ضاعف الحسنة فوق ما يستحقه العبد، وهنا لم يضاعفها رحمة منه بخلقه حتى العاصى منهم، فسبحان مَنْ سبقت رحمته غضبه. ولا يظلم أحد منهما يوم القيامة فلا ينقص من أجر المحسن شىء مما استحقه، ولا يزاد جزاء المسىء فوق المثل. ثم أمر سبحانه

رسوله أن يقول لجميع المكلفين القول الجامع لجملة ما تقدم فقال: قل للناس كافة إننى هدانى ربى وأوصلنى بما أوحاه إلىَّ إلى طريق مستقيم، وهو الدين الذى به قيام مصالح الناس فى معاشهم وآخرتهم، وهو ملة إبراهيم المبتعد عن الباطل، ولم يكن مشركا كالعرب الذين يدعون أنهم على ملته مع أنهم مشركون فهم كاذبون.

ثم أمره بأن يقول لهم بأن كل عبادته وأعماله خالصة لوجهه تعالى فقال: قل أيها النبى لهم أيضا إن صلاتى وأعمالى فى الحج كلها وما أفعله فى حال حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كل ذلك خالص لله رب العالمين الذى لا شريك له فى الربوبية حتى يستحق أن يشارك فى العبادة، وبذلك الإخلاص فى توحيده وعبادته أمرنى ربى وأنا أول المنقادين لأمره سبحانه وقل لهم أيضا منكرا عليهم ماهم فيه : أغير الله أبغى ربا إلخ أى لا يصح أن أطلب ربا غير الله مع أنه هو وحده رب وخالق كل شىء وسيحاسبنا على ما كلفنا به ولا ينفعنا عنده إلا عملنا لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها، فما تزعمونه من تحمل غيركم ذنوبكم عنكم فى الآية ١٢ من سورة العنكبوت صفحة (٥٢٢) كذب وتضليل. والمعنى لا تكسب نفس إثما إلا كان عليها وحدها جزاؤه دون غيرها، ولا تحمل نفس مذنبة من الذنوب فوق حملها حمل نفس أخرى. فالجملة الثانية لازمة للأولى كقولك: ذنبى علىّ وحدى، ولا يستطيع أحد أن يحمل عنى شيئا منه، ثم فى النهاية ترجعون جميعا إلى ربكم فيخبركم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم، فيظهر المحق من المبطل فيجازى كلا بما هو أهله.

المفردات: ﴿خلائف الأرض﴾: الخلائف جمع خليفة وهو مَنْ يخلف سابقه فى مكان أو عمل أو ملك. ﴿ليبلوكم﴾ : يختبركم أى يعاملكم معاملة المختبر لتظهر للناس حقيقتكم.

﴿حرج﴾ : تقدم فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. أنه شدة الضيق.

﴿لتنذر به﴾ : تخوف.

﴿قليلا ما تذكرون﴾ : المراد تتذكرون تذكرا قليلا جدا فى لحظات خاطفة ترغمكم عليه قوة الحجة، ولكن شدة عنادكم تصرفكم عنه.

﴿بأسنا﴾ : عذابنا.

﴿بياتا﴾ : أصله مصدر أريد به الصفة أى بائتين أى ليلا. ﴿قائلون﴾ : من القيلولة وهى النوم ظهرًا وقت شدة الحر. ﴿دعواهم﴾ : أى دعاؤهم واستغاثتهم انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ(١) الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ(٢) لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ(٣) إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

(٧) سُورَةُ الأَعْرَافِ مَكِّيَّة
وآياتها ست ومائتان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ(٤) ﴿١﴾ كِتَٰبٌ(٥) أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا(٦) فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا(٧) أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ(٨)

المعنى :- وهو وحده الذى مكنكم فى الأرض وجعلكم أممًا يخلف بعضكم بعضا فيها لتصلحوا، انظر الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨، أى لا أصنامكم، وهو سبحانه الذى رفع بعضكم فوق بعض درجات فى الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل وغير ذلك ليبلوكم فيما آتاكم ليبنى الجزاء على ما يكون منكم، فهل شكر الغنى منكم وصبر الفقير، وعلَّم العالم الجاهل، وهكذا، انظر الآية (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢.

إن ربك سريع العقاب لمَنْ كفر بنعمه وإنه سبحانه مع سرعة عقابه لمَنْ عصاه فإنه غفور لمَنْ تاب، رحيم بالمؤمنين المحسنين.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص﴾ : تقدم بيان المراد من هذه الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة. هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول فلا يضيق صدرك بما ستلاقيه بسببه من المشاق المشار إليها فى سورة المزمل ومن التهم التى توجه إليك كرميهم لك بالجنون والسحر والكذب، أى لا

(١) خلائف (٢) درجات (٣) آتاكم
(٤) الف لام ميم صاد (٥) كتاب (٦) أهلكناها
(٧) بياتا (٨) دعواهم.

يهمك هذا فإنه باطل زائل، والعاقبة لك، انظر آيات (٢٥، ٣٥، ١٠٥) من سورة الأنعام صفحات ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٨٠، ومن أصعب ما لاقاه ﷺ حزنه على عدم إيمان أهله وعشيرته، أنظر الآية (١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. أى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك. أنزلناه إليك لتنذر به وتحذر العصاة وليكون تذكيرا للمؤمنين بوجوده تعالى وفضله.

ثم خاطب جميع المكلفين بقوله: اتبعوا أيها الناس هذا الكتاب الذى أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دون ربكم أولياء من شياطين الإنس والجن بأن تقبلوا منهم باطلهم وما يزينونه لكم من الشر، انظر الآية (٢٧) الآتية صفحتى ١٩٥، ١٩٦، والآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢ والآية (٢٠٨) من نفس السورة صفحة ٤١، والآية (٢٥٧) من سورة البقرة أيضا صفحة ٥٤، والآية (٦٨) من سورة آل عمران صفحتى ٧٣، ٧٤، والآية (١١٩) من سورة النساء صفحتى ١٢٢، ١٢٣، فإنكم إن اتبعتموهم فتكون تذكركم قليلا جدًا، أى فلا تنتفعون به. ثم شرع فى تذكيرهم وتخويفهم مما حصل لمَنْ قبلهم من العذاب بسبب إعراضهم وتماديهم فى اتباع أوليائهم فقال:

﴿وكم من قرية﴾ أى وكثيرا من أهل القرى أهلكناهم فجاءهم عذابنا على غرة وهم نائمون ليلاً أو ظهرًا، فما حصل منهم عند مشاهدة العذاب....

المفردات : ﴿بأسنا﴾ : عذابنا. ﴿معايش﴾ : جمع معيشة وهى ما يعيش به الإنسان مثل الطعام والشراب انظر الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿قليلا ما تشكرون﴾ : أى لا يصدر عنكم ما يعتبر شكرًا لله تعالى على نعمه من إحسان إلى فقير أو عمل بر فهو قليل جدًا لا يتساوى مع جليل نعمه سبحانه وتعالى حتى لكأنه العدم.

إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

﴿ما منعك ألا تسجد﴾ : قال الراغب المنع يطلق على ضد العطاء؛ يقال رجل مانع ومناع للخير أى بخيل.

ويطلق على الحماية، ومنه مكان منيع أى يحمى مَنْ فيه، وفلان ذو منعة أى قوى ممتنع على مَنْ يقصده بسوء؛ أى ما الذى حماك وجرأك على ألا تسجد. ﴿فاهبط منها﴾ : الضمير يعود على الجنة المفهومة من السياق.

المعنى : . فما كان تضرعهم ودعاؤهم حين جاءهم العذاب إلا اعترافهم على أنفسهم بالظلم فى وقت لم ينفعهم ذلك، ويوم القيامة نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم رسلنا سؤال توبيخ، فيقال لهم: لم عملتم كذا وكذا؟ ولذا قال بعدها: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ إلخ، مما يدل على أنه ليس سؤال استعلام؛ انظر سؤالهم فى الآية (١٣٠) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، والآية (٦٥) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، ولنسألن الرسل ماذا أجابتكم أممكم، أنظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩؛ أما ما فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ وما فى الآية (٣٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ مما يدل على أن المجرم لا يسأل عن ذنبه فالمراد لا يسأل سؤال استجلاب للرحمة بل للتوبيخ كما تقدم. ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم حال كوننا عالمين

---

(١) ظالمين. (٢) فلنسألن. (٣) ولنسألن.
(٤، ٥) موازينه. (٦) بآياتنا. (٧) مكناكم.
(٨) معايش. (٩) خلقناكم. (١٠) صورناكم.
(١١) للملائكة. (١٢) الساجدين.

بأحوالهم ظاهرها وباطنها؛ لأننا لم نكن غائبين عنهم فى حياتهم الدنيا، فكل صغيرة وكبيرة عندنا علمها. ولما كان الجزاء على حسب الأعمال وهى متفاوتة تنضبط بالوزن. قال: ﴿والوزن﴾ إلخ، أى الوزن الحق لأعمال العباد كائن يوم يسأل الرسل والمرسل إليهم: انظر الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ويطلق الوزن على القدر والمنزلة، ومنه ليس لفلان وزن أى قدر لخسته، ومنه قوله تعالى فى الآية (١٠٥) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥ ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ أى لا اعتبار لهم.

فلا تخالف بين الآيتين. فمَنْ ثقلت موازينه بالحسنات فأولئك هم المفلحون أى الفائزون. ومَنْ خفت موازينه لغلبة السيئات فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب استمرارهم على جحود آيات الله وعدم الانقياد لها، ولا يعلم الميزان وكيفية الوزن يوم القيامة إلا علاَّم الغيوب ثم شرع سبحانه فى تذكيرهم بنعمه ليقبلوا دعوته فقال:

﴿ولقد مكناكم فى الأرض﴾ أى أقدرناكم على التصرف فيها، وجعلنا لكم فيها ما تكون به عيشتكم من المطاعم والمشارب وغيرها، وشكركم لله قليل جدًا لا يكافئ نعمه ثم شرع فى بيان نعمة أخرى هى تعظيمهم فى شخص أبيهم آدم وتكبر إبليس عليه مما يقتضى بعدهم عنه، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فقال :

﴿ولقد خلقناكم﴾ أى خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه بصورة إنسان، ثم نفخنا فيه الروح كما فى الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، ثم قلنا للملائكة اسجدوا له إلخ كما تقدم فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحة ٨. قال ما منعك أى ما الذى جرأك على عدم السجود؟ قال : أنا خير منه، خلقتنى من نار وهى جوهر نورانى، وخلقته من طين وهو ظلمانى. وقد أخطأ لأن الطين أفضل من وجوه كثيرة؛ منها رزانته ووقاره، ومنها الحلم والحياء والصبر. وفى النار الطيش والحدة، وذلك يدعو إلى الاستكبار، والنار تفنى والتراب ينمو.

قال تعالى: فاهبط من الجنة فما يصح لك أن تتكبر فيها، وأكد الأمر بالهبوط بقوله فاخرج منها لأنك لست من أهلها.

مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

المفردات: ﴿الصاغرين﴾ : الصَّغار الهوان والاحتقار؛ انظر آيتى (٣٤، ٣٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠. ﴿أنظرنى﴾: أى أمهلنى ولا تمتنى.

﴿لأقعدن لهم صراطك﴾ : أى لأقعدن لهم على طريق شريعتك لأمنعهم عنها.

﴿مذؤما﴾ : مذموما معيبا

﴿مدحورا﴾ : مطرودا مبعدا عن الرحمة

﴿وقاسمهما﴾ : يقول العرب قاسم فلان فلانا أى حلف له، فهنا المراد حلف لهما.

﴿فدلاهما﴾ : أصل معنى دلى أنزل الشيء إلى أسفل شيئا فشيئا على مهل، والمراد مازال يغريهما بالحلف والترغيب حتى أسقطهما فى المعصية.

﴿بغرور﴾ : هو الخداع الباطل.

المعنى : . فاخرج من الجنة لأنك من أهل الصَّغار والهوان ملعون على كل لسان. فقال

(١) الصاغرين
(٢) صراطك
(٣) لآتينهم
(٤) أيمانهم
(٥) شاكرين.
(٦) يا آدم
(٧) الظالمين
(٨) الشيطان
(٩) ماوورى
(١٠) سوآتهما
(١١) ما نهاكما
(١٢) الخالدين
(١٣) الناصحين
(١٤) فدلاهما.

إبليس متذللا : رب أمهلنى إلى يوم البعث. قال : إنك من المنظرين: لأن بقاءه هو المحك الذى يظهر صدق المؤمن ومقدار تمسكه بدينه، فلما اطمأن اللعين إلى أنه باق أعلن عزمه الأكيد على الانتقام من أولاد آدم الذى تسبب فى نكبته، فقال: يارب أقسم بسبب إغوائك أى إضلالك لى لأقعدن لهم على طريق الإسلام أصد كل مَنْ أراد سلوكه كما يقعد قاطع الطريق لإيذاء السالك، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم إلخ؛ أى لا أترك جهة من جهاتهم إلا هجمت عليهم منها، وستكون النتيجة أنك لا تجد أكثرهم شاكرين لك بل يكفرون. وقاله اللعين ظنا فأصاب كما قال سبحانه: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه﴾ الآية (٢٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥. كذلك انظر الآية (٣٩) وما بعدها من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ عند ذلك كرر سبحانه الأمر بطرده فقال: اخرج منها مذؤما مدحورا، وعزتى لمَنْ اتبعك من المكلفين لأملأن جهنم منكم، المراد من أولاد آدم ومنك ومن ذريتك المذكورين فى الآية ٥٠ من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ أما قوله تعالى : أجمعين: أى لا يفلت أحد منكم من عقاب الله عز وجل وبعد إخراج إبليس قلنا يا آدم اتخذ أنت وزوجك الجنة مسكنا. فكلا من حيث شئتما إلخ، وقد تقدم بيان ذلك فى الآية (٣٥) من سورة البقرة صفحة ٨، ولكن الشيطان قام بما توعد به وصار يوسوس لآدم وزوجته ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. فقال فى وسوسته: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين مقربين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون كما قال فى الآية (١٢٠) من سورة طه صفحة ٤١٧. وأقسم لهما أنه من الناصحين لهما فأسقطهما فى المعصية بما أغراهما به وحقيقة الجنة أو الشجرة وكيفية وسوسة إبليس كل ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى والمطلوب من كل هذا هو العبرة والاحتراز من الشيطان، ولا يتوقف شيء من ذلك على معرفة شيء مما استأثر الله تعالى بعلمه.

المفردات : ﴿طفقا﴾ : يقال طفق فلان يفعل كذا أى شرع يفعل.

﴿يخصفان﴾ : أى يجعلان ورقة فوق أخرى كما تخصف النعل.

﴿مستقر﴾: أى مكان استقرار.

﴿ومتاع﴾: تمتع بخيرات الأرض.

﴿أنزلنا عليكم لباسا﴾ : يعبر القرآن بالإنزال ويريد به الخلق الصادر من العلى الكبير، انظر الآية (٥٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٥، والآية (٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣، أى خلقنا لكم ما تلبسونه.

﴿وريشا﴾ : أصل الريش ما يستر الطير، وأريد به هنا لباس الزينة.

الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا[1] وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا[2] رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ[3] لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[4] ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ[5] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ[6] قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي[7] سَوْءَاتِكُمْ[8] وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ[9] اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ[10] لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ[11] كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا[12] إِنَّهُ يَرَاكُمْ[13] هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ[14]

﴿قبيله﴾ : جنوده وذريته.

المعنى : . فلما نجحت وسوسة إبليس وأكل آدم وزوجه من الشجرة وذاقا طعم ما فيها ظهرت لهما عوراتهما؛ لأن الله عاقبهما بإسقاط اللباس عنهما، وجعلا يلزقان ورقة فوق ورقة من ورق الجنة ليسترا به عوراتهما. وعاتبهما ربهما بقوله: ألم أنهكما عن هذه الشجرة وأقل لكما احترسا من الشيطان لأنه عدو لكما ظاهر العداوة؟. قالا تائبين : يارينا إننا ظلمنا أنفسنا بهذه المعصية وإن لم تغفر لنا ذنبنا وترحمنا بفضلك لنكونن من الخاسرين لكل خير. قال تعالى: اهبطوا أى أنتما وإبليس من قبل حال كون بعضكم يعادى بعضًا كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فإبليس يدلكم على الهلاك، وأنتم تلعنونه، ولكم فى الأرض مكان استقرار وتمتع بالعيش إلى حين انقضاء آجالكم، وقال فيها تحيون جيلا بعد جيل، وفيها تموتون، ومنها تخرجون يوم القيامة للثواب والعقاب.

ثم عدد سبحانه نعمه وإرشاده فقال: يا بنى آدم نحن الذين خلقنا لكم لباسا يستر عوراتكم، ولباسا تتزينون به. هذا فيما ينفعكم فى الدنيا، أما فى الآخرة فلباس التقوى كالورع وكل ما يقى عذاب الله خير من كل ما فى الدنيا ذلك اللباس من آيات الله الدالة على فضله سبحانه ورحمته على عباده لعلهم يتذكرون عظيم فضله تعالى فلا يعصونه.

يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان أى يخدعنكم كما خدع أبويكما فأخرجهما من الجنة متسببا فى نزع لباسهما ليريهما عوراتهما. ثم علل التحذير من الشيطان بأنه يرى بنى آدم وهم لا يرونه، وشر الأعداء مَنْ يراك ولا تراه، لأنه يصعب الاحتراز منه.

(١) سوآتهما (٢) وناداهما (٣) الشيطان (٤) الخاسرين
(٥) ومتاع (٦) يابنى آدم (٧) يوارى (٨) سوآتكم
(٩) آيات (١٠) يابنى آدم (١١) الشيطان (١٢) سوآتهما
(١٣) يراكم (١٤) الشياطين.

أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً[1] قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا[2] وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ[3] إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ[4] أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ * يَا بَنِي آدَمَ[5] خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ[6] مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ[7] الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ[8] كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ[9] لِقَوْمٍ

المفردات : ﴿فاحشة﴾ : هى الفعلة المتناهية فى القبح كالطواف بالبيت عراة قائلين : لنكون مجردين من متاع الدنيا كما ولدتنا أمهاتنا، ولئلا نطوف بثياب عصينا الله فيها.

﴿القسط﴾ : العدل.

﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أى اجعلوا وجوهكم مستقيمة لله فى عبادته، والمعنى المراد أخلصوا العبادة لله وحده قال صاحب المنار فى تفسير هذه الآية الكريمة : قل لهم أيها النبى أمرنى ربى بالقسط فاقسطوا وقل لهم أقيموا وجوهكم... إلخ وإقامة الشىء إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه، انظر ﴿يقيمون الصلاة﴾ الآية (٣) من سورة البقرة صفحة ٢، و ﴿أقيموا الوزن﴾ الآية (٩) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩، والوجوه جمع وجه والمراد به هنا توجه القلب انظر الآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨ والمعنى أعطوا توجهكم إلى الله حقه عند كل مسجد تعبدونه فيه من صحة النية وحضور القلب والبعد عن الشواغل سواء أكانت العبادة صلاة أو طوافا أو ذكرًا أو فكرًا، وادعوه وحده مخلصين له الدين لا تشوبوا دعاءكم له سبحانه بأى شائبة من شرك

(١) فاحشة
(٢) آباءنا
(٣) الضلالة
(٤) الشياطين
(٥) يابنى آدم
(٦) والطيبات
(٧) الحياة
(٨) القيامة
(٩) الآيات.

أكبر كالتوسل بالأصنام أو غيرها، أو أصغر كالرياء أو التقرب إليه عز وجل بغير ما أذن لكم به كالنذور لغيره تعالى وما شابه ذلك انظر الآية (١١٢) من سورة البقرة صفحة ٢٢.

﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ : فى هذا التحويل خفاء يحتاج إلى تمحيص فإذا ما رجعنا إلى ما قيل فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ نعلم أن المراد هنا أن زينة الدنيا وطيباتها يتمتع بها الذين آمنوا وإن كانت غير خالصة من مكدرات دار الغرور، هذه المكدرات التى لا يسلم منها حتى الأنبياء والرسل، انظر بعض ما صادف كثيرا منهم من الحزن، وضيق الصدر، والقلق، والخوف إلخ فى آيات (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، و (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤، و (٣٣، ٣٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، و (١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥، و (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، و (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، و (١٠، ١١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. هذه النعم التى هذا حالها فى الدنيا يُعلِم الله المؤمنين يوم القيامة علمًا هو عين اليقين انظر الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨؛ بأنها لهم حال كونها خالصة مما كان يكدرها فى الدنيا، وعند ذلك تنشرح صدورهم بمشاهدة الجنة قريبة منهم انظر الآية (٣١) من سورة ق صفحة ٦٩٠.

المعنى :. إنه سبحانه أكد التحذير من الشيطان تأكيدًا بعد تأكيد فقال تعالى:

إنا جعلنا الشياطين إلخ، أى سهلنا لهم ما سعوا فيه بحسب استعدادهم السيئ من الرغبة فى موالاة ومناصرة الشياطين؛ انظر الآية (٣٠) فى هذه الصفحة وآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، و (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم بيَّن سبحانه بعض آثار ولايتهم للشياطين فقال: وإذا فعل هؤلاء الكفار أولياء الشياطين فعلاً قبيحًا كطوافهم حول الكعبة عراة حتى سوءاتهم ولامهم الناس على ذلك قالوا معتذرين إن آباءهم كانوا يفعلونها، وإن الله تعالى أمرهم بها حيث أقرهم عليها ولو كرهها لَمَنَعهم منها؛ انظر آيات (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠، و (٢٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩. فرد سبحانه افتراءهم عليه بقوله: قل لهم أيها النبى كذبتم لأن الله لا يأمر بالفحشاء، فهل يصح أن تقولوا على الله ما ليس لكم به علم.

ولم يرد هنا على الأمر الأول وهو تقليد الآباء، لأنه تقرر توبيخهم عليه فى القرآن كثيرا؛ انظر آيات (٧٤، ٧٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، و (٢١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٢، و (٢٢ - ٢٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩؛ ثم بيَّن سبحانه ما يصح أن يأمر به فقال:

قل لهم ربى يأمر بالقسط والعدل لا بما تقولون، وقل لهم اجعلوا وجوهكم مستقيمة لله وحده عند كل عبادة خصوصا فى المساجد، وادعوه مخلصين له العبادة بأن لا تخلطوا فى دعائكم ولا عبادتكم أى شائبة من الشرك، فاحترسوا من مخالفته، لأنه كما بدأكم وأنشأكم ابتداء يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم حال كونكم فريقين:

فريقا هداهم الله تعالى فى الدنيا لإخلاصهم، وفريقا حق عليه الضلال لاتباعهم الشياطين وإعراضهم عن دعوة الرسل؛ ولذا قال : إنهم اتخذوا أى استحقوا الإضلال لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء، أى أطاعوهم وعصوا الرسل، ويحسبون أنهم مهتدون لأن الشياطين لقنتهم أن الله عظيم ولا يصح أن يخاطب العظيم مباشرة فلابد من التوسط والتوسل إليه بالأصنام ليقربوهم إليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وفى إبطال زعمهم قال سبحانه: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦؛ يا بنى آدم خذوا زينتكم أى لباس زينتكم المعتادة عند كل عبادة، فلا تقفوا بين يدى الله بأردأ ثيابكم وأوسخها وعندكم أنظف منها، وهذا رد شديد على المشركين الذين كانوا يطوفون عراة ولما كان بعض العرب يحرمون على أنفسهم إذا أحرموا بالحج لحم الشاة وشحمها ولبنها فنهاهم الله عن ذلك بقوله:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فى هذه الثلاثة، وهى الزينة عند العبادة، والأكل، والشرب، لأن الله لا يحب المسرفين فى أى شىء. وقد جمع القرآن الطب فى هذه الآية. قل لهم أيها النبى مستنكرًا تحريمهم الحلال:

مَنْ الذى حرم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق؟ وقل لهم أيها النبى: هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وإن خالطها من شوائب الدنيا

شىء ويوم القيامة يعلمون أنها خالصة من كل ما كان يكدرها فى الدنيا. كهذا التفصيل الدقيق المميز بين الحلال والحرام نفصل كل الآيات الدالة على الأحكام.

يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

المفردات : ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ : تقدم بيانهما فى الآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. ﴿الإثم﴾ : اسم لكل ذنب.

﴿البغى﴾ : الظلم والتعدى على الغير، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ والآية (٢٧) من سورة الشورى صفحتى ٦٤٢، ٦٤٣، والآية (٩) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٥، ٦٨٦. ﴿سلطانا﴾ : حجة وبرهانا. ﴿إما يأتينكم﴾ : أصلها إن ما يأتينكم وما حرف يدل على عموم الأحوال أى فى أى حال يأتينكم رسل إلخ.

﴿لا يستأخرون ساعة﴾ : يطلق العرب الساعة على جزء من الزمن قليل كما هنا، وكلفظ ﴿ساعة﴾ الثانى فى قوله تعالى:

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة﴾ الآية (٥٥) من سورة لقمان صفحة ٥٣٨. أما لفظ ﴿ساعة﴾ المستعمل فى زمننا المقسم إليه مجموع الليل والنهار إلى أربعة وعشرين جزءًا فهو عرف لم يكن معروفا عند العرب. وجاء لفظ الساعة فى لسان الشارع لمعان أخرى. قال الراغب : أصل الساعة جزء من الزمن،

(١) الفواحش (٢) سلطانا (٣) يا بنى آدم
(٤) آياتى (٥) بآياتنا (٦) أصحاب
(٧) خالدون (٨) بآياته (٩) الكتاب.

وعُبِّرَ به عن القيامة قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ الآية (١) من سورة القمر صفحة ٧٠٤. وقال ابن الأثير فى غريب الحديث : وجاء فى الحديث ذكر الساعة مرادًا بها يوم القيامة. والساعة فى الأصل جزء قليل من النهار أو الليل، ثم استعيرت لاسم يوم القيامة، واستعمل العرب الساعة مجازًا فى نهاية أجل الفرد أو الأمة، فيقولون جاءت ساعة فلان وقامت قيامته يريدون جاء وقت موته ويسمونها الساعة الصغرى أو القيامة الصغرى. ومن ذلك فى القرآن ﴿قل أرأيتكم إن آتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ فالساعة هنا هى القيامة الصغرى. لأن الوقت الذى يجاب فيه الدعاء ويكشف فيه الضر لا يكون إلا فى الدنيا وقبل حصول سكرات الموت أنظر آيات (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ فالمراد أو أتتكم مقدمات الموت ولذلك قال العلماء للساعة ثلاثة إطلاقات : ساعة كبرى، وصغرى، ووسطى.

فالساعة الكبرى هى ما تكون عند النفخة الأولى المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ وأيضا فى الآية (١٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٥.

والساعة الصغرى هى ما تكون عند موت كل فرد؛ والساعة الوسطى هى ما تكون عند هلاك أمة أو ذهاب سلطانها. وقد يطلق على الساعة الكبرى هذه اسم يوم القيامة أيضًا توسعا انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ كما يطلقون لفظ ﴿ساعة﴾ على يوم البعث كالساعة الأولى فى الآية (٥٥) من سورة لقمان صفحة ٥٣٨ المذكورة سابقا. ﴿ولا يستأخرون﴾ هذه الجملة معطوفة على كل الجملة الشرطية قبلها، لا على جزائها فقط والمعنى إذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه لحظة كما أنهم لا يتقدمون عليه قبل حلوله. انظر بقية شرحها فى الآية (٤٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٤. ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ : أى يصل إليهم نصيبهم المكتوب لهم عند الله من الأرزاق والأعمال.

المعنى : كهذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فيها من الحكم والأسرار، فيسارعون للعمل بها. وبعد ما أنكر سبحانه عليهم تحريم ما أحله من الزينة وطيبات الأرزاق، أتبع ذلك بأصول المحرمات العامة فقال: قل أيها النبى لهؤلاء المشركين وغيرهم إنما حرم ربى فى كتبه وعلى لسان رسله هذه الموبقات الخمس: الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم،

والبغى الذى لا يكون إلا بالباطل، وهو من ذكر الخاص بعد العام، والشرك بالله بدون حجة، وهذا تهكم بهم لأنه يستحيل أن يقام دليل على الشرك، وأن تفتروا على الله فى التحريم والتحليل والولد والصاحبة من كل ما تتهجمون على مقامه عز وجل بدون علم. وبعد ما بين سبحانه أصول المحرمات والمفاسد المهلكة للأمم قال سبحانه :

﴿ولكل أمة أجل﴾ أى قل لهم أيها النبى أيضا لكل أمة أجل أى وقت محدد لحياتها وسعادتها لا تتعداه، تنتهى بحلول الأجل حياتها، كأمم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممَنْ أهلكهم الله جميعا، وقد تنتهى بحلوله سعادتها واستقلالها فتقع فى الذل تحت حكم غيرها، وذلك لا يكون إلا بانحرافها عن الاستقامة وارتكابها هذه الموبقات التى حرمها الله تعالى فيما سبق، فإذا جاء أجل الأمة لا يستأخرون لحظة كما أنهم لا يتقدمون عليه. فالمعنى أنهم لا يتقدمون على الأجل المحدود وإذا جاء لا يستأخرون عنه، فتنبه وبعد ما قرر سبحانه لكل أمة أجلا لا تسبقه ولا تتعداه، أراد أن يبين ما خاطب به كل أمة على لسان رسولها مبينا لها أصول الدين الذى شرعه لهدايتها، ونبهها إلى أنها إن اتقت وأصلحت فلا خوف عليها فى الآخرة، وإن استكبرت وكذبت الرسل كانت عاقبتها جهنم، فقال:

يا بنى آدم، أى سبق أنى قلت لكل أمة يا بنى آدم إن جاءكم فى أى حال من الأحوال رسل منكم يقرءون عليكم كتبى، فمَنْ اتقى منكم الشرك وأصلح عمله فلا يخاف من هول القيامة، ولا يحزن لفوات مرغوب. والذين يكذبون منكم بآياتنا ويستكبرون عن الإيمان بها أولئك يلازمون النار خالدين فيها. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء المكذب بآياته أراد أن يبين أن مَنْ أشدهم ظلما مَنْ يكذب عليه أو يكذب بآياته فقال: فمَنْ أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممَنْ كذب على الله ونسب إليه الباطل، أو كذب آياته التى أنزلها على رسله. أولئك المفترون والمكذبون يستوفون ما كتب من الأعمال والأعمار والأرزاق إلى أن تأتيهم ملائكة الموت يقبضون أرواحهم، وقالوا لهم أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ليدافعوا عنكم؟ قالوا غابوا عنا فلا نرى لهم وجودا. وبهذا اعترفوا على أنفسهم بالكفر.

كَٰفِرِينَ (١) ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِىٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ (٢) لِأُولَىٰهُمۡ (٣) رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ (٤) عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ (٥) لِأُخۡرَىٰهُمۡ (٦) فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا (٧) وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ (٨) ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (٩) ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ (١٠) لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ (١١) ٱلۡجَنَّةِۖ

المفردات : ﴿قال ادخلوا فى أمم﴾ إلخ

﴿قال﴾ أى الله سبحانه على لسان الملائكة، وإذا راجعت ما قلناه فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صحة ٤٣٤ تعلم أن الله سبحانه يعلن هؤلاء أنه حكم عليهم حكما مقطوعا به حتى كأنه تحقق وصار يخبر عنه، وذلك الحكم أنكم ستدخلون بعد الحساب يوم القيامة فى جهنم محشورين مع أمم مضت قبلكم.

﴿قد خلت﴾ : أى مضت.

﴿ادّاركوا فيها﴾ : أصله تداركوا، أى أدرك بعضهم بعضا وتلاحقوا واجتمعوا فى النار.

﴿أخراهم﴾ : منزلة وهم الأتباع.

﴿لأولاهم﴾ : منزلة وهم القادة والرؤساء؛ اللام بمعنى ﴿عن﴾ أو ﴿فى﴾ أى قال الأتباع فى شأن الزعماء يا ربنا هؤلاء أضلونا.. إلخ.

﴿ضعفا﴾ : مضاعفا أى مثلين، لضلالهم فى أنفسهم، ولإضلالهم غيرهم.

﴿الجمل﴾ : هو الحبل الغليظ الذى تربط به السفن.

﴿سم الخياط﴾ : سم ثقب، والخياط هى الإبرة.

(١) كافرين (٢) أخراهم (٣) لأولاهم
(٤) فآتهم (٥) أولاهم (٦) لأخراهم
(٧) بآياتنا (٨) أبواب (٩) الظالمين
(١٠) الصالحات (١١) أصحاب.

﴿مهاد﴾ : فراش من تحتهم.

﴿غواش﴾ : قمع غاشية وهى الغطاء؛ انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨. والمراد أن النار محيطة بهم.

المعنى : . وشهدوا واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم آلهة من دون الله كافرين. والمراد تحذير المشركين وحملهم على التأمل فيما سيلاقيهم إذا استمروا على شركهم.

وتقول لهم الملائكة بأمره تعالى ادخلوا فى عداد أمم قد مضت من قبلكم من الجن والإنس وعملوا مثل عملكم. وهذا يشعر بأنه سبحانه يدخل الكافرين فى جهنم أفواجا، فوجا بعد فوج لا دفعة واحدة؛ ولذا قال:

كلما دخلت أمة منهم فى النار لعنت أختها فى الكفر والتى سبقتها للنار؛ انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. حتى إذا أدرك بعضهم بعضا واجتمعوا فى النار قالت الأتباع مخاطبة الرب سبحانه بخصوص القادة:

يأربنا هؤلاء الرؤساء هم الذين أضلونا فجازهم بعذاب مضاعف من النار، فيقول سبحانه : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف؛ أما الرؤساء فلما تقدم، وأما الأتباع فإنهم بتقليدهم الأعمى فى العقيدة التى لا يجوز فيها التقليد جمعوا مع ضلالهم جرما آخر هو زيادة ضلال الرؤساء وطغيانهم، والتقرير بالبسطاء الذين لم يقعوا فى شباك الرؤساء، ولكنكم لا تعلمون ما أعد لكل منكم. وانظر هذا الجدال بينهما فى الآيات (١٦٥ ـ ١٦٧) من سورة البقرة صفحتى ٣١، ٣٢، و (٣١ ـ ٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧. وقالت أولاهم لأخراهم حين سمعوا جوابه تعالى: فما كان لكم علينا بعد هذا البيان فضل، أى لا مزية لكم علينا تقتضى تخفيف العذاب عنكم دوننا بل نحن متساوون فى العذاب ومضاعفته.

ويقول القادة للأتباع على سبيل التشفى: فذوقوا العذاب المضاعف بسبب كسبكم ما استحققتموه به. ثم قال سبحانه مبينا سبب سوء خاتمة هؤلاء : إن الذين كذبوا بآياتنا التى جاء بها الرسل واستكبروا عن الإيمان بها لا تفتح لهم أبواب السماء، أى لا يقبل لهم دعاء ولا عمل، وبهذا لا يدخلون الجنة إلا إذا دخل حبل السفينة الغليظ فى ثقب الإبرة، والمراد أنه مستحيل. وبمثل هذا الجزاء العادل نجزى كل مجرم؛ ثم فصّل بعض هذا الجزاء فقال: لهم من جهنم فراش، ولهم منها غطاء، ومثل هذا الجزاء يجزى الظالمين، والمراد أنهم جمعوا بين الشرك والإجرام والظلم. ولما ذكر جزاء الكافر العاصى ناسب أن يقترن به جزاء المؤمن الطائع كعادة القرآن، فقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات، التى ما كلفناهم بها إلا وهى فى طاقتهم لا صعوبة فيها، أولئك هم أصحاب الجنة خالدين فيها.

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ[1]
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ[2] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا[3]
لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ[4] لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ
أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا
حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ
وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ

المفردات : . ﴿غل﴾ : حقد كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (١٠) من سورة الحشر صفحة ٧٣١. ﴿أذن مؤذن﴾ : أى نادى مناد.

﴿بينهم﴾ : أى موجود فى مكان متوسط بين الفريقين.

﴿يصدون﴾ : الأصل صدوا فى الدنيا ولكن عبر بالمضارع لاستحضار الصور العجيبة فى البشاعة.

﴿يبغونها عوجا﴾ : أى يطلبون لها الاعوجاج والتناقض كما تقدم فى الآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩.

﴿حجاب﴾: هو السور المذكور فى الآية (١٣) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠.

﴿الأعراف﴾ : جمع عرف بوزن قفل وهو اسم لأعالى الأشياء ومنه عرف الديك، وعرف الفرس والمراد به هنا أعلى السور.

﴿سيماهم﴾ : علاماتهم المميزة لهم عن غيرهم. ﴿تلقاء﴾ : أى جهة.

المعنى : . ونزعنا ما كان فى قلوبهم من حقد فى الدنيا ليكونوا إخوانا على سرر متقابلين؛ انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، حال كونهم تجرى من تحت غرفهم فى الجنة

(١) خالدون (٢) الأنهار (٣، ٤) هدانا
(٥، ٦) أصحاب (٧) الظالمين (٨) كافرون
(٩) بسيماهم (١٠) أصحاب (١١) سلام
(١٢) أبصارهم.

الأنهار، قائلين شكرا لله : الحمد لله الذى هدانا وأرشدنا لما هو وسيلة لهذا النعيم، وما كان فى استطاعتنا أن نهتدى بأنفسنا لكل سبل الخير لولا أن أرشدنا الله تعالى إليها بإرسال الرسل يبينون لنا ما فيه سعادتنا، فقد جاءت رسل ربنا بالحق الثابت الذى لا يخالطه باطل. وناداهم مناد بأن قال لهم: تلكم هى الجنة العالية المنزلة البعيدة المنال لغير أهلها التى أعطاها الله تعالى لكم بفضله جزاء عملكم الصالح. وبعد أن ذكر سبحانه أصحاب النار وأصحاب الجنة، أراد أن يبين لنا ما يكون بين الفريقين من الحوار، فقال عز وجل: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ أى نادوا، على أصحاب النار قائلين فى ندائهم: إننا وجدنا ما وعدنا ربنا من الثواب حقا ثابتا لم يتخلف، فهل وجدتم أنتم أيضا ما وعدكم ربكم من العذاب حقا؟ ومرادهم بهذا الاعتراف بفضله والشماتة بالكفار. والتعبير بالوعد فى جانب العذاب معهود فى القرآن وإن كان أقل من الوعيد يؤتى به للتهكم، نظير قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة صفحة ٥٧، والآية (٦٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢، والآية (٧٢) من سورة الحج صفحتى ٤٤٣، ٤٤٤. وهذا على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع من اطلاع أهل الجنة وهم فى عليين على أهل النار وهم فى سجين. وقد كان هذا بعيد التصور فى العصور الأولى، أما الآن وبعد أن قدر البشر على أن يتخاطب مَنْ فى أقصى الشرق مع مَنْ فى أقصى الغرب مع رؤية كل منهما للآخر بواسطة (تليفزيون). فلا يبعد على القدير عز وجل أن يجعل أهل الآخرة يتراءون ويتخاطبون مع بعد الشقة كما يتخاطب الجليس مع جليسه. وشئون الآخرة لا يعلمها إلا هو عز وجل. وعندما يعترف أهل النار بصدق وعد الله ينادى مناد من قبل الله تعالى قائلا: لعنة الله وغضبه على الظالمين الذين كانوا فى الدنيا يمنعون الناس عن دين الله، ويعملون مجتهدين على جعله فى نظر الناس معوجًا بتحريفه وتغييره حسب شهواتهم، وهم بالدار الآخرة كافرون. وبين الجنة والنار وأصحابهما سور قد اعتلاه رجال أى ونساء وإنما قصر الكلام على الرجال لأن الكثير أن يكون التخاطب فى مثل هذه الحالة بين الرجال، وهؤلاء الواقفون على الأعراف هم مَنْ استوت حسناتهم وسيئاتهم، بعد أن اتجه مَنْ غلبت حسناته إلى الجنة، ومَنْ غلبت سيئاته إلى جهنم. يعرف هؤلاء الرجال كلا من الفريقين : فريق الجنة، وفريق النار بعلاماتهم المذكورة فى الآية (٣٨) وما بعدها لآخر سورة عبس صفحة ٧٩٣. ويظهر أن ما يحصل من أهل الأعراف من هذا النداء هنا يكون قبل دخول الفريقين الجنة والنار، إذ لو كان بعده لكانت معرفتهم بدخولهم لا بالعلامات فتنبه وتأمل وقال بعضهم: إنه بعد دخولهم الجنة وتكون الباء فى ﴿بسيماهم﴾ للمصاحبة لا للسببية، أى يعرفون كلا من الفريقين وهو مصاحب ومتصف

أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن

بصفته. ونادى أهل الأعراف على أصحاب الجنة قائلين : سلام وأمان من الله عليكم، أى نهنئكم بذلك، والحال أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ولكنهم يطمعون فى كرم الله ليدخلوها. وهذا ما سيحصل آخر الأمر. وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف جهة....

المفردات : . ﴿حرمهما﴾ : أى منعهما، فالتحريم بمعنى المنع لا التحريم الشرعى، انظر آية (٧٢) من سورة المائدة صفحتى ١٥١، ١٥٢ و (١٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿لهوا﴾ : اللهو ما يشغل الإنسان عن الجد. ﴿ولعبا﴾ : اللعب هو ما تقصد منه فائدة صحيحة كأعمال الأطفال. ﴿ينظرون﴾ : ينتظرون تأويله: عاقبة أمره وما يئول إليه ما أخبر به من الوعد والوعيد.

﴿نسوه﴾ : المراد تركوا العمل به انظر الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧.

المعنى : . وإذا صرفت أبصارهم من غير رغبة منهم، بل بمقتضى سرعة تحولها من جهة إلى جهة؛ ولذا لم يقل: وإذا صرفوا أبصارهم جهة أصحاب النار، قالوا ربنا إلخ، أى استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم منهم ونادى أصحاب الأعراف، كرر ذكرهم ولم يقل ونادوا، لأن النادمين هنا غير المتقدمين، والموضوع غير الموضوع، فالمراد من أصحاب الأعراف هنا قوم ممن كانوا فى مكة أيام طغيان كفار قريش، والرجال المنادى عليهم هم

(١) أصحاب (٢) الظالمين (٣) أصحاب
(٤) بسيماهم (٥، ٦) أصحاب (٧) الكافرين
(٨) الحياة (٩) ننساهم (١٠) بآياتنا
(١١) جئناهم (١٢) بكتاب (١٣) فصلناه

رؤساء المشركين كأبى جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما، يعرفونهم بعلامات كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا، وقالوا لهم توبيخا وتبكيتا: ما أغنى عنكم جمعكم للمال والرجال لقتال المسلمين واستكباركم على ضعفاء المؤمنين الذين عذبتموهم وسخرتم منهم أهؤلاء المستضعفون كبلال وآل ياسر هم الذين أقسمتم فى الدنيا على أن لا ينالهم الله برحمته لأنه لم يعطهم من الدنيا ما أعطاكم! فانظروا الآن كيف قال لهم الرحمن: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من مكروه ولا تحزنون لفوات مرغوب، انظر ما كانوا يقولونه فى هؤلاء الضعفاء فى الدنيا وما كان يقوله أمثالهم من كفار الأمم السابقة فى الضعفاء أمثالهم فى آيات (٢٧ إلى ٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩، والآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤، والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، والآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧. وبعد ما فرغ سبحانه من مخاطبة أصحاب الأعراف شرع فى بيان ما سيكون من الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ليتنبه الغافل ويرجع الكافر فقال: ونادى أصحاب النار لما اشتد بهم العطش والجوع على أصحاب الجنة قائلين: أفيضوا أى أعطونا شيئا من الماء أو مما رزقكم الله من الطعام. قالوا ردا عليهم: لانعطيكم شيئا لأن الله منعهما عن الكافرين. وهنا انتهى كلام أهل الجنة.

ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب كفرهم فقال: الذين اتخذوا دينهم الذى كان يجب أن يحترموه لهوا ولعبا، فحرموا وحللوا حسب شهواتهم، واغتروا بزخارف الدنيا وزينتها، ثم قال تعالى تفريعا على رد أصحاب الجنة: لهذا نتركهم فى يوم الجزاء خالدين فى العذاب لنسيانهم لقاء ربهم فى يومهم هذا بإنكارهم البعث وجحودهم المستمر لآيات الله، فالكاف هنا كالكاف فى الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩ للتعليل. ثم تكلم سبحانه عن كفار مكة فقال: ولقد جئناهم بكتاب هو القرآن فصلنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه، عالمين بحكمة كل ما فيه، حال كونه أكبر هاد للصواب، ورحمة بالعباد الذين استعدوا بسلامة فطرتهم للإيمان ﴿هل ينظرون﴾ الاستفهام للإنكار المفيد للنفى، أى ليس أمامهم شىء ينتظرونه إلا حصول ما يئول إليه أمر أخباره ووعده ووعيده، وهو خذلانهم فى الدنيا وخلودهم فى النار فى الآخرة. يوم يأتى ويحصل ما أخبر به يقول الذين تركوا هذا الكتاب.

قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ(١) وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ(٢) النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ(٣) بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٤) ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا(٥) وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ(٦) اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ(٧) بُشْرًا(٨) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ(٩) لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ

المفردات: ﴿ستة أيام﴾: يطلق اليوم على جزء من الزمن يتميز عن غيره بما يحدث فيه كيومنا المعروف الذى يعرف بالنور والظلمة. وأيام العرب هى مدة الحروب التى كانت تدور بينهم ويطلقونها على ما فيها. انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ وأيام الله المذكورة فى سورة إبراهيم هى الأحداث التى حلت بالأمم.

أما اليوم هنا فهو مدة من الزمن الذى حدده الله لانتقال المخلوقات من حال إلى حال فى مبدأ الخلقة، ولا يعلم تحديده غيره تعالى وقد يراد به لحظة.

انظر الآية (٢٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠، وله أيام أخر حددها تقريبا لأذهاننا تارة بألف سنة كما فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ والآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥ وتارة بخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ﴿يغشى الليل النهار﴾: أى يغطيه به ويجعله غشاء وسترا له. ﴿حثيثا﴾: سريعا. ﴿تضرعا﴾: هو التذلل ومنتهى الخشوع، والمراد به هنا الصفة، أى متضرعين. ﴿بشرا﴾: أصلها بشرا بضم أوله وثانيه. جمع بشير، كنذر ونذير، وسكنت الشين لتخفيف النطق به ﴿بين يدى﴾: أى أمام

(١) السموات
(٢) الليل
(٣) مسخرات
(٤) العالمين
(٥) اصلاحها
(٦) رحمة
(٧) الرياح
(٨) بشرى
(٩) سقناه.

﴿رحمته﴾ : المراد بها هنا المطر الذى هو من أجلّ نعمه ورحمته تعالى لأن جميع المياه العذبة التى بها الحياة والنبات من ماء المطر، سواء منها ما كان فى الأنهار أو فى جوف الأرض، انظر الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٣، وهذا الماء العذب هو الذى ينقذ الخلق من الظمأ والقحط.

﴿أقلت سحابا﴾ أى حملته ورفعته. ﴿بلد ميت﴾ : أى ليس بأرضه ماء ولا نبات، فهو جاف قحل لا ينتفع به كما لا ينتفع بالميت؛ انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، والآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠ وآيات (١٩، ٢٤، ٥٠) من سورة الروم صفحات ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧ والآية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، والآية (٣٣) من سورة يس صفحة ٥٨٢، وغير ذلك فى القرآن كثير.

المعنى : . يوم يأتى ما وعد به القرآن عند نهاية العالم وترتفع الحجب يقول الذين تركوا القرآن كالمنسى من قبل فى الدنيا : قد جاءت رسل ربنا بالحق، أى يعترفون بصحة ما جاءت به الرسل فى وقت لا ينفع فيه إيمان، ثم يتمنون أحد أمرين لإنقاذهم: إما شفعاء يشفعون لهم، أو رجوعهم إلى الدنيا كما فى آيات (١٠٠، ١٠١، ١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، والآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، فكأنهم يقولون : هل لنا من شفعاء أو هل نرد أى نرجع إلى الدنيا ثم شرح سبحانه حالهم بقوله: قد خسروا أنفسهم فى الدنيا بتدنيسها بالشرك والمعاصى وضل أى غاب عنهم ما كانوا يفترونه من آلهة تقربهم من الله كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وتشفع لهم. وبعد ما بين سبحانه حال المشركين فى الآخرة أتبع ذلك بخمسة أدلة على وحدانيته وقدرته موجبة قصر العبادة والدعاء عليه تعالى فقال.

﴿إن ربكم الله﴾ إلخ؛ أى إن الرب الحق لكم يا جميع المكلفين هو الله الذى خلق السموات والأرض أى وما فيهما كما فى الآية (٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، ثم استوى على العرش، المراد أنه سبحانه بعد تكوين هذا الملك استوى على عرشه استواء يليق به، يدبر

أمره ويصرف نظامه على حسب حكمته، انظر الآية ٣ من سورة يونس صفحة ٢٦٥ وآيتى (٢، ٣) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١.

والعرب تكنى بالاستواء على العرش عن التملك. والعقل عاجز عن معرفة حقيقة الله عز وجل وصفاته، ويقطع بأنها ليس كمثلها شىء، فقدرته وعلمه وبصره وسمعه مثلا ليست كما هى عندنا، فكذا عرشه واستواؤه، وإنما الذى نفهمه ويكلفنا الله تعالى به هو أن نعتقد أن أمر الملك والتصرف فيه إنما هو لله وحده. وقد حكم السلف على مَنْ بحث فى حقيقة ذلك بأنه مبتدع يجب زجره. ثم ذكر سبحانه بعض تصريفه للكون فقال:

﴿يغشى الليل النهار﴾ أى يجعل الليل يستر ضوء النهار حال كونه يتبعه مسرعا كالطالب له بدون تراخ. وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات، أى مذللات خاضعات لأمره وتصريفه. ﴿ألا﴾ كلمة يراد بها تنبيه السامع والقارئ لما بعدها ليتأمله، أى تنبه فإن لله وحده خلق كل شىء، وله الأمر فيه بالتشريع والتدبير والتصرف.

﴿تبارك الله﴾ أى تعاظمت وتزايدت بركاته. وبعد ما ذكر سبحانه دليل توحيده أمر بما يجب أن يكون لازما لها وهو إفراده سبحانه بالدعاء والعبادة، فقال :

ادعوا ربكم متضرعين مخفين، لأنه أبعد عن الرياء، فلا يطلب رفع الصوت به إلا فيما شرع الله فيه الرفع لحكمة، كالأذان، وتكبير العيد، والتلبية فى الحج؛ لأنه سبحانه لا يحب المعتدين فى الدعاء، كما لا يحبهم فى كل شىء. والاعتداء فى الدعاء المبالغة فيه بما لا ينبغى ولا يجوز. ولا تفسدوا فى الأرض بالمعصية والظلم بعد إصلاح الله تعالى لها بما خلق فيها من المنافع، فلا تقلبوا النافع ضارًا، وادعوه سبحانه خائفين من غضبه، فتبعدوا عن سببه، وطمعا فى رحمته. ويفهم من الكلام تغليب الخوف على الرجاء ليأمن العبد الوقوع فى الخطر. ادعوه ولا تخشوا رد دعاء المخلص؛ لأن رحمته تعالى أى إحسانه قريب من المحسنين لأعمالهم، فلا يرد لهم دعاء. ومن دلائل قدرته أنه هو الذى يرسل الرياح مبشرة المجدبين أمام المطر، ولا تكاد تجد القرآن يذكر الرياح جمعا إلا فى الخير، ولا الريح مفردة إلا فى العذاب والشر؛ حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء سقنا هذا السحاب إلى بلد ميت قحل، انظر آية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، فأنزلنا بسبب هذا السحاب الماء...

ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ(١) كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ(٢) لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ(٣) ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ(٤) فِى ضَلَٰلٍ(٥) مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ(٦) لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ(٧) وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٨) ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ(٩) رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ(١٠) وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ

المفردات : ﴿البلد الطيب﴾ : أى الأرض الطيبة التربة الخصبة. ﴿خبث﴾ : أى ردئ التربة كالسبخة. ﴿نكدا﴾ : هو مالا يخرج إلا بعسر وصعوبة. ﴿الملأ﴾ : هم الأشراف والسادة الذين يملئون العيون مهابة.

﴿رسالات ربى﴾ : أراد بها ما أوحى إليه فى الأزمان الطويلة متفرقا من الأوامر والنواهى والمواعظ وكل المعانى المختلفة.

﴿ذكر من ربكم﴾ : موعظة وتذكير.

﴿على رجل منكم﴾ : على لسان رجل

﴿الفلك﴾ : العظيم من السفن.

المعنى : . فأخرجنا بالسحاب بواسطة مائه ثمرات كثيرة. كإخراج الثمرات هذه نخرج الموتى يوم القيامة لعلكم تذكرون قدرتنا فتؤمنون بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين. والبلد الطيب يخرج نباته بسهولة بتيسير الله، والبلد الخبيث التربة لا يخرج نباته مع قلته إلا بعسر وصعوبة قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والبار والفاجر؛ فالوعظ والإرشاد ينفع المؤمن الصالح، ولا يؤثر فى الكافر والفاجر ومثل هذا التصريف والتنويع نصرف الآيات ونرددها لقوم يشكرون نعمه تعالى فيتفكرون ويعتبرون. ثم شرع سبحانه فى ذكر ما حصل لبعض الأنبياء مع أممهم ليعتبر العاقل بما حصل فيبتعد عن سبب غضب الله وعذابه فقال: لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله غيره، وإذا لم تفردوه بالعبادة فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، هو يوم نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة، فقال كبار القوم المترفون : إنا لنراك يا نوح فى ضلال عن الصواب، ظاهر واضح قال: يا قوم ليس بى أقل ضلال وهو الضلالة الواحدة، ثم استدرك لتأكيد نفى الضلال فقال: ولكنى رسول من رب العالمين، أى لست بعيدا عن الضلال فقط بل أنا رسول إلخ، فأنا على صراط مستقيم، جئت أبلغكم رسالة ربى فى المواضيع المختلفة وأنصح لكم بسلوك طريق الخير، لأنى أعلم من الله.

(١) الثمرات (٢) الآيات (٣) يا قوم (٤) لنراك (٥) ضلال
(٦) يا قوم (٧) ضلالة (٨) العالمين (٩) رسالات (١٠) فأنجيناه

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ(١) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ(٢) ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ(٣) فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ(٤) ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ(٥) لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٦) ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ(٧) رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً(٨) فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ(٩) ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ(١٠) ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

مالا تعلمون، فهو رحيم غفور لمن تاب ورجع إليه، وشديد العذاب لمَنْ كفر به وعصاه، فهل بعد هذا كذبتم وعجبتم من أن يجيئكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ليحذركم عاقبة الكفر، ولتتقوا الله وتخافوه لعله يرحمكم. فكذبوه فى دعوى الرسالة، فأنجيناه والذين كانوا معه وصحبوه فى الفلك، وهم الذين آمنوا به وكانوا قليلين؛ انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، وأغرقنا جميع الباقى الذين كذبوا بآياتنا....

المفردات : . ﴿عمين﴾ : جمع عم بالتنوين. وأصله عمِىٌ بكسر الميم والياء منونة، بوزن كتف وهو فاقد نور البَصيرة والأعمى فاقد نورالعين؛ قال زهير:

ولكننى عن علم ما فى غد عم.

﴿بسطة﴾ : أى سعة فى الملك وقوة الأبدان، فكانوا أطول ما فى العالم أجساما وأقوى أبدانا.

﴿آلاء الله﴾ : نعمه مفردها إِلْى بكسر فسكون كحمل وأحمال. ﴿نذر﴾ : أى نترك.

المعنى : . أنجينا نوحا ومَنْ معه. وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فلم يؤمنوا؛ لأنهم كانوا عمى القلوب.

وأرسلنا إلى عاد وهى قبيلة كبيرة كانت فى اليمن تعبد الأصنام، أخاهم هودا، قال : يا قوم اعبدوا الله وحده مالكم إله غيره، أفلا تتقون عذابه؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه، وهذا يفيد أن من أشراف قوم هود مَنْ آمن به بخلاف قوم نوح فإنه لم يؤمن به من هؤلاء الأشراف أحد: إنَّا لنراك فى سفاهة، أى خفة عقل وطيش، لأنك تأمر بترك دين قومك إلى دين آخر وإنَّا لنظنك من الكاذبين فى ادعائك الرسالة. قال : يا قوم ليس عندى سفاهة أبدا بل أنا رسول من رب العالمين إليكم، أرسلنى أبلغكم رسالات ربى، كما قال نوح، وأنا لكم ناصح فيما

(١) بآياتنا (٢) يا قوم (٣) لنراك (٤) الكاذبين (٥) يا قوم
(٦) العالمين (٧) رسالات (٨) بسطة (٩) آلاء (١٠) الصادقين.

رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي[1] فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ[2] فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ[3] وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا[4] وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا[5] قَالَ يَٰقَوْمِ[6] ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ[7] ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ

ادعوكم إليه، أمين على ما أقول وعلى مصلحتكم. أعَجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم إلى آخر ما تقدم فى قول نوح، وأراد حملهم على التوحيد بتذكيرهم بنعم الله عليهم فقال: واذكروا فضل الله حين جعلكم خلفاءه فى الأرض من بعد ذهاب قوم نوح، وزادكم من بين الخلق بسطة، فاذكروا نعم الله بالشكر عليها ليديمها عليكم، ولا يكون ذلك إلا بعبادته وحده، لعلكم تفوزون بما فيه سعادتكم قالوا فى ردهم عليه: أجئتنا لنعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا؟ كلا، بل لابد من عبادتهم مع الله والتوسط بهم عنده ليكونوا شفعاء لنا عنده، فأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين، انظر آيات من (١٢٢ إلى ١٣٩).

من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨ قال قد وقع ونزل، أى لابد من نزوله؛ فكأنه وقع عليهم.....

المفردات : ﴿رجس﴾ : أى عذاب. ﴿سلطان﴾ : برهان. ﴿دابر القوم﴾ : أصل الدابر خلف الشىء الذى يكون وراءه، والمراد هلكوا عن آخرهم. ﴿آية﴾ : أى أن أحوالها معجزة تدل على تمام قدرتنا على ما نريده من كل أمر خارق للعادة، لأنها كانت تشرب كل الماء الذى يكفى القوم جميعا فى يوم واحد، وقَسَّم سبحانه الماء بينهم وبينها، فجعل لها الماء يوما خاصًا بها، وجعله لهم يوما خاصًا بهم، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩ وآيتى (٢٧، ٢٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٦. ﴿فذروها﴾ : اتركوها. ﴿بوأكم﴾ : أى أنزلكم فى مباءة وهى المكان الذى ينزل فيه. ﴿آلاء الله﴾ : أى نعمه تعالى كما تقدم. ﴿تعثوا فى الأرض﴾ : يقال عثى يعثى من باب ضرب وعلم، وعثى يعثو، وكلها بمعنى أفسد، فمفسدين بعدها لإفادة معنى الثبات على الفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

---

(١) أتجادلوننى (٢) سلطان (٣) فانجيناه (٤) بآياتنا (٥) صالحا (٦) يا قوم (٧) آلاء.

المعنى : قال قد تحقق وقوع العذاب والغضب من الله ربكم الذى خلقكم ورزقكم فعبدتم معه غيره، وهل يصح أن تجادلونى فى الدفاع عن أشياء ماهى إلا أسماء ليس لها معنى، لأنهم سموا الأصنام آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية، ما أنزل الله بها حجة تدل على صحتها. وهذا مستحيل لأن الباطل لا دليل له، انظر اعترافهم بيوم القيامة فى الآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧. فانتظروا نزول العذاب إنا معكم منتظرون ذلك وستعلمون صدقنا، فنزل العذاب المشار إليه فى الآية (٢٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠. فأنجيناه والذين معه من المؤمنين برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا، وقطعنا دابر المكذبين بآياتنا، أى أهلكناهم عن آخرهم، ولو تركوا ما كانوا ليؤمنوا أبدا، فإهلاكهم عدل، ولا فائدة فى إمهالهم؛ انظر الآية (١٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٧.

وأرسلنا إلى ثمود، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام، أخاهم صالحا؛ قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده مالكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة أى حجة ظاهرة شاهدة على صحة نبوتى، ثم بين هذه الحجة فقال : هذه ناقة الله، نسبها له تعالى تعظيما لشأنها، ولأنها كانت فى أحوالها خارقة للمعتاد؛ فقال لهم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها أى اتركوها تأكل فى أرض الله، أى هى ناقة الله تعالى تأكل فى أرضه سبحانه فليس لكم منعها، ولا تمسوها بسوء، فإن مسستموها بأذى يأخذكم عذاب شديد الألم. وتذكروا نعمه تعالى عليكم حين جعلكم خلفاء من بعد عاد، وأنزلكم فى مباءة من الأرض تتخذون فى سهولها قصورًا تصيفون فيها، وتنحتون فى الجبال بيوتا تشتون فيها، فاذكروا نعم الله تعالى هذه، ولا تفسدوا فى الأرض بالشرك والطغيان مداومين على الإفساد. عند ذلك أهمله هو تكبرا عليه، وتوجهوا بالكلام لمَنْ آمن معه من المستضعفين المنكرين.

المفردات : ﴿عتوا﴾ : يقال عتا الرجل يعتو بوزن سما يسمو إذا تمرد وتجاوز الحد فى ارتكاب الجرائم حتى صار لا ينفع فيه وعظ ولا تحذير، ويقال أيضا عتا الشيخ الكبير إذا أَسَنَّ وهرم ويبست مفاصله وصار فى حالة يصعب علاجها. وما هنا من المعنى الأول. ومن الثانى ما فى الآية (٨) من سورة مريم صفحتى ٢٩٦، ٢٩٧.

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

﴿جاثمين﴾ : الجثوم : البروك على الركب، والمراد هامدين موتى لا حراك بهم.

﴿الرجفة﴾ : الزلزلة والاضطراب الشديد. وعبر هنا بالرجفة وفى الآية (٥) من سورة الحاقه صفحة ٧٦١ بالطاغية: ولا منافاة بين الجميع، فإن الرجفة العظيمة الخارقة للعادة تحصل منها هزة للقلوب تهزها هزا عنيفا، ولخروجها عن المعتاد سميت طاغية لأن الطغيان مجاوزة الحد. ﴿قريتكم﴾ : هى سدوم وكانت فى شرق الأردن كما سيأتى فى الآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

المعنى : . وجه المستكبرون السؤال للذين استضعفوهم استهزاء بهم وبنبيهم:

هل تعلمون أن صالحا مرسل من ربه حقيقة؟ فرد المؤمنون عليهم أحسن رد، حيث أفهموهم أن رسالته لاشك فيها، وإنما الذى ينبغى أن نخبركم به إنما هو إيماننا نحن به. فنحن مؤمنون بما أرسله الله به، فقال الذين استكبروا متبجحين: إنا بالذى آمنتم به كافرون. واتبعوا ردهم الخبيث بأقبح عمل هو ذبح الناقة التى أخبرهم صالح أنها آية الله وأمرهم بعدم المساس بها، واستكبروا عن امتثال أمر ربهم الذى بلغه لهم صالح، وقالوا مخاطبين صالحا تعجيزا له فى زعمهم ائتنا ما وعدتنا به من العذاب إن كنت من رسل الله حقا. فأخذتهم رجفة شديدة فأصبحوا جثثا هامدة وتحقق ما وعدهم به صالح. عند ذلك تولى وابتعد صالح عنهم وقال متحسرا على عدم قبولهم نصحه متبرئا منهم: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت

(١) صالحا (٢) كافرون (٣) يا صالح
(٤) جاثمين (٥) يا قوم (٦) الناصحين
(٧) الفاحشة (٨) العالمين (٩) فانجيناه.

لكم بقبولها خوف الهلاك، ولكنكم لم تحبوا الناصحين، فليس المراد أنه خاطبهم وسمعوا، بل المراد من قوله هو ما علمت من التحسر والتبرؤ، وتعزية نفسه بأنه لم يقصر فى نصحهم واذكر أيها النبى لقومك ليعتبروا ويحذروا غضب الله، لوطا، وهو نبى الله، وابن أخى إبراهيم عليه السلام، أسكنه عمه إبراهيم قرية سدوم بشرق الأردن قريبا من البحر الميت؛ أى واذكر أيها النبى لوطا الذى أرسلناه لقومه حين قال لهم منكرا عليهم:

هل يصح أن تفعلوا الفعلة المتناهية فى الفحش؟ ومن زيادة جرمكم أنكم أنتم الذين ابتدعتموها؛ لأنه لم يسبقكم بها أحد من العالم كله. ثم بين هذه الفاحشة بقوله: إنكم لتأتون الرجال لمجرد الشهوة لا طلبا للنسل وتركتم النساء كما فى آيتى (١٦٥، ١٦٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، بل تجاوزتهم الحد فى كل شىء كما فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، وما كان لهم جواب إلا قولهم أخرجوهم، أى لوطا ومَنْ آمن معه، انظر الآية (٥٦) من سورة النمل صفحة ٥٠١. والذى يتأمل جميع ما جاء فى القرآن عن هذه الحادثة يعلم أنه لما نهاهم عليه السلام عن هذه الفاحشة نهاهم أيضا عن جرائم أخرى بينتها الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، وأنهم ردوا عليه أولاً بالتهديد بطرده إن للم يسكت كما فى الاية (١٦٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، وأنه لما لم يسكت قالوا إن كنت صادقا فأتنا بما تعدنا من العذاب، أى وإلا فاسكت كما فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ولما كرر النهى ثالثا ورابعا كما هى عادة الواعظ المصلح، أمروا بإخراجه كما هنا وعللوا طرده هو ومَنْ معه بأنهم أناس يحبون التطهر، وهذا صدر منهم على سبيل السخرية كما يقول الفسّاق فى مجلسهم إذا غشيهم رجل صالح: أبعدوا عنا هذا الزاهد المتقشف. فأنزلنا بهم العذاب، وأنجيناه وأهله، والمراد بأهله مَنْ آمن معه منهم؛ انظر الآيات (٢٦، ٣٥، ٣٦) من سورة الذاريات صفحتى ٦٩٣، ٦٩٤، إلا امرأته لم ننجها بل أهلكناها معهم كما فى الآية (٨١) من سورة هود صفحة ٢٩٦.

كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

المفردات : ﴿الغابرين﴾ : يقال غبر الشيء إذا بقى منقطعا عما كان معه، وإذا ذهب وهلك، ويصح هنا كل من المعنيين؛ أى من الباقين فى مكان العذاب، أو الذاهبين الهالكين.

﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ : المراد بالمطر هنا الحجارة المحماة بالنار التى أرسلت عليهم من السماء بعد خسف القرية؛ انظر الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦ والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. ومن كل هذا تعلم أنه ليس مطر الخير المتقدم فى الآية (٥٧) من هذه السورة صفحتى ٢٠١، ٢٠٢ بل مطر سوء كما فى الآية (٤٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥.

﴿مدين﴾ : فى التوراة ما يفيد أن مدين اسم ولد من نسل إبراهيم عليه السلام ثم أطلق على القبيلة التى من نسله، وأطلق أيضا على مساكنهم، وهذا الأخير هو الظاهر فى الآية (٤٥) من سورة القصص صفحة ٥١٣. ويجب أن يعلم أيضا أن شعيبا أرسل أيضا إلى أصحاب الأيكة وكذبوه أيضا فأخذهم عذاب يوم الظلة انظر الآيات (١٧٦ - ١٨٩) من سورة الشعراء صفحتى ٤٩٠، ٤٩١.

(١) الغابرين
(٢) عاقبة
(٣) يا قوم
(٤) إصلاحها
(٥) صراط
(٦) عاقبة
(٧) الحاكمين.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ : أى لا تقطعوا طريق الحق على سالكيه، وفسر ذلك بما بعده. ﴿توعدون﴾ : أى تخوفون. ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ﴿وتبغونها عوجا﴾ : تقدم تفسيرهما فى الآية (٤٥) من هذه السورة صفحة ١٩٩.

المعنى .. فأنجيناه وأهل بيته إلا امرأته صارت من الهالكين؛ لأنها كانت من الكافرين؛ انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، وأمطرنا عليهم عذابا من السماء بعد قلب القرية عاليها على سافلها كما فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. فانظر أيها السامع وتأمل كيف صارت عاقبة المجرمين، وابتعد عن أسبابها. قال أبو جعفر: قلت لمحمد بن على هل عذب الله قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله أعدل من ذلك، ولكنهم لما استغنى الرجال بالرجال واستغنى النساء بالنساء أهلكهم الله جميعا؛ انظر آيتى (١٥، ١٦) من سورة النساء صفحة ١٠١ ولأرسلنا إلى أهل مدين من العرب العاربة، وكانت أرضهم تمتد ما بين طورسينا إلى الفرات، وكانوا قد جمعوا إلى كفرهم بخس الكيل والميزان، أخاهم شعيبا، سماه العلماء خطيب الأنبياء لأنه كان حسن الإقناع؛ أنظر بعضا منه فى الآيات من (٨٤ - ٩٥) من سورة هود صفحات ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨؛ قال يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، أى معجزة، لم يبين الله تعالى آية شعيب ولكنها لابد أن تكون معجزة كونية خارقة للعادة؛ لأن المعروف عن تلك الأمم السابقة أنها ما كانت تذعن إلا لذلك، ولو لم تكن هذه البينة ملزمة قاطعة للألسن لما أمكنه أن يرتب عليها أمره لهم بقوله :

﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أى أتموا المكيل والموزون إذا بعتم، ولا تنقصوا حقوق الناس، ولا تفسدوا فى الأرض بعدما أصلحها غيركم؛ ذلك من كل ما أمرتكم به خير لكم من كل وجه إن كنتم مؤمنين أى مصدقين بما أقول. وبعدما أمرهم بالتوحيد وما بعده نهاهم عن ثلاثة أشياء أخرى لا تقل خطورة عما قبلها إن لم تكن أفظع من بعضها فقال ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ إلخ؛ أى تقطعوا طريق الحق على مَنْ أراد سلوكه توعدونه وتخوفونه بالعذاب إن آمن. والجريمة الثانية أنكم تصدون وتصرفون من آمن عن الثبات على إيمانه، أى تحاولون كفره بعد إيمانه. والثالثة طلبكم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن فيها والتشكيك والتشويه؛ أنظر بعض ذلك فى الآية (٨٧) من سورة هود صفحة ٢٩٧، اتركوا ذلك واذكروا نعمة الله عليكم حين كنتم قليلا مستضعفين فبارك فيكم وكثركم، وانظروا وتأملوا كيف صارت نهاية المفسدين من الشعوب المجاورة لكم فتتجنبوا أسبابها؛ انظر بعض هذه الأمم التى أشار

إليهــا هنا فى الآية (٨٩) من سـورة هود صفحة ٢٩٧. ثم هددهم وطمأن المؤمنين معه بقوله: وإن كان طائفة... إلخ أى أن نصر المؤمنين وخذلان المفسدين قريبًا إن شاء الله، وهو سبحانه خير الحاكمين؛ لأن حكمه حق وعدل دائما. فماذا كان بعد هذا التهديد، الذى لا يكون إلا من واثق بما يقول؟ إن ردهم الذى يدل على تمكن الكفر قول كبرائهم وأصحاب الكلمة فيهم...

مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ[1] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ[2] ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا[3] ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ[4] ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ[5] ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ[6] ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ[7] ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ[8] لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ[9] رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ[10]

المفردات: ﴿افتح بيننا وبين قومنا﴾: أى احكم بما يستحقه كل منا من النصر أو الهزيمة، انظر ما قلناه فى تفسير الآية (١١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧.

﴿رسالات ربى﴾: تقدم مثلها فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٢٠٢.

﴿الرجفة، جاثمين﴾ تقدما فى الآية (٧٨) من هذه السورة صفحة ٢٠٥.

﴿يغنوا فيها﴾ أى لم يقيموا فى ديارهم زمنا طويلا، من قولهم غنى بالمكان بوزن رضى إذا أقام فيه طويلا.

﴿آسى﴾: من الأسى وهو الحزن أى أحزن.

المعنى: قال الوجهاء المتكبرون من قومه: والله لنخرجنك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا، أى لابد من أحد الأمرين فاختر لنفسك أنت ومن معك أيهما شئت. والتعبير بالعودة

(١) يا شعيب (٢) كارهين (٣) نجانا
(٤) الفاتحين (٥) لخاسرون (٦) جاثمين
(٧) الخاسرين (٨) يا قوم (٩) رسالات
(١٠) آسى

باعتبار المجموع من شعيب والمؤمنين معه، لا باعتبار كل فرد منهم حتى يفيد أن شعيبا كان على ملتهم قبل النبوة، فقال شعيب: هل نعود ولو كنا كارهين العودة! أى هذا لن يكون، لأن الإكراه لا ينال العقائد انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، والله لقد افترينا على الله كذبا إن عدنا بعد زمن إنجاء الله لنا منها، وكانت العودة من نبى كذبا على الله لأنها تفيد وتقرر فى أذهان الناس أن لله شريكا كما كان يعتقد قومه وإلا لما فعلها الرسول. ويصح أن يكون الكلام للتعجب من قولهم، كأنه يقول ما أشد افتراءنا على الله إن عدنا فى ملتكم إلخ ولا يصح لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا. وهذا رفض آخر لطلبهم العودة فى ملتهم مؤكد أبلغ توكيد؛ أى لا نعود إلا أن يشاء الله؛ لأنه وحده المتصرف بحسب حكمته، ونحن لم نفسد فطرتنا بل قد أخلصنا له سبحانه الدين فعدله يأبى أن يحولنا إلى الشرك، أى فأنتم تطلبون ما يشبه المحال. والتعليق بالمشيئة يقصد به أيضًا التأدب مع الله وعدم القطع بما ليس لنا به علم، ونظيره ما تقدم فى الأنعام من قول إبراهيم عليه السلام فى الآية (٨٠) صفحة ١٧٥: وسع ربى كل شىء علما، فهو يعلم أحوال عباده وما فى قلوبهم ويعامل كلاً بما يستحق، فعليه وحده نكل أمورنا بعد قيامنا بما طلبه منا، فياربنا افتح بيننا وبينهم بنصر المحق منا وعقاب المفسد وأنت خير الحاكمين. ثم التفت الكفار لأتباع شعيب عليه السلام يضللونهم بعدما يئسوا منه فقالوا: لئن استمررتم على اتباع شعيب إنكم حينئذ لخاسرون أى مغبونون، لفوات ما نحن فيه من اللذائذ عليكم، ولترككم ما كان عليه آباؤكم.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ تقدم بيانها فى الآية (٧٨) من هذه السورة صفحة ٢٠٥ ثم ذكر ما يفيد سفههم فى قولهم ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾ بقوله: الذين كذبوا شعيبا ذهبوا وهلكوا كأن لم يكن لهم هنا ذكر؛ وما يفيد سفههم فى قولهم ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ بقوله:

الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين لا من آمن مع شعيب. وبعد ما حل بهم العذاب وتركهم جثثا منكفئة على ركبها ووجوها انصرف بعيدا عنها وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، كما قال صالح فى الآية (٧٩) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٠٥. وإذا كان الأمر ما ذكر فكيف أحزن...

عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ

المفردات : . ﴿قرية﴾ : هى المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها المعبر عنها فى عصرنا بالعاصمة. ﴿البأساء﴾ : المصائب التى تصيب الشخص فيما حوله كماله وأهله. ﴿الضراء﴾ : ما يصيبه فى نفسه كالمرض، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤.

﴿يضَّرَّعون﴾ : تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٠١.

﴿عفَوْا﴾ : أى كثروا ونمت أرزاقهم، يقال عفا الشىء إذا كثر.

﴿بأسنا﴾ : عذابنا.

﴿بياتا﴾ : ليلا.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض﴾ :

﴿يهد﴾ أى يبين تقول العرب هدى فلانا الدليل وهدى له أى أرشده وبيَّن له الصواب انظر الآية (١٢٨) من سورة طه صفحة ٤١٨ والآية (٢٦) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٧، ٥٤٨.

﴿أن لو نشاء﴾ : انظر آيتى (٦٦، ٦٧) من سورة يس صفحة ٥٨٥ والمعنى لو أردنا تعذيبهم بسبب ذنوبهم لفعلنا.

﴿نطبع﴾ : الطبع هو الختم المتقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

المعنى : . لا تستحقون أن أحزن عليكم لأنكم كفرتم بخالقكم ورازقكم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن سنته فى عقاب الأمم أنه لا يعاقبهم إلا بعد تنبيههم مرة بعد أخرى، فقال: وما أرسلنا فى قريه من نبى، أى فكذبوه، إلا ابتلينا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى الله

(١) كافرين (٢) فاخذناهم (٣) بركات (٤) فاخذناهم
(٥) بياتا (٦) الخاسرون (٧) اصبناهم

بالتضرع إليه، كما تقدم فى الآية (٤٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ثم لما لم تنفع معهم الشدة بلوناهم بالخير وجعلنا الحالة الحسنة مكان الحالة السيئة كاليسر بدل العسر والصحة بدل المرض لعل النعمة تنبههم للشكر، فإذا لم يرجعوا لا بهذا ولا بذاك أهلكناهم؛ انظر الآية (١٦٨) الآتية صفحة ٢٢٠، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء ٤٢٤؛ فالمعنى غيرنا حالتهم إلى أحسن حتى كثروا ونمت أرزاقهم وقالوا قد مس آباءنا إلخ، أى لا نطماس بصيرتهم وفساد فطرتهم لم يلتفتوا إلى معنى الاختبار بل قالوا ما أصابنا هو عادة الدهر، فقد مس آباءنا من قبلنا بما يسوء وما يسر فنحن مثلهم، أى فليس الضر عقابا من الله على معاص، ولا الخير جزاء منه على طاعة. عند ذلك أصبناهم بالعذاب فجأة وهم فاقدوا الشعور بما سيحل بهم، وهذا تأكيد بمعنى البغتة، وأشد المصائب ما جاء على بغتة. ولو أن أهل القرى المهلكة آمنوا بما جاء به رسلهم، واتقوا ما حرم عليهم لفتحنا عليهم بركات إلخ، أى ليَّسرنا لهم الخير من كل جانب، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا، فأخذناهم بالعذاب بسبب استمرارهم على كسب الكفر والمعاصى. وبعدما بيَّن سبحانه ما حل بالأمم السابقة بسبب كفرهم وعصيانهم، أراد أن ينبه أهل مكة وما حولها لخطر ماهم عليه منكرا عليهم عدم خوفهم منه تعالى فقال: أفأمن أهل مكة والقرى التى حولها من أن يأتيهم عذابنا فى الليل وهم نائمون ثم كرر الإنكار فقال: أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى أول النهار وهم لاهون فى شدة الغفلة. ثم كرر مجموع الانكارين السابقين لزيادة التحذير فقال:

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أى لا يصح هذا من عاقل لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون لأنفسهم بسبب عدم التفاتهم لما حصل للأمم قبلهم. والمراد بالمكر هنا التدبير الخفى بما لا يحب الممكور به.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض﴾ أى أكان مجهولا لهم ما حصل لمن قبلهم ولم يبين لهؤلاء الذين يرثون الأرض من بعد أهلها جيلا بعد جيل أنهم خاضعون لمشيئتنا، ولو نشاء تعذيبهم بسبب ذنوبهم كما عذبنا الماضين لفعلنا وأصبناهم بذنوبهم، أى نهلك الوارثين كما أهلكنا الموروثين، ونطبع على قلوبهم فلا ينتفعون بوعظ عقابا لهم على إصرارهم على الكفر والمعاصى كما فى الآية (١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ فالطبع بعض العقاب، ذكر لأنه أهم وأشد.

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

المفردات : . ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ : اللام فى ليؤمنوا لتأكيد النفى انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ﴿من عهد﴾ : المراد به كل عهد ارتبطوا به، سواء ما أخذه الله عليهم فى الآية (١٧٢) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٢١، أو ما عاهدوا الله عليه إذا أصابهم بسوء، من توبتهم وشكره تعالى كما فى الآية (٦٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٢، والآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، ومن للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ : فى الألوسى ﴿إن﴾ مخففه وضمير الشأن محذوف، وذهب الكوفيون إلى أن ﴿إن﴾ نافية واللام فى ﴿لفاسقين﴾ بمعنى ﴿إلا﴾ أى وما وجدنا أكثرهم إلا خارجين على الطاعة.

﴿فظلموا بها﴾ : أى ظلموا أنفسهم كافرين ومكذبين بها، فضمن الظلم معنى الكفر والتكذيب. ﴿فإذا هى﴾ : إذا الفجائية هنا قال الأخفش إنها حرف يدل على سرعة حصول ما بعده عقب حصول ما قبله، والفاء تؤكد هذا الربط.

المعنى : . ونطبع على قلوبهم فلا يسمعون المواعظ والأدلة سماع تدبر واتعاظ، انظر الآية ١٠١ من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

ثم شرع سبحانه فى بيان عاقبة الكفر والمعاصى ليعتبر أهل مكة فقال: تلك القرى المهلكة من قرى قوم نوح وعاد وثمود إلخ نقص عليك أيها النبى بعض أخبارها فيما سبق، ومنها تعلم

---

(١) بالبينات - (٢) الكافرين . (٣) لفاسقين (٤) بآياتنا (٥) ملئه (٦) عاقبة
(٧) يا فرعون (٨) العالمين (٩) إسرائيل (١٠) بآية (١١) الصادقين.

أنهم ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية معجزات رسلهم بسبب إصرارهم على تكذيبهم السابق على رؤيتها. فالمراد أنهم أول ما جاءهم الرسل فاجئوهم بالتكذيب، ولما أتوا بالمعجزات أصروا على التكذيب فما نفعتهم الآيات شيئًا كما فى الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

وما وجدنا لأكثر هذه الأمم من محافظة على عهد. وقال : أكثرهم، لأن بعضهم كانوا لا يعاهدون، فلا يقال لا يوفون. وإن وجدنا أكثرهم إلخ.

المعنى : وأن الحال والشأن الذى وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق، وهو الخروج من كل عهد مشروع بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى. ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم موسى مصاحبا للمعجزات الواضحات إلى فرعون وقومه والمصاحبة زمنها واسع فيدخل فيه الآيات التى جاءت بعد، كالطوفان وغيره، انظر الآية (٥٦) من سورة طه صفحة ٤١٠؛ وإنما خص الملأ وهم الزعماء بالذكر لأنهم كانوا هم السبب فى محاربة موسى فى دعوته كما سيأتى. فظلموا أنفسهم كافرين بالمعجزات.فانظر أيها السامع بعين عقلك كيفية ما فعلنا بهم لأنهم مفسدون. ثم شرع سبحانه فى تفصيل هذا الإجمال فقال: وقال موسى يا فرعون، وفرعون لقب ملك مصر، كما أن قيصر لقب ملك الروم، وكسرى لقب ملك الفرس، فكأنه قال يا ملك مصر إنى رسول من رب العالمين إليكم حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق إلخ، على بمعنى الباء كقولهم سافر على اسم الله أى باسم الله، وجاء فلان على حال حسنة أى بحال حسنة. فالمعنى أنا جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق. والمراد لا يمكن أن أكذب على الله، قد جئتكم ببينة معجزة تثبت رسالتى التى أعطاها لى ربكم الذى خلقكم، فاترك بنى إسرائيل ليذهبوا إلى دار غير دارك يمكنهم فيها عبادة ربهم. قال فرعون:

إن كنت جئت بآية من عند مَنْ أرسلك فأت بها إن كنت من الصادقين فيما تقول. فألقى موسى عصاه من يده على الأرض ففاجأه كونها حية عظيمة ظاهر أمرها لا يشك فى أنها حية، وأخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء كما فى الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

هي بيضاء للناظرين[1] (١٠٨) قال الملأ من قوم فرعون إن
هذا لساحر[2] عليم (١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم
فماذا تأمرون (١١٠) قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن
حاشرين[3] (١١١) يأتوك بكل ساحر عليم (١١٢) وجاء السحرة
فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين[5] (١١٣)
قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤) قالوا يا موسى[6] إما
أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا
فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو
بسحر عظيم (١١٦) * وأوحينا إلى موسى أن ألق
عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون (١١٧) فوقع الحق
وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا
صاغرين[7] (١١٩) وألقي السحرة ساجدين[8] (١٢٠) قالوا آمنا

المفردات : . ﴿الملأ﴾ : زعماء القوم الذين لهم كلمة نافذة.

﴿فماذا تأمرون﴾ : يقول العرب تآمر القوم وأتمروا بمعنى تشاوروا، ويقول أحدهم مرنى أى أشر عليّ. ﴿أرجه﴾ : أرجئه وأمهله ولا تتعجل بقتله أو سجنه؛ والعرب تخفف مثل ذلك بحذف الهمزة فيقولون أرجا فلان كذا أى أرجأه.

فهما لهجتان عربيتان، وقال بعض اللغويين إنهما لغتان إحداهما أرجا والأخرى أرجى فيقولون أرجأت الأمر وأرجيته والمعنى واحد، انظر ما قيل فى الآيه (١٠٦) من سورة التوبة صفحة ٢٦٠.

﴿حاشرين﴾ : رجالاً يجمعون السحرة ويحشرونهم فى المكان الذى تراه. ﴿سحروا أعين الناس﴾ : أى خيلوا لها أنها حيات حقيقية وهى فى الواقع ليست كذلك، انظر الآية (٦٦) من سورة طه صفحة ٤١١. ﴿واسترهبوهم﴾ : أصل معناه طلبوا إرهابهم وتخويفهم، والمراد خوفوهم وأرهبوهم إرهابا شديدا.

﴿تلقف﴾ : اللقف الأخذ بسرعة وتلقف تبتلع بسرعة.

﴿يأفكون﴾ : يكذبون به على الناس ويوهمونهم أنه حقيقة.

﴿فوقع الحق﴾ : ثبت وتبين الحق وهو صدق موسى.

---

(١) للناظرين (٢) لساحر (٣) حاشرين (٤) ساحر
(٥) الغالبين (٦) يا موسى (٧) صاغرين (٨) ساجدين

﴿انقلبوا﴾ : أى رجعوا إلى المدينة.

﴿صاغرين﴾ : أذلاء. ﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ : أى ألقت سطوة الحق السحرة على وجوههم خاضعين والمراد معرفتهم للحق أخضعتهم.

المعنى : . وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء عن بقية جسمه وعن يده الأخرى بياضا يلفت النظر حتى رآه كل الحاضرين وعرفوا أنه غير طبيعي. عند ذلك خاف فرعون والزعماء أن يذهب ملكهم فغرروا بالناس ورددوا قول فرعون إن موسى لساحر عليم بفنون السحر. انظر الآية (٥٧) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٣٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، يريد أن يخرجكم من أرضكم مصر ليحل محلكم بنى إسرائيل. ثم قال فرعون للزعماء: فبماذا تأمرون؟ أى فبماذا تشيرون أن نعمله؟ قالوا: أمهله وأخاه هارون ولا تتعجل بقتله أو حبسه، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا يحشرون السحرة المهرة ويجمعونهم عندك ليظهر عجزه فيفتضح أمام الناس حتى لو قتل بعد ذلك لا يشك أحد فى أنه كاذبا لا رسولاً. فأرسل وجاء السحرة إلى فرعون وقالوا إن لنا لأجرا عظيما على غلبتنا موسى إن كنا نحن الغالبين. قال فرعون: نعم لكم أجر، ولكم زيادة عليه وهو أن أجعلكم من المقربين عندي. قال السحرة : يا موسى إما أن تلقى عصاك أولا وإما أن نكون نحن الملقين ما معنا أولا. قال لهم موسى: ألقو أنتم أولا. فلما ألقوا حبالهم وعصيهم كما فى الآية (٤٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢؛ سحروا أعين الناس وخوفوهم خوفا شديدا لأنهم جاءوا بسحر عظيم فى التمويه والتخييل، وبلغ من شدته أن موسى خاف منه، انظر الآية (٦٧) من سورة طه صفحة ٤١١ فقد انقلبت حبالهم وعصيهم فى أعين الناس حيات ضخمة. عند ذلك أدرك الله تعالى موسى وقال له: ألق عصاك على سحرهم فألقاها فإذا هى حية أعظم تبتلع كل ما كانوا يكذبون به على الناس ويوهمونهم أنه حقيقة. عند ذلك ثبت ووضح الحق، وأن موسى صادق فى أنه رسول رب العالمين، وبطل ما كانوا يعملون من السحر، فَغُلِبُوا أى فرعون وقومه هنالك أى فى المكان الذى جمعهم فيه وفى الزمان المشار إليه فى الآية (٥٩) من سورة طه صفحة ٤١٠. ورجعوا إلى المدينة أذلاء، وألقى السحرة ساجدين، أى أن معرفتهم للحق أرغمتهم على الخضوع لسطوة الحق، فكأن الحق دفعهم دفعا إلى الخضوع والتسليم حال كونهم قائلين فى أثناء سجودهم : آمنا برب العالمين...

بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ[2] ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ[3] لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ[4] ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا
تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ[5] رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ[6] ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ[7]
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ[8] ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ[9] لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا

المفردات : ﴿من خلاف﴾ : أى يد من جهة ورجل من أخرى.

﴿تنقم منا﴾ : من نقم بوزن ضرب بمعنى كره وعاب.

﴿أفرغ علينا صبرا﴾ : أى أصبب علينا صبرا كثيرا كما يصب الماء الكثير حتى يغمر المصبوب عليه.

﴿أتذر﴾ : أى هل تترك.

﴿وآلهتك﴾ : روى أنه كان يعتقد أن فى العالم العلوى آلهة هى الكواكب وهى المربية للعالم السفلى، وأنه هو إله العالم السفلى. وجعل لقومه أصناما يعبدونها تقربا إليه هو لأنه هو أعلى المعبودات التى فى الأرض كما فى الآية (٢٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، وليس فى الأرض إله غيره كما فى الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢، فالمراد بآلهته هنا هى ما كانوا يتقربون به إليه. أو الجميع من سفلى وعلوى.

﴿نقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم﴾ : تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

---

(١) العالمين
(٢) وهارون
(٣) آذن
(٤) خلاف
(٥) بآيات
(٦) وآلهتك
(٧) ونستحيى
(٨) قاهرون
(٩) والعاقبة

المعنى : . قال سحرة فرعون آمنا برب العالمين. ولما كان فيه احتمال أنه فرعون كما كان يدعى فى الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢، دفعوا ذلك بقولهم : رب موسى وهارون عند ذلك قال فرعون منكرا على السحرة وموبخا لهم: آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم؟ أى ولا يمكن أن آذن لكم، بدليل قوله إن هذا العمل منكم وعزتى لمكر وحيلة فعلتموها أنتم وموسى، انظر الآيات (٥٧، ٦٣، ٧١) من سورة طه صفحات ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، فى المدينة أى مصر، لتخرجوا منها أهلها المصريين وتكون لكم ولبنى إسرائيل. ثم هدد السحرة تهديدا إجماليا بقوله: فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم. ثم فصل هذا التهديد بقوله: وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أى اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلا، ثم لأصلبنكم كلكم على جذوع النخل حتى تموتوا فضيحة لكم وتخويفا لغيركم، انظر الآية (٧١) من سورة طه صفحة ٤١٢، فلم يبال السحرة بهذا التهديد، بل قالوا:

إننا نحن وأنتم راجعون إلى ربنا فى الآخرة فيحكم بيننا وبينكم بالعدل. وقالوا أيضا:

ومن غريب أمرك يا فرعون أنك لا تعيب علينا شيئا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا على يد موسى، وذلك ليس فيه عيب بل هو من أكبر المحاسن والمفاخر. ويقصدون بهذا قطع أمل فرعون فى رجوعهم.

ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا إلى الله تعالى قائلين: يا ربنا أفض علينا صبرا يغمرنا حتى لا نبالى بتهديد عدوك، وتوفنا ثابتين على ما وفقتنا إليه من الإسلام. وقال الملأ من قوم فرعون موجهين الخطاب لفرعون : هل يصح أن تترك موسى وبنى إسرائيل آمنين ليفسدوا فى أرض مصر بإدخال أهلها فى دينهم ويهملوك أنت وآلهتك. فرد عليهم بقوله: سنقتل إلخ، سنستمر ونزيد فى تقتيل الأبناء الذكور ونبقى نساءهم للذل والخدمة ولا يعجزنا ذلك لأنا فوقهم قاهرون. عند ذلك التفت موسى لقومه وقال لهم: استعينوا بالله على هذا الظالم واصبروا على تهديده ولا تبالوا به، لأن الأرض كلها لله وحده لا لفرعون والله هو الذى يورثها أى يعطيها لمَنْ يشاء من عباده، والخاتمة المحمودة لمَنْ يتقى الله، أى لا لفرعون وجنوده. فقال قوم موسى وهم بنو إسرائيل : أوذينا من جهة فرعون...

مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ(١) فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ(٢) لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ(٣) عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ(٤) لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ(٥) فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى(٦) ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(٧) ﴿١٣٤﴾

المفردات: . ﴿السنين﴾ : جمع سنة وأصلها الزمن المعلوم، وتطلق على الشدة الناتجة عن قحط أو غيره. ﴿يطيروا﴾ : يتشاءموا.

﴿ألا﴾ : حرف يدل على تنبيه السامع للعناية بما يأتى بعده.

﴿طائرهم عند الله﴾ : أى شؤمهم يأتيهم من عند الله على عملهم لا من عند موسى وبسببه.

﴿مهما﴾ : اسم شرط يدل على العموم وبيَّن معناه بقوله ﴿من آية﴾ أى معجزة وهم يريدون ما تزعم أنه معجزة أيدك بها ربك.

﴿لتسحرنا بها﴾ : لتصرفنا بها بدقه وحيلة عما نحن عليه من دين ومن تسخير بنى إسرائيل فيما نريد. ﴿بمؤمنين﴾ : أى مصدقين. ﴿الطوفان﴾ : الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار.

﴿القمل﴾ : واحدته قمله وهى الحشرة المعروفة شديدة الإيذاء.

﴿الضفادع﴾ : جمع ضفدع كدرهم، والأنثى ضفدعة.

﴿آيات مفصلات﴾ : أى أدلة مفصلة دالة على صدق موسى.

﴿بما عهد عندك﴾ : أى بعهده عندك وهو النبوة.

﴿الرجز﴾ : أى العذاب المتقدم من القحط وغيره.

المعنى : . قال قوم موسى: أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة بقتل أبنائنا إلخ، ومن بعد ما جئتنا بالتهديد وتشديد الجور. قال موسى تطمينا لهم: اصبروا، أرجو أن يهلك ربكم عدوكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض فينظر كيف تعملون، أى ليظهر منكم ما انطوت عليه نفوسكم من

(١) آل (٢) الثمرات (٣) طائرهم (٤) آيات (٥) مفصلات (٦) يا موسى (٧) إسرائيل.

شكر نعمته تعالى أو كفرها، فيجازيكم على كل. وهذا إرشاد لهم إلى الشكر، وتحذير من المعاصى. ثم شرع سبحانه فى تفصيل مقدمات هلاك آل فرعون الذى وعد موسى قومه به فقال: وعزتى وجلالى لقد أخذنا أى أصبنا آل فرعون بالقحط فى البادية، ونقص ثمرات الشجر والزرع فى المدائن؛ فعلنا بهم ذلك لعلهم يتعظون فيرجعون إلى ربهم. ثم بيَّن عدم تذكرهم وعدم انتفاعهم بالتنبيه فقال: فكانوا إذا جاءتهم الحسنة أى ما يستحسنونه من رخاء وصحة قالوا غرورا: هذه النعم لنا وحدنا لا يستحقها غيرنا لعلو مقامنا، وإن يصبهم ما يسوءهم كالضيق والمرض ينسبون سببه لموسى وقومه، ويقولون ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم.

فرد سبحانه قولهم الباطل فقال: ألا إنما شؤمهم من عند الله اقتضته حكمته تعالى جزاء كفرهم، لا بسبب موسى، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة تصرفه تعالى فى معاملة خلقه حسب أعمالهم، انظر قول أمثالهم ورده تعالى عليهم فى آيتى (١٨، ١٩) من سورة يس صفحة ٥٨٠. وقال أكثرهم لأن بعضا منهم آمن وأعلن إيمانه كالسحرة المتقدم ذكرهم، وبعضهم أخفى إيمانه كما سيأتى فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١.

وقال فرعون وملؤه بعد رؤية المعجزات والجدب : إنك يا موسى إن جئتنا بكل نوع من أنواع المعجزات التى تزعمها لأجل أن تصرفنا بها بخداعك الخفى عن ديننا وعن استعباد بنى إسرائيل فما نحن لك بمصدقين. عند ذلك أنزل الله عليهم المصائب الخمس الآتى ذكرها حال كونها أدلة واضحات على صدق موسى فى دعوته وفيما توعدهم به من الهلاك، فكانت كلما جاءت مصيبة منها لجئوا لموسى ليدعو ربه ليكشفها ليؤمنوا، فيدعو موسى فتكشف فلا يؤمنون، كرروا ذلك خمسا. وقد كانت كل واحدة تكفى لزجرهم لو كانوا يعقلون. وستأتى استغاثتهم بموسى فى الآية (١٣٣) فى هذه الصفحة، وفصل سبحانه هذه المصائب فى قوله:

فأرسلنا، أى فأنزلنا عليهم المطر ثمانية أيام بلياليها، فأهلك زرعهم وثمرهم، وأنزل الجراد فملأ الأفق وأكل كل أخضر ويابس، ثم أرسل عليهم القمل ينهش أجسامهم ولا يستطيعون كفه لكثرته، ثم الضفادع فملأت المياه والبيوت ومواضع نومهم، ثم الدم فملأ المياه حتى عجزوا عن الشرب. وبعد هذه الآيات الواضحات استكبروا عن الإيمان وكانوا قوما راسخين فى الإجرام. وبين سبحانه استغاثتهم بقوله: ولما وقع عليهم العذاب المتقدم ذكره واحدا بعد الآخر قالوا عقب كل واحد: يا موسى ادع لنا ربك متوسلا بعهده عندك، ونعاهدك لئن كشفت عنا العذاب لنصدقنك ولنرسلن معك بنى إسرائيل كما طلبت.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ[1] إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ[2] فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ[3] ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ[4] الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا[5] الَّتِى بَٰرَكْنَا[6] فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[7] بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا[8] بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[9] الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَٰمُوسَى[10] اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ[11] ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ[12] مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ[13] ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم[14] مِّنْ ءَالِ[15] فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

المفردات: . ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ : أى منعنا عنهم العذاب إلى مدة بلغوا نهايتها بسرعة بنقضهم العهد. ﴿فأغرقناهم فى اليم﴾ : هو البحر.

﴿وأورثنا القوم إلخ﴾ : معنى هذه الجملة لم يحصل إلا بعد مضى زمن طويل كما سيأتى إلى نهاية الآية (١٧١) صفحتى ٢٢٠، ٢٢١ ولكنه سبحانه عجل بذكر ثمرة هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل ثم رجع ثانيا لتفصيل ما حصل بعد هلاكهم.

﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾: المشارق والمغارب مراد بهما هنا جميع أرض الشام كما سيأتى.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ : تمام الشىء وصوله إلى آخر حده و ﴿كلمة ربك﴾ هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم. ﴿دمرنا﴾ : أهلكنا.

﴿يعرشون﴾ : أى يبنون من العرائش للجنات كما تقدم فى الآية (١٤١) صفحة ١٨٦.

﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلها﴾ : القائل هذا المنكر جهلتهم أما هارون وأحبارهم فحماهم الله تعالى منه.

﴿متبر ما هم فيه﴾ : من التتبير وهو الإهلاك والتدمير، فمتبر أى مهلك ومخرب. انظر الآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

﴿أبغيكم﴾ : أطلب لكم كما فى الآية (٤٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩.

(١) بالغوه (٢) فأغرقناهم (٣) غافلين
(٤) مشارق (٥) ومغاربها
(٦) باركنا (٧) إسرائيل
(٨) وجاوزنا (٩) إسرائيل
(١٠) يا موسى (١١) آلهة
(١٢) وباطل (١٣) العالمين.
(١٤) أنجيناكم (١٥) آل.

﴿يسومونكم﴾ : أصل معنى سام طلب، أى يطلبون لكم سوء العذاب، والمراد يعذبونكم.

المعنى : . فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه أى إلى زمن محدد بلغوا نهايته أسرعوا بنكث العهد فى كل مرة، والمراد لا يصبرون على الوفاء بالعهد إلا زمنا قليلا حتى يسرع إليهم الغدر كما هى عادتهم. ولما كرروا خيانة العهد مرارا ولم تنفعهم العبر عاقبناهم العقاب الأكبر، فأغرقناهم فى البحر بسبب استمرارهم على تكذيب آياتنا واستمرارهم على الغفلة عنها، وأورثنا أى أعطينا القوم الذين كان يستذلهم فرعون بما تقدم بيانه وهم بنو إسرائيل جميع الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير تحقيقا لوعدنا فى الآية (٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، وهذه الأرض هى أرض الشام وفلسطين، وكانت تحت حكم فرعون فى ذلك الوقت، ولم يصف القرآن أرضا بالبركة إلا هذه، انظر الآية الأولى من سورة الإسراء صفحة ٣٦٤ وآيتى (٧١، ٨١) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٧، ٤٢٨، ونفذت كلمة ربك أى تحققت تامة فى كل وجه بالخير على بنى إسرائيل بسبب صبرهم على إيذاء فرعون، ودمرنا كل ما صنع فرعون وقومه من العمارات والقصور، وما عرشه للجنات والأعناب. وكان هذا التخريب لأسباب منها المصائب الخمسة المتقدمة فى الآية (١٣٣) صفحة ٢١٢، ومنها خروج بنى إسرائيل فإنه عطل أعمالا كثيرة كانوا يسخرونهم فيها، ومنها كثرة من غرق مع فرعون فتلف ما كانوا يقومون بشئونه، إلى غير ذلك.

ثم بعدما فرغ سبحانه من قصة موسى مع فرعون شرع فى قصته مع قومه فقال: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر﴾ إلخ، أى تجاوزوه بعنايتنا كأننا كنا معهم، فأتوا عقب خروجهم من البحر ودخولهم البر على قوم يلازمون عبادة أصنام اتخذوها آلهة؛ فبدل أن يستقبحوا ذلك وينكروه بعد أن رأوا مصير المشركين، دفع ببعضهم جهلهم وغفلتهم أن يقولوا : يا موسى اجعل لنا إلها نتقرب به إلى الله، وهذا يدل على أنهم ألفوا عبادة غير الله فى المدة التى قضوها فى مصر، ولم يفهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه بسرعة السحرة المصريون المتقدم ذكرهم فى الآية (١٢٠) صفحة ٢١٠، وكما فهمه المصرى الذى كتم إيمانه كما فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١. فقال موسى : إنكم قوم تجهلون كل شىء، لأنكم جهلتم الضرورى وهو ما يليق به تعالى الذى لا يصح لعاقل أن يجهله، لأن هؤلاء القوم الذين يعبدون أصناما مقضى على ماهم فيه بالهلاك والتخريب بسبب ظهور التوحيد الحق فى هذه البلاد، وكل ما يعملونه من الأصنام وعبادة غير الله باطل وزائل. ثم تعجب موسى منكرا قولهم فقال: أغير الله، أى لا يصح أن أطلب لكم إلها غير الله وهو الذى فضلكم على العالمين فى زمانكم بما جدد فيكم من التوحيد الذى جاء به إبراهيم وبقية أهل زمانكم مشركون عبدة أصنام انظر الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨. ثم وجه سبحانه

الخطاب لهؤلاء القساة غلاظ القلوب لعلهم يشكرون نعمه فيستقيمون فقال: وإذا أنجيناكم من ذل قوم فرعون حال كونهم يذيقونكم....

المفردات : . ﴿سوء العذاب﴾ : أسوأ العذاب.

﴿لميقاتنا﴾ : الميقات هو الوقت الذى يحدد لعمل من الأعمال كمواقيت الحج، واللام بمعنى عند، كما فى قوله تعالى ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿دكا﴾ : الدك الضغط القوى الشديد الذى يسوى الشىء المدكوك بالأرض، انظر الآية (٩٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤؛

سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا[1] مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ[2] لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا[3] بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ[4] رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ[5] ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا[6] وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي[7] وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي[8]ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ[9] تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ[10] إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي[11] وَبِكَلَٰمِي[12] فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ[13] وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ[14] ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ

والمراد به هنا الشىء المدكوك وهو المراد فى قراءة دكاء. ﴿وخر موسى﴾ : الخرور السقوط من علو إلى أسفل كما فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩. ﴿صعقا﴾: صيغة مبالغة من صعق الشخص بوزن تعب إذا مات من صاعقة أو أغمى عليه، والمراد هنا الثانى انظر صعق فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ ومعانى الصاعقة فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١. ﴿اصطفيتك على الناس﴾ : اخترتك مفضلا لك على الناس. ﴿رسالاتى﴾ : تقدم بيانها فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٢٠٢. ﴿وكتبنا له﴾ : أى أمرنا الملائكة بالكتابة انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. ﴿فى الألواح﴾ : جمع لوح، ولم يعلم على وجه القطع عددها، ولا حقيقتها، ولا مَنْ كتبها، ولا هل كان فيها كل التوراة أو بعضها، وبقيتها نزلت تباعا بعد ذلك. والذى يجب الإيمان به هو أنه كان فيها شىء من شرع الله الذى فى التوراة الصحيحة. ﴿من كل شىء﴾ : المراد بهذا التعبير هنا التفخيم لا التعميم الحقيقى يقول العرب دخلت السوق فاشتريت كل

(١) وواعدنا - (٢) ثلاثين (٣) وأتممناها (٤) ميقات (٥) هارون
(٦) لميقاتنا (٧، ٨) ترانى (٩) سبحانك (١٠) يا موسى (١١) برسالاتى
(١٢) وبكلامى (١٣) آتيتك (١٤) الشاكرين

شىء يريد أشياء كثيرة ومن ذلك فى القرآن ما فى الآية (٢٣) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ والآية (٢٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

المعنى : . يوقعون بكم أسوأ العذاب، وبين بعضه بقوله: يذبحون أبناءكم إلخ ما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠. وبعد ما فرغ سبحانه من قصة موسى وقومه شرع فى بيان بدء وحى الشريعة إلى موسى، وقد كان بدء وحى الرسالة فى الطور عندما رأى النار وهو راجع من مدين كما فى الآيات (٩ ـ ٤٧) من سورة طه صفحات ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩ وآيات (٢٩ ـ ٣٥) من سورة القصص صفحات ٥١٠، ٥١١، ٥١٢. فقال سبحانه ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ إلخ؛ أى واعدنا موسى بإعطائه الألواح بعد ثلاثين ليلة يقضيها بعيدا عن قومه، فلما قضاها زدناه عشر ليال لحكمة نعلمها. قال ابن عباس: كانت فتنة السامرى لبنى إسرائيل فى هذه العشرة التى زادها سبحانه، انظر فتنة السامرى فى الآية (٨٥) من سورة طه صفحة ٤١٣، والمراد بالليل ما يشمل النهار وخصه بالذكر لأن الليلة تسبق نهارها. وفائدة قوله: فتم الميقات أربعين دفع توهم أن تمام الثلاثين كان بالعشر كما يقال أتممت العشرة دراهم بدرهمين تريد أنه لولا الدرهمان لم تصر عشرة. وقال موسى قبل ذهابه للموعد لأخيه هارون جعلتك نائبا عنى فى مراعاة شئون قومى، فأصلح من أمورهم ما يتطلب إصلاحا. ولا تطع مَنْ دعاك لإفساد. ولما جاء موسى عند الموعد المحدد وكلمه ربه بلا واسطة من وراء حجاب كما فى الآية (٥١) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ تكليما ليس كتكليما فلا نعلم كيف كان. ولما رأى موسى أنه سبحانه كلمه مباشرة طمع فى أن يراه، فقال : رب أرنى ذاتك حتى أنظر إليك فأزداد شرفا. فقال سبحانه : لن ترانى يا موسى أبدًا. لأن العين الفانية لا ترى الباقى. وهذا لا ينافى أنه يراه فى الآخرة. وأراد سبحانه أن يقنعه بعجزه عنها فقال: انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك فإن استقر مكانه عندما أتجلى له فسوف ترانى. فلما تجلى ربه للجبل تجليا يليق به سبحانه لا نعرف حقيقته جعله مدكوكا مستويا بالأرض. عند ذلك سقط موسى على وجهه مغشيا عليه. فلما أفاق قال سبحانك، أى أنزهك تنزيها عظيما عن صفات المخلوقات تبت إليك من أن أسألك ماليس لى به علم، وأنا أول المؤمنين بعظمتك. قال الله يا موسى إنى فضلتك على الناس باختيارك لتلقى وتبليغ رسالاتى وبتكليمى لك مباشرة، فخذ ما أعطيتك من النبوة والشرائع، واشكر على ذلك ولا تتطلع لما ليس فى قدرتك وأمرنا الملائكة بأن تكتب له فى الألواح كل شىء يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم ولم يثبت من طريق مقطوع بصحته شىء يبين لنا حقيقة هذه الألواح ولا عددها ولا ما كتب فيها، هل كل التوراة أو

معظمها والباقى نزل بعد ذلك؟ ولا مَنْ الذى كتبها. ذكر المنار رأيا لابن جرير فانظره.

مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

المفردات :. ﴿موعظة وتفصيلا﴾: بدل أو عطف بيان من كل شىء باعتبار محله وهو النصب. ﴿خذها بقوة﴾ : بجد وعزيمة. ﴿بأحسنها﴾ : أى بأفضل ما فيها كالعفو بالنسبة للقصاص وإبراء المعسر بدل انتظاره. انظر آيتى (١٨، ٥٥) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦١٤.

﴿دار الفاسقين﴾ : كعاد وثمود وقوم لوط والعمالقة والجبابرة بالشام.

﴿الرشد والغى﴾ : الهدى والضلال كما تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿هل يجزون﴾ : هل حرف استفهام يفيد الإنكار والنفى. ﴿حبطت﴾ : بطلت ﴿قوم موسى﴾: المراد بعض قوم موسى وهم السامرى ومَنْ اتبعه كما سيأتى فى الآيه (٨٧) من سورة طه صفحة ٤١٤.

﴿حليهم﴾ : جمع حلى بفتح فسكون وهو ما يتزين به من ذهب أو فضة من حلى المصريين. ﴿جسدًا﴾ : أى مجرد جسد لا روح فيه. ﴿خوار﴾ : صوت البقر خاصة. ﴿سُقِطَ فى أيديهم﴾: كناية عن الحيرة والندم، ولعل أصل الكناية أن المتحير النادم يضرب يدًا على يد كما فى الآية (٤٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦. فالأصل ولما سقط بعض أيديهم على البعض الآخر فحذف الفاعل وقام الجار والمجرور مقامه.

---

(١) ساريكم (٢) الفاسقين (٣) آياتى
(٤) بآياتنا (٥) غافلين (٦) بآياتنا
(٧) أعمالهم (٨) ظالمين (٩) الخاسرين.

المعنى :. بعد ماقال سبحانه كتبنا له فى الألواح كل شىء، أى ما يحتاجون إليه فى حياتهم وآخراهم، بيَّن سبحانه ذلك بأنه مواعظ ترقق القلوب وتوقظ فيها الخشية منه تعالى والرغبة فى ثوابه، وأنه تفصيل لكل ما أمروا به أو نهوا عنه أو أحل لهم وقال لموسى خذ هذه الأحكام بعزم وجد، انظر الآية (٦٣) من سورة البقرة صفحة ١٣، وأمر قومك يعملوا بأحسن ما فيها وأفضله سأريكم يا مَنْ نجوتم من التيه دار الخارجين على أوامر ربهم وما صارت إليه من الخراب لتعتبروا فلا تفسقوا وتخرجوا عن أمر ربكم مثلهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم من الهلاك. ويوضح المراد هنا الآية (٤٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (١٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٣. ثم حذرهم سبحانه من التكبر المؤدى إلى إهمال التفكير فى آيات الله تعالى ودلائل وجوده ووحدانيته، فقال: سأصرف عن فهم آياتى القائمة فى الآفاق وفى الأنفس. سأصرف عن فهمها الذين يتكبرون على الخلق، ويرفضون قبول الصواب معتزِّين بغير الحق وهو الباطل والضلال ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ الآية (٣٢) من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. وإن يروا كل آية من آياتنا الدالة على صدق رسلنا لا يؤمنوا بها لشدة عنادهم وتحكم الشهوات فى أنفسهم، وإن يروا طريق الهدى لا يسلكوه، وإن يروا طريق الضلال يختاروه طريقا كل ذلك جزيناهم به بسبب أنهم ثبتوا وصمموا على تكذيب آياتنا المنزلة والمعجزة، وبسبب استمرارهم على الغفلة زمنا طويلا حتى طبع على قلوبهم فلا يتنبهون للأدلة، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤. والذين كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا للهداية، وكذبوا بلقاء ربهم يوم القيامة أى بالبعث والجزاء، بطلت كل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وكانت مظنة نفعهم كصلة الرحم وإغاثة الملهوف، لأن شرط الانتفاع بها فى الآخرة الإيمان، فلا يجزون إلا جزاء عملهم وهو شر الجزاء. واتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه من حليهم الذى أخذوه من المصريين صورة عجل بقر صنعه السامرى بحيث يخرج منه صوت كصوت البقر، وجعلوه إلها يعبدونه تقربا به إلى الله، انظر آيتى (٨٧، ٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤. ثم سفه عقولهم فقال: ألم يروا حين اتخذوه إلها أنه لا يكلمهم ولا يقدر على هدايتهم إلى طريق الصواب، فهم اتخذوه إلها وكانوا ظالمين لأنفسهم وللحق بهذا الجرم الفظيع. ولما ظهر لهم خطؤهم وندموا وعلموا أنهم قد ضلوا، رجعوا إلى الله قائلين لئن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا ويغفر لنا خطيئتنا لنكونن من الخاسرين لخيرى الدنيا والآخرة.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ(١) أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ(٢) ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ(٣) ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ(٤) ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ

المفردات : . ﴿أسفا﴾ : الأسف الحزن، وأسف بوزن كتف شديد الأسف، وفعله أسف كتعب.

﴿عجلتم أمر ربكم﴾ : يقال عجله بفتح ثم كسر إذا سبقه.

﴿سكت عن موسى الغضب﴾ : أصل السكوت ترك الكلام، والمراد هنا ذهب عنه الغضب.

﴿واختار موسى قومه﴾ : الأصل اختار من قومه فحذف حرف الجر للعلم به.

المعنى : . ولما رجع موسى من الطور مكان المناجاة إلى قومه بنى إسرائيل حال كونه غضبان على أخيه هارون لضعفه فى سياسة قومه حزينا على ما وقع منهم، قال : بئس خلافة خلافتكم لى من بعد ذهابى عنكم، فبدل أن تخلفونى بالمحافظة على تعاليمى خلفتمونى بضدها، هل استعجلتم أمرا من أمور ربكم وهو إعطائى التوراة، فلما لم أرجع إليكم بسرعة ظننتم موتى فغيرتم كما تغير الأمم بعد أنبيائها.

ثم طرح موسى الألواح من يده ليمسك بشعر رأس أخيه هارون ولحيته كما تفيد الآية (٩٤) من سورة طه صفحتى ٤١٤، ٤١٥، يجره إليه عتابا له وتألما من لينه مع طيش بعضهم، وقال له ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى؟ انظر الآية (٩٢) من سورة طه صفحة ٤١٤. قال هارون لموسى: يا ابن أمى لا تعجل بتعنيفى فإنى لم أفرط فى نصحهم، أنظر الآية (٩٠) من سورة طه صفحة ٤١٤، ولكنهم استضعفونى فلم يسمعوا نصحى ولم يمتثلوا أمرى بل قاربوا أن

(١) غضبان (٢) الظالمين (٣) الراحمين (٤) الحياة

يقتلونى لما نهيتهم، فلا تشمت بى أعدائى الذين عبدوا العجل فإنهم يتمنون إهانتى، ولا تجعلنى معهم وقرينا لهم فى غضبك مع أنهم هم وحدهم الظالمون. وكان هارون شقيق موسى، وإنما ناداه بالأم فقط ليحمله على العطف بتذكره لها وما قاسته فى المحافظة عليه عند ولادته من الشدائد والتعرض لفتك فرعون بها، انظر الآيات من (٧ - ١٣) من سورة القصص صفحات ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨.

فلما تبين لموسى عذر أخيه قال : يارب اغفر لى ما أغلظت من قول وفعل مع أخى، واغفر لأخى ما عساه قصر فيه من منع القوم من الكفر لما هددوه بالقتل، واشملنا برحمتك التى وسعت كل شىء لأنك أنت أرحم الراحمين.

ولما فرغ سبحانه من حكاية ما حصل بين موسى وأخيه شرع فى بيان ما استحقه قومه من جزاء كفرهم فقال:

إن الذين اتخذوا العجل إلها سينالهم غضب من ربهم، ومن آثار هذا الغضب أن لا تقبل توبة أحدهم إلا بقتل نفسه كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وذلة فى الحياة الدنيا تقدم بيانها فى الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢، منها للسامرى خصوصا ما فى الآية (٩٧) من سورة طه صفحة ٤١٥. وكهذا الجزاء الرادع نجزى كل مَنْ يفترى الكذب على الله بجعله يقبل وساطة آلهة تعبد من دونه. ومن هذا وما سيأتى بعده مباشرة وفى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ يظهر أن قوم موسى كانوا ثلاثة أقسام:

قسم كفر وصمم كالسامرى وشيعته، وقسم تنبه وتاب، وقسم لم يشترك فى الجرم وانكره وهم مَنْ فى الآية (١٥٩) الآتية صفحة ٢١٨ وفتح سبحانه باب التوبة لكل مذنب مهما كان ذنبه حتى يقطع على الشيطان أمله، فقال: والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا أى أخلصوا فيه وثبتوا عليه يقبلهم سبحانه لأن ربك أيها النبى كثير المغفرة واسع الرحمة، فلا يرفض توبة تائب. ولما ذهب عن موسى الغضب باعتذار أخيه عاد إلى الألواح فأخذها، وفيما نسخ وكتب فيها هدى وإرشاد وسبب رحمة للذين يخافون غضب ربهم. ولما أراد موسى أن تكون التوبة من قومه عامة اختار من قومه سبعين رجلا....

سبعين رجلا لميقاتنا[1] فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى[2] أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين[3] (١٥٥) * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة[4] والذين هم بآياتنا[5] يؤمنون (١٥٦) الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة[6] والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم[7] عن المنكر ويحل لهم الطيبات[8] ويحرم عليهم الخبائث[9] ويضع عنهم إصرهم والأغلال[10] التى كانت عليهم

المفردات : . ﴿لميقاتنا﴾ : الميقات هنا لغرض غير ما تقدم فى الآية (١٤٣) من هذه السورة صفحة ٢١٤، فالأول كان لتلقى الألواح، وهنا للاعتذار والتوبة من اتخاذ العجل، وقد تقدم معنى الميقات هناك.

﴿الرجفة﴾ : الصاعقة كما تقدم فى الآية (٩١) من هذه السورة صفحة ٢٠٧.

﴿فتنتك﴾ : أى ابتلاؤك واختبارك.

﴿هدنا إليك﴾ : رجعنا وتبنا.

﴿فسأكتبها﴾ : الضمير يعود على الرحمة بمعنى آخر لأن الأولى هى الرحمة العامة كما سيأتى وأما مرجع الضمير فهى الرحمة الخاصة وهذا يسمى فى لغة العرب ﴿استخدام﴾ وهو ذكر الشىء بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر، ومنه أنزلت السماء ماء فرعته الإبل، أى فرعت ما نبت على الأرض لما نزل عليها الماء.

﴿الأمى﴾ : أصله المنسوب لأمه وأريد به مَنْ لا يقرأ ولا يكتب لأنه كيوم ولدته أمه.

﴿إصرهم﴾ : التكاليف الشاقة كما تقدم فى آخر سورة البقرة.

﴿الأغلال﴾ : جمع غل بضم أوله وهو فى الأصل الحديد الذى يجمع يده إلى عنقه، والمراد به تصوير ما كانوا فيه من المشقة بصورة حسية.

المعنى : . واختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه، فلما وصلوا جبل الطور غلبتهم غلظة الطبع كما هى عادتهم التى أبرزتها الآيات من (٤٠ إلى ١٤٢) من سورة البقرة صفحات

(١) لميقاتنا (٢) وإياى (٣) الغافرين (٤) الزكاة
(٥) بآياتنا (٦) التوراة (٧) وينهاهم (٨) الطيبات
(٩) الخبائث (١٠) والأغلال.

من ٩ إلى ٢٧، فطلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة، انظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١، فأخذتهم الرجفة فماتوا جميعا ثم أحياهم كما فى الآية (٥٦) من سورة البقرة صفحة ١١. ويكون الترتيب بـ (ثُمَّ) فى الآية (١٥٣) من سورة النساء صفحة ١٢٩ ترتيب منزلة الجريمة لا ترتيب زمانها، ولا شك أن عبادة العجل أفظع من سؤال الرؤية، ويؤيد ذلك آيتا (٥٤، ٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١، ويكون الجزاء الذى وقع على بنى إسرائيل متفاوتا بعضه بالرجفة وهو ما حصل للسبعين، وبعضه بقتل الشخص نفسه وهو لمَنْ سايروا السامرى فى عبادة العجل ثم أرادوا التوبة وبعضهم لم يقتلوا أنفسهم ولم تأخذهم الرجفة ولم يتوبوا وهم السامرى وأشياعه. وقال موسى: يارب لو شئت إلخ، يعنى يارب لو أردت لأهلكتهم قبل ذلك بإغراقهم فى البحر وتركهم لفرعون يقتلهم، ولو شئت أهلكتنى حين طلبت منك الرؤية، أفتهلكنا الآن بما فعل السفهاء منا من سوء الأدب والجرأة على الله. ما هذا إلا ابتلاؤك وامتحانك سبحانك الذى أخرتنى به انظر الآية (٨٥) من سورة طه صفحة ٤١٣، تضل بسببه مَنْ تشاء، أى ما تلك الفعلة التى كانت سببا لأخذ الرجفة لهم إلا إمتحانًا منك جعلته سببا لظهور استعداد بنى إسرائيل وما انطوت عليه سرائر كل فرد منهم من ضلال وهداية، وما استحقوا من ثواب أو عقاب، فميزت بها المؤمنين الثابتين كالذين سيأتى ذكرهم فى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ وغيرهم ممن كفروا وتابوا، وغيرهما ممَنْ لم يتب كالسامرى ومَنْ معه. وإذا كان الأمر كذلك فاغفر لنا وارحمنا لأنه لا مولى لنا سواك، وأنت خير الغافرين حلما وكرما فلا يعظم على مغفرتك ذنب. وأكتب لنلا فى هذه الدنيا حسنة أى حياة طيبة وتوفيقا للطاعة، واكتب لنا فى الآخرة أيضا حسنة هى الجنة لأننا تبنا ورجعنا إليك. فما هنا كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠ قال سبحانه: عذابى أصيب به مَنْ أشاء لحكمة تقتضى زجره أو دفع ضره عن الناس، وهو قليل ما يصيب بالنسبة لسعة رحمتى العامة لكل المخلوقات حتى الكافر منهم، انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ والآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨. أما رحمتى الخاصة وهى السعادة فى الدنيا والآخرة فسأكتبها للذين يتقون الكفر والمعاصى والتمرد على رسلهم، ويؤتون ما طلب

منهم من الزكاة، والذين هم بأياتنا المعجزة والمنزلة يؤمنون إيمانا مستمرا من غير إخلال بشىء منها، ولا يفرقون بين نبى ونبى، الذين يتبعون الرسول الذى أرسله الله للهداية، النبى المنبئ للمكلفين ما شرعه الله، الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب فى حياته، وتلك معجزة كبرى له، وليس هذا إلا خاتم الأنبياء الأعظم، عليه ألف صلاة وألف سلام. هذا الرسول الكريم يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم بصفاته التى لا تنطبق إلا عليه كما تقدم فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، ومن صفاته عندهم فى التوراة والإنجيل الصحيحين أنه يأمر بكل خير وينهى عن كل شر تنكره العقول السليمة، ويحل لهم الطيبات كلها حتى ما كان محرمًا عليهم فى التوراة، انظر الآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠، والآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، ويحرم عليهم الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وكل ما فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، والآية (١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣٠، ويضع عنهم إصرهم أى يخفف عنهم التكاليف الشاقة كعدم قبول توبة مرتكب الكبيرة إلا بقتل نفسه كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وعدم طهارة الثوب إلا بقطع موضع النجاسة، وعدم قبول الدية فى القتل العمد والخطأ بل لابد من القصاص، وتحريم صيد السمك يوم السبت كما سيأتى فى الآية (١٦٣) من هذه السورة صفحة ٢١٩ والآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣، وهذا الأمر كان يضايقهم كما يضايق الغل رقبة الأسير، فالمراد تصوير حال بنى إسرائيل فيما مضى بحال الشخص الذى يحمل أثقالا توجع ظهره، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه، متمكنة منه كما يتمكن المستعلى من المستعلى عليه.

المفردات : . (وعزروه): أصل العزر المنع، والمراد منعوه وحموه من عدوه بحماس حتى لا يناله بسوء، انظر الآية (٩) من سورة الفتح صفحة ٦٧٩.

﴿وكلماته﴾: المراد بها كل الكتب المنزلة كما فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

﴿يهدون بالحق﴾ : أى يرشدون الناس حال كونهم متمسكين بالحق والذى يرشد وهو بهذه الحال لا يرشد إلا إلى الصواب.

﴿وبه يعدلون﴾: ويعدلون فى أحكامهم بسبب وقوفهم عنده. ﴿وقطعناهم﴾ : أى فرقناهم فرقا.

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ[1] وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا[2] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ[3] وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ[4] اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ[5] قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ[6] وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ[7] مَا رَزَقْنَٰكُمْ[8] وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ

﴿أسباطا﴾ : قبيلة كما تقدم فى آيتى (١٣٦، ١٤٠) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧ ﴿استسقاه قومه﴾ : أى طلبوا منه الشرب فطلب من ربه كما تقدم فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢. ﴿انبجست﴾: انفجرت كما فى الآية السابقة صفحة ١٢ ﴿مشربهم﴾: مكان شربهم. ﴿المن والسلوى﴾: تقدم فى الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١.

المعنى : . فالذين آمنوا بهذا الرسول عند مجيئه وتفانوا فى حمايته من كل من يعاديه، ونصروه إذا حورب، واتبعوا النور الذى أنزل معه وهو القرآن؛ أولئك الذين يفعلون كل ذلك هم وحدهم الفائزون برضوان الله وجنته. قل أيها النبى : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا لا فرق بين عربى وعجمى وأبيض وأسود، الله الذى وحده ملك السموات والأرض يتصرف فيهما ويدبر أمرهما حسب حكمته، لا إله إلا هو يحيى ويميت لا غيره، فخافوه، وآمنوا به وبرسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله، أى بما يدعوكم إليه وبكل كتبه المنزلة، واتبعوه فى كل ما يفعل ويقول لترجى لكم الهداية إلى الخير. ثم بعد ذلك بيَّن سبحانه حال بعض أتباع موسى وأنهم ليسوا كلهم مخطئين، فقال: ومن قومه جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاء به نبيهم من عند ربه ويعدلون إذا حكموا بسبب ملاحظة هذا الحق وهذا المدح يدل على أنهم لم يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من أكل الربا والسحت أى الرشوة وكل محرم، وفرقنا قوم موسى اثنتى عشرة فرقه تمتاز كل فرقة بنظام خاص حتى فى مكان شربهم كما سيأتى، فقوله ﴿أمما﴾ بيان لـ ﴿أسباطا﴾ قبله، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب أى قلنا له اضرب بعصاك الحجر فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، قد علم كل سبط مكان شربه. وقد تقدم فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢ بيان ذلك.

(١) السموات (٢) فآمنوا (٣) وكلماته (٤) وقطعناهم
(٥) استسقاه (٦) الغمام (٧) طيبات (٨) رزقناكم.

ومن نعمنا عليهم أيضا أننا ظللنا عليهم الغمام حفظا لهم من حر التيه، وأنزلنا عليهم المن والسلوى، انظر ذلك كله فى الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١، وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم، ولكن ظلمهم قاصر عليهم ضرره لا يتعداهم إلى غيره.

لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا
حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ(١)
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْئَلْهُمْ(٢) عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ
نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ
لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا
مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا

المفردات :. ﴿هذه القرية﴾ : هى أريحاء.

﴿حطة﴾ : أى اسقاط لخطايانا.

﴿سجدا﴾ : أى متواضعين.

﴿فبدل الذين ظلموا﴾ : أى قالوا بدل حطة حنطة بالنون.

﴿رجزا﴾ : أى عذابا. ﴿القرية التى كانت حاضرة البحر﴾ : عن ابن عباس أنها أَيْلَةُ، وكانت بين مدين والطور، مشرفة على شاطئ البحر. ﴿إذ يعدون فى السبت﴾ : أى حين يتجاوزون حدود الله بصيد السمك فى يوم السبت وكان محرما عليهم ذلك. ﴿حيتانهم﴾ : جمع حوت، والمراد به السمك مطلقا كبيرا أو صغيرا. ﴿يوم سبتهم﴾ : قال الراغب: أصل معنى السَّبْت القطع، تقول العرب سَبَتَ على الجلدَ يَسْبِتُه بكسر الباء أو ضمها سبتا أى قطعه، وسمى اليوم الذى يقع بين الجمعة والأحد بالمصدر ﴿السبت﴾ لأن الله تعالى شرع لليهود قطع العمل فيه والتفرغ للعبادة، فهذا الاسم مما اتخذه العرب من إسرائيل الذين اختلطوا بهم فى المدينة وما حولها. وقبل ذلك كان اسمه عند العرب (شِيَان) بكسر الشين، والمراد من يوم ﴿سبتهم﴾ يوم قطع العمل للعبادة انظر الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣، والآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٥٤) من سورة النساء صفحة ١٢٩. ﴿شرعا﴾ : أى ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل جمع شارع كركع وراكع وسجد وساجد. ﴿ويوم لا يسبتون﴾ : أى يوم لا يقطعون العمل. ﴿نبلوهم﴾ : أى نختبرهم، والمراد نعاملهم معاملة

(١) خطيئاتكم (٢) واسألهم.

الممتحن الذى يريد أن يظهر للناس التمييز بين من حَكَّم عقله فى نفسه وشهواتها وبين من جعل عقله عبدًا لشهوات نفسه، وعلى ذلك يترتب الجزاء العادل قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ انظر آيتى (٢، ٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠ و ﴿الذى خلق الموتى والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ الآية (٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٤.

﴿أمة منهم﴾ : أى طائفة.

﴿معذرة إلى ربكم﴾ : أى عذرا نعتذر به إلى ربكم. ﴿بئيس﴾ : من البأس وهو الشدة، أى شديد.

المعنى :. واذكر أيها النبى إذ قال ربك لبنى إسرائيل اسكنوا قرية أريحاء من بلاد الشام، وكلوا من خيراتها فى أى جهة من نواحيها شئتم لا يزاحمكم أحد، وقولوا عند دخول بابها كما فى الآية (٥٨) من سورة البقرة صفحة ١١ طَلَبُنَا منك يارب هو إسقاط خطايانا، وادخلوا باب القرية خاشعين لله منكسى رءوسكم تواضعا له تعالى، إذا فعلتم ذلك نغفر لكم خطاياكم، ونزيد المحسنين ثوابا. فماذا كان من بنى إسرائيل بعد هذه الأوامر والترغيب؟ كان منهم أنهم بدلوا قولا غير الذى قيل لهم كما يفعل المستهزئ، والمراد خالفوا مخالفة تامة، فأنزلنا عليهم عذابا من السماء بسبب استمرارهم على الظلم وتجاوز الحد. قيل أن ما نزل بهم فى هذه الحالة كان طاعونا شديدا فتك بهم. واسأل أيها النبى أيضا اليهود المعاصرين لك تقريعا لهم بما فعل أجدادهم لأنهم ماضون على طريقتهم وتحذيرا لهم من أن يحل بهم ما حل بأجدادهم إذا استمروا على ماهم عليه، اسألهم عن خبر القرية القريبة من البحر وما حل بأهلها حين تجاوزوا حدود الله بالصيد فى يوم السبت الممنوع فيه العمل، حين كانت تأتيهم الحيتان [illegible] ظاهرة، وحين لا يكون فى يوم السبت حيث يمكنهم العمل لا تأتيهم وكان الله سبحانه [illegible] العمل عليهم يوم السبت امتحانا لهم لعلهم يتمرنون على الطاعة فيتغلبون على [illegible] الشرسة فتستقيم أحوالهم وأيضا ليتميز الخبيث من الطيب؛ وورد أن اليهود لما رأوا السمك يكثر يوم السبت المحرم عليهم الصيد فيه احتالوا على صيده برمى الشباك وراء السمك أو إقامة سدود بعيدا عن الشاطئ فى داخل الماء، فعلوا ذلك يوم السبت والسمك كثير قريب من

الشاطئ، حتى إذا دخل الليل وأراد السمك الرجوع إلى داخل البحر منعته السدود أو الشباك، فيصيدونه يوم الأحد ظانين أنهم بذلك أطاعوا الله وقالوا ما صدنا يوم لسبت. ولما كانت هذه الحيل لا تخفى على الله عز وجل كان جزاؤهم ما ستعلمه. كهذا البلاء والامتحان العظيم بظهور السمك بكثرة يوم السبت نبتلى ونمتحن هؤلاء اليهود بأشياء كثيرة بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة ربهم. وكان اليهود فى هذه القرية عند هذا الامتحان على ثلاث طوائف:

طائفة تعدت وعصت، وطائفة تقية نهتهم وحذرتهم سوء العاقبة ولم تَكُف عن النهى مهما أعرض عنها المخالفون، وطائفة صالحة أيضا نهت أول الأمر ولما يئست سكتت لاعتقادها أنهم بلغوا من الفجور حالة جعلتهم غير قابلين للنصيحة. وذكر القرآن أن الله عذب العاصين، ونجى الناصحين، وسكت عن الطائفة الثالثة، والجمهور على أنها نجت أيضا، لأن أسلوب كلامها يدل على أنها كانت مستقبحة لعمل المخالفين وأنها كانت مؤمنة بأن الله سبحانه سيعذبهم، ولذلك قال عكرمة، لما سمع رجلاً يقول إنها غير ناجية كيف هذا؟ ونحن نرى أنهم أنكروا، وكرهوا ما عمله العاصون. فإذا قلتم إن الله سبحانه وتعالى لم يقل فنجيناهم جميعا. نقول إنه سبحانه لم يقل أيضا فأهلكنا هذه الطائفة، ولعله سبحانه إنما خص بالذكر الذين استمروا على النهى لأنهم أعلى درجة، حيث حملهم الخوف من الله تعالى على مداومة النهى عن المنكر ومن هذا نعلم أن كل قرية ظهر فيها منكر إن لم يقم بعضها بالنهى عنه عمَّ جميعهم العذاب، وإن نهت طائفة منهم وحل العذاب نجت هى منه.

فى ذلك كله قال سبحانه: وإذ قالت أمة منهم أى طائفة من أهل هذه القرية تناقش الطائفة التى قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : لم تعظون قوما الله مهلكهم بإفنائهم كما أفنى عادا وثمود، أو معذبهم عذابا شديدا فى الدنيا كما عذب آل فرعون بالقحط والمكدرات، أى لم تحاولون هذا وهو لا ينفع فيهم، لأن الله حكم بإهلاكهم أو تعذيبهم. قال الناهون عن المنكر : إنما فعلنا ذلك ليكون عذرًا لنا نعتذر به إلى ربكم إذا سألنا يوم القيامة عن وقوع هذا المنكر فى قريتنا، ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة فيتقون الله، أى أننا لم نيأس منهم كما يئستم. فلما ترك العاصون ما ذكرهم به أتقياؤهم كأنهم نسوه، أنجينا الذين ظلموا بسبب تعدى الحدود بعذاب شديد وهو البؤس وهو الشقاء فى المعيشة بسبب استمرارهم على الفسق وتعودهم الاستهانة بأوامر الله.

عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ الْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا

المفردات : . ﴿عتوا﴾ : العتو التجبر فى التكبر انظر ما سبق فى الآية (٧٧) من هذ السورة صفحة ٢٠٥.

﴿خاسئين﴾ : أى أذلاء مبعدين عن كل خير. ﴿تاذن ربك﴾ : أى أعلم إعلاما مؤكدا.

﴿يسومهم﴾ : يلحق ويوقع عليهم.

﴿وقطعناهم فى الأرض﴾ : أى فرقنا اليهود فى أنحاء الأرض.

﴿أمما﴾ : أى فرقا.

﴿وبلوناهم﴾ : أى عاملناهم معاملة المختبر ليظهر للناس ما فى طبائعهم فإذا وقع الجزاء آمن الجميع بأنه عدل منه تعالى.

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ : أصل الخلف مصدر خلفه أى جاء بعده، جعل وصفا بمعنى خليفة لمَنْ قبله؛ فالمعنى جاء من بعدهم خلفاء لهم.

﴿ورثوا الكتاب﴾ : المراد به التوراة.

(١) خاسئين
(٢) القيامة
(٣) وقطعناهم
(٤) الصالحون
(٥) وبلوناهم
(٦) بالحسنات
(٧) الكتاب
(٨) ميثاق
(٩) الكتاب
(١٠) بالكتاب
(١١) الصلاة.

﴿عرض هذا الأدنى﴾ : العرض مالا ثبات له، والمراد به هنا حطام الدنيا الزائل. والأدنى صفة لمقدر، والأصل متاع هذا الشىء الأدنى، والمراد بالشىء الحياة الدنيا.

﴿ميثاق الكتاب﴾: أى العهد الذى جاء به كتابهم.

﴿ودرسوا ما فيه﴾ : أى قرءوا ما فى الكتاب وفهموه. ﴿يمسكون بالكتاب﴾ : أى يتمسكون بما فيه، يقال مسك بالشىء وتمسك به والمعنى واحد.

﴿نتقنا﴾ : أى رفعنا كما فى الآية (٦٣) من سورة البقرة صفحة ١٣.

المعنى : . فلما لم يزجرهم العذاب الشديد وطغوا فى تكبرهم عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة خاسئين، أى تعلقت إرادتنا بجعلهم قردة، انظر الآية (١١٧) من سورة البقرة صفحة ٢٣ والآية (٤٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٠ والآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦. قيل أنهم مسخوا قردة وخنازير حقيقة وماتوا سريعا. وقال مجاهد : هو مسخ معنوى، أى مسخت قلوبهم فصارت لا تقبل نصحا وأصبحوا كالقردة فى الاحتقار والطيش والإفساد.

ثم شرع سبحانه فى بيان سننه فى عقاب الأمة كلها بعد بيان عقاب طائفة منها فقال: وإذ تأذن أى أعلم إعلاما مؤكدا بالقسم الذى دلت عليه اللام فى ﴿ليبعثن﴾ الآتية والمعنى : واذكر أيها النبى حين أخبر الله مقسما بعزته أنه ليبعثن ويسلطن على هؤلاء اليهود إلى يوم القيامة من يذيقهم أسوأ أنواع العذاب وأشده عقابا لهم على ظلمهم وفسقهم وفسادهم وإفسادهم، انظر بعضا من ذلك فى أول سورة الإسراء، وإن أردت تفصيلا لما حل بهم من النكال على يد أكثر الأمم الكبيرة إلى وقتنا هذا فارجع إلى شرح حديث ٤٠٥ من كتابنا صفوة البخارى، فإنه سجل ما قرر لويس اليهودى الإنكليزى فى كتابه (المسألة اليهودية) وستتجلى لك معجزة القرآن وصدق الرسول على أروع صورة.

إن ربك أيها النبى لسريع العقاب فى الدنيا للأمة التى يغلب عليها الفساد، وإنه لغفور رحيم لمن رجع إليه وتاب. ومما عاقبناهم به أننا قطعناهم فى الأرض حال كونهم جماعات

جماعات كل جماعة فى قطر حتى لا يكاد يخلو منهم قطر، لا شوكة لهم إلا الدس والوقيعة بين الدول، منهم الصالحون وهم الذين استقاموا وآمنوا بأنبياء الله بعد موسى إلى زمنه ﷺ، ومنهم أناس دون وصف الصلاح وهم درجات بعضها كافر أو قريب منه، وبعضها أقرب إلى الصلاح. واختبرناهم بالحسنات كالخصب والعافية هل يشكرون عليها أم يكفرون، وبالسيئات كالجدب والمرض هل يصبرون عليها ليرجعوا إلى ربهم بالتوبة من ذنوبهم ويشكروا فى السراء ويصبروا فى الضراء، انظر الآية (١١٠) من سورة النحل صفحة ٣٦١ والآية (١٣١) من سورة طه صفحة ٤١٩ والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. فخلف من بعد أتقيائهم ذرية ورثوا عن آبائهم التوراة ولكنهم لم يعملوا بها؛ لأنهم يأخذون متاع هذه الحياة الدنيا الزائل المحرم عليهم أخذه كالربا والرشوة، ويقولون فى أنفسهم إن الله سيغفر لنا ذلك ولا يحاسبنا عليه، يرجون هذه المغفرة والحال أنهم إن يأتهم عرض حرام مثله يأخذوه، أى فهم مصرون على الذنب عازمون على العود إليه، ومع ذلك يرجون المغفرة. ألم يؤخذ على هؤلاء الخلف عهد الله فى التوراة بأن لا يقولوا على الله إلا الحق، والحال أنهم درسوا هذا الكتاب وفهموا ما فيه، وعلموا أنه ليس فيه حل أخذ الحرام، ولا جواز مغفرة الذنب مع الإصرار عليه. ولو تنبه هؤلاء قليلا لعلموا أن الدار الآخرة وما أعده الله فيها للمتقين الذين يتقون المعاصى كالرشوة والسحت خير من هذا المتاع الفانى، انظر الآية (٤٢) من سورة المائدة صفحتى ١٤٤، ١٤٥. أبعد ذلك تستمرون على عصيانكم فلا تعقلون وترجحون الخير على الشر، والنعيم الدائم على الزائل. والذين يتمسكون بكتاب الله وحبله المتين من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه، وأقاموا الصلاة المفروضة فى التوراة وفى القرآن بعد الإسلام، لا يضيع الله تعالى أجرهم لأنهم مصلحون، انظر الآية (٣٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.

ثم ختم سبحانه قصة بنى إسرائيل بالتذكير ببدء حالهم عند إنزال الكتاب عليهم، عقب بيان عاقبة أمرهم فى مخالفتهم لهذا الكتاب والخروج على تعاليمه، ليربط مبدئهم ونهايتهم، ليظهر للناس أن طبعهم هو طبعهم إلى قيام الساعة، فقال: وإذ نتقنا، أى واذكر أيها النبى إذ رفعنا فوق رءوس هؤلاء الجبل...

الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم(١) بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ(٢) مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٣) إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ(٤) ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ(٥) وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَاهُ(٦) ءَايَاتِنَا(٧) فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ(٨) فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ(٩) بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ(١٠) فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

المفردات: . ﴿ظلة﴾ : أى غمامة، انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١ والآية (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

﴿أشهدهم على أنفسهم﴾ : المراد أوجدهم شاهدين على أنفسهم بذلك بلسان حالهم، وقالوا إن شهادة الحال أصدق من شهادة اللسان، وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب يقال:

امتلأ الحوض وقال كفى ويقولون فى حال السارق، عينه تنطق بأنه سارق وفى القرآن الآية (١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، والآية (٧) من سورة العاديات صفحة ٨١٨ وهذا يدل صراحة على أن الحجة قامت على بنى آدم بهذا الميثاق على أن رب العالمين هو الله وحده، وبعد قيام هذه الحجة فلا حاجة إلى إرسال رسول فى موضوعها وإنما تأتى الرسل بالشرائع فقط ﴿ألست بربكم﴾ : الهمزة فى ﴿ألست﴾ أصل معناها الاستفهام وهو طلب المتكلم من السامع أن يفهمه شيئا خفى عليه علمه، واستعملت هنا فى الإنكار الذى معناه النفى، وبما أن ما بعدها هنا وهو (ليس) تفيد النفى أيضا، ومن المقرر أن نفى النفى إثبات فإن مضمون الكلام يصير ثابتا، ويكون قصد المتكلم بهذا التركيب هو حمل المخاطب على الاعتراف بما يفيد النفيين، ويكون المعنى حينئذ اعترفوا أيها المخاطبون بأنى أنا الله ربكم.

(١) آتيناكم (٢) بنى آدم (٣) القيامة
(٤) غافلين (٥) الآيات (٦) آتيناه
(٧) آياتنا (٨) الشيطان (٩) لرفعناه
(١٠) هواه.

﴿بلى﴾ اعلم أيها المثقف المنتهى أن الراجح مما قرره علماء العربية أن حرف (بلى) لا يأتى فى أكثر استعمالاته إلا بعد كلام فيه نفى، نحو قوله تعالى ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن﴾ الآية (٧) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦، ويكون مراد المتكلم بها فى هذه الحالة هو إبطال النفى وإثبات ما بعده، وإن ذكر قبل النفى السابق على حرف (بلى) حرف استفهام، فإن كان استفهاما مراد به التوبيخ فحرف (بلى) باق على معناه من إبطال النفى أيضا كما سبق، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ الآية (٣٤) من سورة الأحقاف، ونظير ذلك ما تقدم فى الآية ٣٠ من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، وإن كان الاستفهام للإنكار أى النفى كما هنا ويكون مضمون الكلام ثابتا يكون معنى بلى تقرير المعنى المتحصل من النفيين وهو الثبوت.

وقال سيبويه إمام العربية إنه يصح فى هذه الحال أن يجاب بحرف (بلى) وبحرف (نعم)، فبحرف (بلى) نظرًا لظاهر لفظ النفى، وبحرف (نعم) نظرًا لأن مضمون الكلام صار إثباتا. ونعم يجاب بها الإثبات، فنحو (هل جاء زيد)؟ إذا أردت الإثبات تقول فى جوابه نعم، وإن أردت النفى تقول لا، وقد جاء فى الحديث الصحيح الجواب بـ (نعم) بدل (بلى) بعد نفى مسبوق باستفهام إنكارى، وذلك فى قوله ﷺ للأنصار يومًا فى الحديث عن المهاجرين ألستم ترون لهم ذلك؟ قالوا: نعم.

وقد جاء قليلا الجواب بـ (بلى) بعد كلام ليس فيه نفى، من ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه من قوله ﷺ لأصحابه (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا: بلى) أى نعم نرضى. فاعلم ذلك واستصحبه معك فى كل ما يأتى من حرف (بلى). وإنما أفضت فى هذا لأن أكثر المفسرين اضطربت أقوالهم فى هذه الآية، ونسبوا لابن عباس رأيا لم يُسَلِّمه العلماء له، ولم يرضه إمام العربية سيبويه.

﴿فانسلخ منها﴾ : أى أهملها وتركها وراء ظهره كما تسلخ الحية من ثوبها وتطرحه وراءها.

﴿فأتبعه الشيطان﴾ : فلحقه وتمكن من إغوائه بعد أن كان بعيدا عنه بسبب طاعته.

﴿الغاوين﴾ : الفاسدين المفسدين، انظر الآية (٣٩) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ والآية (٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦ والآية (٣٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩.

﴿أخلد إلى الأرض﴾ أى ركن ومال إلى التسفل المنافى للرفعة بميله إلى ما على الأرض من زينة زائلة كما فى الآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١.

﴿تحمل عليه﴾ : أى تشتد عليه بالطرد والزجر وإيقاعه فيما يتعبه. ﴿يلهث﴾ : اللهث بفتح فسكون : التنفس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون فى غير الكلب من شدة التعب أو العطش، وفعله لهث كمنع.

المعنى : . واذكر حين رفعنا جبل الطور فوق رءوسهم لحملهم على الاهتمام بما فى التوراة وعدم التمرد عليها، لأن القادر على ذلك قادر على محقهم إذا خالفوا، وقلنا لهم فى حال رفع الجبل خذوا ما أعطيناكم مما فى التوراة بقوة وعزم على احتمال مشاقه، وتذكروا دائما ما فيه من الأحكام واعملوا بها ليعدكم ذلك لتقوى الله. ثم بدأ سبحانه كلاما جديدا فى شئون البشر عامة من جهة ما أودعه فى فطرهم وعقولهم من الاستعداد للإيمان بوجود خالق حكيم، بعد بيان هدايته سبحانه للبشر عن طريق الرسل والكتب إلى كل مالا تصل إليه عقولهم من الخير فى الدارين، فقال: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم﴾ إلخ؛ أى واذكر أيها النبى لأمتك حين أخذ ربك من بنى آدم أى استخرج منهم ذريتهم بطنا بعد بطن، وفطرهم على الإيمان، وجعل عقولهم تدرك بالضرورة أن كل فعل لابد له من فاعل، وكل حادث لابد له من مُحدِث، وهذا هو المراد من قوله: وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم ألست بربكم، قالوا: نعم أنت ربنا، فهو قول بلسان الحال، كما فى قول السموات والأرض اتينا طائعين، انظر الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١؛ ثم بيَّن سبحانه حكمة هذا الإشهاد فقال: ﴿أن تقولوا يوم القيامه إنا كنا عن هذا غافلين﴾. والمعنى فعلنا هذا منعا لاعتذاركم يوم القيامة بأن تقولوا إذا شاهدتم عذاب المشركين إنا كنا عن علم وجود إله واحد غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ووجدنا نحن ذرية من بعدهم جاهلين بطلان شركهم فاقتدينا بهم، أفتهلكنا يارب بما فعل المبطلون من آبائنا وجرونا إليه وتجعل عذابنا كعذابهم فالمراد أن الله تعالى لا يقبل الاعتذار بالجهل بوجوده، ولا بتقليد الآباء فى ذلك، وكهذا التفصيل البديع نفصل لبنى آدم الدلائل على وجود إله لعلهم يرجعون إذا تأملوا فيها عن جهلهم وتقليدهم الآباء. فالآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة فى الشرك به تعالى، وإنما يعذر بمخالفة ما جاء به الرسل من الغيبيات والشرائع التى لا يصل إليها العقل. هذا ما رآه المحققون فى معنى الآية، واختاره القاضى البيضاوى ويؤيده قوله تعالى ﴿من بنى آدم﴾ ولم يقل (من آدم) وكذلك جمع الضمائر فى قوله عز وجل ﴿ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره وكذا فى قوله سبحانه ﴿ذريتهم﴾ ولم يقل (ذريته) لو كان المأخوذ منه هو آدم كما يقول بعض المفسرين فتأمل وبالله

التوفيق. وعلى ذلك يكون قوله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ معناه معذبين على ترك الشرائع وعلى جهل الغيبيات إلا بعد مجىء رسول يبلغها. ولو كان المراد ماكنا معذبين حتى فى عدم اعتقاد وجود إله لقال: وما كنا معذبين حتى نشهد المكلف على نفسه كما فى هذه الآية التى معنا. فمحصل المعنى أنه لا ينفعهم الاعتذار بما ذكر لأنه سبحانه نبههم بإقامة الأدلة، وجعلهم مستعدين لمعرفة الحق من وجود إله صانع حكيم.

ثم أراد سبحانه أن يضرب مثلا للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ مع تأييدها بالأدلة العقلية فقال: واتل أى اقرأ على الناس ومنهم مشركو العرب واليهود خبر الرجل الذى آتيناه آياتنا المنزلة على رسولنا ومكناه من علمها فأهملها ولم يلتفت إلى الاهتداء بها أى فترتب على اختياره هذا الإهمال خضوعا لشهوة نفسه، أن لحقه الشيطان فأدركه وأحاط به من كل جانب حتى لا يفلت من سيطرته بعد أن فقد نور العلم والبصيرة، فأعقب ذلك أن صار من الغاوين الفاسدين المفسدين ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال التى توجب قرن العلم بالعمل كما فى الآية (١١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٧ لرفعناه بأن نجبره على الهداية كالملائكة، ولكنا لم نفعل لمخالفة ذلك لنظامنا فى هذه الحياة الدنيا من جعل الإنسان مختارا، وعلى حسب اختياره نسهل له ما يريد من خير وشر كما فى الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ولو اختار الرفعة لرفعناه. لكل هذا تركنا هذا الرجل وشأنه، فاختار لنفسه التسفل وأبى الرفعة، واتبع هواه فى الملاذ الزائلة، انظر الآية ٢٣ من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، فصار حاله كحال الكلب يلهث دائما، حملت عليه أو تركته، فإنه مكروب بضيق التنفس. فالكلام تمثيل لحال المحروم من الانتفاع بعلمه بحال الكلب فى سوء الحال وقلق القلب واضطرابه وعدم راحته، فهو فى هم دائم مشغول بخسائس الشهوات، لا يرضى بما قسم له من الحظوظ، بل يزيد طمعه كلما نال مأربا، فهو فاقد رضا القلب وراحة الضمير برضا الله عنه. ذلك المثل الغريب هو مثل كل مكذب بآيات الله من كفار مكة أو يهود الجزيرة، انظر ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء﴾ الآية (١٢٥) من سورة الانعام صفحة ١٨٣. واعلم أن هذا الرجل الذى آتاه الله آياته فأهملها لم يبينه القرآن، ولم يتفق عليه العلماء قديما وحديثا، ولم يصح حديث يبين اسمه ولا جنسه ولا وطنه؛ لأن هذا كله ليس له دخل فى مكان العبرة فى الموضوع، فلا تشغل نفسك بما لا يفيد والله أعلم.

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا[1] فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا[2] وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ[3] ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ[4] لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ[5] بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ[6] ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ[7] ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا[8] سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ[4] ﴿١٨٣﴾

المفردات : . ﴿ساء مثلا﴾ : المثل الحال والصفة، وساء أى قبح، والمعنى قبح حالاً حال هؤلاء المكذبين. ﴿ذرأنا﴾ : أصل معنى الذرء بث الأشياء وتكثيرها، والمراد خلقنا بتقدير ونظام، انظر الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿وذروا﴾ : أى اتركوا.

﴿يلحدون فى أسمائه﴾ : ألحد أى مال عن الصواب.

﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ : تقدم بيانها فى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ . ﴿سنستدرجهم﴾ : أى نأخذهم درجة بعد درجة حتى يصلوا إلى ما فيه هلاكهم. ﴿وأملى لهم﴾ : أى أمهلهم.

﴿كيدى متين﴾ : الكيد كالمكر هو التدبير الخفى بما يسوء الممكور به.

المعنى : . ذلك الحال هو حال المكذبين بآياتنا بعد ما جاءتهم واضحة قاطعة بصدق رسولنا فأعرضوا عنها، سواء فى ذلك المشركون واليهود، فاقصص أيها النبى عليهم قصص مثل ذلك الرجل المشابه حاله حال المكذبين بما جئت به رجاء أن يتفكروا فى هذه الحال فينزجروا عما هم عليه. قبحت صفة هؤلاء المكذبين فى عداد الصفات. وما ظلموا أحدا بعملهم هذا وإنما ظلموا أنفسهم فقط. ثم أراد سبحانه أن يقرر ويؤكد مضمون القصة السابقة من أن مَنْ تسبب فى الهدى أو الضلال لابد أن ينتهى إلى الغاية التى جعلها الله لكل

(١، ٢) بآياتنا (٣) الخاسرون (٤) آذان (٥) كالأنعام
(٦) الغافلون (٧) أسمائه (٨) بآياتنا.

منهما؛ فمن استعمل ما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فى التدبر لغرض الوصول للحق هداه الله إليه، ومَنْ أهملها وأفسد فطرته التى خلقها الله سليمة أضله. وقد تقدم تحقيق ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وسيأتى نظيرها فى الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١، وقد أجمل سبحانه هذا المعنى فى الآية الأولى هنا، وفصله فى التى تليها؛ فمعنى الأولى : مَنْ يوفقه الله لسلوك سبيل الهداية بسبب حسن استعداده واستعماله لحواسه فهو المهتدى حقا الفائز بالسعادتين، انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٦٦، والآية (٢٧) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، والآية (١١) من سورة التغابن صفحتى ٧٤٦، ٧٤٧، ومَنْ يضلله ويحرمه من هذا التوفيق لنقص فيه كفسق أو كبر أو كثرة كذب أو غير ذلك فهذا الفريق من الناس هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٥٨) من سورة البقرة صفحات ٦، ٧، ٥٤، والآية (١٠٨) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، والآية (٥٢) من سورة يوسف صفحة ٣١١، والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، والآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١ .

ثم فصل سبحانه هذا الإجمال فقال:

ولقد ذرأنا وأعددنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس؛ لأنهم أهملوا عقولهم ومواهبهم فأصبحت عقولهم لا تفهم النافع من الضار، ولا يوجهون أبصارهم إلى التأمل فى آيات الله ودقيق صنعه، ولا آذانهم إلى سماع الحق سماع فهم وتدبر. وقد كرر القرآن هذا المعنى فى مواضع كثيرة، منها الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (١٠٨) من سورة النحل صفحة ٣٦١، وآيتا (٢٦، ٢٧) من سورة السجدة صفحتا ٥٤٧، ٥٤٨، والآية (٢٣) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، والآية (٢٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠. أولئك المهملون لمواهبهم كالأنعام من إبل وبقر وغنم فى كونهم لا ينتفعون بحواسهم إلا فيما يعود على متعة أجسامهم الفانية، بل هم أضل من الأنعام لأنها لا تفعل إلا ما فيه مصلحتها، أما هم فلا يفعلون إلا ما فيه

هلاكهم وعذابهم الدائم فى الآخرة، والأنعام لا تعذب وأولئك هم الكاملون فى الغفلة عما فيه سعادتهم فى الدارين. وبعد هذا أراد سبحانه أن يرشد عباده المخلصين إلى تذكره سبحانه وعدم الغفلة عن مراقبته مع البعد عن التلاعب بأسمائه وصفاته وتحريفها إلى معنى لا يليق به، فقال:

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ والمراد بالأسماء الألفاظ الدالة على الذات كلفظ الله، أو الذات والصفة كالرحمن، وبقية المذكور فى الآية (٢٢) من سورة الحشر وما بعدها صفحتى ٧٣٣، ٧٣٤. والحسنى مؤنث الأحسن. والمعنى : ولله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فاذكروه وسموه ونادوه بها، وابتعدوا عن الذين يلحدون أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق من تحريفها أو تأويلها بما يفيد التشبيه بالمخلوقات وينافى الكمال، كتفسير علمه وقدرته وبصره وكلامه تعالى بأنها ككلامنا وقدرتنا وبصرنا إلخ، وكقول بعضهم لما سمع ﴿تبارك وجه ربك﴾ إن لله وجها أبيض يحيط به شعر أبيض. تعالى الله عن ذلك وعد بعضهم من الإلحاد فيها إدخال ماليس منها فيها بتسميته سبحانه بما لم يسم به نفسه مما لا يليق بكماله وجلاله، كأن يقول المستهتر:

الله خادم خلقه، يريد راعى مصالحهم. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرٍ. وكقول الفلاسفة: الله هو العقل المدبر الأعظم.

ابتعدوا عن مثل هؤلاء فسيلقون جزاء أعمالهم قريبا وبعد ما ذكر سبحانه صفات أهل جهنم وحذر ممن يلحدون فى أسمائه قال: وممنْ يلحدون فى أسمائه قال: وممنْ خلقنا طائفة من الناس يهدون غيرهم إلى الصواب بسبب حبهم الحق وبه يعدلون إذا حكموا، وهذه الصفات ظاهرة فى أمة محمَّد ﷺ السالكة فى طريقه. أما الذين كذبوا بآياتنا المنزلة والموجودة فى الكون فسنتركهم فى غيهم وضلالهم شيئا فشيئا من حيث لا يشعرون حتى يقعوا فى المهالك، وسأمهلهم وأمد لهم فى الحياة كيدا لهم ومكرًا بهم، وكيدى متين يقصم الظهور، انظر آيات من (٥٤ إلى ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

المفردات : ﴿جنة﴾ : جنون كما فى الآية (٢٥) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٤٧، ٤٤٨، والآية (٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٣.

﴿ملكوت﴾ : هو الملك العظيم كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿ويذرهم﴾ : يتركهم.

﴿يعمهون﴾ : يتحيرون كما تقدم فى الآية (١٥) من سورة البقرة صفحة ٥.

﴿الساعة﴾ : أصل معنى الساعة عند العرب لحظة من الزمن، والمراد هنا القيامة، أى قيام الناس من القبور عند النفخة الثانية، والعرب تطلق اللفظ الدال على الزمن وتريد الحدث الواقع فيه، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، عند الكلام على لفظ ﴿اليوم﴾، وانظر معانى الساعة عند العرب وفى القرآن فى شرح الآية (٣٤) من هذه السورة صفحة ١٩٧.

﴿أيان﴾ : متى. ﴿مرساها﴾ : أصله مصدر معناه الإرساء أى الإثبات، يقال رسا الشىء يرسو أى ثبت كما فى الآية (٤١) من سورة هود صفحة ٢٩٠، وأرساه غيره أثبته، والمراد هنا حصولها ووقوعها.

﴿لا يجليها لوقتها﴾ : لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء وقوعها فى وقتها، فاللام فى ﴿لوقتها﴾ تسمى لام التوقيت كقوله ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ و كتب الخطاب لعشر بقين فى رمضان.

﴿ثقلت فى السموات﴾ : أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يستطيعون الوصول إليه ﴿كأنك حفى عنها﴾ : أصل مادة حفى تفيد المبالغة فيما تعلقت به كما فى الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، ومعنى التركيب كأنك مبالغ فى سؤال ربك عنها حتى توصلت إلى علمها، يقال فلان حفى عن الأمر أى مبالغ فى البحث عنه، وتعرف حاله، ويطلق لفظ

(١) السموات (٢) طغيانهم (٣) مرساها (٤) السموات.

﴿حَفِيٌّ﴾ أيضا على شديد البر واللطف بغيره، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا﴾.

المعنى : . كذب هؤلاء الكفار رسولهم محمدا ﷺ، ولم يتفكروا فى حاله من أول نشأته وفى أدلة نبوته، لو تفكرتم لعلمتم أنه ليس بصاحبكم محمَّد جنون، وماهو إلا نذير لمَنْ عصى، واضح الإنذار. وبعد أن بيَّن أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد طلب منهم النظر والاستدلال العقلى فقال : أو لم ينظروا؛ أى هل كذبوا الرسول المعروف بينهم بالأمانة واتهموه بالجنون وهو المعروف عندهم بالعقل الراجح، ولم يتأملوا فى الملك العظيم وكل ما خلقه فيه شىء صغير أو كبير ظاهر أو باطن، فكل ذلك يدل على حكمة مدبر قدير لا يخلق هذا العالم عبثا، ولا يترك الناس سدى بدون مرشد، كما فى الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، ولم يتفكروا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلهم وقدومهم على الله بسوء أعمالهم. فإذا لم يؤمنوا بهذا القرآن المملوء بالعبر والبراهين فبأى حديث بعد يؤمنون؟ أى ليس هناك ماهو مثله ولا قريب منه ينتظرون الإيمان به، انظر مثل ذلك فى الآية (٦) من سورة الجاثية صفحة ٦٦١، وآخر سورة المرسلات صفحة ٧٨٦.

مَنْ يضلل الله لاستحقاقه ذلك فلا يستطيع مخلوق أن يهديه. ثم أشار إلى سبب إضلاله بقوله: ويذرهم فى طغيانهم أى تجاوزهم الحد بالكفر والعصيان يتحيرون لايستطيعون خلاصا وقد تقدم قريبا سنة الله فى الضلال والهداية فلا تغفل.

ولما سألوه ﷺ عن موعد قيام الساعة، وأصل الساعة الجزء من الزمن، والمراد بها هنا ساعة خراب هذا العالم الذى يبدأ بالنفخة الأولى كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ فقال سبحانه : يسألونك أيها النبى عن موعد قيام الساعة قائلين متى وقوعها وحصولها؟ قل لهم علم وقتها عند ربى وحده كما فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، لا يظهرها فى وقتها سواه سبحانه، ثقل وغمض علمها على كل مخلوق، فلا تأتيكم إلا بغتة بدون سبق شعور يسألونك هذا السؤال ويلحون فيه كأنك عالم بها، فإذا كرروا السؤال فكرر الجواب وقل لهم: علمها عند الله وحده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون اختصاصه سبحانه بعلمها.

ثم لما كان سؤالهم عن الساعة يشعر بأن بعضهم قد يخالجه ظن أنه ﷺ قد يقدر على مالا يقدر عليه قدرة البشر من النفع والضر، أراد سبحانه أن يبطل ذلك فقال: قل لهم أيها النبى إننى بشر مثلكم لا أملك لنفسى جلب نفع ولا دفع ضر إلا ما شاء الله من نفع يعيننى على جلبه أو ضر يساعدنى على دفعه، ولو كنت أعلم الغيب كما ظن بعضكم لا ستكثرت من

يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٩﴾ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[1] وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا[2] حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا[3] صَٰلِحًا[4] لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ[5] ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا[6] صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا[7] فَتَعَٰلَى[8] ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ[9] ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[10] ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ

كل خير يرغب فيه الناس، كالمال الحاصل من التجارة المبنى استكثاره على معرفة ما سيكون عليه الحال فى المستقبل مثلا، ولدفعت عن نفسى كل سوء بالبعد عن أسبابه الخفية، وما أنا إلا نذير لكل عاص بالعذاب، وبشير للمؤمنين الصالحين بالجنة.

المفردات : . ﴿تغشاها﴾ : أصل الغشاء الغطاء الذى يستر الشىء من فوقه، ومنه الغشاوة فى قوله ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، وتغشى الشىء غطاه؛ فهى كناية لطيفة عن أداء وظيفة الزوجية.

﴿فلما أثقلت﴾ : أى صارت ذات ثقل لكبر الحمل فى بطنها، فالهمزة تفيد الصيرورة كقولهم فلان أتمر وألبن، أى صار ذات تمر ولبن.

المعنى : . ختم سبحانه السورة بشىء مما بدأها به من الدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزله الله، والنهى عن اتباع غيره، والإشارة إلى نشأة الإنسان وعداوة الشيطان له وإغرائه بالمعصية إلخ، فقال هو الذى خلقكم من نفس واحدة أى من جنس واحد ليتم التآلف، ولذا قال: وجعل منها زوجها، أى من جنسها ليسكن إليها ويستريح، أنظر ما تقدم أول سورة النساء صفحة ٩٧، والآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣، فلما خالط الزوج الأنثى حملت حملا خفيفا أول الأمر لا تكاد المرأة تشعر به، فمرت به فى قضاء حاجاتها من غير مشقة، فلما صارت ثقيلة البطن وخافت هى وزوجها عاقبة الأمر دعوا الله ربهما قائلين يارب وعزتك لئن أعطيتنا نسلا صالحا للحياة لا نقص فى خلقته ولا فساد فى تركيبه لنكونن من الشاكرين لنعمتك، فلما أعطى الزوج والزوجة ولدا صالحا كما طلبا جعلا له تعالى شركاء فى شكر نعمه عليهم،

(١) واحدة (٢) تغشاها (٣) آتيتنا
(٤) صالحا (٥) الشاكرين (٦، ٧) آتاهما
(٨) فتعالى (٩) صامتون (١٠) صادقين.

فتقربوا إليهم كما يتقربون إليه، ونسبوا إليهم مالا يكون إلا منه سبحانه فأشرك بعضهم أصناما، وبعضهم يطلب حفظ ولده وماله من غيره تعالى، ويقدم لهم النذور التى لا تقدم إلا له تعالى، بل بلغ من جهل الإنسان بقدر ربه أنه يشرك حتى بالشجر والحجر، تعالى الله وارتفع شأنه عن شركهم، لأنه هو وحده صاحب الفضل فى كل ما ينال الإنسان من نعم.

فالمراد من الآية بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفى والجلى، فمن الأول تقديم مصلحة الولد على مصلحة الدين فيدخر له ولا ينفقه فى سبيل الله، انظر الآية (١٥) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧، أما الشرك الظاهر فلا يحصر، وقد تسرب بعضه إلى كثير من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله. فكأنه سبحانه يقول: هذا هو شأن الإنسان إذا خاف شيئا لجأ لله، وإذا اطمأن نسى ربه وأشرك، انظر الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠. وإنما نسب الشرك لجنس الإنسان مع أن فيهم مؤمنين لأن الأحكام دائما تناط بالأغلب، وأغلب البشر كافر كما فى الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، فيكون الحكم بالنسبة للكثرة، والقلة مستثناة لفظا أو تقديرا؛ لفظا كما فى الآية ١٩ من سورة المعارج وما بعدها صفحة ٧٦٥ والآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠، تقديرا كما فى الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، والآية (٩) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٣٤) من سورة إبراهيم ٣٣٥، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، والآية (٦٦) من سورة مريم صفحة ٤٠٣ وغير ذلك كثير. ثم أنكر سبحانه عليهم هذا الشرك ووبخهم عليه فقال: أيشركون إلخ؛ أى هل يصح أن يشركوا معه سبحانه وهو الخالق لهم ولأولادهم مالا يخلق شيئا من الأشياء مهما يكن حقيرا كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، بل هؤلاء الشركاء يخلقهم وقتا بعد وقت أمام أبصارهم، ولكنهم لا يفقهون فيسوون بين مَنْ يخلق ومن لا يخلق، بل هو مخلوق مثلهم، انظر الآية (١٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٧. وهؤلاء الشركاء مع كونهم مخلوقين لا يستطيعون نصرا لمَنْ يعبدهم على أعدائه بل ولا ينصرون أنفسهم إذا تعدى عليهم الغير بإهانة أو أخذ شىء من حولهم كما فى الآية المتقدمة من سورة الحج. وإن تدعوا أيها المشركون هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله ليرشدوكم إلى ما تحبون لا يتبعوكم إلى مرادكم، أى لا يجيبونكم كما يجيبكم الله إذا لجأتم إليه، فمستو عندكم دعاؤكم لهم وبقاؤكم على صمتكم وسكوتكم أى لا فائدة من دعائكم. ثم علل هذا سبحانه فقال فى تحدى

رسولنا ﷺ، لقومه من كفار العرب أجمعين، بهذا التحدى بعينه، فى الوقت الذى كان فيه ﷺ، بمكة، ولم يؤمن به إلا عدد قليل، معظمهم من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة فى هذا الوقت العصيب، والكفار كثرة وقوة يرهبها الأقوياء، يتحداهم خاتم الرسل ﷺ، هذا التحدى المستفز للجبان، فضلا عمَنْ يدعون أنهم أشجع الشجعان من زعماء قريش والعرب أجمع أليسوا هم القائلين:

إذا بلغ الوليد لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا.

تحداهم ﷺ تحديا مستفزا مثيرا لغضبهم، مصحوبا بالاستخفاف بآلهتهم التى يعبدونها من دون الله، والمناداة بعجزها على رءوس الأشهاد، قال سبحانه فى ذلك ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون. إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ آيات (١٩٤، ١٩٥، ١٩٦) من هذه السورة صفحتى ٢٢٤، ٢٢٥؛ ﴿الذين تدعوهم﴾ هم ما كانوا يدعونهم فى الشدة من دون الله، ويتقربون إليهم بالذبائح وغيرها. ﴿عباد أمثالكم﴾ أى مخلوقات خاضعة لإرادة الله سبحانه يفعل بها ما يشاء، لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا. ﴿شركاءكم﴾ المراد بالشركاء هنا هذه المخلوقات التى جعلوها شريكة لله تعالى فى استحقاق الخضوع لها والتقرب إليها.

﴿فلا تنظرون﴾ أى فلا تمهلونى لحظة، ومعنى هذا التحدى المصحوب بالتسفيه لعقولهم، إن هذه الأشياء التى تدعو بها لقضاء حاجاتكم خصوصا التى لا يقدر عليها إلا الله، هم عباد لله خاضعون لإرادته وقدرته، كما أنكم خاضعون أيضا له تعالى، فكيف تفضلونهم عليكم وتضعون أنفسكم دونهم فى المنزلة فتخضعون لهم، ثم ترقى فى تسفيههم فقال فادعوهم وانظروا هل يجيبونكم لما تريدونه منهم. فإنكم إن كنتم صادقين فى أنهم يستحقون العبادة فإنهم يجيبونكم لما تريدون، فإذا لم يجيبوا فاعلموا أنكم واهمون، فاحذروا السير فى هذا الطريق الموصل للعذاب، فاحذروا السير فى هذا الطريق الموصل للعذاب المقيم. ثم ترقى فى تسفيههم درجة أخرى لعل مَنْ فيه بقية من ضمير منهم يتنبه فقال سبحانه ﴿ألهم أرجل﴾

إلخ، أى هل هذه المعبودات من الأصنام التى اتخذتموها شفعاء لكم عند الله لتقربكم إليه سبحانه كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، هل هذه لها أرجل تمشى بها أو لها أيد تبطش بها على مَنْ يحاول التعدى عليها، أم لها أعين تبصر بها الأشياء حتى ترى الضار فتجتنبه، والنافع فتغتنمه، أم لها آذان تسمع بها، فتسمع صوت المحذر من الشر فتبتعد عنه، أو صوت الداعى إلى الخير فتسرع إليه. والمراد أن هؤلاء المشركين فاقدون لكل هذه المزايا التى انتفع بها كثير من المخلوقات حتى الحيوان الأعجم الذى لا ينطق، إذًا فالحيوان بما فيه الحمير خير من آلهتكم، وهل سمع الإنسان تسفيها لعقل الكافر أبشع من هذا؟ ثم أمر سبحانه نبيه أن يلقمهم الحجر الذى يخرصهم، ويغرقهم فى لجج من الحيرة لا يستطيعون منها خلاصا، فقال ﴿ادعوا شركاءكم﴾ إلخ، أى إذا لم يكفكم كل هذا زجرا عن الغى فادعوا هؤلاء الذين اشركتموهم مع الله ليساعدوكم على الكيد لى وإيذائى بكل ما تستطيعونه حتى القتل، ونفذوا كيدكم بسرعة، ولا تمهلونى طرفة عين، فإنكم لن تستطيعوا لأن مولاى الذى تولى حفظى وانتصارى عليكم هو الله الذى نزل علىّ هذا الكتاب الذى أتلوه عليكم واتحداكم كل يوم أن تأتوا بمثله وعجزتم وشأنه سبحانه وتعالى أنه يتولى بتأييده الصالحين من عباده الذين يخلصون له العبادة ولا يعملون إلا ما فيه مصلحة العباد.

ولا تعجب أيها القارئ الكريم من سفه مشركى العرب بعد هذه الحجج التى تهز القلوب هزًا عنيفا. أقول لا تعجب فإن عجبك هنا يتضاءل إذا علمت أنهم هم الذين رضوا لأنفسهم أن يعبدوا أصنامًا يتخذونها بأيديهم من الحجر، وفى الوقت نفسه ينكرون أن يكون لله رسلا من البشر، اقرأ فى هذا قولهم منكرين على نبينا ﷺ أن يكون رسولا ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ الآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠. وهم فى هذا يضاهئون الكفار قبلهم الذين قالوا فى رسلهم مثل هذا القول كما فى آية أَبعث الله بشرًا رسولا﴾ الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، وما جاء فى الآية (١٥) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا[1] قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ[2] ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ[3] وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ[4] ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ[5] يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ[6] ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ[7] نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ[8] مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ[9] تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ[10] يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ[11] قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَـٰذَا بَصَآئِرُ

المفردات: ﴿فلا تنظرون﴾ : أى لا تنتظروا ولا تؤخروا كيدكم.

﴿وليِّىَ الله﴾ : أى متولى أمرى وناصرى.

﴿العفو﴾ : تقدم معنى العفو فى الآية (٢١٩) من سورة البقرة صفحة ٤٣ وقال عبدالله ابن الزبير وعائشة ومجاهد المراد هنا أقبل السهل من أخلاق الناس، وقال الزمخشرى العفو ضد المشقه أى خذ ما سهل من أخلاق الناس وأفعالهم وما أتوك به بسهولة من غير مشقة، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم لئلا ينفروا، قال ﷺ : ﴿يسروا ولا تعسروا﴾ قال صاحب المنار : والمراد من الآية أن من آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس. ﴿بالعرف﴾ : هو ضد المنكر، أى ما تعارف عليه الناس من الخير.

﴿الجاهلين﴾ : المراد بهم هنا السفهاء الحمقى.

(١) آذان
(٢) وليى
(٣) الكتاب
(٤) الصالحين
(٥) وتراهم
(٦) الجاهلين
(٧) الشيطان
(٨) طائف
(٩) الشيطان
(١٠) إخوانهم
(١١) بآية.

﴿ينزغنك﴾ : أصل النزغ النخس، يقال نزغه إذا طعنه ونخسه، فكأن الشيطان ينخس الإنسان ليحثه على المعاصى، فالمراد وسوسته، انظر الآية (١٠٠) من سورة يوسف صفحة ٣١٨.

﴿فاستعذ بالله﴾ : أطلب منه أن يعيذك ويبعدك منه.

﴿طائف﴾ : الطائف هو من يدور على الشىء كما فى الآية (١٩) من سورة القلم صفحة ٧٥٨، والمراد هنا الوسوسة.

﴿يمدونهم﴾ : أى يعاونونهم.

﴿فى الغى﴾ : المراد به الضلال.

﴿لا يقصرون﴾ : أى لا يكفون ولا يتباطئون، فهو بمعنى يقصرون بتشديد الصاد المكسورة.

﴿لولا اجتبيتها﴾ : لو حرف يدل على الحث على فعل ما بعده. واجتبيتها : أى اخترتها وجئت بها أنت من عندك.

﴿بصائر﴾ : تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ أن البصائر للقلوب كالبصر للعيون، فالعيون تدرك بالبصر، والقلوب بالبصائر.

المعنى : . وليس لهم آذان يسمعون بها طلباتكم فكيف تعبدون مَنْ هو دونكم؟ فقل أيها الرسول لهؤلاء المصابين فى عقولهم نادوا مَنْ جعلتموهم شركاء لله ثم تعاونوا معهم على كيدى ولا تتأخروا فإنى لا أبالى بكم جميعا، لأن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل على هذا الكتاب، أى القرآن المبطل لشرككم، وهو وحده الذى ينصر الصالحين من عباده؛ هذا هو إلهى الذى أعبده، أما الذين تدعونهم لنصركم ولما فيه نفعكم فهم عاجزون لا يستطيعون نصركم، بل ولا نصر أنفسهم فضلا عنكم، كما تقدم.

وكررها لزيادة توبيخهم وإن تدعوهم إلى أن يدلوكم على ما ينصركم لا يسمعوا دعاءكم مطلقا.

وكان المشركون اتقنوا صنع آلهتهم حتى يدخلوا الرهبة فى قلوب مَنْ يقف أمامها فوضعوا لها أعينا صناعية بها حدق من الزجاج والجواهر تتجه جهة الداخل عليها كأنها تنظر إليه، لذا قال سبحانه محقرا أمرها:

وترى أيها المؤمن الناظر إليها أنها تنظر إليك، وفى الحقيقة هى لا تبصر.

وبعد ما فرغ سبحانه من بيان أصول العقيدة المبنية على التوحيد، شرع فى بيان أصول الفضائل فقال حاثا على ثلاثة أصول منها؛ الأول :

خذ أيها المؤمن من الناس السهل، أى تقبل منهم سهل الأمور ولا تشق عليهم إذا ما طلبت من أحدهم شيئا، وأمر غيرك بكل خير وابتعد عن معاشرة ومجادلة السفهاء شديدى الحمق، وإن شعرت بوسوسة الشيطان فسارع بالاستعاذة منه إلى الله، واطلب منه حفظك فإنه سميع لدعاء عبده، عليم بإخلاصه فيطرده عنه. وبهذا تكون من خيار المتقين الذين من صفتهم أنهم إذا شعروا بوسوسة الشيطان فى معصية، تذكروا عداوته لهم وإنجاء الله لمَنْ يلجأ إليه سبحانه، فإذا بصيرتهم تضىء، وإذا بعزمهم يقوى فيهزم الشيطان.

أما إخوان الشياطين الخاضعون لهم فإن الشياطين تشجعهم على الضلال والفساد، ثم لا يسكتون عنهم حتى يهلكوهم وقد بلغ من تبجح كفار قريش واستهتارهم الذى أوقعتهم فيه شياطينهم أنهم كانوا إذا فتر الوحى وتراخى نزوله زمنا، يتدرون سفاهة ويقولون اختر يا محمد آية من عند نفسك واخترعها كما اخترعت غيرها زاعما أنها من عند الله.

قاتلهم الله أنى يؤفكون. فأمر سبحانه نبيه أن يقول لهم فى أدب ووقار:

قل إنما اتبع ما يوحى إلىّ من ربى ولست بمبتدع شيئا من القرآن من عندى لأنى، عاجز عن ذلك مثلكم، وهذا القرآن الذى أوحاه ربى إلى حجج تضىء القلوب كالبصائر لها، وهو نورها الذى يهديها للحق.

مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ(١) فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(٢) وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَٰفِلِينَ(٣) ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

(٨) سُورَةُ الْأَنفَالِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

المفردات: ﴿استمعوا﴾: الاستماع أبلغ من السماع لأنه لا يكون إلا بقصد وتوجيه السمع إلى الكلام لإدراكه، أما السمع فقد يحصل من غير قصد.

﴿انصتوا﴾ الإنصات السكوت لأجل الاستماع لا يشغل بغيره.

﴿تضرعا﴾: التضرع هو إظهار الضراعة وهى التذلل له سبحانه والمبالغة فى الخضوع.

﴿خيفة﴾: هى حالة الخوف والخشية.

﴿الغدو﴾ : أصله مصدر غدا يغدو بوزن نما إذا ذهب فى وقت الغدوة وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس، ثم توسعوا فى الغدو حتى صار يستعمل فى مطلق الذهاب، أنظر الآية (١٢) من سورة سبأ صفحة (٥٦٤)، والمراد به هنا وقته وهو الغدوة بضم أوله، كما يقال آتيك طلوع الشمس، أى وقت طلوعها.

﴿والآصال﴾: جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب، انظر الآية (٤٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، والآية (٢٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿الذين عند ربك﴾ المراد بهم الملائكة.

﴿الأنفال﴾ : جمع نفل بفتحتين كسبب وأسباب وهو الزيادة ولذا قيل لصلاة التطوع نافلة، والمراد به هنا الغنيمة لأنها من زيادة فضل الله.

﴿ذات بينكم﴾: ذات بمعنى صاحب، صفة لمحذوف، والبين من أسماء الأضداد، ما يطلق على الوصل والفرقة، ومنه قولهم:

من الخير السعى فى إصلاح ذات البين. والمراد هنا الفرقة.

---

(١) القرآن. (٢) الآصال. (٣) الغافلين.

المعنى: هذا القرآن بصائر، وكامل الهداية حتى كأنه هو نفسها، وسبب قوى لرحمة ربكم فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به، انظر ما تقدم فى الآيات من (١٥٥ إلى ١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ثم بيَّن سبحانه الطريق الموصل للرحمة بسبب القرآن، والموصل للتحصن من نزغات الشيطان، فقال : وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له بعناية، وأنصتوا لتفهموا معانيه لترجى لكم رحمة الله، واذكر أيها المؤمن ربك الذى خلقك وربك برزقه وعنايته فى نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وفضله عليك وحاجتك إليه، حال كونك متضرعا له، وخائفا من عقابه، واذكره أيضا بلسانك ذكرا أقل من الجهر الذى هو رفع الصوت، وفوق السر بأن يكون ذكرا وسطا كما فى الآية (١١٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، واذكره سبحانه فى طرفى النهار، لأن من افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديدا بمراقبته تعالى طول يومه، ولا تكن من الغافلين عن ذكره فى سائر الأوقات فيقسو قلبك ويستولى عليك الشيطان.

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بالإشارة إلى أنه تشبه بملائكة الرحمن فقال ﴿إن الذين عند ربك﴾ الخ: عندية مكانة ومنزلة لا عندية مكان ومنزل، وهم الملائكة المقربون المشار إليهم فى الآية (١٧٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٢، ١٣٣، لا يستكبرون كما يستكبر المشركون، ويسبحونه أى ينزهونه عن كل ما لا يليق به وله وحده يسجدون فلا يشكون معه أحدا.

سورة الأنفال

لما كانت واقعة بدر هى أول غزوة غنم فيها المسلمون، وكان فى الجيش رجال فى المقدمة يقاتلون وآخرون يحمون ظهورهم سأل بعض الصحابة النبى ﷺ: كيف تقسم هذه الغنائم وفينا من قاتل فعلا ومن اقتصر عمله على حماية المقاتلين، ولمن الحكم فى قسمتها ليعطى كلاحقه؟ فنزل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ إلى الآية (٤١) الآتية صفحتى ٢٣٢-٢٣٣، أى يسألونك عن كيفية قسمتها وعن مستحقها، فقل لهم: أمرها متروك لله يحكم فيها بما يشاء حسب حكمته، ورسوله ينفذ ما أمره الله تعالى، فاتقوا الله فى الاختلاف على حطام الدنيا، وأصلحوا الحالة المصاحبة لتفرقكم فى هذا وفى غيره، فعالجوا أسبابها حتى تزول وتحل محلها المودة والإخاء والإيثار، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما يأمركم به. ولما سمع المؤمنون هذا التوجيه الكريم أصبحوا أخوة متراحمين يقدم أحدهم أخاه على نفسه، أنظر آخر سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤ والآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ⑤ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ⑥ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَـٰفِرِينَ ⑦ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ⑧ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

المفردات: ﴿وجلت﴾ : أى شعرت بالخوف شعورًا يحملها على العمل لدفع أسباب ما يخيف صاحبها، ووزنه فرح، انظر الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (٦٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١.

﴿من بيتك﴾ : المراد المدينة المنورة.

﴿رزق كريم﴾: الكريم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن فى بابه، يقال رب كريم، وكتاب كريم، والمراد هنا خالى من الكدر.

﴿إحدى الطائفتين﴾ : هما العير والنفير كما سيأتى.

﴿وتودون﴾ : أى تحبون.

﴿ذات الشوكة﴾ : صاحبة القوة والسلاح.

﴿يحق الحق﴾ : أى يثبت الحق ويعليه.

﴿بكلماته﴾ : المنزلة على رسوله بوعده بالظفر بإحدى الطائفتين.

﴿دابر الكافرين﴾: الدابر اسم فاعل من دبر بمعنى أدبر فهو بمعنى مدبر، والكلام كناية عن قتلهم جميعا حتى آخرهم.

(١) آياته.
(٢) إيمانا.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.
(٥) درجات.
(٦) لكارهون.
(٧) يجادلونك.
(٨) بكلماته.
(٩) الكافرين.
(١٠) الباطل.

﴿تستغيثون﴾ : أى تطلبون الغوث والنصر منه تعالى.

المعنى : إن كنتم مؤمنين أطيعوا، لأن من صفات المؤمنين أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم من جلاله سبحانه فأسرعوا إلى طاعته، وإذا تليت عليهم آيات القرآن إزدادوا بها يقينا وطمأنينة، خصوصا إذا كانت آياته لم يسمعوها من قبل، فإن إيمانهم بها زيادة على إيمانهم بما سبقها. ومن صفاتهم أنهم لا يفوضون أمورهم إلا إلى ربهم، ولا يعتمدون إلا عليه. ومن صفاتهم أنهم يؤدون صلاتهم على أحسن وجوها، ومن صفاتهم أنهم ينفقون بعض ما رزقهم الله فى وجوه الخير فهذه خمس صفات الذين يجمعونها هم المؤمنون إيمانا حقيقيا لا شك فيه، فجزاؤهم أن لهم درجات ومنازل عند ربهم فى دار الكرامة على قدر أعمالهم، ولهم مغفرة أى تجاوز عما صدر عنهم من سيئات، ولهم رزق كريم سهل لا كدر معه، انظر آيتى (٩٥، ٩٦) من سورة النساء صفحة ١١٨، والآية (٢٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٣. ثم أراد سبحانه أن يبين لمن كرهوا تقسيم الغنائم على ما لا يحبون أن ما يكرهونه قد يكون هو الخير، فذكرهم بكراهتهم لحرب قريش فى بدر مع أنها كانت فاتحة الخير والنصر.

وكان سببها أن المسلمين بلغهم أن أبا سفيان بن حرب خرج من الشام ومعه عير كثيرة محملة بالأقوات لأهل مكة، فرغبوا فى قطع الطريق عليه والاستيلاء عليها، نظير ما صادره المشركون من أموالهم بمكة لما هاجروا إلى المدينة، فعلم بذلك جواسيس أبى سفيان فأرسلوا إليه من بلغه، فأرسل لمكة يستنجد بهم، فنفر نحو ألف مقاتل على رأسهم أبو جهل، وفى الوقت نفسه حول أبو سفيان طريقه إلى جهة البحر لينجو من حصار المسلمين ولما خرج ﷺ بمن معه لأخذ العير، وكان من معه نحو ثلثمائة رجل، وقاربوا وادى بدر، علموا أن العير قد نجت، وأن نفير قريش وصل وادى بدر من الجهة الأخرى، فقال ﷺ:

إن الله أوحى إلىَّ بأنه سيمكننى من إحدى الطائفتين : العير أو النفير، وبما أن العير قد نجت فنحن الغالبون إذا حاربنا هؤلاء فكره ذلك بعض المسلمين وأعلنوا أنهم لم يستعدوا للحرب، فمازال ﷺ يرغبهم ويطمئنهم حتى التقى الجمعان، وتمت الغلبة للمسلمين. ومن أراد معرفة تفصيل ما حدث فى هذه الغزوة فليرجع إلى شرح حديث رقم (٤٧٦) من كتابنا صفوة

البخارى. فقوله سبحانه ﴿كما أخرجك﴾ الخ؛ معناه أن أمر قسمة الغنائم موكول لله ورسوله وإن كره بعض الراغبين فى النصيب الأوفى كراهة ككراهة إخراج ربك لك من المدينة لقتال النفير إخراجًا مقترنا بالحق والصواب، والحال أن كثيرا من المؤمنين لكارهون لعدم استعدادهم.

ويلاحظ أن مد هذه الحال متسعة، ويسميها العلماء بالحال المقدرة، لأن الكراهة إنما حدثت بعد الخروج واليأس من الاستيلاء على العير كما علمت. يجادلونك فى الحق وهو قتال الذى ثبت وتعين لهم بعد ما فاتتهم العير. أى فلا معنى لخوفهم من الحرب كالذين يساقون إلى الموت وهم ينظرون أسبابه لا يشكون فيها، مع أن الأولى بهم أن يقدموا على الحرب وهم موقنون بصدق وعد الله تعالى. ثم فصل سبحانه هذا الإجمال قال:

واذكروا حين وعدكم سبحانه بأن إحدى الطائفتين: العير أو النفير، ستكون لكم أى تظفرون بها وكنتم تحبون أن العير هى التى ستلاقيكم، لأنها مجردة من قوة العدد والسلاح، وكان عدد رجالها لا يتجاوز الأربعين، أنتم تحبون ذلك ولكن الله تعالى العليم بما لا تعلمون يريد الأخرى ليهزم الشرك ويثبت الحق ويعليه، فقوى قلوبكم بكلماته التى أوحاها إلى رسوله بأنكم ستظفرون بما تلاقونه من الطائفتين، وبكلماته التى قضى بها قتلهم على أيديكم والتى أصدرها للملائكة بمساعدتكم ويريد سبحانه أيضا أن يهلك صناديد الشرك جميعا ليثبت الحق وهو الإسلام، ويبطل الكفر ولو كره المشركون المجرمون واذكروا أيضا حين دخلتم المعركة وطلبتم الغوث والمساعدة من ربكم.

المفردات : ﴿فاستجاب لكم﴾ : أى أجاب دعائكم .

﴿ممدكم﴾ : أى ناصركم ومغيثكم بتكثير جمعكم .

﴿مردفين﴾ : قال الراغب : المردف هو المتقدم على غيره بحيث يجعله خلفه : فالمراد متقدمين على صفوف الجيش ليلقوا الرعب فى قلوب الأعداء.

﴿يغشيكم النعاس﴾ : أصل الغشاء الغطاء كما تقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤. والمراد إلقاء النعاس عليهم.

رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[1] مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ[2] وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[3] أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ[4] عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ

﴿آمنة﴾ هى الأمن، وقد تقدم تفسيرها وتفسير النعاس فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨.

﴿رجز الشيطان﴾ الرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشىء المستقذر حسا أو معنى، والمراد هنا وسوسة الشيطان.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ : المراد يثبتها ويملؤها صبرا ، انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿بنان﴾ : يطلق على الأصابع وعلى أطرافها.

﴿شاقوا الله ورسوله﴾ المراد عادوهما، فكأنهما وضعوا أنفسهم فى شق غير الذى فيه الرسول.

المعنى : واذكروا حين كنتم تستغيثون ربكم إلخ؛ روى مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ : لما كان يوم بدر نظر ﷺ إلى أصحابه وهم نحو ثلثمائة رجل لا يكاد يوجد معهم خيل ولا سلاح، ونظر إلى المشركين وهم نحو ألف معهم الخيل والسلاح، فاستقبل القبلة ومد يديه وقال : اللهم أنجز لى ما وعدتنى؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض : فما زال يردد دعاءه وتضرعه لربه حتى سقط رداؤه من فوق كتفيه ، فجاء أبو بكر ﷺ فرفع رداءه فوق منكبيه ثم ضمه إلى صدره وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك وعده . وهذا ما قال سبحانه فيه ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ إلخ ، فأجاب دعاءه بقوله : إنى ممدكم ومقوى عزائمكم بألف إلخ ، وإنما استغاث ﷺ مع علمه بصدق وعده سبحانه لتقوية قلوب أصحابه، ولخوفه أن يكون وعده سبحانه مشروطا بشرط خفى عليهم ففرطوا فيه، نظير ما تقدم فى أحد ؛ أنظر آيتى (١٢٠ ، ١٢٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٢ ، ٨٣. أى إنى سأكثر عددكم كعدد أعدائكم من الملائكة الذين أمدكم بهم متقدمين صفوفكم. ثم بين سبحانه أن

(١) الملائكة. (٢) الشيطان.
(٣) الملائكة. (٤) للكافرين.

هذا الإمداد كان روحانيا لتقوية قلوبهم فقط فقال: وما جعل الله هذا الإمداد إلا بشيرا لكم بالنصر ، ولتطمئن به قلوبكم فلا تخاف ، وماالنصر فى الحقيقة إلا من عند الله لا من ملك ولا غيره، لأنه سبحانه عزيز أى غالب لا يغلبه شىء حكيم يعطى نصره لمن يستحقه . كل هذا يدل على أنه مدد معنوى فقط. وقد رأى بعضكم أن الملائكة قاتلت، ولكن المحققين على أنهم كانوا للتبشير والإطمئنان فقط، ويقوى هذا أنه لو قاتلت الملائكة لما بقى من المشركين أحد، ولما كان هناك حاجة إلى هذا العدد منهم، بل ملك واحد يكفى لإفناء أعظم منهم، ولما كان هناك حاجة أيضا إلى إلقاء النعاس ليتقووا كما سيأتى ، ولا لإنزال المطر لتثبت أقدامهم ولما كان لأهل بدر هذا الفضل العظيم، ولذهب معنى الاقتداء بالصابرين على القتال فى سبيل الله ولضاع أيضا معنى ابتلاء الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ليظهر المخلص الصابر وغيره انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣ ، ٣٤ والآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣ ولما صح الحصر فى قوله ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ ولأن كل قتيل من المشركين كان معروفا من قتله من المسلمين، وقاتل أبى جهل على الأخص معروف بالتواتر، فإذا لم تقتل الملائكة أبا جهل فمن تقتل إذا؟ هذا هو الحق فلا تغتر بكثرة ما يروى من أحاديث وآثار غير ذلك، فإنها ما بين ضعيف أو مرسل لا يقوى على الوقوف فى وجه الدليل القطعى، والله أعلم. واذكروا إذا يغشيكم ربكم النعاس تأمينا لكم، وانظر بيان النعاس الأمنة فى سبب كونه كذلك فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨، وكان وادى بدر على سعته كثير الرمال الناعمة لا يكاد يوجد فيه ماء، فمن فيه يحتاج للماء لوجوه عدة خصوصا المسلم الذى يريد الطهارة للصلاة من كل حدث، فأكرمهم الله بإنزال المطر قبيل المعركة، ليتطهروا، ولتثبت أقدامهم فى أثناء المعركة فلا تغوص فى الرمال ، ويذهب عنهم وسوسة الشيطان بما يحزنهم من عدم الصلاة لعدم الطهارة، ولم يكن التيمم شرع فى هذا الوقت، وبذهاب وسوسة الشيطان تقوى قلوبهم، وقوة القلوب أقوى عامل فى الانتصار . وثبت أقدامكم فى الوقت الذى يوحى فيه ربك للملائكة بأنى معكم بالعون، فثبتوا الذين آمنوا بالتطمين والتبشير ، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب وهو الخوف الذى يملأ القلب وهذا حكاية لكلامه سبحانه الذى أخبر به رسوله ليخبر به أصحابه ليطمئنهم.. ثم حكى سبحانه ما كان وجهه من الأمر للنبى ﷺ ليوجهه إلى أصحابه فقال: فاضربوا الكفار فى رءوسهم أى فى المقاتل، أو عطلوهم إن لم تستطيعوا قتلهم؛ لأن من قطعت أصابعه لا يمسك سيفا . ذلك المتقدم كله انزلناه بهم بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، ومن يعاد الله تعالى ورسوله حل به العذاب الشديد، لأنه سبحانه -

كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ

شديد العقاب. ثم خاطب من بقى من المشركين بقوله: ذلكم أى فى الذى قدره الله هو ذلك الذى رأيتموه من الانكسار، فذوقوا هذا العذاب الشديد فى الدنيا، وإن لكم فى الآخرة عذاب النار إذا أصررتم على كفركم. ثم أراد سبحانه أن يعلم المسلمين كيف يحاربون الكفار بعد هذه الموقعة فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم﴾ إلخ.

المفردات: ﴿زحفا﴾: هو مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحيات، ويشبه به مشى الجيش الكثير الذى يراه الناظر إليه لكثرته كأنه يزحف، والمراد زاحفين.

﴿فلا تولوهم الأدبار﴾: لا تعطوهم ظهوركم ، والمراد لا تهزموا . ﴿متحرفا لقتال﴾: المتحرف هو المنحرف من جانب إلى آخر. ﴿أو متحيزا إلى فئة﴾: المتحيز المنتقل من حيز إلى حيز، والحيز المكان، والفئة الجماعة كما فى الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١ ، ٥٢. ﴿باء بغضب﴾: أى رجع مقترنا بغضب. ﴿ومأواه جهنم﴾: أى مسكنه جهنم. ﴿بئس﴾: قبح. ﴿المصير﴾: النهاية التى صاروا إليها. ﴿وليبلى المؤمنين﴾: أى يمتحنهم ، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. ﴿موهن﴾: مضعف ، والمراد هنا مبطل. ﴿تستفتحوا﴾: أى تطلبوا من الله الفتح والنصر. ﴿الفتح﴾: النصر. ﴿فئتكم﴾ جماعتكم. ﴿الدواب﴾: كل ما دب على وجه الأرض.

المعنى: إذا لقيتم الكفار حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفا لكثرتهم فلا تفروا، ومن يفر منكم، وقت القتال غير متهيئ لنوع من أنواعه ليظفر بعدوه كأن يوهم خصمه أنه منهزم ليغريه باتباعه حتى يبتعد عن جيشه فيكر عليه فيقتله، أو غير منحاز إلى جماعة من إخوانه رأى

(١) مأواه. (٢) الكافرين.

تكاثر العدو عليهم فصاروا أحوج إليه من الجهة التى كان فيها، فمن يفر لغير ذلك أو نحوه فقد استحق غضب الله، ومكانه الذى يأوى إليه فى الآخرة هو جهنم، وقبحت مصيرا ثم نبه سبحانه المؤمنين إلى أن طاعته سبحانه هى سبب نصرهم: فلم تقتلوهم مع قلتكم لولا تأييد الله لكم، ولكنه سبحانه قتلهم بنصركم عليهم. ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ فقال: وما رميت إذ رميت يا محمد التراب فى وجوههم ولكن الله هو الذى رمى، أى أوصله إلى عيونهم فشغلوا عنكم فهزمتموهم. وبيان ذلك على ما روى أنه ﷺ لما بدأت المعركة أخذ قبضة من تراب ثم رماها فى جهة العدو قائلا: شاهت الوجوه! أى قبحت ، فأوصل الله عز وجل التراب إلى عيونهم. وصح أن يكون المعنى: فما رميت أيها المؤمن بسهمك وقوسك ولكن الله تعالى هو الذى سدد رميك ووفقك. والغرض من هذا هو تعويدهم بعد أخذ الأسباب على الرجوع إليه سبحانه، أنظر الآية (١٤) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢.

فعل سبحانه ذلك ليؤيد رسوله، ويمحق الكافرين، ويختبر المؤمنين بالحسنات من النصر والغنيمة، ليظهر شكرهم له، فيزيد نعمه عليهم إنه سبحانه سميع لدعائهم، عليم بصدق نياتهم، (ذلكم) إلخ، أى أن مراد الله هو ذلكم الذى حصل من البلاء ومن التوهين، أى إبطال كيد الكافرين به ﷺ ومحاولتهم القضاء على دعوته، وكان أبو جهل عند خروجه من مكة قال: اللهم إن ديننا قديم ودين محمد جديد فأى الدينين أحب إليك فانصر صاحبه ، ففى هذا خاطب سبحانه المشركين بقوله: إن تستفتحوا أى تطلبوا النصر فقد جاءكم النصر لأحق الطرفين به، فبعد هذا إن تنتهوا عن كفركم فانتهاؤكم خير لكم، وإن تعودوا لمحاربته نعد لنصره عليكم، ولن تغنى عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت عُدَّةً وعددا، لأن الله مع المؤمنين بالنصر، ومن كان الله معه لابد أن ينتصر. وبعد الفراغ من غزوة بدر انتقل سبحانه إلى إرشاد المؤمنين إلى طريق النجاح، وإلى عدم الطمع فى حطام الدنيا كما كان بعضهم طامعا فى الغنائم، فقال: يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عن الرسول وتعرضوا عن أوامره، والحال أنكم تسمعون منه كلام الله القاطع بوجوب طاعته. ثم قرر سبحانه هذا المعنى بقوله: ولا تكونوا كالذين ادعوا السماع والفهم وهم المنافقون وأهل الكتاب، أنظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٦) من سورة محمد صفحتى ٦٧٤ ، ٦٧٥، والحقيقة أنهم لا يستمعون سماع قبول. ثم أراد سبحانه أنه يبين بشاعة حال هؤلاء الكفار الذى ينهاكم عن التشبه بهم تحذيرا للمسلمين منهم فقال: إن شر الدواب فى حكم الله...

الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

المفردات: ﴿الصم﴾: الذين لا يسمعون.

﴿البكم﴾: الذين لا يتكلمون.

﴿استجيبوا لله﴾: أى أجيبوا دعوته بالطاعة والامتثال مع العناية.

﴿لما يحييكم﴾: أى لكل ما يجعل لحياتكم قيمة كالعلم النافع والجهاد فى سبيل الله من الأمور التى تحقق العزة والكرامة.

﴿وتخونوا أماناتكم﴾: هى كل ما ائتمن عليه الإنسان من الحقوق العامة والخاصة.

﴿وأولادكم فتنة﴾: أى سبب اختبار وامتحان يظهر به الطائع وغيره.

المعنى: إن شر ما يدب على وجه الأرض هم الأشرار من البشر الذين أصموا آذانهم عن سماع القرآن خوفا من تأثيره عليهم، كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، والذين يسمعونه ولكن لا يريدون فهمه كالمنافقين فى الآية (١٦) من سورة محمد صفحتى ٦٧٤، ٦٧٥، والذين يستمعون للبحث عن شبهة يطعنون بها عليه كاليهود فى الآية (٤١) من سورة المائدة صفحة ١٤٤، ومنهم من يسمع للنغم والطرب لا للفهم والاعتبار ؛ هؤلاء كالأنعام بل هم أضل ، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. وإذا تأملت ما تقدم فى آيتى (٨١ ، ١٧١) من سورة البقرة صفحات ١٦، ٣٠، ٣٣ وفى الآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٣، والآية (١٢) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧، تجلى لك عدل الله فى معاملة هؤلاء الكافرين ومن يليهم من العصاة، وهم بكم لا يقولون ، ولا يعقلون الفرق بين الخير والشر، ولو علم الله فيهم استعداد للهداية وبقية من نور الفطرة لأسمعهم سماع قبول وتدبر، ولو أسمعهم بعد علمه أن لا خير فيهم لتولوا عن القبول والحال أنهم معرضون قبل ذلك

(١) فآواكم. (٢) الطيبات. (٣) أماناتكم. (٤) أموالكم. (٥) أولادكم.

بقلوبهم، أى لجمعوا إلى الإعراض السابق الانصراف اللاحق عن قبول الحق. وبعدما هيأ سبحانه المؤمنين للاقبال على سماع الخير حتى لا يكونوا كشر الدواب قال: يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الرسول المبلغ عن الله تعالى لما فيه حياتكم وعزتكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وبين ما يتمناه بقلبه من طول الحياة وفسيح الأمل، بأن يميته فجأة أو قبل التمكن من الحصول على ما يشتهى. فالمراد لا تتأخروا عن عمل الخير لحظة فقد يعاجلكم الموت، فهذا أبلغ من قوله (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) واعلموا أنكم إلى الله تحشرون يوم القيامة فيجازيكم على قدر أعمالكم، واتقوا أيها المؤمنون وقوع فتنة بينكم بالتنازع والتخاصم على الدنيا، فقاوموها وتجنبوا أسبابها، بأن ينهى بعضكم بعضا عما يؤدى إليها، لأنها إن وقعت فسيعم عذابها الظالم والبرىء. قال ﷺ (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بينهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة). واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره. واذكروا أيها المؤمنون حين كنتم قلة ضعفاء في مكة وفى المدينة تخافون أن يتخطفكم الكفار من عرب أو فرس وروم، فآواكم سبحانه إليه، أى حماكم من عدو أضخم عددا وقوة وأيدكم بنصره فى بدر، وسيؤيديكم على الفرس والروم إذا اتقيتم، ورزقكم من الطيبات كالغنائم التى لم تحل لأحد قبلكم لعلكم تشكرون نعمه بطاعة أوامره.

يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله بترك فرائضه وارتكاب معاصيه، ولا تخونوا الرسول بإهمال تعاليمه وإرشاداته، ولا تخونوا أمانات المسلمين وهى كل ما كان بينكم وبين قادتكم من شئون الدولة خصوصا الحربى منها، وما كان بين الأفراد بعضهم مع بعض، أى لا يجوز أن يحصل منكم ذلك خصوصا وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة فى الدنيا والآخرة. وأعلموا أنما أموالكم وأولادكم أعطاها الله تعالى لكم ليعاملكم معاملة المختبر الممتحن ليظهر من يقدم رضوان الله ومصلحة نفسه وولده، ومن ذلك أن يبخل الرجل بالمال يبذله فى سبيل الله ليدخره لولده أو يخاف على ولده من الموت إذا دعى للجهاد، أما من بذل ماله وولده فى سبيل الله فهو الذى نجح فى الاختبار فاستحق الجنة والأجر العظيم، انظر آيتى ٢٤، ١١١ من سورة التوبة صفحات ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦١، والآية (١٥) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧.

إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا

المفردات: ﴿فرقانا﴾: صيغة مبالغة من مادة الفرق وهو الفصل بين شيئين أو أشياء، والمراد بالفرقان هنا كل ما يفرق بين الحق والباطل، من علم نافع، ونور بصيرة، ونصر على أعداء.. ويطلق على القرآن باعتبار اشتماله على ذلك.

﴿ليثبتوك﴾: أى يمنعوك عن الحـ
بربطك بوثائق كالمبين فى الآية ١
محمد صفحتى ٦٧٢، ٣

﴿أساطير﴾
هنا الأكـ
الأ

﴿فأمطر علينا.. إلخ﴾: أى كما تقول يا ه
هود صفحة ٢٩٦.

﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾: من
قبلها، المفهوم من (ما) وه

﴿أولياءه﴾: أى ولاة ا
أولياؤه إلا المتقون.

﴿البيت﴾: إذا أ

المعنى: يأيها
بين الحق كما فر

(١) الماكرين.

صفحتى ٧٢٣، ٧٢٤، وينصركم، ويكفر عنكم الصغائر، ويغفر لكم الكبائر، وليس هذا بعزيز
عليه بأنه صاحب الفضل العظيم، ثم أراد سبحانه أن يذكر نبيه ببعض فضله عليه فذكر له
حاله مع قومه بمكة وكيف نجاه منهم، وحسن هذا التذكير مجيئه عقب نصره له على الظالمين
الخائنين الصادين عن بيت الله فقال: ﴿وإذا يمكر بك﴾ إلخ، وكان الذى حصل منهم أنهم لما
مات عمه ﷺ أبو طالب وكان هو المدافع عنه، طمع كفار قريش فى الخلاص منه، فاجتمع
صناديدهم فى ندوتهم يحقق التخلص منه ﷺ لأنه سفه عقولهم وحقر آلهتهم، فقال قوم
نحبسه حتى يموت ، وقال آخرون لا بل نخرجه من مكة وقال آخرون غيرهم لا بل نقتله على
ان من القبائل كلها فيتفرق دمه فى القبائل ويعجز أهله عن القصاص له ، عند ذلك
ـه السلام بما دبروه، وبلغه أن الله سبحانه أذن له فى الهجرة إلى المدينة،
، مكرهم. فالمعنى: وأذكر أيها النبى فضل ربك عليك حين مكر بك
مكة، وفكروا فى ربطك بالسلاسل، أو سجك حتى تموت، أو
ساط العربية. ولعل الحكمة فى تأخيره سبحانه الإخراج
ـنوا عنه وعن الحبس وأختاروا القتل، للإشعار
ـ (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧، والآية
ـورة محمد صفحة ٦٧٤، والآية(٩) من
ـن طردة تحت سطوة غضبهم ، بل
ـكانوا يتمنون بل إلى مكان نمت
أشبه بما فى الآية (٨) من
ـها المؤمنون ، ويمكر
ـحق وخذلان للباطل،
الآية (٩٩) من سورة
ـ تتلى عليهم آياتنا

المنزلة فى القرآن قال بعضهم ووافقه الآخرون لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، ثم عللوا ادعاءهم الباطل بما هو أشد منه بطلانا حيث قالوا: ليس هذا الكلام الذى يقوله محمد إلا أحاديث سطرت قديما فى كتب الأولين فكتبت له وصار يرددها، أنظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠ ، ٤٧١، ورد سبحانه على هذا الافتراء فى مواضع أخرى من القرآن مثل ما جاء فى آيتى (٣٧ ، ٣٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٢.

والآية (١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥. ثم ذكر سبحانه نوعا عجيبا من عنادهم فقال: ﴿وإذا قالوا اللهم﴾: روى أن أبا جهل وجماعة قالوا يارب إن كان ما يقوله محمد هو الحق فإنا نفضل أن تنزل علينا حجارة من السماء تهلكنا، أو ترسل لنا عذابا آخر مؤلما، فإنا لا نتبع إلا رجلا عظيما لا فتى صغيرا كمحمد. أنظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، وروى أن معاوية بن أبى سفيان قال لرجل من سبأ بلد بلقيس: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: قومك أجهل من قومى حين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة إلخ، وكان الواجب أن يقولوا فاهدنا إليه، ثم رد سبحانه بقوله: وما كان الله مريدا لعذابهم عذاب إفناء وأنت فيهم والمراد بقوله وأنت فيهم أى وأنت رسولهم أيها النبى، وما كان معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المستضعفون من المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة، أما ما دون عذاب الفناء فإنه يقع بهم إذا استمروا على حالهم.

وهذا معنى قوله وما لهم ألا يعذبهم الخ، أى أى شىء من القوة ثبت لهم حتى يمنع عنهم عذابنا والحال أنهم يستحقونه بمنعهم المسلمين من دخول المسجد الحرام. وقد عذبهم فعلا بقتلهم وأسرهم وهزيمتهم فى بدر، وهم حين منعوا الناس عن المسجد الحرام لم يكونوا أصحاب الولاية عليه لشركهم بالله صاحب البيت ، ولا يصح أن يتولى بيت الله إلا الأتقياء الصالحون، ولكن أكثر الكفار لا يعلون، أى لاحق لهم فى الولاية على البيت ، وقليل منهم يعلم ويعاند ورأى بعضهم أن ضمير أولياءً وأولياءه يعود إليه سبحانه وتعالى ثم بين سبحانه بعض ما يمنع ولايتهم على المسجد فقال: وما كان صلاتهم أى عبادتهم عند البيت الحرام إلا مكاء إلخ..

مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ (١) لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٢) ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ (٣) حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ (٤) نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى

المفردات: ﴿البيت﴾: إذا أطلق البيت فى القرآن فالمراد به الكعبة.

﴿مكاء﴾: هو الصفير.

﴿تصدية﴾: هو التصفيق.

﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾: انظر الآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠.

﴿فيركمه﴾: يقال ركمه إذا جمع بعضه إلى بعض، ومنه سحبا مركوم انظر الآية (٤٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٩.

﴿مضت سنة الأولين﴾: أى طريقة الله فى معاقبة الأولين. ﴿لا تكون فتنة﴾: المراد بها تعذيب المسلمين بمكة وغيرها كما فى الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧. ﴿ما غنمتم﴾: ما استوليتم عليه من الغنائم، والغنيمة فى عرف الشرع ما استولى عليه المسلمون من المنقولات فى حرب الكفار عنوة، أما ما استولوا عليه من الأرض التى تفتح عنوة فإنه لا يجب قسمتها كالغنائم بل يتصرف فيها الإمام بما هو المصلحة.

المعنى: أراد سبحانه أن يبين عدم صحة ولا يتهم على المسجد الحرام فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ إلخ، روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت رجالاً ونساء متشابكين بالأذرع وهم يصفرون ويصفقون، ولعلها عادة تسربت إليهم من مزامير بنى إسرائيل، فالمراد: وما كانت عبادتهم عند البيت الذى كرمه الله إلا لهوا ولعبا، فقلنا لهم ذوقوا العذاب الذى استحققتموه بسبب كفركم المتأصل، ومن هذا العذاب ما حل بهم فى بدر من قتل وأسر وهزيمة. ثم بين سبحانه ما كان من استعداد قريش لما حصل فى بدر وما سيكون منهم لغيرها فقال: ﴿إن

(١) أموالهم. (٢) الخاسرون. (٣) وقاتلوهم. (٤) مولاكم.

الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ وهو الإسلام، فسينفقونها فى سبيل الشيطان ثم تكون عليهم حسرة وندما لذهابها عبثا مع انكسارهم المرة بعد المرة، وفى الآخرة يساقون إلى جهنم فقط لا يرون غيرها. وسيفعل سبحانه ذلك ليميز أى يفصل الخبيث من الطيب فلا يجعلهما سواء كما فى الآية (١٠٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، وآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧ ويجعل سبحانه الفريق الخبيث بعضه منضما فوق بعض فيجمعه فى جهنم كما يجمع الحطب حزما فى النار، وهذا إشعار بمنتهى الإهانة. أولئك المجرمون هم وحدهم الخاسرون لكل خير. ثم فتح سبحانه باب الأمل فى رحمته فقال: قل أيها النبى للذين كفروا إن ينتهوا عما هم عليه ويسلموا يغفر الله لهم جميع ما سبق منهم من الكفر والمعاصى، وإن يعودوا إلى معاداتك والصد عن الإسلام فإن الله يمضى فيهم سنته وطريقته التى نفذها فى أمثالهم من الإهلاك كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون، فإذا عادوا فقاتلوهم أيها المؤمنون حتى لا يقع منهم إيذاء لمن يسلم، ويصير الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يعذب ويكره أحدا على ترك دينه انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤. فإن انتهوا عن الكفر وقتالكم فسيجازيهم الله خيرا لأنه بصير بما يعملون، وإن تولوا وأعرضوا ولم ينتهوا فلا تبالوا بهم واعلموا أن الله تعالى متولى أموركم، وهو نعم المولى ونعم النصير، فلا يخاف من يتولاه، ولا يغلب من ينصره، وبعد ما نبه سبحانه المسلمين إلى ضرر التزاحم على الدنيا وأعلمهم أن الأمر فى تقسيم الأنفال التى هى غنائم الحرب موكول إلى الله ورسوله، أراد هنا أن يبين هذا الحكم فقال: واعلموا أن ما غنمتموه من شىء ولو كان قليلا، فالواجب أن يقسم إلى خمسة أقسام: خمس لله يصرف فيما يرضيه من مصالح المسلمين العامة، وللرسول يأخذ كفايته وكفاية نسائه.

المفردات: ﴿يوم الفرقان﴾: تقدم أصل معناه فى الآية (٢٩) من هذه السورة صفحتى ٢٣٠، ٢٣١. وقد أطلق على القرآن وما فيه من الآيات (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦ و (٤) من سورة آل عمران صفحة ٦٣ و(١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. ويوم الفرقان هو يوم ١٧ من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وهذا اليوم حصل فيه أول نزول القرآن

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

وموقعة بدر. وقال بعض العلماء أن العادة جرت على أن يجعل اليوم المعين بالعدد محلا لما وقع فيه من الحوادث وإن كانت فى سنين متعددة، فيقولون: فى يوم عاشوراء وهو العاشر من المحرم نجى الله نوحا، وفيه نجى موسى إلخ، فاليوم واحد وهو ١٧ من شهر رمضان حصل فيه حادثان عظيمان نزل أول القرآن فى ليلته، وقد عهد نسبة ما فى الليلة إليها تارة وإلى يومها أخرى، ووقع فيه أول قتال مع المشركين فى بدر، ولا شك أن أعظم نعمة هى نعمة نزول القرآن الفارق بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، فهو الأولى أن يسمى فرقانا. أما انتصار المسلمين فى موقعة أعقبها انكسارهم فى أخرى وهى أحد كما تقدم فى آل عمران فليس له من المنزلة مثل ما لنزول القرآن.

﴿الجمعان﴾: جمع المسلمين وجمع المشركين.

﴿العدوة﴾: جانب الوادى وناحيته والمراد وادي بدر.

﴿الدنيا﴾: مؤنث الأدنى بمعنى الأقرب، والمعنى الناحية القريبة من المدينة المنورة.

﴿الركب﴾: المراد به ركب أبى سفيان المشار إليه فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٢٢٧.

﴿أسفل منكم﴾: المراد فى مكان أسفل مما أنتم فيه وهو ساحل البحر كما تقدم.

﴿ولو تواعدتم لاختلفتم﴾: أى ولو اتفقتم على الموعد الذى تقابلتم فيه لاختلفتم فسبق أحدكما الآخر.

﴿ليهلك﴾: المراد بالهلاك هنا الكفر لأنه سببه.

(١) اليتامي. (٢) المساكين. (٣) آمنتم. (٤) الميعاد.
(٥) أراكهم. (٦) لتنازعتم. (٧) آمنوا.

﴿ويحيى﴾: يؤمن، فالإيمان حياة من موت الكفر كما تقدم فى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣.

﴿فئة﴾: أصل الفئة الجماعة، واستعملها القرآن فى الجماعة المقاتلة، انظر الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١، ٥٢ والآية (١٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٤.

المعنى: ويعطى من هذا الخمس الأول أقرب أهله ﷺ وعشيرته نسبا وولاء ونصرة فى الدين، وبينهم ﷺ بأنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب المسلمون منهم. ويعطى منه أيضا المحتاجون من سائر المسلمين وهم اليتامى الفقراء والمساكين وابن السبيل، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٢٤. وذكر اليتيم مع دخوله فى المساكين دفعا لتوهم أن الغنيمة لا يستحقها إلا المجاهد وهو صغير لا يجاهد. والأربعة الأخماس الباقية تقسم على الجنود الذين حضروا المعركة، وقد سقط سهمه ﷺ وسهم قرابته بعد موته.

قسموا أيها المؤمنون الغنائم كما امرتم إن كنتم آمنتم بالله إيمانا صحيحا يوجب عليكم طاعته، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد من الآيات، وآمنتم بما أنزلنا عليكم عند التقاء جمعكم وجمع المشركين ببدر من الملائكة والمطر والنعاس وكل أسباب القوة والنصر. وكل هذا يسير عليه تعالى لأنه سبحانه قدير على كل شيء. واذكروا أيضا حين كنتم بناحية من وادى بدر قريبة من المدينة والأعداء فى الجانب الأبعد منه، والحال أن ركب أبى سفيان الذى كنتم تريدونه فى مكان أسفل مما أنتم فيه وهو ساحل البحر بعيدا عنكم، وكان فرار أبى سفيان إلى الساحل وترك الطريق الأصلى هو السبب فى التقائكم مع المشركين ببدر بدون تواعد ولذا قال: ولو تواعدتم أنتم ونفير أبى جهل على التلاقى فى هذا المكان فى ذلك الوقت لأمكن اختلافكم فى الميعاد لتهيبكم الحرب بدون استعداد كما تقدم، ولحصر غرضكم فى أخذ العير، ولأن غرض أكثر المشركين كان إنقاذ العير بدون قتال، ولكن جمعكم الله على غير موعد ولا رغبة ليقضى أمرا كان مقررا فى علمه أنه يفعل وهو قتالهم وهزيمتهم، ليهلك باستمراره على الكفر من أراد ذلك بعد وضوح الحق حتى لا يكون له عند الله يوم القيامة حجة، ويؤمن من آمن عن يقين بأن الإسلام حق، وأن محمدا رسول الله صدقا. وأن الله السميع لأقوال الطرفين، عليم بما فى صدورهم، وسيجازى كلا بما يستحق. واذكر أيها النبى

حين أراك الله فى منامك قلة عدد الكفار وقد كان ﷺ رأى فى منامه قبل المعركة رؤيا تمثل المشركين قليلا عددهم جدا، فأخبر بها أصحابه ليطمئنوا، لأنها تفيد ضعف العدو وخذلانه مهما كثر عدده، ولو أراكهم فى المنام كثيرا لخفتم، والخوف يورث الجبن والتنازع، لأنكم لستم فى قوة الإيمان سواء، بل كان فيكم من يجادل فى القتال كما تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحة ٢٢٧، ولكن الله تعالى سلمكم من عواقب الفشل وتفرق الكلمة، لأنه عليم بما فى قلوبكم من الإخلاص وما فى قلوبهم من الجحود والكفر فسلَّمكم وأهلكهم؛ لأنه سبحانه قال: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ الآية (٤٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. ثم خاطب المؤمنين كافة بما يؤيد الرؤيا فقال: واذكروا إذ يريكموهم الله حين قاربتم الالتقاء بهم قليلا فى نظر العين تصديقا لرؤياه ﷺ ليزداد يقينكم وتتشجعوا وأيضا إذا انضم إلى ذلك يقينكم بأن لكم إحدى الحسنيين الظفر والغنيمة أو الجنة اشتد إقبالكم على القتال بروح عالية وهذا من أقوى أسباب الغلبة، ويقللكم فى أعينهم حتى عن الواقع ليقدموا على القتال ولا يجبنوا وأيضا ليغتروا بكثرتهم فيستهينوا بكم، واستهانة المقاتل بخصمه من أسباب هزيمته، ولكن لما بدأ القتال فعلا وقع فى نظر المشركين أن عدد المسلمين يبلغ ألفين كم تقدم فى الآية (١٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٤، فضعفوا واستولى ،عليهم الرعب. فالتقليل والتكثير كانا فى وقتين فلا تعارض، فهو نظير ما فى الآية (٢٤) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ من سؤال الكافر يوم القيامة مع ما فى الآية (٣٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ من عدم السؤال فى أن كلا فى وقت غير وقت الآخر. فعل ذلك سبحانه ليقضى أمرا لابد من حصوله. وكرر ذلك لتأكيد أن ما أراده لابد من نفاذه لأنه إليه هو وحده مرجع الأمور كلها. ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى أسباب القوة المعنوية لكل مقاتل فقال: أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فى الحرب جماعة كافرة.

المفردات: ﴿تذهب ريحكم﴾: أصل الريح الهواء المتحرك؛ وتستعار للقوة والغلبة لأنه ليس فى الأجسام أقوى منها، فإذا اشتدت هيجت البحار واقتلعت الأشجار وهدمت الدور.

﴿بطرا﴾: هو مصدر بطر كفرح، وهو حالة تعترى الإنسان عند كثرة النعمة فتشغله عن شكرها.

﴿رئاء الناس﴾: الرئاء هو الرياء..

فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا[1] فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[2] ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم[3] بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ[4] أَعْمَالَهُمْ[5] وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ[6] وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ[7] يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

﴿تراءت الفئتان﴾: أى قربت كل منهما من الأخرى بحيث تراها.

﴿نكص على عقبيه﴾: كناية عن مفارقته لهم وفراره.

المعنى: إذا لقيتم فئة من أعدائكم فى قتال فاثبتوا فى مقاومتهم ولاتفروا ، إلا منحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة كما تقدم فى الآية (١٦) المتقدمة صفحة ٢٢٩، وإنما كرر الأمر بالثبات بعدما تقدم فى الآية (١٦)، لتأكيده، وليرتب عليه ما بعده وهو قوله: واذكروا الله كثيرا، أى استحضروا بقلوبكم أثناء القتال قدرة الله تعالى ووعده بنصر المؤمنين وغضبه على من لم يثبت، وبلسانكم بصوت منخفض ، فقد ورد فى الحديث (إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، والجنائز ، والتقاء الصفوف فى القتال). فإذا ثبتم وذكرتم ربكم يرجى لكم الفلاح والفوز. وأطيعوا الله فى كل ما أمر به، ومنه ما تقدم هنا، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من شئون الحرب وغيرها، ولا تنازعوا وتختلفوا ، فتفشلوا وتذهب قوتكم ، فيظفر بكم عدوكم، واصبروا على كل شدة تلاقيكم تفوزوا بعونه تعالى، لأنه مع الصابرين بالعون والمساعدة، وإياكم أن تكونوا كفار مكة الذين خربوا من ديارهم وقد أبطرتهم نعمة القوة وكان همهم مراءاة الناس ليمدحوهم، والحال أنهم بخروجهم هذا يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام. وبيان ذلك أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى أبى جهل يطلب منه العودة إلى مكة، فأبى أبو جهل وقال لا نرجع حتى نصل بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتغنى لنا الجوارى وتعلم بذلك العرب وكان عادة العرب أن يجتموا فى بدر كل عام يقيمون بها سوقا يتبايعون ويتفاخرون فأراد

(١) تنازعوا. (٢) الصابرين. (٣) ديارهم. (٤) الشيطان.
(٥) أعمالهم.. (٦) المنافقون. (٧) الملائكة.

الله عز وجل أن يسقيهم هذا العام كؤوس المنايا بدل الخمر، وتنوح عليهم النائحات بدل المغنيات، وذلك لأن الله تعالى محيط بكل أعمالهم وطغيانهم، فلا يفلت منه ظالم، واذكر أيها النبى لقومك حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم الإجرامية، ومنها البطر والرياء، وقال لهم بوسوسته الخفية: لن يغلبكم اليوم أحد من الناس كافة فضلا عن أتباع محمد الضعفاء، فأنتم أعز العرب نفرا، وإني مع هذا جار لكم أساعدكم. قال البيضاوى: أوهمهم بوسوسته أن أعمالهم التى زينها لهم من عبادة الأصنام والتقرب إليها بالنذور وغيرها نافعتهم ومجيزة لهم من الشدائد فلما تراءت الفئتان وقرب كل منهم من الآخر رجع الشيطان إلى الوراء. والكلام تمثيل لانقطاع وسوسته. ثم زاد ما يدل على براءته منهم خوفا من أن يناله ما ينالهم فقال فى نفسه: إنى برىء منك لأنى أرى ما لا ترون من مدد الملائكة وقوة المؤمنين المعنوية، إنى أخاف الله أى قال فى نفسه أيضا إنى أخاف أن يهلكنى الله بأن يسلط على ملكا يحرقنى ويكون هذا اليوم هو يوم الوقت المعلوم الذى أنذرنى به فى الآية (٣٨) من سورة الحجر صفحة٣٤٠، ومثل هذا التمثيل سيأتى فى الآية (١٦) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢. واذكر أيها النبى لأمتك أيضا وقت قول المنافقين فى المدينة وهم الذين فى قلوبهم مرض النفاق كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤، فالعطف للتفسير؛ قال هؤلاء لما جاءهم الخبر بكثرة المشركين واستعدادهم وعزم المسلمين على قتالهم: ما جعل اتباع محمد يجازفون وهم قلة إلا غرورهم بدينهم الذى يقول لهم إن القليل منهم يغلب الكثير من غيرهم كما فى الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١ ، ٥٢، فرد سبحانه عليهم بقوله ﴿ومن يتوكل على الله﴾ إلخ ، أى فهو الغالب لأن الله عزيز أى غالب لا يغلب من يتوكل عليه، حكيم لا ينصر إلا صاحب الحق، ثم أراد سبحانه أن يبين كونه شديد العقاب فقال: ولو ترى، أى لو رأيت يا من يصح منك الرؤية حين قبضت الملائكة أرواح قتلى بدر، وهم يضربون وجوهم إلخ، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرا عظيما تقشعر منه الأبدان. وضرب الملائكة هنا من عالم الغيب لا يراه أحد ، نظير ما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧ ، ١٩٨.

المفردات: ﴿عذاب الحريق﴾: أى المحرق ، وهو عذاب النار كما فى الآية (١٨١) من سورة آل عمران صفحة ٩٣

﴿بظلام للعبيد﴾: أى ليس بصاحب ظلم كما تقدم فى (١٨٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٣.
﴿كدأب﴾ أى عادتهم التى دأبوا عليها كما تقدم فى الآية (١١) من سورة آل عمران صفحة ٦٤.

وَأَدْبَـٰرَهُمْ[1] وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ[2] لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ[3] فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ[4] ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ[5] فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ[6] رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم[7] بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ[8] فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ[9] ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ[10] مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿إما تثقفنهم فى الحرب﴾: إما هى (إن وما) زيدت لتأكيد ربط الشرط بالجزاء ، يقال يثقفه بوزن سمعه يسمعه معناه ظفر به.
﴿شرد بهم من خلفهم﴾: التشريد والتفريق، والمراد بمن خلفهم كفار مكة وأعوانهم.

المعنى: ويضربون ظهورهم وأقفيتهم ويقولون لهم ذوقوا مقدمات عذاب النار التى ستدخلونها يوم القيامة. وهذا الضرب والقول من الغيبيات لا نطلع عليه ولا نسمعه كما لا نرى ولا نسمع ما يحصل للنائم من شدائد؛ ذلك العذاب، بسبب ما قدمته أيديكم فى الدنيا، وبسبب أن الله ليس بصاحب ظلم لعبد من عباده، بل هو عادل فى حكمه لا يفعل بالعبد إلا ما يستحقه، حكيم فى أفعاله لا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧ والآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، وآيتى (٣٥ ، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩.

وعادة هؤلاء الكفار التى داوموا عليها كعادة فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم السابقة والملوك الظلمة، ثم فسر هذه العادة بقوله: ﴿كفروا بآيات الله﴾ فأخذهم الله بسبب ذنوبهم، ولم يظلم أحدا منهم شيئا، ونصر رسله والمؤمنين. إن الله شديد العقاب لمن يستحقه. ذلك الذى ذكر من عقاب كفار مكة بسبب كفرهم بنعمة الله عليهم بإرسال خاتم رسله منهم، وعقاب الأمم قبلهم بمثل ذنوبهم، كل هذا حصل بسبب أن الله عادل حكيم، فلا يصح فى حكمه أن يغير نعمة أعطاها لقوم حتى يغيروا ما كانوا عليه من استقامة استحقوا بها النعمة. وكفار مكة كانوا قبل بعثة محمد ﷺ ينتظرون أن يرسل الله منهم رسولا كما أرسل

(١) وأدبارهم. (٢) بظلام. (٣) آل. (٤) بآيات. (٥) آل.
(٦) بآيات (٧) فأهلكناهم. (٨) آل. (٩) ظالمين. (١٠) عاهدت.

من غيرهم كما فى الآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، فلما جاءهم حسدوه وحاربوه وهموا بقتله إلى آخر ما حصل منهم فسلط عليهم المؤمنون أعملوا فيهم القتل والأسر حتى فلوا شوكتهم وأرغموا أنوفهم؛ وبسبب أن الله سميع لأقوالهم السابقة واللاحقة، عليم بأحوالهم فيرتب عليها ما تستحقه. ﴿كدأب آل فرعون﴾ إلخ.. أعاد سبحانه هذه الجملة ليبين أن الأولى كانت فى تعذيبهم بكفرهم بما يتعلق به سبحانه وحده من إنكار وحدانيته ووجوب إفراده بالعبادة، ولذلك عبر فيها بلفظ الجلالة: (الله) وأيضا لم يعين فيها شيئا مما حل بهم، أما هذه فلبيان تعذيبهم بسبب جحودهم لآيات ربهم الذى رباهم بنعمه، ومن أجلها إرسال الرسل لهدايتهم، فتراه ذكر فيها بدل لفظ الجلالة (الله) ذكر (الرب) والرب هو المنعم كأنهم جمعوا فى كفرهم بين جريمتين فى حقه سبحانه وتعالى، جريمة إنكار وحدانيته وجريمة جحود نعمه عليهم؛ وبين فيها أيضا العذاب الذى حل ببعضهم وهو غرق آل فرعون ليشعر بأن ما حل بتلك الأمم لم يكن من نوع واحد، وقد جاء مفصلا فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. ثم أراد سبحانه أن يبين حال فريق من الكفار عاهدوه ﷺ ثم نقضوا العهد وهم يهود المدينة، فذكر فى ذلك ثلاثة آيات فقال (إن شر الدواب) إلخ؛ وقد تقدم معنى هذا فى الآية (٢٢) من هذه السورة صفحتى ٢٢٩ ، ٢٣٠؛ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض هم الذين جمعوا بين الكفر والإصرار عليه، فهؤلاء لا يؤمنون أبدا لشدة عنادهم وحسدهم. ثم بين نقض العهود المرة بعد المرة، أى وهم الذين عاهدت منهم زعماءهم نيابة عنهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة، والحال أنهم لا يتقون ولا يخافون عاقبة غدرهم. وكان ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته عهدًا أقرهم فيه على دينهم وأمنهم على أموالهم على ألا يعينوا عليه المشركين، فنقضوا، ثم اعتذروا، ثم نقضوا فأمر سبحانه رسوله بقوله ﴿فإما تثقفنهم﴾ إلخ ؛ أى إن ظفرت بهم فى حرب فنكل بهم تنكيلا شديدا يكون سببا لتشتيت وتفريق من وراءهم من كفار مكة وغيرهم. والمراد اجعلهم عبرة لعل من وراءهم يتعظون ويعتبرون.

المفردات: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾: أى فاطرح لهم عهدهم حال كونك أنت وهم على سواء فى العلم بذلك ، والمراد أنذرهم بأنك قطعته ولا تأخذهم على غرة. فما أروع هذه المبادئ.

﴿رباط الخيل﴾: الرباط فى الأصل الحبل الذى تربط به الدابة ، وأريد به ربط الخيل وحبسها للجهاد.

﴿ وآخرين من دونهم﴾: (دون) هنا بمعنى غير وهو كثير فى القرآن ومنه ما فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧، والمراد هنا غير مشركى مكة واليهود.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ[1] مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

﴿جنحوا﴾ أى مالوا ، يقال جنح للشىء وإليه: مال ورغب فيه.

﴿للسلم﴾: أى الصلح ، وهو يذكر ويؤنث ، فيقال السلم رغبت فيها.

﴿حسبك الله﴾: أى كافيك شرهم.

المعنى: بعدما بين سبحانه أحكام الناقضين للعهد بالفعل، أراد أن يبين أحكام العازمين على نقضه ، والمعنى: إن توقعت أيها النبى من قومك معاهدين خيانة بأن ظهر لك من الدلائل ما يثبت سوء نيتهم وأيد ذلك عندك تعودهم نقض العهود وعدم المبالاة بها، فاقطع عليهم طريق خيانتهم بإعلامهم فسخك للعهد ولا تفاجئهم بحرب قبل ذلك بل تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد مستويان أما الذين نقضوه فملا فيجوز لك حربهم فعلا بدون إخطار سابق، إن الله لا يحب الخائنين مطلقا، خصوصا فى العهود، وما لا يحبه الله فلا تبال به أيها النبى، ولا يحسبن الذين كفروا أنهم يسبقون عقابنا وينجون من جرم الخيانة، لأنهم لا يعجزوننا إذا أردنا الانتقام منهم. فالمراد قطع أطماعهم فى إيذاء المؤمنين وأعدوا أيها المؤمنون لدفع شر أعدائكم ما تستطيعونه من أسباب القوة، وهى تختلف باختلاف العصور، وأعدوا لهم الخيل المرابطة فى الثغور لمنع تسرب الأعداء إلى بلادكم. وخص الخيل بالذكر مع أنها داخلة فيما قبلها لأهميتها فى ذلك الوقت.

ترهبون وتخيفون بما ذكر عدو الله الكافر به وعدوكم الذين يتربصون بكم المصائب، وترهبون قوما آخرين من غيرهم لا تعلمونهم الآن ولكن الله تعالى يعلمهم. وقد ظهر منهم أول الأمر الروم والفرس، وأخيرا جموع النصارى فى الحروب الصليبية، ولا يزال كثير منهم يتربص

(١) وآخرين.

بالإسلام وأهله إلى اليوم. فيا ويلهم إن غفلوا عن إرشاد ربهم. ولما كان الاستعداد للحرب يحتاج إلى مال قال: وما تنفقوا من شىء قل أو كثر فى سبيل الله يؤد إليكم جزاؤه وافيا يوم القيامة، وأنتم لا تظلمون منه شيئا. وإن مالوا للصلح فمل إليه أيها النبى لأن دينك دين سلام، وفوض أمرك إلى الله ولا تخف كيدهم، لأنه هو السميع لكل ما يدبرون، العليم بنياتهم. وإن يريدوا أن يخدعوك بإظهار رغبتهم فى الصلح ليأخذوكم على غرة فإن الله كافيك كيدهم، لأنه هو الذى سبق أن أيدك بنصره فى بدر، وبالأنصار الذين لم يكونوا من بلدك ولا من قومك. ولما كان بين قبائل الأنصار فى الجاهلية عداوات وحروب كما فى الاية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩ ، ٨٠ وكان هذا من أهم العوائق لنصره ، قال سبحانه ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أى نصرك بهم بعد أن ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد حروب استمرت ١٢٠ عاما، وبلغ من شدتها أنك لو أنفقت ما فى الأرض جميعه لتصلح بينهم ما استطعت أن تجمعهم، ولكن نعمة الله عليهم بالإيمان الذى هو أقوى فى المودة والمحبة من روابط الأنساب والأوطان جمعتهم، لأن الله عزيز أى غالب لا يعجزه شىء، حكيم فى أفعاله فلا ينصر الباطل على الحق. وبعدما أمر سبحانه نبيه بالاستعداد والميل للصلح إذا رغب فيه أعداؤه وطمأنه بالتأييد، أمره بالتحريض على القتال عند الحاجة إليه كبدء العدو بالحرب أو الخيانة فى الصلح فقال: ﴿يا أيها النبى حسبك الله﴾ إلخ أى كافيك وكافى مَنْ اتبعك من المؤمنين شر أعدائكم فى الحرب أو الخيانة. فالكفاية الأولى كانت خاصة به ﷺ فى حال الخيانة فقط، وهذه عامة له ولأصحابه فى كل حال. ولما سمع المؤمنون هذا الوعد العظيم صاروا يرددونه عند كل شدة. أنظر ما حصل فى أحد فى الآية (١٧٣) من سورة آل عمران صفحة٩١.

المفردات: ﴿حرض المؤمنين﴾: أصل حرض من حرض حرضا بوزن تعب إذا قارب على الهلاك والوصف منه حرض بفتحتين على وزن المصدر، يقال رجل حرض أى قريب من الهلاك كما فى الآية (٨٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٦. وصيغة حرض بتشديد الراء تفيد إزالة الحرض الذى هو القرب من الهلاك، كما يقال مرضت المحموم، أى أزلت مرضه، وقشرت الشجر أى أزلت قشره، ثم استعمل التحريض فى الحث الشديد على ما يمنع الهلاك من أول الأمر.

﴿أسرى﴾: جمع أسير وهو ما يقع حيا من الجند فى يد الأعداء فى حرب.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ(١) يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ(٢) خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ(٣) ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ(٤) مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا(٥) طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ

﴿يثخن فى الأرض﴾: أصله من ثخن الشىء السائل غلظ ولم يسل واستقر فى مكانه، ثم استعير للثبات الناشىء من القوة والتفوق على الغير، يقال ثخن بوزن كرم يكرم بضم الراء، وأثخنه إذا بالغ فيه.

ومنه ﴿حتى إذا اثخنتموهم﴾ الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢ ، ٦٧٣، والمراد هنا حتى يثبت أمره ويستقر ملكه فى الأرض، وتفسير الإثخان بالمبالغة فى القتل تفسير بسببه.

المعنى: يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه لدفع تعدى الكفار وإعلاء كلمة الحق والعدل على الباطل والظلم. ثم أمرهم سبحانه بأمر جاء فى صورة الخبر ليكون كالبشارة لهم فقال ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ إلخ؛ أى يجب عليكم فى حال قوتكم وظهور دولتكم أن يقف المقاتل منكم فى وجه عشرة من الكافرين، وذلك لأنهم لا يتعمقون فى علم الحقائق كما تعلمون، ولا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا كما فى الآية (٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١، فلا يدركون مرضاة الله فى دفع الظلم وإقرار السلام والحرية ، والفوز بإحدى الحسنيين النصرة والعزة، أو الموت شهداء والفوز بنعيم الآخرة. وكان هذا حال المؤمنين فى قوتهم.. وقد تواتر فى كل التواريخ أن جيوش المسلمين كانت فى حرب الروم ٢٤ ألفا وكان جيش هرقل ٢٠٠ ألف ومع ذلك غلبهم المؤمنون، ولكن لما فسدوا وأهملوا دينهم انقلب الحال، ولن يرجع إليهم عزهم إلا إذا اتبعوا تعاليم دينهم. وبما أنكم الآن أيها المؤمنون ما زلتم لم تستكملوا قوتكم التى ترهبون بها كل من يريد بكم سوءا لضعف عددكم وعدتكم فإن الله يخفف عنكم ويجعل الحكم أنه يجب على

(١) صابرون. (٢) الآن. (٣) الصابرين. (٤) كتاب. (٥) حلالا.

الواحد منكم الثبات أمام أثنين من الأعداء، فإنه يغلبهما بعون الله إذا أن بالصبر، لأن الله مع الصابرين بالعون والمساعدة، وكرر ذكر الصبر لينبههم إلى تزرع الصبر من أقوى أسباب النصر، حتى قال بعضهم إنه إذا وجد فى أعدائهم وفقد ظفر فيهم بهم أعداءهم. ثم نبههم إلى عدم التساهل مع الأعداء وهم مازالوا محتاجين للقوة فقال ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ إلخ، وسبب ذلك أنه لما وقع جمع من المشركين فى الأسر استشار ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال أبو بكر وكثيرون: نأخذ منهم فدية نتقوى بها على القتال، وقال عمر: هؤلاء أئمة الكفر وأرى قتلهم حتى ينزجر غيرهم. فمال ﷺ لرأى الكثرة وأخذ الفداء. ففى هذا نزلت الآية.

والمعنى: ما كان يصح لنبى أن يكون له أسرى يفاديهم إلا بعد أن يتم له السلطان والقوة فى الأرض التى يحكمها بحيث يخافه كل مَنْ تحدثه نفسه بسوء. تريدون أيها المسلمون بأخذ الفداء متاع الدنيا الزائل بينما يريد الله لكم ثواب الآخرة بما شرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه، وفيها تمام الاستعداد لدفع العدو وكسر شوكته، والله عزيز يحب للمؤمنين العزة كما فى الآية (٨) من سورة «المنافقون» صفحة ٧٤٤، حكيم يحب للمؤمن أن يضع كل شىء فى موضعه، وليس من الحكمة أن تتساهلوا مع عدوكم وأنتم مازلتم قليلين. لولا وعد من الله مكتوب فى الأزل بأن لا يعذبكم عذاب إفناء لمسكم بسبب ما أخذتم عذاب عظيم. روى أنه لما نزل هذا العتاب الشديد جلس النبى ﷺ وأبو بكر يبكيان فجاءهما عمر بن الخطاب فقال: ما يبكيكما يا نبى الله؟ فقال ﷺ: نبكى على قبول الفداء، وقد عرض علىَّ عذاب أصحابى أقرب من هذه الشجرة وأشار إلى شجرة قريبة منه، ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غيرك يا عمر. وإذا كان الله قد أحل لكم الغنائم وفيها كفايتكم فكلوا منها حلالا طيبا، أى مستطابا لذيذا، واتقوا الله فلا تعودوا لما نهاكم عنه، إن الله غفور لذنوب التائبين رحيم فلا يعجل بالعقوبة. ثم أمر سبحانه رسوله أن يرغب الأسرى الذين دفعوا الفداء فى الإسلام وما فيه من خير عظيم فى الدنيا والآخرة وأن يهددهم بعاقبة بقائهم على الكفر وخيانته ﷺ، فقال: ﴿يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله..﴾ إلخ.

ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟[1] بِأَمْوَٰلِهِمْ[2] وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟[3] وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم[4] مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ[5] ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟[6] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟[7] وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ

المفردات: ﴿أمكن منهم﴾: أى أمكنكم منهم ونصركم عليهم.

﴿الذين آووا ونصروا﴾: هم الأنصار من أهل المدينة، آووا المهاجرين فى بيوتهم ونصروهم على أعدائهم.. أنظر آيتى (٨، ٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١.

﴿مالكم من ولايتهم من شىء﴾: أى ليس بينكم وبينهم موالاة فى شىء.

﴿استنصروكم فى الدين﴾: أى طلبوا منكم أن تنصروهم فى المحافظة على دينهم بمنع اضطهاد الكفار لهم.

﴿ميثاق﴾: أى عهد.

﴿إلا تفعلوه﴾: أصله إن لا تفعلوه.

المعنى: إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا من حسن نية واستعداد للإيمان الصحيح يؤتكم خيرا وافضل مما أخذ منكم من الفداء إذا آمنتم بإخلاص، فيخلف عليكم فى الدنيا أضعافه، ويجزل لكم ثواب الآخرة. ويغفر لكم كل ما سبق من معاصيكم حتى الكفر؛ لأنه سبحانه واسع المغفرة، رحيم بعباده المؤمنين كما فى الآية (٤٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦. ثم حذرهم سبحانه وطمأن نبيه بقوله: وإن يريدوا خيانتك بما يظهرونه من الميل للإسلام وعدم العودة لقتالك فلا تخش بأسهم لأنهم قد خانوا الله من قبل خيانتهم لكم حيث أشركوا به غيره بعد ما أخذ عليهم العهد كما فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، ومع ذلك أمكنكم من رقابهم بنصركم عليهم فى بدر مع تفوقهم فى العدد والعدة، فإذا خانوا فسيمكنك منهم، والله

(١) وجاهدوا . (٢) بأموالهم. (٣) آووا. (٤) ولايتهم.
(٥) ميثاق.. (٦) وجاهدوا. (٧) آووا.

عليم بما فى صدورهم، حكيم يعامل كلا بما يستحق. ولما فرغ سبحانه من بيان قواعد سياسة الحرب والسلم والأسرى والغنائم، ختم ذلك بما يناسبها من قواعد ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بسبب الإيمان والهجرة واختلاف ذلك باختلاف الأحوال، فقال ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ...﴾ إلخ، ولبيان ذلك يحسن أن نعلم أن المؤمنين كانوا فى عصره ﷺ وهو بالمدينة على أربعة أنواع: النوع الأول: هم المهاجرون السابقون قبل نزول هذه السورة، والثانى: الأنصار وهم من أسلم من أهل المدينة، والنوع الثالث: المؤمنون من أهل مكة الذين لم يهاجروا، والرابع: المؤمنون الذين هاجروا بعد ذلك. وقد بينت هذه الآيات حكم كل منها. فالقسم الأول والثانى بعضهم أولياء بعض، أى يتولى كل منهم من أمر الآخر ما يتولاه لنفسه، فأصبحت مصالحهم مشتركة بينهم كأسرة واحدة، حتى أن المهاجر كان يرث الأنصارى الذى لا وارث له من أقاربه وبالعكس، واستمر هذا التوارث إلى أن نزلت آيات المواريث فى أول سورة النساء فتغير الحكم. والقسم الثالث: وهم الذين لم يهاجروا وبقوا بأرض المشركين مالكم من ولايتهم من شىء أى ليس بين المسلمين فى المدينة وبينهم موالاة كالسابقة إلى أن يهاجروا فيكون لهم ما لإخوانهم، ولكن لهم عليكم شىء واحد هو أنه إذا تعدى عليهم المشركون لأجل دينهم وطلبوا منكم أن تنصروهم يجب عليكم نصرهم إلا فى حالة واحدة هى حالة ما إذا كان المعتدى المقيمين بدار الكفر كفارا بينكم وبينهم معاهدة ولم تنقض مدتها، فإنه فى هذه الحالة يجب تقديم حفظ العهد على نصرتهم؛ وذلك لأن الإسلام شدد فى المحافظة على العهد وعاب على اليهود كثرة نقضهم له واستهانتهم به. والله بما تعملون بصير فخافوا مخالفته، وهل رأيت أيها القارئ أنبل من هذه الأخلاق الإسلامية فى المحافظة على المعاهدات. والذين كفروا بعضهم يوالى بعضا فى التعاون ضد المسلمين، فيجب أن تحذروهم جميعا بالمحافظة على كل ما أمرتكم به، فإنكم إن لم تفعلوا ما أمرتم به من المحافظة على العهود تحصل فتنة شديدة فى الأرض، وفساد كبير بإنتشار الفوضى وسفك الدماء. ثم بين سبحانه فضل القسمين الأولين وما أعده لهم فى الآخرة فقال: والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم وحدهم المؤمنون إيمانا حقيقيا. وأعاد ذكر أوصافهم السابقة للإشارة إلى أنها هى سبب استحقاقهم لما بعدها.

لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(٩) سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَة

بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ

المفردات: ﴿رزق كريم﴾: هو الجامع لكل صفات الحسن كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٢٢٧، ولذا فسره بعضهم بالجنة.

﴿أولو الأرحام﴾: أصحاب القرابة الذين يجمعهم رحم واحد غالبا.

﴿فى كتاب الله﴾: أى حكمه الذى كتبه وفرضه على عباده.

سورة التوبة

﴿براءة من الله﴾: أى تبرؤ

﴿الذين عاهدتم﴾: أى كنتم عقدتم معهم معاهدة.

﴿فسيحوا فى الأرض﴾: أصل السياحة جريان الماء، ثم استعمل فى السير الاختيارى، أى سيروا فى أنحاء الأرض حيث شئتم أربعة أشهر تبتدئ من يوم ١٠ من ذى الحجة كما سيأتى، فهى غير الأربعة الأشهر الآتية فى الآية (٣٦) من هذه السورة صفحة ٢٤٦.

﴿غير معجزى الله﴾: أى لا تعجزونه بالهرب منه أو التحصن إذا أراد عقابكم.

﴿وأذان من الله﴾: أى إعلام.

﴿يوم الحج الأكبر﴾: هو يوم عيد الأضحى، لأن فيه تمام أعمال الحج، ووصفه بالأكبر لأن العمرة تسمى حجا أصغر، لأنه يزيد عنها ركنا كما تقدم فى الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠.

(١) وجاهدوا.
(٢) كتاب.
(٣) عاهدتم.
(٤) الكافرين.
(٥) أذان.

المعنى: لهم مغفرة تامة ماحية لكل ذنب، ولهم فى الآخرة رزق كريم من رب كريم، والصنف الرابع هم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية وهاجروا وجاهدوا، فالمراد ويهاجروا ويجاهدوا معكم، فحكم هؤلاء أنهم منكم أيها السابقون يستحقون ما استحققتم. وسياق الكلام يفيد أنهم أقل درجة عند الله، لأنه جعلهم قسما مستقلا تابعا، وقد صرح بهذا التفصيل فى الآية (١٠٠) من سورة التوبة التالية صفحتى ٢٥٨، ٢٥٩، والآية (١٠) من سورة الحديد صفحتى ٧١٩، ٧٢٠، والآيات (٨، ٩، ١٠) من سورة الحشر صفحة (٧٣١)، وقد جاءت مزية السبق مطلقة فى الآيات من (١٠ إلى ٢٦) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤، وجاء تقدير جزائهم على قدر أعمالهم فى الآية (١٩٥) من سورة آل عمران صفحتى ٩٥، ٩٦. وبعدما فرغ سبحانه من ولاية الإيمان والهجرة فقط أراد أن يبين ولاية القرابة بين أصحاب الولاية السابقة فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ أى بعضهم أحق بالإرث من المهاجرين والأنصار الأجانب، وهذه الأحقية كتبها الله تعالى وفرضها على عباده، أى فولاية الرحم مقدمة على ما هم أعم منها وهى ولاية الإيمان والهجرة، فإذا استوى رجلان فى نسبتهما إلى الميت من حيث الإيمان والهجرة وامتاز أحدهما بقرب النسب قدم على الآخر، وهذا الحكم انتهى بنزول آيات المواريث أول سورة النساء. ثم ختم سبحانه السورة بقوله ﴿إن الله بكل شىء عليم﴾ ليفيد أن ما شرعه من الأحكام فى هذه السورة صادر عن علم محيط بكل ما يتعلق بمصالح المؤمنين، انظر الآية (٥٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠.

وتسمى براءة. أما تسميتها بالتوبة فلأن قصة توبة كعب بن مالك الآتية فى الآيات (١١٧، ١١٨، ١١٩) صفحتى ٢٦٢، ٢٦٣، أهم توبة شهدها المسلمون فى عصره ﷺ انظر شرح صفحة ٢٤٧ وفيها إمام المتخلفين عن هذه الغزوة، وأما تسميتها براءة فظاهر من افتتاحيتها. ولم تفتتح بالبسملة كغيرها لأنه ﷺ لم يأمر بها، فظن بعضهم أنها مكملة للأنفال وعدهما سورة واحدة مكملة للسبع الطوال، وفهم بعضهم أنها سورة مستقلة وتركت البسملة لما قاله ابن عباس أن البسملة فيها رحمة وأمان وهذه نزلت لرفع الرحمة والأمان عن المشركين. وسبب نزولها أنه ﷺ لما خرج لغزوة تبوك التى نزل أغلب السورة فيها من أول الآية (٣٨) إلى قبيل آخرها، وكانت مسافتها طويلة شاقة، برز نفاق المنافقين ودسائسهم مما سيأتى الحديث عنه فى أغلب السورة، عند ذلك بدأ المشركون يتمرون ويتربصون فى سرائرهم بالمسلمين. فكان من الحكمة وقد ثبت بالتجربة أنهم لا عهد لهم كما فى الآية (٧) التالية صفحة ٢٤٠. ولا يمكن الاطمئنان إلى معاشرتهم فى ظل معاهدات يُسهل لهم شركهم الغدر بها، كان من الحكمة أن يؤمن الله الدعوة من شرهم، فأمر سبحانه أولاً بقطع ما كان معهم من عهود مطلقة لم تقيد بوقت معين، ومن كان منهم له عهد بأقل من أربعة أشهر يكمل له إلى نهاية أربعة أشهر من هذا التاريخ، ومن كان له مدة فوق الأربعة أشهر يكمل له عهده إلى آخر مدته مهما طالت، وأمر ثانيا بتطهير جزيرة العرب من المشركين حتى لا يبقى فيها دينان انظر الآية (٥) وما بعدها صفحة ٢٤٠، والآية (١٢٣) من هذه السورة أيضا صفحتى ٢٦٣، ٢٦٤، فأنزل سبحانه من أول السورة إلى الآية (٢٨) سنة ٩ فى موسم الحج، وقد كان على رأس الحجاج المسلمين أبو بكر رضي الله عنه، فأرسل ﷺ بما نزل عليا بن أبى طالب ليقرأه على الناس يوم العيد فى منى، فقرأه عليهم جميعا، وكانوا خليطا من مسلمين ومشركين وقال بعده: لا يقرب البيت بعد اليوم مشرك. ولما سمع المشركون فى الجزيرة ذلك وكانت مكة فتحت فى رمضان سنة ٨ هجرية قالوا بلغ محمدا أننا قد نبذنا عهده وأنه ليس بيننا وبينه سوى السيف. ومعنى الآيات هذه براءة من الله ورسوله إلى كل معاهد من المشركين، فقولوا لهم سيروا فى الأرض حيث شئتم مطمئنين مدة أربعة أشهر فقط، وفكروا فيها، فإن رجعتم عن شرككم فبها وإلا فما أنتم بقادرين على أن تعجزوا الله تعالى إذا طلب إهلاككم، وأنه سيخزيكم بالقتل والذل فى الدنيا، وبالعذاب فى الآخرة. وبعدما قرر سبحانه الحكم أمر بإعلانه فقال: وأذان فى الناس يوم الحج.. إلخ، أى هذا إعلان صادر من الله ورسوله إلى جميع الناس يوم الحج الأكبر، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة الذى يجتمع فيه الناس بمنى، بأن الله برئ من المشركين، وكذا رسوله برئ منهم ومن عهودهم، وقولوا لهم إن تبتم عن الشرك والغدر فعملكم وهو التوبة خير. إلخ.

المفردات: ﴿توليتم﴾: أى ثبتم على التولى والإعراض عن التوبة.

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم(١) مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟(٢) عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ(٣) وَءَاتَوُا۟(٤) ٱلزَّكَوٰةَ(٥) فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ(٦) ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ(٧) عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟(٨)

﴿لم ينقصوكم شيئا﴾: من شروط العهد وحافظوا عليها تامة.

﴿ولم يظاهروا عليكم أحـــدا﴾: أى لم يعاونوا عليكم عدوا.

﴿فإذا انسلخ﴾: أصل السلخ الكشط، يقال سلخت الجلد عن الشاة أى كشطته وفصلته منها. ولما كان الزمان محيطا بكل ما فيه، عبّر عن ذهابه بالسلخ، فالمراد انفصلت وانقضت مدة الأشهر.

﴿الأشهر الحرم﴾: المعهودة المتقدمة فى قوله ﴿فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾ ولبست هى الأشهر الحرم المحرمة على الدوام الآتى ذكرها فى الآية ٣٦ صفحة (٢٤٦).

﴿واحصروهم﴾: فى المكان الذى يتحصنون فيه وامنعوهم من الخروج منه.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾: المرصد المكان الذى يرصد فيه العدو، والمراد مراقبة مسالكهم حتى لا يفلتوا.

﴿فخلوا سبيلهم﴾: أى فاتركوا لهم طريق حريتهم.

(١) عاهدتم.
(٢) يظاهروا.
(٣) الصلاة.
(٤) آتوا.
(٥) الزكاة.
(٦) كلام.
(٧) عاهدتم.
(٨) استقاموا.

﴿استجارك﴾: أصل معنى استجار طلب الجوار، والمراد استأمنك وطلب منك أن تؤمنه.

﴿مأمنه﴾: المكان الذى يأمن فيه بين أهله.

﴿فما استقاموا﴾: ما اسم شرط يدل على الزمن، والمراد أى زمان استقاموا لكم فيه.

المعنى: فالتوبة خير لكم فى الدنيا والآخرة، وإن داومتم على إعراضكم فاعلموا أنكم لا تعجزون الله إذا أراد تعذيبكم.

ثم ذكر سبحانه بعضا من هذا العذاب فى أسلوب تهكم بهم فقال: وبشر الكافرين أيها النبى بعذاب شديد الألم. فكأنه يقول: إذا تولوا فأحسن خبر يسمعونه هو إنذارهم بالعذاب، ثم استثنى سبحانه من الذين تبرأ من عهودهم وهددهم بالعذاب فقال ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ ولم ينقضوا شيئا من عهودكم، ولم يساعدوا عليكم عدوا، فهؤلاء حافظوا على عهدهم تاما إلى آخر مدتهم، ولا تسووهم بالخائنين؛ إن الله يحب المتقين لمعاصيه ومنها نقض عهد مَنْ حافظ عليه، فإذا انقضت مدة الأشهر الأربعة المحرم عليكم القتال فيها فاقتلوا مَنْ تشاءون من المشركين الخائنين للعهد فى أى مكان وجدتموهم فيه، وخذوا من تشاءون منهم أسرى، وحاصروهم إذا احتموا فى حصن، ولا تمكنوهم من الخروج حتى يسلموا أو يموتوا، واقعدوا لهم فى كل مكان ترصدون فيه حركاتهم، وليس المراد الحصر فى هذه الثلاث، بل المراد افعلوا بهم كل ما ترونه مناسبا للمصلحة ولتدبير شئون الحرب، وإنما أجاز الأسر هنا وقد كان منعه فى غزوة بدر فى الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧، لأن سورة التوبة نزلت سنة ٩ هجرية وقد قوى المسلمون وأصبحوا لا يخشون الأسر، فالحالة هنا تغيرت. فإن تابوا عن الشرك ودخلوا فى الإسلام، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فاتركوهم وشأنهم، لأن الله واسع المغفرة فيغفر لهم كل ما سبق، رحيم بعباده المؤمنين.

وبعد أن بين سبحانه حكم التائبين بالفعل أراد أن يبين حكم مَنْ يظهر استعداده للتوبة فقال سبحانه ﴿وإن أحد من المشركين﴾ إلخ؛ فهذا تخصيص لقوله السابق ﴿فاقتلوا المشركين﴾ إلخ، فيفيد أن المشركين الذين بلغوا نبذ عهودهم أو انتهت مدتها هم على ثلاثة

أقسام: قسم مُصر على الشرك ومصمم على الخيانة، وهذا يقاتل فى أى مكان وجد فيه، وقسم تاب وآمن، وقسم يطلب سماع القرآن ليتدبره. فالمعنى: وإن طلب منك أيها النبى أحد من المشركين الأمان ليسمع كلام الله ليعلم حقيقة الإسلام فيجب عليك أن تؤمنه، ثم بعد ما يسمع القرآن أبلغه فى أمان إلى دار قومه التى يأمن فيه على نفسه ويكون حرا فيما يختار؛ وذلك الأمر الذى أمرناك به من تمكينه من سماع القرآن بسبب جهلهم حقيقة الإسلام وإنما دفعهم لحربك عصبيتهم الجاهلية، فإذا بدر منهم استعداد للنظر والتدبر فى القرآن فمكنهم. ثم رجع سبحانه إلى بيان الحكمة فى التبرؤ من المشركين وقطع عهودهم فقال: كيف يكون للمشركين المستهينين بالعهود المجترئين على نقضها عهد محترم عند الله وعند رسوله؟ والاستفهام للإنكار والتعجب. والمعنى بأية صفة يثبت للمشركين عهد يقره الله ورسوله. وسيأتى تفصيل أسباب عدم احترام عهدهم فى الآيات (٨، ٩، ١٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٤١، وقبل ذكر هذه الأسباب استثنى سبحانه منهم من حافظ على عهده وهم المشار إليهم فى الآية (٤) هنا، وهم حى من بنى بكر من كنانة كما تقدم.

وبيان ذلك أن الذين عاهدوه عام الحديبية سنة ٦ هجرية الآتى ذكرها فى الآية (١٨) من سورة الفتح صفحة ٦٨١، كانوا كفار قريش وقبائل العرب حول مكة، وقد نقض قريش وكثير من العرب العهد، وكان ذلك سببا لغزوة الفتح سنة ٨ هـ ، وحافظ على عهده حى من بنى بكر من كنانة، فهم المقصودون هنا بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ أى قريبا منه وبجواره فى الحديبية، وأعاد استثناءهم ليبين تأكيد الوفاء بالعهد مع شرطه الموجب للوفاء وهو الاستقامة فقال سبحانه ﴿فما استقاموا﴾. ولما فتح ﷺ مكة سنة ٨ هجرية دخل جميع أهلها من قريش فى الإسلام، وبقى قبائل من العرب المشركين حول مكة لم يسلموا، وهم الذين أمر الله سبحانه بنقض عهدهم وحربهم ما عدا من حافظ منهم على العهد.

المفردات: ﴿يظهروا عليكم﴾: المراد يتفوقون عليكم فى القوة ويظفرون بكم .

﴿لا يرقبوا فيكم﴾: أى لا يراعون فى معاملتكم.

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ[1] وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ[2] ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ[3] اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ[4] وَآتَوُا[5] الزَّكَاةَ[6] فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ[7] لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم[8] مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا[9] أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ[10] لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ[11] قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ[12] وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿إلا﴾: الإل الرحم والقرابة.

﴿ولا ذمة﴾: أى عهدا.

﴿فصدوا عن سبيله﴾: صد فعل يستعمل لازما بمعنى أعرض ومتعديا بمعنى منع غيره والكل هنا صحيح.

﴿ساء﴾: أى قبح.

﴿نكثوا أيمانهم﴾: أى استمروا على نقض عهودهم التى أكدوها بأيمانهم المغلظة.

﴿وطعنوا فى دينكم﴾: عطف لبيان نوع من أنواع نقض العهد، وليس المراد به تقييد حال قتالهم بالجمع بين الأمرين الحرب مع الطعن فى الدين. وإنما المراد أن الحرب نقض للعهد.

والطعن فى الدين نقض للعهد، فهو كما قال الألوسى هو من عطف الخاص على العام لأن الفعل الواقع بعد شرط يفيد العموم فى مصدره فكأنه قال إن حصل منهم نقض للعهد ومن أفراد النقض للعهد الطعن فى الدين.

(١) بأفواههم.
(٢) فاسقون.
(٣) بآيات.
(٤) الصلاة.
(٥) وآتوا.
(٦) الزكاة.
(٧) الآيات.
(٨) أيمانهم.
(٩) فقاتلوا.
(١٠) أيمان.
(١١) تقاتلون.
(١٢) أيمانهم.

﴿أئمة الكفر﴾: صناديده وزعماؤه.

﴿لا أيمان لهم﴾: المراد ليس لهم أيمان يوثق بها.

﴿ألاَ﴾: كلمة مركبة من همزة استفهام استنكارى تفيد النفى، ومن اللام النافية، ومجموعهما يفيد الحث والتحريض على ما بعدهما.

﴿تقاتلون قوما﴾: المراد بهم الذين كانوا حول مكة ولم يدخلوا فى الإسلام بعد وكانوا تبعا لقريش فيما يأتمرون به ويعادون النبى ﷺ قد جاء ما يؤيد ذلك فى المنار جزء ١٠ صفحات ١٥٠، ١٥١، ١٨٣، ٢٣٥. ﴿هموا بإخراج الرسول﴾: عندما تآمروا على حبسه أو إخراجه أو قتله، كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

المعنى: فاستقيموا لهم محافظين على العهد ماداموا مستقيمين عليه، إن الله يحب المتقين لكل معصية ومنها الغدر، ثم شرع سبحانه فى بيان أسباب عدم احترام عهدهم المشار إليه سابقا فقال ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ إلخ، أى كيف يكون لهم عهد محترم وهم إن يظفروا بكم لا يراعون فى معاملتكم حقوق قرابة ولا عهود، وفى حالة ضعفهم يرضونكم بكلام عذب فيه إظهار محبتكم وحب الخير لكم، وهذا الكلام مجرد ألفاظ تخرج من أفواههم فقط ولا صلة لها بما فى قلوبهم، لأن قلوبهم المملوءة بالحقد والحسد تأبى أن توافق أفواههم كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم﴾ الآية (١١) من سورة الفتح صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠، وأكثرهم فاسقون أى خارجون على قيود العهد والطاعة.

ثم بَيّن سبحانه بعضا من أسباب فسقهم فقال ﴿اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أى استبدلوا بامتثال آيات الله التى تأمر بالاستقامة والمحافظة على العهد ثمنًا قليلا من حطام الدنيا والانغماس فى الشهوات، فأعرضوا عن الحق بسبب هذا الاستبدال الخسيس وصرفوا غيرهم عنه. إنهم قبح عملهم الذى استمروا عليه حتى صار طبعا لهم فهم بسبب ذلك لا يقتصرون فى عدم احترام القرابة والعهد عليكم فقط، بل هذا هو طبعهم مع كل مؤمن. أولئك

هم وحدهم المعتدون على حدود الله. ثم بَيّن سبحانه ما سيكون منهم فى المستقبل وأنه لا يتعدى أحد أمرين فقال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فهم حينئذ إخوانكم فى الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وبهذه الأخوة يسقط كل ما سبق من عداوة. ﴿ونفصل الآيات﴾ أى نأتى بها مفصلة ومبينة للحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، ينتفع بها الذين يعلمون العلم النافع فيصلون لمعرفة الحق، وإن استمروا على نقض أيمانهم التى أكدوا بها عهودهم لكم وطعنوا فى دينكم كعادتهم فقاتلوهم لأنهم صناديد الكفر وقواده، كما أنهم فى الحقيقة لا أيمان لهم محترمة، فقاتلوهم راجين بذلك أن ينتهوا عن الكفر والفساد. ولما كان بعض المسلمين يظن أنه لو أمهل هؤلاء الكافرين لآمنوا، كما تقدم فى الآية (٢١٦) من سورة البقرة صفحة ٤٢، قطع سبحانه هذا الظن بالحث على قتالهم فقال ﴿ألا تقاتلون﴾ أى كيف لا تقاتلون ﴿قوما نكثوا أيمانهم﴾ التى أكدوا بها العهد المرة تلو المرة، وقد سبق منهم بمكة أنهم تبعوا قريشا فيما مضى وهموا بإخراج الرسول على الوجه الذى كانوا يريدونه كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وهناك بينا سبب ذكر الخروج فقط، وهم الذين بدءوكم بالإيذاء والفتنة بمكة، وبتصميمهم على القتال فى بدر بعد علمهم بنجاة العير كما تقدم فى أسباب الحرب فى بدر فى سورة الأنفال، وبمجيئهم لأحد كما تقدم فى الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣، وانظر آيات (١، ٢، ٣) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٤، ٧٣٥. فهل مع كل هذا تخافونهم؟ لا تخشوهم فالله وحده هو الذى أحق أن تخشوه، لأنه يضر وينفع وهم لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، إن كنتم مؤمنين حقا. وهذا تحريض شديد على كف شر هؤلاء المشركين الذين بقوا حول مكة متمسكين بشركهم، وكانوا يشاركون قريشا قبل فتح مكة وإسلام أهلها فى كل تدبيرهم ومكائدهم للنبى ﷺ ومتضامنين معهم فى حروبهم للمسلمين. فكل ما كان ينسب لقريش قبل إسلامها فهو ينسب إليهم.

المفردات: ﴿أم﴾: تقدمت فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ إنها تفيد الاستفهام التعجبى.

قَٰتِلُوهُمْ[1] يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا[2] مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ[3] اللَّهِ شَٰهِدِينَ[4] عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ[5] وَفِي النَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ[6] ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ[7] اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ[8] وَءَاتَى[9] الزَّكَوٰةَ[10] وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

﴿وليـجـة﴾: هى مـا يولج أى يدخل فى القوم وليس منهم يطلق على الواحد والكثير والمـراد هنا بطانة السـوء من المنافـقـين والمشركين أى شاهدين على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال كما فى الآية (٧) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿حبطت أعمالهم﴾: أى بطلت.

﴿يعمروا مساجد الله﴾: عمارة المسجد تشمل العبادة فيه وترميمه وتنظيفه وخدمته وغير ذلك. ﴿سقاية الحاج﴾: السقاية اسم للمكان الذى يوضع فيه الماء لسقى الناس، ويطلق أيضا على الإناء الذى يشرب به، كما فى الآية (٧٠) من سورة يوسف صفحتى ٣١٣، ٣١٤؛ وسماها صواعًا فى الآية (٧٢) من السورة نفسها صفحة ٣١٤ لأنه كان يكال بها أيضا كالصاع، وصارت السقاية تستعمل بمعنى الحرفة كالنجارة والحدادة، وهذا المعنى هو الظاهر هنا.

المعنى: بعد أن بيّن سبحانه دواعى قتال المشركين ووبخ على تركه، جدد الأمر بقتالهم، ووعد المؤمنين بتعذيب أعدائهم تشجيعا لهم على القتال، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله﴾ على

(١) قاتلوهم.
(٢) جاهدوا.
(٣) مساجد.
(٤) شاهدين.
(٥) أعمالهم.
(٦) خالدون.
(٧) مساجد.
(٨) الصلاة.
(٩) آتى.
(١٠) الزكاة.

أيديكم بالقتل، ويعينكم عليهم، ويخزهم بالأسر، وينصركم عليهم أتم نصر، بجعل الغلبة النهائية لكم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ هم الذين كانوا فى مكة وعجزوا عن الهجرة حتى أنقذهم النبى ﷺ حين فتح مكة سنة ٨ هجرية، وكان المشركون من أهل مكة وما حولها يعذبونهم، فشفى صدورهم بعزة الإسلام، وبذهاب ما كان فى قلوبهم من الغيظ على الكفار بإذلال من بقى من المشركين على الشرك وقهرهم انظر الآية (٧٥) من سورة النساء صفحة ١١٣ ويتوب الله على من يشاء منهم، وهم الذين نبهت عقولهم العبرة فأزالت غشاوة العصبية الجاهلية.

والله عليم بمن يستحق قبول توبته لحسن استعداده، حكيم فلا يضع الشىء إلا فى موضعه. ولما شق على بعض المسلمين قتال قومهم كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية ٢١٦ من سورة البقرة صفحة ٤٢، وتمنى بعضهم أن يمهلوا حتى يهديهم الله، وكان سبحانه يعلم من أمرهم ما لا يعلمون، قال: ﴿أم حسبتم﴾ أى هل ظننتم أيها المسلمون أن يترككم الله على ما أنتم عليه من اختلاط الصادق الإيمان بالضعيف ولا يأمركم بالجهاد فتمتحنوا بما يميز المخلص من غيره، والحال أن الله لم يعلم علم وقوع المجاهد المخلص ولم يتخذ من غير الله ولا رسوله ولا المؤمنين أخصاء يطلعهم على أسرار دولته، ونفى علمه تعالى كناية عن عدم حصول هذا التمييز، فعلم الله إما قديم قبل وقوع الحوادث أو منجز يتصل بالأحداث حين تقع، والمراد هنا الثانى أى لما ينكشف ما كان فى علم الله من قديم ولا يكشفه إلا الامتحان الذى يميز الخبيث من الطيب. فالمراد أتظنون أن تتركوا بدون تمييز أمام الناس، والله خبير بكل ما تعملون من خير وشر ويجازيكم عليه.

انظر مثل هذا النهى عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين فى الآية (١١٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٢. وبعد أن زالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام سنة ٨ بفتح مكة، ودخول أهلها فى الإسلام، وأزال ﷺ ما كان فوق الكعبة من الأصنام، أراد أن يبلغ جميع المشركين فى كل مكان أنه لا يقرب البيت الحرام بعد هذا العام-وهو سنة ٩ هجرية غير

المؤمن، أما المشرك فلا يصح له أن يدنو منه، وذلك تحقيقا لأمره تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام المتقدم فى الآية (١٢٥) من سورة البقرة صفحة ٢٤ فقال سبحانه ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله... الخ﴾، أى لا ينبغى ولا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله مطلقا، فضلا عن أشرفها وهو المسجد الحرام، حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، باعترافهم بعبادة الأصنام، أى فلا ينبغى أن يجمعوا بين النقيضين: عمارة بيت الله والكفر به سبحانه. أولئك المشركون بطلت أعمالهم التى يظنونها تقربهم إلى الله لما خالطها من الشرك به سبحانه، وسيدخلون نار جهنم خالدين فيها أبدا.

إنما الذى يصح له أن يعمر مساجد الله هو من آمن بالله، والإيمان به إيمان برسله، وآمن باليوم الآخر، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، فيعمل ما يأمره به، ولا يبالى بمن يحاول منعه من طاعة ربه، فهؤلاء المتصفون بما تقدم ترجى لهم الهداية إلى الجنة، ولما كان حصل بين بعض أصحابه ﷺ حوار فى أى الأعمال أفضل كما فى رواية مسلم عن النعمان بن بشير.

فقال بعضهم:

سقى حجاج بيت الله الحرام لشدة حاجتهم إلى الماء ولصعوبة حمله المسافات الطويلة بخلاف الزاد.

وقال آخر:

بل عمارة المسجد الحرام، وقال ثالث: بل الجهاد فى سبيل الله، لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين الصواب بما فيه توبيخ المشركين على ظنهم أنهم يتقربون إلى الله بعمارة المسجد الحرام مع بقائهم على الشرك فقال سبحانه مخاطبا المؤمنين معرضا بالمشركين: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام أى مع الإيمان كما يفهم من المقام حتى تصح المفاضلة الآتية كمن آمن بالله.... إلخ.

المفردات: ﴿رضوان﴾: الرضوان الرضا التام الكامل من كل وجه، فهو فوق نعيم الجنة كله، أنظر الآية (٧٢) من هذه السورة صفحة ٢٥٣، والآية (١٥) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

﴿مقيم﴾: أى خالد لا يزول.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ[1] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟[3] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ[4] وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ[5] ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ[6] وَجَنَّٰتٍ[7] لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ[8] فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ[9] وَإِخْوَٰنَكُمْ[10] أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ[11] وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[12] ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ[13] وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ[14] وَأَزْوَٰجُكُمْ[15] وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ[16] ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ[17] تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ[18] تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿أولياء﴾: أى أخصاء توالونهم ويوالونكم..

﴿استحبوا الكفر﴾: الاستحباب الحب القوى والميل الشديد.

﴿عشيرتكم﴾: العشيرة فى الأصل مؤنث العشير وهو الذى يعاشر الشخص ويخالطه والمراد بها هنا الجماعة من أقارب الرجل الذين يعاشرونه ويتعاونون معه.

﴿اقترفتموها﴾: الاقتراف فى الأصل الاجتهاد فى الحصول على الشىء والمراد هنا الاكتساب بمجهود، والمال الذى يحصل بذلك أحب من المال الموروث.

المعنى: هل يصح أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضل وعلو الدرجة عند الله كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد بنفسه أو ماله أو بهما، والحقيقة أنهم لا يستوون فى حكم الله وتقديره، والله لا يهدى القوم الظالمين فى أحكامهم وتقديرهم. وفى هذه الجملة تعريض بمن بقى من المشركين يفضل عمارة المسجد الحرام على ما ذكر مع إفادة أن المساواة بين مجرد سقى الحجاج وعمارة المسجد، وبين الجهاد فى سبيل الله الذى به إعلاء كلمة الله، ظلم فى

(١) وجاهد.
(٢) الظالمين.
(٣) وجاهدوا.
(٤) بأموالهم.
(٥) الفائزون.
(٦) ورضوان.
(٧) وجنات.
(٨) خالدين.
(٩) آباءكم.
(١٠) وإخوانكم.
(١١) الإيمان.
(١٢) الظالمون.
(١٣) آباؤكم.
(١٤) وإخوانكم.
(١٥) وأزواجكم.
(١٦) وأموال.
(١٧) وتجارة.
(١٨) ومساكن.

الحكم، لأنه وضع للشىء فى غير محله. ثم بيّن سبحانه الحكم الصحيح على أبلغ وجه فقال ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ من غيرهم ممن عمل صالحا غير عملهم، فضلا عمن لا عمل له من الخير إلا السقاية والعمارة، وهم المشركون الذين يظنون ذلك. وأولئك هم الفائزون بالنعيم الممتاز الذى بيّنه بعد ذلك بأنه نعيمان: أحدهما روحانى وهو أعلاهما، والآخر جسمانى، فقال: يبشرهم ربهم على لسان ملائكته عند الموت برحمة عظيمة خاصة بهم فوق الرحمة العامة الشاملة لكل مخلوق كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، وبرضوان منه أكبر لا يخالطه ولايعقبه سخط؛ فالنعيم الروحانى قسمان: عطف وإحسان خاص، ورضا لا يقدر قدره أحد. والنعيم الجسمانى جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار لهم فيها نعم من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فوق نعيم مَنْ لم يعمل عملهم من السبق إلى الإيمان والهجرة والجهاد، انظر من الآية (١٠ إلى الآية ٢٦) من سورة الواقعة صفحتى (٧١٣، ٧١٤). مقيم أى لا يزول حال كونهم خالدين فى تلك الجنات أبدا، وكل هذا ليس بعيدا عليه تعالى، لأن له أجر عظيم لا يعرف قدره غيره سبحانه. ولما كانت علاقات القرابة والنسب وتشابك المصالح مازالت قائمة بين المؤمنين وبين بعض المشركين المقيمين حول مكة وفى أنحاء الجزيرة، وكان بعض المسلمين يجول فى نفسه النفور من قتالهم لظنه أنه أصبح آمنا من تفوقهم، ولرجاء إيمانهم كما تقدم، والله يعلم أنهم خبثاء لا يصلح معهم إرشاد، حذر المسلمين من اصطفاء أحد منهم فقال: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أصفياء تطلعونهم على أسرار أمتكم ما داموا يستحبون الكفر ويقدمونه على الإيمان بالله ورسوله، وبعد هذا التحذير فمن يتولهم منكم فهو الظالم لنفسه بتعريضها لغضب الله وسخطه. ثم هدد سبحانه بما هو أقوى فى منعهم فقال: قل لهم أيها النبى إن كان آباؤكم الذين تفاخرون بهم وتعتزون بالنسبة إليهم كما تقدم فى الآية (٢٠٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠ وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اكتسبتموها بمجهودكم فهى عزيزة عليكم وتجارة تخافون بوارها ومساكن ترضونها، إن كان كل هذا مما تركتموه وراءكم أحب إليكم من الله ورسوله إلخ.

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

المفردات: ﴿تربصوا﴾: انتظروا.

﴿يأتى الله بأمره﴾: أى بعذاب يأمر بإنزاله بكم.

﴿مواطن﴾: جمع موطن، والمراد به هنا المكان الذى وقعت فيه حرب.

﴿يوم حنين﴾: هو يوم السبت ١٦ من شوال من السنة الثامنة للهجرة عقب فتح مكة مباشرة.

﴿كثرتكم﴾: فكانوا اثنى عشر ألفا ١٢،٠٠٠، وهو عدد لم يبلغه جيش المسلمين قبل ذلك.

﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾: الرحب السعة، والباء بمعنى مع. و(ما) تجعل ما بعدها مصدرا، فالمعنى ضاقت عليكم الأرض مع سعتها.

﴿أنزل الله سكينته﴾: السكينة اسم للحالة النفسية الحاصلة من طمأنينة القلب وعدم الاضطراب.

﴿نجس﴾: أصل النجس بالفتح مصدر نجس الشىء من باب تعب، فالشىء نجس بكسر الجيم، وأريد بالمصدر هنا الشخص النجس بالكسر مبالغة، ومعناه شرير خبيث النفس يضر من يتصل به. ﴿عامهم هذا﴾: هو سنة تسع هجرية.

﴿عيلة﴾: فقرًا.

المعنى: إذا كان واحد مما ذكر من الآباء وما بعدهم أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد فى سبيل الله فأنتم ضعاف الإيمان أو منافقون، ومن كان هذا شأنهم فلينتظروا ما

(١) الفاسقين.
(٢) الكافرين.
(٣) قاتلوا.

يأمر الله به لهم من العذاب والبعد عن هدايته، لأن الله لا يهدى القوم الخارجين عن طاعته المفضلين غيره عليه.

ثم أراد سبحانه أن يبين للمسلمين أن الخير ليس فى ولاية الأقرباء غير المسلمين بل فى طاعة الله، لأنه هو الذى يضر وينفع، فقال مخاطبا المؤمنين: ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة من مواطن القتال مع قلة عددكم وعدتكم كيوم بدر وخيبر والأحزاب وفتح مكة وقتال يهود قريظة والنضير إلى غير ذلك، وخص يوم حنين لما فيه من العبر الكثيرة فقال (ويوم حنين) أى واذكروا يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكم وكانت الحرب فيه بين المسلمين وبين هوازن وثقيف وكان جيش الكفار نحو ثلاثين ألفا، وكان فى جيش المسلمين عشرة آلاف ممن جاءوا من المدينة لفتح مكة وألفان من أهل مكة الذين أسلموا حديثا، وكان فيهم ضعاف الإيمان الذين تسببوا فى الهزيمة أول الأمر، ولما رأى بعض المسلمين كثرة جيشه قال: لن نُغلب اليوم. فسمعها ﷺ فلم تعجبه، لأنها تدل على الغرور وعلى اعتماد الشخص على كثرة العدد، والغفلة عن الله سبحانه وقد كان ما خشيه ﷺ؛ فلما التقى الجمعان وهُزم المشركون سارع أهل مكة لجمع الغنائم وتركوا الحرب، فارتقى جنود المشركين أعلى الجبال من خلف المسلمين واشتدوا فى ضربهم، فذعر المسلمون واختلط الأمر، و أشيع أنه ﷺ قتل، ففر جيش المسلمين مسرعا فى الإدبار، وعند ذلك أنزل الله سكينته على رسوله وعلى نحو ثمانين (٨٠) من المؤمنين معه، وأنزل جنودا روحانية من الملائكة لم تشاهدوها بأعينكم ولكن وجدتم أثرها فى قلوبكم من الثبات بعد الانهزام، وسيأتى توضيح ذلك فى الآية (٤٠)، وقد بقى ﷺ راكبا بغلته كالطود الراسخ يقول مناديا (أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب). فسمعه بعض المسلمين فنادى فى المنهزمين أن رسول الله لم يصب بسوء، فرجعوا وسيوفهم تلمع كأنها الشهب، فظن المشركون أن هذا مدد جديد أدرك المسلمين، فوقع فى قلوبهم الرعب، فانهزموا وتركوا وراءهم نساءهم وأطفالهم وجميع أموالهم من إبل وبقر وغنم، وكان ذلك جزاء الكافرين فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب شديد. ثم يتوب الله من بعد ذلك على

مَنْ يشاء منهم، وهم الذين أيقظتهم الحوادث، وكشفت غشاوة قلوبهم من المؤمنين الفارين، والله كثير المغفرة لمن رجع إليه، رحيم لا يعجل العقوبة. ومن أراد تفصيل ما حدث فى هذه الغزوة وسبب انكسار المسلمين أولاً وانتصارهم ثانيا، والعبر الكثيرة فى ذلك، فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٠١ من كتابنا صفوة البخارى.

وبعد ما بيّن سبحانه ما كان من شأن المشركين مما تقدم فى الآية (١٧) المتقدمة صفحة ٢٤٢، وغيرها أمر بإبعادهم عن المسجد الحرام فقال:

يأيها الذين آمنوا إنما المشركون أشرار خبثاء، فلا تجعلوهم يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا. ولما كان أهل مكة ينتفعون بكثرة الحجاج والمعتمرين، وكان المشركون يحجون ويعتمرون على طريقتهم المشوبة بالشرك، طمأن سبحانه أهل مكة بقوله ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من الغنائم ولكثرة الحجاج من المسلمين وغير ذلك. وقوله (إن شاء) ليعلمنا أن نرجع كل الأمور إليه سبحانه ونقطع النظر عن غيره، إن الله عليم بالمخلص منكم، حكيم فيما يعطى ويمنع. وبعد أن فرغ سبحانه من الكلام على مشركى العرب أراد أن يطهر الجزيرة من أهل الكتاب أيضا إذا لم يستقيموا ويخضعوا لحكم الإسلام، وهذا تمهيد للكلام فى غزوة تبوك مع الروم وهم أهل كتاب وما فيها من فضيحة المنافقين كما سيأتى، فقال:

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون﴾ إلخ؛ أى قاتلوا من اجتمعت فيهم أربع صفات سلبية هى سبب عداوتهم للإسلام: الأولى: أنهم لا يؤمنون بالله على الوجه الحق لأنهم عددوه، فبعض اليهود قال العزير ابن الله، والنصارى جعلوا المسيح إلها أو ابنا له، والجميع اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابًا لهم كما سيأتى والثانية عدم إيمانهم باليوم الآخر على الوجه الصحيح لأنهم يقولون إن الحياة فيه روحية فقط يكون الناس فيها كالملائكة، والصحيح أن الإنسان فيها هو الإنسان بجسمه وروحه، ويقول اليهود لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كما فى الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ١٦، إلى غير ذلك ما يضعف قيمة الإيمان باليوم الآخر، انظر الآية (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠، ولا يحرمون أى يحلون ما حرم الله..

مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[1] حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[2] ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى[3] الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ[4] يُضَاهِئُونَ[5] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ[6] اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ[7] أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا[8] لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ[9] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا[10] نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ[11] وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[12] ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ

المفردات: ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾: هم اليهود والنصارى ومن فى حكمهم كالصابئين المتقدم ذكرهم فى الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣، والمراد بالكتاب جنسه فيشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرها.

﴿الجزية﴾: هى مقدار من المال يدفعه الكتابى على قدر طاقته مجازاة عن تكفل الدولة بحماية نفسه وماله وعرضه ودينه، وألا يكلف بحرب إلا إذا تطوع.

﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾: ﴿عن يد﴾ تطلق اليد على القدرة فيقال ليس لى بكذا يد، أى لا أقدر عليه، فالمراد ألا يرهق بما يشق عليه،

﴿وهم صاغرون﴾: أى خاضعون لحكم الدولة غير متمردين. وقيل فى المنار عند هذه الآية: اليد السعة والقدرة، فلا يظلمون ولا يرهقون، فهذا القيد لصالحهم، والقيد الثانى لصالح المؤمنين، وذلك بخضوعهم لسيادة المسلمين، وبهذا يكون قد مهد السبيل لهدايتهم للإسلام،

(١) الكتاب.
(٢) صاغرون.
(٣) النصارى.
(٤) بأفواههم.
(٥) يضاهئون.
(٦) قاتلهم.
(٧) ورهبانهم.
(٨) واحدا.
(٩) سبحانه.
(١٠) يطفئوا.
(١١) بأفواههم.
(١٢) الكافرون.

بما يرونه من عدلهم، وفضائلهم، التى يشاهدونها فى معاملتهم، ويدركون أنها أقرب إلى هداية أنبيائهم، كأنه يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليو م الآخر.. إلى أن قال: ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، أى قاتلوا من ذكر عند وجود مقتضى القتال، كاعتداء عليكم، ومساعدة عدوكم، وتهديد أمنكم بأى صورة من الصورة، حتى تأمنوا عدوانهم.. بخضوعهم لدولتكم، ودفع الجزية، لتكون مقابل ما يدفعه المسلم من الزكاة، ليصرف من الجميع فى مصالح الدولة.

﴿عزير﴾: من يسميه أهل الكتاب عزرا.

﴿بأفواههم﴾: أى قولا وكلاما لا يتعدى الفم إلى العقل، لأنه باطل لا يستند إلى دليل، انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٤٩.

﴿يضاهئون﴾: يشابهون ويحاكون به. ﴿أنى﴾: أى كيف.

﴿يؤفكون﴾: يصرفون عن الحق. ﴿أحبارهم﴾: جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم من أهل الكتاب.

﴿رهبانهم﴾: جمع راهب، وأصله عند النصارى المنقطع للعبادة، والمراد به هنا ما يشمل المتعبد عند الجميع. ﴿نور الله﴾: المراد به القرآن وما فيه من الهداية، انظر الآية (١٦٢) من سورة النساء صفحتى(١٣٠، ١٣١، والآية (٨) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿يظهره﴾: يعليه بقوة البرهان ووضوح تعاليمه وموافقته للعقول السليمة ولمصلحة الناس كافة، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٩٣) من سورة البقرة صفحتى ٣٧، ٣٨

المعنى: قاتلوا الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله فأكلوا السحت والربا ولحم الخنزير، وقاتل بعضهم بعضا كما فى الآية (٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦، وانظر آيتى (٦٢، ٦٣) من سورة المائدة صفحة ١٤٩، ولا يتدينون بدين الحق الذى فى كتبهم بل حرفوه وبدلوه. ثم بيّن سبحانه هؤلاء الذين جمعوا بين كل هذه الجرائم فقال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾: فقاتلوهم عند وجود مقتض للقتال كإظهار العداوة لكم والاتصال بعدوكم أو فعل أى شئ مما يهدد

أمنكم حتى يعطوا الجزية كل بحسب قدرته وهم خاضعون لحكمكم ومحافظون على نظام دولتكم. ثم بيّن سبحانه بعض ما تقدم مجملا فقال: وقالت اليهود أى بعضهم عزير ابن الله، ويقال إن هؤلاء قد انقرضوا وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك القول الذى قالوه عن العزير والمسيح قول صادر من الفم فقط ليس له فى الوجود حقيقة، إن هو إلا محض افتراء يضاهئون به قول الكفار قبلهم من مشركى العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، سبحانه عما يصفون انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، وبراهمة الهند والبوذيون والصينيون الذين يقولون بحلول الإله فى بعض المخلوقات سبحان ربنا عما يصفون. فالمراد تسفيه الكتابيين بأن عقيدتهم تسربت إليهم من المشركين قبلهم، فهم لهذا يستحقون أن يدعى عليهم بالهلاك، و يقال فيهم قاتلهم الله، كيف يصرفون أنفسهم عن معرفة الحق الواضح.. ثم أراد سبحانه أن يبين شيئا من هذه المضاهاة فقال: اتخذوا رجال دينهم وعبادهم أربابا أى أنزلوهم منزلة الرب فى تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ ورد فى الحديث الصحيح أن بعض من أسلم من أهل الكتاب لما سمع هذه الآية قال يا رسول الله ما كنا نجعلهم أربابًا، فقال ﷺ: أليسوا كانوا يحرمون لكم ويحلون وتتبعونهم؟ قال: نعم.فقال ﷺ: هو ذاك؛ لأن هذا لا يكون إلا من الرب سبحانه. وقد اتخذ النصارى فوق ذلك المسيح بن مريم ربًا لهم حيث جعلوه ابن الرب سبحان ربنا عما يشركون، والحال أنهم جميعا ما أمروا فى كتبهم وعلى لسان رسلهم إلا ليعبدوا الله إلها واحدا، لأنه لا إله إلا هو سبحانه، أى تنزيها له تعالى عن شركهم له غيره فى الألوهية والربوبية يريد هؤلاء الكتابيون أن يطفئوا نور الله الذى أفاضه على الخلق فأصبح ساطعا كالشمس بأفواههم الهزيلة، والكلام تسفيه لقولهم وإظهار لطيشهم بمظهر من يظن أن ضوء الشمس فى علاها كضوء فتيلة الزيت يطفئه نفس الطفل الخافت. أى فهى محاولة فاشلة، لأن الله لا يريد إلا أن يتم نوره ببعثه خاتم النبيين والرسل إلى الخلق أجمعين ولو كره الكافرون. ثم أراد سبحانه أن يبين كيف يتم نوره فقال هو الذى أرسل رسوله محمدًا بالهدى الأكمل ودين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين بعده، بجعله مستعليا على كل دين، لما فيه من حجج قاطعة وعلم صحيح، ووضوح عقائده، ولموافقة شرعه لمصالح الناس كافة، ولو كره المشركون هذا التفوق.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ[1] ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ[2] وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ[3] ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[4] وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟[5] ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ[6] كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟[7] عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

(١) أموال.
(٢) بالباطل.
(٣) كتاب.
(٤) السموات.
(٥) قاتلوا..
(٦) يقاتلونكم.
(٧) ليواطئوا.

المفردات: ﴿فى كتاب الله﴾: فيما كتبه وقدره فى الأزل.

﴿أربعة حرم﴾: مفردها حرام كسحب مفردها سحاب، وسميت بذلك لأن الله حرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل.

﴿القيم﴾: المستقيم.

﴿النسىء﴾: مصدر كالحريق والصهيل. من نسأ الشىء نسأ أى أخره، والمراد هنا تأخير حرمة شهر إلى آخر.

﴿ليواطئوا﴾: ليوافقوا.

﴿عدة ما حرم﴾: أى عدد الشهور المحرمة بقطع النظر عن تعيينها.

المعنى: بعد أن بين سبحانه سوء حال اتباع الأحبار والرهبان فى اتخاذهم لهم أربابا، أراد أن يبين بعضا من حال هؤلاء الأحبار والرهبان فى تضليلهم لأتباعهم، ليحذر المؤمنين من الوقوع فيما وقعوا فيه فقال مؤكدا ما حصل منهم: ﴿يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ من السحت والرشاوى لتخفيف أحكام التوراة كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، والآية (١٦٩) من سورة

الأعراف صفحة ٢٢٠، ومن استحلالهم أموال غير اليهود كما فى الآية (٧٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧٤، ٧٥، وما يأخذ رجال الكنيسة ليغفروا الذنوب ويدخلوا الجنة، إلى غير ذلك، والمراد بالأكل مطلق الأخذ كما تقدم مكررا فى أول سورة النساء صفحة ٩٧ ويصدون الناس عن سبيل الله ودينه الحق الموصل إلى الجنة محافظة على رئاستهم. ثم حذر المسلمين من المبالغة فى حب المال حتى لا يكونوا مثلهم فقال:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ بمنع حقوق الله فيهما وحقوق الفقراء، ولذا قال ﴿ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ وهو طريق الخير للمسلمين ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يلاقيهم يوم يحمى على هذه الأموال فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم أى محيطة بهم من كل جانب، ويقال لهم إن هذا الذى تكوون به هو ما كنزتموه ولم تعطوا منه حقوق الله والناس، فذوقوا اليوم وبال كنزكم. وعبّر عن الخبر السيئ بالتبشير وهو لا يكون إلا بخير للسخرية بهم كما تقدم مرارا، وتخصيص الذهب والفضة بالذكر لأنهما الغالبان فى أساس المعاملة فى ذلك الوقت لا لخصوصهما وذاتهما، فالمراد كل ما يعتبره الناس أساس تعامل بينهم، والله قادر على أن يجعل غير الذهب أشد فى الإحراق منه، هذا إذا لم نقل إن الكلام كناية عما سينال الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها فى سبيل الله من العذاب الشديد فى الآخرة. ثم رجع سبحانه إلى الكلام عن أحوال المشركين وما يطلب فى معاملتهم بعد الفتح، بعد أن ذكر شيئا من أعمال أهل الكتاب التى اشتركوا فيها مع المشركين.

فقال: ﴿إن عدة الشهور.. ﴾ الخ، المراد أن عدد شهور السنة اثنا عشر شهرا فيما قدره الله لنظام خلقه ليعملوا به فى عباداتهم كالحج والصوم، ومعاملاتهم كالإجارة والبيع، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. وهذه الأشهر الاثنا عشر كتبها الله وقدرها على هذا النظام من يوم أن خلق السموات والأرض وجعل منها على لسان نبيه ابراهيم عليه السلام أربعة أشهر يحرم القتال فيها، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانت العرب تحترم ذلك التحريم حتى أن الرجل منهم يلقى قاتل أبيه فيها فلا يمسه بسوء، إلى أن

تلاعب بعض رؤسائهم كما سيأتى. وذلك التحريم لهذه الأشهر الأربعة هو دين الله المستقيم الذى لا عوج فيه، فلا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر بانتهاك حرمتها والقتال فيها، وقاتلوا المشركين جميعا كما يقاتلونكم جميعا، واعلموا أن الله مع المتقين لما يغضبه، معهم بنصره وتأييده. ثم بيّن الله بعض جرائم المشركين فى هذا الموضوع فقال:

إنما النسىء الذى يفعله مشركو العرب كفر يضاف إلى كفرهم الأساسى؛ لأن تحليل ما حرم الله كفر كما أن شركهم به تعالى كفر. وبيان ذلك أن العرب، كانوا لا ينقطعون عن الغزو والحرب فينهب القادر منهم الضعيف، فإذا ما اشتبكت قبيلتان فى حرب ودخل شهر من هذه الأشهر الأربعة، أو طال عليهم انتظار الشهر الحلال وخاصة فى مدة الثلاثة شهور الحرم المتوالية، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فإن القوى منهم يعلن فى قومه أنه أحل لهم شهر المحرم مثلا، وينقل حرمته إلى شهر صفر، فإذا جاء العام التالى ووجد أن الحالة تستدعى القتال فى صفر فإنه ينقل التحريم إلى شهر ربيع وهكذا، وكان أول من فعل ذلك زعيم منهم يسمى (القلمس) بفتح القاف واللام وتشديد وفتح الميم. فهذا النسىء يضل به زعماء المشركين أتباعهم حيث يوهمونهم أن الله أجاز لهم حق نقل الحرمة من شهر إلى آخر، فكانوا إذا أحلوا شهرا حرموا الآخر مكتفين بأنهم وافقوا عدد الأشهر التى حرم الله القتال فيها.

ولكن هذا تضليل منهم، لأن الله حرم أشهرا معينة فطاعته تقتضى المحافظة على الحرمة، وعلى الأشهر التى عينها سبحانه على لسان أنبيائه إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم السلام فمثلهم فى باطلهم كمثل من يصوم بدل شهر رمضان شهر شوال مثلا، فإذا ما سئل يقول إن الله أوجب علىَّ صوم شهر وقد صمته مع أن الله أوجب عليه صيام شهر معين لا مطلق شهر، فالتلاعب به كفر صريح.

المفردات: ﴿مالكم﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والخطاب للمسلمين.

﴿انفروا﴾: أسرعوا فى الذهاب إلى ما يرضى الله.

﴿اثاقلتم﴾: أصلها تثاقلتم أى تباطأتم.

فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ (١) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢) ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ (٣) الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ (٤) الْحَيَاةِ (٥) الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ (٦) لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا (٧) بِأَمْوَالِكُمْ (٨)

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾: قال القرطبى (من الآخرة) أى بدلا من نعيم الآخرة، فمن تتضمن معنى البدلية كما فى الآية (٦٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٣.

﴿إلا تنفروا﴾: أصلها إن لا تنفروا، وكذلك (إلا تنصروه).

﴿أخرجه الذين كفروا﴾: تسببوا فى إذن الله له بالخروج.

﴿ثانى اثنين﴾: واحد من اثنين.

﴿فى الغار﴾: هو فجوة فى أعلى جبل ثور على مسافة ساعة من مكة.

﴿لصاحبه﴾: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿سكينته﴾: تقدم بيانها فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٢٤٤، وستأتى فى الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨.

﴿بجنود لم تروها﴾: هم الملائكة، وقد تقدم أن للملائكة تأييدا روحانيا باتصالها بنفس المؤمن، كاتصال الشيطان ووسوسته فى نفس الفاسق بدون أن يراه، انظر الآية (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦ والآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧.

(١) أعمالهم.
(٢) الكافرين.
(٣) بالحياة.
(٤) متاع.
(٥) الحياة.
(٦) لصاحبه.
(٧) وجاهدوا.
(٨) بأموالكم.

﴿خفافا﴾: جمع خفيف، وتكون الخفة بسبب الصحة والنحافة والشباب والنشاط وعدم الشواغل.

﴿ثقالا﴾: جمع ثقيل، ويكون الثقل بسبب مرض أو سمن أو كبر أو كسل أو شواغل.

﴿كلمة الذين كفروا﴾: هى كلمتهم التى اتفقوا فيها على قتله ﷺ، وكانوا مجتمعين فى دار الندوة فنجاه الله سبحانه من كيدهم، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١

﴿وكلمة الله﴾: هى كلمته التى وعد فيها أنبياءه بالنصر، انظر الآية (١١٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨١، ١٨٢، والآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

المعنى: فهم لم يحافظوا إلا على العدد، ولكن أهملوا عين الأشهر المحرمة فأحلوا ما حرم الله، أى وحرموا ما أحل، وقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فظنوا القبيح منها حسنا، والله لا يهدى الكافرين الذين اتبعوا تزيين الشيطان، انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٢٦، وما تقدم فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. وبعد أن أمر سبحانه بتطهير جزيرة العرب من المشركين وأذنابهم، أراد أن يؤمن المسلمين من غدر جيرانهم نصارى الروم ومَنْ قد ينضم إليهم ممن هم تحت سلطان المسلمين من نصارى العرب وكذا يؤمنهم شر المنافقين وهم أخبث خلق الله. ومن تحت سلطانهم مَنْ نصارى العرب، وكان نصارى الروم قد شرعوا فى إعداد جيش لمهاجمته ﷺ فى المدينة، وقد علم بذلك الرسول ﷺ من تجار قادمين من الشام، فعزم على مهاجمتهم فى دارهم قبل أن يهاجموه فى داره، فأمر بالاستعداد لسفر طويل، وكان ذلك فى رجب عام ٩ هجرية، وكان الحر شديدا، والمسلمون فى عسرة من الزاد والركائب، وبعد أن سار ﷺ وصل الخبر للروم، فخافوا وأرسلوا وفدا لمصالحته فلقيه فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق فى مكان يقال له (تبوك) بفتح التاء وضم الباء مخففة، وصالحوه على أن يدفعوا له الجزية، فرجع ﷺ بعد أن مكث فى تبوك بضع عشرة ليلة، وتسمى هذه الغزوة غزوة تبوك أو غزوة العسرة، لما سيأتى فى الآية (١١٧) من هذه السورة

صفحة ٢٦٢ مما سبقت إليه الإشارة، وكانت هذه الغزوة سببا فى تطهير المسلمين من أخطر عدو بين جنبيهم وهم المنافقون فقد فضحهم الله فى هذه السورة بما لم يسبق مثله، فمازال يقول حتى كشف سترهم وستر أخبث رجالهم، ونزل فى شأن هذه الغزوة من أول الآية (٣٨) حتى آخر السورة.. ولتسهيل فهم ما يأتى يحسن أن تعلم أن المسلمين كانوا بالنسبة لهذه الغزوة على أربعة أقسام:

القادرون على الغزو وعدته وسارعوا إلى إجابته ﷺ، وهؤلاء أكثر الصحابة ونزلت فيهم الآيات (٤٤، ٨٨، ١٠٠، ١١١، ١١٢، ١١٧) من هذه السورة صفحات ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢. والقسم الثانى: وهؤلاء هم القادرون كسابقهم ولكنهم تثاقلوا أولاً بتأثير المنافقين، ولكن أدركهم لطف الله فأسرعوا بالسفر، ومما نزل فيهم آيتا (٣٨، ١١٧) هنا وصفحة ٢٦٢. القسم الثالث: وهم العاجزون عن السفر أو عن عدته، ونزلت فيهم آيتا (٩١، ٩٢) صفحة ٢٥٧. القسم الرابع: وهم المتخلفون مع القدرة من كل وجه وهم أربعة أنواع: الأول من تخلف كسلا ولم يعتذر للنبى ﷺ قبل السفر، ولما رجع ﷺ وسأله اعترف بخطئه ونزل فيهم آيتا (١٠٦، ١١٨) صفحتا ٢٦٠، ٢٦٢. والنوع الثانى من استأذن قبل السفر واعتذر بأعذار باطلة فأذن لهم الرسول وهو لا يعلم حقيقتهم، وهؤلاء هم عبدالله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وجماعة من قومه، ونزل فيهم كثير من آيات السورة من أول الآية (٤٢) وما بعدها ونزل فيهم أثناء السفر قبل رجوعه ﷺ إلى المدينة آيات (٨٣، ٩٤، ٩٥) صفحات ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨. والثالث بقية منافقى المدينة والمنافقين من الأعراب المقيمون حول المدينة وهؤلاء تخلفوا بدون عذر، ولما رجع ﷺ اعتذروا بأعذار كاذبة، فصدقهم وقبل أعذارهم، ونزل فيهم الآية (١٢٠) من هذه السورة صفحة ٢٦٣. والرابع المنافقون الذين سافروا معه ﷺ تورطا وهؤلاء هموا بارتكاب أبشع جريمة، ونزل فيهم الآية (٧٤) من هذه السورة صفحة ٢٥٤. ومَنْ أراد تفصيل ما حدث فليرجع إلى مقدمة شرح حديثى (٤٩٤، ٤٩٥) من كتابنا صفوة البخارى.

والمعنى : أى شىء حصل لكم أيها المسلمون حتى ملتم إلى راحة الأرض ونعيمها وتباطأتم عن نصرة الله عندما قال لكم النبى انفروا فى سبيل الله؟ هل رضيتم براحة الدنيا ولذاتها الزائلة بدلا عن نعيم الآخرة الباقى؟ إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الأدنى بالأعلى، لأن متاع الدنيا إذا قيس بمتاع الآخرة قليل جداً، حتى يكاد أن يكون لا شىء فإن لم تنفروا للجهاد عندما يطلب منكم الرسول ذلك فإن الله يعذبكم عذابا أليما، ويستبدل بكم قوما غيركم أحسن منكم، ولا تضروه بامتناعكم شيئا لأنه على كل شىء قدير، فإن لم تنصروا الرسول على أعداء الحق فسينصره الله بقدرته وتأييده كما نصره حين تسبب الكافرون فى إخراجه من مكة، انظر بيان ذلك فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، حال كونه ﷺ أحد رجلين حين كانا فى الغار ورأى صاحبه أقدام الكفارعند باب الغار، فقال له ﷺ:

لا تحزن لأن الله معنا بنصره وحمايته، فأنزل الله الطمأنينة والأمن على رسوله، فشملت صاحبه، وأيده الله بجنود من عنده سبحانه لم تروها يا من كنتم تطاردونه، وجعل سبحانه بنجاة رسوله كلمة الذين كفروا التى أجمعوا فيها على قتله، جعل كلمتهم هى السفلى حيث أحبطها وأرجعهم خائبين، والحال أن كلمة الله وهى وعده رسله بالنصر وإعلاء كلمة التوحيد هى العليا، أى الغالبة، والله عزيز غالب حكيم لا ينصر إلا المؤمنين. ثم جدد سبحانه الأمر بالجهاد بعد التوبيخ على تركه فقال: انفروا إذا دعيتم للجهاد على أى حال كنتم عليها من صحة أو مرض أو غنى أو فقر... إلخ، وجاهدوا بأموالكم.

المفردات: ﴿عرضا﴾: ما يعرض للإنسان من متاع الدنيا، انظر الآية (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠.

﴿قاصدا﴾: معتدلا بلا مشقة.

﴿الشقة﴾: المسافة التى تقطع بمشقة. ﴿عفا الله عنك﴾: أى تجاوز عن مؤاخذتك على اجتهادك، فهى كلمة عتاب رقيقة.

﴿انبعاثهم﴾: الانبعاث هو التوجه إلى الشىء بنشاط.

﴿فثبطهم﴾: التثبيط التعويق عن الشىء وإقامة العراقيل فى سبيله..

وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

المعنى: جاهدوا أيها المؤمنون بأنفسكم فى سبيل الله فذلكم خير لكم فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون ما ينفعكم. ثم تكلم سبحانه عن بعض من تخلف من المنافقين فقال: (لو كان عرضا...) إلخ، أى لو كان ما تدعو إليه أيها النبى متاعا للنفس قريب المنال لا مشقة فى الحصول عليه أو سفرا قريبا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم المسافة الشاقة، وسيحلف لك هؤلاء المنافقون بعد رجوعك قائلين: لو استطعنا من جهة الصحة أو العدة لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم بوقوعهم فى جرمين كبيرين: الجرم الأول حلفهم بالله كذبا، والثانى تخلفهم عن نصرة رسو ل الله، ففضحهم الله وشهّر بهم. والله يعلم أنهم لكاذبون فى قولهم إنهم لو استطاعوا لخرجوا. ولما كان ﷺ قد صدقهم وأذن لهم كما تقدم عاتبه سبحانه بقوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ أى لأى شىء أذنت لهم؟ وهلا تريثت بالإذن حتى يتبين لك الصادقون فى الاعتذار من الكاذبين فيه؟ وذلك لأن الكاذبين لن يخرجوا سواء أذنت أم لم تأذن لهم، فكان ينبغى عليك أن تتنبه إلى أن استئذانهم مع الحالة التى هم عليها من صحتهم وغناهم إنما هو دليل نفاقهم لأنه لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فى أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم إن قدروا عليهما أو بأحدهما، والله عليم بالذين يتقون غضبه فيجازيهم أحسن الجزاء. ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ والحال أن الباعث لهم على ذلك أن الشك تمكن من قلوبهم، فهم يترددون أيذهبون أم يرجعون، فهم فى شكهم مذبذبون ولا يخرجون منه إلى اليقين أبدا لتمكن مرض النفاق من قلوبهم.

(١) لكاذبون. (٢) الكاذبين. (٣) يستأذنك. (٤) يجاهدوا.
(٥) بأموالهم. (٦) يستأذنك. (٧) القاعدين.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا

ولو أرادوا الخروج عن صدق نية لأعدوا له عدة كاملة من زاد وراحلة وكل ما يحتاج إليه المجاهد ولكن لحكمة ستأتى بعد ذلك كره الله انبعاثهم فثبطهم وسلط عليهم الشيطان يقول لهم بوسوسته اقعدوا مع القاعدين.

المفردات: ﴿خبالا﴾: هو مرض يؤثر فى العقل والتفكير.

﴿ولأوضعوا﴾: أصل الإيضاع نوع من سير الإبل فوق المعتاد، والمراد هنا أسرعوا ولم يتمهلوا.

﴿خلالكم﴾: جمع خل بوزن جبل وجبال، و أصله الفجوة بين الشيئين، والمراد هنا أسرعوا فى الدخول فيما بينكم لتفريق كلمتكم.

﴿يبغونكم الفتنة﴾: أى يطلبون لكم الفتنة قال الراغب: أصل معنى الفتنة إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته.. واستعمل فى إدخال الإنسان النار قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم﴾ أى عذابكم. وتارة تستعمل الفتنة فى العمل الذى يستوجب العذاب ومنه ﴿ألا فى الفتنة سقطوا﴾ ومنه قوله تعالى ﴿فتنتم أنفسكم﴾ أى أوقعتموها فى بلية وعذاب وقوله ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾. والمراد هنا يبغونكم الفتنة أى البلية والعذاب.

(١) خلالكم.
(٢) سماعون.
(٣) بالظالمين.
(٤) كارهون.
(٥) بالكافرين.
(٦) مولانا.

﴿وقلبوا لك الأمور﴾: أى قلبوا آراءهم على كل وجه ليختاروا ما فيه ضرك.

﴿جاء الحق﴾: هو النصر الذى وعد به الله.

﴿وظهر أمر الله﴾: أى غلب دينه وعلا شرعه بدخول الناس فيه أفواجا.

﴿ولا تفتنى﴾: أى توقعنى فى الفتنة قالها بعضهم لما علم أن السفر سيكون لبلاد الروم، يريد أنى قد أفتتن بجمال نساء الروم فأقع فى المعصية.

﴿فى الفتنة سقطوا﴾: أى وقعوا فى المعصية العظمى وهى النفاق.

﴿قد أخذنا أمرنا من قبل﴾: أى احترسنا وابتعدنا عن الخطر.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾: الأصل فى الشدائد أن يقال: كتب عليه، كما قال سبحانه ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ الآية ١٥٤ من سورة آل عمران صفحة ٨٨، وما فى الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٣، ١١٤ وفى الخير أن يقال: كتب له، قال تعالى: ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧ ولكنه سبحانه هنا نبه المؤمنين إلى أن يغيظوا المنافقين بأن يقولوا لهم: كل ما يصيبنا من ربنا فنحن نعده نعمة يخفف بها عنا ذنوبنا أو يرفع بها درجاتنا عنده، وبذلك لا تكون نقمة كالذين يحصل لكم.

﴿هل تربصون﴾: أى تنتظرون.

﴿إحدى الحسنيين﴾: هما النصر والغنيمة أو الاستشهاد فى سبيل الله.

﴿من عنده﴾: كالصيحة والصاعقة مما حل بمَنْ قبلكم.

﴿أو بأيدينا﴾: أى بقتلكم وأسركم.

المعنى: بين سبحانه حكمة كراهة انبعاثهم بقوله ﴿لو خرجوا فيكم إلخ﴾؛ أى لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى جماعتكم أيها المؤمنون مازادوكم شيئا إلا شرًا واضطرابا وضعفا فى القتال إذا قاتلتم وخللا فى النظام، حال كونهم بعملهم هذا يطلبون لكم الفتنة بتخويفكم

من العدو، والحال أن فيكم أناسا ضعاف العقول والعزيمة يسمعون كثيرا لدسهم، والله عليم بالظالمين منهم وبما هم مستعدون له، وسيجازيهم. وعزتى لقد طلب هؤلاء فتنتكم من قبل هذه الغزوة كما سبق فى غزوة أحد، انظر الآية (١٢٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. وقد قلبوا الأمور على كل وجه، وأعملوا فكرهم ليؤذوك ويبطلوا دعوتك حتى جاء الحق الذى وعدك به الله من نصرك وإعلاء كلمته، وظهر أمر الله وعلا شرعه بفتح مكة وكثرة الداخلين فى الإسلام.

ثم أخذ سبحانه فى بيان نوع آخر من المنافقين فقال: ومنهم فريق يقول ائذن لى فى القعود يا رسول الله ولا توقعنى فى الفتنة أى المعصية، وذلك أن بعض هؤلاء ادعى أنه إذا رأى جمال نساء الروم لا يضبط نفسه، وبعضهم أدعى أن له أطفالا يخشى إذا تركهم أن يصبح قلبه موزعا وفكره مشتتا فيقصر فى القتال. فرد الله عليهم بقوله ألا إنهم بعملهم هذا قد عصوا وسقطوا فى هاوية الهلاك، وإن نار جهنم لمحيطة بهم فى الآخرة لكفرهم.

ثم بيَّن سبحانه حالة خبيثة من حالاتهم فقال: إن تصبك أيها النبى حسنة كنصر أو غنيمة تسؤهم وإن تصبك مصيبة كما وقع فى غزوة أحد يقولوا قد تنبهنا للأمر وأخذنا عدتنا بالحذر من قبل الوقوع فى هذه المصيبة وينصرفون عن مكان اجتماعهم الذى تجمعوا فيه بهذا القول إلى بيوتهم وهم شديدو الفرح لما أصابكم. وليس هناك عدو أقسى منهم. فيأيها النبى قل لهم لن يصيبنا إلا ماكتبه الله لنا وقدره علينا حسب حكمته، وهو وحده متولى أمورنا ونحن عبيده راضون بما يفعل فينا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون حقا، فلا يجزعون لما يصيبهم. وقل لهم أيضا ماذا تنتظرون لنا من الشر بينما ليس هناك شىء يمكن انتظاره لنا إلا واحدة من نهايتين حسنتين: إما النصر والغنيمة، وإما الاستشهاد فى سبيل الله الذى وراءه نعيم ليس بعده نعيم. ولكن نحن ننتظر لكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده يمحقكم كما حل بعصاة الأمم السابقة، أو بعذاب بأيدينا من أسر وقتل؛ وما دام الأمر كذلك فانتظروا إنا معكم منتظرون. ثم بيَّن سبحانه بعضا مما سيلاقيهم مما سيحزنهم حزنا شديدا فقال: قل لهم أيضا: أنفقوا ما شئتم فى الجهاد و فى الزكاة طائعين لتستروا نفاقكم.

أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ[1] ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ[2] إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ[3] إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ[4] ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ[5] وَلَا أَوْلَادُهُمْ[6] إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ[7] الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[8] ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ[9] أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ[10] فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ[11] اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ[12] ﴿٥٩﴾

المفردات: ﴿تزهق أنفسهم﴾: أصل الزهوق الخروج بصعوبة.

والمراد هنا الموت تعذيب كما فى الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥.

﴿يفرقون﴾: أى يخافون خوفا شديدًا.

﴿ملجأ﴾: حصنا يلجئون إليه.

﴿أو مغارات﴾: جمع مغارة وهى مكان فى داخل جبل، وتسمى غارًا.

﴿أو مدخلا﴾: أى سربا فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة كجحر الثعلب..

﴿يجمحون﴾: أى يسرعون فى اضطراب، مأخوذ من جموح الدابة..

﴿يلمزك فى الصدقات﴾: أى يعيبك فى توزيع الصدقات.

---

(١) فاسقين.
(٢) نفقاتهم.
(٣) الصلاة.
(٤) كارهون.
(٥) أموالهم.
(٦) أولادهم.
(٧) الحياة.
(٨) كافرون.
(٩) مغارات.
(١٠) الصدقات.
(١١) آتاهم.
(١٢) راغبون.

المعنى: وأنفقوا كارهين خوف عقوبة الرسول لكم إذا امتنعتم، فمهما أنفقتم فى الحالين فلن يقبل منكم ما أنفقتموه مادمتم خارجين عن الإيمان وما منعهم من قبول نفقاتهم شىء إلا كفرهم بالله ورسوله، وعدم إتيان الصلاة إلا فى حال كسلهم وعدم إنفاقهم إلا وهم كارهون لهذا الإنفاق فى سرائرهم، وإن كانوا فى الظاهر يوهمون أنهم راضون. وإذا كان هذا حالهم فى تخلفهم عن الجهاد حفظا لأنفسهم ولأولادهم من القتل فيه، ولأموالهم من أن تصرف فيما لا يريدون. فلا تعجبك أيها السامع أموالهم التى تعبوا فى جمعها، وحرصوا على حفظها، ولا أولادهم الذين تعبوا فى تربيتهم والحرص على صحتهم، لأن الله تعالى ما أعطاهم ذلك إلا لأنه أراد أن يعذبهم فى الدنيا بأخذ الأموال فى الزكاة والجهاد مع اعتقادهم أن لا فائدة لهم فى ذلك، وبقتل الأولاد فى الجهاد، فيقتلهم الحزن فى نهاية الأمر ويموتون وهم كافرون فيخلدون فى جهنم. ومن فضائحهم أنهم يحلفون بالله أنهم لمنكم فى الدين، أى مؤمنون مثلكم ليستروا أنفسهم، وليسوا فى الحقيقة منكم ولكنهم يفعلون ذلك لشدة خوفهم منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين من القتل والأسر وأخذ الأموال، وقد بلغ الضيق بهم أنهم أمسوا فى حالة لو يجدون معها مكانا فى أى جهة ولو فى منتهى الضيق لاحتموا به، وليس هناك أتعس من أصحاب هذه المعيشة.

ومن قبائحهم التى يقصدون بها الصد عن الإسلام بالطعن فى نبيه أن منهم فريقا يطعن عليك فى توزيع الصدقات، وذلك أنه ﷺ كان يعطى المؤلفة قلوبهم كما سيأتى. قال بعض المنافقين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله:

فإن أعطوا من الصدقات ولو بدون استحقاق رضوا، وإن لم يعطوا منها لعدم استحقاقهم يسخطوا بسرعة. ولو أنهم رضوا بما آتاهم الله وقالوا حسبنا الله أى كافينا فإذا لم نأخذ ما نريد هذه المرة فسيؤتينا من فضله قريبا ما يرضينا ويعطينا رسوله مما يرد عليه من الغنائم ونحن لا نرغب إلى غير الله فى شىء لأنه سبحانه مالك كل شىء، لو فعلوا وقالوا ذلك لكان خيرا لهم.

* إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ[1] وَٱلْعَٰمِلِينَ[2] عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ[3] وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا[4] فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ[5] أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

المفردات: ﴿الفقراء والمساكين﴾: لم يجمع القرآن بينهما إلا فى هذه الآية ويرى بعض العلماء أنهما إذا اجتمعا كما هنا كانا صنفين متغايرين كل منهما محتاج لكن أحدهما أشد حاجة.

وقد جاء الفقير مقابلا للغنى فى الآية (٦) من سورة النساء صفحة ٩٨، والآية (٣٢) من سورة النور صفحة ٤٦٢. ورأى بعضهم أنهما صنف واحد يختلف بالوصف لا بالذات، فالفقير مأخوذ من الفاقرة وهى الداهية فى الآية (٢٥) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠، والمسكين مأخوذ من السكون وهو عدم الحركة للعجز والقناعة، فهما كقولك فى الشخص الواحد أنه عالم وتاجر.

﴿العاملين عليها﴾: هم من يوظفهم الإمام على جباياتها.

﴿المؤلفة قلوبهم﴾: هم جماعة يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة للإسلام، أو كف شرهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم فى الدفاع.

﴿وفى الرقاب﴾: أى فك رقاب العبيد بشرائهم وعتقهم.

﴿والغارمين﴾: هم الذين استدانوا فى غير معصية ولا سفه وعجزوا عن السداد.

(١) والمساكين.
(٢) والعاملين.
(٣) والغارمين.
(٤) خالدا.
(٥) المنافقون.

﴿وفى سبيل الله﴾: هو كل طريق يوصل لمرضاة الله فيشمل الجهاد وغيره، انظر الآية (٢١٧) من سورة البقرة صفحة ٤٣، والآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩ وغير ذلك.

﴿وابن السبيل﴾: هو المسافر المنقطع عن بلده واحتاج إلى ما يوصله.

﴿أذن﴾: أى يصدق كل ما يسمع. فسموه لعنهم الله باسم آلة السمع مبالغة كما يسمى الجاسوس عينا.

﴿ويؤمن للمؤمنين﴾: أى لا يصدق إلا المؤمنين لصدقهم، فالتعبير كما فى الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥.

﴿يحادد الله﴾: أى يعاديه بأن يضع نفسه فى حد أى جانب والله سبحانه فى جانب كالمشاقة.

﴿يحذر المنافقون﴾: عجيب أمر هؤلاء المنافقين، إن خوفهم من أن ينزل الله تعالى ما يفضحهم يدل على إيمانهم بأن الرسول ﷺ يتلقى عن الله ما يقول، ولكن مرض النفاق متمكن منهم لا يمكنهم من إدراك طريق النجاة.

﴿نخوض﴾: أى ندخل فى أحاديث للتسلية واللعب لا نقصد جدًا.

المعنى: كما تولى سبحانه تقسيم الغنائم ليدفع عن رسوله الشبهة كما فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣، أراد سبحانه أن تقطع دسائس المنافقين فقسم زكاة الأموال بنفسه فقال: إنما الصدقات، أى الزكاة تعطى للمذكورين فقط لا تتعداهم إلى غيرهم، وللإمام حق التعميم والتخصيص حسب المصلحة.

فرض الله هذا التقسيم فريضة فليس لأحد نقضه، وقد أسقط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم لأن الإسلام قوى وليس فى حاجة إليهم، والله واسع العلم بمصالح عباده، حكيم فيما يشرع لهم.

ثم بيّن سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين وهو أن بعضهم يجرؤ على الطعن فيه ﷺ فإذا قيل له قد يبلغ ما تقول محمدا، فيقول لا تخافوا فإن محمدا أذن، أى يصدق كل ما يقال

له، وسأحلف له ما قلت فيصدقنى، يريدون أخزاهم الله أنه ﷺ حماه الله يخدع ويسهل غشه. فرد سبحانه عليهم: قل لهم أيها النبى: محمد أذن خير لكم، أى لا يسمع النميمة والشر، ومن كان كذلك فهو خير صرف لكم لو كنتم تعقلون وتكفون عن نفاقكم.

ثم بيَّن المراد بكونه أذن خير بقوله: يؤمن بالله أى يصدق بما يوحيه الله، ويصدق المؤمنين الصادقين فى إيمانهم لأنه يمنعهم من الكذب، وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا لأنه كان سبب هدايتهم. والذين يؤذون رسول الله بمثل ما تقولون لهم عذاب شديد الألم. ومن شأن هؤلاء المنافقين أنهم يعتمدون فى ستر عيوبهم على الحلف ليرضوكم عنهم وتتصرفوا عن دسهم كما فى آيتى (٤٢، ٥٦) من هذه السورة صفحتى ٢٤٨، ٢٥٠، وسيأتى فى آيات (٧٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٧) من هذه السورة صفحات ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، والآية (٢) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، والله ورسوله أحق أن يرضوه بطاعته إن كانوا مؤمنين حقا بالله الذى يحلفون به. ألم يعلم هؤلاء أنهم بعملهم هذا قد عادوا الله ورسوله، ومن يعاديهما فإن له نار جهنم خالدا فيها، وذلك هو الخزى العظيم، ولما كان المنافقون فى اضطراب فكرى كما فى الآية (٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٥، ٦، والآية (١٤٣) من سورة النساء صفحة ١٢٧ والآية (٤) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، كانوا بينما هم يسخرون فيما بينهم بالنبى ﷺ سرا يخافون أن يفضحوا ومن ذلك أن بعض من كان منهم فى غزوة تبوك قالوا فيما بينهم هل يظن محمد أنه سيفتح قصور الشام وحصونها زاعما أنهم كقبائل العرب ويتغلب عليها بسهولة؟ كلا. كلا. فقال بعضهم: كفوا لئلا يعلم ما نقول فقال الله فيهم: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة أى مجموع آيات تخبرهم بما فى قلوب المنافقين. قل لهم أيها النبى استهزئوا ما شئتم فإن الله سيظهر ما تخافون من إظهاره، ولئن سألتهم عما قالوا وكيف قالوه ليقولن اعتذار أقبح من الذنب: إنما كنا نخوض فى حديث للتسلية لا نقصد جدا.

المفردات: ﴿ويقبضون أيديهم﴾: أصله ضمّ أصابع اليد إلى باطن الكف، وكنى به عن الامتناع عن الإنفاق فى الخير كالجهاد، انظر الآية (٧) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ[1] وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ[2] إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ[3] وَالْمُنَافِقَاتُ[4] بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ[5] هُمُ الْفَاسِقُونَ[6] ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ[7] وَالْمُنَافِقَاتِ[8] وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ[9] فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا[10] وَأَوْلَادًا[11] فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ[12] فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ[13] كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ[14] وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ[15] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

﴿نسوا الله﴾ المراد نسوا إطاعة أوامر الله فكأنهم نسوه.

﴿فنسيهم﴾: المراد عاملهم بالمثل، فترك رحمتهم وجعلهم كالشىء المنسى المهمل.

﴿فاستمتعوا﴾: أى ازدادوا فى التمتع.

﴿بخلاقهم﴾: أى نصيبهم من حظوظ الدنيا، أنظر الآية (٢٠٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠.

﴿وخضتم﴾: أى دخلتم فى الباطل.

﴿حبطت﴾: بطلت.

المعنى: كنا نلعب ونتلهى لنسهل قطع الطريق بالمداعبة. ولما كان قولهم هذا يتضمن استهزاء قال: قل لهم هل ضاقت عليكم سبل التسلية فلم تجدوا إلا التسلية والاستهزاء بالله

(١) وآياته.
(٢) إيمانكم.
(٣) المنافقون.
(٤) والمنافقات.
(٥) المنافقين.
(٦) الفاسقون.
(٧) المنافقين.
(٨) والمنافقات.
(٩) خالدين.
(١٠) أموالا.
(١١) وأولادا.
(١٢) بخلاقهم.
(١٣) بخلاقكم.
(١٤) بخلاقهم.
(١٥) أعمالهم.

وآياته المنزلة الدالة على نصرته للمؤمنين وبالرسول فى أعماله ؟ وقل لهم أيها النبى: إن الله يقول لكم لا تشتغلوا بالاعتذارات الباطلة فإنها لا تنفعكم بعد أن أظهرتم الكفر بالطعن فى الرسول وفى وعد الله له بعد أن كنتم تظهرون الإيمان، فإن نعف عن طائفة منكم بسبب إخلاصها فى التوبة فإنا سنعذب من لم يتب منكم بسبب إصرارهم على الجرائم.

ولما تقدم أنه سبحانه كذبهم فى حلفهم أنهم منكم بيَّن سبب أنهم ليسوا من المسلمين فقال: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم...﴾ إلخ؛ أى أن أهل النفاق رجالاً ونساءً متشابهون فيه كتشابه أبعاض أى أجزاء الشىء الواحد. ثم بيَّن وجه هذا التشابه بقوله: يأمرون بالمنكر كالكذب والخيانة والحلف زورا والغدر وكل ما تنكره العقول السليمة، وينهون عن المعروف كالجهاد والصدق والإخلاص لله وغير ذلك من كل ما تعارف الناس على حسنه، ويقبضون أيديهم عن البذل فى وجوه الخير لأنهم نسوا أوامر الله، فعاقبهم بجعلهم كالمنسيين الذين لا ينظر إليهم بعطف ولا رحمة؛ وذلك لأن المنافقين هم وحدهم الخارجون على أوامر الله بمكر وخداع حتى كأنه لا فاسق سواهم.

ثم بيَّن سبحانه عاقبتهم فقال قارنا لهم مع الكفار المجاهدين: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها﴾ وهى كافيتهم فى العذاب الشديد. وقرن ذلك بلعنته التى لا يرجى معها رحمة، ولهم بعد نار جهنم عذاب دائم آخر من زمهرير، أو ماء يشوى الوجوه، أو أكل من شجرة الزقوم كما فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥، والآية (٦٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١. ثم خاطب المنافقين مباشرة فقال: ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلخ، أى أنتم مثل مَنْ قبلكم من الأمم المهلكة الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولادًا فتمتعوا تمتعا كاملا بكل نصيبهم من ملاذ الدنيا، فاستمتعتم أنتم أيضا مثلهم ولم تفضلوا عنهم بشىء، وخضتم فى الباطل كالخوض الذى خاضوه. أولئك بطلت كل أعمالهم التى كانوا يظنونها تنفعهم فى الدنيا، لأن ضررها كان أكثر من نفعها وذهبت عليهم عبثا، وفى الآخرة لأنها لم تمنع عنهم العذاب الأليم، أى وسيكون جزاؤكم مثلهم لأنكم أقل منهم فى كل ما ذكر من قوة وغيرها.

وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ

المفردات:- ﴿قوم نوح﴾: إلخ؛ تقدم بعض ما حل بهم فى الآية (٥٩) وما بعدها من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢ وما بعدها. وبعضه فى غير الأعراف.

﴿المؤتفكات﴾: جمع مؤتفكة كما فى الآية (٥٣) من سورة النجم صفحة ٧٠٤، وهى قرى قوم لوط عليه السلام، والكلمة من الائتفاك وهو الانقلاب الذى حدث بالخسف.

﴿البينات﴾: البراهين والمعجزات الواضحات.

﴿عدن﴾: أصل معنى عدن فى اللغة الإقامة يقال عدن فى المكان على وزن ضرب وقعد أى أقام واستقر فيه فالمراد هنا جنات خلود. وهو اسم لقسم من أقسام الجنة كالفردوس.

المعنى: وأولئك المنهمكون فى لذة الدنيا الغافلون عن الآخرة، هم وحدهم الخاسرون لكل خير وخسارتهم ليس بعدها خسارة، ثم وبخ سبحانه من نزلت فيهم هذه الآيات السابقة من الكفار والمنافقين فى عهده بتقريعهم وتذكيرهم بمن ضل قبلهم من الأقوام وما حل بهم نتيجة ضلالهم فقال: ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وقد أغرقناهم، وعاد الذين أخذتهم

---

(١) الخاسرون. (٢) إبراهيم. (٣) وأصحاب.
(٤) والمؤتفكات.. (٥) بالبينات. (٦) والمؤمنات.
(٧) الصلاة. (٨) الزكاة. (٩) والمؤمنات.
(١٠) جنات. (١١) الأنهار. (١٢) خالدين.
(١٣) ومساكن. (١٤) جنات. (١٥) ورضوان.
(١٦) جاهد. (٢٧) ومأواهم.

الريح العقيم، وثمود وقد أخذتهم الصيحة، وقوم إبراهيم الذين أهلكوا هم وزعيمهم نمرود، وأصحاب مدين الذين أخذتهم الرجفة. والمؤتفكات وقد جعل قريتهم عاليها سافلها. فعلنا بهم كل هذا بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات فأعرضوا عنها، وما كان الله ليظلمهم، فقد حذرهم ولكنهم أصروا على ظلم أنفسهم بجحودهم وعنادهم، فأنتم إذا أصررتم على كفركم وعنادكم ستكونون فى الشقاء مثلهم، لأن سنة الله وعدله لا يتغيران.

وكما أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فكذلك المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بالمحبة والنصرة والمودة، فكلهم يأمرون بكل خير وينهون عن كل منكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله فيما أمر به فى كتابه والرسول فيما أرشد إليه فى سنته فأولئك سيرحمهم الله برحمته الخاصة المبينة فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، فيوفقهم للخير فى الدنيا، ويجزل لهم العطاء فى الآخرة، لأنه سبحانه عزيز أى قوى غالب لا يعجزه شىء أراده، حكيم فى قضائه وحكمه وتصرفاته ثم بيَّن سبحانه شيئا مما سيرحمهم به فقال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن﴾ أى قصورا وغرفا من فوقها غرف كما فى الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩ تطيب الإقامة فيها.

هذه المساكن فى جنات الخلد. كما أن لهم فيها نعيما روحانيا هو رضا عظيم من الله، فليس هنا أسعد عند النفوس من نعيم تشعر معه أن المنعم به سبحانه راض عنها. وفسره بعضهم بأنه النظر إلى وجهه الكريم، وذلك النعيم بقسميه الجسمانى والروحانى المعد للمؤمنين والمؤمنات هو الفوزالعظيم الذى لا فوز بعده. ثم هدد المنافقين وأنذرهم بالجهاد كالكافرين المجاهرين إذا استمروا على نفاقهم فقال: يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين، أى ابذل جهدك فى مقاومة شر الفريقين اللذين يخالطون المؤمنين ولا تؤمن غائلتهم فعاملهم بالغلظة والشدة المناسبة لسوء حالهم. وجهاد الكفار بالسيف أى الحرب، وجهاد المنافقين بإقامة حدود الله عليهم إذا ظهر منهم أسبابها بدون قبول عذر منهم، وفضحهم، وعدم الصلاة على من يموت منهم، ومنعهم من الخروج مع المسلمين فى الجهاد، إلى غير ذلك مما يؤلم النفس ويحز فيها، ويجعلها ذليلة بين قومها، وفى الآخرة مأواها جهنم، وقبحت جهنم مصيرا.

الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ(١) وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ(٢) اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ(٣) اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا(٤) مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥) ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ(٦) مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ(٧) وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ(٨) الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ(٩) وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

المفردات:- ﴿قالوا كلمة الكفر﴾: هو قول بعضهم لئن كان محمد صادقا فيما يقول عنا فنحن شر من الحمير.

﴿وهموا بما لم ينالوا﴾: هو همهم بقتله ﷺ، كما سيأتى بيانه.

﴿وما نقموا﴾: أى كرهوا وعابوا من نقم ينقم من باب ضرب يضرب.

﴿يلمزون﴾: اللمز الطعن مع الاستخفاف كما تقدم فى الآية (٥٨) من هذه السورة صفحة ٢٥٠.

﴿فى الصدقات﴾: أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين فى أمر صدقاتهم.

المعنى: أراد سبحانه بيان سبب الأمر بجهادهم، وهو أنهم يقولون الكلمة الدالة على الكفر، فإذا سئلوا أنكروا وحلفوا ما قالوا؛ وأنهم أظهروا الكفر بعد أن كانوا لا يظهرون إلا الإسلام وأنهم هموا بما لا يمكن أن ينالوه وهو اغتياله ﷺ فى أثناء رجوعه من تبوك، وذلك أن الطريق كان به ممر قصير المسافة ولكنه ضيق وفوق جبل عال، فلما وصل إليه ﷺ أراد أن يختصر الطريق ويترك بقية الجيش يسير ببطن الوادى وهو طريق واسع لكنه طويل، فبينما هو ﷺ فى وسط هذا الممر والليل مظلم وإذا برجال يسرعون بإبلهم يريدون مزاحمة ناقته ﷺ حتى تقع من سفح الجبل، فأعلمه الله تعالى أمرهم قبل أن يصلوا إليه، ولم يكن معه سوى حذيفة ابن اليمان وعمار بن ياسر، فأمر ﷺ حذيفة أن يردهم عنه، فرجع بعصاه وصار يضرب وجوه

(١) إسلامهم. (٢) أغناهم. (٣) عاهد.
(٤) آتانا. (٥) الصالحين. (٦) آتاهم.
(٧) ونجواهم. (٨) علام. (٩) الصدقات.

الإبل وكانت نحو عشرة، ففزعوا وظنوا أن مكرهم قد افتضح، فأسرعوا حتى اختلطوا بالناس فقال ﷺ لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال: لا، لأنهم كانوا ملثمين والليل مظلم، ولكنى عرفت إبلهم، وهى ناقة فلان وناقة فلان، فقال ﷺ: ما كانوا يريدون؟ إنهم كانوا يريدون قتلى، وسمّاهم له، فقال: ألا تأذن لنا يا نبى الله فنضرب أعناقهم؟ فقال ﷺ: لا تفعلوا لئلا يتحدث الناس أن محمدا شرع يقتل أصحابه، وأمره ألا يبوح بأسمائهم لأحد، ومنه سمى حذيفة صاحب السر. وما نقم هؤلاء المنافقون على الإسلام لشىء إلا لأن الله أغناهم بسببه من فضله، والرسول أغدق عليهم من الغنائم، فالكلام من قبيل قولك مالى عند فلان ذنب إلا أنى أحسنت إليه، أى ليس لكراهيتهم سبب، بل الأسباب، متوفرة لحبه، فإن يتوبوا عن النفاق والجرائم يكن ذلك المتاب خيرا لهم، وإن يتولوا ويعرضوا عما دعوا إليه من التوبة يعذبهم عذابا أليما فى الدنيا والآخرة، كما تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٥٠ وما سيأتى فى آيتى (٨٥، ١٠١) من هذه السورة أيضا صفحتى ٢٥٦، ٢٥٩، ومالهم فى الأرض كلها أقل ولى يتولى أمورهم ويخفف عنهم، ولا نصير يدفع العذاب عنهم. ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله تعالى وأقسم لئن آتاهم الله من فضله مالا كثيرا ليشكرن نعمته بالصدقة والأعمال الصالحة، فلما آتاهم الله من فضله ما طلبوا بخلوا به وانصرفوا عن طاعته والحال أنهم مصممون على الإعراض مبالغون فيه على عادتهم، فجعل الله عاقبة أمرهم نفاقا راسخا فى قلوبهم لا يفارقها إلى يوم لقائه فى الآخرة وذلك بسببين؛ الأول: أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، والثانى: أنهم كانوا مستمرين على الكذب حتى استحال عليهم تركه، وأقبح أنواع الكذب حال المنافق؛ لأن باطنه يكذب ظاهره. ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم سرهم الكامن فى نفوسهم وما يتناجون به فيما بينهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فى الآية (٩) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦، لأنه سبحانه واسع العلم بكل غيب، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ومن فظائع هؤلاء المنافقين أنهم لا يكتفون ببخلهم بل تعدوه إلى ذم المؤمنين المتطوعين فى أمر صدقاتهم وذلك إن النبى ﷺ حث أصحابه يوما على الصدقة فجاء رجال بأموال كثيرة، فقال المنافقون فيما بينهم: والله ما جاء هؤلاء إلا رياء، وجاء رجال فقراء بقدر ضئيل على قدر طاقتهم، فقال المنافقون: إن الله عن صدقة هؤلاء لغنى.

المفردات: ﴿جهدهم﴾: طاقتهم.

﴿سخر الله منهم﴾: أى جازاهم على سخريتهم بما تستحق.

﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[1] ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ[2] رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا[3] بِأَمْوَالِهِمْ[4] وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا[5] مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ[6] ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾

﴿المخلفون﴾: الذين خلفهم الشيطان وكسلهم. ﴿بمقعدهم﴾: أى قعودهم.. ﴿خلاف رسول الله﴾: أصل خلاف مصدر خالف واستعمل ظرفا بمعنى بعد، كما فى الآية (٧٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، ويصح المعنيان هنا على أن يكون المصدر حالا بمعنى مخالف. ﴿لا تنفروا﴾: أى لا تسرعوا فى الخروج مع محمد. ﴿رجعك الله﴾: رجع يستعمل لازما بمعنى عاد كما فى الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة (٢١٦)، ومتعديا بمعنى أرجع كما فى الآية ٤٠ من سورة طه صفحتى (٤٠٨، ٤٠٩)، وما هنا من الثانى.

﴿الخالفين﴾: الخالف هو المتخلف عن غيره.

المعنى: ويسخرون من المؤمنين الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا المال القليل. فجازاهم الله تعالى بأن جعلهم سخرية للمؤمنين والناس أجمعين بفضيحة لهم فى هذه السورة بما لم يسبق له مثيل، حتى قال بعض الصحابة: إن من أسماء السورة (الفاضحة)، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم، وكان لعبدالله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ولد صالح مخلص فى إيمانه هو عبد الله بن عبدالله بن أبى ومرض ابن سلول فجاء ولده عبدالله يطلب من النبى صلوات الله عليه أن يستغفر له، وكان ﷺ رقيق القلب رحيما كما وصفه ربه فى آخر هذه السورة، وكان كلما اشتد به إيذاء قومه يقول: اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. فلما استغفر ربه لعبد الله بن سلول، والله وحده هو الذى يعلم أنه سبب كل بلية، وأن لقبول الاستغفار شروطا بينتها الآية (٦٤) من سورة النساء صفحة ١١١، والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، قال سبحانه استغفر لهم أو لا تستغفر إلخ، أى استغفارك وعدمه سواء، فمهما

(١) الفاسقين. (٢) خلاف. (٣) يجاهدوا. (٤) بأموالهم. (٥) تقاتلوا. (٦) الخالفين.

أكثرت منه فلن أغفر لهم، فالتعبير بسبعين مرة كناية عن الكثرة بدون حد..ثم بيّن سبحانه عدم المغفرة بقوله: ذلك بأنهم أى بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، والله تعالى لا يهدى الكافر الخارج عن الإيمان به تعالى المصمم على ما هو عليه.

ثم شرع سبحانه فى بيان حال فريق من المنافقين وهم المتخلفون عن الغزوة كما تقدم وبيان ما يجب أن يعاملوا به بعد الرجوع إلى المدينة، ونزلت هذه الآيات فى أثناء السفر، فقال: فرح الذين منعهم الشيطان عن السفر بقعودهم فى بيوتهم بعد سفر رسول الله أو حال كونهم مخالفين رسول الله بقعودهم هذا، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لاعتقادهم أنه لا مصلحة لهم فى ذلك ولبعد شقة السفر، وقالوا تثبيطا لمن أراد الخروج: لا تخرجوا مع محمد فى الحر الشديد، قل لهم أيها النبى إذا خفتم من حر الدنيا فنار جهنم أشد حرا، فكيف لا تخافون منها لو كنتم تعلمون حقيقة الأمر، فالأولى بهم أن يضحكوا قليلا وسيبكون كثيرا، فهو أمر بمعنى الخبر، أى أن ضحكهم وفرحهم بتخلفهم قليل جدا بالنسبة لبكائهم مما أعد لهم من العذاب جزاء ما استمروا على اكتسابه من الخبائث. فإن أرجعك الله إلى طائفة من المنافقين المتخلفين، وإنما قال طائفة لأن من المتخلفين من كان صادق العذر، ومنهم من تاب كالثلاثة الآتى ذكرهم فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢. فاستأذنوك أيها النبى للخروج إلى غزوة أخرى يظنونها سهلة كثيرة المغانم، أو إلى غير الغزو كحج مثلا كما قال أمثالهم فى الآية (١٥) من سورة الفتح صفحة ٦٨٠، فقل لهم أيها النبى: لن تخرجوا معى أبدا، لأن الله تعالى نبهنى لخطركم فى الآية ٤٧ المتقدمة صفحة ٢٤٩، ولن تقاتلوا معى عدوا ولو هجم علينا فى ديارنا كما حصل فى غزوة الخندق الآتى ذكرها فى سورة الأحزاب، ولأنكم رضيتم لأنفسكم بعار القعود أول مرة دعيتم فيها دعوة خاصة لغزوة شاقة كما تقدمت الإشارة إليه وكما سيأتى فى الآية (١١٧) من هذه السورة صفحة ٢٦٢، فاقعدوا مع المتخلفين من العجزة والنساء والصبيان الذين لا يكلفون شرف الدفاع.. ولما مات ابن سلول المتقدم الحديث عنه طلب ابنه عبدالله من النبى ﷺ أن يصلى عليه ظانا أن ذلك ينفع والده، وليتقى بذلك احتقار الناس لأبيه، فأراد ﷺ أن يصلى عليه، فمنعه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال ﷺ: دعنى يا عمر فقد يكون ذلك سبباً فى إيمان كثير من قومه، فأنزل الله سبحانه: ولا تصل أيها النبى على أحد من المنافقين مات أبدًا إلخ، وكان ذلك من المواضع

مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ[1] ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ[2] وَأَوْلَٰدُهُمْ[3] ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ[4] ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟[5] مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ[6] أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ[7] ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟[8] بِأَمْوَٰلِهِمْ[9] وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ[10] ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ[11] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[12] خَٰلِدِينَ[13] فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ

التى وافق فيها الوحى رأى عمر كما تقدم فى أسرى بدر، انظر الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

المفردات: ﴿أولو الطول﴾: أى أصحاب القدرة على الجهاد بالنفس والمال.

﴿مع الخوالف﴾: جمع خالفة، وهى المرأة لأنها تتخلف عما من شأنه أن يخص الرجال من الأعمال الشاقة، كما قال فى النساء الكبيرات: قواعد، انظر الآية (٦٠) من سورة النور صفحة ٤٦٨.

﴿وطبع على قلوبهم﴾: أى أغلقت عن قبول الصواب.

﴿المعذرون﴾: أى المعتذرون، والمراد هنا بعذر صحيح بدليل المقابلة. ﴿من الأعراب﴾: هم سكان البادية وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه، وينسب إليه الواحد فيقال أعرابى. ﴿وقعد الذين كذبوا﴾: هم قوم من منافقى الأعراب لم يسافروا ولم يعتذروا.

---

(١) فاسقون.
(٢) أموالهم.
(٣) وأولادهم.
(٤) كافرون.
(٥) وجاهدوا.
(٦) استأذنك.
(٧) القاعدين.
(٨) جاهدوا.
(٩) بأموالهم..
(١٠) الخيرات.
(١١) جنات.
(١٢) الأنهار.
(١٣) خالدين.

المعنى: ولا تقم على قبر واحد منهم للدفن أو للدعاء له، لأنهم كفروا بالله ورسوله، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان ولما كان من البواعث على تخلف المنافقين هو الحرص على أولادهم من القتل في الجهاد، وعلى أموالهم أن تضيع فيه.

قال سبحانه: ولا تعجبك أيها السامع أموالهم ولا أولادهم إلخ، وأعاد سبحانه ما تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٥٠، لأن المنافقين هنا نوع غير المتقدم هناك.

ثم بَيَّن سبحانه حالهم التى تؤيد ما تقدم وما يقابلها من حال المؤمنين الصادقين، فقال: وإذا أنزلت سورة أى جملة آيات من القرآن منادية بأن أخلصوا إيمانكم أيها المنافقون وجاهدوا مع رسوله بأنفسكم وأموالكم استأذنك فى التخلف عن إجابة الدعوة أصحاب القدرة منهم وقالوا لك أيها النبى ذرنا أى أتركنا مع القاعدين أرباب الأعذار كالنساء والعجزة والصبيان. رضوا لأنفسهم أن يكونوا فى حكم النساء وطبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك لا يفقهون ما يضر وما ينفع، وما يشرف وما يخزى؛ لكن الرسول والذين آمنوا معه بإخلاص قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وأولئك لهم الخيرات كلها فى الدنيا كالنصر على الأعداء والعز والغنيمة، وفى الآخرة كالجنة وما فيها، وأولئك هم وحدهم الفائزون. فهذه الآية وما قبلها من قبيل الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦. ثم بين سبحانه بعض هذه الخيرات فقال: أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار الخ ما تقدم فى الاية (٧٢) من هذه السورة صفحة ٢٥٣.

وبعد ما بين سبحانه حال منافقى الحضر شرع فى بيان حال رجال البادية فقال: وجاء المعذرون إلخ، أى وجاء قوم من الأعراب يعتذرون عن غزوة تبوك ليأذن لهم ﷺ، وقعد المنافقون منهم الذين كذبوا الله ورسوله فلم يسافروا ولم يعتذروا، سيصيب الكافرين من هؤلاء الأعراب وهم القسم الثانى عذاب شديد الإيلام.

المفردات: ﴿الضعفاء﴾: هم الشيوخ الذين أعجزهم الكبر والصبيان والنساء.

﴿حرج﴾: أى إثم وذنب.

﴿نصحوا لله﴾: أى أخلصوا فى إيمانهم وفى طاعتهم، نصحوا غيرهم بالجهاد ومحاربة شائعات العدو.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ[2] ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ[3] فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ

﴿ما على المحسنين﴾: المراد بالإحسان هنا هو النصح لله ولرسوله والإخلاص فى العمل.

﴿من سبيل﴾: من هنا لتأكيد النفى، وأصل معنى التركيب ليس هناك طريق للعتاب يمر عليهم والمراد لا عتاب عليهم ولا مؤاخذة.

﴿قلت لا أجد﴾: هذه الجملة حال منتظر بتقدير حرف (قد) قبل قلت ليصح الحال والمعنى إذا ما أتوك فى الحال الذى قلت لا أجد تولوا (فتولوا) هو جواب إذا، ومثل حال المنتظرة فى القرآن فى قوله تعالى:

﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾.

فخالدين حال يسمونها حالا مقدرة وتقدير حرف قد كثير فى كلام العرب.المعنى: أراد سبحانه أن يبين الأعذار المقبولة بالتفصيل ليعلم منها بطلان غيرها، وخص بالذكر شر غيرها وهو اعتذار الأغنياء.

فقال: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون على الجهاد ولا على عيالهم إذا خرجوا وتركوهم بلا زاد حرج ولا مسئولية فى عدم الجهاد، إذا أخلصوا لله فى الإيمان، وللرسول فى الطاعة والأمانة، لأنه ليس على مَنْ أحسن النصح لله والإخلاص لرسوله لوم ولا عتاب؛ لأن إخلاصه يمنعه من التقصير. والله تعالى غفور لمن

(١) يستأذنوك.
(٢) عالم.
(٣) والشهادة.

قصر لا عن تعمد، رحيم بعباده المخلصين ثم ذكر سبحانه بعض هؤلاء المحسنين لما امتازوا به من علامات الإخلاص.

فقال: ﴿ولا على الذين﴾ إلخ، أى ولا لوم فى التخلف على الذين إذا أتوك لتحملهم، أى لتعطيهم ما يحملهم من الإبل أو غيرها ليسافروا معكم للجهاد، وقلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه من الركائب، انصرفوا عن مجلسك وأعينهم تفيض دمعا حزنا على عدم قدرتهم على شراء ما يحملهم، وكان عدد هؤلاء سبعة رجال أطلق عليهم الصحابة بعد نزول هذه الآية ﴿البكاءون﴾ وهذا أجّل مظهر للفرق بين المنافق والمؤمن الصادق، فهؤلاء لا لوم عليهم، إنما اللوم على الذين يستأذنونك فى التخلف وهم أغنياء قادرون على ما يلزم المجاهد، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون، تقدم شرحها فى الآية (٨٧) من هذه السورة صفحة ٢٥٦، وإنما أعادها لزيادة توبيخهم وإبرازهم فى صورة النساء، وهذا أشد من الصاعقة على نفس العربى.

ثم أراد سبحانه أن يبين ما سيكون من هؤلاء المنافقين المتخلفين بعد رجوعه ﷺ إلى المدينة فقال: ﴿يعتذرون إليكم﴾ أى سيقدم إليكم هؤلاء الأغنياء المتخلفون بلا عذر أعذارا كاذبة إذا رجعتم من سفركم، قل لهم أيها النبى: لا تعتذروا بالباطل فإنا لن نؤمن لكم، أى لن نصدقكم، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥، قد نبأنا الله تعالى بعض أخباركم التى فيها كلام صدر منكم، وإنكم منافقون كاذبون فى اعتذاركم، وسيرى الله تعالى ورسوله بعد الآن أعمالكم وهل تتوبون أم تصرون على نفاقكم، فاحترسوا لأنكم ستردون فى الآخرة إلى الله الذى يستوى فى علمه ما خفى وما ظهر، فينبئكم بما استمررتم على عمله فى الدنيا ويجازيكم عليه.

المفردات: ﴿انقلبتم إليهم﴾: أصل معنى انقلب تحول من جهة إلى أخرى، والمراد رجعتم.

﴿رجس﴾: أى قذر معنوى كما تقدم فى الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥.

﴿مأواهم جهنم﴾: أى مكانهم الذى يأوون إليه.

بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴿٩٥﴾ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿٩٦﴾ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴿٩٧﴾ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴿٩٨﴾ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم ﴿٩٩﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين

﴿وأجدر﴾: أى أحق وأولى.

﴿حدود ما أنزل الله﴾: هى أحكامه من أوامر ونواهى، انظر الآية (١٣) من سورة النساء صفحة ١٠٠، والآية الأولى من سورة الطلاق صفحة ٧٤٨.

﴿مغرما﴾: أى غرما وهو ما يكره المرء أداءه ويعتبره غرامة له. ﴿ويتربص﴾: أى ينتظر.

﴿الدوائر﴾: جمع دائرة، وهى ما يدور به الزمان من المصائب التى تحيط بالإنسان فيشتد لها ألمه. ﴿السوء﴾: هو كل ما يسوء من الشر، انظر الآية (٢٨) من سورة مريم صفحة ٣٩٩.

﴿قربات﴾: جمع قربة، والمراد هنا التقرب إلى الله. ﴿وصلوات الرسول﴾: أى دعاؤه.

﴿ألا إنها﴾: ألا كلمة تنبه السامع لأهمية ما بعدها، والهاء ضمير يعود على النفقة المأخوذة من (ينفق).

المعنى: سيؤكدون لكم أعذارهم بالأيمان الكاذبة عند رجوعكم من السفر لأجل أن تعرضوا عن توبيخهم، فأعرضوا عنهم إعراض إهانة واحتقار لا إعراض صفح كما كانوا يطلبون لأنهم رجس، فيجب البعد عنهم لاستحالة إخلاصهم ماداموا مصممين على النفاق، وملجؤهم فى الآخرة جهنم جزاء ما استمروا على عملة فى الدنيا. ثم بيّن سبحانه غرضا آخر لحلفهم غير مجرد الاعتذار فقال: يحلفون لكم لترضوا عنهم فتديموا معاملتهم السابقة بظاهر إسلامهم ليستروا فضيحتهم وينتفعوا بما ينتفع به المؤمنون، فإن ترضوا عنهم فرضا بعد علمكم بحالهم

(١) ومأواهم. (٢) الفاسقين. (٣) قربات.
(٤) صلوات. (٥) والسابقون. (٦) المهاجرين.

فلن ينفعهم ذلك، لأن النافع هو رضا الله تعالى، والله لا يرضى عن الفاسقين، ثم شرح سبحانه فى بيان حال الأعراب المنافق منهم، والكافر المجاهر، والمؤمن، فقال: ﴿الأعراب أشد كفرا﴾ إلخ؛ أى كافرهم أشد فى الكفر من كافر الحضر؛ لأنهم أغلظ طبعا وأقسى قلبا، والمنافق منهم أشد نفاقا من منافقى الحضر لصفاء أذهانهم وقوة بيانهم، وهذه صفات تساعد على إتقان النفاق.

وجميع الأعراب أولى من أهل الحضر بالجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله لبعدهم عن أهل العلم ورواة السنة، والله عليم بأحوال أهل الحضر والبادية، حكيم فى مجازاة كل بقدر ذنبه. ولما تقدم فى الآية (٩٠) من هذه السورة صفحتى ٢٥٦، ٢٥٧ بيان حال المعتذرين من الأعراب أراد أن يبين حال مَنْ أنفق منهم فى الجهاد خوفا من افتضاح امره، فقال: ﴿ومن الأعراب من يتخذ﴾ إلخ، أى يعتبر ما ينفقه خوفا من المؤمنين غرامة ثقيلة عليه دفعها، وينتظر أن تحل بكم المصائب ليتخلص منكم، ألا فليعلم هؤلاء أن المصائب التى تسوء وتؤذى ستحل بهم وحدهم؛ لأن الله تعالى سميع لأقوالهم المنكرة، عليم بخبث قلوبهم الذى يستوجب حلول المصائب.

ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعتبر ما ينفقه فى سبيل الله، وسيلة لأمرين عظيمين: الأول التقرب عند الله والثانى دعاء الرسول المستجاب له بالبركة والمغفرة؛ ألا إن نفقتهم ستكون قربة لهم. وهذا وعد منه تعالى بقبوله قربانهم، وهو يتضمن إجابة دعاء الرسول لهم ثم فسر سبحانه ما وعد به فقال: سيدخلهم الله فى مكان رحمته وهى الجنة، إنه سبحانه غفور لمن يخلص فى أعماله ما قد يقع منه من تقصير، رحيم بهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم. ثم شرع سبحانه فى تقسيم المؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبادية فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ وهم الذين آمنوا قبل الهجرة.

وكان المسلمون ضعافا، ويلحق بهم فى الحكم كل مَنْ جاهد بإخلاص لنصرة دين الله فى أوقات محنته، وناله ما نالهم من أشد أنواع البلاء، انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤.

اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴿١٠٠﴾ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴿١٠١﴾ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴿١٠٢﴾ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم ﴿١٠٣﴾ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴿١٠٤﴾ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

المفردات: ﴿مردوا﴾: مرد على الشىء بوزن نصر مرودا إذا مرن عليه واعتاده حتى يتعذر عليه تركه.

﴿سنعذبهم مرتين﴾: إحداهما بالمصائب والفضائح، والثانية عند الموت، انظر ما تقدم فى الآيات (٥٥، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٨٢، ٨٣) من هذه السورة صفحات ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، والآية ٥٠ من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥. ﴿تطهرهم﴾: من دنس البخل والذنوب.

﴿وتزكيهم﴾: تنمى فى نفوسهم فعل الخير.

﴿وصل عليهم﴾: أى ادع لهم.

﴿سكن لهم﴾: أصل السكن سكون النفس واطمئنانها وأطلق على الصلاة مبالغة كأنها هى نفس الاطمئنان، والمراد أنها سبب اطمئنان.

المعنى: إن بعد السابقين فى المنزلة هؤلاء الذين اتبعوهم متحلين بإحسان إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم بأن تكون جميعها كاملة؛ هؤلاء جميعا رضى الله عنهم بسبب إحسان أعمالهم، ورضوا عنه بما أنعم عليهم فى الدنيا والآخرة، وهيأ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.. وبعدما بَيَّن سبحانه حال كاملى الإيمان أراد أن يبين أضدادهم ومردة المنافقين من أهل الحضر والبادية فقال: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾ منافقون مثلهم، الجميع بلغوا غاية النفاق، لا

(١) بإحسان. (٢) جنات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين. (٥) منافقون.
(٦) وآخرون. (٧) صالحا. (٨) أموالهم (٩) صلواتك. (١٠) الصدقات.

تعرفهم أيها النبى لشدة حرصهم، فهم أتقن للنفاق ممن فى آيتى (٢٩، ٣٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٦. نحن نعرفهم، سنعذبهم مرتين فى الدنيا بالعذاب الظاهر والباطن، ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب عظيم وهو الدرك الأسفل فى جهنم كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨. وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون ليسوا من المنافقين ولا من السابقين الأولين ولا من الذين اتبعوهم بإحسان بل من المؤمنين المذنبين، وكانوا سبعة، فلما رجع ﷺ أعلنوا عن توبتهم بربطهم أنفسهم فى أعمدة المسجد وأقسموا أن لا يفكهم أحد غيره ﷺ.

فلما رآهم النبى ﷺ قال: لا أفعل حتى يأذن لى الله فيهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأطلق سراحهم، هؤلاء اعترفوا بذنوبهم التى منها التخلف عن الغزوة بدون عذر، ولم يكذبوا كالمنافقين، وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، أى جمعوا بينهما، لكنهم خائفون من ربهم، وليسوا مصرين على معصيتهم؛ لذلك كانوا محل رجاء قبول توبتهم؛ لأن الله تعالى غفور لمن تاب، رحيم بمن يحسن توبته، انظر الآية (٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، و(٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، و(٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨. خذ أيها النبى من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم ومن سائر المؤمنين صدقة من الزكاة الواجبة أو التطوع لتكون سببا فى تطهيرهم من النقائص وتزكيتهم فى فعل الخيرات، واسأل الله تعالى لهم دوام التوفيق والبركة، لأن دعاءك مطمئن لقلوبهم فى أن الله تعالى قبلهم، والله سبحانه سميع لدعائك عليهم بما فيه مصلحتهم فيجيبه لهم، ألم يعلم أولئك التائبون والمؤمنون كافة أن الله تعالى هو يقبل التوبة متجاوزًا عن ذنوب عباده المخلصين فى توبتهم؟ وهذا تحريض لهم على التوبة النصوح، ويتقبل الصدقات ويثيب عليها، وأنه سبحانه كثير قبول التوبة بعد التوبة مهما تكررت بتكرار الذنب، الرحيم بفتح باب الأمل وإغلاق باب اليأس. فخذ منهم الصدقة وقل لهم اعملوا لدنياكم وآخرتكم كل ما تستطيعون من الخير، فإن الله يرى عملكم خيرآ كان أو شرا، فراقبوه، وسيراه رسوله فيشهد لكم أو عليكم، كما فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ[1] الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[2] فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ[3] مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[4] ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ[5] عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ[6] خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ[7] عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[8] ﴿١٠٩﴾

المفردات: ﴿الغيب والشهادة﴾: يطلق الغيب على كل ما غاب عنا، والشهادة على ما حضر.

﴿مرجون لأمر الله﴾: أى مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فى شأنهم.

﴿مسجدا ضرارا﴾: هو المسجد الذى بناه المنافقون فى ضواحى المدينة ليدبروا فيه الكيد للمسلمين والإضرار بهم.

﴿إرصادا﴾: أى انتظارا وترقبًا لقدوم الكافر أبى عامر الراهب كما سيأتى.

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾: هو مسجد قباء الذى بناه رسول الله ﷺ أول يوم دخل فيه المدينة مهاجرا.

﴿أن يتطهروا﴾: يبالغون فى الطهارتين المعنوية والحسية وربما كانوا يحافظون على الاستنجاء بالماء..

﴿بنيانه﴾: أصل البنيان مصدرا كالغفران وأريد به هنا الشىء المبنى، وهو المسجد.

﴿شفاء﴾: أى طرف كما فى الاية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩، ٨٠.

﴿جرف﴾: هو البئر غير المبنى أو الحفرة.

﴿هار﴾: أى متصدع آيل للسقوط

(١) عالم.
(٢) والشهادة.
(٣) وآخرون.
(٤) لكاذبون.
(٥) بنيانه.
(٦) ورضوان.
(٧) بنيانه.
(٨) الظالمين.

المعنى: ويرى عملكم المؤمنون أيضا فيشهدون لكم ويعاملونكم بحسبها، وفى النهاية ستردون بالبعث إلى الله الذى يستوفى فى علمة الغائب والحاضر فيخبركم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه ومن تأخروا عن الغزوة آخرون آخر الله البت فى أمرهم إلى أن يظهره سبحانه فى وقته المناسب.

وكان هؤلاء ثلاثة كما سيأتى فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢ وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية، وكانوا تخلفوا بلا عذر ولا اعتذار على نية اللحاق به ﷺ، ولكنهم انصرفوا عن هذا لا عن نفاق فلما رجع ﷺ وكان ما كان من كذب المنافقين وتوبة التائبين الذين ربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد كما فى الآية (١٠٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٢٥٩، ولم يكذب هؤلاء ولم يربطوا أنفسهم، أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية التى أبهمت أمرهم، فأصبحوا لايدرون هل يعذبهم كما فعل بالمنافقين أو يتوب عليهم كالمعترفين، وظهرت حكمة هذا الإبهام فى مقاطعة المؤمنين لهم حتى زوجاتهم فى كل شىء حتى فى الكلام كما سيأتى فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢، والله عليم بحال عباده، حكيم فى تربيتهم، وفيما يشرعه لهم، وتركهم على هذا الحال خمسين يوما كما سيأتى.

ثم شرع سبحانه فى بيان مكيدة خطيرة من مكايد المنافقين، كان بعض بسطاء المسلمين سايرهم فيها ليحذر من الوقوع فى مثلها، فقال (والذين اتخذوا مسجدا) إلخ.

ومن المنافقين رجال من الخزرج، وحاصل قصتهم أن رجلا منهم يدعى أبا عامر الراهب كان تنصر فى الجاهلية ولما انتشر الإسلام فى المدينة غضب الراهب وصار يساعد قريشا فى أحد وكل حروبهم، ولما يئس سافر إلى بلاد الروم ليستعين بقيصر، وأوعز إلى اثنى عشر رجلا من أتباعه المنافقين أن يبنوا مسجدا بعيدا عن مسجده ﷺ الكبير ليعدوا فيه مَنْ يساعده عند قدومه بجيش الروم، فلما فرغوا من بنائه أرادوا تغرير المسلمين حتى يكثروا الصلاة فيه فيخدعونهم، فقالوا للنبى ﷺ: يا رسول الله إنا فى أطراف المدينة وعندنا مرضى وعجزة ومَنْ يحول بينهم المطر وبين مسجدك، وقد بنينا مسجدا لتسهل الصلاة فيه على مثل

هؤلاء، ونريد أن تصلى لنا فيه، فوعدهم ﷺ بعد رجوعه من تبوك. فلما رجع أنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات.

فأمر ﷺ بحرقه فحرق وجعل مكانه مزبلة، فهذا ما قال الله فيه: اتخذوا مسجدا لأغراض أربع: الإضرار بالمؤمنين وتقوية الكفر بالتآمر فيه بعيدا عن أعين المؤمنين، والتفريق بين المؤمنين حيث يصلون فى أماكن مختلفة فيسهل عليهم الدس وتمزيق الوحدة، وانتظارا لقدوم من حارب الله ورسوله من قبل فى أحد وغيرها.

وإذا سألت هؤلاء المنافقين عن سبب بناء هذا المسجد فسيحلفون ما أردنا إلا الأغراض الحسنى التى سبق أن قالوها، والله يشهد إنهم لكاذبون فى أيمانهم. لا تقم أيها النبى للصلاة فيه أبدا، وعزتى لمسجد أسس على التقوى أى قصد ببنائه عند وضع أساسه من أول يوم تقوى الله وهو مسجد قباء الذى بناه المسلمون خارج المدينة يوم دخوله ﷺ، أحق أن تقوم فيه، لأن فيه رجال يحبون أن يبالغوا فى تطهير أنفسهم بكثرة العبادة فيه، وبما يلزم ذلك من طهارة أبدانهم وثيابهم، والله تعالى يحب المطهرين بالطهارة المعنوية والحسية، ومن أحبه الله رضى عنه، ونال كل خير.

ثم أبرز سبحانه الفرق بين أهل المسجدين مسجد النفاق، ومسجد الإيمان، فقال: أفمن أسس بنيانه على قصد تقوى الله وطلب رضائه خير أم من أسس بنيانه على طرف بئر متصدع فانهار وسقط به فى نار جهنم، لأنهم ظالمون، والله لا يهدى الظالمين. ومعنى التمثيل هل يستوى مَنْ أسس دينه على قاعدة محكمة هى تقوى الله وطلب رضاه، بمن أسسه على أضعف القواعد وهى الباطل والنفاق الذى لا يثبت، فأوقعه الباطل فى نار جهنم.

المفردات: ﴿ريبة فى قلوبهم﴾: هى الاضطراب الفكرى والحيرة.

﴿ومن أوفى بعهده﴾: من اسم استفهام مشوب بمعنى النفى، أى لا أحد أوفى.

﴿السائحون﴾: تطلق السياحة على مجرد السير فى الأرض كما فى الآية (٢) من سورة التوبة صفحة ٢٣٩، وعلى السير للنظر والاعتبار كما فى الآية (١٣٧) من سورة آل عمران

صفحة ٨٥، والآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣، وتطلق مجازا على جولان الفكر فى ملكوت الله تعالى للعبرة ولو كان الشخص مقيما كما فى الآية (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (٦) من سورة ق صفحة ٦٨٨، وعلى الصيام لأن كلا من السائح والصائم يترك كثيرا من شهواته.

ولما وصفت النساء بها فى الآية (٥) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ رأى البعض أن يكون المراد منها ما يشترك فيه الرجال والنساء وهو الصيام والتفكر.

لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ[1] ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم[2] بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ[3] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ[4] وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ[5] ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ[6] ٱلْعَٰبِدُونَ[7] ٱلْحَٰمِدُونَ[8] ٱلسَّٰٓئِحُونَ[9] ٱلرَّٰكِعُونَ[10] ٱلسَّٰجِدُونَ[11] ٱلْءَامِرُونَ[12] بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ[13] لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ[14] ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ[15] لِأَبِيهِ

﴿ما كان للنبى﴾: (ما كان) تأتى فى القرآن بمعنيين: الأول النفى نحو (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١، والثانى النهى نحو ما هنا وما فى قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩.

المعنى: سيستمر بناؤهم الذى بنوه لأغراض خبيثة مثار شك واضطراب وخوف مستقر فى قلوبهم حتى بعد هدمه من أن يصيبهم المؤمنون بسوء، ولا ينقذهم منه إلا أن تتقطع قلوبهم بالموت. وفى الآية (٦٤) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٥١، و(٤) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣ تصوير لبعض هذا الخوف، والله عليم بأسرار خلقه، حكيم فيما يفعل بهم وبعد

(١) بنيانهم. (٢) أموالهم. (٣) يقاتلون.
(٤) التوراة. (٥) القرآن. (٦) التائبون.
(٧) العابدون. (٨) الحامدون. (٩) السائحون.
(١٠) الراكعون (١١) الساجدون. (١٢) الآمرون.
(١٣) الحافظون. (١٤) أصحاب (١٥) إبراهيم.

ما بين سبحانه حال فريق من المنافقين بلغ الغاية فى الشر، أراد أن يبين فريقا من المؤمنين بلغ الغاية فى الإيمان الكامل فقال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) إلخ؛ مثل سبحانه بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله ومنحهم نظير ذلك نعيم الجنة، بالبيع والشراء، والحقيقة أنه لا بيع ولا شراء؛ لأن الأنفس هو خالقها، والأموال هو رازقها، فالإعطاء منه فضل وكرم، ثم بيَّن سبحانه كيف باع ويبيع المؤمنون أنفسهم فقال: يقاتلون فى سبيل الله، فيقتلون العدو تارة، ويقتلهم العدو أخرى، فهم مثابون على الحالين، وعد بذلك وعدًا حقا أثبته فى الكتب المنزلة الصحيحة، فكل من قتل فى الدفاع عن سبيل الله فله الجنة، ولا أحد أشد وفاء بالعهود من الله، وإذا كان الأمر كذلك فاستبشروا أيها المجاهدون ببيعكم الذى بايعتم به ربكم لأنكم بعتم فانيا بنعيم دائم، ذلك البيع الرابح هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثم بيَّن سبحانه أصحاب هذا البيع فقال: ﴿التائبون﴾ إلخ، أى هم الكاملون فى التوبة، ﴿العابدون﴾أى البالغون النهاية فى العبودية لله تعالى، ﴿الحامدون﴾ فى السراء والضراء، ﴿السائحون﴾ بالصيام والجولان الفكرى فى ملكوت الله لزيادة الاعتبار (الراكعون، الساجدون) أى المصلون الفرض والنفل، ﴿الآمرون﴾ بكل معروف يقره الشرع ويرضاه العقل السليم، ﴿والناهون عن المنكر﴾ وهو ما لا يقره شرع. ثم وصفهم فى النهاية بصفة جامعة وهى ﴿الحافظون﴾ لكل حد من حدود الله وهى شرائعه التى فصلت بين الحلال والحرام كما تقدم فى الآية (٩٧) من هذه السورة صفحة ٢٥٨. وبشر أيها النبى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بما تقدم بنعيم لا يحيط به البيان. ولما كانت عاطفة حب الآباء قوية إلى حد جعلت عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول يطلب منه ﷺ أن يستغفر لأبيه كما تقدم فى الآية (٨٠) من هذه السورة صفحة ٢٥٥، وكان ﷺ كلما تذكر دفاع عمه أبى طالب عنه فى مكة تاقت نفسه الشريفة أن يطلب من الله تعالى التخفيف عنه، وكان بعض الصحابة يستغفرون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، لما كان كل هذا، منعه سبحانه بقوله (ما كان للنبى) إلخ أى ما صح ولا جاز للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين البعيدين، بل ولو كانوا أصحاب قرابة، من بعد ما تبين لهم أنهم ماتوا مشركين، فاستحقوا عذاب الحميم .. ولما كان مما شجعهم أنهم كانوا يعلمون أن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه، بيَّن سبحانه وجه خطئهم، فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) إلخ.

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ[1] لَأَوَّٰهٌ[2] حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ[3] حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[4] وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ[5] وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ[6] ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

المفردات: ﴿لأواه﴾: هو كثير التأوه والتألم.

﴿إذ هداهم﴾: أى بعد أن هداهم.

﴿ساعة﴾: المراد بالساعة هنا مطلق الزمن.

﴿العسرة﴾: هى الشدة والضيق الذى كانوا فيه وقت الشروع فى الغزو من شدة الحر وقلة الطعام والماء، حتى أكلوا التمر المدود، والشعير المسوس، وعصروا كرش البعير ليشربوا ماءه، كما تقدم عند الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٧.

﴿ثم تاب عليهم﴾: الضمير هنا راجع للفريق الذين كادت قلوبهم أن تزيغ. والمراد أنه أحسن توبتهم لأنهم قاوموا الشدائد فحالوا بذلك بين قلوبهم وبين الزيغ.

﴿رءوف رحيم﴾: الرأفة الرفق بالضعيف خاصة، والرحمة أعم.

﴿الثلاثة﴾: هم كعب بن مالك وصاحباه المشار إليهما فى الآية (١٠٦) من هذه السورة صفحة ٢٦٠.

﴿الذين خلفوا﴾: أى تركهم الله ولم يبت فى أمرهم كما بت فى أمر المعترفين.

---

(١) ابراهيم.
(٢) لأواه.
(٣) هداهم..
(٤) السموات.
(٥) والمهاجرين.
(٦) الثلاثة.

﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾: تقدم فى الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٢٤٤.

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾: معنى النفس فى الأصل الذات وأريد بها هنا القلب لأنه به حياة الذات، والمعنى ضاقت قلوبهم على سرورهم فلا يدخلها منه شىء وليس فيها إلا الغم والحزن.

﴿ملجأ من الله﴾: هو المأوى الذى يلجأ إليه الشخص ليقيه ما يتعبه.

﴿ثم تاب عليهم﴾: أى وفقهم لإخلاص التوبة..

﴿ليتوبوا﴾: أى ليستديموا التوبة عند كل ذنب.

المعنى: وما كان استغفار إبراهيم لأبيه مما يدخل فى عموم الأمر باتباعكم له، لأنه لم يكن لسبب من الأسباب إلا لسبب واحد هو أنه كان وعد أباه بأن يستغفر له ربه، انظر الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، و(٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

فلما تبين له أنه عدو له حين مات على الشرك تبرأ منه، إن إبراهيم لكثير التأوه خوفا من ربه وتحسرا على قومه، قوى الحلم الموجب للثبات على ما يرضى الله. ثم أراد سبحانه وتعالى أن يطمئن الذين استغفروا لآبائهم الكفار قبل علمهم بالنهى عنه، وأن يحذر من الوقوع فى معصية بعد العلم بحرمتها فقال: ﴿وما كان الله﴾ إلخ، وما كان من لطف الله بعباده أن يحكم على قوم بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بعد أن هداهم للإسلام حتى يبين لهم بالوحى بيانا صريحا ما يتقونه ويحرم عليهم، إن الله بكل شىء عليم، فيعلم مَنْ يخالف عن جهل أو عن علم، فيجازى كلا بما يستحق، ولايعجز عن المجازاة، لأن له وحده التصرف فى السموات والأرض وما فيهما، يحيى مَنْ يشاء ويميت مَنْ يشاء، وليس لكم من دونه مَنْ يتولى أموركم وينفعكم، ولا من ينصركم بدفع العذاب عنكم إن خالفتم.

ثم رجع سبحانه لتتميم الكلام على التائبين من ذنب التخلف مع تفصيل ما حل ببعضهم ليرتب عليه ما ينتفى أن يعمل مع مَنْ أصر على النفاق ولم يسارع إلى التوبة، فقال: لقد تاب الله على النبى من بعد ما صدر عنه من الإذن للمنافقين كما تقدم فى الآية (٤٣) من هذه السورة صفحة ٢٤٨، وعلى المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى وقت الشدة من كل هفواتهم،

ومنها ما حصل من بعضهم من التثاقل كما تقدم فى الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٧، ومنها سماع بعضهم للمنافقين كما فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٩، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم لتناهى الشدة حتى تثاقل فى الخروج وتخلف بعضهم بغير عذر وهم المذكورون فى الآية (١٠٢) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٥٩، ثم تاب سبحانه عليهم لأنه بهم كثير الرأفة بضعيفهم، واسع الرحمة بهم جميعا، وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفهم الكسل وأخَّر الرسول البت فى أمرهم، وأبهم الله تعالى أمرهم حتى شعروا بأن الأرض ضاقت عليهم مع سعتها، فكأنهم لا يجدون فيها مكانا لشدة قلقهم من مقاطعة المؤمنين لهم وخوفهم من سوء العاقبة، وضاقت قلوبهم عن قبول السرور لامتلائها بالغم والهم، أى أن الضيق لاحقهم فى الأرض وفى القلوب حتى ظنوا أى تيقنوا كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ أن لا ملجأ لهم يقيهم من سخط الله إلا الرجوع إليه بالتوبة ثم وفقهم سبحانه لإخلاص التوبة ليداوموا على التوبة ولا يجعلوا لليأس من رحمة الله عليهم سبيلا، إن الله كثير قبول توبة التوابين واسع الرحمة بالمحسنين وقد حكى كعب بن مالك قصته وما حصل له ولزميليه فى حديث طويل فَصّل فيه كيف قاطعه جميع الناس حتى امرأته وقد كان الإمام أحمد رضي الله عنه إذا قرأ هذا الحديث غلبه البكاء، والحديث رواه البخارى وهو رقم ٤٩٥ من كتابنا صفوة صحيح البخارى..

المفردات: ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾: يقال رغب فى الشىء إذا أحبه، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه. فالمراد ولا يرغبون بإيثار حب أنفسهم عن حفظ نفسه الشريفة.

﴿ظمأ﴾: لقلة الماء كما تقدم.

﴿نصب﴾: أى تعب لبعد المسافة وقلة الركائب.

﴿مخمصة﴾: أى مجاعة لقلة الزاد.

﴿ولا يطئون موطئا﴾: أصل الوطء الدوس بالقدم.. والموطىء مكان الوطء..

﴿ينالون من عدو﴾: أى يأخذون.

ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ[1] ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ[2] مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ[3] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟[4] ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ

﴿نيلا﴾: أصل النيل مصدر نال، والمراد به هنا الشىء المأخوذ.

﴿واديا﴾: الوادى هو المكان المتعرج بين التلال والجبال يشق السير فيه.

﴿لولا﴾: حرف يدل على التحريض على فعل ما بعده.

المعنى: يأيها الذين آمنوا اتقوا الله باتباع ما أمر والبعد عما نهى، وكونوا دائما مع الجماعة الصادقين فى جهادهم وإخلاصهم فى توبتهم وغير ذلك. ثم أراد سبحانه أن يؤكد وجوب الجهاد معه ﷺ وحرمة التخلف عنه إلا بإذنه فقال (ما كان لأهل المدينة) إلخ، أى ما جاز وما صح لأهل المدينة التى هى عاصمة الإسلام ومن حولهم من الأعراب المسلمين أن يتخلفوا عن رسول الله إذا خرج مجاهدا كما حصل فى تبوك ولا يفضلون محبة أنفسهم بالمحافظة عليها على نفسه الشريفة بأن يعرضوها للخطر وهم آمنون. ذلك النهى عن التخلف لما فيه من مصلحتهم الحقة. لأن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى وإن كان قليلا ومن إيذاء للعدو وإن كان صغيرا إنما يكتب الله فى صحف أعمالهم بكل واحد مما ذكر ثواب عمل صالح؛ لأن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم بالإخلاص فيها.. ولا ينفقون فى الجهاد نفقه صغيرة ولو تمرة، ولا كبيرة، ولا يقطعون فى سيرهم للجهاد واديا يصعب السير فيه إلا كتبه الله تعالى فى صحفهم

(١) الصادقين.
(٢) يطئون..
(٣) صالح..
(٤) قاتلوا.

ليجزيهم عليه يوم القيامة أحسن جزاء. ثم أراد سبحانه أن يبين أن الخروج العام لا يكون إلا إذا وجد سببه، كأن يخرج ﷺ بنفسه لغزوة مهمة.

فقال ﴿وما كان المؤمنون﴾ إلخ، فمعنى هذه الآية كما قال ابن عباس وقتادة وغيرهما أن المؤمنين بعدما نزل من الآيات فى توبيخ المتخلفين عن غزوة تبوك كما جاء فى الآيات (٣٨) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٢٤٧ كانوا إذا بعث ﷺ بعثا تسابقوا عن آخرهم إلى النفير وتركوا النبى ﷺ وحده مع قلة قليلة وانقطعوا عن التفقه فى الدين، فأمروا فى هذه الآية أن ينفر للجهاد من كل فرقة طائفة ويبقى سائرهم مع النبى ﷺ بالمدينة ليتفقهوا فيما يجّد من أحكام الدين وما ينزل من القرآن عليه ﷺ فى تلك الفترة فالضمير فى قوله ﴿ليتفقهوا﴾ و﴿لينذروا قومهم﴾ هو للفرقة الباقية مع النبى ﷺ بعد الفرق التى نفرت للجهاد والضمير فى رجعوا للمجاهدين.

والمعنى لينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، ينذرونهم بما حصلوا عليه فى أيام غيبة هؤلاء المسافرين من العلوم التى سمعوها من النبى ﷺ وهم مقيمون معه بالمدينة فالتفقه فى الدين لا يكون إلا ممن هو مع النبى ﷺ الذى هو مصدر الشريعة، والمسافر للحرب ليس أمامه ما يتفقه منه.. فتوزيع الضمائر هنا مفهوم من سياق الكلام..

والمعنى أى وما كان من شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم أن ينفروا جميعا لأمر سهل. فهلا نفر للقتال فى هذه الحال من كل فرقة كبيرة منهم كالقبيلة وأهل المدينة طائفة أى جماعة بقدر الحاجة ليتأتى لجملة المؤمنين التفقه فى الدين بأن يقوم الباقون فى المدينة معه ﷺ بحفظ ما يتجدد نزوله من الوحى، وليعلموا قومهم الذين نفروا للعدو إذا رجعوا إليهم رجاء أن يحذروا مخالفة ما نزل من الوحى وهم غائبون.. وبهذا يكون مجموع المؤمنين قد حافظوا على المصلحتين.

ولما كان القتال شرع لتأمين القائمين بالدعوة، كان الواجب أن يحمى ظهرهم بتطهير الوسط الذى يعيشون فيه من كل ما يخشى منه عليها، فقال سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أى الأقرب فالأقرب، فطهروا المدينة أولا ثم ما حولها، ثم مكة ثم ما حولها، ثم جزيرة العرب، وهكذا، لأن قتال الأبعد مع ترك العدو الأقرب لا يخفى خطره خصوصا مع قوم لا أمان لهم.

وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٢٣﴾ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا[1] فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴿١٢٤﴾ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون[2] ﴿١٢٥﴾ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴿١٢٦﴾ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم[3] من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴿١٢٧﴾ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴿١٢٨﴾ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴿١٢٩﴾

المفردات: ﴿غلظة﴾: المراد بها هنا الشدة فى حال القتال وعدم التساهل، فتشمل الجرأة والصبر.

﴿رجسا﴾: أصل الرجس الشىء القذر، والمراد هنا القذارة المعنوية، وهى الكفر والنفاق.

﴿يفتنون﴾: أى يختبرون حتى يظهر حالهم للناس.

﴿عزيز عليه﴾: أى شديد وشاق على نفسه.

﴿ما عنتم﴾: أى عنتكم والعنت بفتحتين كل مكروه يثقل على النفوس احتماله.

﴿العرش﴾: يراد به مركز تدبير أمور الخلق ولا تعلم حقيقته، انظر الآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

المعنى: ولتكونوا فى حال الحرب أشداء بعيدين عن التهاون مع الأعداء حتى يشعروا بقوتكم فينزجروا عن حربكم. واعلموا أن الله مع المتقين لمخالفته بالعون والتأييد. وما تقدم فى الآية ٧٣ من هذه السورة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤ يدل على دخول المنافقين فى الكفار المأمور بالشدة معهم. كل بحسبه. ولذا ذكر بعد الأمر بالشدة هنا بعض جرائم المنافقين لتبرير القسوة معهم فقال ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ إلخ: أى ومن أحوال المنافقين الشنيعة أنهم كانوا

---

(١) إيمانا.
(٢) كافرون.
(٣) يراكم.

إذا أنزلت سورة من القرآن عليه ﷺ فمن هؤلاء المنافقين خبثاء يقولون مستهزئين لضعفاء الإيمان للتشكيك ولإخوانهم المنافقين ليثبتوا على النفاق، يقولون مستهزئين: من فيكم زادته هذه السورة إيمانا؟

وأجاب سبحانه عن سؤالهم ليحزنهم بقوله: فأما الذين آمنوا إيمانا صادقا فزادتهم السورة يقينا واطمئنان قلب، وهم يستبشرون بنزولها، لأنه سبب لزيادة درجاتهم وأما الذين فى قلوبهم مرض النفاق فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم السابق، واستمروا عليه حتى ماتوا وهم كافرون.

ثم وبخهم على غفلتهم بقوله ﴿أو لا يرون﴾ إلخ: أى أجهلوا ولا يعلمون أنهم يفتنون بالجهاد معه ﷺ، ويعاينون انتصاره فى كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون عما هم فيه ولا يعتبرون بأن ما حصل لم يكن إلا بتأييد الله تعالى. ولما فرغ من حالهم عند نزول السورة وهم بعيدون عن مجلسه ﷺ، أراد أن يبين حالهم وهم بمجلسه الشريف.

فقال: وإذا ما أنزلت سورة تبين بعض جرائمهم أو تطلب الجهاد كما فى الآية (٢٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٥، نظر بعضهم إلى بعض ليتفقوا على الهرب كراهة سماعها قائلين: هل يراكم إذا انصرفتم أحد! ثم انصرفوا من مجلسه ﷺ عند وجود الفرصة، صرف الله قلوبهم عن الإيمان لإصرارهم على النفاق بسبب عدم فهمهم الصحيح!

ثم خاطب سبحانه العرب جميعا ليوبخ من حاربه ﷺ منهم فقال ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أى عربى مثلكم شديد على نفسه مشقتكم وما ينالكم من سوء العاقبة، انظر أول سورة الكهف صفحة ٣٨٠، حريص على إيمانكم وصلاح حالكم، بالمؤمنين منكم ومن غيركم، رءوف رحيم. تقدم بيانهما فى الآية (١١٧) من هذه السورة صفحة ٢٦٢.

ثم وجه سبحانه الخطاب له ﷺ تسلية له وتطمينا فقال: ﴿فإن تولوا﴾ إلخ: أى فإن أعرضوا عن الإيمان بك فقل لهم حسبى الله، أى كافينى كل شر، فهو خير لى منكم، لا إله إلا هو عليه وحده توكلت فلا أعول على غيره، وهو رب العرش العظيم، لا يعلم مقدار عظمته غيره سبحانه.